eclipse

خسوف

ستيفاني ماير

ستيفاني ماير



ترجمة: أمال نعيم الحلبي

سما للنشر

- الكتاب: **خسوف**
- المؤلف: ستيفاني ماير
- المترجمة: أمال نعيم الحلبي
- الطبعة الأولى، 2009
- ISBN: 978-9953-68-404-9
- الناشر: **سما** للنشر
- العنوان: 10 شارع أبو فراس الحمداني

الدار البيضاء - المغرب

Email: sama@menara.ma

هاتف: 06 36 28 0522

بيروت

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف: 352826-01 فاكس: 343701-01

بيروت

ص. ب: 5158-113

هاتف: 352826-01 فاكس: 343701-01

Email: cca@ccaedition.com

الدار البيضاء

42 الشارع الملكي (الأحباس)- ص.ب: 4006 (سيدنا)

هاتف: 39 33 30 0522 فاكس: 26 57 30 0522

Email: markaz@wanadoo.net.ma

ستيفاني ماير

خسوف

يتضمن هذا الكتاب ترجمة عن النص الإنكليزي لكتاب:
Original Title: **Eclipse**
Author: **Stephanie Meyer**
This edition published by arrangement with
Little, Brown and Company, New York, New York, USA.
Hachette Book Group, Inc.

المحتويات

تمهيد

كلّ محاولاتنا لاعتماد الحيلة باءت بالفشل!

بقلبٍ بارد كالجليد كنت أراقب استعداده للدفاع عنّي، وعلى الرّغم من تفوّق العدو العددي فإنّ درجة تركيزه العالية لم تترك عندي أيّ شكّ. كنت متيقّنة من عدم توافر المساعدة، إذ كانت عائلته منهمكة مثله في الدّفاع عن حياة أفرادها في ذلك الوقت.

هل ستتسنّى لي معرفة نتيجة تلك المعركة؟ هل سأبقى حيّة لأرى من سيربح ومن سيخسر؟

إنّه احتمالٌ صعب...

كانت العيون السوداء تزداد توحشّاً في ظمئها الشّرس إلى موتي. كانت ترقب لحظة انشغال حارسي عنّي، لتكون تلك لحظة موتي المؤكّد.

من مكانٍ بعيد، بعيد جدّاً داخل الغابة الباردة، ارتفع عواء ذئب.

1

إنذار

بيلاّ،

~~لا أدري لماذا ترسلين إليّ رسائل ينقلها إليّ تشارلي عبرَ بيلي، كما~~

~~لو كنا في الصفّ الثاني — لو أردت التكلّم إليك لجاوبت عن تلك~~

~~إنّك قد اخترتِ، أليس كذلك؟ حسناً، لا يمكنك الحصول على~~

~~الخيارين معاً عندما~~

~~ماذا في «الأعداء المميتين» يصعب عليك~~

~~انظري، أعلم أنني أتصرّف بحماقة، ولكن ليس هناك حلٌّ آخر~~

~~لا يمكن أن نكون أصدقاء فيما أنت تقضين معظم أوقاتك بصحبة~~

~~زمرةٍ من~~

~~تزداد الأمور سوءاً مع ازدياد تفكيري بك، لذا توقفي عن الكتابة~~

نعم، أشتاق إليكِ أيضاً، وكثيراً. لكنّ ذلك لا يغيّر في الواقع شيئاً. آسف.

جايكوب

مررت بأصابعي فوق تلك الصفحة فلمست نتوء الورق، إذ كاد يُثقب من فرطِ ضغطِ قلمه. كان بإمكاني تصوّره وهو يكتب هذه

الكلمات السّاخطة - يخربشها بخطّ يده، ثمّ يشطبها عندما تبدو له غير معبّرة بما يكفي؛ قد يكون حطَّم القلم في قبضة يده الضخمة وهذا يفسّر لطخات الحبر على الصفحة. أتخيّله يُقطب حاجبيه السوداوين غضباً فينقبض جبينه. لو كنت أمامه لربّما ضحكت وقلت له: «لا تعرّض نفسك لنزيفِ دماغي، أفصح عمّا في داخلك يا جايكوب ولا تتردّد».

لكنّ الضّحك هو آخر ما أرغب به الآن، وأنا أعيد قراءة تلك الكلمات التي حفظتها. لم يفاجئني جوابه على الرسالة التي دافعت فيها عن نفسي، والتي أرسلتها إليه عن طريق تشارلي وبيلي، كما يفعل الأطفال في الصف الثاني بحسب تشبيهه؛ لأنّني توقّعت فحوى رسالته قبل قراءتها.

ما فاجأني حقّاً هو الألم الذي أصابني بسبب تلك السطور التي شطبها، وكأنّ نقاط حروفها سكاكين جارحة؛ وشعرت بأنّ وراء كل بداية فقرة غاضبة مستنقعٌ كبير من الألم. كان جرح جايكوب أشدّ إيلاماً لي من جرحي.

أطرقت أفكّر إلى أن أيقظتني فجأةً رائحة احتراق طعام تتصاعد من المطبخ. في الواقع، لو كنت أعيش في منزلٍ آخر، لما أرعبني أن يقوم غيري بتحضير وجبة العشاء.

أدخلت الورقة في جيبي الخلفي وهبطت إلى الطابق السفلي بأقصى سرعة.

كانت علبة صلصة المعكرونة التي وضعها تشارلي داخل فرن المايكرويف قد بدأت ترتجّ وتثور، ففتحت باب الفرن وأخرجتها على الفور.

«ما هو الخطأ الذي ارتكبته؟» سأل تشارلي.

«كان ينبغي أن تنزع الغطاء عن العلبة أوّلاً يا أبي. لا يصحّ إدخال المعادن إلى فرن المايكرويف». كنت أكلّمه وأنا أفتح تلك العلبة بسرعة

وأفرغ نصف محتواها في وعاءٍ آخر. أدخلت الوعاء إلى الفرن، وضبطت الوقت وضغطت على زرّ التشغيل، ثمّ أعدت إغلاق العلبة ووضعتها في البرّاد.

بشفتين مزمومتين كان تشارلي يراقب تحرّكاتي: «أنظري إلى المعكرونة، ما رأيك؟».

نظرت إلى القِدْر الموضوعة على النار، مصدر الرائحة التي استعجلت نزولي إلى المطبخ، وقلت بلطف: «إنّها تحتاج إلى التحريك». ثمّ أخذت ملعقة ورحت أفتّت الكتلة اللّزجة التي التصقت بالقعر.

أطلق تشارلي تنهيدةً، فبادرت إلى طرح السؤال: «ما المقصود من كلّ هذا؟».

وقف مكتوف الذراعين ينظر من خلال النافذة الخلفية إلى المطر المتساقط بغزارة، ثمّ قال مدمدماً: «لا أعرف عمّا تتكلمين؟».

شعرت بالارتباك. لماذا يطبخ تشارلي؟ ولمَ هذه الفظاظة برغم أنّ إدوارد لم يأتِ بعد. اعتاد أبي أن يتصرّف على هذا النحو في حضور صديقي الحميم إدوارد، فهو يسعى دائماً لإفهامه بأنّه غير مرغوبٍ به، فلا يُهمل حركة ولا كلمة من شأنها إيصال هذه الرسالة. لكن تلك الجهود لم تكن ضرورية، إذ لم يغِب أبداً عن إدوارد كلّ ما كان يدور في ذهن أبي.

لا تحمل عبارة «الصديق الحميم» معنى العلاقة التي تربطني بإدوارد. إنّني أفتّش عن عبارة تحمل معنى العلاقة الأبدية التي بيننا، وتشير إلى حتمية القدر الذي يجمعنا... لكن قد تبدو تلك العبارة شديدة الغرابة في الكلام العادي. تابعت تحريك الطعام بتوتّر.

أمّا إدوارد فهو يقترح كلمة «خطيب». لكنّي لا أتقبّل هذه الكلمة أبداً، وأفضّل ألاّ أفكّر بذلك الأمر في الوقت الحاضر.

«ماذا يجري فجأةً؟ منذ متى تحاول إعداد الطعام بنفسك؟» قلتُ هذا، وثقبت كتلة المعكرونة فخرجت منها فقاقيعُ من الهواء. . .

أجاب تشارلي: «لا يوجد قانون يمنع الانسان من إعداد الطعام في بيته».

فقلت: «بالطبع. . . لو كان هناك قانون كهذا، لكنتَ أوّل من عرفه. . .» قلت ذلك ونظرت إلى شارة البوليس التي كانت لا تزال معلّقة على سترته الجلدية.

قال: «إنّكِ على حقّ!»، ثم قام بنزع الشّارة عن سترته ليضعها في المكان المخصّص لها إلى جانب بقيّة العدّة. كان الحزام الذي يحمل مسدّسه معلّقاً هناك منذ بضعة أسابيع. لم يشعر أنّه بحاجة إلى ارتدائه، منذ توقّفت حالات الاختفاء الغامضة التي أقلقت بلدة فوركس في ولاية واشنطن طيلة فترة من الزمن. ولم يعد يلمح السكّان أيّ ذئابٍ مخيفة في الغابة الممطرة منذ ذلك الوقت.

تابعت الاهتمام بكتلة المعكرونة بصمت، كي أعطي تشارلي فرصة الكلام عن الأمر الذي يقلقه. لم يكن أبي كثير الكلام، لكنّي شعرت أنّه كان يعدّ نفسه لحديثٍ طويل معي، لذلك حاول تحضير وجبة العشاء كي نجلس معاً إلى الطاولة.

كنت لا أتوقّف عن مراقبة الساعة في هذا الوقت من كلّ يوم - لم يبقَ أمامي سوى نصف ساعة من الانتظار، ريثما يحين موعد قدوم إدوارد.

وكانت فترة بعد الظهر أصعب من كلّ ساعات النهار، فمنذ أن أفشى صديقي المفضّل والسابق «الرّجل الذئب» جايكوب بلاك إلى أبي تشارلي سرّ ركوبي الدرّاجة النّارية خلسةً - أظن أنّ جايكوب فعل ذلك عمداً كي يعاقبني أبي ويمنعني عن الخروج مع صديقي الحميم «مصّاص

الدماء» إدوارد كولن - منذ ذلك الوقت، لم يُسمح لإدوارد بزيارتي في المنزل سوى بين الساعة السابعة والتاسعة والنصف مساءً، وتحت المراقبة الشديدة.

كانت هذه العقوبة أكثر تشدّداً من تلك التي نلتها على أثر غيابي المفاجئ وغير المبرّر عن البيت لمدّة ثلاثة أيّام، وكذلك، بسبب ممارستي القفز عن الصخور.

كنت ألتقي إدوارد يومياً في المدرسة، فهذا أمر لا قدرة لتشارلي على منعه. وكان إدوارد يمضي كلّ ليلة تقريباً معي، فيدخل إلى غرفتي خفيةً عبر النافذة في الطابق العلوي؛ فهو يستطيع تسلّق الجدران بسهولة وخفّة، ومن دون إحداث أيّ ضجّة، كما أنه قادرٌ على قراءة أفكار أبي.

لم أكن أبتعد عن إدوارد سوى بعد الظهر، ومع ذلك، كنت أجد الساعات تمرّ ببطءٍ شديد في انتظار المساء. لكنّي احتملت القصاص الذي فرضه عليّ والدي من دون تذمّر، لاعترافي بخطئي في الدرجة الأولى، وثانياً، لعدم رغبتي في الانفصال عن تشارلي وإيذاء مشاعره في ذلك الوقت. كفاني حزناً أنّ موعد انفصالنا الدائم والذي لا يعلم عنه شيئاً قد بدأ يلوح أمامي في الأفق القريب.

جلس أبي أمام الطاولة، وفتح الجريدة اليومية كعادته كلّ مساء. لم تمضِ ثوانٍ حتى راح يهزّ رأسه استنكاراً، فقلت: «لمَ لا تتوقّف عن قراءة الجريدة يا أبي، إنّها تعكّر مزاجك».

ومن دون أن ألقى جواباً، سمعته يُدمدِم غاضباً: «لا عجب أنّ كلّ الناس تفضّل السكن في المدن الصغيرة... يا له من أمرٍ غريب!».

قلت: «ما المشكلة حول المدن الكبيرة مجدّداً؟».

أجاب: «على الأرجح، أن عقوبة الإعدام في الولايات المتحدة الأميركية ستكون هذه المرّة من نصيب أحد سكّان مدينة سياتل...

خمس جرائم قتل غامضة في الأسبوعين الماضيين. تصوّري إمكانية العيش في مثل هذه الأجواء...».

«كنت أعيش في فينيكس، وهي تفوق سياتل بنسبة الجريمة». وتابعت في نفسي: «لم أتعرّض لخطر الموت في حياتي سوى في هذه المدينة الصغيرة، وما زالت جهات عديدة تخطّط لقتلي حتى الآن...». ارتجفت يدي بسبب هذه الأفكار فتوقّفت عن تحريك المعكرونة.

رفعت القدر عن النار واستعنت بسكين وقطعت جزءاً من المعكرونة وقدمته إلى تشارلي، الذي ما لبث أن غطّاها بالصلصة؛ ثمّ وضعت جزءاً آخر في طبقي. باشرنا بتناول الطعام، إلاّ أنه لم يتوقّف عن قراءة الجريدة، فأخذت بدوري كتاب «مرتفعات وذرينغ» وتابعت القراءة من حيث توقّفت في الصباح، بانتظار أن يكمل تشارلي استعداده للكلام.

وما هي إلاّ ثوانٍ حتى رمى أبي الجريدة من يده، وقال: «أصبتِ، هناك سبب وراء محاولتي تحضير العشاء بنفسي»، مشيراً بالشوكة إلى الطبق أمامه، «أردت التحدّث إليك».

وضعت الكتاب جانباً وقلت: «كان بإمكانك التحدّث إليّ مباشرةً ومن دون كلّ هذا العناء». فقال: «ظننت أنّ ذلك ربّما يجعلك أكثر ليونةً...». قلت ضاحكة: «لقد وُفّقت في ذلك! ها إنّ مهارتك بالطبخ جعلتني بليونة الملبن... هات ما عندك يا أبي، كلّي آذان صاغية».

«الأمر يتعلّق بجايكوب»، قال.

شعرت بعضلات وجهي تتقلّص، وقلت بلهجةٍ جافّة: «ماذا عنه؟».

«تمهّلي يا بيلاّ... لا يستدعي الأمر كلّ هذا الغضب فهو لم يخبرني عن ركوبك الدرّاجة خلسةً إلاّ بدافع شعوره بالمسؤولية!».

أدرت عينيّ سأماً: «ها...شعوره بالمسؤولية!... ماذا عنه الآن؟».

وتردّد السؤال في رأسي: «ماذا عن جايكوب...؟». قصّتي مع

جايكوب هي أبعد ما تكون عن التفاهة. بعد أن كان أعزّ صديقٍ لي، بات الآن عدوّي.

وتابع تشارلي بتردّد: «لا تغضبي ممّا سأقوله لك الآن. الأمر يتعلّق ايضاً بإدوارد».

سألت مستغربة: «وماذا عن إدوارد؟».

فأجاب: «إنّني أسمح لك باستقبال إدوارد في بيتنا، أليس كذلك؟».

قلت: «بلى، لكن لوقتٍ قصير فحسب... وستسمح لي بالنزهة في بعض الأوقات لأنّ سلوكي جيّد، أليس كذلك؟». طرحت الفكرة بلهجة المزاح، إذ كنت متأكّدة أنّه لن يسمح لي بالخروج بعد الظهر حتى انتهاء السنة الدراسية.

«حسناً، أريد الوصول إلى شيءٍ من هذا القبيل». قال ذلك، وأشرق وجهه فجأةً بالابتسام.

«ماذا تقول يا أبي؟ وعمّن تتكلّم هنا بالضبط، عن جايكوب أو عن إدوارد أو عنّي؟». قلت ذلك بعد أن لاحظت شيئاً مطمئناً في حديثه.

عاد الابتسام إلى وجهه: «عنكم أنتم الثلاثة تقريباً».

«كيف ذلك؟» سألت بحذر.

«حسناً، كنت أفكّر أنّك ربّما تستحقين فرصة جديدة، لقد التزمت بسلوكٍ لا بأس به، ولم تزعجيني بكثرة الشكوى، كما كنت أتوقّع من فتاة مراهقة مثلك»، قال ذلك رافعاً ذراعه وكأنّه يعلن استسلامه.

انطلقت بأعلى صوتي بتعجّب شديد: «هل أنت جادٌّ في ما تقول...؟ هل أنا الآن حرّة؟».

كيف حصل هذا التغيير المفاجئ؟ لم أكن أتوقّع نيل حريتي قبل موعد مغادرتي البيت نهائيّاً، حتى أنّ إدوارد لم يقرأ الميل إلى هذا التغيير أبداً في أفكار أبي.

لكنّ تشارلي ما لبث أن رفع إصبعه معلناً: «لكنّ حرّيتك هي رهن بعض الشروط».

«عظيم! وما هي؟».

«بيلاّ، أنت حرّة الآن لكنّي أطلب منك أن تكوني عادلة».

«ماذا تعني؟».

«أعلم أنّك تميلين إلى قضاء كلّ وقتك مع إدوارد».

«لكنّي أقضي بعض الوقت مع آليس أيضاً». لم يفرض عليّ تشارلي أيّ قيود بشأن آليس. كان بإمكانها الدخول إلى بيتنا ساعة تشاء.

«هذا صحيح». قال أبي، «لكن، لديك أصدقاء آخرون إلى جانب عائلة كولن، أم أنّهم أصبحوا جزءاً من الماضي بالنسبة إليك. . .؟».

ثمّ سألني بعد برهة: «متى كانت آخر مرّة تكلّمت فيها إلى آنجيلا ويبر؟».

أجبت: «كان ذلك يوم الجمعة الماضي».

قبل عودة إدوارد، انقسم حولي الرّفاق في المدرسة إلى فريقين، بحسب تقبّلهم للألم الشديد الذي أصابني بسبب غيابه. فاعتبرت أنّ سبب انقسامهم هو التضارب الطبيعي بين قوى الخير والشر. واعتبرت أنّ فريق الخير هو الذي يضمّني إلى جانب آنجيلا وصديقها الحميم بن تشيني، ومايك نيوتن. أمّا فريق الشرّ، فكان محوره لورين مالّوري، وجيسيكا ستانلي، أوّل صديقة تعرّفت إليها في بلدة فوركس والتي قرّرت أن تقف ضدّي، وجميع الآخرين.

وزادت حدّة هذا الانقسام بعد عودة إدوارد.

لا أنكر أنّ صداقتي لإدوارد أبعدت مايك عنّي إلى حدٍّ بعيد. أمّا آنجيلا وبن فلم يتأثرا بذلك، برغم النفور العام الذي تشعر به غالبية الناس العاديين ضدّ عائلة كولن. آنجيلا ثابرت على الجلوس إلى جانب آليس خلال فرصة الظهر، وبدت مرتاحةً جدّاً معها. ليس من السهل أن

يقاوم الانسان جاذبية أفراد عائلة كولن، إذا ما أعطى لنفسه فرصة التقرّب منهم.

«وبمن تلتقين خارج المدرسة؟»، سألني تشارلي، فأعادني من شرودي إلى اللّحظة الحاضرة.

«لا ألتقي بأحد خارج المدرسة... تذكّر أنّك لا تسمح لي بالخروج. آنجيلا تقضي الوقت مع بن فهما دائماً معاً. لو كنت تسمح لي بالخروج ربّما...»، وأنهيت جملتي بلهجة الشكّ.

«حسناً، حسناً ولكن...»، ثمّ أكمل: «وماذا عن جايكوب؟ كنتما... أكاد أقول متلاصقين، ماذا حصل الآن؟».

قاطعته فوراً وقلت: «أرجو أن تقول ما تريد بصراحة يا أبي، ما هي شروطك بالتحديد؟».

«ليس من المقبول أن تتخلّي عن جميع أصدقائك من أجل إدوارد». قال ذلك بصوتٍ صارم. «من الأفضل أنّ تتركي مكاناً لبعض الآخرين في حياتك فتحافظي على التوازن. تذكّري ما حصل في شهر أيلول الماضي...».

أجفلني قوله... وتابع موضّحاً: «لو كان هناك آخرون في حياتك إلى جانب إدوارد كولن، لما حصل لك ما حصل».

أجبته: «لو كان هناك آخرون لما غيّروا في الأمر شيئاً».

«قد تكونين على حقّ في ذلك، وقد تكونين مخطئة».

«ما هي النقطة التي تريد أن تصل إليها يا أبي؟».

«استفيدي من حريتك وعودي إلى جميع أصدقائك. كوني أكثر اعتدالاً».

أومأت برأسي موافقةً. وقلت ببطء: «اتّفقنا على الاعتدال... هل هناك شروط أخرى؟».

«لا أريد تعقيد الأمور. كلّ ما أريده هو أن لا تهملي أصدقاءك. . .».

كانت مسألة أصدقائي مصدر عذابي وحيرتي. . . لن أرى هؤلاء الأشخاص بعد تخرّجي، حفظاً لسلامتهم. وكنت أطرح السؤال على نفسي: «هل من الأفضل أن أنعم بصداقتهم خلال هذه الفترة المتبقية، أم أحضّر نفسي، وأحضّرهم للفراق تدريجاً. . . من الآن؟». وكنت أميل للحلّ الثاني.

«. . . وخاصّةً جايكوب»، أضاف تشارلي.

قلت: «موضوع جايكوب قد يكون صعباً».

«عائلة بلاك هم أنسباؤنا تقريباً، بيلّا! ولا تنسي أنّ جايكوب كان دائماً صديقك المخلص».

«أعلم ذلك».

«ألا تشتاقين إليه؟».

شعرت بانقباضٍ مفاجئ في حنجرتي، وبصوتٍ ضعيف قلت: «نعم، إنّي أشتاق إليه. . . أشتاق إليه كثيراً».

«أين هي الصعوبة إذاً؟».

لم أكن أملك الحرية لتفسير هذا الأمر. لم يكن مسموحاً للنّاس العاديين، مثلي ومثل تشارلي، أن يعرفوا عن العالم الخفيّ المليء بالوحوش الأسطورية المحيط بنا في السرّ.

كنت أعرف كلّ شيء عن هذا العالم ولكنّ تلك المعرفة جلبت عليّ كثيراً من المتاعب؛ لذا أرفض أن أدخل تشارلي في الدوّامة نفسها.

أجبت بترويّة: «الصعوبة، يا أبي، تكمن في أنّ جايكوب لا يكتفي بأن تقف علاقتنا عند حدّ الصداقة. . .، إنّه يريدها أن تتطوّر إلى مستوىً آخر». كان هذا العذر صحيحاً، لكنّه واهياً بالنسبة إلى حقيقة سبب ابتعادي عن جايكوب.

الحقيقة هي أنّ مجموعة «الرّجال الذئاب»، التي ينتمي إليها جايكوب، تضمر العداء الشديد لعائلة إدوارد، «مصّاصي الدّماء»، التي كنت على كامل الاستعداد للانضمام إليها؛ من هنا كان ابتعادي عن جايكوب ضروريّاً. لكن، كان من الصعب إفهامه هذا الأمر عن طريق الرسائل القصيرة ولم يكن يردّ على مكالماتي الهاتفية، لذا كنت أفكّر في مقابلته ومناقشة الموضوع معه وجهاً لوجه وبالطّبع، أثارت فكرتي هذه مخاوف كبيرة لدى مصّاصي الدّماء.

«هل يخاف إدوارد من المنافسة المشروعة؟»، قال أبي ذلك بشيء من السخرية هذه المرّة.

فأجبته بلهجةٍ جافّة: «لا مجال للمنافسة».

«ابتعادك عن جايكوب يؤذي مشاعره إلى حدٍّ كبير. قد يفضّل المحافظة على الصداقة بينكما، على أن تنتهي علاقتكما إلى لا شيء».

«إنّي متأكّدة أنّ جايكوب لا يريد أن نبقى أصدقاء». قلت ذلك وشعرت بالكلمات تحترق على لساني. وأكملت: «على كلّ حال، كيف وصلتك هذه المعلومات عنه؟».

أجاب تشارلي مرتبكاً: «كنت أتحدّث مع بيلي اليوم، وتطرّقنا بالصدفة إلى هذا الموضوع...».

«أنت وبيلي تثرثران مثل العجائز». قلت ذلك، وغرزت بالشوكة كتلة المعكرونة فأصبتها في العمق.

«بيلي مشغول البال على جايكوب لأن هذا الأخير حزينٌ جدّاً... إلى درجة الإحباط».

فوجئت بهذا الخبر، إلاّ إنّي تابعت النظر إلى صحن الطعام أمامي.

وأكمل تشارلي بحسرة: «... كنتِ دائماً تبدين سعيدة بعد قضاء النهار مع جايك».

«إنّي سعيدة الآن». خرجت تلك الكلمات من فمي بغضب.

وإذا بحبل التوتّر بيننا ينقطع فجأةً بالضّحك الذي أثاره التناقض الفاضح بين معنى الكلام الذي صدر عنّي، واللّهجة الغاضبة التي حملته. عندها قلت مبتسمة: «حسناً، حسناً، أوافقك الرأي. يجب أن أحافظ على الاعتدال».

وعاد ليؤكّد: «لا تنسي جايكوب».

قلت: «سأحاول».

«حسناً. لقد تذكّرت! وصلتكِ رسالة. إنّها على الطاولة في غرفة الجلوس».

لم أتحرّك من مكاني. كانت أفكاري تدور حول جايكوب، ولم أتحمّس لمعرفة مصدر الرسالة، فقد وصلتني رسالة من أمي في الأمس. قام تشارلي من مكانه وعاد والرسالة في يده.

كانت من جامعة آلاسكا.

أخذتها ولاحظت أنّها مفتوحة.

قال: «أعذريني. لم أستطع مقاومة فضولي».

فأجبته مداعبة: «ها أنتَ اقترفت مخالفة يعاقب عليها القانون».

فتحت الرسالة ووجدت في داخلها لائحة البرامج وأوقاتها. قال تشارلي بحماسة: «مبروك! لقد قُبل طلب انتسابك».

«شكراً يا أبي».

وتابع بالحماسة نفسها: «والآن، لنتكلّم عن الرّسوم. لديّ بعض المال في حساب التوفير».

قلت: «كلّا لن أوافق على أن تصرف المال الذي وفّرته لسنّ التقاعد. سوف أدفع من التأمين المخصّص لرسوم دراستي الجامعية». وتابعت في نفسي: «ما تبقّى من ذلك المال... لم يكن المبلغ كبيراً في الأساس».

وأصرّ تشارلي: «بعض الجامعات تفرض رسوماً عالية وأنا أودّ مساعدتك. لا أوافق أن تختاري جامعة بعيدة جدّاً مثل آلاسكا، ليس سوى من أجل رسومها المنخفضة».

في الحقيقة لم تكن رسوم هذه الجامعة منخفضة أبداً. لكنّ آلاسكا بعيدة جدّاً. والعتمة تظلّل مدينة جونو معظم أيّام السنة. كان بعدُها يناسبني، أمّا العتمة فتناسب إدوارد.

«لا تخف، أنا قادرة على دفع الرسوم، إضافةً إلى سهولة الحصول على مساعدة مالية من الجامعة هناك». قلت ذلك، وخفت أن يكتشف كذبي، إذ لم أقم بأيّ بحث حول هذا الموضوع.

«ثمّ. . .» أراد أن يقول شيئاً، لكنّه أطبق شفتيه ونظر بعيداً.

سألته: «ثمّ ماذا؟».

«لا شيء، كنت أفكّر. . . ما هي مشاريع إدوارد في السنة القادمة يا تُرى. . .؟».

أطرقت أبحث عمّا أقوله ولكن، في تلك اللحظة، سمعنا طرقات إدوارد المعهودة على الباب، فتنفّست الصّعداء. أدار تشارلي عينيه متضايقاً، أما أنا فقفزت صوبَ الباب.

وانطلق صوتي عالياً: «أنا قادمة!» كان تشارلي يدمدم شيئاً مثل «إذهب عنّا»، لم أُعِر ما قاله اهتماماً، وأكملت خطواتي كي أفتح الباب.

كنت بغاية الحماسة للقائه. ها هو يدخل. . . إنّه المعجزة الخاصّة بي. تسحرني ملامحه كلّما لقيته وكأنّني أنظر إليه لأوّل مرّة: بشرته البيضاء النّاصعة ودقّة خطوط وجهه واستقامتها، واستدارة شفتيه المكتنزتين التي ترسم أمامي الآن ابتسامةً أخّاذة. أمّا عيناه فواسعتان ومحاطتان برموشٍ سوداء كثيفة، يلمع في داخلهما سائل ذهبيّ لا أدرك سرّه. عندما أنظر إلى عينيه، أرحل إلى عالمٍ خارق، فأتوقّف عن التنفّس وينقطع حبل أفكاري.

لا شكّ أنّه لو تسنّى لأكثر الرّجال جاذبيةً في العالم الحصول على وجه إدوارد لدفعوا مقابل ذلك ثمناً قد يوازي أرواحهم. . . ولعلّ الثمن المطلوب هو حقّاً: الرّوح.

لا. . . إنّي لا أعتقد ذلك، حتّى إنّي أشعر بالذنب عندما تراودني مثل هذه الأفكار. . . لكن ما يفرحني جدّاً هو كون إدوارد لا يستطيع قراءة أفكاري. إنّه يعتبرني الأكثر تميّزاً وغموضاً.

مددت يدي إلى يده فتنفّست الصعداء عندما لامست أصابعي أصابعه الباردة. وشعرت بالرّاحة وكأنّي كنت أعاني من ألمٍ وشفيت منه للتوّ.

رفع أصابعنا المتشابكة ولمس خدّي بظاهر يده وقال: «كيف أمضيت بعد الظهر؟».

أجبت: «كان مملاًّ».

قال: «كان كذلك بالنسبة لي أيضا».

كانت يدانا لا تزالان متشابكتين، عندما رفع معصمي إلى أنفه وأخذ يتنشّق رائحة جلدي مغمضاً عينيه، متبسّماً بلطفٍ من غير أن يفتحهما، وكأنّه يتنشّق عطر نبيذٍ غالي الثمن قبل تذوّقه كما وصف لي ذلك ذات مرّةً.

كنت أعلم أنّ رائحة دمي تجتذبه أكثر من رائحة دم أي إنسان آخر، وأعلم أيضاً شدّة الظمأ الذي يعاني منه لدى تنشّقها. لم يعد يخجل كثيراً من إظهار هذه الحقيقة أمامي كما في الماضي، لكنّي أتخيّل الجهد العظيم الذي يبذله في هذه اللّحظة.

إنّي أحزن لعذابه، ولكن. . . لن يدوم هذا الحرمان طويلاً.

سمعت وقع خطوات تشارلي يقترب، وكان يتعمّد إحداث ضجّة بقدميه حين يمشي تعبيراً عن استيائه. تنبّه إدوارد لقدومه وسارع إلى

تحيّته بتهذيب شديد كالعادة. وكالعادة أيضاً، بادله تشارلي التحية بجفاء، ووقف مكتوف الذراعين يراقبنا بدقّة.

قال إدوارد: «لقد أحضرت لك مجموعة جديدة من طلبات الانتساب». وسلّمني مغلّفاً سميكاً وعدداً من الطوابع.

تململت، وقلت في نفسي: «سئمت من هذا العمل، ألم تنتهي مدّة تقديم الطلبات بعد؟».

فأجابني وكأنّه استطاع أن يقرأ أفكاري هذه المرّة: «ما زال هناك وقت بالنسبة لبعض الجامعات، وهناك مجال للفرص الاستثنائية».

أعلم معنى الفرص الاستثنائية، وكم تكلّف من مالٍ إضافي.

ضحك إدوارد لشعور الحزن الذي بدا على وجهي وقال: «تعالي لنبدأ العمل».

قمت بتنظيف الطاولة بسرعة، وأخرج إدوارد الطلبات من المغلّف ورتّبها. ثمّ نظر إليّ فيما كنت أعيد كتاب «مرتفعات وذرينغ» إلى مكانه وهمّ بالتعليق، إلاّ أنّ تشارلي سأل مقاطعاً: «. . . في معرض الكلام عن الجامعات، هل قرّرت أين ستكمل دراستك؟».

أجاب إدوارد بابتسامة: «لم أقرّر بعد، لكن وصلني عدد من رسائل القبول».

«ما هي الجامعات التي قبلت طلب انتسابك؟».

«سيراكوز. . . هارفرد. . . دارتموث. . . ووصلتني اليوم رسالة قبول من جامعة آلاسكا». ثمّ أدار وجهه جانباً وغمزني بطرف عينه، فتمالكت نفسي عن الضحك.

«هارفرد، دارتموث»، لم يستطع تشارلي إخفاء إعجابه. «بالطّبع، أنت لن تفضّل آلاسكا على تلك الجامعات المعروفة. حتى والدك لن. . .».

«والدي كارلايل يترك لي حريّة الاختيار بشكلٍ كامل».

«حسناً».

«إدوارد! لقد وصلتني رسالة قبول من جامعة آلاسكا أيضاً!»، قلت ذلك متظاهرةً بالحماسة.

«مبروك! يا لها من صدفة!».

نظر تشارلي إلينا بعينين فاحصتين مشكّكتين وقال: «لا بأس، سوف أذهب لأتابع مباراة كرة القدم على التلفزيون، لا تنسي يا بيلاّ... الساعة التاسعة والنصف».

كان يصرّ على هذا التنبيه كلّ مساء. لكنّي قلت: «أنسيت حديثنا عن استرجاعي حرّيتي».

«حسناً، حسناً، العاشرة والنصف. الزيارة غير مسموحة بعد هذا الوقت خلال أيام الأسبوع».

«هل استعادت بيلاّ حريتها؟»، قال إدوارد وكأنّه تفاجأ بالخبر...

«لكن بشروط. وهل يعنيك هذا الأمر؟».

«إنّه أمرٌ جيّد». أجاب إدوارد. «ستفرح أختي آليس لهذا الخبر، فهي تفتّش عن رفيقة تذهب معها للتسوّق... وأظنّ أنّ بيلاّ اشتاقت إلى أضواء المدينة». ونظر إليّ مبتسماً.

إلاّ أنّ تشارلي هدر بصوته: «كلاّ!»، وصعد الدّم إلى وجهه، فانقلب بنفسجيّاً.

«لماذا يا أبي؟».

«لا أريدك أن تذهبي إلى سياتل في هذه الأيام. أخبرتك عمّا قرأت في الجريدة اليوم... هناك موجة قتل فظيعة، لا تتوجّهي الى هناك أبداً».

«يا أبي، لا داعي لهذا الخوف الشديد، فاحتمال تعرّضي للخطر ضئيل جدّاً...».

ولكن، ما لبث إدوارد أن قاطعني قائلاً: «أنا لا أعني أن تذهب بيلاّ إلى سياتل بل إلى بورتلاند. أنا مثلك، لا أوافق أبداً على أن تذهب بيلاّ إلى سياتل في هذه الظروف».

نظرت إليه أكاد لا أصدّق ما يقول، لكنّه كان يقرأ الصفحة الأولى من الجريدة أيضاً. كان ينوي تطمين تشارلي فحسب، إذ لا يُعقل أن أتعرّض للخطر من قبل أناس عاديين عندما أكون برفقة إدوارد وآليس، حتى أنّ الأمر يبدو لي وكأنّه نكتة.

هدأت أعصاب تشارلي قليلاً، وقرّر الذهاب إلى غرفة الجلوس لمشاهدة المباراة.

لم أفتح فمي بأيّ كلمة حتّى سمعت صوت التلفزيون، وتأكّدت أنّ تشارلي لن يسمعني الآن.

كان إدوارد لا يزال يحدّق في الجريدة أمامه. قال: «تمهّلي». ثم دفع بأحد الطلبات إليّ وقال: «ابدئي بكتابة المعلومات الشخصية، ويمكنك الاستعانة بما كتبت في الطلبات السابقة بشأن بقية المواضيع». انهمكت بالكتابة خلال بضع دقائق، ثمّ نظرت إلى إدوارد، فوجدته غارقاً في التفكير. لم ألحظ إسم الجامعة المطبوع على الطلب إلاّ لاحقاً. ولكن، عندما قرأت «جامعة دارتمورث»، توقّفت عن الكتابة وأزحت الأوراق بسخطٍ، وقلت: «كن واقعيّاً، أيُعقل أن أتقدّم، أنا، بطلب انتساب إلى دارتمورث؟». أعاد إدوارد الأوراق إليّ، وقال: «سوف تحبّين منطقة نيوهامبشاير، إنّها غنيّة بالغابات والبراري لمن يهوى تسلّق المناطق الوعرة. وهي تقدّم عدداً كبيراً من الصفوف المسائية التي تناسبني». قال ذلك ورسم تلك الابتسامة الساحرة على شفتيه.

أخذت نَفَساً عميقاً وقلت. «لا جدوى منَ التحدّث في هذا الموضوع؟».

«لا تقلقي سأعتبر مساعدتي المالية لدفع الرّسوم ديناً أسترجعه منك

في ما بعد. أرجو منك أن تكملي الطلب، بيلاّ، ولنؤجّل هذا النقاش إلى وقتٍ آخر».

«إسمع يا إدوارد... لا أظنّ إنّي سأكمله». وألقيت نظرة على الأوراق ونظرة أخرى على سلّة المهملات. ولكنّ الطلب كان قد اختفى من أمامي في خلال لحظة. لم ألحظ أنّه قام بأيّ حركة ومع ذلك، فإنّ الأوراق أصبحت على الأرجح مطويةً في جيب سترته.

«ماذا فعلت؟» سألته.

«أستطيع توقيع اسمكِ بكل سهولة. لقد انتهيتِ من كتابة كلّ ما هو مطلوب».

قلت: «إنّك تبالغ كثيراً». وتابعت همساً خوفاً من أن يسمعني تشارلي: «لقد قُبِلتُ في جامعة آلاسكا. أستطيع أن أدفع رسوم الفصل الأوّل. وبعد ذلك... لا حاجة لتكاليف لا جدوى منها».

تشنّج وجه إدوارد وهو يصغي إلى كلامي، وقال متألّماً: «بيلاً!».

لكنّي تابعت:

«أعلم أنّ عليّ التظاهر برغبة الانتساب إلى إحدى الجامعات من أجل تشارلي. لكن نحن الاثنين نعلم أنّه لن يمكنني متابعة دراستي في الخريف المقبل، ولن تسمح لي حالتي بالاقتراب من الناس كليّاً».

لم تكن معلوماتي دقيقة حول الحالة التي يعيشها مصّاصو الدماء الجدد في السنين الأولى. كان إدوارد يفضّل تحاشي هذا الموضوع في أكثر الأحيان. لكنّي أعلم أنّ القدرة على تمالك النفس تتطوّر بالممارسة ومع مرور الوقت. لن يكون أمامي سوى وسيلة المراسلة لمتابعة دراستي.

«لا أظنّ أنّ الموعد قد تحدّد بالتأكيد، لا يزال أمامك مهلة»، قال إدوارد بلطف. «يمكنك الالتحاق بالجامعة طيلة فصل أو فصلين. هناك كثيرٌ من التجارب الانسانية التي لم تستمتعي بها بعد».

«سوف أستمتع بها في ما بعد».

«لن تكون تجاربك إنسانية في ما بعد... لن تحصلي على فرص أخرى للاستمتاع بما هو إنساني يا بيلاً».

قلت: «علينا أن نتعامل مع موضوع التوقيت بجديّة. هناك خطر كبير إن لم نحسن تحديد الوقت يا إدوارد».

«لا يوجد أيّ خطر حتى الآن». قال مؤكّداً.

نظرت إليه بتعجّب. هل نسيَ كيف حاولت مصّاصة الدّماء فيكتوريا أن تثأر لموت حبيبها بتعذيبي وقتلي. وعائلة مصّاصي الدّماء الملكية «فولتوري»، وذلك العدد من المحاربين الذين يؤلفون جيشها، ألم يقرّروا ضرورة موتي العاجل لأنّهم لا يسمحون لأناس عاديين مثلي أن يعلموا بوجودهم؟ ألا يدعو كلّ ذلك للرّعب؟

الاعتماد كليّاً على قدرات آليس على كشف المستقبل والاطمئنان إلى توقّعاتها كما يفعل إدوارد، ليس سوى مغامرة مجنونة بالنسبة إليّ.

لقد سبق وربحت النّقاش حول خطورة هذا الموضوع، وتعيّن موعد تحوّلي بعد موعد تخرّجي من المدرسة بقليل. ما يعني بعد بضعة أسابيع فحسب...، يا إلهي إنّي أشعر بانقباض في معدتي، فبرغم أنّ ذلك هو أكثر ما أرغب فيه، أفكّر كثيراً بتشارلي الذي يجلس في الداخل أمام التلفزيون كما في كلّ ليلة. وأفكّر أيضاً بأمّي رينيه، التي تعيش في فلوريدا مع زوجها الجديد. إنّها تصرّ على أن أقضي الصيف معهما على شواطئ فلوريدا الدافئة. أمّا جايكوب، فلن يفوته سبب غيابي الطويل. حتّى لو استطعت خداعَ والديّ بأعذار مثل عدم استطاعتي دفع تكاليف السفر، أو ثقل الواجبات الجامعيّة أو المرض... سوف يعلم جايكوب الحقيقة.

عندما فكّرت بجايكوب وتصوّرت ردّ فعله على تحوّلي واشمئزازه، سيطر عليّ خوفٌ شديد سرعان ما لاحظه إدوارد على ملامح وجهي،

فبادر إلى طمأنتي: «لا تجزعي يا بيلاّ، لن أسمح لأحد بأن يلحق بك الأذى. خذي كلّ الوقت الذي تحتاجين إليه».

قلت بصوتٍ منخفض وبابتسامةٍ خفيفة، متظاهرةً المزاح: «أريد الإسراع». «أريد أن أصبح وحشاً مثلكم».

أطبق فكّيه بعصبية فسمعت صرير أسنانه، ثم قال بجهد: «أنت لا تعلمين خطورة ما تقولين». ألقى الجريدة على الطاولة أمامي ودلّني على العنوان في الصفحة الأولى:

حوادث القتل في ازدياد كبير

الشرطة تشكّ بوجود عصابة إجرامية

«ما علاقة هذا الخبر بما نتكلّم عنه؟».

«التحوّل إلى وحش، هو أمرٌ ليس بهذه السهولة يا بيلاّ».

أعدت قراءة العنوان ورفعت عينيّ إلى وجهه المتشنّج. وهمست: «هل هذه أفعال مصّاص دماء؟».

ابتسم ابتسامةً صفراء وقال: «قد تذهلين لمعرفة مدى مسؤوليّة قومي عن الجزء الأكبر من حوادث الرّعب التي تكتب عنها جرائدكم. من السّهل عليّ التعرّف إلى الدلائل. هذه أفعال مصّاص دماء جديد شارد، يقوده عطشٌ إلى الدّماء، يعبث بأرواح الناس، كما فعلنا جميعاً في يومٍ من الأيام».

أشحت عينيّ عنه، ونظرت إلى الجريدة أمامي.

«نحن نراقب الوضع منذ بضعة أسابيع، ونجد أنّ كلّ الدلائل تشير إلى وجود مصّاص دماء جديد، كحالات الاختفاء اللّيلية المفاجئة، وطريقة رمي الجثث العبثية، إضافةً إلى انعدام وجود دلائل معاكسة».

أخذ نفساً عميقًا، وتابع: «كما قلت إنّها أمور تحصل دائماً... فوجود

الوحوش يؤدّي إلى أعمال وحشيّة. الأمر لا يعنينا مباشرةً، ولو لم يحصل في هذا المكان القريب، لما أعرناه انتباهنا».

كانت أسماء الضحايا على صفحة الجريدة تقفز إلى عينيّ... أناسٌ عاديّون، كانت لهم عائلات، وأصدقاء، وأحلام ووظائف، وحيوانات أليفة تحبّهم...

وهمست، وكأنّي أحدّث نفسي: «لن تسمح أنت للأمور أن تجري على هذا النحو بالنسبة لي... سوف نعيش في آنتاركتيكا القطبية، أليس كذلك؟».

أجاب بضحكةٍ تعمّدها من أجل التخفيف عنّي: «البطريق... طعمه لذيذ!».

بادلته بضحكةٍ مرتجفة، وأزحت تلك الجريدة المشؤومة من أمامي. المناطق القطبية تفتح مجالاً للصيد الوفير أمام إدوارد، وتشكّل الحيوانات الضارية مصدر غذاءٍ لذيذ ومهمّ بالنسبة له ولعائلته، بعد أن قرّروا عدم التعرّض للبشر.

قلت: «سنذهب إلى آلاسكا إذاً، وإلى مكان أبعد من جونو، حيث تكثر الدببة الرّمادية».

«فكرةٌ ممتازة!»، وأضاف: «وتتوافر هناك الدببة القطبية المتوحّشة، وكذلك الذئاب السمينة».

فنظرت إليه بتعجّب واستنكار.

«سنبتعد عن الذئاب إذاً... هل أزعجتك الفكرة إلى هذا الحدّ؟». سأل بانقباضٍ وجديّة.

«من الطبيعي أن تؤذيني هذه الفكرة، لا تنسى أنّه كان صديقي المخلص». قلت ذلك، ولكنّي شعرت بالانزعاج من استعمال صيغة الماضي.

قال: «أرجو أن تعذريني، لقد أخطأت في الكلام».

«لا تأبه للأمر». تفوّهت بهذه الكلمات وتنبّهت إلى يديّ المنقبضتين بشدّة.

التزم كلانا الصمت خلال ثوانٍ، ثم وضع إصبعه الباردة تحت ذقني ورفع وجهي نحوه بلطف، وقال: «أعتذر مجدّداً».

قلت: «لا تهتمّ للأمر. أعلم أن الأمور ستكون مختلفة في ما بعد، وأنّه ليس من المقبول أن أنفعل بهذا الشكل». وتابعت بتردّد: «لكن... كنت أفكّر بجايكوب قبل دقائق من وصولك». نظر إليّ بتساؤل ملحّ، فأجبت على تساؤله مدافعةً: «قال تشارلي إن جايكوبْ يتعذّب بسببي».

«لم تقترفي أيّ خطأ يا بيلاّ».

«يجب أن أحاول تحسين الوضع. حاول أن تفهمني يا إدوارد. وفي جميع الأحوال، هذا شرط فرضه عليّ تشارلي».

أجابني وقد بدا عليه التشنّج من جديد: «أنت تدركين مدى خطورة وجودك مع رجلٍ ذئب من دون حماية. وتعلمين أيضاً أنّه في اللّحظة التي يتخطّى فيها أحدنا الحدود المتّفق عليها تسقط الهدنة بيننا. هل تريديننا أن نعود إلى الحرب؟».

«بالطّبع، لا!».

«إذاً لا فائدة من الكلام في هذا الموضوع». قال ذلك وجال بنظره حول الغرفة مفتّشاً عن شيء يوحي له بموضوع آخر. ثمّ هتف فجأةً: «عظيم! الآن وقد استعدتِ حريتك، يمكننا الذهاب معاً إلى المكتبة لتختاري كتاباً جديداً للمطالعة. ألم تسأمي من قراءة «مرتفعات وذرينغ» مرّة بعد مرّة. لا بدّ أنّك حفظته غيباً».

«لا تنطبع الصفحات التي أقرأها في ذاكرتي مثلك».

«في الحقيقة... لا أفهم كيف تحبين أبطال هذه القصة برغم أنّ كلاً منهم يسعى إلى تدمير حياة الآخرين؟ وكيف يمكن للناس تشبيه

هيثكليف وكاثي بروميو وجولييت، مع أنّ هذه القصة هي بالأحرى قصة كراهية وليست قصة حبّ».

«لا تحبّ القصص الكلاسيكية. هذا واضح».

أجابني راضياً عن نجاحه في تحويل اهتمامي بعيداً عن موضوع جايكوب: «ربّما لأنّي لا أحبّ العصور القديمة. ولكن ما الذي يستهويك في هذا الكتاب؟». ومدّ ذراعيه فوق الطاولة ووضع كفيه حول وجهي مداعباً. لاحظت فضولاً حقيقيّاً لديه لمعرفة الجواب، فقلت، وكاد لقاء عينيّ بعينيه أن يبعثر أفكاري كالعادة: «أعتقد إنّها حتمية وجودهما معاً. إذ لم تقوَ أنانيتها، ولا ميوله الشريرة، ولا حتى الموت في النهاية على فكّ ارتباط مصيريهما...».

أبدى إدوارد اهتمامه بقولي، ولكن ما لبث أن قال بلباقة: «لكن، حبّذا لو تحلّى كلاهما ولو بفضيلة واحدة على الأقل... لكانت القصة أجمل بالتأكيد».

قلت: «هنا يكمن سرّ جمال هذه القصّة. الحبّ بينهما هو الفضيلة الوحيدة».

«كنت أتمنّى لو تفكّرين بواقعية أكثر - كيف يمكن أن تحبّ الفتاة رجلاً شريراً إلى ذلك الحدّ؟».

أجبته: «لا أجد مبرّراً لمخاوفك، ها إنّي قد اخترت من أحبّ، وقمت بالخيار الصحيح...».

ضحك وقال: «إنّي سعيدٌ بما أسمعه الآن!».

فقلت: «ولكن أرجو أن تأخذ حذرك أنتَ أيضاً من الأنانية البغيضة لدى بعض الناس. في الحقيقة، إنّ كاثرين هي سبب كلّ المتاعب وليس هيثكليف».

فقال: «أعدك أن أكون حذراً».

كم كان ماهراً حقّاً في تحويل اهتمامي عن الموضوع الأساسي...!

لكنّي أخذت بيده ورفعتها إلى خدّي، وقلت بلطف: «يجب أن أقابل جايكوب».

أغمض عينيه، وقال: «كلّا».

قلت: «الأمر ليس بهذه الخطورة. كنت أقضي طيلة النهار في «لا بّوش»، من دون التعرّض لأي إزعاج»، وانخفض صوتي في نهاية تلك الجملة ولمعت في ذاكرتي حادثةٌ مرعبة. لقد حدث أن رأيت في لا بّوش، ذات مرّة، ذئباً رمادياً ضخماً كشّر عن أنيابه وهمّ للانقضاض عليّ.

لاحظ إدوارد اضطرابي وتسارُع نبضات قلبي، فهزّ برأسه قائلاً: «طباع الذئاب متقلّبة، وهذا يعرّض الناس حولهم للأذى، وللقتل أحياناً».

أردت الاعتراض على ما قاله ولكن سرعان ما تلعثمت. فقد خطرت في ذاكرتي، في تلك اللحظة، أيضاً صورة وجه إميلي يونغ الذي كان جميلاً قبل أن شوّهته، مع الأسف، ثلاثة خطوط سوداء عميقة، ممتدّة من طرف عينها اليمنى إلى أسفل خدّها.

شعر إدوارد بنشوة الانتصار، لكنّه انتظر حتّى استعدتُ قدرتي على الكلام، فقلت بصوتٍ ضعيف: «أنت لا تعرفهم».

«أعرفهم أكثر ممّا تتصورين... بيلّا! منذ أن كنت هنا في المرّة الماضية».

«المرّة الماضية!».

قال: «بدأ اصطدامنا بالذئاب منذ سبعين سنة، بعد أن انتقلنا للعيش في ضواحي «هوكيام» ولم تكن آليس قد انضمّت إلينا ولا جاسبر في ذلك الوقت. كنّا نفوقهم عدداً، ولكنّ ذلك لم يكن كافياً لمنع حدوث معارك بيننا، لو لم ينجح كارلايل في إقناع إفرايم بلاك بإمكانيّة العيش بسلام؛ عندئذٍ، توصّلنا إلى عقد اتفاقية هدنة».

دُهشت لدى سماع اسم جدّ جايكوب القديم.

«كنّا نظنّ أنّهم انقرضوا بموت إفرايم. وأنّ الخطأ الجيني الذي سبّب وجودهم قد ضاع أثره». قال ذلك مدمدماً، ولكنّ صوته ارتفع فجأةً وصوّب إليّ نظرة اتّهام وقال: «إنّه حظك السيئ الذي يشتدّ تأثيره يوماً بعد يوم. أتعلمين أنّ انجذابك للقوى الشّرسة منعت سلالة من الوحوش الضارية من الانقراض؟ لو كان في الإمكان حصر حظك في كبسولة، لاستطعنا امتلاك أسلحة قتلٍ جماعي».

تجاهلت المزاح وفكّرت ملياً بما قاله. هل هو جادٌّ في اعتقاده؟

«لم أكن أنا السبب في عودتهم. ألا تعلم...؟».

وقاطعني: «أعلم ماذا؟».

«لم يلعب حظي السيئ أي دور في الموضوع. عاد الرجال الذئاب إلى الوجود بسبب عودة مصّاصي الدماء».

نظر إليّ إدوارد متعجّباً.

«ظننتك على علم بذلك... سبق أن قال لي جايكوب أنّ عودة عائلتك إلى هنا، هو السبب في عودة سلالتهم إلى الوجود».

نظر إليّ بتمعّن وقال: «هل هذا حقّاً ما يظنّون؟».

«إدوارد، يكفيك أن تستعرض الأحداث والتوقيت: عندما جئتم إلى هنا، منذ سبعين عاماً، ظهر الرجال الذئاب. والآن وقد عدتم، عادوا من جديد. أتظنّ أن ذلك مجرّد صدفة؟».

فكّر قليلاً ثمّ بدا عليه بعض الارتياح، وقال: «سوف يهتمّ كارلايل لهذه النظرية».

«أتقصد أنّها مجرّد نظرية!؟».

أطرق يفكّر كيف أنّ وجود عائلته في هذا المكان، قد يكون السبب في تحوّل السكان المحليين إلى كلاب ضخمة. ثمّ دمدم: «إنّها فكرةٌ

جذابة إنّما غير مفيدة بالضرورة، ولا تغيّر شيئاً من واقع الحال».

وفهمت من ذلك إصراره على عدم السماح لي بمقابلة جايكوب.

كان عليّ أن أتحاور بصبر مع إدوارد فهو منفتح ومنطقي، لكنّه لا يدرك جيّداً مقدار فضل جايكوب على حياتي، وحتى على صحّة عقلي.

لا أميل إلى التحدّث عن ذلك الوقت العصيب مع أيٍّ كان، وخاصّةً مع إدوارد. أراد إدوارد الابتعاد عنّي كي ينقذني... كي ينقذ روحي، لذلك فإنّي لا أحمّله مسؤولية العذاب الذي عشته في غيابه، ولا التصرّفات الحمقاء التي قمت بها.

كان يشعر أنّه أخطأ في ابتعاده عنّي، وأنّه اقترف ذنباً بحقّي؛ لذا كان عليّ الانتباه لطريقة مقاربتي لهذا الموضوع الحسّاس معه.

قمت من مكاني، ومشيت حول الطاولة ففتح ذراعيه لي. جلست على ركبتيه، وألقيت برأسي على صدره الصّلب فلفّني بذراعيه بقوّة. أخفضت نظري وقلت: «إسمعني يا إدوارد، هذا الأمر هو بالغ الأهميّة ولا يمكن التعامل معه بنزوة غضب ضدّ صديق قديم. جايكوب يتألّم، ويجب عليّ مساعدته. لا يمكنني تجاهل ألمه الآن لأنّه يتعرّض للتحوّل إلى ذئب في بعض الأحيان. لقد كان بجانبي عندما ابتعدت أنا عن إنسانيّتي في الماضي...». شعر إدوارد بتأثري، فقلت ببعض التردّد: «أنت لا تدرك فعلاً حقيقة الأمر». أحسست باشتداد ذراعيه حولي، ورأيت يديه تنقبضان. وقلت أخيراً: «لا أدري بأيّ حال كنت وجدتني عند عودتك، لو لم يساعدني جايكوب في ذلك الوقت».

رفعت عينيّ المتعبتين إلى عينيه فوجدتهما مطبقتين، وكان قد أطبق فكّيه أيضاً بعصبيّة. ثمّ قال متمتماً: «لن أغفر لنفسي ابتعادي عنك، ولو عشت مئة ألف عام».

وضعت يدي على خدّه البارد، وانتظرت إلى أن فتح عينيه وتنهّد.

قلت: «كنت تحاول القيام بما هو أفضل لي. كان يمكن لمحاولتك

أن تنجح، لو كنت تتعامل مع فتاة أقل جنوناً منّي. . . ، الأهمّ من كلّ شيء، هو أنّك عدتَ إليّ».

«لو لم أتركك، لما شعرتِ أنّك الآن بحاجة لمواساة كلب!».

كلامه جعلني أشعر بالنفور الشديد. كنت معتادة على سماع النعوت التي كان جايكوب يستعملها للازدراء بإدوارد مثل: مصّاص الدّماء، العلقة، الحشرة. . . لكن لا أدري لماذا يبدو هذا النوع من الكلام أشدّ قسوةً، بصوت إدوارد المخملي.

«قد يبدو كلامي قاسياً، لكنّي أرتعب من فكرة خسارتك، خاصّةً أنّ ذلك أوشك أن يحصل في الماضي، وأعرف ماهيّة هذا الشعور. إنّي لا أتقبّل أيّ تصرّف يعرّض حياتك للخطر».

«لا تخف يا إدوارد، سأكون بخير».

قال: «أرجوك يا بيلاّ!» وبدا متألّماً ولاحظت السائل الذهبي في عينيه كأنّه نارٌ مشتعلة.

قلت: «لمَ ترجوني؟».

«أرجوكِ أن تعطفي عليّ. أرجوك أن تحافظي دائماً على نفسك. سوف أفعل كلّ ما أستطيع للحفاظ عليك، لكن يجب أن تساعديني».

«سوف أفعل ذلك».

«هل تعلمين كم أنتِ مهمّة بالنسبة إليّ؟»، قال ذلك وشدّني إلى صدره الصّلب، وجعل ذقنه فوق رأسي وأكمل بهمس: «هل لديك فكرة كم أحبّك؟».

أطبقت شفتيّ على عنقه البارد كالثلج، وقلت: «أعلم كم أنا أحبّك».

«إنّك تقابلين شجرة صغيرة بغابةٍ كبيرة».

أدرت عينيّ امتعاضاً من دون أن يراني، وقلت: «هذا مستحيل!».

قبّل رأسي وقال: «لا للرّجال الذئاب!».

«لن أوافق على ذلك، يجب أن أقابل جايكوب».

«إذاً سوف أضطرّ لمنعك». تلفّظ بتلك الكلمات وكان واثقاً من قدرته على فعل ما يريد.

وبرغم ثقتي التامّة بذلك، أجبته بتحدٍّ مبالغ فيه: «سوف نرى ما تستطيع فعله على كلّ حال... وجايكوب لا يزال صديقي».

في تلك اللحظة، أحسست برسالة جايكوب تزن أطناناً في جيبي. وسمعت تلك الكلمات التي كتبها وكأنّه يردّدها في أذني، وهو في الحقيقة يوافق إدوارد الرأي... «ذلك لا يغيّر في الواقع شيئاً».

2

هروب

شعرت بأنّي أطير فرحاً وأنا أسير من صفّ الإسبانية إلى الكافتيريا؛ ليس لأنّي كنت أمسك بيد أجمل شابّ في العالم فحسب، بل ربّما لأسباب أخرى لم تكن واضحة بالنسبة لي.

هل أنّ السبب الآخر كان شعوري بالحرّية بعد انقضاء فترة عقوبتي؟

أم أنّه جوّ الحريّة العام في المدرسة. فقد اقترب موعد العطلة الصيفية، وسيطرت الحماسة على الطلاّب، وخاصّة تلامذة الصفّ الأخير؟

كلّ ما أراه حولي ينبئ بالحرية... ها هي قد أصبحت قريبة، أكاد ألمسها. كم هي كثيرة الملصقات التي تعلن عن موعد التخرّج، وتذكّر بوجوب شراء الكتاب السنوي وثوب التخرّج، والقبّعة، والخاتم التذكاري. وتلك التي تُخبر أنّ موعد سهرة المتخرّجين الراقصة هو في نهاية الأسبوع القادم. ولكنّي تلقيت وعداً قاطعاً من إدوارد بأنّي لن أتعرّض لتلك التجربة الانسانية مرّةً أخرى، فقد مررت بها سابقاً.

لا يُعقل أبداً أن يكون سبب فرحي اليوم هو اقتراب موعد التخرّج، أو أجواء الحرية السائدة في المدرسة... إنّه بالتأكيد استعادتي لحريّتي الشخصية، إذ أكاد أصاب بالغثيان كلّما تذكّرت ذلك الموعد الذي أحاول تجاهله. لكنّ الأجواء وكلّ ما حولي يذكّرني به في كلّ لحظة.

«هل قمتم بإرسال البطاقات لإعلان موعد التخرّج للأقارب

والأصدقاء؟»، سألت آنجيلا باستعجال فيما كنّا، أنا وإدوارد نجلس حول الطاولة. لم يكن شعرها البنّي الناعم مسترسلاً حول وجهها مثل العادة، بل معقوصاً وراء رأسها بطريقةٍ عمليّة. وكان يجلس إلى يسارها صديقها الحميم بن مستغرقاً في قراءة مجلّة فكاهية. وإلى يمينها، جلست آليس وكانت تنظر إليّ وتتفحّص سروالي الجينز القديم وقميصي القطنية، فشعرتُ بالإحراج. كان عدم اكتراثي بالأناقة يزعجها، ولو كنت قد أتحتُ أمامها الفرصة لاهتمّت بتنسيق ملابسي كلّ يوم، أو كلّ ساعة، وكأنّي لعبةٌ كبيرة.

قلت: «لا يا آنجيلا، لن أرسل أيّ بطاقة، فأمّي رينيه تعلم موعد تخرّجي. وهذا يكفي».

«وأنتِ يا آليس؟».

قالت آليس: «انتهيت من هذه المهمّة».

تنهّدت آنجيلا قائلةً: «كم أنتما محظوظتان... لدى أمّي عشرات الأقارب، وتريدني أن أرسل إعلان موعد تخرّجي مكتوباً بخطّ يدي إلى الجميع. تعبت من التفكير في هذه المهمّة، ولا أستطيع تأجيلها لوقتٍ طويل».

قلت: «لا تأبهي، باستطاعتي مساعدتك».

سوف يفرح تشارلي لمعرفة هذا. ثم نظرت بطرف عيني إلى إدوارد، فوجدته يبتسم. لا شكّ أنّ امتثالي لشروط تشارلي من دون التعرّض لمخالطة الرجال الذئاب، يفرحه أيضاً.

هلّلت آنجيلا لوعدي وقالت: «سوف أزورك في أيّ وقتٍ تريدين كي نقوم بذلك».

«في الحقيقة، أفضّل أن أذهب أنا إليك، فقد سئمت البقاء في البيت. لقد استعدت حريتي مساء أمس». وأعلنت هذا الخبر المفرح عليهم بضحكة كبيرة.

«أهذا صحيح!» صاحت وعلى وجهها أمارات الدهشة. «أذكر أنّك قلت مرّةً بأنّ عقوبتك ستمتدّ إلى آخر العمر!».

«لقد فوجئت بذلك أكثر منك. كنت أظنّ أنّ تشارلي لن يطلق سراحي حتى نهاية السنة المدرسية على الأقلّ».

«عظيم يا بيلّا! يجب أن نحتفل».

قلت: «لا تتصوّروا كم أنا مسرورة».

«كيف نحتفل؟ إلى أين نذهب؟». قالت آليس وقد أشرق وجهها بالأفكار العديدة. وأفكارها هي في العادة جريئة جدّاً بالنسبة لي. رأيت بريق الحماسة الشديدة وقد بدأ يلمع في عينيها.

«لا أظنّ أن بامكاني مجاراتك في كلّ ما يجول في رأسك يا آليس، لست حرّة إلى هذه الدّرجة».

«كلمة حرّة تعني حرّة، أليس كذلك؟» قالت بإصرار.

«حرّيتي مقيّدة بحدود. تشبه حدود البلاد مثلاً».

ضحك كلٌّ من بن وآنجيلا، ولكنّ النكتة لم تعجب آليس فبدت على وجهها خيبة الأمل.

وعادت إلى السؤال: «ماذا نفعل اليوم؟».

قلت: «لا شيء، أفضّل الانتظار بضعة أيام كي أتأكّد من أنّ والدي جادٌّ في قراره. على كلّ حال، ليس من المستحبّ السهر خلال أيام الأسبوع».

قالت: «حسناً، سوف نحتفل في نهاية هذا الأسبوع».

أجبت: «طبعاً»، محاولةً إرضاءها. كنت مصمّمة على عدم المبالغة في أيّ تصرّف، كي أبرهن لتشارلي أنّني ناضجة وأستحقّ الثقة.

أخذت آليس وآنجيلا تتبادلان الأفكار حول الأمكنة المفضّلة لاحتفال نهاية الأسبوع، وسرعان ما انضمّ إليهما بن بعد أن ترك مجلّته

جانباً وراح يشارك في النقاش. أما أنا فشعرت فجأةً بأنّ الحرية التي استعدتها ليست كافية. وفيما كان الثلاثة يتكلّمون على إمكانية الذهاب إلى بورت آنجلس أو هوكيام، كان شعورٌ بالاستياء يجتاح قلبي.

لم يكن من الصّعب عليّ اكتشاف مصدر هذا الشعور وسببه.

منذ أن قابلت جايكوب بلاك في الغابة لآخر مرّة، لم تفارقني صورة وجهه الحزين التي تعود إلى مخيّلتي بشكلٍ منتظم، فأشعر بالأسى العميق. وعندما عادت إليّ هذه الصورة منذ لحظات، شعرتُ بأنّ الحرية التي استعدتُها لم تكن كاملة.

بالتأكيد، كنت حرّة في الذهاب إلى أيّ مكان أريد ما عدا «لا بّوش»... وكان لي الحقّ في مقابلة أيّ كان، ما عدا جايكوب بلاك... كان عليّ أن أجد حلاً عادلاً لهذه المشكلة!

«آليس؟ آليس!».

علا صوت آنجيلا فجأةً ينادي آليس. كانت تمرّ بيدها صعوداً ونزولاً أمام وجه آليس الخالي من كلّ تعبير، وأمام عينيها المفتوحتين الشاردتين إلى مكانٍ بعيد. لم يكن وجه آليس في تلك اللّحظة غريباً عليّ، فقد أرسل تياراً من الرّعب في جسدي. بدت عيناها معلّقتان بمشهدٍ بعيد جدّاً عن قاعة الكافتيريا حيث كنّا، مشهدٍ أعلم أنّه حقيقي، وآتٍ وقريب.

وإذا بإدوارد يطلق ضحكة طبيعية جذبت إليه نظرات آنجيلا وبن. لم أزِح عينيّ عن آليس، إلى أن انتفضت أخيراً، وكأنّها تلقّت ركلةً على رجليها من تحت الطاولة.

«هل حان موعد قيلولة الظهر يا آليس؟»، بادرها إدوارد ممازحاً، بعد أن عادت تعابير وجهها إلى طبيعتها.

وسارعت هي إلى القول: «أعتذر، يبدو أنّ أحلام اليقظة أخذتني بعيداً».

«أحلام اليقظة أفضل من حصّتي دراسة في فترة بعد الظهر!»، قال بن.

أكملت آليس حديثها مع آنجيلا وبن، ولكن بحيويّةٍ لافتة جدّاً. . . وغريبة!

لمحتُ عينيها تلتقيان بعيني إدوارد لبرهة ثمّ تبتعدان. أمّا إدوارد، فكان يداعب خصلةً من شعري متظاهراً بالاسترخاء.

رحت أترقّب وبقلق بالغ اللّحظة المناسبة لأسأل إدوارد عمّا شاهدت آليس في رؤيتها. لكنّي لم أحظَ بفرصةٍ للحديث معه على انفراد طيلة فترة بعد الظهر.

أثار ذلك دهشتي وشكوكي، وشعرت وكأنّ إدوارد تعمّد أن يتفادى أسئلتي. تبعته بعد وجبة الغداء وسمعته يتحدّث، على غير عادته، إلى بن عن بعض الواجبات المدرسية. ثمّ أثار استغرابي حديثه المطوّل مع مايك نيوتن عن سبب العطل الذي أصاب سيارته.

«البطارية جديدة!»، قال مايك حائراً.

«قد يكون العطل في أحد الأسلاك». قال إدوارد.

«ربّما. . . لكنّي لست في الحقيقة خبيراً في السيارات. أحتاج إلى مساعدة ميكانيكي، ولكنّي لا أملك الوقت الآن كي أذهب إلى كاراج التصليح في داولينغ».

فتحت فمي لاقترح استدعاء الميكانيكي الذي أعرفه، لكنّي تخلّيت فوراً عن الفكرة، عندما تذكّرت أنّه مشغولٌ هذه الأيام. . .، إنّه يجوب الغابات بعد أن تحوّل إلى ذئبٍ ضخم!

«لديّ بعض المعرفة في السيارات». قال إدوارد. «يمكنني أن ألقي نظرة إذا أردت. انتظرني ريثما أوصل بيلاّ وآليس إلى البيت وأعود إليك».

«شكراً، عليّ أن أذهب إلى عملي في الحال». أجاب مايك.

كانت سيارة إدوارد على بعد أمتار، وكانت آليس قد استقلّت المقعد الخلفي عندما أسرعت لطرح السؤال عليه: «لا أفهم تصرّفك مع مايك!».

«حاولت تقديم المساعدة».

وكعادتها، انطلقت آليس تستعرض الحلول بسرعةٍ قياسية: «أنت غير ماهر يا إدوارد في تصليح السيارات. ما رأيك لو تدعو روزالي إلى إلقاء نظرة؟ ولكن... الجميع يظنّها في أقصى البلاد تتابع دراستها الجامعية. لكن معلوماتك، برغم ضآلتها بالنسبة لسيارات السبور الإيطالية، كافية لمعاينة سيارة مايك. وبمناسبة الكلام عن سيارات السبور التي سرقتها في إيطاليا، ما زال عليك دين لي! يجب أن تعطيني سيارة بورش صفراء، ولن أنتظر حتى عيد الميلاد».

كنت معتادة على تجاهل ثرثرة آليس في معظم الأحيان واعتماد الصبر. فانتظرت إلى أن أصبحت بمفردي مع إدوارد، لأطرح عليه أسئلتي.

نزلت آليس من السيارة أمام مدخل منزلهم، وألقت على إدوارد نظرةً حادّة، لكنّه بقي متظاهراً بالاسترخاء.

«إلى اللّقاء»، قال إدوارد وأومأ برأسه قليلاً، ثمّ غيّر اتجاه السيارة، وأكملنا الطريق إلى فوركس. كان صامتاً، والأفكار ما برحت تتضارب في رأسي. ماذا رأت آليس ظهر اليوم؟ ولمَ لا يكلّمني عن ذلك... لمَ يكتم الأسرار عنّي؟ سوف أحضّر نفسي قبل طرح أيّ سؤال. لا أريد أن أبدي أيّ ردّ فعلٍ متهوّر، يجعله يظنّني غير قادرة على استيعاب الأمور.

التزم كلانا الصمت حتى وصلنا إلى بيت تشارلي.

قال: «ليس لدينا العديد من الواجبات المدرسية الليلة!».

أيّدت كلامه.

سأل: «أتظنين أنّ تشارلي يسمح لي بالزيارة الآن؟».

«لم يغضب تشارلي عندما جئت لتصطحبني إلى المدرسة هذا الصباح».

لكنّي قرّرت تحضير وجبة عشاء لذيذة هذا المساء للتخفيف من امتعاض تشارلي الذي أتوقّعه دائماً لدى رؤية إدوارد.

دخلنا إلى البيت، وصعدنا فوراً إلى غرفتي.

تمدّد إدوارد على سريري وأخذ ينظر من النافذة متظاهراً بالاسترخاء وعدم ملاحظة التوتّر الذي كان يسيطر عليّ. وضعت حقيبتي جانباً وفتحت جهاز الكومبيوتر لكي أجيب على رسالة وصلتني من أمّي منذ حوالى أسبوع، ولكنّي لم أتوقّف عن نَقْرِ أصابعي على الطاولة بعصبية ظاهرة. وقف خلفي، ووضع يده فوق يدي، وهمس: «أراكِ قليلة الصبر اليوم».

رفعت نظري إليه وفي نيّتي أن أردّ بسخرية، لكن وجهه كان قريباً جدّاً، أكثر ممّا تصوّرت. وكانت عيناه الذهبيتان تلمعان بشدّة، وأنفاسه الباردة قد وصلت إلى شفتيّ المفتوحتين، حتى إنّي شعرت بعطرها على لساني.

نسيت الكلام الذي كنت أنوي قوله، وكدت أنسى اسمي.

لم يترك لي المجال لالتقاط أنفاسي.

لو أتيح لي الخيار، لقضيت عمري في تقبيل إدوارد. لم أشعر في حياتي بلذةٍ توازي ملامسة شفتيه الباردتين والصلبتين مثل الرّخام، خاصّةً، وهما تتحرّكان بنعومةٍ فائقة لتداعبا شفتيّ. . .

لكن لا يتاح لي هذا الخيار دائماً.

لذا فاجأني عندما شبك أصابعه في شعري، وقرّب وجهي من وجهه. عقدت ذراعيّ وراء عنقه، وتمنّيت لو كنت أملك القوّة الكافية كي أبقيه سجيناً في هذا الوضع إلى الأبد. في هذه اللّحظة، شعرت

بإحدى يديه خلف ظهري تشدّني إلى صدره الصلب كالصخر. وبرغم الكنزة الصوفية التي كان يرتديها، شعرت بارتعاشة بردٍ تجتاحني، ارتعاشة لذّةٍ وسعادة. لكنّ يداه ما لبثتا أن تراخيتا بعض الشيء.

علمت أنّه سوف يتركني بعد ثوانٍ قليلة، ليقول إنّه كفاني التعرّض لخطر الموت مرّة واحدة في ذلك اليوم. حاولت الاستفادة من تلك اللّحظات الأخيرة، فالتصقت به أكثر وسكنت في حنايا جسده القوي، ومررت بلساني أتحسّس محيط شفته السفلى؛ كم كانت ناعمة، ومذاقها طيّب!

أزاح وجهي عن وجهه، وتملّص من ذراعيّ الملتفّتين حوله. كنت أشدّه بكامل قوّتي، تنهّد وقال بصوتٍ لطيف: «آوه، بيلاّ!».

قلت: «يمكنني أن أعتذر عن توتّري، ولكنّي لن أعتذر».

فأجاب: «ويمكنني أن أشعر بالأسف لكونك لن تعتذري، ولكنّي لن أفعل. دعيني أسترخي على السرير».

قلت: «لمَ لا، إن كنت بحاجة لذلك...».

ابتسم بلباقته المعهودة، واستلقى ممدّداً ذراعيه.

وعندما عدت إلى جهاز الكومبيوتر، قال: «لا تنسي أن تبلّغي رينيه سلامي».

قلت: «بالطّبع!».

أعدت قراءة رسالتها، فأزعجتني أخبارها برغم كونها مسلّية. لم أستغرب أن أمّي لم تتذكّر عقدة خوفها من المرتفعات قبل أن يربط المدرّب وسطها إلى مظلّة القفز ويأمرها بالانطلاق، فتصاب فجأةً بالرّعب وتصرخ هلعاً. شعرت بالعتب على زوجها فيليب. كان عليه أن يمنع مثل هذه الحوادث من الوقوع. فبعد مرور سنتين على زواجهما، ما زال يجهل طباع أمّي ومكامن ضعفها، وما زلت أعرفها أكثر منه!

ولكن، قلت لنفسي، إنّه من الأفضل أن أتركهما يعيشان بالطريقة التي يختارانها.

قضيت معظم حياتي مهتمّةً بأمّي. محاولةً قدر المستطاع إبعادها عن مشاريعها الجنونية. كانت مشتّتة الفكر، وكثيرة الأخطاء، وكان يضحكني تصرّفها في بعض الأحيان.

أنا مختلفةً عنها كلّ الاختلاف؛ متيقّظة دائماً، وأجيد تحمّل المسؤولية. هكذا عرفت نفسي. تذكّرت في تلك اللّحظات، والدّم، بعد عناق إدوارد، ما زال ينبض في عروقي، القول الذي زرعته في داخلي: «الأذكياء يتعاملون مع موضوع الزواج بجدّية، والفتيات العصريات يكمّلن دراستهن الجامعية». كنت أنا ثمرة زواجها المتهوّر بأبي؛ فقد أقدمت على الارتباط به بعد تخرّجها من المدرسة في وسط أجواء رومنسية غير ناضجة. لكنّها أكّدت لي باستمرار أنّها لم تندم على ذلك الزواج وثمرته التي هي أنا، لأنّها تعتبرني أغلى ما لديها في العالم. وكانت تعلم أنّي لن أتصرّف بحماقة وسذاجة مثلها...

كان السطر الأخير في رسالتها يقول: «ما هي أخبار جايكوب؟ لم تأتي على ذكره منذ وقتٍ طويل!».

كنت متأكّدة أنّها كانت على اتصال بتشارلي لتعرف أخباري... وهذا السطر الأخير كان السبب في تأخري بالرّد على رسالتها. لكنّي، أسرعت إلى الإجابة على كلّ أسئلتها باختصار، وفي ما يخصّ جايكوب، قلت:

«جايكوب بصحّةٍ جيّدة ويقضي أوقاته مع مجموعة من رفاقه في لا بّوش... ولا نلتقي كثيراً في هذه الأيام».

لم أنسَ أن أبلّغها سلام إدوارد، قبل أن أضغط على زر الإرسال.

لم أتنبّه إلى أنّ إدوارد كان ورائي حتى أطفأت جهاز الكومبيوتر، وقمت من مقعدي. ظننت أوّلاً أنّه كان يسترق النظر إلى رسالتي،

فكدتّ أؤنبه، لكنّي رأيته ينظر إلى علبةٍ سوداء مسطّحة، ومتصلة بأسلاك كهربائية متشابكة، كانت متروكة بإهمال فوق الطاولة.

تذكّرت، في الحال، أنّ ذلك كان راديو للسيارة تلقّيته، كهديّة بمناسبة عيد ميلادي، من إيميت وروزالي وجاسبر. في الحقيقة، لم أمدّ يدي إلى كومة الهدايا المغطاة بطبقة من الغبار فوق أرض خزانة ملابسي، لأنّي نسيتها منذ زمن طويل.

«ماذا فعلتِ بهذا؟»، سأل بتعجّبٍ كبير، وهو يشير بعينيه إلى الراديو.

«لم أنجح في نزعه من السيارة بطريقة صحيحة، فاقتلعته بالقوّة. تعلم إنّي لست ماهرة في هذه الأشياء. لم أقصد تشويهه...».

هزّ رأسه، من دون أن ينجح في إخفاء بعض المبالغة المصطنعة.

قال: «انتهى أمره! لكن، سوف أستبدله لك بآخر، قبل أن يكتشفوا إهمالك لهديتهم».

أجبت باقتضاب: «لا بأس. لكنّي لا أرغب بستيريو معقّد».

في جميع الأحوال، لم تستفيدي كثيراً من الهدايا التي تلقّيتها في عيد ميلادك. قال هذا وهو يلوّح بمغلّف مستطيل في يده. لم أجبه خوفاً من أن يكتشف التوتر الذي تسبّبه لي ذكرى عيد ميلادي الثامن عشر، والنتائج التي تبعته. حتّى إنّي تعجّبت من الخفّة التي يتكلّم بها، وذكرى ذلك العيد تكاد تكون أكثر إيلاماً له منّي.

«هل تعلمين أن تاريخ نهاية صلاحيتها قد اقترب؟»، كان في داخل المغلّف الذي في يده بطاقات سفر إلى فلوريدا لزيارة أمّي، وكانت أيضاً هديّة بمناسبة عيد ميلادي الماضي، من كارلايل وإيزمي.

تنفّست عميقاً وقلت بصوتٍ عادي وبسيط: «كلاّ، لقد نسيتها».

كان مبتسماً وإيجابيّاً، ولم أجد في صوته أيّ أثر لانفعال عميق، حين أكمل: «لا يزال لدينا مهلة، وها أنّك استعدت حريتك. ما رأيك

أن نستعمل هاتين البطاقتين في نهاية هذا الأسبوع، فنذهب معاً إلى فلوريدا لزيارة والدتك، ونحتفل باستعادتك لحريتك بهذه الطريقة؟».

«الذهاب إلى فلوريدا؟».

«سمعتك تتكلمين عن الحرية المسموحة لك، لكن ضمن حدود مثل حدود الولايات المتحدة. . . أليست فلوريدا ضمن الحدود؟».

نظرت إليه بريبة سائلة عن الأسباب وراء كلّ هذه الأفكار.

قال: «سنزور رينيه هذا الأسبوع أم لا؟».

قلت: «لن يسمح تشارلي بذلك».

«لن يستطيع منعك من زيارة والدتك وهي تملك حقّ حضانتك أوّلاً».

«لا أحد يملك حقّ حضانتي فقد بلغت سنّ الرشد».

ابتسم وقال بحماسة: «تماماً!».

فكّرت في الأمر بسرعة وقرّرت أنّ الموضوع سيكلّفني خصاماً كبيراً مع تشارلي، ولن يكون ذلك بسبب اعتراضه على زيارتي لرينيه، بل لأنّه لا يوافق على مرافقة إدوارد لي في هذه الرحلة. ربّما سيقاطعني لمدّة طويلة وقد يفرض عليّ العقوبة مجدّداً. لكن. . . ربّما يتقبّل الموضوع بطريقةٍ أفضل بعد تخرّجي من المدرسة.

أحسست فجأةً برغبة شديدة لرؤية رينيه، كما أحسست بعدم القدرة على الانتظار. لم أرَ أمّي، في ظروفٍ طبيعيّة وسعيدة منذ فترةٍ طويلة. عندما كنّا معاً في فينيكس، قضيت الوقت في المستشفى. وعندما أتت لزيارتي في فوركس، كنت في حالة غير طبيعيّة. لا أريد أن أتركها مع هذه الذكريات لوقتٍ أطول.

إضافةً إلى أنّها، إذا لاحظت مقدار سعادتي بقرب إدوارد، قد تطلب من تشارلي أن يتساهل معنا.

كان إدوارد يراقب تعابير وجهي وأنا أفكّر.

قلت: «لن نذهب هذا الأسبوع».

سأل: «لمَ لا؟».

«لا أريد مخاصمة تشارلي، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ على مصالحتنا».

«نهاية هذا الأسبوع هو الوقت الأفضل».

لكنّي تابعت إصراري على الرّفض.

وانطلق مستخدماً طريقةً جديدة لإقناعي: «لستِ الوحيدة التي عانت من السجن في هذا البيت».

عاد الشكّ ليساور تفكيري... ما بال إدوارد اليوم؟ لم أسمعه يتكلّم بهذه الطريقة سابقاً...، إنّه أبعد الناس عن الأنانية.

«يمكنكَ الذهاب أينما أردت».

«لا أرغب بالذهاب إلى أيّ مكان من دونك».

أدرت عينيّ تعجّباً من إصراره، وقلت: «تعالَ نبدأ بالخروج تدريجاً. لماذا لا نذهب لمشاهدة فيلم سينما في بورت آنجلس...؟».

همهم معبّراً عن عدم الرضا: «حسناً، سنتكلّم عن الموضوع لاحقاً!».

«لم يعد هناك شيء نتكلّم عنه».

هزّ بكتفيه مستغرباً.

قلت: «يمكن أن نتكلّم عن مواضيع أخرى. مثلاً، ماذا رأت آليس ظهر هذا اليوم؟».

قلت ذلك من دون أن أرفع عينيّ عن وجهه لحظةً، حتى لا يفوتني ردّ فعله على سؤالي.

ورغم أنّه ظلّ محافظاً على هدوئه، لاحظت تشنّجاً في نظرة عينيه. أجاب: «لقد شاهدت جاسبر في مكانٍ غريب، في المنطقة الجنوبية

الغربية، قريباً من مكان عائلته السابقة. . . ومع أنّه لا يفكّر فعليّاً بالعودة إلى هناك، فقد أثارت هذه الرؤيا قلق آليس».

يبدو الأمر مقنعاً. من الطبيعي أن تهتمّ آليس بمستقبل جاسبر، فهو رفيق روحها، ونصفها الحقيقي، برغم محاولتهما إخفاء عمق العلاقة التي تجمعهما، على عكس ما يفعله روزالي وإيميت.

سألت إدوارد: «لماذا لم تخبرني عن ذلك حتى الآن؟».

«لم أنتبه أنّك لاحظتِ أيّ شيء. إضافةً إلى أنّ الأمر ليس على قدر كبير من الأهميّة».

فكّرت كم حملتني مخيّلتي بعيداً عن الواقع. وكم توهّمت أنّ إدوارد ينوي إخفاء أمورٍ هامّة عنّي. ربّما بتُّ أحتاج إلى علاجٍ نفسي في هذه الأيام. . .

نزلنا إلى الطابق السفلي وشرعنا في إكمال واجباتنا المدرسية على عجل خوفاً من عودة تشارلي باكراً إلى البيت. انتهى إدوارد بسرعة، في حين صرفت وقتاً طويلاً في حلّ المسائل الحسابية المعقّدة. بعد ذلك قمت بإعداد وجبة العشاء وكانت وصفة يحبّها تشارلي، تعلّمت طبخها على طريقة جدّتي، بلحم العجل والكريما. ساعدني إدوارد في التحضير قليلاً، مع أنّ طعام الآدميين يثير اشمئزازه أحياناً.

كان مزاج تشارلي مرحاً عند وصوله، حتّى أنّه لم يحاول إزعاج إدوارد قطّ. وكالعادة، اعتذر صديقي عن مشاركتنا طعام العشاء، وانتقل إلى غرفة الجلوس ليشاهد التلفزيون. تناول أبي طعامه بشهيّة كبيرة، وعندما انتهى رفع رجليه على الكرسي الشاغر بجانبه، وألقى كفّيه باسترخاء فوق معدته المنتفخة، وقال: «طعامٌ شهيّ! شكراً يا بيلاً.». .

«يسعدني أن تكون راضياً. . . كيف كانت أجواء العمل اليوم؟».

«بطيئة. . . قضيت معظم فترة بعد الظهر ألعب الورق مع مارك، وغلبته عدّة مرّات. ثمّ تكلّمت على الهاتف مع بيلي».

«كيف حاله؟».

«بخير، لكنّه ما زال يعاني من أوجاع المفاصل».

قلت: «هذا مؤسف!».

«إنّه يدعونا لزيارته في نهاية الأسبوع. وهو يفكّر بدعوة عائلتيّ كليروتر وأوليس أيضاً».

كلّ ما استطعت الإجابة به هو: «هه!». . . أعلم أنّه ممنوعٌ عليّ الاقتراب من الذئاب ولو بصحبة أبي. وخطر ببالي أن يكون لدى إدوارد اعتراضٌ، حتى على ذهاب تشارلي إلى لا بّوش. . . لكن تشارلي سيكون هناك مع بيلي، وهو إنسان عاديّ مثله، فلا خطر عليه.

قمت من مكاني، ووضعت الصحون في الحوض كي أغسلها، وإذا بإدوارد بجانبي وبيده منشفة صحون.

همهم تشارلي وتوقّف عن الكلام. عندما قام متوجّهاً نحو غرفة الجلوس لمشاهدة التلفزيون، استوقفه إدوارد بطريقةٍ ودّية: «تشارلي!» وقف أبي في وسط المطبخ وأجاب: «نعم؟».

«هل أخبرتك بيلاّ أنّ والديّ قدّما لها منذ عدّة أشهر، بمناسبة عيد ميلادها، بطاقتَيْ سفر كي تقوم بزيارة رينيه؟».

وقع الصحن الذي كنت أنظّفه من يدي، وانزلق إلى الأرض محدثاً ضجّة كبيرة من دون أن ينكسر، وانتشرت رغوة الصابون على الأرض وفي كلّ مكان. أجابه تشارلي بذهول، وبدا أنّه لم ينتبه إلى ما حصل: «بيلاّ؟!».

قلت، وما زال نظري وانتباهي مصوّبين إلى ذلك الصحن الذي أعدته إلى الحوض: «نعم، لقد قدّما لي بطاقتَيْ سفر».

بلع ريقه، ثمّ أدار وجهه إلى إدوارد وأجاب: «لا، لم تخبرني بالأمر. ولكن لمَ إثارة هذا الموضوع الآن؟».

قال إدوارد: «لا لشيء، لكنّ مدّة صلاحيتهما اقتربت من نهايتها.

وعدم استعمالهما قد يضايق مشاعر والدتي. هي لن تقول شيئاً بالطبع، إنما. . .».

نظرت إلى إدوارد باستغراب.

فكّر تشارلي قليلاً، ثمّ قال: «بيلّا! لا شكّ أنّ زيارتك لأمّك فكرة جيّدة، وتفرحها بالتأكيد، لكن لماذا لم تذكري لي شيئاً عن الموضوع من قبل؟».

«نسيت!».

هَمهَم تشارلي غير مقتنعٍ بجوابي. لكنّه سأل إدوارد فجأةً: «لاحظت أنّك تتكلّم عن بطاقتين، فلمَن البطاقة الثانية؟».

«بطاقة لها. . . والثانية لي».

الصّحن الذي أوقعته من يدي هذه المرّة سقط داخل الحوض، ولم يحدث ضجّةً كبيرة مثل المرّة الأولى. لكنّني شعرت بالدّم يندفع إلى وجهي بقوّة من شدّة التوتر.

ارتفع صوت تشارلي الغاضب بكلماتٍ واضحة: «مستحيل!».

«لماذا؟»، سأل إدوارد بصوتٍ تغلّفه البراءة. «ألم تقل إنّه يمكنها زيارة والدتها؟».

لكنّ تشارلي تجاهله كليّاً، وتوجّه إليّ منبّهاً بشدّة: «لن تذهبي معه إلى إيّ مكان. هل تسمعينني؟»، أدرتُ وجهي نحوه، فرأيته يرفع إصبعه مهدّداً.

أشعل الغضب كياني فجأةً، فقلت: «انتهت مدّة عقوبتي، وتذكّر أنّي لست طفلة!».

«إنّي أفرض عليك عقوبة جديدة، ومن هذه اللّحظة».

«لماذا؟ وهل أنا بحاجة لأذكّرك بأنّي قانونيّاً، بلغت سنّ الرّشد. . .؟».

«هذا بيتي، وعليك احترام قوانيني!».

قلت ببرودٍ مقيت: «هل تريدني أن أترك البيت اللّيلة، أو تعطيني مهلةً كي أوضّب أغراضي؟».

اشتدّ احمرار وجه تشارلي، وندمتُ لأنّي تطرّقت إلى احتمال ترك البيت. أخذت نفساً عميقاً، وحاولت التكلّم بطريقة هادئة: «أبي، إنّي أتقبّل العقوبة التي تفرضها عليّ عندما أخطئ. لكنّي لا أتقبّل أن تفرض عليّ أحكامك المسبقة وأوهامك».

حاول الإجابة لكنّه لم يستطع قول شيءٍ واضح.

«أعلم الآن أنّك مقتنع بحقّي في زيارة أمّي، ولا أظنّ أنّك تعارض لو ذهبت برفقة آنجيلا أو آليس...».

«برفقة فتيات». قال ذلك، وهزّ برأسه.

«هل تعارضني لو أردتُ الذهاب برفقة جايكوب؟» ذكرت اسم جايكوب وشعرت فوراً بالندم... فقد وصل صرير أسنان إدوارد إلى أذنيّ في تلك اللّحظة.

قال، بعد أن وجد صعوبةً في تحضير إجابته غير المقنعة: «نعم، أعارض».

قلت: «إنّك تكذب يا أبي».

«بيلاّ؟!».

«أنا ذاهبة لأزور أمي، وليس لأرقص في استعراضات لاس فيغاس. تذكّر أنّ أمي تملك حقّ رعايتي مثلك تماماً».

صوّب نحوي نظرةً صاعقة من دون أن يتكلّم...

قلت: «هل تقصد التشكيك في قدرة أمّي على رعايتي؟».

صُعق تشارلي للاتهام غير المباشر الذي تضمّنه سؤالي.

«إنّك بالطّبع لا ترغب في أن أقول لها ذلك».

«طبعاً لا أريد أن تقولي لها ذلك. واعلمي أنّي لست راضياً عمّا تقومين به، بيلّا!».

«لم يكن هناك داعٍ لأن تغضب».

أدار عينيه عنّي، وشعرت بهدوء العاصفة... قلت: «لقد انتهت عقوبتي، وأتممت واجباتي المدرسية، وتحضير العشاء وغسيل الصحون. سأخرج بعد قليل وسأعود قبل العاشرة والنصف».

فسألني: «إلى أين تنوين الذهاب؟». ولاحظت أنّ تعابير وجهه كانت قد عادت إلى طبيعتها تقريباً.

«في الحقيقة، لا أدري. إنما ليس إلى مكانٍ بعيد في كلّ حال».

تمتم بشيء ينمّ عن عدم الرّضا، وتوجّه إلى غرفة الجلوس. لكن كما في كلّ مرّة، بعدما أكسب المعركة، ينتابني شعورٌ بالذنب.

«هل سنخرج؟»، قال إدوارد بحماسة. حدّقت في وجهه وقلت: «نعم، أريد أن أتكلّم معك على انفراد».

لم يكن قلقاً من ردّ فعلي كما توقّعت؛ فلزمت الصمت حتى أصبحنا داخل سيارته.

«لمَ تصرّفتَ بهذه الطريقة؟»، سألته.

«لأنّي أعلم كم تشتاقين لأمّك... أسمعك تذكرين اسمها وأنت نائمة».

«هل أفعل ذلك حقّاً؟».

«نعم. وأعلم أنّك تخافين مواجهة تشارلي بهذا الأمر، فقرّرت مساعدتك».

«لكنّك سبّبت لي المشاكل. ألم أقل لك إنّي لا أرغب في إغضاب تشارلي؟».

«كان بإمكانك تفادي إغضابه».

«عندما يكلّمني بلهجة فوقية، كما فعل، تسيطر عليّ غرائز المراهقة، وأنبري للدّفاع عن نفسي».

«إذاً، لم أكن أنا السبب».

نظرت إليه بتفحصّ، لكنّه بدا هادئاً جدّاً. ما زلت أظنّ أنّ إدوارد يخفي عنّي أمراً مهمّاً. . . وربّما أنّ الأوهام الكاذبة ما زالت تسيطر عليّ منذ فترة بعد الظهر.

سألته: «هل هناك علاقة بين إصرارك على رحلة فلوريدا، ومأدبة الغداء التي دعا إليها بيلي؟».

أجاب: «أبداً. لن تذهبي إلى حفلة بيلي في جميع الأحوال. لا فرق إن كنتِ هنا، أو في آخر الدنيا».

كان يكلّمني وكأنّني طفلة لا تحسن التصرّف، تماماً كما يفعل تشارلي في بعض الأحيان، لكنّي تمالكت غضبي، إذ لم أكن أرغب في نقاشٍ ساخن معه أيضاً.

وتابع بصوتٍ مخمليٍّ هادئ: «إلى أين تودّين الذهاب؟».

قلت: «ما رأيك في أن نذهب إلى بيتكم، لم أرَ إيزمي منذ زمنٍ طويل».

«سوف تفرح لقدومنا، وخاصّة عندما تعلم ما ننوي القيام به في نهاية الأسبوع».

تأوّهت استسلاماً.

لم نبقَ طويلاً في بيت إدوارد، وعندما عدنا، كانت المصابيح الكهربائية في بيتنا لا تزال مضاءة.

قلت: «من الأفضل ألاّ تدخل. قد يعيد وجودك التوتّر إلى الأجواء».

قال: «لا تقلقي، أفكار تشارلي تميل إلى الهدوء الآن».

ودّعني بقبلةٍ على رأسي، وظلّت ابتسامة ماكرة على شفتيه. ثمّ وعدني بأنّه لن يعود قبل أن يغطّ تشارلي في نومٍ عميق.

دخلت البيت وكان صوت التلفزيون عالياً، مشيت على رؤوس قدميّ، لكنّه ما لبث أن ناداني.

«ماذا تريد يا أبي؟».

«هل قضيتِ وقتاً ممتعاً اللّيلة؟»، سألني من دون أن ينجح في إخفاء انزعاجه.

أجبت بتردّد محاولةً فهم قصده من السؤال: «نعم».

«ماذا فعلتم؟».

«قضينا الوقت مع آليس وجاسبر. غلب إدوارد آليس في الشطرنج. ثمّ لعبت مع جاسبر وغلبني».

لم أستطع مقاومة الابتسام، عندما عادت إلى ذهني طريقة لعب الشطرنج بين إدوارد وآليس. إنّها أطرف ما رأيت في حياتي. كانا يجلسان وينظران إلى اللّوح أمامهما بسكونٍ تامّ. كانت آليس ترى مسبقاً ما سيفعل، وهو يقرأ ما تفكّر القيام به. فكانت اللّعبة تحصل داخل رأسيهما إلى حدٍّ كبير، ولم يحرّكا حجارهما سوى مرّتين قبل أن تخسر آليس المَلِك، وتنتهي اللّعبة لصالح إدوارد في أقلّ من ثلاث دقائق.

أخفض تشارلي صوت التلفزيون إلى أدنى حدّ. ونظر إليّ قائلاً: «أريد التحدّث إليك حول موضوع مهمّ». توقّف عن الكلام وبدا عليه الارتباك.

سألته: «ماذا تريد أن تقول يا أبي؟»، التقت عيوننا لحظةً، ولكن سرعان ما أزاح عينيه عنّي ونظر إلى الأرض.

قال: «لست ماهراً في هذه المواضيع. لا أدري أين أبدأ...».

انتظرت مجدّداً. مرّت لحظات صمت. ثمّ قال:

«حسناً، تبدو علاقتك بإدوارد جديّة. ولكن، هناك أمورٌ يجب أن تعرفيها. أعلم أنّك بلغت سنّ الرّشد، لكن تنقصك معرفة بعض النقاط المهمّة». تردّد قليلاً، ثمّ أكمل: «عندما تكونين مع إدوارد وتتطوّر علاقتكما إلى حميمية الجسد...».

فقاطعته: «أوه، توقّف يا تشارلي أرجوك. هل تنوي التكلّم معي عن أمور الجنس؟».

«أنا والدك وتقع عليّ هذه المسؤولية». وعاد ليخفض نظره إلى الأرض، ويقول: «هذا الأمر يسبّب إحراجاً لي أيضاً».

«لكن أمّي سبقتك بشوطٍ كبير... وحدّثتني في هذا الموضوع منذ حوالى عشر سنوات».

«لم يكن لديك صديقٌ حميم في ذلك الوقت». قال ذلك متمتماً، وشعرت بالجهد الذي يبذله من أجل الاستمرار في الحديث.

«لكنّ الأمور الأساسية لم تتغيّر كثيراً». قلت ذلك، وشعرت بأنّ وجهي لا يقلّ احمراراً عن وجهه. لم أتوقّع أبداً أن يتطرّق تشارلي إلى هذا الموضوع اللّيلة، ولكن ما أغاظني حقّاً، هو أنّ إدوارد كان عارفاً بأفكار تشارلي غير العاديّة هذه اللّيلة، ولم يخبرني.

«يكفيني الاطمئنان بأنكما تتصرفان بوعي».

«لا تخف يا أبي، ليست الأمور بيننا على هذا النحو».

«لديّ ملء الثقة بحسن تصرّفك، ولكنّي أعلم أنّك لا تميلين إلى التكلّم معي في هذه الأمور، ولا أنا أميل إلى سماعها. أعدك أن أكون أكثر انفتاحاً من الآن فصاعداً، فالعصر قد تغيّر».

قلت بابتسام: «لا تخف يا أبي، العصر تغيّر حقّاً، لكنّ إدوارد رجعيّ الطّباع. لا تقلق».

تنهّد تشارلي: «أجده كذلك...».

«أوه!»، تأوّهت وقلت: «كنت أتمنّى لو لم تدفعني إلى إعلان ذلك

بصوتٍ عالٍ. أنا حقيقةً. . . عذراء، ولا أنوي تغيير هذا الوضع في وقتٍ قريب».

التزم كلانا الصمت فجأةً. لكنّي لاحظت أن تشارلي صدّقني وبدا عليه الارتياح.

«هل تسمح لي بالانصراف إلى النّوم الآن؟».

أجاب: «بعد قليل».

«أرجوك، إنّي مرهقة. . .».

«انتهينا من المواضيع المحرجة. أخبريني الآن عن موضوع التوازن بين الأصدقاء».

«تسير الأمور بشكلٍ حسن. اتفقت مع آنجيلا اليوم على مساعدتها في كتابة بطاقات التخرّج إلى أقاربها».

«جيّد! وماذا عن جايكوب؟».

قلت: «لم أقرّر شيئاً حول هذا الأمر حتّى الآن».

«إنّي متأكّد من حسن قراراتك. أنت طيّبة يا بيلاّ».

فكّرت في ما قاله. هل يعني أنّني لو لم أصلح الأمور مع جايكوب أكون سيّئة. . .؟ ولكنّي طمأنته فوراً: «بالطّبع، بالطّبع!».

كدت على وشك أن أضحك. لقد لجأت إلى طريقة الجواب الفوري المطمئن، الذي تعلّمته من جايكوب. حتى إنّي قلته بالطريقة الواثقة ذاتها، التي يتّبعها جايك عندما يتكلّم مع أبيه.

ابتسم تشارلي وارتاح في مقعده ورفع صوت التلفزيون من جديد.

قلت: «تصبح على خير يا أبي». وأسرعت في الصعود إلى غرفتي.

كان قد مضى وقتٌ طويلٌ على ذهاب إدوارد، لكنّه لن يعود قبل أن ينام أبي. . ربّما ذهب في نزهة صيدٍ سريعة لتمضية الوقت. شعرت بالضيق والميل إلى الكلام، لكنّي استبعدت كلياً فكرة العودة إلى غرفة

الجلوس وإكمال السهرة مع تشارلي، خوفاً من حديث آخر عن الجنس، قد يخطر على باله.

لم أستطِع القراءة ولا سماع الموسيقى، فأعصابي المشدودة منعتني من ذلك. فكّرت بمكالمة رينيه، لكنّي تذكّرت بعد برهة أنّ التوقيت في فلوريدا يسبق توقيتنا بثلاث ساعات، وتوقّعت أن تكون نائمة. ثمّ خطر ببالي طلب رقم آنجيلا، إنّما. . . لم تكن هي بالضبط، من كنت أودّ التحدّث إليها.

وقفت أمام النافذة أنظر إلى البعيد، في عمق الفضاء الأسود، وأفكّر في النواحي الإيجابية والسلبية للأمور. المصالحة مع جايكوب، صديقي المخلص، مقابل إغضاب إدوارد. لكنّي، وبعد عشر دقائق تقريباً، وصلت إلى الاستنتاج بأنّ المصالحة مع جايكوب هي القرار السليم، خاصّةً أنّه لم يكن هناك أيّ مبرّرٍ حقيقيٍّ لموقف إدوارد، وخوفه الشديد على سلامتي.

لا جدوى من محاولة مكالمته هاتفيّاً، فهو لا يردّ على مكالماتي منذ عودة إدوارد. إضافةً إلى أنّي أشعر بالحاجة إلى رؤيته. أريد أن أراه مبتسماً كما كنت أراه في السّابق. أريد أن أبدّل تلك الصورة الأخيرة المؤلمة لوجهه، والباقية في مخيّلتي، كي أشعر براحة الضمير.

أمامي ساعة من الوقت. يمكنني أن أذهب بسرعة إلى لا بوش وأعود قبل رجوع إدوارد.

ارتديت سترتي بسرعة ونزلت.

أدار تشارلي وجهه نحوي وفي عينيه تساؤل حول وجهتي.

قلت: «هل تسمح لي الذهاب لرؤية جايكوب، لن أغيب طويلاً؟».

ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ عريضة وقال: «هيّا، إذهبي. . . وانسي موضوع الوقت».

«شكراً يا أبي». قلت ذلك، وخرجت كالرّمح من الباب.

كنت أنظر حولي بحذر مثلما ينظر الهاربون، لكنّ اللّيل كان شديد السواد، وبصعوبةٍ تحسّست طريقي حتى وصلت إلى باب السيارة. صعدت بسرعة، وأدخلت المفتاح وأدرت المحرّك، لكنّي لم أسمع هديره الأجش المعهود. حاولت مرّةً أخرى... دون جدوى. نظرت حولي بانتباهٍ وحذر. وإذا، في وسط العتمة الشديدة، أراه في السيارة. كان إدوارد يجلس ساكناً على المقعد الخلفي، يمسك شيئاً غريباً بأصابع يده.

نظر بهدوء إلى الشيء الذي بين يديه، وقال: «اتصلت بي آليس».

أوه، آليس...! نسيت أخذ حذري منها. يبدو أنّها كانت تراقبني.

«خافت عليكِ عندما اختفيت فجأة، منذ خمس دقائق، وتعذّر عليها رؤية مستقبلك».

نظرتُ إليه بتعجّبٍ شديد.

وأكمل بصوتٍ منخفض: «تذكّري أنّها لا تستطيع رؤية الذئاب. وعندما تقرّرين الاندماج بالذئاب، لا تراك أيضاً. أرى أنّك كنت تجهلين هذا. لكن، هل تقدّرين الآن، لمَ أشعر بالاضطراب في وضعٍ كهذا...؟ اختفيت كليّاً عن آليس، ولم تعد ترى إن كنتِ عدتِ إلى البيت أم لا. فقد أصبح مستقبلك مجهولاً بالنسبة لها، مثل مستقبل الذئاب».

كان لا يزال يتسلّى بتلك القطعة، التي استخرجها من محرّك سيارتي، عندما قال وكأنّه يكلّم نفسه: «لا نعلم لمَ لا نراهم!؟ قد يكون ذلك نوعاً من السلاح الطبيعي الذي يمتلكونه للمحافظة على بقائهم. لكنّي أستطيع قراءة أفكارهم. يظنّ كارلايل أنّ السبب في عدم قدرتنا على رؤية تحرّكاتهم المستقبلية، يكمن في طبيعة حياتهم المحكومة بالتغيّر. وبما أنّ هذا التغيّر هو غير إراديّ وليس مبنيّاً على قراراتٍ

واعية، بل يكون مفاجئاً، فهو يؤثر على شخصيّتهم وحياتهم في العمق. وفي اللحظة التي يتغيّرون فيها، يختفون عمليّاً من الوجود. لهذا لا يمكن للمستقبل أن يحتفظ بوجودهم».

كنت أستمع لتأملاته بصمتٍ تامّ.

قال: «لا تخافي، سوف أعيد هذه القطعة إلى سيارتك قبل موعد انطلاقك إلى المدرسة غداً، . . . في حال قرّرت الذهاب بمفردك».

لم أُجب، بل سحبت المفتاح من السيارة وقفزت إلى الخارج.

«أغلقي نافذتك إن أردت عدم استقبالي اللّيلة. سأتفهّم الأمر». همس ذلك في اللّحظة التي أغلقت فيها باب السيارة بقوّة.

دخلت البيت وأغلقت الباب خلفي بقوّةٍ أيضاً.

«ماذا حصل؟»، سأل تشارلي من الداخل.

«لم أستطع تشغيل المحرّك».

«هل تودّين أن ألقي نظرة».

«كلاّ، سوف أحاول تشغيله غداً».

«يمكنك استعارة سيارتي؟».

ليس مسموحاً أن أقود سيارة بوليس. . . ! لكنّ أبي كان شديد الرغبة في أن أذهب إلى لا بّوش، كما كنت أنا أيضاً في تلك اللّيلة.

أجبت: «كلاّ». ثمّ تمتمت: «ليلة سعيدة!».

صعدت حالاً إلى غرفتي، وتوجّهت فوراً إلى الشبّاك وأغلقته بعصبية، فارتجّت ألواح الزجاج.

جلست أنظر إلى تلك الألواح إلى أن توقّفت عن الارتجاج. في تلك اللّحظة، عدت إلى النافذة وفتحتها على مصراعيها.

3

دوافع

وصلنا فوق فلوريدا بعد رحلةٍ طويلة، لكنّي كنت غارقة في صمتٍ عميق.

«لمَ لا تتكلّمين، هل يزعجك السفر بالطائرة؟»، قال إدوارد.

«كلاّ، أنا بخير».

«هل تشعرين بالحنين إلى فوركس؟».

«كلاّ، إنّني مرتاحة».

نظر إليّ ورفع أحد حاجبيه مثل العادة.

قلت: «رينيه أكثر تفهّماً من تشارلي. . . وأنا متحمّسة لرؤيتها!».

ضحك إدوارد: «أمّك مختلفة عن الآخرين، تفكّر مثل الأطفال أحياناً، لكنّها شديدة التبصّر في فهم الأمور».

شديدة التبصّر! هذا وصف صحيح لأمي في الأوقات التي تكون فيها حاضرة الذهن، وغير غارقة في مسائل حياتها الخاصّة. لكنَ رينيه استطاعت، خلال تلك الزيارة، أن تركّز عليّ انتباهها إلى حدٍّ بعيد.

كان فيليب مشغولاً في نهاية ذلك الأسبوع مع فريق البايسبول الذي يدرّبه، ما أدّى إلى انفراد رينيه بنا وحصر تركيزها علينا. منذ لحظة انتهاء العناق والسلام، أخذت أمّي تراقبنا، وسرعان ما بدت عليها الحيرة وانتابها القلق.

استيقظنا باكراً في صباح اليوم التالي. أشعرتني رينيه برغبتها في الخروج بنزهةٍ معي على انفراد. لم يكن ترتيب الأمر صعباً مع إدوارد، الذي ادّعى في الحال أنّ لديه موضوعاً مدرسيّاً مهمّاً يريد إتمامه، فبقي في البيت. تمشّينا على الشاطئ وبالغت رينيه في وصف جمال منزلها الجديد، محاولةً بشتّى الطرق، تشجيعي على الانتقال إلى العيش معها تحت شمس فلوريدا.

لكنّ حديث رينيه، في تلك النزهة، ما لبث أن أخذ منحىً جريئاً، وقد استعدته في عقلي بعد ذلك مرّات ومرّات.

كنّا نتمشى ببطءٍ تحت ظلال أشجار النخيل المتباعدة، والحرارة كانت مرتفعةً في ذلك الصباح، والهواء مثقلاً بالرطوبة.

نظرت أمّي إلى أمواج البحر الآتية نحونا من بعيد، وقالت: «بيلاّ!».

«نعم يا أمّي».

تنهّدت وقالت: «إنّي قلقة».

قلت فوراً: «لِمَ أنت قلقة، هل أستطيع مساعدتك؟».

قالت: «لا يتعلّق الأمر بي. بل بكِ وبإدوارد. علاقتكما تبدو أكثر جديّة ممّا توقّعت».

«أوه!» مرّ في خاطري أنّ أدوارد لم يلمس يدي أمامها، هل كانت تتأهّب لمحاضرة، تشبه تلك التي ألقاها عليّ تشارلي، عن الحذر في أمور الجنس؟ على كلّ حال، لا أصاب بالإحراج أمام أمّي كما هو الحال أمام تشارلي. في الواقع، كنت، أنا التي تقوم بتنبيهها على هذه الأمور، خلال السنوات العشر الماضية.

«أرى شيئاً غريباً في علاقتكما... طريقته في الاهتمام بك... إنّه يخاف عليك كثيراً! يبدو وكأنّه حاضرٌ لأن يرمي نفسه أمام الرّصاص كي يخلّصك، أو... شيئاً من هذا القبيل».

ضحكت، لكنّي لم أجرؤ على رفع نظري إلى عينيها. وقلت: «هل هذا أمرٌ سيّئ؟».

قالت: «لا، لكنّه مختلف! أشعر وكأنّي عاجزة عن فهم طبيعة علاقتكما، وكأنّ هناك أسراراً تفوتني».

شعرت بتوتّر حاولت إخفاءه. لقد ذهب عن بالي رؤية أمّي الثاقبة للأمور. فبفضل بساطة نظرتها إلى العالم، تنكشف الأمور أمامها عارية وخالية من التشويش. لم أشعر بالإحراج أمام قدرتها هذه من قبل...، إذ لم يكن لديّ ما أخفيه عنها.

قلت بخفّةٍ مصطنعة: «ما بالك يا أمّي؟ ها أنتِ تتخيّلين أشياء، وتصدّقينها؟».

ثمّ أكمَلَتْ بإصرار: «ولا تقتصر المشكلة عليه فقط، ليتكِ ترين نفسك كيف تدورين حوله».

قلت: «ماذا تعنين بذلك؟».

«الطريقة التي تتحرّكين بها. تتحرّكين بالاتجاه الذي يتحرّك به. حتى لو تحرّك قليلاً، تتحرّكين أنت أيضاً، وكأنّه يجذبك كالمغنطيس. كأنّك ساتلايت يدور في فضائه... لم أرَ شيئاً يشبه ذلك في حياتي».

أطبقت رينيه شفتيها ونظرت إلى الأسفل.

ادّعيت المزاح، وقلت: «أخبريني ماذا قرأت من قصص الرّعب، أو القصص الخياليّة مؤخّراً؟».

أحمرّ وجهها وقالت: «هذا لا يمتّ إلى موضوعنا بصلة».

«هل قرأت كتاباً جيّداً؟».

قالت: «لا بأس، لكن دعينا نتكلّم عنكِ الآن».

«يجب ألاّ تقرأي سوى القصص العاديّة يا أمّي... فغيرُ ذلك يسبّب لك الرّعب».

نظرت إليّ وقالت بتردّد يخالطه الخجل: «أزعجتك ملاحظاتي، أليس كذلك؟».

التزمت الصمت خلال لحظات. كان من السهل جدّاً إقناع رينيه بالتخلّي عن رأيها، لكنّي شعرت بالحزن لأنّها استسلمت إلى استخفافي بملاحظاتها بسهولة، بالرّغم من صحّة رأيها ورؤيتها إلى حدٍّ بعيد.

كانت تراقب تعابير وجهي، في انتظار ما سأقوله.

«ملاحظاتك ليست مزعجة. إنّها ملاحظات أمّ».

ضحِكَت، ثمّ أشارت بذراعها إلى روعة الرّمال البيضاء في تلاقيها مع زرقة البحر، وقالت: «كلّ هذا لا يقنعك بالانتقال للعيش مع أمّك المزعجة. . . ؟».

مررت بيدي فوق جبيني، ورفعت شعري في حركةٍ درامية مدّعية الانزعاج من الرطوبة العالية. فقالت: «سوف تتعوّدين على الرّطوبة بسرعة».

«لقد اعتدتُ على المطر!».

ضحكنا معاً وأمسكَت بيدي، وتوجّهنا إلى سيارتها.

اطمأنّ قلبي على أمّي في تلك الزيارة. فهي تبدو مرتاحة وسعيدة، لكنّها قلقة بعض الشيء من ناحيتي. ما زالت معجبة بفيليب وتحبّه كثيراً. هي تشتاق إليّ، ولكنّها بالتأكيد قادرة على العيش من دوني. . .

شعرت بأصابع إدوارد الباردة تداعب خدّي. فتحت عينيّ وعدت إلى الحاضر. انحنَى وطبع قبلة على جبيني.

«أفيقي يا أميرتي النائمة، لقد وصلنا».

توقفت السيارة أمام بيت تشارلي. كان المصباح الخارجي مضاءً، وسيارته متوقّفة في مكانها. تفحّصت البيت من الخارج، فلاحظت الستارة في غرفة الجلوس تنفتح قليلاً، فيتسرّب خطٌّ من الضوء الأصفر فوق عشب الحديقة الغارق في الظلام.

قلت في نفسي. لا شكّ أنّ تشارلي يتحفّز الآن لمهاجمتنا. تأملت في وجه إدوارد وهو يقترب ليفتح لي باب السيارة، فاستنتجت من تعابيره المتشنّجة وعينيه الشاردتين أنّ الفكرة ذاتها كانت تجول في رأسه.

قلت: «هل مزاجه سيّئ؟».

«مزاج تشارلي مقبول اللّيلة، وهو مشتاقٌ لك». قال ذلك بصوتٍ خالٍ من المرح.

ساورني الشكّ في كلامه، فلو كان ذلك صحيحاً، لما بدا هو متشنّجاً كأنّه يتحضّر لخوض معركة.

أصرّ إدوارد على مساعدتي في حمل الحقيبة إلى الداخل، برغم أنّها كانت صغيرة.

فتح تشارلي الباب واسعاً ورحّب بنا بصوتٍ عالٍ وقال: «كيف كانت فلوريدا؟».

قلت: «كثيرة الرّطوبة والبرغش».

«ألم تحاول رينيه إقناعك بالانتساب إلى جامعة فلوريدا؟».

«نعم، لقد حاولت، لكنّي أفضّل شرب الماء عوضاً عن تنشّقه».

نظر تشارلي إلى إدوارد وسأله: «هل استمتعت في رحلتك؟».

قال إدوارد: «نعم، رينيه لطيفة ومضيافة».

«حسناً... يفرحني أنّكما قضيتما وقتاً ممتعاً». قال ذلك واستدار نحوي فجأةً، وضمّني إليه وقال: «لقد اشتقتُ إليك كثيراً يا بيلاّ، لم أتناول لقمة طعام طيّبة منذ رحيلك».

قلت: «سأبدأ بتحضير وجبة العشاء فوراً».

«أرجو أن تتصلي بجايكوب أوّلا، فهوَ يريد التحدّث إليك ولم يكفّ عن الاتصال كل خمس دقائق منذ السادسة صباحاً. لقد وعدته أن تتصلي به فورَ وصولك».

كان إدوارد يقف إلى جانبي صامتاً، ومنقبضاً. . .

«جايكوب يريد التحدّث إليّ!؟».

«وبإلحاح، كما يبدو لي. لم يخبرني عن السّبب، لكنّه قال إنّ الأمر مهمّ».

وارتفع رنين الهاتف في تلك اللّحظة من جديد.

«أراهن أنّه هو». قال تشارلي.

قلت: «لا تأبه، سأجيب بنفسي». واندفعت نحو المطبخ.

تبعني إدوارد، بينما دخل تشارلي إلى غرفة الجلوس.

التقطت السماعة. «هلو؟».

«لقد عدتِ». قال جايكوب.

وإذا بصوته الخشن، الذي أعرفه جيّداً، يشعل شرارة الحنين في قلبي، وإذا بآلاف الذكريات تتزاحم في رأسي. الشاطئ الصخري وجذوع الأشجار اليابسة المبعثرة فوقه. موقف السيارات المغطّى بشوادر بلاستيك، وعلب المشروبات الغازية الدافئة في أكياس الورق فوق الطاولة في غرفة الجلوس الصغيرة. الابتسامة التي تسطع من أعماق عينيه السوداوين وحرارة يده الضخمة عندما تلتقي بيدي، والتماع بياض أسنانه فوق سمرة بشرته. وتلك الابتسامة الدافئة التي تفتح الباب السرّي إلى قلبه، تفتحه للأرواح المقرّبة فحسب.

شعرت بحنين شديد إلى المكان والإنسان اللّذين احتضناني في أحلك الأيام.

قلت: «ماذا؟».

قال: «كنت أتوقّع اتصالاً منكِ».

هزّتني لهجته الغاضبة، فاستعدت قدرتي على الدّفاع عن نفسي، وقلت: «ها أنذا، لقد وصلت إلى البيت منذ بضع ثوانٍ فقط».

«أوه! أرجو المعذرة».

«حسناً، قل لي لَمَ أقلقت تشارلي باتصالاتك المتعدّدة؟».

«أودّ التحدّث إليكِ».

قلت: «هذا واضح. هيّا، قل ما تريد».

بعد صمتٍ للحظات، تابع: «هل ستذهبين إلى المدرسة غداً؟».

تعجّبت من سؤاله. «بالطبع سأذهب. ولمَ لا أذهب؟».

قال: «لا أعلم. . . إنّه مجرّد سؤال».

بعد لحظات صمتٍ أخرى، سألت: «عمّ تريد أن تتحدّث يا جايك؟».

تردّد قليلاً قبل أن يجيب: «لا شيء في الحقيقة، أردتّ سماع صوتك».

«حسناً، أعلم ذلك. إنّي سعيدة جدّاً لاتصالك، أنا. . .»، كنت على وشك أن أقول له إنّي سأذهب إلى لا بّوش في الحال، لكنّه قاطعني قائلاً: «وداعاً، سأتكلّم معك قريباً».

سألت: «ماذا؟». لكنّه كان قد أقفل الخط. لم أصدّق أنّه اكتفى بذلك الحديث القصير.

«هل كلّ شيء على ما يرام؟»، سأل إدوارد بصوتٍ خفيض وبحذر.

استدرت نحوه. كانت تعابير وجهه هادئة جدّاً.

«لا أعلم، لم أفهم سبب اتصاله». هل من المعقول أنّه اتصل وسأل تشارلي عنّي عدّة مرّات خلال النهار، كي يطرح ذلك السؤال البديهي فحسب: «هل ستذهبين إلى المدرسة غداً؟». وإن كان سبب الاتصال، رغبته في سماع صوتي كما قال، كيف اكتفى إذاً بهذه المكالمة القصيرة؟

«أنت قادرة على معرفة السبب أكثر منّي. . .»، قال إدوارد، ولم يخفِ ابتسامة خفيفة كانت تتراقص فوق شفتيه.

تمتمت بالإيجاب. هذا صحيح. إنّي أفهم جايكوب جيّداً، ولن يكون صعباً عليّ اكتشاف دوافعه.

رحلت أفكاري بعيداً، على بعد خمسة عشر ميلاً... إلى لا بّوش. عندما فتحت البرّاد ورحت أنظر إلى محتوياته لأكتشف ما كان يمكنني تحضيره للعشاء، وقف إدوارد يراقبني، وأحسست بعينيه تجولان فوق وجهي، لكنّي كنت مشغولة جدّاً ولم أهتم بما استطاع أن يقرأ من خلال تعابيره.

كان سؤاله عن المدرسة هو المفتاح بالنسبة لي، لأنّه كان السؤال الحقيقي الوحيد الذي طرحه. كان بلا شك يبحث عن جواب معيّن، ما جعله يتصل بتشارلي عدّة مرّات...!

ولكن، لمَ يهتمّ بأمر ذهابي إلى المدرسة غداً؟

حاولت التفكير في الموضوع بطريقة التحليل المنطقية. فقلت في نفسي: «إن لم أذهب إلى المدرسة غداً، ما هي المشكلة التي قد تنتج عن ذلك بالنسبة لجايكوب؟».

لم أستطع التوصّل إلى استنتاج مقنع. وتبادر إلى ذهني أنّه ربّما تنقصني بعض المعلومات المهمّة. ولكن ما الذي جعل جايكوب فجأةً، يتصّل بي هاتفيّاً، وهو الذي كان يرفض الردّ على اتصالاتي منذ مدّة طويلة. ما الذي حصل خلال الأيام الثلاثة الماضية، مدّة غيابي في فلوريدا؟

كاد كيس الهامبرغر الذي أخرجته من الثلاجة أن ينزلق من بين أصابعي، لو لم يلتقطه إدوارد في اللّحظة المناسبة، ثمّ يقترب من أذني ليهمس: «ما المشكلة؟».

لم أتفوّه بكلمة، لكنّني تذكّرت أنّ أموراً مهمّة ومصيرية يمكن أن تحصل في ثلاثة أيام؛ ذلك أن مروري بمرحلة التحوّل المؤلمة، التي ستجعلني أتخطّى الموت وأعيش إلى جانب إدوارد إلى الأبد، تستغرق

ثلاثة أيام فقط. ولن أستطيع الذهاب إلى الجامعة في الخريف المقبل، لأني سأكون سجينة عطشي إلى الدماء لفترةٍ طويلة.

هل أن تشارلي أخبر بيلي عن غيابي لمدّة ثلاثة أيام، فتسرّع هذا الأخير في استنتاجاتٍ مخطئة؟ وهل اتصل بي جايكوب ليتأكّد من أنّي لم أتحوّل إلى مصّاص دماء، وليتأكّد أن المعاهدة مع الرجال الذئاب لم تسقط، ولم يقدم مصّاص دماء على عضّ إنسان.

ولكن، كيف يظنّ أنّي قد أعود إلى بيت تشارلي، لو حصل التحوّل؟

هزّني إدوارد بعد أن اعتراه الخوف عليّ من شدّة شرودي. «بيلاّ؟!».

«أعتقد... أعتقد أنّه كان يريد التأكّد من أنّي ما أزال إنساناً». قلتُ متمتمة.

شعرت بتوتّر إدوارد، لكنّه حاول تهدئتي، وهمس شيئاً في أذني. لكنّي قلت: «من الأفضل أن نرحل باكرًا، حتى لا تسقط المعاهدة. وإن لم نفعل، سنحرم من العودة إلى الأبد».

لفّ ذراعيه حولي بقوّة، وقال: «أعلم هذا». نظرتُ إلى عينيه، فبدت لي غاضبة وقلقة.

«أأحِم!»، سمعنا حشرجة صوت تشارلي فجأةً وراءنا، معلناً دخوله إلى المطبخ. تخلّصت من ذراعي إدوارد بسرعة، وشعرت بالدمّ الحار يتصاعد إلى وجهي. قال: «لا تهتمّي بتحضير العشاء، يمكن أن نطلب بيتزا».

قلت: «لا بأس، لقد بدأت بالتحضير».

قال: «حسناً»، ووقف مسنداً ظهره إلى حاجب الباب.

تجاهلت وجودهما حولي، وتحديقهما بي، وتابعت العمل.

* * *

بصوتٍ منخفض لا يخلو من التوتّر، قال إدوارد: «بيلّا! لو طلبت منك شيئاً، هل ستلبّين طلبي؟».

كنا على وشك الوصول إلى المدرسة. وكان مسترخياً ومرحاً وهو يقود السيارة. لكنّه تغيّر فجأةً في تلك اللّحظة. لاحظت تجهّم وجهه، وقبضة يده العصبية تشتدّ حول المِقود. وبدا كأنّه يصغي إلى أصواتٍ بعيدة.

تسارعت دقّات قلبي بسبب اضطرابه، وأجبت على سؤاله: «هذا يتوقّف على نوع الطلب».

بعد أن دخلنا حرم المدرسة، وأوقف السيارة في المكان المعتاد. قال: «أريد منك البقاء في السيارة. أريد منك الانتظار هنا حتى أعود».

«لكن. . . لمَ هذا؟».

في تلك اللّحظة، لمحته. لم يكن من الممكن عدم رؤية جايكوب من بين كلّ الطلّاب، فعدا عن كونه طويل القامة بشكلٍ لافت، كان يقف متكئاً إلى درّاجته النارية السوداء التي أوقفها فوق الرصيف، مخالفاً قوانين المدرسة.

«أوه!».

كان وجه جايكوب هادئاً جدّاً. إنّه قناع الهدوء التامّ الذي يظهر به عندما يحرص على إخفاء انفعالاته، ويخاف من فقدان السيطرة على نفسه. كان يبدو في هذا القناع شبيهاً بسام، أكبر الذئاب سنّاً، وقائد مجموعة كويلوت. لكن مهما يحاول جايكوب، فإنّه لا ينجح في إخفاء جميع انفعالاته، كما يفعل سام.

كدت أنسى كم يزعجني شكل وجهه المقنّع هكذا، وبرغم أنّ سام كان قريباً جدّا منّي قبل عودة عائلة كولن، لم أتقبّل أبداً تشبّه جايكوب به. كان يبدو في ذلك القناع غريباً عنّي، بعيداً عن جايكوب الذي أحبّ.

«كان استنتاجك مخطئاً البارحة». تمتم إدوارد. «سأل عن

المدرسة، لأنّه يعلم أنّي سأكون معك في كلّ مكان. وهو يسعى إلى التحدّث معي في مكانٍ آمن، تحت أنظار الشهود».

لم أفهم دوافع جايكوب مساء أمس. لا بدّ من أنّ هناك معلومات مهمّة تفوتني. ما هو السبب الطارئ الذي يدفع جايكوب إلى التحدّث مع إدوارد اليوم؟

«لن أبقى في السيارة». قلت.

«لا... سوف تأتين معي لنرى ما يريد».

لاحظت وجه جايكوب يتجهّم ونحن نسير نحوه متشابكي الأيدي.

كنت ألاحظ أيضاً وجوهاً أخرى، وجوه رفاقي في الصفّ ترمقه بنظراتها. رأيت عيونهم تتّسع لتحتوي طوله البالغ ستّ أقدام وسبع بوصات، وعضلاته المفتولة وغير العادية بالنسبة لشابّ في سن السادسة عشرة وستة أشهر. رأيت تلك العيون تحوم فوق قميصه الأسود الضيّق ذي الأكمام القصيرة برغم برودة الجوّ، وسرواله الجينز القديم المغطّى بآثار الشحوم، وتتأمّل دراجته السوداء اللامعة التي يستند إليها. تخاف تلك العيون أن تلتقي بنظراته الحادّة، فهي تكتفي بنظراتٍ خاطفة إلى وجهه. لاحظت تجنّبهم الاقتراب منه كثيراً، فقد كان يقفُ وسط دائرة من الفراغ، لم يجرؤ أحدٌ على تخطّي حدودها.

كنت أستغرب أن يخاف الناس من جايكوب... وأتساءل عن السبب؟

توقّف إدوارد على بعد بضعة أمتار من جايكوب. وشعرت بانزعاجه من أن أقترب أنا من الرّجل الذئب. لذا، مدّ يده قليلاً إلى الوراء مشيراً لي كي أقف وراءه.

«كان بإمكانك الاتصال بنا هاتفيّاً». قال إدوارد بصوت حادّ.

«أعتذر، لا أحتفظ بأرقام حشرات العَلَق...»، قال جايكوب بسخرية.

«كان بإمكانك الاتصال بي على رقم بيلاّ. لمَ لا؟».

اهتزت ملامح جايكوب وتقطّب حاجباه، ولم يُجب.

«هذا ليس المكان المناسب يا جايكوب. هل نرجئ حديثنا إلى وقتٍ آخر؟».

«بالتأكيد. . .سوف أتوقّف قبالة قبرك بعد انتهاء الدّوام. لمَ لا نتكلّم الآن!؟».

أدار إدوارد عينيه متأكّداً من وجود الشهود حوله. كانوا يقفون على مسافة لا تخولهم الاستماع بوضوح إلى ما يجري. لكنّ بعضهم بدا متحمّساً لاشتباكٍ حارّ يحصل بين الشّابين، فيغيّر جوّ الملل في صباح ذلك الاثنين. من بعيد، شاهدت تايلر كراولي وأوستن ماركس اللذين كانا في طريقهما إلى غرفة الصفّ، يتوقفان فجأةً لينظرا إلينا.

«أعلم ما تريد قوله. لقد وصلت رسالتك، وتلقينا الإنذار». قال إدوارد لجايكوب بصوتٍ منخفض، كدتُ لا أسمعه.

التفت إدوارد نحوي بعينين قلقتين، ثم أزاح نظره.

قلت: «عمّا تتكلمان؟ وأيّ إنذارٍ هذا؟».

«ألم تخبرها!؟»، قال جايكوب مظهراً العجب. «هل خفت عليها أن تنحاز إلى صفّنا؟».

«توقّف عند هذا الحدّ يا جايكوب». قال إدوارد منبّهاً.

«ولمَ أتوقّف؟».

شعرت بالغموض الشديد يلفّني.

«ما هو الأمر الذي لم تخبرني عنه يا إدوارد؟».

صوّب إدوارد نظره إلى جايكوب، ولم يجب على سؤالي.

التفت نحوي قائلاً: «لم يخبرك أنّ أخاه الأكبر. . . تعدّى الحدود ليلةَ السبت؟»، وتابع بلهجة الازدراء الشديد ناظراً إلى إدوارد: «كان بول على حقّ في. . .».

«لا تُعَدّ تلك المنطقة داخل حدود أيّ من الفريقين». قال إدوارد.

«أنت مخطئ».

كان جايكوب يشتعل غضباً، ويداه ترتجفان من شدّة الانفعال.

سألت بما يشبه الهمس: «إيميت وبول؟» كان بول أخ جايكوب، وكان غير مستقرّ. وكان هو بالذات، الذي فقد السيطرة على نفسه في الغابة، ذلك اليوم. ما زالت ذكرى ذلك الذئب الرّمادي المزمجر أمامي ترعبني حتّى اليوم.

«ماذا حصل؟ هل تعاركا؟» ثمّ ارتفع صوتي برعب: «هل أصيب بول بأذى؟».

أجابني إدوارد بهدوء: «لم تحصل معركة، ولم يصب أحد بأذى. لا تقلقي».

كان جايكوب يراقبنا بتعجّب: «لم تقل لها شيئاً البتة. لذا طرتَ بها إلى مكانٍ بعيد كي لا تعلم شيئاً، أليس كذلك...؟».

«ابتعد من هنا!»، قاطعه إدوارد، وانقلب وجهه، فبدا مريعاً. وفجأةً، بدت عليه... ملامح مصّاصي الدماء، وصوّب على جايكوب نظرات شريرة حاقدة.

رفع جايكوب حاجبيه، لكنّه لم يقم بأيّ حركة.

«لمَ لم تصارحها».

وقف الاثنان قبالة بعضهما بصمت، حسبته دهراً. ووقف معظم الطلّاب يراقبون من بعيد. رأيت مايك يضع يده فوق كتف بن محاولاً منعه من التقدّم.

في صمت تلك اللّحظة، وبسرعة الحدس، اتضحت لي الصورة بأكملها.

أمرٌ، أراد إدوارد إخفاءه عنّي.

وأراد جايكوب إعلامي به.

أمرٌ، جعل عائلة كولن والذئاب يقتربون من بعضهم في وسط الغابة بشكلٍ خطير.

أمرٌ، جعل إدوارد يصرّ على ضرورة سفري إلى مكانٍ بعيد.

أمرٌ، شاهدته آليس الأسبوع الماضي في رؤيتها، وأخفاه إدوارد عنّي.

أحسست بارتجاف الهواء فوق شفتيّ، وشعرت بأنّ المدرسة تهتزّ. لم تكن هزّة أرضيّة كما ظننت لبرهة، إنّما ارتجافي أنا... وصرخت بصوتٍ مخنوق «إنّها فيكتوريا التي عادت لتنتقم منّي!».

لن تتوقّف فيكتوريا عن محاولاتها، حتى تراني ميتة. سوف تعاود الهجوم المخادع وتهرب كما في كلّ مرّة، حتى تتمكّن من إيجاد فرصة، عندما أكون من غير حماية، لتنقضّ عليّ.

قد يحالفني الحظ، وتسبقها عائلة فولتوري إلى قتلي. فهؤلاء قد يقتلونني من غير تعذيب، على الأقلّ...

بقي إدوارد ملتصقاً بي. محاولاً أن يقف بيني وبين جايكوب. وكان يمرّ بأصابعه على وجهي بحنان ويهمس في أذني: «لا تخافي، لا تخافي، لن أدعها تقترب منك أبداً».

«هل وجدت الجواب على سؤالك الآن... أيها المهجّن؟»، قال إدوارد.

«ألا تعتقد أنّه يحقّ لبيلاّ أن تعرف... فالأمر يتعلّق بحياتها؟»، أجاب جايكوب متحدّياً.

لم يرفع إدوارد صوته؛ ولا أظنّ أنّ تايلر، الذي كان قد تقدّم نحونا بضع خطوات، استطاع أن يسمعه. «لمَ نعرّضها للخوف، وهي ليست في خطر؟».

«الخوف خيرٌ لها من التعرّض للخداع».

حاولت استعادة هدوئي، وتجاهُل الدموع المنهمرة من عينيّ.

كانت صورتها ترتسم داخل أجفاني. رأيتها تكشّر عن أسنانها، وفي عينيها الصفراوين تلمع نار الثأر. كانت تلوم إدوارد على وفاة حبيبها جايمس، وتصرّ على الانتقام منه، بقتلي.

مسح إدوارد دموعي عن خدّي برؤوس أنامله، وتمتم: «هل تعتقد حقّاً أنّ إيذاء مشاعرها بهذه الصورة، افضل من حمايتها؟».

«إنّها أقوى ممّا تظنّ. سبق أن تغلّبت على ما هو أصعب من هذا».

قال جايكوب هذه الكلمات وتغيّرت ملامحه فجأةً؛ لقد أخذ يتأمّل وجه إدوارد بعينين متفحّصتين وبغرابة شديدة. كان يبدو وكأنّه يفكّر في مسألةٍ حسابيّةٍ صعبة.

التفتّ إلى إدوارد فشعرت به منكمشاً، ومتألّماً. وفي تلك اللّحظة الصعبة، عادت إليّ الذكرى المريعة للساعات المرعبة التي قضيناها في غرفة عائلة فولتوري، في ذلك البرج في إيطاليا. لقد استطاعت جاين، حينذاك، استخدام موهبتها الخبيثة في تعذيب إدوارد عن طريق التركيز عليه بأفكارها المجرمة والهدّامة.

الذكرى الأليمة لتلك اللّحظات جعلتني أتغلّب على حالة الخوف الهستيرية التي كانت تسيطر عليّ... إنّي أفضّل مئة مرّة أن تقتلني فيكتوريا، على أن يتعرّض إدوارد لمثل ذلك التعذيب مجدّداً.

«هذا مضحك»، قال جايكوب وهو يحدّق في وجه إدوارد.

انتفض إدوارد، وحاول استعادة تعابير وجهه الطبيعيّة، لكنّه لم يقوَ على إخفاء العذاب الظاهر في عينيه.

رحت أتأمّل وجه إدوارد المتلوّي والمتغيّر باستمرار، من جهة، ووجه جايكوب الساخر من جهة أخرى.

«ماذا تفعل به يا جايكوب؟»، سألت.

«لا شيء، يا بيلّا، ذكريات سعيدة جدّاً...، ألا يكفي؟» أجاب إدوارد.

ضحك جايكوب بازدراء من جديد، وانتفض إدوارد مرّةً أخرى.

«توقّف عن كلّ ما تقوم به يا جايكوب!». قلت.

«بالطبع، إن كنت تودّين ذلك. لكن، لا ذنب لي إن كانت تضايقه ذكرياتي».

نظرت إليه، فبادلني بابتسامة مشاكسة، كأنّها ابتسامة طفلٍ يقابل تأنيب شخصٍ قريب منه بالابتسام، لأنّه واثق من أنّ هذا الشخص لن يعاقبه.

«ها إنّ المدير متوجّه نحونا، لنذهب من هنا». قال إدوارد لاهثاً.

«لا علاقة لكِ بكلّ ذلك. لدينا حصّة إنكليزي الآن».

«إنّه يبالغ في حمايتك...، لكن الحياة إذا خلت من المشاكل، تخلو من المرح! ألا يحقّ لك ببعض المرح؟».

حملق فيه إدوارد، وقال: «كفّ عن الكلام، يا جايكوب، هل تسمع؟».

ضحك جايكوب وقال: «أنظري، إذا شعرت بميل إلى الحياة الطبيعية من جديد، يمكنك زيارتي، ما زلت أحتفظ بدرّاجتك في الكاراج عندي».

خفّفت عباراته الأخيرة من ثقل الموقف. فسألته: «لقد وعدت تشارلي ببيعها، ماذا حصل؟».

لو لم أرجو تشارلي في ذلك الوقت من أجل جايك، قائلةً له إنّ هذا الأخير صرف جهداً كبيراً على تلك الدرّاجة، ويحقّ له بيعها وقبض ثمنها، لرماها في برميل المهملات أو أحرقها.

«لا يمكن أن أفعل ذلك. هذه درّاجتك وليست درّاجتي، ويحقّ لك استعادتها متى شئت».

ثمّ اقترب منّي وهمس بجدّية: «لقد عدتُ عن رأيي بشأن عدم إمكانية المحافظة على صداقتنا. ليس لديّ مانع من أن تأتي لزيارتي».

كنت متيقّظة لوجود إدوارد إلى جانبي. كانت ذراعاه لا تزالان ملتفّتين حولي لتحميني بقوّة درعٍ صخرية. استرقت النظر إلى وجهه، فإذا بملامحه تدلّ على الهدوء والصبر.

قلت: «سأرى...».

أسقط جايكوب مظاهر العداء كليّاً، وكأنّه نسي وجود إدوارد، أو قرّر التصرّف هكذا عمداً. وقال: «أشتاق إليك كلّ يوم يا بيلاّ. الحياة مختلفة من دونك».

«أعلم ذلك، ولكنّي آسفة يا جايك...».

هزّ رأسه، وقال شاكياً: «أعلم أنّك لا تأبهين كثيراً... وتعتقدين أنّي سأتعوّد على ابتعادك، وقد لا تكونين بحاجة إلى أصدقاء...».

كنت دائماً أسرع إلى مساعدة جايكوب عندما يكون متألّماً. لم يكن بحاجة لمساعدة جسدية بالطّبع، لكنّي شعرت، في تلك اللّحظة، بميلٍ قويّ إلى تحرير ذراعيّ من تحت ذراع إدوارد، لألفّهما حول وسطه الدافئ العريض، وأعده بقبول صداقته.

ازداد التفاف ذراعيّ إدوارد حولي، عندما سمعنا صوت المدير، السيّد غرين: «هيّا أسرعوا إلى الصفّ».

قلت: «إذهب إلى مدرستك، يا جايك». لم يكن جايك من طلاّب مدرستنا، فهو يذهب إلى مدرسة خاصّة بمحميّة كويلوت.

أرخى إدوارد ذراعيه عنّي، لكنّه أمسك بيدي.

مشى المدير بين التلامذة وطلب منهم الدخول إلى غرف الصفّ حالاً، وهدّد بمعاقبة من لا يمتثل لأوامره. فتفرّق الجميع قبل أن ينهي عبارته.

«سيّد كولن! هل هناك أيّ مشكلة؟».

«لا أبداً، حضرة المدير، نحن في طريقنا إلى الصفّ».

«عظيم، لكنّي لا أعرف صديقك».

والتفت إلى جايكوب وسأله: «هل أنت تلميذٌ جديد في المدرسة!؟».

كنت متأكّدة من أنّ المدير، مثل معظم الناس، سيسارع في الحكم على جايكوب من خلال مظهره، على أنّه شابٌ مشاغب وخطِر.

قال جايكوب: «كلّا». متكلّفاً الابتسام بعض الشيء.

«لذلك أرجو أن تبتعد عن المدرسة حالاً، وإلاّ اتصلت برجال البوليس».

في هذه اللّحظة، انقلب ظلّ الابتسامة إلى ضحكة عريضة أعرف سببها. لا شك أنّ جايك تخيّل تشارلي قادماً إلى المدرسة ليلقي القبض عليه.

كانت ضحكته ساخرة ومريرة، غير ما كنت أسعى لرؤيته على وجه جايكوب.

وقف أمام المدير، وقام بحركة تشبه التحية العسكرية. وقال: «أمرُك سيّدي». ثمّ قفز إلى دراجته النارية وهي لا تزال فوق الرصيف، وأدار المحرّك فارتفع هديره عالياً، وسُمع صوتُ صرير الدواليب فوق الاسفلت، وما هي إلاّ لحظات، حتى استدارت الدرّاجة بسرعة كبيرة واختفى جايكوب عن الأنظار.

وقف المدير يصرّ على أسنانه غيظاً وتوجّه إلى إدوارد منبّهاً: «سيّد كولن، أتوقّع منك ألاّ تسمح لصديقك بالدخول إلى حرم المدرسة مرّة أخرى».

قال إدوارد: «إنّه ليس صديقي. لكنّي سأحيطه علماً بالتنبيه».

كانت علامات إدوارد العالية وسلوكه الممتاز عاملاً مؤثّراً في طريقة تقييم المدير لما حصل. قال: «إن كان لديك أيّ مخاوف، سأكون سعيداً لمساعدتك...».

«ليس هناك من مخاوف. لا تقلق يا سيد غرين لن تكون هناك مشاكل».

«أرجو أن تكون على حقّ. الآن انطلق إلى صفّك، وأنتِ أيضاً يا آنسة سوان».

هزّ إدوارد رأسه إيجاباً، وأمسك بيدي وشدّني في اتجاه الصفّ.

«هل تشعرين بالقدرة على حضور الدرس؟»، سألني إدوارد عندما ابتعدنا عن المدير.

«نعم» أجبته، لكنّي في الواقع لم أكن متأكّدة. كلّ ما كنت أريده بإلحاح في تلك اللّحظة، كان التحدّث إلى إدوارد.

دخلنا إلى الصفّ، وكان الأستاذ قد بدأ بقراءة قطعة شعرية من شعر فروست. وما إن وصلنا إلى مقاعدنا، حتى أخذت ورقة بيضاء وكتبت بخطٍّ مضطّرب جدّاً:

ماذا حصل؟ أخبرني كلّ شيء. وانسَ هراء «حمايتي»، أرجوك.

دفعت الورقة إلى إدوارد. رأيته يأخذ نفساً عميقاً، ويكتب فقرة كاملة بخطّه المميّز، وبسرعة.

رأت آليس أنّ فيكتوريا كانت عائدة. لذلك أخذتك إلى مكانٍ بعيد من أجل الوقاية. لكن، لم يكن بوسعها الاقتراب منك أبداً. كان إيميت وجاسبر على وشك الانقضاض عليها لو لم تهرب. ويبدو أنّها كانت ماهرة جداً في عمليّة الهروب. فقد هربت إلى محاذاة حدود منطقة كويلوت وكأنّها كانت تقرأ المناطق في الخريطة. لم تستطع آليس توقّع تحرّكاتها بعد أن اقتربت إلى منطقة الذئاب. في الحقيقة إنّه كان بإمكان الذئاب اصطيادها، لو لم نقف في طريقهم. ظنّ الذئب الرّمادي الكبير أنّ إيميت اخترق الحدود، فهبّ للدفاع. عند ذلك، تحرّكت روزالي خوفاً

على إيميت. عند هذا الحدّ، تخلّى الجميع عن مطاردة فيكتوريا، والتفت كلّ واحدٍ إلى حماية رفاقه. عمل كارلايل وجاسبر من أجل تهدئة الأجواء، لكنّ فيكتوريا كانت قد لاذت بالفرار.

قرأت ما ذكر من أسماء: إيميت، جاسبر، آليس، روزالي وكارلايل. كلّ أفراد عائلة كولن ما عدا إيزمي. ومن جهة أخرى، بول وجميع الرّجال الذئاب في كويلوت. كان من السهل أن تؤدّي هذه الحادثة إلى معركة دمويّة بين أفراد العائلة التي سأنتمي إليها في المستقبل، وأصدقائي القدامى. تصوّرت أنّ الخطر الحقيقي لا بدّ أنّه يواجه الذئاب في مثل هذه الحالة. لكنّني ارتعدت عندما تخيّلت آليس النحيلة الجسم، تصارع أحد الذئاب الضخمة...

محوت بعناية كلّ ما كتبه. وكتبت في أعلى الصفحة:

ماذا لو هاجمَت تشارلي؟

هزّ إدوارد رأسه نفياً. بالطّبع، هو سيقلّل من احتمال تعرّض تشارلي للخطر. لكنّي لم أقتنع، وكتبت له:

كنتَ بعيداً من هنا، ولا يمكنك معرفة ما كانت تنوي فعله.

قرار الذهاب إلى فلوريدا لم يكن صائباً!

سحب الورقة منّي وكتب:

لم أكن قادراً على إرسالك بمفردك، لأنّ حظك السيّئ قد يوقع الطائرة، وحتى الصندوق الأسود في داخلها قد يتحطّم.

لم أقصد القول إنّي كنت أريد الذهاب بمفردي. كنت أفضّل لو بقينا نحن الاثنين إلى جانب تشارلي. لكنّ كلامه جعلني أخرج عن الموضوع، وشعرت ببعض الاستياء لذلك العذر التافه المضحك. كيف يمكن لحظّي السيئ أن يوقع الطائرة، ويحطّم صندوقها الأسود...؟ فأجبت:

لنقل إن حظّي السيئ أسقط الطائرة، ماذا كنت ستفعل، أنت، لو كنت معي؟

لمَ سقطت الطائرة؟

لاحظته يقاوم الابتسام. وتابعت معه:

كان الكابتن ومعاونوه قد فقدوا وعيهم من شدّة السكر.

لا مشكلة، كنت جلست في مقعد الكابتن، وقدت الطائرة بنفسي.

تعجّبت من مبالغته، وقلت في نفسي: «بالتأكيد... !»، ثمّ كتبت:

لنفرض أنّ محرّكَي الطائرة انفجرا وكانت الطائرة في طريق السقوط نحو الأرض.

كنت سأنتظر حتى نصبح قريبين من الأرض، فأمسك بك جيّداً، اكسر جسم الطائرة بقدمي، واقفز. وبعد لحظات نعود معاً، ونقف أمام حطام الطائرة مشدوهَين كيف حالفنا الحظ بالنجاة!

نظرت إليه، لا أجد شيئاً أقوله.

قال همساً: «ماذا؟».

قلت: «لا شيء!».

أردت إنهاء هذا الحديث المربك بوعدٍ صريح:

قلْ إنك ستخبرني في المرّة القادمة.

كنت متأكّدة من أنّ فيكتوريا ستعاود الهجوم بالطريقة نفسها مراراً، إلى أن تنجح في قتل أحد منّا.

نظر إدوارد إلى وجهي بتمعّن. كنت أشعر بأنّ وجهي ما زال بارداً وشاحباً، ولم يكن الدّمع قد جفّ في عينيّ بعد. تنهّد وهزّ رأسه بالموافقة. فكتبت: **شكراً.**

اختفت الورقة من تحت يدي في طرفة عين. نظرت إلى أعلى، سائلة، فوجدت الأستاذ يقترب منّا.

«هل هناك ما تودّ أن تشارك الصفّ به، سيّد كولن؟».

نظر إدوارد إليه ببراءة، وأمسك بإحدى أوراقه المرتّبة فوق الطاولة، وقال متظاهراً الارتباك: «الملاحظات التي دوّنتها حول الدرس؟».

ألقى الأستاذ نظرة سريعة على الورقة، ووجد من دون شكّ، أنّ إدوارد قد دوّن شرح الدّرس بشكلٍ دقيق؛ فقطّب حاجبيه ومشى.

لم أسمع أيّ تعليق حول ما حصل في الصباح، سوى في حصّة الحساب، الحصّة الوحيدة التي أحضرها من دون إدوارد.

«هل تراهن؟»، وصلت هذه الجملة إلى مسمعي.

نظرت، فرأيت تايلر ومايك، وأوستن وبن، ملتفّين حول بعضهم ويتبادلون الحديث.

«هل شاهدت ضخامة ذلك الصبي الذي يدعى جايكوب؟ أظنّ أنّه أقوى من كولن». همس مايك، وظهر متحمّساً للفكرة.

«لا أعتقد ذلك». قال بن. «لدى إدوارد شيء... يجعله شديد الثقة بنفسه، أظنّ أنّه لا يخاف من جايكوب».

«أنا أشارك بن رأيه». قال تايلر. ولا ننسى إخوة إدوارد الكبار، فهم بلا شكّ سيسرعون إلى نجدته، إذا اقتضى الأمر.

«هل ذهبتم إلى لا بوش مؤخّراً؟»، سأل مايك. ذهبت برفقة لورين إلى الشاطئ منذ حوالى أسبوعين. صدّقوني إنّ جميع رفاق جايكوب هم في مثل ضخامته».

«من المؤسف أنّ المشكلة انتهت بهذه السرعة». قال تايلر. «لو تطوّرت، لكانت نتائجها مثيرة!».

«لا أظنّ أنّها انتهت. ربّما نشهد حصول شيء جديد». قال أوستن.

ضحك مايك وقال: «ما رأيكم في أن نراهن؟».

«أراهن بعشرة دولارات على جايكوب»، قال أوستن.

«عشرة على كولن»، قال تايلر.

«عشرة على إدوارد»، أضاف بن.

«على جايكوب»، قال مايك.

«ولكنّنا لا نعلم سبب المشكلة، وهذا يؤثر على نتائج الرّهان». قال أوستن.

«أظنّ إنّي أعلم». قال مايك ونظر نحوي، وكذلك فعل بن وتايلر. لكن، سرعان ما أزاحوا أنظارهم عنّي، وتظاهروا الانشغال بأوراقهم، كأنّهم فوجئوا باحتمال أن أكون قد سمعت ما دار بينهم.

«إنّي أصرّ على جايكوب»، تابع مايك همساً.

4

طبيعة

لم يكن هذا الأسبوع سهلاً.

كنت أعلم أنّ لا شيء تغيّر.

ها إنّ فيكتوريا تصرّ على محاولة النيل منّي. لكنّي لم أعتقد لحظةً أنّها تخلّت عن ثأرها. لقد أكّدت في عودتها ما كنت أعرفه، لذا لا داعي للرّعب من جديد.

في الواقع، الكلام عن عدم الخوف أسهل من عيشه.

موعد التخرّج بات قريباً، ولا أجد من الحكمة أن أبقى قابعة في عجزي، أترقّب الهجوم القادم. كان الخطر يحدق بي، وضعفي هو السبب. فتاةٌ مثلي، ذات حظٍّ سيّئ مثل حظّي، يجب أن تكون قادرة على الدفاع عن نفسها. يجب ألاّ تظلّ إنساناً.

لم يصغِ إليّ أحد...

قال لي كارلايل: «نحن سبعة يا بيلاّ. وبوجود آليس معنا، لا يمكن لفيكتوريا أن تفاجئنا. ما زلت على اعتقادي، من أجل تشارلي، يجب أن نسير بحسب خطّتنا الأساسية».

وقالت إيزمي: «لن نسمح بأن يصيبك مكروه، يا حبيبتي. أنت تعلمين ذلك ولا داعي للخوف». ثمّ طبعت قبلةً على جبيني.

وقال إيميت: «إنّي مسرور جدّاً لأنّ إدوارد لم يقتلكِ. إنّ وجودك يضفي على حياتنا أجواء من المرح».

صوبت إليه روزالي نظرات عتب.

أمّا آليس، فنظرت إليّ وقالت: «أعتبر شعورك بالقلق حول هذا الأمر التافه إهانة لمواهبي. أرجوك لا تقولي إنّك ما زلت قلقة».

«إذا كان هذا الأمر تافهاً، لمَ أصرّ إدوارد على ذهابي إلى فلوريدا؟».

«ألم تلاحظي حتى الآن، يا بيلاّ، ميل إدوارد إلى المبالغة في ردّ الفعل؟».

كان جاسبر في هذا الوقت قد نجح في التخفيف من حدّة الجوّ، بفضل موهبته الخاصّة في التأثير على العواطف. فشعرت بالاطمئنان، والاقتناع بآرائهم المشجّعة. لكن سرعان ما تراجع هذا الهدوء في نفسي، عندما خرجت من الغرفة برفقة إدوارد.

استعدت في رأسي خلاصة ما أجمعوا عليه، وهو أنّه يجب أن أتناسى كون مصّاص دماء مصاب بالجنون يلاحقني كي يقتلني. بحسب رأيهم، يجب أن أتناسى وأعود إلى حياتي الطبيعية.

حاولت العمل بنصيحتهم، لو لم أصطدم بأمور كثيرة عدا كوني على لائحة الخطر.

أوّل تلك الأمور كان موقف إدوارد المُخيّب.

قال: «هذا الأمر هو بينك وبين كارلايل. بالطّبع، أنا أحبّ أن يكون بيني وبينك، وأستطيع أن أجعله كذلك في أيّ وقتٍ تشائين، ولكن تحت شرطٍ تعرفينه». ورسم على شفتيه ابتسامة ملائكيّة.

كنت أعرف تماماً ذلك الشرط. كان إدوارد قد عرض عليّ أن يقوم بعمليّة تحويلي بنفسه، شرط أن أتزوّجه أوّلاً.

كنت في بعض الأحيان أشك في عدم قدرته على قراءة أفكاري. كيف استطاع أن يكتشف الشرط الوحيد الذي أتردّد أمامه. الشرط الوحيد الذي قد يخفّف حماستي.

كما قلت، كان أسبوعاً صعباً. وهذا اليوم كان أصعب أيّامه.

كالعادة، كان اليوم الذي يغيب فيه إدوارد عنّي صعباً. لم تكن آليس قد تنبأت بأيّ شيء خارج عن المألوف في نهاية هذا الأسبوع، لذا اقترحت عليه الذّهاب إلى الصّيد مع أخويه. كنت أعلم كم كان الصّيد في الأماكن القريبة مملاً بالنسبة له، قلت: «إذهب معهم واستمتع... لا تنسَ أن تعود إليّ ببعض الأسود الجبليّة».

كنت أصرّ على عدم الاعتراف له بالعذاب الذي يصيبني بسبب غيابه، والكوابيس التي تعيد إليّ الخوف من أن يتركني، كما فعل سابقاً. لو كان يعلم ذلك، لرفض الابتعاد عنّي كليّاً. لكنّي، لاحظت الضعف الشديد الذي أصابه بعد عودته من إيطاليا، واسوداد عينيه الذهبيتين بسبب قلّة الصيد وشدّة الظمأ، ففكّرت أنّه لم يكن مضطرّاً لتحمّل أنواع إضافية من الحرمان، ورحت أتظاهر بالشجاعة، وأدفعه إلى مرافقة إيميت وجاسبر، كلّما ذهبوا في رحلة صيد.

أظنّ أنّه كان يحسّ بمشاعري، ولو قليلاً. ففي هذا الصباح، وجدت ورقة فوق مخدّتي كتب عليها:

ساعود بسرعة، لن يكون لديك الوقت لتشتاقي إليّ. اهتمّي بقلبي، إنّي اتركه معك.

استيقظت صباح يوم السبت، وتوقّعت نهاراً طويلاً ومملاّ. لم يكن أمامي ما يسلّيني سوى وظيفتي الصّباحية المعتادة صباح كلّ سبت، في محلّ نيوتن للألبسة الرّياضية. أما وعد آليس: «سوف أذهب إلى الصّيد في مكانٍ قريب من البيت، على بعد خمس عشرة دقيقة فقط. لا تقلقي فإنّي لا أتوقّف عن المراقبة». فقد فهمت من كلماتها ما معناه: «لا تحاولي القيام بأيّ حماقة في غياب إدوارد».

حاولت التأمّل في النواحي الإيجابية للأمور. سوف أذهب بعد انتهاء العمل لمساعدة آنجيلا في إعداد البطاقات. بعد ذلك، أقضي وقتاً

ممتعاً مع تشارلي المرتاح في غياب إدوارد. في حال عدم استطاعتي قضاء اللّيل بمفردي، قد أطلب من آليس أن تنام عندي، وغداً يأتي إدوارد.

تناولت وجبة الصباح ببطء، ثمّ حاولت التّسلّي بترتيب قطع المغنطيس على باب البرّاد في خطٍّ مستقيم، ولكن قطعتين مستديرتين كبيرتين بينها، ذات قوّة جذب عالية، لم تستجيبا إلى محاولاتي المتكرّرة. كانتا متنافرتا الأقطاب، فكلّما حاولت وضع الأخيرة على الخط إلى جانب رفيقتها، كانت الأولى تقفز من مكانها.

لا أدري لمَ أغضبني ذلك الأمر، هل أنّني مصابة بنوع من الهوَس المرضي يا تُرى؟ لمَ لا تمتثل هاتين القطعتين إلى إرادتي؟ لمَ العناد؟ كان يمكنني أن أحلّ المشكلة وأضع الأخيرة بطريقة مقلوبة، لكنّي رفضت التراجع أمامهما. وأخيراً، نزعتهما عن البراد وحملتهما، واحدة إلى جانب الأخرى في يديّ الاثنتين. بذلت بعض الجهد لتثبيتهما في ذلك الوضع، فقد كانتا قويتين جدّاً ولم تتوقّفا عن التنافر، لكنّني أجبرتهما على التواجد معاً.

قلت بصوتٍ عالٍ: «أرأيتما كيف يمكنكما أن تتواجدا معاً بهذا الشكل». تنبّهت فجأةً أنّي كنت أتكلّم إلى جماد... وخفت ممّا قد يعنيه تصرّفي هذا.

وصلت إلى محلّ نيوتن. كان مايك منهمكاً في تنظيف أرض المحل، بينما والدته منهمكة بترتيب البضاعة المعروضة في إحدى الواجهات. كانا يتناقشان ولم يلاحظا وصولي. قال مايك: «لكنّ تايلر لا يستطيع الذهاب إلاّ في هذا الوقت، لا تنسي أنّك وعدتني بالذهاب بعد التخرّج...» وأجابته: «سأسمح لك بالذهاب، ولكن ليس الآن. يمكنكما القيام بنشاطٍ آخر، ريثما يضع البوليس حدّاً للجرائم التي تحصل في سياتل. إنّي متأكّدة أنّ السيّدة كراولي قالت لتايلر كلاماً

مماثلاً. . .، أوه، صباح الخير يا بيلاّ!» قالت بعد أنّ أخفضت نبرة صوتها عندما لمحتني. «لقد أتيتِ باكراً».

كانت كارين نيوتن في كامل أناقتها كالعادة، ولكنّ مظهرها لم يكن منسجماً مع أجواء الرّياضة في الهواء الطّلق ومعدّاتها المعروضة في المحل. قلت بلهجة المزاح: «زحمة السّير لم تكن خانقة. . .» وتوجهت على الفور لارتداء السترة البرتقالية القبيحة التي أرتديها خلال العمل. كنت متعجّبة من أنّ السيّدة نيوتن، مثل تشارلي، كانت شديدة القلق حول ما يحصل في سياتل.

تردّدت السيّدة نيوتن، وبدا لي أنّها تريد قول شيء. . .، فتوقفت عن إدخال ذراعي الثانية في كمّ السترة، وانتظرت.

بعد أن أطلعت عائلة نيوتن على عزمي على ترك العمل في الصيف، عرضوا الوظيفة على كاتي مارشال. وعندما لا يتوقّعون عدداً كبيراً من الزبائن، يفضّلون أن تبقى كاتي وحدها، فلا يتحمّلون دفع أجرين. . .

«كنت على وشك الاتصال بك». قالت السيّدة نيوتن، ويدها تمسك ببعض المنشورات الاعلانية الصفراء الموضوعة إلى جانب صندوق المحاسبة، وأكملت: «لا أتوقّع عدداً كبيراً من الزبائن اليوم، ومن المحتمل ألاّ نحتاج إلى مساعدة. أعتذر».

في الأيام الطبيعية، أفرح عندما لا يكون لديّ عمل، أمّا اليوم. . . فلم أفرح كثيراً.

قلت: «حسناً»، وشعرت بالإحباط قليلاً. ماذا أفعل الآن؟

«لا يحقّ لك أن تتعاملي مع بيلاّ هكذا يا أمّي». قال مايك.

«لا تهتمّا للأمر. . . سوف أعود إلى البيت وأحضّر نفسي من أجل الامتحانات النهائية». سارعت إلى قول ذلك، بقصد عدم تصعيد جوّ التشنج بين مايك ووالدته.

«شكراً يا بيلّا! وأرجوك أن ترمي هذه المنشورات في طريقك إلى السيارة. في الحقيقة، لقد مرّت فتاة وتركتها هنا، والمكان ضيّق...».

ثمّ توجّهت إلى ابنها: «مايك، لا تنسَ أن تمسح أرضَ الجناح الخلفي».

قلت: «بالطّبع! لا مشكلة في ذلك». كان مستوعب المهملات وراء المحلّ، قرب موقف سيّارات الموظفين. فأخذت مجموعة المنشورات من يدها، وخرجت أتمشى ببطء تحت المطر وأنا أفكّر. كنت على وشك رمي الأوراق في البرميل، عندما لفتت انتباهي الكلمات المكتوبة بالخطّ العريض:

«نداء لنجدة الذئاب الأولمبية».

أمسكت بالأوراق بيديّ، ونظرت إلى الصورة المطبوعة تحت الكلمات. فانقبضت.

كانت هناك صورة ذئب يقف تحت شجرة كبيرة وينظر إلى الأعلى، وكأنّه يناجي القمر مستغيثاً. كانت الصورة مؤثّرة، إذ بدا الذئب ضعيفاً وحزيناً.

قفزت للتوّ إلى سيارتي، ولم تزل الأوراق بين يديّ. كان لديّ ربع ساعة فقط، وكانت كافية للوصول إلى لا بّوش.

سوف أقطع الحدود الفاصلة بين المنطقتين قبل وصولي إلى البلدة بقليل. لم أفكّر بالأمر مسبقاً، لذا لن يتسنّى لآليس معرفة ما أقوم به. القرار المفاجئ هو السبيل الوحيد، وكذلك السرعة في إتمام الأمور.

رميت الأوراق فوق المقعد الآخر إلى جانبي، فتبعثرت في كلّ مكان، وتضاعفت تلك النداءات بالحروف السوداء العريضة، وكذلك عدد الذئاب المستغيثة فوق الأوراق الصفراء. قدتُ السيارة بالسرعة القصوى التي كان يسمح بها محرّكها العتيق، وشغّلت مسّاحات المطر.

لم يكن لديّ فكرة عن موقع الحدود الفاصلة، لكنّي شعرت بالأمان

عندما رأيت المنازل الواقعة في محيط لا بّوش. لا يمكن لآليس أن تراقبني في هذه المنطقة. وفكّرت بأنّي سوف أتّصل بها، لأطمئنها عليّ، من منزل آنجيلا بعد الظهر. لا لزوم لأن تغضب منّي آليس، سيكفيني غضب إدوارد عندما يعود.

كان صوت المحرّك قد بدأ ينذر بما يشبه الاختناق، عندما أوقفت السيارة أمام ذلك البيت الأحمر القديم الذي كنت أعرفه جيّداً، والذي كان ملاذي في الأيّام الصعبة. تأثّرت لمشاهدته من جديد بعد ابتعادٍ طالت مدّته.

وقف جايكوب أمام الباب مشدوهاً. وفي اللّحظة التي توقّف فيها هدير المحرّك صرخ: «بيلّا!؟».

«جايك!».

قال من جديد: «بيلاّ!»، والابتسامة التي كنت أشتاق لرؤيتها على وجهه، ارتسمت خطوطها المشرقة كأشعة الشمس السّاطعة من تحت الغيوم. «لا أصدّق!».

أمسك بيدي، ورحنا نقفز كالأطفال.

«كيف استطعتِ المجيء؟».

«جئت خلسة!».

«هذا مثير!».

«أهلاً بك يا بيلاّ!». قال بيلي، والد جايكوب، الذي وصل بكرسيّه المتحرّك إلى الباب ليرى أسباب الضجّة.

قلت: «مرحباً، بيلي!». وكدت أختنق من شدّة التأثر. فإذا بجايكوب يأخذني بين ذراعيه ويضمّني إلى صدره بقوّة، ويدور بي وكأنّنا في حلقة رقص، مردّداً: «كم جميلٌ أن نراكِ هنا!».

«توقّف، أكاد أختنق».

ضحك وقال: «أهلاً بعودتك!»، وكأنّه يقول «أهلاً بعودتك إلى موطِنك!».

لم نستطع الجلوس في الدّاخل من شدّة الحماسة. فرُحنا نمشي بخطوات كبيرة وأحياناً نقفز. وإذا بي أستعيد شخصيتي السابقة، عندما كنت أصغر سنّاً وأقلّ شعوراً بالمسؤولية، قادرة على التصرّف بحماقة في بعض الأحيان ومن دون سبب.

لم تدُم فرحتنا باللقاء طويلاً. فبعد أن تبادلنا الأخبار السريعة، وسألني عن سبب زيارتي المفاجئة، جئت على ذكر تلك المنشورات التي حرّكت مشاعري، فإذا به يطلق ضحكةً عالية تردّدت أصداؤها عبر الأشجار.

تابعنا السير وبعد أن تجاوزنا حائط المستودع واخترقنا سور الشجيرات الكثيفة الممتدّة على طول الشاطئ، كان الحديث قد وصل بنا إلى مواضيع صعبة مثل أسباب انفصالنا الطويل، فإذا بوجه صديقي يستعيد تجهّمه.

«أخبريني القصّة كلّها». قال لي. ورفس برجله قطعةً من الخشب الرّطب، فأرسلها بعيداً فوق الرمال لترتطم بالصخور. «أعني، أريدك أن تخبريني ماذا حصل منذ آخر مرّة. . .، قبل. . . تعلمين ما أريد قوله». تعثّرت الكلمات على لسانه. ثمّ استعاد أنفاسه وحاول من جديد: «أخبريني كلّ شيء. . .، هل عادت العلاقة بينكما إلى ما كانت عليه قبل أن يتركك ويرحل؟ هل سامحته على كلّ ما فعله بك؟».

تنفّست بعمق، ثمّ أجبت: «لم يقترف ذنباً لأسامحه عليه».

حاولت عدم التعرّض لكلّ ما له علاقة بالخيانة وتبادل الاتّهامات، لكنّي علمت أنّ لا سبيل لفتح صفحةٍ جديدة، من دون الانتهاء من تصفية تلك الحسابات.

قال بامتعاضٍ ظاهر: «كنتُ أوّد لو أن سام التقط لك صورة في

تلك اللّيلة من شهر أيلول الماضي، لكنّا بدأنا استعراض الأمور على ضوئها».

قلت: «أنا لا ألقي اللّوم على أحد».

«بل المسؤولية تقع على عاتق شخص».

«صدّقني، إنّك لن تلومه على المغادرة إن عرفتَ السبب».

نظر إليّ بتساؤل، ثمّ قال: «هيّا، أسمعيني ذلك السبب المدهش».

بدأت أنزعج من لهجته الجافّة، لكنّي لا أحتمل فقدان صداقته. لقد ذكّرني بذلك اليوم الصّعب، عندما فرض عليه سام أن يقول لي بأنّه لا يمكن أن نبقى أصدقاء.

استجمعت أفكاري، وقلت: «تركني إدوارد في أيلول الماضي، لأنّه اراد إبعادي عن صحبة مصّاصي الدّماء».

فوجئ جايكوب بكلامي، فأعاد التفكير في ما كان ينوي قوله. لكنّي اخفيت عنه السبب الذي كان وراء قرار إدوارد، وهو أنّ جاسبر حاول قتلي.

لكنّه ما لبث أن قال متحدّياً: «من المؤسف أنّه عجز عن الالتزام بقراره».

«تذكّر أنّي ذهبت بنفسي، وطلبت منه العودة».

ارتاحت ملامح جايكوب، فابتعد قليلاً، من دون أن يرفع عينيه عنّي، وقال: «هذا صحيح، لم أعرف القصّة كلّها، أخبريني ماذا حصل».

تردّدت، ورحت أعضّ على شفتي.

هل هو سرّ لا يمكنك إفشاؤه؟

قلت بسرعة: «كلاّ». لكنّها قصّة طويلة.

ابتسم، واستدار ليتابع سيره متوقّعاً منّي أن أتبعه. لحقت به بخطىً

ثقيلة، وشعرت بأنّي لا أرغب في تمضية مزيد من الوقت معه إن تصرّف بهذا الغرور؛ وخطر لي أن أعود إلى فوركس حالاً، إلاّ أنّي لم أكن متحمّسة لملاقاة آليس، ولا لمواجهة اللّوم، فاستبعدت الفكرة.

مشى جايكوب نحو جذع شجرةٍ كبير جدّاً، كان لا يزال ممدّداً فوق الرّمال منذ زمنٍ طويل. إنه مقعدنا القديم. جلس ونظّف بيده مساحةً صغيرة إلى جانبه، ودعاني إلى الجلوس، قائلاً: «أنا لا أخاف سماع القصص الطويلة، هل تحتوي على عنف؟».

جلست إلى جانبه، وقلت: «حسناً، إنّها تحتوي على قليل منه».

«لا بدّ لقصص الرّعب من العنف».

«لا تذكر هذه الألفاظ! هل ستستمع إليّ، أم ستقاطعني بملاحظاتك القاسية حول أصدقائي؟».

وإذا به يمرّ بيده فوق شفتيه في إشارة لإقفالها، ورمي المفتاح وراء ظهره. حاولت عدم الابتسام، لكنّي فشلت.

«سأبدأ بسرد الأحداث التي تعرفها وكنت شاهداً عليها». وكنت قد رتّبت الأحداث في رأسي قبل أن أبدأ.

رفع جايكوب يده.

قلت: «تفضّل، ماذا تريد أن تقول؟».

«إنّها فكرة جيّدة، لأني لم أفهم جيّداً ما كان يدور حقّاً في ذلك الوقت».

قلت: «إذاً، إنتبه لأنّ الأحداث تتعقّد في بعض الأحيان. أنت تعلم قدرة آليس على رؤية الأمور قبل حصولها».

قطّب حاجبيه، لكنّي لم أتأثر بذلك التعبير الذي يحمل وراءه شكوك الذئاب حول القدرات الخارقة التي يتمتّع بها مصّاصو الدماء. وتابعت أقصّ عليه ما فعلته في إيطاليا لإنقاذ إدوارد.

كنت أحاول الابتعاد عن التفاصيل غير الجوهرية، وتعمّدت قراءة تعابير وجهه، خاصّةً عندما أخبرته أنّ آليس اكتشفت نيّة إدوارد على الانتحار بعد أن سمع بخبر موتي الكاذب. لم يكن سهلاً قراءة وجه جايك عندما يغرق في تفكيرٍ عميق... حتّى أنّه يصعبُ في مثل تلك الحال اكتشاف درجة إصغائه. لكنّه قاطعني مرّة واحدة ليقول: «لا يمكن لمصّاصة الدّماء العالمة في الغيب أن ترانا... أليس كذلك؟ هذا عظيم!». قال ذلك، وبانت على وجهه تعابير الغبطة والشراسة معاً.

أحجمت عن الكلام لدقائق، فتنبّه لخطئه، واعتذر. ثمّ أغلق شفتيه ورمى المفتاح من جديد.

عندما وصلت إلى الحديث عن عائلة فولتوري، أطبق جايكوب فكّيه وصرّ على أسنانه، واجتاحت القشعريرة ذراعيه، وتوسّع أنفه وارتجف. لم أقصّ عليه التفاصيل، لكنّي قلت له إنّ إدوارد استطاع أن يقنعهم بالعدول عن مهاجمتنا، من دون التطرّق إلى نوع الوعود التي اضطررنا إلى إعطائها، ولا إلى الزيارة التي كنّا نترقّبها. لم يكن جايكوب بحاجة لأن يعيش كوابيس مثل التي كنت أعيشها.

بعد أن انتهيت، قلت: «الآن، وقد أخبرتك كلّ ما عندي. هات، أخبرني ماذا حصل في غيابي، عندما كنت أزور والدتي؟»، أردته أن يخبرني كلّ شيء، فهو لا يخفي عنّي بعض الأمور، كما قد يفعل إدوارد خوفاً عليّ.

انحنى جايكوب قليلاً وبدت عليه أمارات الحماسة، وقال: «كنت أنا وإمبري وكويل نقوم بالحراسة المعتادة مساء السبت. وفجأةً، بوم! ظهرت أمامنا آثار أقدامها...»، ورفع ذراعيه كأنّه يصف انفجاراً. «كانت لا تزال حديثة جدّاً... بدا وكأنّها مرّت منذ أقلّ من خمس عشرة دقيقة. طلب منّا سام انتظاره قبل القيام بأيّ تحرّك، لكنّي لم أعلم أنّك كنت بعيدة في فلوريدا، ولم أكن واثقاً من دقّة حراسة أصدقائك لك.

لذا، قرّرنا اللّحاق بها بسرعة الرّيح، لكنّها سرعان ما تخطّت الحدود ولم نتمكّن من الانقضاض عليها. في الحقيقة، أثار الأمر غضبنا كثيراً».
قال ذلك ونفض برأسه خصلات شعره الطويلة عن عينيه، ثم أكمل:
«كنّا قد ابتعدنا كثيراً نحو الجنوب. وإذا بأفراد عائلة كولن يطاردونها أيضاً، لكنّها غيّرت وجهتها، وعادت إلى مكانٍ لا يبعد سوى أميال قليلة عن حدودنا الشمالية. لو علمنا أنّها ستعود إلى هناك، لأوقعناها في فخٍّ أكيد».

هزّ برأسه وقال: «هنا ازدادت الأحداث خطورة. اقترب سام والرّفاق الآخرون منها قبلنا، لكنّها كانت تتحرّك في محاذاة الخطّ الحدودي، وجميع أفراد عائلة كولن كانوا في تلك المنطقة. وإذا بالكبير، ماذا يدعى. . .؟»، قلتّ «إيميت»، قال: «نعم هو، انطلق بقوّة وراءها، لكنّ، ذات الشعر الأحمر، كانت سريعة جدّاً. وإيميت، في اندفاعته الشرسة تلك، اصطدم ببول. وبول. . . تعرفينه. . .».
«نعم. . .أعرفه».

«أضاع عقله، ولا يمكنني لومه على ذلك، فقد كان مصّاص الدّماء فوقه. انتفض بول وقفز عالياً وهاجم. لا تنظري إليّ هكذا. . .كان مصّاص الدّماء فوق أرضنا».

حاولت التظاهر بالهدوء، حتى لا يتوقّف جايكوب عن سرد التفاصيل. رحت أضغط بأظافري على باطن يديّ، حتى كدت أثقبها من شدّة التوتّر برغم معرفتي أنّ الأحداث قد انتهت بسلام.

«لم يصبه بول. وعاد إيميت محاولاً التمسّك بخاصرته مجدّداً. في هذا الوقت، ظهرت إلى الساحة تلك. . .هي. . .الشقراء، نعم»، كانت تعابير وجه جايكوب عندما جاء على ذكر روزالي تكاد تثير الضحك، إذ تراوحت بين إعجابه القسري بجمالها واشمئزازه الشديد منها.

كانت الشقراء شرسة جدّاً، فقرّرنا، سام وأنا، التدخّل لحماية بول

من الجانبين. في هذا الوقت، تدخّل قائدهم، والشابّ الأشقر أيضاً. . .

قلت: «كارلايل وجاسبر».

نظر إليّ مغتاظاً. «تعلمين إنّي لا أهتمّ بأسمائهم. حسناً، تفاهم كارلايل مع سام على تهدئة الأمور. فهدأت الأمور بسرعة كبيرة تدعو إلى الاستغراب. . . ويبدو أنّ السبب كان تأثير ما فعله الشابّ الأشقر، الذي ذكرتِ اسمه، في رؤوسنا. وبرغم معرفتنا بما كان يفعل، استطاع أن يؤثّر علينا، فهدأنا في الحال».

قلت: «أعرف ذلك الشعور».

«إنّه شعورٌ مزعج». لكنّه لا يصبح واضحاً إلاّ في ما بعد. ثمّ هزّ رأسه غاضباً، وأكمل: «اتّفق سام ومصّاص الدّماء الكبير أنّ القبض على فيكتوريا هو الأهمّ وله الأولويّة». انطلقنا وراءها من جديد، بعد أن كشف لنا كارلايل عن الخطّ الصحيح، كي نستطيع اقتفاء رائحتها. لكنّها صعدت إلى المرتفعات الصخرية شمال بلاد ماكّا، حيث يلتقي الخطّ بالشاطئ على طول بضعة أميال. وهربت داخل المياه من جديد. ثمّ طلب منّا الشابّ الكبير الضّخم، وكذلك الشاب الأشقر، السماح لهما باختراق الخطّ من أجل اللّحاق بها، لكنّنا رفضنا طبعاً.

«تصرّفتم بحماقة، ولكنّني سعيدة من أجل إيميت لأنّه يغامر بسلامته، إذ كان من الممكن أن يتعرّض للأذى».

«هل ادّعى أمامك صديقك مصّاص الدماء، انّنا هاجمناهم من دون سبب، وانّهم تصرّفوا ببراءة الملائكة».

«كلاّ»، قاطعته. «أخبرني إدوارد القصّة ذاتها، لكن من دون هذا القدر من التفاصيل».

انحنى جايكوب والتقط إحدى الحصى المنتشرة بالآلاف تحت أقدامنا ورماها، فذهبت إلى أبعد من مئة مترٍ فوق سطح الماء. وقال: «أعتقد أنّها ستعود. وسيكون لدينا فرصةً أخرى للقضاء عليها».

ارتعدت خوفاً، لا شكّ أنّ فيكتوريا ستعود. هل سيخبرني إدوارد في المرّة القادمة؟ لست متأكّدة. سأنبّه آليس كي تبقى متيقّظة لأيّ إشارة قد تنذر بهجوم جديد.

لم يلحظ جايكوب ردّ فعلي، كان ينظر بعيداً إلى الأمواج، ويفكّر.

«بماذا تفكّر؟»، قلت بعد صمتٍ طويل.

«أفكّر في ما قلته، بأنّ آليس شاهدتك في رؤيتها تقفزين عن الصخرة الكبيرة، فظنّت أنّك انتحرتِ، وأنّ معظم الأحداث الأخرى التي سردتّها لي كانت نتيجةً لذلك. ألا تلاحظين أنّك لو انتظرتِ مجيئي لما تمكّنت آليس من رؤيتك وأنت تقفزين، ولما تغيّر شيءٌ في حياتنا. كنّا لا نزال نقضي أوقاتاً ممتعة كلّ يوم سبت في لا بّوش... لو انتظرتِ مجيئي، لما عاد مصّاصو الدّماء إلى فوركس، وكنّا...».

وعاد إلى التأمل قبل أن ينهي عبارته.

أزعجتني أقواله. هل يقصد ما معناه، أن فوركس كانت أفضل لو لم تعد إليها عائلة كولن؟ بالنسبة إليّ، كنت سأشعر بكآبة شديدة، لو خلت البلدة منهم.

قلت: «كان إدوارد سيعود في جميع الأحوال».

«هل أنت متأكّدة من ذلك؟»، وبدا الامتعاض على وجهه عند ذكر اسم إدوارد.

أنا وإدوارد، في الحقيقة، لا نتحمّل قسوة الابتعاد عن بعضنا...

أراد أن يقول شيئاً، باللّهجة الغاضبة نفسها، لكنّه أوقف نفسه عن المتابعة، وتنفّس بعمق، ثمّ بدأ من جديد:

«هل علمت أن سام غاضبٌ منك؟».

«غاضبٌ منّي أنا...؟ أوه، ربّما يظنّ أنّي سبب عودتهم؟».

«لا، هذا ليس السبب».

«لمَ إذاً؟».

انحنى جايكوب، والتقط حصىً أخرى سوداء وأخذ يحرّكها بين أصابعه ناظراً إليها. وقال: «عندما لاحظ سام حزنك الشديد في ذلك الوقت، إضافةً إلى ما سمعه عن قلق تشارلي عليك، وقفزك عن الصخور. . . ، ظنّ أنّك الإنسانة الوحيدة في العالم، التي تملك أسباباً كافية لتكره مصّاصي الدّماء على مدى الحياة، كما يكرههم هو نفسه. لقد شعر بنوع من الخيانة، عندما سمحتِ لهم بالعودة إلى حياتك».

أحسست بمرارة شديدة. لا أحد ممّن حولي يرغب في مساعدتي على نسيان تلك الفترة الصعبة. ولم أصدّق أن هذا كان موقف سام منّي فحسب، بل موقف جايكوب أيضاً.

قلت: «قل لسام أن يذهب إلى الج. . . !».

قاطعني وقال: «أنظري إلى ذلك النّسر الهابط من الأعلى، أنظري كيف التقط السمكة وعاد إلى الفضاء. هكذا هي الدنيا، قصّة تدور بين صيّادٍ وطريدة، بين مفترسٍ وضحيّة. إنّها الطبيعة ودورة الحياة والموت».

لم أفهم هدفه من تلك الملاحظة. . . ظننت أنّ قصده كان تغيير الموضوع. لكنّه التفت إليّ وفي عينيه بريقٌ حزين: «ولكنّك لم تلاحظي أنّ السمكة حاولت تقبيله. لا أحد يلاحظ ذلك». قال ذلك وارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة.

قابلت ابتسامته بأخرى لا تخلو من المرارة. وقلت: «ربّما أنّ السمكة كانت تفكّر بشيءٍ معيّن. لا أحد يعرف ما يدور في رأسها».

وتابعت ممازحة: «النسر طائرٌ وسيم. . . !».

«هل هذا هو المهمّ؟ الشّكل الوسيم!؟».

«لا تتكلّم بحماقة يا جايكوب».

«أم أنّه المال؟»، سأل بإصرار.

«جميلٌ أن تفكّر بي هكذا!» قمتُ عن جذع الشجرة، وأدرت ظهري، وعزمت على المغادرة.

«آوه، لا تغضبي». تبعني، وأمسك بيدي، ودار بي في الاتجاه المعاكس. وقال: «كلّ ما في الأمر، إنّي أحاول أن أفهم حقيقة الأمور. ولم أفهم شيئاً حتى الآن».

«أنا أحبّه. ليس لأنّه وسيم، ولا لأنّه ثري! بل كنت أفضّل ألاّ يكون وسيماً ولا ثريّاً، حتّى تصغر الفجوة بيننا ولو قليلاً؛ لكنّه محبٌّ أيضاً، وبعيدٌ عن الأنانية، وذكيّ جدّاً وهو أفضل إنسان عرفته في حياتي. أنا أحبّه وكفى. هل الحبّ أمرٌ شديد التعقيد؟».

«حبّك له شديد التعقيد...».

قلت بسخرية شديدة: «أرجو أن تتفضّل وتشرح لي إذاً، شروط الحبّ الصحيح بالنسبة إليك».

«أظنّ أنّ الشرط الأساسي، هو أن يكون حبيبك إنساناً مثلك».

«هذا مقرف! قد ينتهي بي الأمر مع مايك نيوتن في هذه الحال».

انتفض جايكوب فجأةً، وعضّ على شفته. شعرت بأنّ كلماتي كانت قاسية. لكن غضبي منعني من التراجع. وإذا به يفلِتُ يدي، ويبتعد بنظره نحو المحيط.

«أنا إنسان». قال بصوتٍ خفيض.

«أنت لستَ إنساناً، بقدر ما هو مايك نيوتن كذلك. هل ما زلت تظنّ أنّ هذا هو الشرط الأهمّ؟».

تابع تأمّله للأمواج الرّماديّة البعيدة، وقال: «هناك فرق، لم تعطَ لي فرصة الاختيار».

ضحكت غير مصدّقة ما يقول: «أتظنّ أنّ إدوارد اختار أن يكون ما هو عليه. لم يكن لديه أيّ فكرة عمّا حصل له. بالتأكيد، لم يطلب حصول ذلك بنفسه».

هزّ جايكوب رأسه مظهراً عدم الاقتناع بكلامي.

قلت: «مشكلتك يا جايكوب أنّك تبرّر لنفسك كلّ شيء، وتظنّ دائماً أنّك على صواب، وغيرك على خطأ. كأنك تقول إنّ الرّجال الذئاب أفضل من الجميع».

لكنّه عاد لينظر إلى وجهي، ويقول: «هناك فرق».

«لماذا؟ لمَ لا تتقبّل عائلة كولن بطريقة أفضل؟ إنّهم أشخاص طيّبون جدّاً».

نظر إليّ واشتدّ عبوسه، وقال: «وجودهم مناقض للطبيعة. يجب أن يختفوا من الوجود».

نظرت إليه باستغراب، سائلة عن المنطق في كلامه. لم يفهم قصدي في البدء، لكنّه استدرك فجأةً: «نعم!؟».

قلت: «إن كانت الطبيعة هي محور الموضوع، مثلاً...».

«بيلّا»، قال اسمي بنبرةٍ هادئة وبطيئة، كأنّه متقدّمٌ في السنّ، وكأنّه والدي أو معلّمي. «ما أنا عليه الآن، ورثته عن أجدادي وقومي. إنّه جزء من هويّتي وشخصيّتي، وسبب استمرارنا في الوجود. وهو لا ينفي كوني إنساناً».

التقط يدي وضغط بها على صدره الدّافئ. فشعرت بصدى دقّاتِ قلبه المنتظمة، يتردّد في باطن يدي.

قلت: «لا يستطيع النّاس الطبيعيّون حمل درّاجة نارية بيدٍ واحدة كما تفعل أنت».

أجاب بابتسامةٍ خافتة: «النّاس الطبيعيّون يخافون من الوحوش، يا بيلّا. وأنا لم أدّعِ أبداً أنّي إنسان طبيعي وعادي».

أعلم أنّه ليس من السهل عليّ أن أكون على خصامٍ مع جايكوب. ابتسمت وقلت: «إنّك تبدو لي إنساناً حقيقيّاً». وسمحت لنفسي أن أضيف كلمة أخرى: «... الآن».

«أشعر بأنّي إنسانٌ بكلّ ما للكلمة من معانٍ». أشاح بنظره إلى البعيد، وارتجفت شفته السفلى، فعضّ عليها بقوّة.

أمسكت بيده وهمست: «جايك!».

كان ألمه، الذي يخفيه وراء قناع الغضب، والسخرية المرّة في بعض الأوقات، سبب مجيئي إلى لا بّوش، والدافع إلى عدم اكتراثي باللّوم الذي سألقاه من آليس أو إدوارد. أرى هذا الألم واضحاً في عينيه الآن؛ وأقدّر عجزي عن مساعدته، لكنّي سأحاول؛ ليس لأنّي أدين له بمساعدتي في السابق، بل لأنّ ألمَهُ هو ألمي، ولأنّه أصبح جزءاً منّي، ولا شيء يغيّر ذلك في الوقت الحاضر.

5

التطابق

«هل أنت مرتاح يا جايكوب؟ أخبرني تشارلي أنّك متعب. . .، هل تحسّن وضعك؟».

كانت يده الدافئة تمسك بيدي، لكنّه تعمّد ألاّ أرى عينيه. وأجاب: «لا بأس». ومشينا لنجلس على مقعدنا الملقى فوق الرّمال والحصى. لم يجلس بقربي، بل على الأرض الرّطبة مواجهاً البحر، كي يتسنّى له إخفاء ملامح وجهه عنّي عند الحاجة، وبقي ممسكاً بيدي.

بدأت أثرثر لأتغلّب على الصمت. «ماذا عن أخبار سام وإميلي، وإمبري وكويل، هل أنّ كويل. . .؟ لا بدّ أنّ هناك أخباراً كثيرة لا أعرفها».

توقّفت قبل إكمال جملتي، لأنّي تذكّرت أن موضوع كويل، صديق جايكوب كان حسّاساً بعض الشيء. فكّرت أنّ كويل قد يكون تغيّر الآن وانضمّ إلى المجموعة.

«أوه، كويل!».

قلت: «إنّي أعتذر».

«لا تقولي هذا أمامه».

قلت: «ماذا تعني؟».

«كويل لا يحتاج إلى الشفقة، إنّه سعيد جدّاً بالتغيّر الذي أصابه».

أدهشني كلامه، إذ غالباً ما لاحظت خوف شباب كويلوت من أن يصيب كويل ما أصابهم.

نظر جايكوب إليّ وقال: «لقد فرح كويل بانضمامه أخيراً للمجموعة، فأصبح على علمٍ بحقيقة ما يحصل. وهو شديد الحماسة لعودته إلى معاشرة الرّفاق».

«هل يحبّ ذلك حقّاً؟».

«صدّقيني إنّ غالبيّة أفراد المجموعة سعداء بالتغيّر. لا مجال لإنكار النواحي الجيّدة لهذا الأمر، مثل الحرية والسرعة والقوّة، والرّوابط الأخويّة. أنا وسام شعرنا بالكآبة خلافاً للآخرين. وفي الحقيقة لقد تخطّى سام هذه الحالة منذ زمن طويل، وبقيت أنا... الطائر الحزين». وضحك.

تسارعت الأسئلة التي أريد أن أطرحها على جايك في رأسي: «ما هي وجوه الاختلاف بينك وبين سام؟ وماذا يفعل سام الآن؟ وما هي مشكلته؟».

ضحك جايك وقال: «هذه قصّة طويلة».

قلت: «لقد أخبرتك قصّة طويلة، وأمامي متّسع من الوقت قبل أن أعود إلى فوركس...»، وتعمّدت إظهار عدم الاكتراث بما ينتظرني هناك.

نظر إليّ بسرعة، وقال: «هل سيغضب بسبب مجيئك إلى هنا؟».

قلت: «نعم، إنّه يرفض كليّاً أن أتعرّض للأخطار».

«مثل زيارة الرّجال الذئاب!».

«بالطّبع!».

«لا تعودي إلى فوركس اللّيلة، إبقي هنا».

«يا لها من فكرة عظيمة تجعل إدوارد يأتي إلى هنا ليفتّش عليّ».

انقبض جايكوب، ثمّ ابتسم ابتسامة غامضة: «هل يفعل حقّاً؟».

«نعم، قد يأتي إن كان خائفاً عليّ من الأذى».

«لا تزال فكرتي هي الأفضل».

«أرجوك يا جايك، هذا الموضوع يضايقني».

«أيّ موضوع؟».

«أنكما مستعدّان للاقتتال في أيّ وقت، أكاد أصاب بالجنون، لمَ لا يمكنكما التعايش بشكل حضاري؟».

سألني: «هل هو راغب بقتلي؟».

«ليس بقدر الرّغبة التي تبديها أنت بذلك. على الأقل، هو يحاول السيطرة على نفسه، ويعلم أنّه لو ألحق بك أذيّة فسوف يؤذيني أنا بالذات. أمّا أنت فأراك لا تهتمّ بهذه الناحية أبداً».

قال بسخرية: «بالتأكيد، هو الذي يسعى إلى السلام».

«أوه»، نزعت يدي من يده، وشعرت بالضّيق من كلماته المؤذية، وحوّلت نظري إلى الأفق البعيد.

قام وجلس إلى جانبي، ووضع ذراعه حول كتفيّ، فنزعتها.

قال بهدوء: «أعتذر، أعدك بحسن التصرّف».

لم أجب.

قال: «هل ما زلت ترغبين في سماع قصّة سام؟».

رفعت كتفي غير مبالية.

فأكمل: «إنّها قصّة طويلة وغريبة جدّاً. هناك كثير من الأمور الغريبة في حياتنا الجديدة، لم يكن لديّ الوقت الكافي لأخبرك عنها. حتى إنّي لا أدري إن كان بإمكاني شرحها بطريقة صحيحة».

شعرت بفضول شديد لسماع القصة، وقلت: «إنّي أسمع».

أدرت عينيّ نحوه، فلمحته يبتسم، وقال: «كانت التجربة بالنسبة

إلى سام أصعب منها بالنسبة إلينا، لأنّه كان أوّل من أصابه التغيّر بيننا. شعر بأنّه وحيد، ولم يجد حوله من يفسّر له ما كان يجري في حياته. مات جدّ سام قبل ولادته. أمّا والده فكان دائماً بعيداً عنه. لم يكن هناك من يعلم أسباب تلك التغيّرات التي كانت قد بدأت تظهر عليه. عندما تغيّر أوّل مرّة، ظنّ أنّه فقد عقله. ولم يهدأ إلاّ بعد أسبوعين. عندئذٍ استطاع العودة إلى طبيعته الانسانية.

حصل ذلك قبل عودتك إلى فوركس. اختفى سام فجأةً، ولم يعلم أحد أين ذهب. هرعت أمّه ولِيا كليرووتر إلى طلب مساعدة شرطة الغابات والبوليس للبحث عنه. وتوقّع الناس أن يكون قد أصابه مكروه...».

«هل تتكلّم عن لِيا؟»، لِيا ابنة هاري كليرووتر صديق تشارلي العزيز، الذي قضى بسكتةٍ قلبية في الربيع الماضي.

«نعم». قال جايكوب، «كانت قد نشأت بين سام ولِيا علاقة حبّ خلال أيّام المدرسة. لذا كان اختفاؤه المفاجئ صدمة كبيرة لها».

«لكنّي أعلم أنّ سام وإميلي هما...».

«سوف أخبرك عن هذا الموضوع، إنّه جزءٌ من القصّة».

طبيعي أن يبدو استغرابي لكون سام عاش علاقة حبّ مع غير إميلي ساذجاً، فكثيراً ما يرتبط الناس بعلاقات عاطفية تنتهي بعد حين. لكنّني منذ رأيت سام مع إميلي لم أستطع تصوّره مع أيّ فتاةٍ أخرى. نظراته إليها... ذكرتني بالنّظرات التي أراها أحياناً في عينيّ إدوارد عندما ينظر إليّ.

وأكمل جايكوب: «عاد سام، لكنّه رفض أن يخبرَ أحداً بما جرى له. وبالطّبع، كثرت الشائعات وقيل إنّه منحرف، ومنغمس بأعمال مشبوهة. إلى أن، ذات مرّةً، زار سام منزل صديقنا كويل وكان جدّه المسنّ كويل آتيارا هناك. ما إن صافح سام الجدّ كويل آتيارا، حتى كاد

هذا الأخير يصاب بسكتةٍ قلبية. كانت يد سام حارّة جدّاً وكأنها تشتعل.

في اليوم التالي، اجتمع السيّد آتيارا مع بقيّة الرّجال المسنّين في قبيلتنا وتحدّث إليهم. كان السيّد آتيارا، وبيلي، وهاري، ما زالوا يذكرون ما حصل لأجدادهم. بعد ذلك اجتمعوا مع سام سرّاً وشرحوا له الأمور.

هانَ الأمر على سام عندئذٍ، خصوصاً عندما أكّد له الكبار أنّه لن يكون الوحيد المتأثّر بعودة عائلة كولن إلى المنطقة. كان على سام أن ينتظر إلى أن حان الوقت، وشاركته، أنا والآخرون من شباب كويلوت، المصير عينه.

قلت لجايكوب بصوتٍ منخفض: «لم تعلم عائلة كولن أنّكم ما زلتم موجودين هنا، حتّى أنّهم لم يعلموا أنّ عودتهم ستكون السبب في تحوّلكم إلى ذئاب».

«لكنّها حوّلتنا. ولستُ قادراً على أن أغفر لهم هذا...».

قلت: «أتمنّى عندما تكبر في السنّ، أن تتصرّف بوعيٍ أكبر».

«ليتني أستطيع!».

نظرت إليه محاولةً فهم ما تفوّه به. وقلت: «ماذا؟».

«هذا الأمر هو واحدٌ من تلك الأمور الغريبة التي أردت إخباركِ عنها».

«لا تستطيع أن تكبر في السنّ!؟ هل هذا مزاح...؟».

قال: «كلّا!».

شعرت بالدّم يتسارع إلى وجهي، والدّموع تملأ فجأةً عينيّ، وأصبح صرير أسناني مسموعاً.

«بيلا، لمَ تبكين؟».

قلتُ بغيظٍ يخالطه الحزن: «لن تتقدّم في السنّ...!؟».

«لا أحد منّا يتقدّم في السنّ. لِمَ أنت مستاءة؟».

«أنا فقط أتقدّم في السنّ، أقترب من أن أصبح عجوزاً كلّما طلع نهار وجاء ليل، أين العدالة في هذا العالم؟».

«لا تعقّدي الأمور يا بيلاّ»..

«كفّ عن هذا الكلام يا جايك، هذا ظلمٌ!».

«ليس الموضوع بهذه الصعوبة، إجلسي وسأخبرك...».

«لن أجلس».

قال: «حسناً، إفعلي ما تريدين. لكن لا تقلقي... سوف يأتي يومٌ وأشيخ».

«كيف، إشرح لي».

أشار إلى المقعد بجانبه. حدّقت به، ثمّ شعرت بأنّ الغضب الذي اجتاحني تلاشى فجأةً وحلّ مكانه الهدوء. وخلال برهة من الوقت، أكتشفت أنّني تصرّفت بحماقة.

«عندما نكتسب قدرة السيطرة على عمليّة التغيّر ويمرّ علينا فترة طويلة ونحن في حالة استقرار، نكبر من جديد». لكنّه هزّ رأسه مشكّكاً عندما أضاف: «لكنّ هذا ليس بالأمر السهل. فالتحكّم بهذا الشكل يحتاج إلى وقتٍ طويل ووجود مصّاصي الدماء في هذا المكان القريب لا يساعد قطعاً، فالقبيلة بحاجة إلى حماية. على كلّ حال، لا تبالغي بالخوف. أنظري، أنا أكبر منك سنّاً الآن، على الأقل من الناحية الجسدية».

«ماذا تقول؟».

«أنظري إليّ، هل أبدو أنّي في السادسة عشرة؟».

نظرت إلى شكله الضّخم بتجرّد. وقلت: «كلاّ، لا أظنّ».

«بالأحرى، أبداً. لأنّنا ننضج فجأةً عندما تتحرّك لدينا الجينة

الوراثية التي تخصّ الذئاب. إنّ عمري الجسدي يقارب خمساً وعشرين سنة. لذا، لديك مهلة حوالى سبع سنوات، قبل أن تنزعجي من كونك أكبر منّي سنّاً».

أصبح عمره الجسدي حوالى خمس وعشرين سنة! أكاد لا أصدّق، لكنّي استعدت في ذاكرتي كيف لاحظت تطوّره الجسدي السريع، فكان يبدو وكأنّه يزداد نضجاً في كلّ يوم.

«والآن هل أكمل قصّة سام، أم سوف تقاطعينني وتعترضين على أمور خارجة عن إرادتي؟».

تنفّست بعمق وقلت: «أعتذر، لكنّ مسألة التقدّم في السنّ هي مسألة حسّاسة بالنسبة لي».

التفتَ إليّ، كأنّه يودّ قول شيء ولكن بالأسلوب المناسب.

كنت أتفادى التطرّق إلى مواضيع شائكة، مثل مشاريعي المستقبليّة، أو تلك المعاهدات التي قد تسقطها مشاريعي. . .، فأسرعت لأشجّع جايك على إكمال قصة سام. ثمّ سألت بتردّد: «لمَ يكرههم سام إلى هذه الدّرجة؟ لمَ يتمنى أن أكرههم أنا أيضاً؟».

أخذ جايكوب نفساً عميقاً، وقال: «هنا الغرابة».

«أنا سيّدة الغرابة». صحت.

«ليس لديّ أدنى شكّ!» وضحك، ثمّ أكمل: «بعد اجتماع الكبار معه، أصبح سام على علم بحقيقة ما أصابه. عادت حياته إلى طبيعتها، أو أكاد أقول. . . إلى أفضل ممّا كانت عليه».

لاحظت بعض الانقباض يظهر على وجه جايك فجأةً، وكأنّه أشرف على سرد تفاصيل حزينة.

«لكن، لم يكن باستطاعة سام إخبار لِيا عن حقيقة ما يحصل له. ليس من المسموح نشر هذه الأمور وكشفها. وكان عليه أن يحرص على عدم الاقتراب منها خوفاً على سلامتها. لكنّه لم يمتثل للأوامر، مثلما

فعلت أنا معك. كانت لِيا تغضب لأنّه كان يخفي عنها كثير من الأمور؛ (أين يذهب في اللّيل ولمَ يكون مرهقاً في كثير من الأحيان؟) لكنّهما كانا يحاولان التفاهم ليحافظا على علاقتهما. كانا متحابّان جدّاً».

«وهل اكتشفت لِيا حقيقة الأمر في النهاية؟ هل هذا ما حصل؟».

هزّ رأسه بالنفي. «كلاّ. بل جاءت إميلي يونغ، قريبة لِيا لزيارتها من محمية ماكا».

«هل هما قريبتان حقّاً؟».

«بل عاشتا كأختان منذ طفولتهما».

«أشعر بالاشمئزاز، كيف يمكن لسام...كيف؟».

«لا تسرعي بإصدار الأحكام. هل أخبرك أحدهم عن... هل سمعت بالتطابق؟».

قلت: «التطابق؟ كلاّ وماذا تعني هذه الكلمة؟».

«إنّه أمرٌ غريب يحصل للبعض منّا. كان سام قد سمع قصصاً تتكلّم عن هذه الناحية الغريبة في حياة بعض الرّجال الذئاب، لكنّه ظنّها أساطير، ولم يتصوّر أبداً أنّها ستحصل معه».

سألته بإلحاح: «ما هي؟».

شردت نظرات جايك إلى المحيط الواسع، وقال: «كان سام يحبّ لِيا، لكن، منذ لحظة لقائه بإميلي، تغيّر كلّ شيء. لا أحد منّا يعلم، لمَ تجري الأمور على هذا النحو». التفت إليّ فلاحظت احمرار وجهه، ثمّ أكمل: «أعني...لمَ يجد واحدُنا رفيقة روحه بهذه الطريقة».

«هل تقصد... الحبّ من أوّل نظرة؟». قلت بضحكةٍ نصف مكبوتة.

أزعجه ضحكي، فلم يبتسم، وتابع: «إنّه أقوى من ذلك. أمرٌ حتميّ لا مجال لتجاهله».

«هل أنتَ متأكّد. . . وجادّ في ما تقول؟».

قال: «نعم».

تابعت: «شيء يشبه الحبّ من أوّل نظرة. . .، لكنّه أقوى بكثير!؟». وشعر جايك بالشكّ الذي لا زال يتردّد في صوتي.

«ليس من السهل تفسير ذلك. . . المهمّ أنّك أردتِ أن تعرفي سبب كراهية سام لعودة مصّاصي الدّماء. إنّه يكرههم لأنّهم كانوا السبب في تغيّره إلى رجل ذئب؛ ومن ثمّ، إنّهم السبب الذي جعله يجرح قلب لِيا، ويخلّ بوعوده لها. إنّه يواجه اللّوم في عينيها كلّ يوم، ويعلم أنّها على حقّ».

توقّف جايكوب عن الكلام فجأةً؛ وكأنّه أفشى سرّاً عن غير قصد.

«كيف تعاملت إميلي مع هذا الأمر، وهي التي كانت صديقة لِيا الحميمة. . .؟».

كنت مقتنعة بأن سام وإميلي كانا متطابقين ومتكاملين. ولكنّي تساءلت كيف تقبّلت إميلي الارتباط بسام حبيب لِيا، التي هي بمكانة أختها تقريباً؟

قال جايكوب: «في البدء، لم تتقبّل إميلي هذا الأمر مطلقاً. لكنّها لم تستطع مقاومة هذا العشق، وهذه الجاذبية التي تحوّل الحبّ إلى عبادة. ثمّ أنّ سام أخبرها كلّ شيء. . . ليس ممنوعاً أن يقول الشابّ كلّ الحقيقة إلى رفيقة الرّوح، ونصفه الآخر. هل عرفتِ سبب الجرح العميق الذي تظهر آثاره على وجه إميلي وذراعها؟».

«بلى، سمعت الناس في فوركس يتحدّثون عن أنّ دبّاً هاجمها».

تذكّرت قول إدوارد:

«الرّجال الذئاب ليسوا مستقرّين، ويُصاب الناس بالأذى إذا اقتربوا منهم».

«يبدو الأمر شديد الغرابة، لكنّها الطريقة التي لجأوا إليها لحلّ

المشكلة. استاء سام من تصرّفه كثيراً وكره ما أقدم عليه. . . كان على وشك الانتحار من أجل الهروب من بشاعة الأذى الذي ألحقه بإميلي. لكنّها اهتمّت هي نفسها بمواساته وبعد ذلك. . .»، توقّف جايكوب عن أكمال القصّة عند هذا الحدّ، ربّما لأنّ التفاصيل المتبقية هي على قدر كبير من الخصوصية، ولم يسمح لنفسه التحدّث عنها.

فهمست: «كان الله بعونك يا إميلي، ويا سام، ويا لِيا. . .».

«لِيا هي التي دفعت الثمن، ولكنّها تتظاهر بالشجاعة، وستقوم بدور الإشبينة في حفل زفاف سام وإميلي».

نظرت إلى البعيد، وتأملت في الصخور المتكسّرة التي تظهر نتوءاتها فوق زبد الأمواج، محاولةً امتصاص كلّ ما سمعت من أخبار غريبة. شعرت بعينيّ جايكوب تحوم فوق وجهي كأنّه ينتظر أن أقول شيئاً.

سألته أخيراً، وما زال نظري يسافر إلى البعيد: «هل شعرت، أنتَ أيضاً، بهذا النوع من الحبّ. . .، أعني الحبّ من أوّل نظرة؟».

أجاب باقتضاب: «كلاّ، بل سام وغارد، وحدهما، مرّا بهذه التجربة».

أومأت برأسي مبديةً مستوى من الاهتمام لا يتعدّى حدود التصرّف المهذّب.

لكنّي شعرت بالارتياح، لكونه لم يقل لي أنّ شيئاً من ذلك الحبّ الغامض، على طريقة الذئاب، كان يشدّه إليّ. كانت علاقتي بجايكوب مُربكة بالقدر الكافي، ولم أكن بحاجة إلى تدخّل مزيد من العوامل الغامضة في حياتي. . .

بقي جايكوب صامتاً، فاستغربت صمته، لكنّي شعرت بعدم الرغبة في معرفة ما يفكّر به. فقلت في محاولة لكسر الصمت: «كيف تعامل غارد مع هذه التجربة؟».

«لم تحصل أيّ مأساة في حالة غارد. كان يجلس إلى جانب تلك الفتاة على مقعد الدراسة طيلة أيّام السنة، ولم ينظر إلى وجهها يوماً. وبعدما تغيّر، لم يستطع التوقّف عن النظر إليها. فَرحت الفتاة التي تدعى كيم كثيراً، لأنّها كانت تحبّه في السّر. كانت تكتب اسمه متّصلاً باسمها على كلّ صفحات مّذكراتها اليومية». وضحك ساخراً.

قلت: «أستغرب أن يخبركم هذه الأمور الخاصّة!؟».

عضّ جايك على شفته وقال: «يجب ألاّ أضحك. لكن الأمر كان مضحكاً».

«كانت هي رفيقة روحه؟».

قال: «غارد لم يخبرنا شيء بملء إرادته. تذكّري ما أخبرتكِ عن هذا الموضوع».

أجبت: «قلتَ لي إنّكم، عندما تكونون ذئاباً، تعرفون ما يدور في خواطر بعضكم. أليس كذلك؟».

«إنّ الأمر كذلك! مثلما يقرأ صديقك، مصّاص الدماء، أفكار الآخرين».

قلت: «اسمه إدوارد».

«بالتأكيد. لم يخبرني سام بلسانه وبالكلام كل ما أعرفه عن كراهيته لمصّاصي الدماء ولا عن أسبابها. في الحقيقة، لم يكن له خيارٌ في ذلك، وجميعنا يشعر بالانزعاج بسبب هذا الأمر. لا نستطيع المحافظة على أسرارنا وخصوصيّاتنا، ولا يمكننا إخفاء أخطائنا، أو عيوبنا عن بعضنا».

«شيءٌ مزعج جدّاً!».

«لكنّه مفيد عندما نحتاج إلى التنسيق في ما بيننا. وهذا لا يحصل إلاّ نادراً. عندما جاء لورانت، كان الأمر مسلّياً. ولو لم تقف عائلة كولن في طريقنا يوم السبت، لقضينا على فيكتوريا».

كلماته سبّبت لي الهلع. إنّ خوفي على جاسبر وإيميت من الأذى، لا يقاس برعبي من تصوّر جايكوب يصارع فيكتوريا. جاسبر وإيميت لا يموتان، لكنّ دم جايكوب حارّ وهو كالناس العاديين قابلٌ للموت. تصوّرت فيكتوريا تهاجم جايك، وشعرها الأحمر يتطاير حول وجهها الذي يشبه وجه قطٍّ ماكر، فارتعدت من خوفي عليه.

نظر إليّ جايكوب سائلاً: «ألا يعرف إدوارد كلّ ما يدور في رأسك؟».

«كلاّ، إطلاقاً! قلت بفخر.. أنا الوحيدة التي لا يمكنه قراءة أفكاري، ويجهل كلانا السبب».

«أمرٌ غريب!»، تمتم جايكوب.

قلت: «... ربّما بسبب عطلٍ ما في دماغي!».

فغمغم في الحال: «كنت أعلم أنّ هناك عطلاً ما في دماغك».

فأجبت: «شكراً».

انقشعت الغيوم في السماء فجأةً، وظهرت أشعة الشمس السّاطعة. تغيّرت جميع الألوان حولنا في لمح البصر، فانقلب رماديّ الأمواج إلى أزرق لازوردي، واخضرار الأشجار من شاحبٍ إلى نضِر، ولمعت حصى الشاطئ الملوّنة بكلّ ألوان قوس القزح، مثل الجواهر.

أغمضنا أعيننا قليلاً في البدء، إلى أن تعوّدَ نظرنا على النور المفاجئ. وأنصتنا إلى صخب الأمواج التي تردّدت أصداؤها من كلّ صوب، وإلى أصوات طيور النورس التي كانت تمرّ عالياً فوق رؤوسنا.

اقترب جايكوب منّي، واتّكأ على ذراعي. فشعرت فوراً بحرارةِ جسمه، واضطررت إلى نزع سترتي الشتوية بعد أقلّ من دقيقة. وإذا به يسند خدّه إلى رأسي مبدياً ارتياحه الشديد. كانت حرارة الشمس تبثّ الدفء في عروقي، أمّا تلكَ المنبعثة من جسد جايكوب، فكادت أن تحرقني.

وبطريقة لاشعورية، قلبت يدي اليمنى، وتأمّلت تحت أشعّة الشمس آثار الجرح الذي كان قد تركه هجوم جايمس، صديق فيكتوريا، عليّ.

قال: «بمَ تفكّرين؟».

قلت: «بالشمس».

«جميل!».

سألته: «بما تفكّر، أنت؟».

ضحك وقال: «بذلك الفيلم المملّ الذي دعوتني إلى مشاهدته، هل تذكرين؟ وكان مايك نيوتن معنا ولم يتوقّف عن المشاغبة لحظةً».

ضحكت أيضاً، وفكّرت كيف أنّنا نضحك الآن لدى استعادة هذه الذكرى، بينما كانت تقلقنا وتشعرنا بالارتباك سابقاً. كانت تلك، هي اللّيلة الأخيرة قبل أن يكتشف جايكوب حقيقة إرث قبيلته. وكانت الذكريات في تلك اللّيلة آخر ذكرياته كإنسان عاديّ.

«أشتاق إلى تلك الأيام، عندما كانت الأمور سهلة...، وغير معقّدة. إنّي سعيد بذاكرتي القويّة». قال جايكوب.

حرّكت كلماته تلك بعض التوتّر في داخلي الذي سرعان ما شعر به، فسألني: «ما المشكلة؟».

«حول ذاكرتك العتيدة...»، قلت له، بعد أن ابتعدت قليلاً عنه كي يتسنّى لي رؤية تعابير وجهه التي لم تستطع إخفاء ارتباكه في تلك اللّحظة. «هل يمكنك أن تخبرني بما كنت تفكّر صباح الاثنين؟ تلك الذكريات التي أزعجت إدوارد».

فهم جايكوب قصدي من السؤال، فابتسم وأجاب: «كنت أفكّر بك أنتِ، يبدو أنّ الأمر لم يعجبه».

«بي أنا، ماذا عنّي؟».

«كنت أتذكّر صورتك التي رأيتها في رأس سام، عندما وجدك في تلك اللّيلة. بقيت تلك الصورة تلازمه وتقلقه. تذكّرت أيضاً حالتك عندما أتيتِ لزيارتي أوّل مرّة. كنت في حالٍ يثير الشفقة، ولم تستعيدي مظهرك الطبيعي إلاّ بعد أسابيع. تذكّرت كيف كنت تلفّين ذراعيك دائماً حول صدرك لتحمي نفسك. . . ، أشعر بالألم كلّما أتذكّر حالتك تلك، لكنّي لم أكن السبب في حدوثها. لذا، حاولت أن أريه ما تسبّب لك به سابقاً، كي يتألّم بدوره».

ضربته على كتفه فآلمتني يدي. وقلت: «جايكوب بلاك! لا تفعل ذلك مرّة أخرى. عدني أنّك لن تفعل».

«لا أعدك، كان الأمر مسلّياً للغاية».

«أرجوك يا جايك. . .».

«لا تقلقي يا بيلاّ، تذكّري أنّي نادراً ما ألتقي به».

وقفت، فأمسك بيدي، فحاولت الإفلات كي أرحل.

«لا تذهبي الآن. . . أعتذر! وأعدك ألاّ أفعل ذلك مرّةً أخرى».

«شكراً، جايك!».

«لا تذهبي، لنعد إلى بيتي». قال بحماسة.

«في الحقيقة يجب أن أنصرف. أريد أن ألتقي بآنجيلا ويبر بعد الظهر، كذلك لا أريد أن أُغضِب آليس منّي كثيراً».

«لم تمكثي وقتاً طويلاً».

«بلى، لكنّ الوقت مضى بسرعة».

قطّب حاجبيه حزناً، وقال: «لا أدري متى سأراك مجدّداً».

«سأزورك في غياب إدوارد المرّة القادمة».

«غيابه في المرّة القادمة! إلى أين يذهب. . .؟ يا له من حشرة تثير القرف!».

«إن لم تحسّن أسلوبك في التعاطي مع الأمور، لن أعود أبداً». قلت له، محاولة نزع يدي من يده بالقوّة.

«أوه، لا تغضبي!»، قال ضاحكاً بعصبيّة.

قلت: «أنظر، إن كنت تريدني أن أعود، عليك أن تفهم الأمر بوضوح. أنا لا يهمّني إن كنت ذئباً، وكان هو مصّاص دماء. بالنسبة إليّ، أنت جايكوب وهو إدوارد، وأنا بيلاّ. ولا شيء آخر يهمّني».

فأجاب فوراً: «لكنّي رجلٌ ذئب»، وأضاف بقرفٍ ظاهر: «أما هو فمصّاص دماء».

«وأنا فتاة عذراء مسكينة!»، صرخت بضيق.

رفع حاجبيه، وحملق إلى وجهي بفضول. ثمّ قال:

«إن أمكنك حقّاً النظر إلى الأمور بهذا الشكل...».

«يمكنني... النظر إلى الأمور كذلك».

«حسناً، أنتِ بيلاّ وأنا جايكوب، ولا شيء من تلك الأمور المعقّدة العذرائية التي ذكرتِ». وابتسم تلك الابتسامة الدافئة التي أعرفها، والتي كنت قد اشتقت إليها كثيراً. فأجبته بابتسامةٍ مماثلة.

«اشتقتُ إليك يا جايك كثيراً!»، قلت بعفويّة.

«وأنا أيضاً!»، اتّسعت ابتسامته، ولمعت عيناه بالسعادة الخالية من مشاعر الغضب المُرّة. وأكمل: «أشتاق إليك أكثر ممّا تتصوّرين. هل ستعودين قريباً؟».

«بأقرب وقتٍ ممكن».

6

سويسرا

انطلقت في طريق العودة، لكنّي لم أكن أعير اهتماماً للطريق الرّطبة، التي كانت تلمع تحت أشعة الشمس أمامي. كنت أفكّر بما أطلعني عليه جايكوب. أحاول أن أرتّب ذلك بطريقةٍ مقنعة. لكن، وبرغم ضخامة ذلك الكمّ من الأخبار، أحسست بأنّ أحمالاً قد ارتفعت عنّي. لقد شاهدت جايكوب يبتسم، وانكشف أمامي جزء كبير من الأسرار. إضافةً إلى أنني لم أتعرّض لأيّ خطر، ما يعني أنّي كنت مصيبة حول قرار ذهابي إلى لا بّوش.

كنت أنظر إلى الطريق ورائي في المرآة، وكانت تخلو من أيّ سيارة. من أين أتت فجأة تلك الفولفو الفضيّة التي تتعقبني. «يا للمصيبة!»، فكّرت في أن أتوقّف بمحاذاة الرّصيف لأكلّمه، لكنّي شعرت بالخوف من مواجهته في تلك اللّحظة. كنت أتوقّع أن أحصل على وقت لتحضير نفسي، وأن يكون ذلك في البيت مساءً، فوجود تشارلي في مكانٍ قريب يحميني، ويجعل إدوارد يتكلّم بصوتٍ منخفض على الأقلّ.

تبعتني سيارة الفولفو، وشعرت وكأنّ نظراته القويّة تكاد تثقب المرآة كالرّصاص، لكنّي تابعت القيادة باتجاه منزل آنجيلا. توقّعت أن يتبعني إلى مدخل المنزل، لكنّه لم يفعل. لم أطرق باب آنجيلا إلاّ بعد أن اختفت سيّارته عن أنظاري.

فتح بن الباب بسرعة، وكأنّه كان يقف وراءه.

«أهلاً بيلاّ!».

وما هي إلاّ لحظات حتى ظهرت آنجيلا عند أعلى الدّرج، ثمّ سمعنا هدير سيّارة تتوقّف أمام المدخل، فقال بن: «هذا أوستن! إلى اللّقاء، سأنصرف في الحال».

كانت آنجيلا قد نزلت ووقفت إلى جانبه، فلفّ ذراعه حول عنقها وقبّلها بحرارة، ثمّ خرج. احمرّت وجنتا آنجيلا قليلاً، لكنّها سرعان ما استعادت ملامحها الطبيعيّة وقالت: «شكراً بيلاّ، ليس لأنّك ستساعديني في كتابة البطاقات فحسب، بل أيضاً لأنّ زيارتك جعلت بن يقرّر تمضية فترة بعد الظهر مع أوستن، وهكذا لن أضطرّ إلى مجاراته في مشاهدة أحد أفلام الكاراتيه المنقولة بطريقة رخيصة والتي ينقصها كثيرٌ من شروط الأعمال السينمائية الناجحة».

قلت: «إنّي سعيدة لمساعدتك». وشعرت بالرّاحة في وسط الأجواء الانسانية الطبيعية عند آنجيلا.

سألت، وكنّا نصعد الدرج في طريقنا إلى غرفتها: «أين بقيّة أفراد العائلة؟».

«ذهب أهلي مع أخويَّ التوأمين إلى حفلة عيد ميلاد في بورت آنجلس. لا أصدّق أنّك ستساعديني حقّاً. تصوّري أنّ بن تهرّب من الموضوع، مدّعياً أنّه يعاني من ألمٍ في معصمه».

دخلنا إلى الغرفة، فاكتشفت أنّ آنجيلا كانت على حقّ في طلب المساعدة. فعدد البطاقات هائل. قلت: «لنبدأ العمل بسرعة!».

بعد وقتٍ من التركيز، لم يُسمع خلاله سوى صرير أقلامنا على الورق. قالت آنجيلا: «ما هي مشاريع إدوارد اللّيلة؟».

تجمّدت يداي فوق البطاقة التي كنت أكتب عليها. «عاد إيميت

لقضاء عطلة الأسبوع مع العائلة، وأعتقد أنّهم... سيذهبون لتسلّق الجبال».

«تبدين غير متأكّدة. على كلّ حال، أنت محظوظة لكون إدوارد يقوم بمثل هذه النشاطات الذكورية مع إخوته. لا أدري ما كان يمكن أن يفعل بن من دون أوستن، فأنا كسولة ولا أحبّ الرّياضة في الهواء الطّلق».

ضحكَتْ قليلاً، وعادت لتركّز على عملها، وكنت قد أكملت كتابة أربع بطاقات إضافيّة في هذا الوقت. كانت آنجيلا، مثل تشارلي، تميل إلى الصّمت، ولا تشعر معها أنّك بحاجة للثرثرة باستمرار.

لكنّها، مثل تشارلي أيضاً، شديدة الملاحظة في بعض الأحيان.

«تبدين قلقة، ما الأمر؟».

ابتسمت بحذر، وقلت: «هل القلق بادٍ عليّ بهذا الوضوح؟».

«لا، ليس لهذه الدرجة؟». وأظنّ أنّها لم تقل الحقيقة مراعاةً لشعوري...، ثمّ تابعت: «لا تشعري بالإحراج، ولكن إن رغبتِ في التحدّث إليّ عن أمرٍ ما، فسأستمع».

قلت لها «شكراً». ولكنّي كنت غير قادرة على التكلّم عما يقلقني مع أيّ إنسان. إنّي ملتزمة بعدم إفشاء الأسرار المهمّة التي أعرفها.

ولكن، شعرت برغبةٍ جامحة للدردشة مع فتاة طبيعية مثلي. شعرت بميل للأنين والشكوى، كما تفعل بقيّة الفتيات المراهقات. تمنّيت لو كانت مشاكلي على ذلك القدر من البساطة، وقرّرت أن أستنير بوجهة نظر إنسانية محايدة حول بعض الأمور، بعيداً عن تعقيدات الذئاب ومصّاصي الدماء.

«لن أتدخّل في أمورك، أعدك». قالت آنجيلا ذلك، وعادت لتدوّن العناوين فوق المغلّفات.

«لا، أنت على حقّ، فأنا أشعر بالقلق...، والأمر يتعلّق بإدوارد».

«ما المشكلة؟».

كان سهلاً التكلّم إلى آنجيلا، فهي لا تحاول تتبّع الأمور لإشباع فضولها، كما قد تفعل جيسيكا. كلّ ما كان يهمّها هو التخفيف عنّي.

قلت: «إنّه غاضبٌ منّي».

قالت: «أستغرب ذلك! ما سبب غضبه؟».

تنهّدت، وقلت: «أتذكرين جايكوب بلاك؟».

«نعم».

«إدوارد يغار منه. إنّه ليس بالضّبط شعوراً بالغيرة، لكنّه يخاف من تأثيره السلبي عليّ، ويعتبره مصدر خطر على سلامتي. ولكن خوفه من جايكوب غير منطقي».

فوجئت لرؤية آنجيلا تهزّ برأسها. سألتها: «ماذا؟»، فقالت:

«بيلّا! سبق ولاحظت نظرات جايكوب إليك. لا شك أنّ الغيرة هي جوهر المشكلة».

قلت: «لكن الأمر ليس كذلك...»،

«ليس كذلك بالنسبة إليك، لكن بالنسبة إلى جايكوب...!؟».

«سبق وصارحته بحقيقة مشاعري نحوه».

«بيلّا! إدوارد هو إنسان... ويجب أن تتوقّعي منه ردّ فعل يشبه ردّ فعل أيّ شابّ آخر».

ابتسمت بتهذيب، ولم أجد الردّ.

ربّتت على يدي، وقالت: «سوف يتخطّى إدوارد هذا الموضوع».

«أتمنّى ذلك، فجايكوب يمرّ بأزمة ويحتاج إلى مساعدتي».

«أرى أنك قريبة جداً من جايكوب».

«. . . كأننا ننتمي إلى عائلة واحدة».

«وإدوارد لا يحبّه. . . لا شكّ أنّ في الأمر صعوبة. أريد أن أتخيّل كيف يتصرّف بن في وضعٍ مماثل؟».

قلت بابتسامة مكبوتة: «ربّما. . .، كأيّ شابّ آخر».

فقالت ضاحكة: «ربّما!».

غيّرت آنجيلا الحديث. فهي ليست فضوليّة، وقد تكون شعرت أنّي لا أستطيع، أو لا أريد التوسّع أكثر في ذلك الموضوع.

«وصلتني رسالة من الجامعة يوم أمس، لإعلامي عن المبنى الذي سأقيم فيه. بالطّبع، في أبعد وحدة سكنية عن مبنى الجامعة».

«هل تلقّى بن رسالة مماثلة؟».

«نعم، سيقيم في أقرب مكان من مبنى الجامعة. إنّه محظوظ. وماذا عنك، هل قرّرت إلى أيّ جامعة ستذهبين؟».

كنت شاردة أتأمّل خطّ يدي المتعرّج، وأفكّر أن بن وآنجيلا سيذهبان إلى جامعة واشنطن، وبالطبع، سيزوران مدينة سياتل بعد بضعة أشهر. هل ستكون تلك المدينة آمنة في ذلك الوقت. . .، وهل ستكون قد انتقلت أحداث العنف المروّعة إلى مدينة أخرى؟ وهل سأكون أنا سبب تلك الأحداث؟

حاولت نزع تلك الأفكار السوداء من رأسي. وأجبت آنجيلا على سؤالها: «سأذهب إلى جامعة آلاسكا، في مدينة جونو».

شعرت بأنّها تفاجأت بما سمعته منّي. «آلاسكا؟ آه، حقّاً؟ هذا عظيم! لكن كنت أظن أنّك ستذهبين إلى مكانٍ دافئ».

ضحكتُ قليلاً، ولم أرفع عينيَّ عن المغلّف الذي في يدي. «لقد أثّر مناخ فوركس على ذوقي، وعلى نظرتي إلى الأمور».

«وماذا عن إدوارد؟».

ضحكت برغم توتّري لدى ذكر اسمه، وقلت: «إدوارد يحبّ المناخ البارد أيضاً».

«لكنّ آلاسكا بعيدة جدّاً. سوف أشتاق إليكِ. . . أرجو أن نبقى على تواصل عبر الرسائل الإلكترونية».

شعرت بموجة من الحزن الصامت تجتاح صدري. وتساءلت في نفسي، هل من الحكمة أن أتقرّب من آنجيلا الآن؟ ولكن، قد يكون حزني أكبر إن حرمت نفسي الاستفادة من هذه الفرص الأخيرة. نفضت عن نفسي تلك الأوهام الحزينة وضحكت وقلت: «إن بقيت أصابعي قادرة على الطباعة بعد الانتهاء من هذه المهمّة. ونظرت إلى كومة البطاقات أمامي».

ضحكنا معاً وأكملنا عملنا، وأخذنا نتحدّث عن الاختصاصات والبرامج المتنوّعة في الجامعات. كان عليّ التركيز على اللّحظة الحاضرة من أجل الاستمتاع بالوقت مع آنجيلا. على أيّ حال، هناك أمورٌ أخرى وقريبة جدّاً، سأضطرّ إلى مواجهتها اللّيلة.

كنت خائفة من العودة إلى البيت، وبقيت عند آنجيلا حتى انتهينا من إلصاق الطّوابع على جميع المغلّفات.

«كيف تشعرين بيدك؟».

حرّكت أصابعي، وقلت: «لا شكّ أنّها ستستعيد ليونتها مع مرور الزمن. . . !».

عندئذٍ، سمعنا صوت بن من الطابق السفلي: «آنجيلا!». حاولت الابتسام لكنّني شعرت أنّ شفتيَّ كانتا ترتجفان. قلت: «لقد حان وقت ذهابي».

«يمكنك البقاء، والاستماع إلى وصف المعارك التي جرت في الفيلم. . .».

«قد ينشغل بال تشارلي عليّ».

«شكراً لمساعدتك».

«في الحقيقة، لقد استمتعت بقضاء هذا الوقت معك. يجب أن نسعى إلى لقاءات أكثر بيننا».

«بكل تأكيد».

طرق بن باب الغرفة، فدعته آنجيلا للدّخول.

وقفت، وتمغّطت.

«مرحباً يا بيلاّ، هل تخطّيت هذه المهمّة، وما زلت حيّة!؟». ألقى بن التحية، وجلس إلى جانب آنجيلا، ثمّ نظر إلى كدسة البطاقات الجاهزة، وقال: «ممتاز! كنت أودّ المساعدة، لكن. . . يبدو أنّ كلّ شيء قد انتهى». وانتقل إلى وصف الفيلم بحماسة كبيرة.

التفتت إليّ آنجيلا من دون أن تخفي ضجرها.

قلت ضاحكةً: «سأراك في المدرسة».

فتنهّدت وقالت: «إلى اللّقاء».

توجّهت نحو سيارتي قفزاً. كانت الطريق خالية، وكنت أنظر من خلال المرايا في جميع الاتجاهات، لكنّي لم ألمح أيّ سيارة فولفو فضّية.

لم تكن سيّارته أمام بيتنا. لكنّ ذلك لا يعني الكثير. . .!!

«أهلاً يا بيلاّ»، هتف تشارلي عندما سمع الباب يُفتح.

«مساء الخير يا أبي».

كان مسترخياً في غرفة الجلوس، يشاهد التلفزيون.

قلت لنفسي، سوف أخبره إلى أين ذهبت اليوم كي يفرح، خاصّة

أنّي لو لم أخبره بنفسي فسيخبره بيلي والد جايكوب. قلت: «لم تكن ثمّة حاجة إلى أن أعمل اليوم في محلّ نيوتن، فذهبت إلى لا بّوش».

لم يتفاجأ بهذا الخبر كثيراً، فعرفت أنّ بيلي قد سبقني، وتحدّث إليه في الهاتف.

«كيف وجدتِ جايكوب؟»، سألني تشارلي محاولاً التظاهر باللامبالاة.

قلت: «بصحّة جيّدة».

«وذهبت إلى منزل عائلة ويبر؟».

قلت: «نعم، وانتهينا من كتابة جميع البطاقات».

قال تشارلي، وابتسامة عريضة تشرق فوق وجهه: «جميلٌ جدّاً! سرّني أنّك قضيتِ وقتاً ممتعاً مع أصدقائك اليوم!».

«وسرّني ذلك أيضاً».

تركت تشارلي يتابع المباراة على التلفزيون، وذهبت بخطىً سريعة إلى المطبخ لأشغل نفسي. لكنّ تشارلي كان قد نظّف كلّ الأواني التي استعملها بعد تناول طعام الغداء. وقفت، وتأملت بقعة الضوء التي رسمتها أشعّة الشمس فوق أرض المطبخ وعرفت أنّ الوقت حان لمواجهة الموضوع.

قلت: «سأصعد إلى غرفتي لأكمل دروسي».

أجاب تشارلي: «سأراك لاحقاً». فقلت في نفسي: «إن بقيت حيّة!».

أغلقت الباب برويّة، واستدرت لأنظر في عمق غرفتي.

بالطبع، لقد كان هناك، واقفاً في محاذاة الحائط قبالتي. في الظلّ، وراء باب النافذة المفتوحة. كان ينظر إليّ صامتاً؛ وجهه جامد قاسٍ، وجسده متوتّر.

انقبضت في انتظار السّيل الجارف من اللّوم والاتّهام. لكنّه لم يأت. بقي متفرّساً في وجهي. توقّعت أنّه لم يقوَ على الكلام من شدّة الغضب.

أخيراً قلت: «مرحبا!».

لم يتحرّك، وكأنّ وجهه مصنوع من صخر. رحت أعدّ في نفسي من واحد إلى مئة، لكنّه لم يتغيّر.

باشرت إلى تبرير ما قمت به: «ها أنذا ما زلت على قيد الحياة».

سمعت صدى حشرجةٍ في حنجرته. لكن بقيت ملامحه على حالها.

«لم أتعرّض إلى أيّ أذى». عدت لأؤكّد.

تحرّك. ثمّ أغمض عينيه، وأمسكَ أرنبة أنفه بأصابع يده اليمنى.

قال بهمس: «بيلاّ... ! هل تعلمين كم أوشكت اليوم على اختراق الخطّ الفاصل، وإسقاط معاهدة الهدنة؟ هل تدركين معنى هذا الأمر؟».

رحت أتنفّس بسرعة، فاتّسعت عيناه، وكانتا باردتان وقاسيتان مثل اللّيل.

«لا يمكنكَ أن تفعل ذلك!». قلت بصوتٍ عالٍ. حاولت خفض صوتي كي لا يسمعنا تشارلي، لكنّي كنت أميل إلى أن أصرخ بهذه الكلمات: «إنّهم يا إدوارد يحبّون الحرب؛ ويفتشون عن ذريعة، لا يمكنك مخالفة القواعد مطلقاً».

«ربّما، غيرُهم أيضاً يحبّ الحرب».

«لا تبدأ بذلك!». قلت بغضب. «لقد أبرمتم معاهدة الهدنة، فحافظوا عليها. وكفى، ليس هناك ما يشغل البال. وجايكوب لا يعرّضني للخطر».

«أنتِ يا بيلاّ لست خبيرة بهذه الأمور، كي تعلمي أين يكمن الخطر».

«إنّي أثق بجايكوب، ويمكن أن توليه أنتَ أيضاً ثقتك».

كان يصرّ على أسنانه، ويشدّ قبضتَيْ يديه بقوّة. وكان لا يزال واقفاً في محاذاة الحائط، فكرهت أن أبقى بعيدةً عنه.

أخذت نفساً عميقاً، وقطعت المسافة التي تفصلنا. لم يتحرّك عندما طوّقت وسطه بذراعيّ. لكنّه، في جوار الدّفء الذي بقي من أشعّة الشمس التي ما زالت تخترق النافذة، كان بارداً كالصقيع.

«أعتذر لأنّي تسبّبت لك بالقلق». قلت متمتمة.

أطلق زفرةً، ما خفّف من تشنّجه قليلاً، فلفّ ذراعه حول خصري، وقال: «كلمة قلق ليست كافية لتعبّر عمّا أصابني. كان يومي طويلاً جدّاً».

«كنتَ بعيداً في رحلة الصيّد، وظننتُ أنّك ستبقى طويلاً».

نظرتُ إلى عينيه، فوجدتهما داكنتين ومحاطتين بهالة من السواد... فأظهرتُ عدم الرّضا.

«عندما اختفيتِ من أمام عينيّ آليس، عدتُ فوراً».

«كان يجب أن تبقى. الآن ستضطرّ إلى الذهاب من جديد. غريب! أعرف أنّها لا تتمكّن من رؤيتي عندما أكون مع جايكوب، ولكن، كنت أتوقّع منك أن تستنتج بنفسك أين أنا...».

«لكنّي لم أستنتج. ولا تتوقّعي أن أسمح لك أن...».

«بل هذا بالضبط ما أتوقّعه».

«أرجو ألاّ يتكرّر هذا الأمر مرّة ثانية».

«لن يتكرّر بالتأكيد، لأنّكَ لن تبالغ في ردّ فعلك في المرّة الثانية».

«كلاّ، بل لأنّه لن تكون هناك مرّة ثانية».

«أنا أتفهّم وأتحمّل غيابك عندما تذهب إلى الصيد، برغم أنّي لا أحبّ ذلك...».

«أنا لا أعرّض حياتي للخطر».

«ولا أنا!».

«الذئاب يشكّلون خطراً».

«لا أوافق».

«أنا لا أعتبر أنّ هذا الأمر قابلٌ للنقاش».

«ولا أنا».

أحسست بيديه تنقبضان من جديد وراء ظهري.

وإذا بسؤالٍ ملحّ يخرج من بين شفتي: «هل أنّ ما تقوم به هو حقّاً بسبب خوفك على سلامتي؟».

«ماذا تقصدين؟».

«أنت لا تشعر بالغ...»، وفجأةً، بدت أمامي نظرية آنجيلا تافهة جدّاً، لكنّي غامرت وأكملت: «إنّك بالطبع أذكى من أن تشعر بالغيرة، هل هذا صحيح؟».

«هل أنا أذكى حقّاً؟».

«جاوبني بشكل جدّي».

«ليست الغيرة أمراً مضحكاً».

«أم أنّ السبب هو أسطورة العداء السخيف الدائم بين مصّاصي الدماء، والرّجال الذئاب؟ أم أنها مشكلة تتعلّق ببيولوجية الذكور مثلاً...».

اشتعلت عيناه غيظاً، وقال: «أنتِ المحور الرئيسي، وكلّ ما أهتمّ به هو سلامتك أنتِ».

«حسناً»، قلت: «أنا أصدّق ذلك. لكنّي أريد منك أن تعلم شيئاً مهمّاً. أنا خارج لعبة العداء السخيفة بينكم وبين الذئاب. أنا أشكّل منطقة محايدة، مثل سويسرا مثلاً. إنّي أرفض أن أتأثّر بالنزاعات بين

شخصيات خرافية وأسطورية. جايكوب هو قريبي. وأنت... لست حبّ حياتي فحسب، لأنّي أتوقّع أن يدوم حبّنا لفترةٍ أطول من حياتي الإنسانية. أنت حبّي طالما أنا موجودة في هذه الدنيا. لا أهمية عندي من هو ذئب ومن هو مصّاص دماء. لو ظهر لي غداً أنّ آنجيلا هي ساحرة مثلاً، لن يتغيّر شيءٌ أبداً، وستبقى صديقتي».

نظر إليّ طويلاً بعينين ضيّقتين، وبقي صامتاً.

عدت إلى التأكيد على ما قلته: «أنا سويسرا».

عبس قليلاً، ثمّ قال: «بيلاّ...»، لكنّه توقّف عن المتابعة، وزمّ أنفه بحركة تعبّر عن القرف.

قلت: «ماذا أيضاً؟».

«حسناً، لا تغضبي، لكنّ رائحتك تشبه رائحة الكلاب...».

وابتسم بمكر، فعلمت حينئذٍ أنّ المشكلة بيننا قد انتهت، في الوقت الحاضر على الأقلّ.

* * *

كان على إدوارد العودة إلى الصّيد مساء الجمعة التالي مع إيميت وجاسبر وكارلايل ليعوّض ما فاته هذا الأسبوع. وهدفهم هذه المرّة صيد الأسود في أعالي جبال منطقة كاليفورنيا.

لم أصل إلى اتفاق واضح حول مسألة الرّجال الذئاب مع إدوارد، لكنّي لم أتردّد في اغتنام فرصة ذهاب إدوارد إلى بيته، قبل عودته لقضاء اللّيل في غرفتي، للاتصال بجايكوب وإعلامه أنّي سأذهب لزيارته يوم السبت القادم. لن أخجل من اتصالي بجايكوب، فإدوارد يعلم بحقيقة مشاعري نحوه. وإن أراد تعطيل سيارتي هذه المرّة، فسيأتي جايك لاصطحابي. فوركس هي بلدة محايدة، مثلي ومثل سويسرا.

عندما خرجت من عملي مساء الخميس، كانت سيارة الفولفو

بانتظاري. لم يكن إدوارد في السيارة، بل آليس. وكانت تستمع إلى موسيقى عالية وغريبة. فتحت لي الباب لأصعد، فقلت بعد إلقاء التحيّة: «أين إدوارد؟».

كانت تغنّي بصوتٍ عالٍ مع الموسيقى، فهزّت برأسها وتجاهلت سؤالي.

أغلقت باب السيارة، ووضعت يديّ فوق أذنيّ. فضحكتْ، وإخفضتْ صوت الموسيقى، ثم أدارت المحرّك وأقفلت الأبواب في اللّحظة نفسها.

أحسست ببعض الشكّ والانزعاج، وقلت: «ماذا يجري وأين إدوارد؟».

«ذهبوا إلى الصيد».

«أوه!»، وحاولت السيطرة على خيبة أملي القويّة وغير المفهومة. وقلت في نفسي إنّ ذهابه اليوم يعني أنّه سيعود قبل السبت.

وبمرحٍ شديد أضافت آليس: «كلّ الشباب ذهبوا، وسنحتفل نحن الفتيات ونسهر معاً».

وأكملَتْ: «سنحتفل وسوف تنامين عندنا. ألا تشعرين بالحماسة؟».

التقت عيناي بعينيها الرّاقصتين، وقلت: «هل تقومين باختطافي، هل هذا ما تفعلينه؟».

ضحكت وهزّت برأسها. «إلى يوم السبت. اتصلت إيزمي بتشارلي، وأعلمته أنّك باقية عندنا ليلتين. سأصطحبك إلى المدرسة غداً صباحاً، وأعيدك إلى بيتنا مساءً».

أدرتُ وجهي جانباً، وكدتُ أحترق غيظاً.

«أعتذر. لكنّه كافأني مقابل القيام بهذه المهمّة». قالت ذلك، من دون أيّ إحراج.

«ما هي المكافأة؟».

«سيّارة بورش، تماماً مثل التي سرقتها في إيطاليا». لكنّه غير مسموحٍ لي قيادتها داخل فوركس. يمكننا الذهاب معاً إلى أي مكان حتى إلىّ لوس أنجلس، وأراهن على العودة قبل نصف اللّيل.

«شكراً، لست متحمّسة».

كانت تقود السيارة بسرعة، وعندما وصلنا، لاحظت وجود سيارة إيميت الكبيرة، وسيارة روزالي الحمراء، وبينهما سيارة بورش صفراء برّاقة.

قفزت آليس من السيّارة بسرعة، واقتربت من سيارتها الجديدة (الرّشوة)، وأخذت تمرّ بأصابعها فوق خطوطها الأنيقة.

«أليست جميلة؟».

«جمالٌ سخيف. . . ،هل أعطاك كلّ هذا مقابل احتجازي مدّة يومين؟».

أبدت آليس امتعاضها.

بعد لحظات، اتّضحت الصورة أمام عينيّ. «آه! الأرجح أنه أعطاك إيّاها مقابل احتجازي في كلّ مرّة يغيب فيها عن فوركس؟».

أومأت برأسها إيجاباً.

مشينا نحو البيت، وكانت ترقص إلى جانبي متجاهلةً استنكاري وغيظي.

قلت لها: «ألا تظنين يا آليس أنّ في الأمر مبالغة إلى حدّ التحكّم، والجنون ربّما. . .؟».

«قطعاً لا. إنّك لا تقدّرين خطر الذئاب الجدد حقّ التقدير. إن ذهبت لمقابلة الذئاب لا سبيل لإدوارد إلى معرفة إن كنتِ بأمان، خصوصاً أنّي لا أستطيع رؤيتهم. لا تتسرّعي في الحكم على الأمور».

قلت بلهجة جارحة: «. . . وكأنّ حفلة مصاصي الدماء هي ملاذ الأمان!».

«سوف أقوم بتقليم أظافر قدميك وتلوينها».

لم يكن الأمر سيئاً إلى درجة كبيرة لو أنّي لم أذهب إلى هناك رغماً عن إرادتي. فقد طلبت إيزمي وجبة عشاء فاخرة من مطعم إيطالي في بورت آنجلس، وكانت آليس قد أحضرت أفلام الفيديو التي أفضّلها، وحتى روزالي كانت تجلس بهدوء في زاوية من زوايا الغرفة. أصرّت آليس على تقليم أظافر قدميّ، وبدت كأنّها تتقيّد بلائحة معيّنة لإسداء الخدمات. أو أنّها استوحت الفكرة بمجملها من أحد الأفلام الفكاهيه السخيفة.

لم ينجح مزاجي السيّئ في التقليل من مستوى حماستها، فسألتني بعد أن انتهت من تلوين أظافري بلون أحمر فاقع. «حتّى أيّ ساعة تودّين السّهر؟».

أجبت: «لا أريد السّهر. على كلّ حال، علينا أن نستيقظ غداً في وقتٍ مبكر كي نذهب إلى المدرسة. أين سأنام؟».

ألقيت نظرة على الكنبة، فوجدت طولها غير كافٍ لتكون مريحة.

«كان بإمكانكِ مراقبتي، وتدعيني أنام في بيتي».

«سوف تنامين في غرفة إدوارد».

كنت أعلم أنّ الكنبة الجلدية السوداء في غرفة إدوارد، أطولَ بقليل من تلك التي في غرفة الجلوس. والسجادة الصفراء، التي تغطّي أرض غرفته سميكة ويمكنني النوم عليها إذا اقتضى الأمر.

«هل يمكنني الذهاب إلى بيتي لجلب أغراضي، على الأقلّ؟».

ضحكت: «لقد قمنا بذلك».

«وهل يمكنني استعمال الهاتف؟».

«تشارلي يعلم بمكانك».

«لا أريد الاتصال بتشارلي، بل أحتاج إلى الهاتف من أجل إلغاء بعض المواعيد. هل هذا أمرٌ مستغرب؟».

قالت: «لست متأكّدة من ذلك».

قلت: «أرجوك يا آليس، لا تعقّدي الأمور».

قالت حسناً، حسناً، وخرجت من الغرفة.

عادت والهاتف الخلوي في يدها. «لم يمنع إدوارد هذا الأمر بالتحديد».

أعطتني الهاتف، ثمّ ذهبت لتجلس على الكنبة بين إيزمي وروزالي.

طلبت رقم جايكوب، متمنّية ألاّ يكون قد خرج ليركض في البراري مع رفاقه اللّيلة.

كنت محظوظة، فلقد أجاب بنفسه.

قال بحذر: «مرحباً بك يا بيلاّ. ما الأمر؟».

«لا يمكنني أن أزورك يوم السبت».

بعد برهة من الصمت، قال: «ظننت أنّه سيذهب بعيداً، مصاص الدماء القذر. هل يريد أن يمنعك من الخروج ويفرض عليك السجن في غيابه؟».

ضحكت.

«لا أجد الأمر مضحكاً».

«أنا أضحك لأنك اقتربت في التعبير عن حقيقة ما يحصل. لكنّه سيعود يوم السبت، لا تأبه».

«هل هذا يعني أنّه سيجد غذاءه في فوركس؟». سأل بلهجةٍ جارحة.

«كلاّ. لقد ذهب اليوم». أجبته، محاولةً عدم التأثّر بكلامه، فغضبي يكاد يساوي غضبه.

«إذاً، تعالي الآن. ليس الوقت متأخّراً. أم آتي أنا إلى بيت تشارلي».

قلت بمرارة: «كنت أتمنّى لو كان هذا الأمر ممكناً، أنا لست في

بيت تشارلي. إنّي في وضع الإقامة الجبرية تقريباً».

بقي صامتاً ومصغياً لما قلت. ثمّ هدر بصوته: «سوف نأتي إليكِ في الحال». متكلّماً بضمير الجمع.

وشعرت بقشعريرةٍ تخترق عظامي. لكنّي سارعت إلى استدراك الموقف، وقلت بلهجةٍ مرحة: «إنهّم يعذّبونني حقّاً. . .، فقد قلّمت آليس أظافر قدميّ».

قال: «أنا جديّ».

«لا تقلق، هدفهم المحافظة على أمني».

وهدر صوته ببعض الكلمات من جديد.

قلت: «لا أنكر أنّ الأمر مزعج، لكنّ نيّاتهم حسنة».

«نيّاتهم!».

«أعتذر لأجل السبت مجدّداً. الآن أريد أن أنام. سأتصل بك قريباً».

سأل مشكّكاً: «هل أنت متأكّدة أنّهم سيسمحون لك بالاتصال مجدّداً؟».

«ليس تماماً. ليلة سعيدة يا جايك».

«إلى اللّقاء».

كانت آليس قد أصبحت بجانبي، ويدها ممدودة لتأخذ الهاتف. لكنّي بدأت بطلب رقمٍ آخر. فقالت عندما رأت الرقم: «لا أظنّ أنّه يحمل الهاتف معه».

قلت: «سأترك له رسالة».

دقّ الهاتف أربع مرّات. ثمّ سمعتُ الصوت الذي يؤذن بالرسالة. قلت محاولةً لفظ الكلمات بوضوح تامّ: «أنت في خطر. قد تبدو الدببة الرّمادية الهائجة، لطيفة بالمقابلة مع ما ينتظرك عندما تعود إلى البيت».

أغلقت خطّ الهاتف ووضعته في يدها الممدودة في انتظاره. قلت: «انتهيت».

ضحكتْ آليس: «تبدو لي لعبة الخطف و الرهينة مسلّية».

قلت: «الآن، أريد أن أنام». بدأت في صعود الدّرج. فتبعتني في الحال.

«آليس، لن أهرب. لو كنت أخطّط للهروب لعرفتِ».

«هذا ليس قصدي. أريد أن أعطيكِ أغراضك».

كانت غرفة إدوارد في الطابق الثالث من البيت، وفي أبعد نقطة عن الدّرج. لم يكن من الصّعب عليّ التعرّف إليها، رغم كوني لا أعرف كلّ البيت جيّداً. لكنّي، عندما كبست زرّ الإضاءة، ظننت أنّي أخطأت.

قهقهت آليس وهي تراقب ارتباكي.

كانت الغرفة، غرفة إدوارد ذاتها، لكن قد تمّ نقل الكنبة الكبيرة إلى جهة الجدار الشمالي. وكذلك تغيّر مكان جهاز الستريو، ليصبح بجانب خزانة الاسطوانات المدمجة. حصل التغيير، كما يبدو، من أجل إفساح المكان للسرير الكبير الذي يحتلّ صدر الغرفة الآن.

كان الجدار الجنوبي الزجاجي يعكس منظر الغرفة، فيضاعف من قباحتها.

لكنّ الألوان كانت منسّقة باتّقان. كان غطاء السرير بلونٍ ذهبيّ فاتح، أفتح بقليل من لون الجدران؛ أما إطار السرير، فكان مصنوعاً من حديد أسود مشغول بطريقة فنيّة دقيقة. كانت بيجامتي مطويّة وموضوعة على السرير، وكيس حاجيّاتي إلى جانبها.

«ما هذا كلّه؟»، قلت باستغراب.

«هل تخيّلت أنّه سيتركك تنامين على الكنبة؟».

دمدمت بألفاظٍ غير مفهومة، واندفعت لأخذ بيجامتي عن السرير وكذلك بقيّة أغراضي.

ضحكت آليس، وقالت: «سأتركك لتكوني مرتاحة. أتمنّى لك ليلة سعيدة». ثمّ خرجت من الغرفة.

نظّفت أسناني، وغيّرت ملابسي. ثمّ أخذت المخدّة عن السرير الكبير، وسحبت الغطاء الذهبي نحو الكنبة. قد يكون تصرّفي سمجاً، لكنّ إعطاء سيّارة بورش كرشوة، ووضع سرير فخم كالذي أمامي، في منزل لا أحد ينام فيه، كانا أمران لا يُحتملان. ثمّ أطفأتُ الضوء ورحت أحاول النوم، لكن أعصابي كانت لا تزال مشدودة.

في الظلام، لم يعد الزجاج مرآةً سوداء تعكس محتويات الغرفة، بل تحوّل إلى نافذة كبيرة تسمح برؤية منظر الطبيعة الساحر في ضوء القمر. رحت أتأمّل الشعاع الفضي المنتشر فوق رؤوس الأشجار في انتظار أن يثقل جفنيّ النعاس.

سمعت طرقاً خفيفاً على الباب.

«آليس؟».

«أنا روزالي». وفتحت الباب قليلاً، فرأيت ملامح وجهها الجميل في ضوء القمر. «هل يمكنني الدخول؟».

7

نهاية غير سعيدة

وقَفَتْ متردّدة خلال لحظات.

«بكلّ تأكيد!» قلت بصوت مرتفع بعض الشيء.

غيّرت وضعي فوق الكنبة، وتركت لها مكاناً لتجلس. كنت متوتّرة جدّاً. فروزالي وحدها، في عائلة كولن، لا تحبّني، وها هي الآن تجلس إلى جانبي. حاولت أن أفكّر بالسبب الذي قد يدعوها لزيارتي الآن، لكنّي لم أستطع التفكير في أيّ شيء.

«أيمكنني التحدّث إليك قليلاً؟ أرجو ألاّ أكون قد أيقظتك».

قلت «لا، أبداً... لم أنم بعد. يمكنك التحدّث في ما تريدين». توقّعت أن تكون قد أحسّت باضطرابي.

ضحكتْ، ثمّ قالت: «إدوارد لا يترككِ وحدك إلاّ نادراً. لذا قرّرت أن أستفيد من هذه الفرصة اللّيلة».

أخذت الأفكار الغريبة تراودني. ما الذي تودّ روزالي قوله...، ما الذي لا يمكنها التحدّث به أمام إدوارد؟ أمسكت بأطراف الغطاء وشددته نحو صدري بحركةٍ دفاعيةٍ عفوية.

«أرجو ألاّ تظنّي إنّي أريد التدخّل في شؤونك، لقد تسبّبت في إيذاء مشاعرك مرّات عديدة في السابق، ولا أريد أن أفعل ذلك مجدّداً».

«لا تخافي على مشاعري يا روزالي. أنا بخير. ما هو الموضوع؟».

استغربتُ مظهر الإحراج الذي بدا عليها. لكنّها ضحكت مجدّداً

وقالت: «أريد أن أشرح لك لمَ أعتقد أنّه من الأفضل لك أن تبقي إنساناً. ولمَ كنتُ سأختار الاحتفاظ بطبيعتي الانسانية، لو كنت مكانك».

«أوه!».

«هل أخبركِ إدوارد كيف وصلتُ إلى هذا؟» وأشارت إلى جسدها الجميل، الذي لا يموت.

أومأت برأسي ببطء، وقلت بصوتٍ مرتجف: «قال إنّ ما أصابك يشبه الذي أصابني في بورت آنجلس، إلاّ أنّه لم يأتِ أحد لإسعافك في الوقت المناسب».

«هل هذا حقّاً كل ما قاله لك؟».

«نعم!» قلت لها بصوتٍ مرتبك. «هل هناك شيءٌ آخر؟».

تطلّعت إليّ، وابتسمت بمرارة: «نعم، هناك أشياء أخرى».

وتابعت بعد أن نظرت إلى الخارج، محاولةً تهدئة نفسها: «هل تودّين سماع قصّتي يا بيلاّ؟ مع أن نهايتها حزينة. كلّ قصصنا حزينة على كلّ حال، ولو لم تكن كذلك لما انتهينا إلى ما نحن عليه».

أومأت بالإيجاب، لكنّي أحسست بالخوف من وقع صوتها المأساوي.

«كان ذلك في عام 1933، كان العالم أقلّ تعقيداً منه الآن. كنت جميلة وفي الثامنة عشرة من عمري. وكانت حياتي تقترب من الكمال».

ثمّ نظرت إلى البعيد من خلال الزجاج، وأكملت: «كانت عائلتي تنتمي إلى الطبقة المتوسّطة. فأبي كان موظفاً في بنك، ناجحاً في عمله. وكان يؤمن بأنّ ما حصّله من مال واستقرار، جاء نتيجة مواهبه وجدّه المتواصل وليس بالصدفة، وكان فخوراً بذلك. وعندما مرّ العالم بالأزمة الاقتصادية الكبرى في ذلك الحين، لم أشعر بالخوف. فقد علّمني والدي أنّ الانسان يحتفظ بكرامته في الحياة مقابل اجتهاده، أمّا الكسل فهو السبب في الفقر والمتاعب.

كانت أمّي مسؤولة عن البيت ونظامه، وعنّي وعن أخويّ الصغيرين، وكنت أحتلّ الأوليّة في سلّم اهتماماتها. لكنّ أهلي لم يكتفوا بالبحبوحة التي تمتّعوا بها، بل أرادوا الانتماء إلى طبقة أعلى في المجتمع، واعتبروا أنّ جمال شكلي كان الورقة الرّابحة في أيديهم.

كنت مقتنعة بمن أنا وفخورة بنفسي، وسعيدة لأنّ عيون الرّجال كانت تتبعني، وحتى الفتيات يُعْجَبْن بجمالي ويشعرن بالغيرة منّي. وكنت مسرورة لكون أمي فخورةً بي، ولرغبة أبي الدائمة في إهدائي الفساتين الجميلة.

كنت أعلم ما أريد من الحياة. وأعلم أنّي سأحصل عليه. أردتُ الحصول على شابّ يحبّني حتّى العبادة، وكنت أحلم أن يكون لي حفل زواجٍ كبير مزدان بالأزهار والورود، وأن يُسحر الناس بجمالي.

كان الإعجاب بمثابة الهواء الذي أتنفّسه. كنت سطحيّة وساذجة، لكنّي كنت أشعر بالاكتفاء.

ولكنّ تأثير أهلي السلبي زاد ميلي إلى الأمور الماديّة في الحياة. فبتّ أريد بيتاً كبيراً ومفروشات أنيقة تزيّنه، وأصرّ على أن يكون تحت إمرتي فريقٌ من الخدم من أجل تنظيفه. ومطبخاً حديثاً، وطاهياً من أجل إعداد الطعام. كنت شابّة وسطحيّة، ولم أجد سبباً يمنعني من الحصول على كلّ ما أريد.

وكانت بعض أحلامي أكثر عمقاً. كان لديّ صديقة اسمها ڤيرا، تزوّجت من شابٍّ نجّار وكانا يعيشان في بيتٍ متواضع بسعادة. وبعد سنة من زواجهما، رزقا بطفلٍ جميل. كنت أشعر بالغيرة من ڤيرا، لأنّي كنت أتمنّى أن يكون لي طفل مثل طفلها، شعره أسود ومتموّج، وبشرة وجهه بيضاء نقيّة يتخلّلها بعض النمش. وكنت أيضاً أتمنّى أن يكون لي زوجٌ محبّ، يقبّلني عندما يذهب إلى عمله صباحاً، ولدى عودته في المساء، كما كان يفعل زوجها. لكنّي كنت أريد بيتاً فخماً لا يشبه بيتها».

لم يكن سهلاً عليّ تصوّر العالم الذي وصفته روزالي، فقد كان يشبه القصص الخيالية بالنسبة إليّ. لكنّي تنبّهت فجأةً، أن هذا العالم يشبه إلى حدٍّ بعيد العالم الذي عاش فيه إدوارد سابقاً، عندما كان إنساناً. وتساءلت، هل أنّ إدوارد يستغرب عالمي هذا، بالقدر الذي أستغرِب به عالم روزالي.

تنهّدت روزالي وتابعت: «كان في مدينة روتشستر عائلة رويس كينغ الغنيّة جدّاً. كانوا يملكون البنك الذي يعمل فيه والدي، وكلّ المشاريع الكبرى في المدينة. وفي يوم جاء رويس كينغ الابن ليزور البنك، لأنّه كان ينوي تسلّم إدارته. علمت أمّي بتلك الزيارة، وتظاهرت في ذلك اليوم أنّها نسيت أن تعطي والدي غداءه، وطلبت منّي أن أحضّر نفسي لأذهب معها إلى البنك، واقترحت أن ألبس أجمل ثيابي، وأكون في أحلى زينتي.

رآني رويس في ذلك النهار، وفي المساء وصلت إلى منزلنا أوّل باقة ورد. وأخذ يرسل إليّ الورود في كلّ مساء. كان رويس وسيماً؛ شعرُه أشقر وعيناه زرقاوان. وفي ذات يومٍ، قال لي إنّ عينيّ بلون البنفسج. ومنذ ذلك الحين، أخذ البنفسج يشكّل جزءاً من الباقة المسائية المعتادة.

طلبني رويس للزواج، فوافق أهلي ووافقت أنا بالطبع، فقد كان ذلك كلّ ما حلمنا به. دامت خطوبتنا شهرين، ولكنّي نادراً ما جلست معه على انفراد. كان يفضّل الظهور معي بين الناس، وفي الحفلات لاستقطاب أنظار المعجبين. كنت أحبّ لفت الأنظار أيضاً، وكثرت حفلات الرّقص والسهرات والفساتين الجميلة.

كان الجميع يفترشون السجاد الأحمر لاستقبال أفراد عائلة كينغ. وكانت الاستعدادات جارية لتحضير أجمل عرس. وكلّ شيء يبدو أنّه سيكون كما حلمت وكما أردت».

توقّفت روزالي فجأةً وصرّت على أسنانها، فأحسست بأنّ الرّعب بات قريباً. فالنهاية لن تكون سعيدة، كما أنذرتني في بداية حديثها. كانت روزالي على وشك أن تحصل على كلّ ما أرادت، لكن يبدو أنّ حياتها الانسانية انتهت قبل تحقيق ذلك. فأصبح ذلك الحرمان المفاجئ سبباً لحزنها العميق، والمستمرّ حتى اليوم.

«كنت أزور ڤيرا في ذلك المساء. قضينا وقتاً ممتعاً، وكان طفلها هنري قد بدأ يجلس بمفرده. وعندما أردت الانصراف، مشت معي ڤيرا إلى الباب، وكان طفلها على ذراعها وزوجها إلى جانبها. التفتّ إلى الوراء قليلاً فلاحظت زوجها يطبع قبلة على خدّها، عندما ظنّ أنّي لن أراه. أثارت تلك القبلة لديّ شعوراً بالألم. فعندما يقبّلني رويس، لا تكون قبلته بهذه الرّقة. نزعت تلك الأفكار من رأسي، وقلت في نفسي: رويس أمير... وأنا سأصبح أميرة».

رأيت وجه روزالي الأبيض في ضوء القمر يزداد شحوباً.

وتابعت: «كانت ظلمة اللّيل قد انتشرت، وأضيئت مصابيح الشوارع. شعرت بالبرد، وكنّا في نهاية شهر نيسان، وموعد العرس بعد أسبوع. رحت أفكّر بالعرس والتحضيرات، وخفت أن أضطر إلى إلغاء الاحتفال في الحديقة إذا استمرّ البرد. إنّي أتذكّر كلّ مشاعري، وكلّ ما جرى لي في تلك اللّيلة. فقد بقيت متمسّكة بكلّ ذلك لفترةٍ طويلة.

كنت على مسافة قريبة من البيت عندما سمعتهم. كانوا مجموعة من السكارى الواقفين تحت مصباحٍ مكسور. وكانوا يضحكون بصوتٍ عالٍ. ندمت على أنّي لم أطلب من والدي مرافقتي... لكنّ الطريق لم تكن طويلة. وإذا بي أسمعه يناديني.

صرخ: «روز!»، وأطلق الباقون ضحكةً بلهاء.

لم ألاحظ في البدء أنّ هؤلاء السكارى كانوا رويس ورفاقه، أبناء بعض الأغنياء الآخرين.

«هذه فتاتي روز!»، قال رويس. ضحك رفاقه وقالوا لي: «الطقس بارد. لمَ تأخّرت ونحن في انتظارك؟».

لم أكن قد رأيته ثملاً من قبل. كان يقول إنّه لا يحبّ الشمبانيا. لم أدرِ أنّه كان يحبّ المشروبات الروحية الأقوى.

وكان معه أيضاً صديق صديقه من آتلانتا.

«ماذا قلت لك يا جون؟ أليست أجمل من جميع الغانيات في جورجيا؟».

كان الرجل الذي يدعى جون أسود الشعر وذا بشرة لوّحتها الشمس. نظر إليّ كأنّي حصاناً يودّ شراءه. وقال: كيف يمكنني أن أقدّر جمالها وهي مغطّاة بالثياب؟

ضحك الجميع. وبعد لحظة، اقترب منّي رويس وشدّ سترتي التي كانت هديّة منه، فمزّقها، وبدت أكتافي عارية.

إظهري لهم يا روز جمالك. ومدّ يده إلى رأسي، فنزع قبّعتي وشدّ شعري المثبّت بالدبابيس. صرخت ألماً، فضحكوا. كأنّهم أحبّوا صرخة ألمي».

نظرت إليّ روزالي، كنت أشعر أن وجهي بات شاحباً كوجهها، إن لم يكن قد مال إلى الاخضرار!

قالت: «لن أصف لكِ كلّ التفاصيل، لكنّهم تركوني ملقاة على الطريق. كانوا ما زالوا يضحكون عندما ابتعدوا، بعد أن ظنّوا إنّي فارقت الحياة. وكانوا يمازحون رويس ويقولون إنّه بات عليه أن يجد عروساً جديدة. وسمعته يجيب أنّه يريد أن يتعلّم الصبر أوّلاً.

كنت أشعر بآلام مبرّحة، وكان البرد قارساً، والثلج يتساقط. . . ، ورحت أنتظر الموت بفارغ الصبر.

في هذا الوقت، وجدني كارلايل. لقد جذبته رائحة دمي. أتذكّر إنّي شعرت بالانزعاج، عندما كان يحاول نجدتي. لم أكن أحبّ أبداً

د. كولن وزوجته إيزمي وإدوارد، وكان يدّعي آنذاك أنّه أخ إيزمي. لم أكن أحبّهم لأنّهم كانوا أجمل منّي، وخصوصاً الرّجال. وهم لم يكونوا ليختلطوا كثيراً بالناس، لذا كنت قد رأيتهم مرّة أو مرّتين فقط.

عندما رفعني عن الأرض وهرب بي، ظننت أنّي فارقت الحياة، لأنّي شعرت أنّي خفيفة جدّاً، كأنّي أطير. لكنّي كنت أشعر بالذعر من آلامي التي لم تتوقّف.

بعد ذلك، أفقت، فرأيت نفسي في غرفة شديدة الإضاءة ودافئة. كنت أغيب عن الوعي، ثمّ أصحو من جديد. وفجأةً شعرتُ بشيءٍ حادّ يجرحني حول عنقي ومعصميّ وكاحليّ. صرختُ مستنكرة، وفكّرت أنّه أتى بي إلى ذلك المكان كي يعذّبني. وفجأةً رحت أشعر بنارٍ تلتهم أحشائي، فرحت أتوسّل إليه أن يقتلني. وعندما عادت إيزمي ومعها إدوارد إلى البيت، رجوتهما أن يقتلاني أيضاً. جلس كارلايل إلى جانبي وأمسك بيدي، وقال إنّ الألم سينتهي قريباً، وأفهمني من هو في الحقيقة، والواقع الجديد الذي أسير نحوه. أصغيت إلى بعض ما قاله، ولكنّي لم أصدّقه. وكان كلّما صرخت من الألم، يقول إنّه آسف.

لم يكن إدوارد راضياً. سمعته يقول لكارلايل: «كيف تتصرّف بهذا الشكل يا كارلايل، . . . روزالي هايل؟». كان يلفظ اسمي بانزعاج وكبرياء.

«لم أستطع أن أتركها تموت». قال كارلايل بهدوء. «كان الأمر فظيعاً، خسارة كبيرة».

«أفهم ذلك». قال إدوارد، لكنّي اعتقدتُ من صوته أنّه كان يرفضني. لم أعلم في حينه، أنّ رأيه كان مشابهاً لرأي كارلايل بخصوصي.

«كانت خسارة كبيرة، لم أستطع أن أتركها». عاد كارلايل للقول بما يشبه الهمس.

«بالطّبع، لن تقوى على تركها». أكّدت إيزمي.

«لكنّ الموت أمر طبيعي يواجه جميع الناس. ألا تعتقد أنّه من السّهل التعرّف عليها؟. لا شكّ أن عائلة كينغ ستبحث عنها في كلّ مكان. وبالطّبع، لن يتّهموا الشيطان الحقيقي».

«شعرت ببعض الارتياح، عندما لاحظت أنّهم يعلمون أنّ رويس كان المذنب».

كان الألم قد خفّ كثيراً، ولذلك استطعت الإصغاء لما كان يدور بينهم من حديث.

«ماذا سنفعل بها؟». سأل إدوارد بلهجة اشمئزاز. أو هكذا تصوّرت.

أجاب كارلايل: «هذا رهن اختيارها. قد تختار الانفراد والاستقلالية».

الكلام الذي صدقته من أقوال كارلايل، أنّ حياتي قد انتهت ولا أمل في العودة، كان كافياً لإلقاء الرّعب في قلبي، فشعرت بخوفٍ شديد من الوحدة.

أما بعد أن ذهب عنّي الألم كليّاً، وفسّروا لي من جديد ما كنت قد أصبحت، صدّقت أقوالهم. شعرت بالعطش إلى الدماء، وتحسّست كثافة جلدي وشاهدت احمرار عينيّ.

هانت عليّ الأمور قليلاً عندما شاهدت نفسي بالمرآة. كنت لا أزال سطحيّة وأعلّق أهميّة كبيرة على الشكل. لقد أعجبت بجمالي. لكنّي وبعد فترة من الزمن، رحت أكره الجمال الذي كان سبب مصيبتي. كان الجمال بمثابة اللّعنة التي لحقت بي. ليتني كنت فتاة عاديّة مثل ڤيرا، وتزوّجت من رجلٍ يحبّني، وأصبح لديّ أطفال. هذا كلّ ما كنت أتمنّاه في الحقيقة، ولم يكن أمراً مستحيل التحقيق».

أطرقت روزالي في التفكير قليلاً، وبدت كأنّها نسيت وجودي

معها. وفجأةً لمعت ابتسامة واثقة على وجهها، واندفعت قائلة: «هل تعلمين أنّ تاريخي يشبه تقريباً تاريخ كارلايل بنظافته. وهو أفضل من تاريخ إيزمي. وأفضل بأضعاف من تاريخ إدوارد؛ فأنا لم أشرب أبداً دمَ إنسان!».

فهمَتْ تعابير وجهي عندما نظرت إليها متسائلة: لمَ تقول إنّ تاريخها يشبه تقريباً تاريخ كارلايل. فهمت روزالي أنّ عبارة (تقريباً) كانت محور تساؤلي.

نظرت إليّ وقالت بثقة: «لقد قتلت خمسة أشخاص. ولكنّي حرصت ألاّ أدعهم ينزفون. عرفت أنّي لا أستطيع مقاومة رائحة الدّماء، ورفضت أن يدخل شيئاً منهم إلى جسدي».

وحرصتُ على أن يكون رويس الأخير. أردته أن يعلم ما حلّ بأصدقائه، وأن يتوقّع ما سيحدث له، كي يموت رعباً قبل أن يموت موتاً حقيقيّاً. وتحقّق لي ما خطّطت له. هاجمته عندما كان مختبئاً داخل غرفة سميكة الجدران لا نافذة فيها. وكان عند الباب رجلان مسلّحان. مات الرّجلان حالاً. عفواً! أخطأت، فعدد الذين قتلتهم هو بالأحرى سبعة.

أردت أن يكون الأمر مشهداً دراميّاً. وتصرّفت برعونة. كنت قد سرقت فستان عروس وارتديته في هذه المناسبة. ظهرت أمامه فجأةً، فأخذ يصرخ. صرخ كثيراً تلك اللّيلة...، وكانت فكرة جيّدة أن أتركه إلى النهاية. هكذا جعلته يموت ببطء».

توقّفت فجأةً عن الكلام، وقالت: «أعتذر، هل أخفتك؟».

قلت كاذبة: «لا!».

قالت: «أخذني الموضوع، فنسيت نفسي».

«لا تقلقي».

«أستغرب أنّ إدوارد لم يخبرك بذلك».

«هو لا يحبّ نقل أخبار غيره. لا يتكلّم إلاّ في ما يخصّه حقّاً».

ابتسمت وقالت: «يجب أن أعترف له بهذه الصفات الجيدة».

قلت: «بالضبط».

«هل أخبرك إدوارد لمَ كنت أتصرّف معك بطريقة غيرعادلة؟».

«قال لأنّني إنسان، ولأنّك لا تريدين أن يعرف الناس بوجودكم».

قاطعتني بضحكتها الرنّانة وقالت: «الآن أشعر بالذنب حقّاً. كان لطيفاً معي أكثر ممّا أستحقّ». وتابعت، تتكلّم وتضحك بحرارة كأنّها قرّرت أن تسقط الحواجز بيننا: «كم هو كذّاب!».

سألت بقلق: «هل كان يكذب؟».

«لا أسمّي ذلك كذباً، لكنّه لم يخبرك القصّة بكاملها. ما قاله لك صحيح، حتّى أنّه أصبح صحيحاً أكثر في الآونة الأخيرة. ولكن في البداية... وهذا محرج، كنت أشعر بالغيرة لأنّه اختارك، ولم يخترني أنا».

أخافتني كلماتها، وكنت أنظر إليها في ضوء القمر الفضّي، فأجدها أجمل امرأةٍ رأيتها في حياتي. كيف يمكنني أن أنافس روزالي؟

«لكنّك تحبّين إيميت...». قلت متمتمة.

هزّت رأسها بدعابة، وقالت: «أنا لا أريد إدوارد بهذه الطريقة. لم أنظر إلى إدوارد هكذا في حياتي. أنا أحبّه كأخ. لكنّه أزعجني منذ اللّحظة التي سمعته يتكلّم فيها لأوّل مرّة. أنا يا بيلاّ، كما أخبرتك، تعوّدت على أن أكون مركز الاهتمام. وإدوارد لم يبدِ أيّ هتمامٍ بي البتّة، وهذا ضايقني وجرح مشاعري منذ البداية. لكنّه لم يبدِ اهتماماً بأيّ فتاة أخرى، لذا لم أعد أتأثّر. حتى عندما تعرّفنا إلى قبيلة تانيا في دينالي، وتعرّفنا إلى ذلك العدد الكبير من الفتيات، لم يبدِ إدوارد إعجابه بأيّ منهنّ. ثمّ تعرّف إليك». نظرت إليّ بعينين حائرتين. أمّا أنا فكنت أفكّر بإدوارد وتانيا ومجموعة الفتيات، فبدوت شاردة وممتعضة إلى حدٍّ ما.

لم تصب روزالي في قراءتها لملامحي. فقالت: «لا أقصد أنّك لست جميلة يا بيلاّ. بل، لأنّي أنا شديدة الغرور بجمالي، لم أتحمّل أن يجدك أكثر جاذبية منّي».

«لكنّك قلتِ في البداية إنّ هذا الأمر لم يعد يهمّك. . .نحن نعلم أنّك أجمل المخلوقات على الأرض». قلت هذا، واستغربت أن تحتاج فتاة بجمال روزالي لسماع مثل هذه العبارات المشجّعة.

ضحكت روزالي، وقالت: «أشكرك يا بيلاّ. كلاّ، لم يعد ذلك الأمر يهمّني. لكنّي دائماً أجد شخصيّة إدوارد غريبة بعض الشيء». وضحكت من جديد.

«وما زلتِ لا تحبينني!؟» سألتها بصوتٍ خفيض.

شحبت ابتسامتها وقالت: «أعتذر لذلك».

جلسنا بصمتٍ لبعض الوقت، وشعرت أنّها لا تنوي الاستمرار في الحديث.

قلت: «هل تقولي لي لماذا؟ هل فعلت شيئاً. . .؟».

وتساءلت في نفسي. هل لأنّ حبيبها إيميت تعرّض للخطر مرّات عديدة لأجل إنقاذي؟ في المرّة الأولى تصدّى لجايمس، وبعد ذلك لفيكتوريا.

«لا، لم تفعلي شيئاً حتى الآن».

نظرتُ إليها بحيرة. فقالت بشغف لم ألحظه حتى عندما كانت تسرد قصّتها: «ألا ترين معي يا بيلاّ، أنّك الآن تملكين كلّ شيء، لديك حياة ومستقبل، كلّ ما أتمنّى لنفسي. . .؟ وأراكِ الآن تنوين التخلّي عن كلّ شيء. ألا ترين أنّي أتمنّى لو كنتُ مكانك، وبأيّ ثمن؟ أنت تملكين حرية الاختيار التي حرمتُ منها، وها إنّك تقومين باختيارٍ غير صحيح!».

ذعرتُ من الشراسة التي ظهرت على وجهها فجأةً؛ وتنبّهت إلى أنّ فمي كان مفتوحاً، فأطبقته بسرعة.

كانت تنظر إليّ بتمعّن، ثمّ أخذ الشّرر الذي في عينيها ينطفئ تدريجاً، وتحوّلت في اللّحظة التالية إلى الارتباك والخجل.

«كنت أظنّ أنّ باستطاعتي التحدّث إليكِ عن هذا الموضوع بهدوء. لكنّ الأمر يبدو أصعب الآن من السابق، عندما كانت النظرة السطحية للأمور تسيطر عليّ».

أدارت رأسها وأخذت تتأمّل القمر بين الغيوم الرّمادية. استجمعت بعض الشجاعة وقطعت سكونها: «هل ستحبّينني أكثر، لو قرّرت أن أبقى على طبيعتي الانسانية؟».

أجابت: «محتمل!».

قلت: «لكنّك حصلت على السعادة، في نهاية الأمر، بحصولك على إيميت!».

ضحكت. «حصلت على نصف السعادة». وأكملت: «تعلمين أنّي انتشلت إيميت من بين أنياب دبٍّ كان قد بدأ بافتراسه. وأتيت به إلى كارلايل. أتعلمين لمَ فعلت هذا؟».

سألت: «لمَ فعلت؟».

«لأنّه ذكّرني بالطفل هنري، ابن صديقتي ڤيرا، بشعره المتموّج الأسود والنمش المتناثر على وجهه، والبراءة الغريبة التي تظهر عليه برغم كونه رجلاً بالغاً. لم أستطع أن أتركه ليموت. وبرغم أنّي أكره هذه الحياة التي نعيشها، تصرّفت بأنانية وطلبت من كارلايل أن يغيّره.

حصلت على أكثر ممّا توقّعت. إيميت هو كل ما كنت أسعى إليه برغم أنّي لم أعِ ذلك في البداية. إنّي أجد فيه كل ما أحتاجه، وهو أيضاً. لكنّنا سنبقى إلى الأبد اثنين، ولن يتسنّى لي أن أجلس على شرفة

بيتنا في يومٍ من الأيّام ويكون هو بجانبي بشعره الأبيض، فيما ننظر إلى أحفادنا يلعبون.

إنّك تستغربين قولي، أليس كذلك؟ أنتِ الآن أشدّ نضجاً ممّا كنت أنا عليه في الثامنة عشرة، لكن قد يكون هناك أمور لم تفكّري فيها بعمق حتّى الآن. أنتِ لا زلت صغيرة كي تعي ما ستريدينه لنفسك بعد عشر سنوات، أو خمس عشرة سنة. وأنتِ أيضاً صغيرة لتأخذي قرار الاستغناء عنه قبل التفكير الكافي. لا يجوز الاستعجال في اتخاذ القرارات حول الأمور الأبدية التي لا عودة عنها يا بيلاّ».

قالت ذلك، وداعبت شعري قليلاً.

وتابعت: «فكّري بالأمر، فعندما يحصل التحوّل، لن يكون بالإمكان الرجوع عنه. إيزمي تستعيض بنا إلى حدٍّ ما...، وآليس لا تذكر أيّ شيء من حياتها الانسانية، لكنّك ستتذكرين...، وسوف تفتقدين للكثير».

وقلت في نفسي... «لكنّ هناك الكثير في المقابل!».

«شكراً لك يا روزالي. جميلٌ أن أفهم...، وأن أتعرّف إليكِ أكثر!».

«أعتذر لتصرّفاتي البشعة». ثمّ ضحكت، وقالت: «سأحاول أن أكون أكثر لطفاً».

وبادلتها بضحكةٍ أيضاً.

لم نصبح صديقتين، لكنّي كنت متأكّدة أنّها لن تكرهني إلى تلك الدرجة، بعد الآن.

«سأتركك لتنامي الآن». قالت ونظرت نحو السرير وشفتاها ترتعشان. «أعلم أنّه أغضبك بهذه الإقامة الجبرية التي فرضها عليك، لكن لا ترفضي أن تسامحيه، فهو يحبّك كثيراً ولا يقوى على الابتعاد

عنك أبداً». قامت من مكانها وتوجّهت نحو الباب وقالت: «ليلة سعيدة يا بيلاّ». وأغلقت الباب وراءها.

«ليلة سعيدة يا روزالي». تمتمتُ بعد لحظات.

لم أتمكّن من النوم إلاّ بعد انقضاء فترة من الوقت. وعندما نمت، رأيت أحلاماً مزعجة. رأيت نفسي أزحف في شارعٍ مظلم وكان الثلج يتساقط. وكان دمي يسيل على الأرض. وعلى مقربة منّي، كان ملاك أبيض يراقبني ويرمقني بنظرة استياء.

في الصباح، ذهبت مع آليس إلى المدرسة. بقيتُ صامتة، أنظر من الشباك. فقالت: «اللّيلة نذهب إلى أولمبيا، أو إلى أيّ مكان آخر، سنقضي وقتاً ممتعاً».

«لمَ لا تقفلي عليّ الباب في الطابق السفلي، وترتاحي من محاولة تجميل الأمور؟».

«سيأخذ منّي سيارة البورش، ويعتبر أنّي لم أقم بالمهمّة كما يجب. كان يجب أن تكوني سعيدة».

قلتُ: «هذا ليس خطأك. حتّى إنّي أشعر بالذّنب نحوك، وأستغرب هذا الشعور. سنلتقي عند الظهر».

مشيت مجهدة إلى صفّ اللغة الانكليزية. وكان الوقت، من غير وجود إدوارد معي، صعباً وثقيلاً. عندما رنّ جرس فرصة الغداء. كان مايك ينتظرني أمام الباب، ففتحه كي أخرج. مشينا معاً تحت المطر الخفيف، نتبادل الأخبار العاديّة.

«هل ذهب إدوارد لممارسة رياضة تسلّق الجبال؟».

أجبته: «نعم!».

«ماذا ستفعلين هذا المساء؟».

عجبت لسؤاله، فهو لا يزال يأمل بمرافقتي. «لن أستطيع الخروج».

لم يكن مايك قد وجد الكلمات لمتابعة حواره معي، عندما سمعنا هديراً قويّاً يرتفع من موقف السيّارات وراءنا. التفت كلّ من كان على الرّصيف لينظر باستغراب إلى الدرّاجة الناريّة السوداء وهي تتوقف محدثةً ضجّة كبيرة. لم يطفئ جايكوب المحرّك، بل أومأ لي، وصرخ بصوتٍ أعلى من الضّجة: «أسرعي يا بيلاّ». وقفت في مكاني، لا أدري ما أفعل.

نظرت إلى مايك بسرعة، وعلمت أنّي لا أملك سوى لحظات.

لا يمكن أن تبالغ آليس في فرض الأسر عليّ أمام الناس.

قلت لمايك بحماسة مفاجئة: «كنت متوعّكة، وذهبت إلى البيت».

فهم مايك قصدي، وهزّ رأسه بالموافقة.

قرصت خدّه بخفّة، وقلت: «شكراً يا مايك، إنّي مدينة لك بخدمة!».

ضحك جايكوب، وضاعف دورات المحرّك. قفزتُ إلى المقعد وراءه، ولففت ذراعيّ بإحكام حول خصره.

لمحت آليس أمام الكافتيريا تنتظر في البرد، وعيناها تشتعلان غيظاً.

رميتها بنظرة استئذان سريعة.

انطلقنا نسابق الرّيح. لكنّي علمت أنّ جايكوب سيخفّف من سرعته عندما نصل إلى حدود كويلوت. كنت أصلّي، بصمت وبقوّة، كي لا تلحق بنا آليس وكي لا يرانا تشارلي صدفة.

وما إن وصلنا إلى الحدود حتّى خفّت سرعة الدرّاجة، وأطلق جايكوب ضحكة عالية رنّانة: «لا بأس من اقتناص الفرصة للخروج من السجن!».

«حسناً فعلتَ يا جايك!».

وقال: «تذكّرت ما قلته لي إنّ (العلقة) التي تقرأ في الغيب، لا

يمكنها أن تقرأ ما يدور في رأسي. أنا سعيد أنّك لم تفكّري في هذه الخطّة، إذ لو فعلتِ، لمنعتك من الذهاب إلى المدرسة اليوم».

«لذا قصدت ألاّ أفكّر بخطّة للهروب».

أطلق جايكوب ضحكة المنتصر، ثمّ قال: «ماذا تريدين أن نفعل اليوم؟».

قلت: «أيّ شيء!».

كنت سعيدة جدّاً بحريّتي.

8

مزاج حادّ

عدنا إلى الشاطئ نتمشّى من دون هدف معيّن، ولم يزل جايكوب يتباهى بنجاحه في إنقاذي من السجن.

«هل تتوقّعين أن يأتوا إلى هنا ليبحثوا عنك؟». سألني متحمّساً للمواجهة.

أجبت: «كلّا». وكنت واثقة من جوابي، «لكنّهم سيكونون شديدي الغضب منّي اللّيلة».

التقط جايكوب إحدى الحصى، ورماها بعيداً فوق الأمواج. «إذاً لا تعودي. ابقي هنا».

قلت بسخرية: «وكم سيفرح تشارلي بذلك!».

«أنا متأكّدٌ من أنّه لن يغضب».

لم أجبه. قد يكون جايكوب على حقّ. إنّ تفضيل تشارلي لأصدقائي في لا بّوش واضحٌ جدّاً، لكنّه غير منصف. هل سيبقى على موقفه لو عرف أنّ الخيار هو في الواقع بين الرّجال الذئاب من جهة، وفريق مصّاصي الدّماء من جهة أخرى.

«أخبرني. هل من فضائح جديدة عندكم؟».

توقّف جايكوب فجأةً عن السير. وصوّب إليّ نظرات عتب واستنكار.

قلت: «ماذا؟ أنا أمازحك».

قال: «أوه!!» ولكنّه أخذ ينظر إلى البعيد مفكّراً.

انتظرت حتى استأنف مشيه، وقلت: «هل حقّاً، هناك فضيحة؟».

تنهّد وهو يقول: «كم اشتقت أن يكون لديّ مكان خاصّ في رأسي، أودعه أسراري فلا يشاركني في معرفتها أحد».

وبعد دقائق من السير بهدوءٍ معاً، سألته: «ما هو ذلك السرّ الذي كنت ترغب في إخفائه، واطّلع عليه الجميع؟».

تنحنح وتردّد، وكأنّه يقرّر مقدار المعلومات التي سيطلعني عليها، ثمّ قال: «كويل تطابق. لقد أصبحوا ثلاثة حتّى الآن، والباقون يساورهم القلق. ربّما التطابق هو أمرٌ أكثر انتشاراً ممّا نعتقد». عقد حاجبيه واستدار إلي، محملقاً بصمتٍ في داخل عينيّ.

«لمَ تنظر إليّ هكذا؟». قلت بعد أن تضايقت من شدّة تركيزه.

«لا شيء!».

ثمّ أخذ بيدي لنتابع السير في محاذاة الشاطئ. كنّا نبدو للنّاظر البعيد كأنّنا زوجين يتنزّهان يداً بيد. لكنّ جايكوب تعوّد أن يتصرّف بهذه الطريقة، وليس الوقت مناسباً الآن للاعتراض، أو لطرح نقاط الاستفهام...

«لمَ ترى مسألة تطابق كويل كأنّها فضيحة... هل لأنّه لم يمضِ طويلاً على تغيّره؟».

«كلاّ، ليس هذا هو السبب».

«إذاً، ما هي المشكلة؟».

«إنّها حقائق لم نأخذها على محمل الجدّ سابقًا، وكنا نعتبرها مجرّد أساطير».

«هل ستخبرني، أم أحاول التكهّن بنفسي».

«ليس من السهل تكهّن هذا الأمر. تعلمين أنّ كويل لم يكثر الاختلاط بنا في الآونة الأخيرة؛ لذلك لم يذهب إلى بيت إميلي من قبل».

«هل تطابق كويل مع إميلي أيضاً!؟».

«قلت لك ألاّ تتكهّني! كان عند إميلي زائرتان وهما بنات أختها، . . . فالتقى كويل بكلير».

لم يكمل جايكوب. فاسترسلت بتكهّناتي: «رفضت إميلي أن تلقى ابنة أختها مصيراً مماثلاً لمصيرها، مع رجلٍ ذئب آخر. إن كان توقّعي صحيحاً، فأعتبر تصرّف إميلي نفاقاً».

لكنّي في الحقيقة قد أتفهّم موقفها، بعد ما أصاب وجهها وذراعها من تشويه بسبب إخفاق سام في السيطرة على نفسه مرّةً واحدة.

قال جايكوب: «أرجو أن تتوقّفي عن تكهّناتك. ما زال الوقت مبكراً لتفكّر إميلي بتلك الأمور».

«ماذا تعني بقولك مبكراً؟».

نظر إليّ وقال: «حاولي عدم توجيه النقد».

أومأت بالموافقة، ورحت أنتظر بحذر.

قال جايكوب: «كلير طفلة وعمرها سنتان فقط».

كان المطر قد بدأ ينهمر. لم أتلفّظ بكلمة، لكنّي رحت أفتح وأغلق أجفاني بحركة عصبية، فيما كانت قطرات الماء تتساقط، وترسو على وجهي.

وقف جايكوب يراقبني بصمت.

وأخيراً تكلّمت: «لقد تطابق كويل مع طفلة عمرها سنتان!؟».

«هذا ما يحدث». وانحنى، والتقط حصىً أخرى ليرسلها بعيداً فوق المياه. «على الأقل، هكذا تقول الأسطورة».

قلت: «لكنّها لا تزال طفلة».

وجّه إليّ نظرة قاتمة تتخلّلها بعض السخرية المرّة: «تذكّري أنّ كويل لا يتقدّم به السّن. لكنّه سيضطّر إلى الانتظار بضعة عقود».

«لا أجد ما أقوله. . . !».

حاولت تحاشي النّقد الجارح، لكنّني كنت أرتعد اشمئزازاً. حتّى الآن، كنت أتقبّل واقع الرجال الذئاب بصدر رحب، وبصورة خاصّة، بعد أن تبيّن لي عدم تورّطهم في الجرائم التي حصلت في الجوار. . .

«يبدو على وجهكِ الانزعاج من هذا الخبر».

«آسفة، لكنّه خبرٌ مرعب».

وإذا بجايكوب يدافع عن رفيقه بحرارة: «ليس الأمر كما تظنين. أنا أعلم ومن خلال النظر إلى عينيّ كويل، أنّ المسألة ليست رومنطيقية البتّة، وليست أيضاً حالة الحبّ من أوّل نظرة. إنّها جاذبية طبيعيّة بين الاثنين. بعد أن رآها. . .، لم تعد جاذبية الأرض هي التي تبقيه حيث هو، بل جاذبيّتها هي. فأصبحت هي الأهمّ في حياته. يفعل أيّ شيءٍ من أجلها، ويكون ما تتمنّاه أن يكون بالنسبة لها. قد تتمنّاه أن يكون حاميها أو حبيبها أو صديقها، أو أخاها.

سيكون كويل أخاً أكبر لها وهي طفلة. وبعد أن تكبر قليلاً، سيهتمّ بها ويكون صديقها ويتفهّم مشاعرها ويلبّي حاجاتها ويساعدها. وعندما تبلغ سنّ النضوج ستتحوّل العلاقة إلى حبّ كبير، بمستوى الحبّ بين إميلي وسام». لكنّي أحسست بالمرارة في صوته، عندما تطرّق إلى ذكر سام.

«ألا تملك كلير حقّ القرار في هذا الموضوع مطلقاً؟».

«إنّها تملك هذا الحقّ بالتأكيد. لكن، لا وجود لأيّ سبب يجعلها ترفضه. فهو الذي يكمّلها. . .، وكأنّه خلِق من أجلها هي بالذات».

مشينا بصمت. التقطتُ حصىً ورميته إلى الماء، لكنّه لم يذهب

بعيداً. ضحك جايكوب. فقلت: «لا تتوقّع من الجميع أن يكونوا في مثل قوّتك».

لم يُجبني، لكنّه تنهّد. فسألته بهدوء: «متى تتوقّع أن يحصل لك هذا الأمر؟».

فأجاب إجابة فورية وقاطعة: «لن يحصل أبداً».

«لكنّه أمرٌ لا يمكنك التحكّم به. أليس كذلك؟».

مكث صامتاً خلال دقائق، وتباطأت تلقائيّاً خطواتنا، حتّى كدنا نتوقّف عن المشي.

«لا، ليس لدينا القدرة على التحكّم به، لكنّ واحدنا يجب أن يرى نصفه الآخر، أن يقع نظره عليه».

«هل تظنّ، كونك لم ترها بعد، يعني أنّها غير موجودة؟ جايكوب، أنت لم ترَ الكثير من هذا العالم بعد».

قال بصوتٍ هادئ: «كلاّ، لم أرَ». ثمّ التفت إليّ فجأةً بعينين ثاقبتين. «لكنّي لن أرى أيّ فتاةٍ أخرى سواك يا بيلاّ. حتّى عندما أغمض عينيّ لا أرى إلاّ أنتِ. إسألي كويل وإمبري، فالأمر يكاد يفقدهم صوابهم».

توقّفنا عن السير. وساد الصّمت. فأخفضت عينيّ ونظرت إلى الحصى، ولم أعد أسمع سوى صخب الأمواج.

قلت بهمس: «أعتقد أنّ من الأفضل أن أعود إلى البيت».

قال معترضاً، ومتفاجئاً بالفكرة: «كلاّ!».

نظرت إلى عينيه، فرأيت قلقه العميق: «لن يعود مصّاص الدماء سوى في المساء، فلمَ تريدين الذهاب الآن؟».

نظرت إليه بعتب.

فاستدرك مسرعاً: «لا أقصد الإهانة».

«نعم لديّ مزيد من الوقت يا جايك، لكن...».

رفع يديه قائلاً: «أنا آسف، لن أتصرّف بهذا الشكل بعد الآن. أعدك بأنّي، من الآن وصاعداً، سأكون جايكوب فحسب، كما طلبتِ».

زفرتُ نهدة عميقة، وقلت: «ولكن... إن كنت تفكّر بهذه الطريقة...».

قال مؤكّداً: «لا تقلقي من هذه الناحية». ورسم على وجهه ابتسامة عريضة، وساطعة جدّاً. «أنا أهتمّ بمشاكلي، لكن أرجو أن تنبّهيني عندما أزعجك».

«لا أعرف...!».

«تعالي يا بيلاّ، لنذهب إلى البيت ونأتي بدرّاجتينا. يجب أن تستعملي درّاجتك كي تبقى جيّدة».

«ليس مسموحاً لي قيادة الدرّاجة».

«من يمنعك؟ تشارلي أم مصّاص... أم هو؟».

«كلاهما».

ابتسم جايكوب الابتسامة التي أحبّ. وإذا به يعود فجأةً إلى جايكوب الذي أشتاق إليه، المفعم بالحنان والسعادة.

لم أقاوم ابتسامته فبادلته بمثلها.

خفّ المطر وانقلب رذاذاً.

«أعدكِ أنّي لن أفشي هذا السرّ لأحد».

«إلاّ إلى جميع رفاقك!».

هزّ رأسه نافياً. «أعدك ألاّ أفكّر بالأمر».

ضحكت وقلت: «إن أصبتُ بأذى، سنقول إنّها زلّة قدم».

«أقول ما تشائين».

انطلقنا بدرّاجتينا حول لا بّوش. ثمّ ما لبث أن أعلن جايكوب أنّه

يكاد يفقد الوعي من شدّة الجوع، فذهبنا إلى البيت، وأكلنا بعض السندويشات التي حضّرها بنفسه. ثمّ شرعنا في تنظيف درّاجتينا داخل الكاراج. في الواقع، لم أشعر بأنّي قد ابتعدت عن ذلك المكان خلال زمن طويل، منذ عودة إدوارد. بل كنت أشعر وكأنّي تركته بالأمس.

كان جايك يخرج علب الصودا الدافئة من كيس الورق. نظرت إليه وقلت: «اشتقت إلى هذا المكان».

رفع عينيه إلى ألواح الحديد الصدئة والقماش المهترئ التي تقوم مقام سقف الكاراج، وقال: «أفهم أنّك تشتاقين إلى هذا الجمال الذي يضاهي جمال تاج محلّ، ويختصر مشقّات السفر إلى الهند».

رفعت علبة الصودا وقلت: «لنشرب نخب قصر تاج محلّ الصغير في واشنطن!».

ورفع علبته لتلامس علبتي.

«أتذكرين في يوم عيد الحبّ؟ ذلك اليوم، عندما كنت هنا لآخر مرّة... أعني آخر مرّة عندما كانت الأمور لا تزال... طبيعيّة».

ضحكت: «بالطّبع لا زلت أذكر، عندما أردت الحصول على عِلبة القلوب، مقابل كلّ الشروط المذلّة. لا يمكن أن أنسى ذلك اليوم».

ضحك معي، وقال: «شروط مذلّة...! يجب أن أفكّر في شيء جديد». ثمّ أطلق نهدةً من أعماق قلبه، وقال: «وكأنّ تلك الأيام مضت منذ زمنٍ بعيد. وكأنّها حقبة مختلفة من الزمن... حقبة أكثر سعادة!».

لم أشعر بأنّي أوافقه الرأي، فأنا أعيش الآن أجمل أيامي. لكنّي لاحظت كم كنت مشتاقة إلى أحداث وتفاصيل عشتها في تلك الحقبة المظلمة بالنسبة لي. نظرت إلى الخارج، فلاحظت منظر الغابة الداكنة في البعيد. عاد المطر ليتساقط بغزارة، لكنّي كنت أشعر بالدفء إلى جانب جايكوب، داخل الكاراج الصغير، حيث كانت الحرارة المنبعثة من جسده، تغني عن حرارة المدفأة.

أمسك بيدي وقال: «كم تغيّرت الأمور منذ تلك الأيّام!».

قلت وأنا أعضّ على شفتي: «بلى... والآن، أنا خائفة من أن أفقد رضا تشارلي. أتمنّى ألاّ يخبره بيلي عن قيادتي للدرّاجة».

«لن يقول له ذلك، إنّه لا ينفعل مع الأمور على طريقة تشارلي. لقد تذكّرت أنّي لم أعتذر منك رسمياً بشأن الوشاية إلى تشارلي في تلك المرّة! إنّي أعتذر حقّاً عمّا فعلت. وأتمنّى لو لم أرتكب تلك الحماقة».

أدرت عينيّ نحوه، وقلت: «وأنا كنت أتمنّى لو لم ترتكبها».

«إنّي حقّاً آسف، حقّاً آسف».

نظر إليّ بعينين يملأهما الرجاء، وخصلات شعره الأسود، المبلّل بالمطر، تتبعثر فوق رأسه في جميع الاتجاهات.

قلت: «حسناً، لقد سامحتك».

«شكراً لك، بيلاّ!».

تبادلنا الابتسام خلال لحظات، ولكن وجهه ما لبث أن أظلم.

«في ذلك اليوم عندما ذهبت إلى منزلكم كي أعيد الدراجة، كنت أريد أن أطرح عليك سؤالاً معيّناً». وتابع ببطء: «ولكنّي، كنتُ متردّداً...».

كنت أصغي إليه من دون القيام بأيّ حركة. إنّه ردّ الفعل في مواجهة التوتّر الذي تعلّمته لاشعوريّاً من إدوارد.

قال جايكوب: «هل كنت جديّة في ذلك الموقف المتعنّت، أم قلتِ ذلك لإغاظتي؟».

«أيّ موقف؟»، سألت بصوتٍ منخفض، ولكنّي كنت أعلم عمّا يتكلّم.

نظر إليّ وقال بألم: «عندما... عندما قلتِ إنّ الأمر لا يعنيني... إن عضّك، أم لا».

قلت: «جايك...»، ثمّ شعرت بانسداد في حلقي، ولم أكمل كلامي.

أغمض عينيه، وأخذ نفساً عميقاً، وقال: «هل كنت جديّة؟».

كان يرتجف قليلاً، وأجفانه مطبقة.

«نعم».

تنفّس بعمق، وقال: «كنت أعلم ذلك».

نظرت إلى وجهه، وانتظرت إلى أن فتح عينيه.

«هل تعلمين ما يعني ذلك؟». وطرح السؤال: «أنتِ تفهمين معنى هذا الأمر... تعلمين ما سيحدث لو أسقطوا المعاهدة؟».

قلت بصوت خافت: «سنبتعد من هنا أوّلاً».

جحظت عيناه، ولاحت في أعماقهما مشاعر الغضب والألم، وقال: «لم تكن المعاهدة محدّدة بمكان معيّن يا بيلاّ. عندما تعاهد جدودنا على الهدنة مع عائلة كولن، أقسم هؤلاء على أنّهم يختلفون عن مصّاصي الدماء الآخرين. وكان الشّرط الأساسي أنّهم لن يتعرّضوا لحياة أيّ إنسان، ولن يحوّلوا أيّ إنسان إلى مصّاص دماء بعد ذلك التاريخ. عندما يسقطون المعاهدة، سنعود إلى اعتبارهم مثل الآخرين. وهذا يعني أنّنا في أيّ وقت نقع على أحدهم، لا بدّ أن...».

«ولكنّك يا جايك، خالفت المعاهدة أنتَ شخصيّاً؟ إنّها تفرض عليكم إخفاء سرّ وجود مصّاصي الدماء عن الناس، وبرغم ذلك، أخبرتني بوجودهم. ألا يعني هذا أنّ المعاهدة فقدت في هذه الأيّام فعاليتها الحقيقية؟».

تحوّل الألم في عينيّ جايك إلى كراهية. «بلى، خالفتُ المعاهدة عندما لم أكن أؤمن بها. لكنّ ذلك لا يعني أنّ طريقة معاقبة الخطأ، هي الردّ بخطأ آخر. الطريقة الوحيدة للردّ هي الهجوم. فإذا أخطأوا، سنلجأ نحن إلى هذه الطريقة...، وتبدأ الحرب».

شعرت في تلك اللّحظة بأنّ لا مناص من الحرب، فارتعدت ذعراً.

«جايك! يمكن معالجة الأمور بغير هذه الطريقة».

صرّ جايك على أسنانه وقال: «لا وجود لغير هذه الطريقة».

ووقع صمتٌ ثقيلٌ بيننا.

قلت: «سوف لن تسامحني أبداً يا جايكوب...؟». لكنّي ندمت على طرح هذا السؤال خوفاً من الجواب.

«لن تكوني بيلاّ في ذلك الوقت. صديقتي ستختفي من الوجود، ولن يكون هناك من أسامحها».

همست: «هذا يعني أنّك لن تسامحني».

نظرنا في عيون بعضنا خلال برهة، شعرت أنّها دهر.

قلت: «هل هذا هو الوداع إذاً؟».

أغمض عينيه وفتحهما بدهشة، «لماذا، أمامنا بضعة أعوام، ألا يمكننا الاستمرار كأصدقاء حتى يحين الوقت؟».

«أعوام! لا يا جايكوب، لم يبقَ أمامنا أعوام. يمكنك أن تقول... أسابيع».

لم أتوقّع أبداً ردّة فعله.

وقف فجأةً عن مقعده. وسمعتُ صوت انفجار علبة الصودا بين أصابعه. انتشر السائل في كلّ مكان، وبلّل وجهي وثيابي.

قلت: «جايك!». وتوقّفت عن الكلام إزاء اهتزاز جسمه القويّ من شدّة الغضب. نظر إليّ بوحشيّة، وسمعت حشرجة الهيجان تعلو في صدره.

تجمّدت في مكاني، لا أدري كيف أتصرّف.

زادت سرعة ارتجافه، وظهر كأنّ تيّاراً كهربائيّاً يخترقه. ولم أعد أرى معالمه بوضوح...

ثمّ جرش بأسنانه، وتوقّف صوت الهيجان. نظر إليّ بعينين ضيّقتين، وكان قد توقّف عن الاهتزاز، ما عدا ارتجافٍ لم يفارق يديه.

وقال بصوتٍ خالٍ من أيّ شعور: «أسابيع؟».

لم أقوَ على الإجابة. كنت لا أزال متجمّدة في مكاني.

«سيحوّلك إلى مصّاص دماء قذر في غضون أسابيع؟».

كنت مشدوهة إلى درجة أنّني لم أنفعل جرّاء عباراته القادحة. بل أومأت برأسي، كأنّي بكماء.

وخِلتُ وجهه الأسمر مخضرّاً في تلك الدقيقة.

ثمّ قلت بعد صمتٍ طويل: «بالطّبع يا جايك، لا تنسى أنّي أكاد أبلغ التاسعة عشرة وهو في السابعة عشرة، فلمَ الانتظار، خصوصاً أنّه يمثّل كل ما أطمح إليه في حياتي؟ لا أرى خياراً أفضل أمامي. . .».

وإذا به يقاطعني ليقول: «أيّ خيار آخر يكون أفضل. . . حتّى لو انتهت حياتك، ولقيتِ حتفك، يكون ذلك أفضل لكِ. أفضّل أن أراك ميتة على أن. . .».

وقعت عليّ كلماته كوقع السوطّ. وانكمشت على نفسي، وشعرت كأنّه ضربني بالفعل.

وفجأةً اشتعل الألم في داخلي وانقلب إلى غضبٍ عارم.

قلت بصرخة أسى: «قد يحالفك الحظّ، وتصطدمني شاحنة في طريقي إلى البيت».

ثمّ أمسكت بدرّاجتي ودفعتها إلى الخارج. لم يتحرّك من مكانه. وما إن وصلت إلى الطريق الصغيرة الموحلة، حتى قفزت إلى الدرّاجة وأدرت المحرّك. طار الوحل الكثيف عن الدولاب الخلفي وانتشر في اتجاه الكاراج، فتمنّيت لو أصابه على وجهه.

قدتُ الدرّاجة بسرعةٍ في اتّجاه بيت كولن. وكان المطر يتساقط

بغزارة، وقطراته تكاد تتجمّد فوق وجهي من شدّة البرد. ورحت أسمع طقطقة أسناني، ولم أكن قد قطعت نصف الطريق بعد.

وردّدت أمام نفسي: «ليست الدرّاجة وسيلة مناسبة للتنقّل في واشنطن!! لن أتردّد في بيع قطعة الخردة هذه في أقرب مناسبة».

دخلت إلى كاراج بيت كولن. وبالطّبع، كانت آليس في انتظاري. وكانت تجلس فوق سيارة البورش. فبادرتني: «لم أحصل على فرصة قيادتها ولو مرّة واحدة!».

قلت: «آسفة!». ولم تكن أسناني قد توقّفت عن الطقطقة بعد.

«ربّما تحتاجين إلى حمّام ساخن على الفور».

قلت: «نعم».

نظرت إليّ بتمعّن، محاولةً فهم التعابير الظاهرة على وجهي. وقالت: «هل تودّين التكلّم عن شيءٍ ما؟».

قلت: «كلاّ!».

هزّت رأسها بالموافقة وعيناها تلتهبان بالفضولية.

«هل تريدين الذهاب إلى أولمبيا هذا المساء؟».

«لا، بل أفضّل الذهاب إلى بيتي».

كشّرت مظهرةً عدم الرّضا.

«لا تقلقي يا آليس، سأبقى كي لا تخسري السيارة».

«شكراً!».

ذهبت إلى النوم باكراً في تلك اللّيلة. وعندما فتحت عينيّ كان الظلام لا يزال دامساً. استدرت كي أعود للنّوم، فوقعت على السجادة. ثمّ استدرت إلى الجهة الأخرى كي أنظر من الزجاج إلى الخارج، لكنّ الغيوم الكثيفة في تلك اللّيلة منعت أشعة القمر من اختراقها.

«آسف». تمتم إدوارد. لم أقصد إيقاظك من النّوم.

أحسست بالتوتّر في انتظار اندلاع غضبه، وغضبي على السواء. لكّن شيئاً لم يحدث. وبقي الهدوء يسود جوّ غرفته في عتمة تلك اللّيلة. كنت أشعر بحلاوة اللّقاء تلفّني، وأكاد أتذوّق طعمها. لها عطرٌ خاصّ يختلف عن عطر أنفاسه. أما طعم الفراق المرّ فكان لا يزال على لساني.

تمدّدنا جنباً إلى جنب من دون احتكاك. وأوحى لي السكون بالسلام. لم ينذر ذلك الهدوء بعاصفة قادمة، بل بليلةٍ صافية لا تعتريها الغيوم.

لم أعبأ بغضبي منه، ولا من غيره. تلمّست لأجد يديه في الظلمة، واقتربت نحوه. فطوّقتني ذراعاه وضمّني إلى صدره. وراحت شفتاي تحوم فوق عنقه، ثمّ فوق ذقنه، حتى وصلَت أخيراً إلى شفتيه.

قبّلني إدوارد بنعومة، ثمّ ضحك ضحكةً خافتة: «كنت أتحضّر لمواجهة الغضب الذي يهلع عند مواجهته حتى الدبّ الرّمادي، وهذا ما وجدت. بتُّ أفكّر في إغاظتك أكثر في المرّة القادمة».

«سترى بعد دقائق»، قلت مداعبة، ورحت أقبّله من جديد.

«سأنتظر بقدر ما تشائين». همس فوق شفتيّ، وأصابعه معقودةٌ في شعري.

تلاحقت أنفاسي بصورةٍ غير منتظمة، وقلت: «في الصباح».

«مثلما تريدين».

«أهلاً بك، إنّي سعيدة بعودتك». قلت له، بينما شعرت بشفاهه الباردة تضغط فوق عنقي.

«أمرٌ مطمئن!».

«ممم. . .»، وافقت على قوله، وأحكمت ذراعيّ حول خصره. وضع يده حول ذراعي وأخفضها إلى صدري ثمّ إلى خصري. بعد

ذلك، تابعت حركتها حول ردفي ثم إلى ساقي، فإلى ركبتي. هدأ لحظةً، ثمّ رفع ساقي فجأةً فوق ردفه.

حبست أنفاسي. لم يكن ما يقوم به، من الأمور التي يتقبّلها. شعرت بتيّارٍ من الدفء يجتاحني برغم برودة يديه. ثمّ تحرّكت شفتاه، وتوقّفت عند أسفل عنقي.

«لا أريد استباق المشاكل، لكن أخبريني لماذا لم يعجبك السرير؟».

وقبل أن أجيب، وقبل أن أستوعب معاني كلماته، استدار وشدّني حتّى أصبحت فوقه. أمسك وجهي بين يديه، ورفعه إلى أعلى كي يصبح سهلاً لشفتيه ملامسة رقبتي. كان صوت تنفّسي عالياً إلى حدّ الإحراج. لكنّي لم أهتمّ، ولم أشعر بالخجل.

«السرير؟ أظنّ أنّه جميل».

«لم يكن ضروريّاً».

قرّب وجهي إلى وجهه، فالتقت شفتاي بشفتيه. وببطء أدار نفسه حتى أصبح فوقي، لكنّه لم يلقِ بوزنه عليّ، بل كنت أستمتع بجسده الناعم والبارد كالرّخام، يداعب جسدي. كان قلبي يدقّ بشدّة، فمنعتني ضجّة دقّاته من سماع ضحكات إدوارد الخفيفة.

«كيف كنّا سنتمكّن من القيام بهذا كلّه، فوق الكنبة؟».

ورسم حدود شفتيّ بلسانه البارد كالجليد. شعرت برأسي يدور جرّاء تنفّسي السريع وغير العميق.

سألته: «هل غيّرتَ رأيك؟» وظننت أنّه ربّما فكّر من جديد بكلّ التدابير الاحتياطية التي كان يتّبعها. وربّما أراد السرير لأمرٍ يتعدّى ما كنت قد اعتقدت. كادت دقّات قلبي تؤلمني وهي تتسارع في انتظار جوابه.

تنهّد واستدار من جديد، فأصبح كلانا مستلقياً على جنبه قبالة الآخر.

«لا تتركي لنفسك العنان يا بيلاّ، وفكّري بطريقة منطقية. كنت أظهر لك حسنات السرير فحسب».

تمتمت: «لقد تأخّرت، ثمّ... إنّي أحبّ السرير».

طبع قبلةً فوق جبيني، وقال: «حسناً، وأنا أحبّه أيضاً».

قلت: «لكنّي ما زلت أرى أنه غير ضروري. إن لم نترك لنفسينا العنان، فما الفائدة منه؟».

«أقول لك للمرّة الخمسين يا بيلاّ، إنّ هذا الأمر شديد الخطورة».

«أنا أحبّ المخاطر».

«أعرف ذلك». وشعرت بغصّةٍ في صوته، فتوقّعت أن يكون قد رأى درّاجتي في الكاراج.

وتابعت: «سأقول لك ما هو خطيرٌ حقّاً. سوف تنتهي قدرتي على الاحتمال، وتفقدني كليّاً، وتكون أنت المسؤول».

دفعني بعيداً عنه، لكنّي رفضت وتمسّكت به.

قلت: «لمَ تفعل هذا؟».

«لأحميكِ منّي».

فقلت بإصرار: «أستطيع الاحتمال».

وتركني أعود إلى ذراعيه. وقال: «أعتذر، لم أقصد الإساءة إلى مشاعرِك. لقد خيّبت أملك».

«كنت سعيدة جدّاً».

«ألست متعبة؟ يجب أن أدعك تنامين».

«كلاّ لست متعبة، ولا مانع عندي إن أعدتَ الكرّة».

«لا أظنّ أنّها فكرة جيّدة. لست وحدك التي تتعرضين إلى إطلاق العنان لشهوتك».

«بلى، أنا وحدي».

«إعلمي يا بيلاّ أنّك تخاطرين عندما تدفعينني إلى فقدان السيطرة على نفسي».

قلت: «لن أعتذر من أجل هذا الأمر».

«وهل تقبلين اعتذاري؟».

قلت: «عمّ تعتذر؟».

«تذكّري أنّك كنت غاضبة منّي».

«آه، بسبب ذلك الموضوع».

«أعتذر، لقد أخطأت؛ لكنّي أكون أشدّ اطمئناناً عليك في البيت هنا». وأضاف وهو يشدّ ذراعيه حولي: «تصوّري أنّي أصبح كالمجنون عندما أبتعد عنك. لن أذهب مرّةً أخرى إلى مكان بعيد. والنتيجة لا تساوي كل هذا الجهد».

ابتسمت، وقلت: «ألم تتصيّد أسوداً جبليّة؟».

«نعم، ولكن لا أجد أنّ الأمر يستحقّ كلّ هذا العذاب. أعتذر لأنّي طلبت من آليس احتجازك هنا. أعتقد أنّ الفكرة لم تكن صائبة».

قلت: «هذا صحيح».

«لن أفعل ذلك مرّة ثانية».

قلت: «حسناً».. وشعرت حقّاً أنّي سامحته. لكنّي أضفت: «لكنّنا حصدنا بعض النتائج الممتعة...!». ثمّ التصقت به، وطبعت قبلة طويلة تحت رقبته. «يمكنك احتجازي ساعة تشاء».

تنهّد، وقال: «ممم...! يمكنني أن أعتبر كلامك هذا جدّياً؟».

قلت: «هل حان دوري الآن؟».

«دورك؟» وبدا بعض الارتباك في صوته.

«لأعتذر».

«عمَّ تعتذرين؟».

«ألستَ غاضباً منّي؟».

قال: «كلاّ».

«ألم تلتقي بآليس عند عودتك؟».

«بلى، ولمَ تسألين؟».

«هل ستسترجع سيّارة البورش منها؟».

«كلاّ، قطعاً! فالسيّارة كانت هديّة».

أوحى لي صوته أن سؤالي قد أهان كرامته إلى حدٍّ معيّن، فتمنّيت لو استطعت رؤية تعابير وجهه لأتأكّد من ذلك.

وسألته، مرتبكةً بشأن اللامبالاة التي تعمّد إظهارها: «ألا تريد معرفة ما قمت به في غيابك؟».

فاستدرك قائلاً: «تهمنّي الأمور التي تقومين بها. ولكنّي لا أودّ الاستماع إلاّ إلى ما تختارين أنتِ قوله».

«لقد ذهبت إلى لا بّوش».

«أعلم».

«وتغيّبت عن المدرسة بعد الظهر».

«كما تغيّبت أنا طيلة النهار».

نظرت إلى أعلى في اتجاه مصدر صوته، وتلمّست خطوط عنقه ووجهه، محاولةً فهم مزاجه في تلك الساعة. وسألته: «كيف توصّلت إلى هذه الدّرجة من التسامح؟».

تنهّد وقال: «توصّلت إلى الاقتناع بأنّك على حقّ. لأنّ أسباب قلقي كانت أحكامي المسبقة على الرّجال الذئاب. سأحاول أن أكون منطقيّاً، وأثق برأيك. إن قلتِ إنهم لا يشكّلون خطراً، فسأصدّق قولك».

قلت: «واو!».

وتابع: «الأهمّ من كلّ شيء، هو ألاّ تبعدنا هذه الأمور عن بعضنا».

ألقيت برأسي على صدره، وشعرت بالاطمئنان الكامل.

«وهل تنوين العودة إلى لا بّوش قريباً؟».

لم أجب، لأنّ سؤاله ذكّرني بما قاله لي جايكوب، فشعرت بانسدادٍ في حلقي. لكنّه أخطأ تفسير صمتي وتشنّج جسدي، وتابع: «لأنّي إن اطّلعت على مشاريعك، أخطّط لذهابي في التوقيت الملائم».

قلت بصوتٍ استغربت وقعه على مسامعي: «كلاّ، إنّي لا أفكّر بالعودة».

«ولكن، أرجو ألاّ تأخذي هذا القرار من أجلي».

وأكملت بما يشبه الهمس: «لم أعد مقبولة هناك».

«هل اصطدمت بسيّارة أحدٍ هناك؟» طرح هذا السؤال بما يشبه المزاح كي لا يجبرَني على الكلام، لكنّي شعرت برغبته الجامحة لمعرفة ما جرى.

«كلاّ». وتنشّقت نفساً عميقاً، وتكلّمت بسرعة لأصل إلى السبب الرئيسي... «ظننت أنّ جايكوب كان يعلم عن القرار المصيري الذي اتخذته... لكنّه تفاجأ جدّاً».

انتظر إدوارد، ريثما أتابع كلامي: «لم يكن يتوقّع أنّ الأمر... سيتمّ بهذه السرعة. وقال إنّ من الأفضل لي أن أموت...»، وانقطع صوتي قبل نهاية الجملة.

لم يأتِ إدوارد بأيّ حركة، وكأنّه كان يحاول إخفاء ردّ فعله.

ثمّ، شدّني بلطف إلى صدره، وقال: «أنا آسف».

قلت: «كنت أفكّر أنّ هذا الخبر سيسعدك».

«أتتوقّعين أن أشعر بالسعادة لأمرٍ أحزنك؟».

تنهّدت، وشعرت بحاجة للاسترخاء في حضن هيكله الرّخامي، لكنّه كان متشنّجاً، لا يقوم بأيّ حركة.

«ما المشكلة؟ يمكنك أن تصارحني بما يشغل تفكيرك».

قال: «لا شيء. . . قد تستائين لمعرفة ما أفكّر به».

«لكنّي أصرّ على معرفة ذلك».

قال: «أشعر بأنّي مستعدٌّ لقتله لأنّه قال لك هذا الكلام. أريد قتله».

تظاهرت بالضّحك، وقلت: «يسعدني أنّه يمكنك السيطرة على نفسك».

«قد أتخلّى عن ذلك في لحظة من اللّحظات».

فقلت: «إن كنت ستفقد السيطرة، دعني أقترح عليك مجالاً آخر تطلق فيه العنان لنفسك». اقتربت لأقبله، لكنّه لم يشجعني على التمادي. وقال: «لماذا مسألة السيطرة على النفس هي مسؤوليتي أنا فحسب؟».

ضحكتُ بصمت، وقلت: «دعني أتولّى شأنها لمدّة دقائق. . .أو ساعات».

«تصبحين على خير يا بيلاّ».

«إنتظر، هناك أمرٌ آخر أريد أن أتحدّث معك حوله».

«ما هو؟».

«حدّثتني روزالي اللّيلة الماضية. . .».

شعرتُ بتقلّص عضلات جسده من جديد. «نعم، لقد كانت تفكّر بهذا الأمر عندما وصلنا إلى البيت. لقد طرحت أمامك أفكار عديدة، أليس كذلك؟».

كان متوتّراً. لقد ظنّ أنّي سأناقش معه اقتراح روزالي بأن أبقى

إنساناً. لكنّي كنت في عجلة للتكلّم عن موضوعٍ آخر.

«كلّمتني قليلاً... عن تلك الفترة من الزمن عندما كنتم تسكنون في دينالي».

بقي صامتاً خلال لحظات، وكأنّه فوجئ بالموضوع، فقال: «نعم؟».

«أخبرتني عن مجموعة فتيات من مصّاصي الدّماء... وعنك».

لم يجب، وطال صمته. فقلت: «لا تأبه، فقد قالت لي إنّك لم تُبدِ إعجابك بأيّ منهنّ. لكنّي أودّ أن أعرف، إن كانت أيّ منهنّ قد أبدت إعجابها بك».

لكنّه بقي صامتاً.

تابعت: «ما اسمها؟ أم أنّهنّ أكثر من واحدة؟».

لم يُجب. كم تمنيت لو استطعت أن أرى وجهه، لكنت اكتشفت معنى صمته.

قلت: «سأذهب وأسأل آليس الآن، فهي ستخبرني».

اشتدّت ذراعيه حولي، ولم أستطع أن أتحرّك من مكاني. وقال: «الوقت متأخّر، وآليس خرجت».

شعرت بصوته، وكأنّه يدلّ على بعض الإحراج أو الخوف.

رحت أتكهّن: «هناك أمرٌ غير مطمئن، غير مطمئن البتّة، أليس كذلك؟». شعرت بالخوف الشديد من امرأة أخرى تنافسني على قلب حبيبي، امرأة فائقة الجمال، وخالدة لا تموت.

«اهدئي يا بيلاّ»، قال وهو يقبّل أنفي، «إنّك تتصرّفين بعيداً عن المنطق».

«إذاً، لمَ لا تخبرني؟».

«لأنّ ليس هناك ما أخبرك به. إنّك تضخّمين الموضوع أكثر ممّا يستحق».

«ما اسمها؟»، تابعت بإصرار.

فتنهّد ثمّ قال: «أظهرت تانيا بعض الإعجاب بي، لكنّي، وبطريقة لطيفة وراقية، أفهمتها أنّ الإعجاب ليس متبادلاً. وانتهت القصّة».

حافظت على الهدوء في صوتي، بقدر ما استطعت، وقلت له: «أخبرني شيئاً عنها، عن مظهرها الخارجي».

فأجاب باختصار شديد: «تشبهنا جميعاً؛ بشرتها بيضاء، عيونها صفراء ذهبيّة».

«وبالطّبع، فائقة الجمال».

«قد تكون كذلك بالنسبة للآدميين. لكنّك تعلمين...».

أجبت بشيءٍ من الفظاظة: «أعلم ماذا؟».

جعل شفتيه فوق أذني، فأحسست بأنفاسه الباردة تدغدغني، وقال: «أنا أفضّل السمراوات».

«هذا يدلّ على أنّها شقراء».

«شقراء ووجهها أحمر كالفراولة، وهذا ليس نوع الجمال الذي يستهويني».

فكّرت في الأمر خلال لحظات، وكنت أحاول التركيز على ما قاله، لكنّ شفتيه كانتا تداعبان خدّي نزولاً إلى عنقي، وتعودان فتصعدان ببطء إلى خدّي، ثمّ نزولاً من جديد إلى عنقي. كان قد أتمّ ثلاث دورات كهذه عندما تكلّمت:

«حسناً، لا يبدو أنّ هناك مشكلة».

«إممّ...!»، وهمس: «كم أنّ الشعور بالغيرة يضفي عليك حيويّة جذّابة!».

وتمتمَ بصوتٍ ناعم كالحرير: «تأخّر الوقت كثيراً الآن. نامي يا حبيبتي بيلاّ، واحلمي أجمل الأحلام فإنّك الوحيدة التي لامست قلبي، وقلبي سيكون دائماً لك. نامي يا حبّي الوحيد».

وأخذ يردّد أغنية رقيقة، فاستسلمت للنّوم بعد أن أغمضتّ عينيّ، والتصقت بصدره.

9

الهدف

في الصباح، أوصلتني آليس إلى البيت. وكان ذلك ضروريّاً لاستكمال فصول التمثيلية أمام تشارلي. وبعد قليل سيصل إدوارد، مدّعياً أنّه عاد للتوّ من رحلته الرياضية. أتعبتني هذه التمثيلية، وكلّ هذه الادعاءات الكاذبة، لا بدّ أنّي لن أشتاق إلى هذا الجزء من حياتي الإنسانية في ما بعد.

نظر تشارلي من الشباك عندما سمع صوت إغلاق باب السيارة، فأومأ بيده إلى آليس، وأسرع إلى فتح الباب.

«هل قضيتِ وقتاً ممتعاً؟».

«ممتعاً حقّاً. . . ، جوّ أنثوي محض».

حملت أغراضي إلى الداخل وتركتها عند أسفل الدرج. وعدت إلى المطبخ لأجد بعض الطعام.

تبعني تشارلي وقال: «هناك رسالة في انتظارك».

وعلى الطاولة، وضع دفتر الملاحظات الهاتفية مفتوحاً. وبسرعة قرأت:

اتصل جايكوب وقال إنّه لم يكن يعني ما قاله، وهو يعتذر ويطلب منك الاتصال به. رجاءً أن تكوني لطيفة معه وتعطيه فرصة أخرى. لقد شعرت من خلال صوته أنّه حزين.

ليس من عادة تشارلي الاهتمام بكتابة رسائلي الهاتفية بهذا التفصيل والوضوح!

لن أجيبه على اتصاله. إن كان يفضّل أن يراني ميتة... فمن الأفضل أن يتعوّد على صمتي من الآن. لا يهمّني حزنه البتّة.

فجأةً، لم أعد أشعر بالجوع. فتركت المطبخ للتوّ، وتوجّهت نحو أغراضي لألتقطها وأصعد إلى غرفتي.

وقف تشارلي، مسنداً ظهره إلى حائط غرفة الجلوس، ينظر إليّ، وسألني: «هل اتصلتِ بجايكوب؟».

أجبت: «كلاّ».

«هذا ليس تصرّفاً لطيفاً يا بيلاّ، فالتسامح فضيلة».

«لا تتدخّل بشؤوني!»، قلت في نفسي.

كان عليّ أن أقوم بغسل الثياب والبياضات. أخرجت ثيابي المستعملة من الحقيبة ووضعتها في سلّة الغسيل، وقصدت غرفة تشارلي ونزعت الأغطية عن سريره. تركتها مكوّمة خارج الغرفة، ودخلت إلى غرفتي لأجلب ثيابي المتبقية والأغطية.

وما إن دخلت، وقفت أمام سريري، أدور بنظري في جميع الاتجاهات.

أين هي مخدّتي؟ فتّشت في كلّ زوايا الغرفة، ولم أجدها. لاحظت أنّ غرفتي كانت في غاية الترتيب... ألم يكن قميصي الرّمادي معلقّاً على قائمة السرير!؟ وجواربي المستعملة... إنّي متأكّدة أنّها كانت على الأرض وراء الكرسي الهزّاز. وعلى الكرسيّ ذاته، أذكر تماماً أنّي تركت القميص الأحمر الجديد؛ كنت على وشك ارتدائه إلى المدرسة قبلَ أمس، لكنّي عدت وتخلّيت عن الفكرة. نظرت إلى سلّة الغسيل التي كانت ملأى، فوجدتها فارغة تقريباً.

هل غسل تشارلي الثياب يا تُرى؟ لكنّه لا يفعل ذلك في العادة!

«هل غسلت بعض الثياب في غيابي، يا أبي؟». ناديته متسائلة.

«كلاّ، وهل توقّعتِ منّي القيام بذلك. . .؟».

«لا. . . ولكن هل دخلت إلى غرفتي في غيابي؟».

«كلاّ. لماذا؟».

«هناك قميص. . . لا أجده».

عندئذٍ تذكّرت أنّ آليس دخلت إلى غرفتي لتأخذ بيجامتي. هل عادت وأخذت المخدّة عندما عرفت أنّي لن أستعمل السرير في غرفة إدوارد، ورتّبت الغرفة في طريقها. . .؟ لكنّ ذلك القميص الأحمر الجديد لم يكن متّسخاً. ذهبت كي أحضره من سلّة الغسيل، فلم أجده. إضافةً إلى أنّ نصف الثياب التي كانت في السلّة، لم تعد موجودة الآن!

نزعتُ أغطية سريري، وخرجت، وحملت أغطية تشارلي في طريقي. ونزلت إلى غرفة الغسيل. تصوّرت أن تكون آليس، بوحيٍ من ميلها المعتاد إلى المساعدة، قد اهتمّت بالموضوع، وغسلت ما وجدت من الثياب المتّسخة. فتحت الغسّالة، فوجدتها فارغة، ونظرت إلى النشافة فكانت فارغة أيضاً.

صرخ تشارلي: «هل وجدتِ ما كنتِ تبحثين عنه؟».

قلت: «كلاّ، ليس حتى الآن».

عدت إلى غرفتي لأفتّش تحت السرير. لم أجد سوى كتلِ الغبار الملتفّة حول بعضها. فتحت خزانة الثياب ورحت أنبش كلّ ما فيها، لعلّني أعدتُ القميص الأحمر إلى داخلها، ونسيت ما قمت به.

ودقّ جرس المنزل، فعرفت أنّه إدوارد.

الباب! صاح تشارلي من مقعده.

قلت: «سأفتح، لا تزعج نفسك يا أبي».

وفي لحظات، وصلت إلى الباب، وفتحته.

كانت عيناه متّسعتين، وأنفه يرتعش، وشفتاه مشدودتين بطريقة غير عاديّة.

قلت: «إدوارد. . .، ما الأمر!؟».

وضع إصبعه فوق شفتيّ، وهمس: «لا تتحرّكي، أصبري دقيقة». وقفت كالصّنم أمام عتبة الباب، بينما توجّه هو إلى الداخل. مرّ بسرعة أمام غرفة الجلوس وصعد إلى غرفتي. لم يلاحظ تشارلي مروره، وقبل أن أستعيد أنفاسي، كان قد عاد إليّ، ولفّ ذراعه حول خصري، وشدّني نحو المطبخ. أدار عينيه في محيط المكان، وأبقى على التصاقه بي، كأنّه يريد حمايتي من هجومٍ ما. نظرت في اتجاه غرفة الجلوس، فبدا لي أنّ تشارلي لم يتحرّك ولم يعرنا ايّ اهتمام.

«لقد جاء أحدُهم إلى هنا». همس في أذني.

قلت: «أقسمَ أن لا أحد من الرّجال الذئاب جاء إلى هنا».

وقاطعني بسرعة: «لا أقصد أحداً منهم، بل منّا».

فهمت من طريقة كلامه أنّه لا يعني أحداً من أفراد عائلته.

شعرتُ بالدّم يهرب من وجهي. وقلت بصوتٍ مخنوق: «فيكتوريا؟».

«ولكنّها. . . ليست رائحةً أعرفها».

«ربّما أحد عائلة فولتوري»، قلت.

«هذا محتمل».

سألته: «متى جاء؟».

«أتى باكراً هذا الصّباح، بينما كان تشارلي لا يزال نائماً. لم يتعرّض له، وهذا يعني أنّ لديه غاية أخرى».

«هل كان يفتّش عنّي؟».

لم يُجب، كان يقف جامداً كالتمثال.

«ماذا تتهامسان هنا؟»، قال تشارلي بصوتٍ تساوره الشكوك، بعد أن دخل إلى المطبخ حاملاً بيده وعاء البوشار الفارغ.

كان الذّعر قد استولى عليّ. لقد دخل مصّاص دماء إلى بيتنا بقصد اصطيادي وكان أبي نائماً في غرفته. شعرت بارتخاءٍ في لساني، ولم أستطع الإجابة بأيّ حرف. فألقيت على تشارلي نظرةً شاحبة.

في اللّحظة عينها، تغيّرت ملامح أبي، وبدا راضياً. «إن كنتما تتشاجران... حسناً، من الأفضل ألاّ أقاطعكما». وخرج من المطبخ مبتسماً، بعد أن ألقى بالوعاء الفارغ في حوض الصحون.

«لنذهب!». قال إدوارد بصوتٍ منخفض وأجشّ.

«ولكن، كيف نترك تشارلي؟». وكان الخوف يعصر قلبي حتى صعب عليّ التقاط أنفاسي.

فكّر خلال لحظة، ثمّ رفع الهاتف إلى أذنه. وهمس بعد أن طلب الرّقم: «إيميت»، وأكمل بسرعة منعتني من فهم ما قاله. انتهت المخابرة بعد نصف دقيقة. وعاد ليدفعني باتجاه الباب الخارجي. وقال: «إيميت وجاسبر سيأتيان حالاً. سوف يمشّطون الغابات في طريقهم. لا تقلقي. تشارلي سيبقى بخير».

تركته يشدّني صوب الباب. نظر تشارلي إلى عينيّ المذعورتين، فانقلبت ابتسامته إلى ارتباك، وقبل أن يتسنّى له قول أيّ كلمة، كنت خارج البيت.

«إلى أين نحن ذاهبان؟»، قلت، وكنّا قد انطلقنا في السيارة. أجاب: «سنذهب لنتحدّث إلى آليس».

«أتظنّ أنّها شاهدت ما جرى؟».

«ربّما...!».

دخلنا إلى البيت الذي بدا وكأنّه متحف أصنامٍ من الشمع. كانوا يقفون مشدوهين وبأوضاعٍ مختلفة.

«ماذا حدث؟». انفجر إدوارد فور دخولنا، مصوّباً نظره إلى آليس.

وقفت آليس مكتوفة الذراعين قبالته، وقالت: «لا أدري، لم أرَ أيّ شيء».

«كيف يمكن لذلك أن يحدث؟».

«إدوارد!» قلتها بلهجة عاتبة، محاولةً صرفه عن التوجّه إلى آليس بهذه الطريقة الجّافة.

تدخّل كارلايل قائلاً: «قدرات آليس قد تخطئ، فهي لا تتبع علماً دقيقاً».

«دخل إلى غرفتها، كان يمكنه أن يبقى، وينتظر عودتها».

قالت آليس: «لو فعل، كنت رأيته».

«حقّاً، هل أنتِ متأكّدة. . .؟».

عندئذٍ أجابت آليس ببرود: «إدوارد، لقد أوكلتَ إليّ معرفة القرارات التي تتّخذها عائلة فولتوري، ومراقبة عودة فيكتوريا، والانتباه إلى كلّ خطوة تقوم بها بيلاّ. هل تريدني أن أضيف إلى كلّ ذلك، مراقبة تشارلي، وغرفة بيلاّ، والبيت والشارع. . .؟ إن حاولت مراقبة عدد كبير من الأمور، فسأتعرّض لاحتمالات الخطأ أكثر».

ردّ إدوارد ساخطاً: «يبدو أنّ الأخطاء تقع في كلّ الأحوال».

«لم تتعرّض بيلاّ لأيّ خطر. لم يكن هناك شيء كي أراه».

«إن كنتِ تراقبين عائلة فولتوري في إيطاليا، كيف لم تلاحظي أنّهم أرسلوا. . .».

«لا أظنّ أنّهم الذين. . .، لو كانوا هم. . . لرأيتهم».

«من كان سيترك تشارلي حيّاً غيرهم؟».

ارتعدتّ خوفاً عندما وقعت تلك العبارة على مسمعي.

«لا أعلم». قالت آليس.

«شكراً على المساعدة!».

همست: «توقّف يا إدوارد عن الفظاظة».

نظر إليّ وكان لا يزال متشنّجاً، وبعد لحظات معدودة، ارتاحت ملامحه، وقال: «أنت على حقّ يا بيلاً، إنّي آسف». ثمّ حوّل نظره إلى آليس: «سامحيني يا آليس. لم أكن محقّاً بإلقاء اللّوم عليك».

ثمّ أخذ إدوارد نفساً عميقاً وقال: «حسناً، لنحلّل ما حصل بطريقة منطقية. ما هي الاحتمالات الممكنة؟».

استرخى الجميع للتوّ. فارتاحت آليس على المقعد، ومشى كارلايل نحوها مفكّراً. أمّا إيزمي فرفعت ساقيها وطوتهما فوق الكنبة بطريقة مريحة. لم يبقَ سوى روزالي التي فضلت البقاء في مكانها، تنظر إلى الخارج من خلال الحائط الزجاجي. أمسك إدوارد بيدي وأجلسني إلى جانب إيزمي التي غيّرت جلستها، ولفّت ذراعها حولي. وبقي إدوارد يضغط بيديه الاثنتين على يدي.

«فيكتوريا؟»، سأل كارلايل.

هزّ إدوارد برأسه قائلاً: «كلاّ، لم أتعرّف إلى الرّائحة. قد يكون أحد عائلة فولتوري من الذين لم ألتقِ بهم أبداً».

وهزّت آليس برأسها أيضاً: «لم يطلب آرو من أحدٍ حتّى الآن التفتيش عن بيلاّ. لو فعل، كنت سأرى ذلك بالتأكيد، لأنّي أترقّبه».

التفت إدوارد وقال متعجّباً: «هل تركّزين اهتمامك على القرارات الرّسمية فحسب؟».

«لَم تظنّ أنّ أحداً منهم سيتصرّف منفرداً، من دون الرّجوع إلى آرو؟».

«يمكن أن تكون فكرة كايوس». قال إدوارد وعاد وجهه إلى التشنّج.

«أو فكرة جاين. . .»، اقترحت آليس. «كلاهما يتمكّنان من إرسال أفراد لا نعرفهم».

قطّب إدوارد حاجبيه وقال: «وما الذي يدفعهم إلى هذا العمل؟».

دخلت هنا إيزمي إلى الحوار قائلةً: «لو كان القصد إلحاق الأذى ببيلاّ أو تشارلي، لعرفت آليس بالأمر».

ارتجفت خوفاً لدى سماع اسم والدي. فتمتمت إيزمي كلاماً لطيفاً لتهدئ من روعي: «ستنتهي الأمور إلى ما فيه الخير يا بيلاّ، لا تخافي».

«ما هو الدّافع إذاً؟»، قال كارلايل.

فاقترحت: «قد يكون هدفهم معرفة إن كنت لا أزال إنساناً».

«هذا معقول». وافق كارلايل.

أصدرت روزالي تنهيدة عالية سمعتها، وفهمت القصد منها. وتحرّكت أخيراً من جمودها، ونظرت نحو المطبخ. لكنّ إدوارد في المقابل، ما زال غير مقتنع بما وصل إليه الحوار.

وفجأةً، دخل من باب المطبخ إيميت ووراءه جاسبر. وبخيبة أمل، أعلن إيميت: «مضى على رحيله بضع ساعات، لقد تقفّينا أثره في خطٍّ متّجه شرقاً، ثمّ جنوباً. لقد اختفى أثره في طريقٍ فرعية، والأرجح أنّه استقلّ سيارة كانت بانتظاره هناك».

«مؤسف!». قال إدوارد. «لو ذهب غرباً، لاستطاع هؤلاء الكلاب المساعدة في عملٍ مفيد على الأقلّ».

نظر جاسبر إلى كارلايل وقال: «لا أحد منّا تعرّف إلى هذه الرّائحة». وكان يحمل في يده شيئاً أخضر، أعطاه إلى كارلايل فقرّبه هذا الأخير إلى أنفه. وكان هذا الشيء كما استنتجت من خلال رؤيته، وهو يمرّ من يدٍ إلى أخرى، ورقةً مكسورة من نبات الخنشار.

فقال كارلايل: «كلّا، ليست رائحة مألوفة. لا أعرف صاحبها».

واقترحت إيزمي: «ربّما نحن ننظر إلى الموضوع من زاوية غير

صحيحة، وقد لا يكون سوى حدثٍ جرى بالصدفة». نظر الجميع إليها باستغراب، لكنّها تابعت: «أنا لا أقصد زائراً دخل إلى بيت بيلاّ بمحض الصدفة، لكن قد تكون رائحتنا التي تعبق حول بيلاّ بسبب معاشرتها لنا، قد جذبت أحد الفضوليّين إلى بيتها، من أجل معرفة طبيعة علاقتنا بهذا البيت».

«في هذه الحالة، لمَ لا يأتي هذا الفضوليّ إلى هنا مباشرةً؟». سأل إيميت.

«لو كنت أنتَ مكانه لفعلت ذلك».، قالت إيزمي بابتسامة محبّبة. «ولكن لا يتعاطى الجميع مع الأمور بهذه الطريقة المباشرة. عائلتنا كبيرة، وقد يخاف القادم من دخول بيتنا. لم يتعرّض تشارلي للأذى، وهذا يعني بحسب تقديري أنّ الزائر ليس عدوّاً بالضرورة».

مسألة فضوليّة! ألم يكن جايمس وفيكتوريا فضوليّين أيضاً في البداية؟ مجرّد التفكير بفيكتوريا يرعبني. لكنّهم متأكّدون أنّ لا علاقة لها هذه المرّة، فهي تتّبع نمطاً خاصّاً ومعروفاً في هجومها. إنّه زائرٌ غريب!

أخذت أفكّر أنّ مصاصي الدماء يحتلّون في الواقع حيّزاً أكبر ممّا كنت أتصوّر في هذا العالم. كم من الناس العاديّين يلتقون بهم من دون التعرّف إلى حقيقتهم؟ كم من جرائم وأحداث غامضة تحصل بسبب عطشهم إلى الدّماء؟ وها أنّي سأسهم في ازدياد عددهم، عندما يحين الموعد وانضمّ إليهم.

أرسل التفكير بمستقبلي الغامض قشعريرة رعبٍ في جسدي.

نظر أفراد العائلة إلى اقتراح إيزمي، وكانت لهم ردود فعلٍ مختلفة. حاول كارلايل إقناع نفسه بنظريّتها، أمّا إدوارد فبدا غير مقتنعٍ البتّة.

أمّا آليس فقالت: «لا أعتقد ذلك. فالتوقيت كان دقيقاً... لقد تعمّد الزائر ألاّ يلتقي بإحدٍ، كأنّه يعلم حقيقة أنّه لو التقى بأحدٍ فسأراه أنا في الحال».

«قد يكون لديه أسباب أخرى لتفادي لقاء أحد». ذكّرتها إيزمي.

«هل مهمّ حقّاً أن نعرف من هو، ألا يكفي أنّه جاء مفتّشاً عنّي؟ يجب أن يكون موعد تحوّلي قبل التخرّج».

«كلاّ يا بيلاّ، ليس الأمر سيّئاً إلى هذه الدّرجة. عندما تصبحين حقّا في خطر، سنعلم بالتأكيد، فكّري بتشارلي، فكّري كم سيتألّم إن اختفيتِ فجأةً». قال لي كارلايل.

«أنا أفكّر بسلامة تشارلي أوّلاً. تصوّروا لو كان ضيفي العتيد ظمآن هذا الصباح...؟ وجودي في البيت يجعل تشارلي هدفاً للاعتداء أيضاً. وسأكون أنا المسؤولة لو أصابه مكروه».

«هذا لن يحصل». قالت إيزمي مداعبةً شعري. «لكن يجب علينا أن نأخذ حذرنا أكثر».

«الحذر أكثر؟!». أعدت قولها غير مصدّقة.

«سيكون كلّ شيء على ما يرام». قالت لي آليس مطمئِنة؛ وضغط إدوارد على يدي.

أدرتُ نظري بين وجوهم الجميلة، فلم أجد في ملامح أحدٍ منهم ما يشير إلى أنّ شيئاً ممّا أقوله قد يغيّر رأي أحدهم.

* * *

كان إدوارد يقود السيارة بهدوء في طريق العودة. كنت لا أزال أشعر بالاستياء، فمهما حاولت السيطرة على نفسي، فإنّي لا أزال إنسانة.

«لن تكوني وحدك أبداً. سيكون معك أحدٌ منّا دائماً... إيميت، آليس، جاسبر...».

تنهّدت وقلت: «قد يشعرون بالملل، وقد يتحمّسون لقتلي بأنفسهم... كي يكون لديهم عمل يقومون به».

«ما هذه النكتة المذهلة يا بيلاّ؟».

بدا تشارلي مسروراً عندما وصلنا. فقد شعر بالتوتّر الموجود بيني وبين إدوارد ولم يُحسن تفسيره. وعندما شرعت في تحضير طعام العشاء، جلس قبالتي يراقبني واثقاً ومبتسماً. وكان إدوارد قد تركنا ليقوم ببعض الحراسة كما توقّعت، لكنّ تشارلي انتظر عودته، كي يخبرني عن الرسائل التي تركها لي جايكوب.

قال تشارلي في لحظة دخول إدوارد: «لقد اتصل جايكوب مجدّداً».

قلت بسخرية: «هل قام بذلك فعلاً؟».

عبس تشارلي، وقال: «لا يليق بك معاملة الغير باحتقار يا بيلاّ. أشعر بأنّ الشاب يائس جدّاً».

«هل يدفع لك جايكوب من أجل الوساطة، أم أنّ عملك تطوّعي؟».

تمتم تشارلي كلمات مشوّشة وقلقة، عبّرت عن عدم رضاه، لكنّ الطعام ساهم في تهدئة شكواه.

لقد أصاب تشارلي الهدف من دون أن يعلم.

كانت حياتي في هذا الوقت أشبه بلعبة السلّم والحيّة. هل سيصيب الزّهر مربّع الحيّة هذه المرّة؟ ماذا لو أصابني مكروه؟ كم سيشعر جايكوب بالذنب بسبب الكلام الذي قاله لي...

لكنّي لا أريد الاتصال به في حضور تشارلي، لأنّي سأضطرّ إلى مراقبة كلّ كلمة أتفوّه بها. فكّرت في تلك اللّحظة بالعلاقة الصريحة بين جايكوب وبيلي. وتأمّلت سهولة الحياة عندما لا يوجد أسرار بين أفراد العائلة الذين يعيشون في منزلٍ واحد.

لذا لن أكلّمه قبل صباح الغد. لا أظنّ أنّي سأموت هذه اللّيلة،

وعلى كلّ حال، لن يؤذيه الشعور بالذنب خلال اثنتي عشرة ساعة إضافيّة. فالأمثولة ستكون أكثر فائدة.

عندما غادر إدوارد في ذلك المساء، علمت أنّ أحد أفراد عائلة كولن الآخرين كان يحرس محيط المنزل. ثمّ ما لبث إدوارد أن عاد، فساعدني وجوده إلى جانبي على الشعور بالأمان، ونمت في تلك اللّيلة من دون كوابيس.

في الصباح، بعد أن خرج تشارلي إلى صيد السمك باكراً برفقة صديقه مارك، تناولت طعام الفطور، وأخبرت إدوارد بعزمي على الاتصال بجايكوب والتخفيف عنه.

«كنت أعلم أنّك ستسامحينه». قال مبتسماً، «أنت لا تحقدين».

أدرتُ عينيّ بتبرّم، لكنّي سررت لكون إدوارد قد تخطّى فعلاً عقدة العداء ضدّ الرّجال الذئاب.

طلبت رقم الهاتف وكان الوقت ما زال مبكراً. لكنّ جايكوب ما لبث أن رفع السمّاعة.

«أهلاً!». قال بصوتٍ خافت.

«جايكوب!».

«بيلّا! أوه بيلّا! إنّي أعتذر بشدّة». وتلعثمت كلماته، وتضاربت في سرعة تتابعها، وكأنّه خاف من أن تفوته فرصة التعبير عن أسفه. «أقسم لكِ أنّي لم أقصد ما تفوّهت به. كنت غاضباً، لكنّ الغضب ليس عذراً. إنّها أتفه كلمات تفوّهت بها في حياتي، فأنا أعتذر. أرجوك أن تقبلي اعتذاري! أرجوك، أرجوك!».

«أنا لست غاضبة. لقد سامحتك».

«شكراً!» وتنفّس بحيويّة، «لا أصدّق أنّي تصرّفت بهذه الحماقة».

«لا تهتمّ بهذا الموضوع. . .لقد تعوّدت».

ضحك فرحاً، وقال: «تعالي لزيارتي، أريد التعويض لك عن الإساءة».

قلت: «كيف؟».

«أيّ شيء تحبّين القيام به. القفز عن الصخور مثلاً». وتابع الضحك.

«عندي فكرة خارقة!».

«سأحافظ على سلامتك في كلّ ما تنوين القيام به».

ألقيت نظرة في اتجاه إدوارد، فوجدته هادئاً. لكنّي كنت متأكّدة من أنّ الوقت لم يكن مناسباً.

قلت لجايكوب: «ليس الآن».

«إنّه لا يطيقني، أليس كذلك؟» لكنّ نبرته كانت تميل إلى الخجل، وليس إلى السّخط كما في العادة.

«هذا ليس جوهر المشكلة الآن. المشكلة الآن هي أخطر من قضيّة رجلٍ ذئب في سنّ المراهقة...». حاولت أن أحافظ على لهجة المزاح، لكنّي لم أستطع إخفاء الأمر كليّاً.

سأل بإلحاح: «ما هي المشكلة؟».

ما الذي ما يمكنني قوله حول الموضوع؟!.

مدّ إدوارد يده يريد أخذ السماعة منّي؛ وتمعّنت في وجهه، فوجدته هادئاً إلى حدٍّ معقول.

«بيلاّ؟». قال جايكوب.

أصدر إدوارد زفرة طويلة، وكانت يده لا تزال ممدودة.

قلت برويّة: «إدوارد يودّ التحدّث إليك، هل توافق؟».

توقّف جايكوب عن الكلام، ثمّ قال: «حسناً...».

أعطيت السماعة إلى إدوارد، وبنظراتي، حاولت تحذيره من الوقوع في الخطأ.

«أهلاً جايكوب». قال إدوارد بتهذيبٍ تامّ.

مرّت برهة صمت. كنت أعضّ على شفتي، وأفكّر كيف يمكن أن يكون جواب جايكوب.

«أتى أحدهم إلى هنا، ولم أتعرّف إلى رائحته. هل لاحظت مجموعتكم أيّ حدث جديد؟».

لم يجب جايكوب على الفور. فهزّ إدوارد برأسه، ثمّ تابع.

«المهمّ يا جايكوب هو أنّني، لن أسمح بأن تكون بيلاّ بعيدة عنّي إلى أن تنجلي الأمور. وأرجو ألاّ تأخذ قراري هذا على محملٍ شخصي».

هنا، قاطعه جايكوب وسمعت صوته يتكلّم بحدّة، لكنّي لم أنجح في فهم أقواله.

«قد تكون على حقّ...»، قال إدوارد. لكنّ جايكوب لم يتوقّف عن النقاش.

ثمّ بادر إدوارد: «هذا اقتراحٌ لافت. نحن مستعدّون لإعادة النظر ببنود الاتفاقية، وماذ عن رأي سام بالموضوع؟».

كان صوت جايكوب قد انخفض، فرحت أحاول قراءة تعابير وجه إدوارد لمعرفة ما يجري.

«شكراً». أجاب إدوارد.

وإذا بجايكوب يقول شيئاً يرسم ملامح المفاجأة على وجه إدوارد.

«قرّرت أن أذهب بمفردي»، قال إدوارد، مجيباً على السؤال المفاجئ، «وسأترك بيلاّ مع الآخرين».

علا صوت جايكوب، ولاحظت أنّه كان يحاول إقناع إدوارد بأمرٍ معيّن.

«سأحاول التفكير بالأمر بموضوعيّة، بقدر الإمكان». وعد إدوارد.

كان الصمت أقصر هذه المرّة.

«إنّها فكرة لا بأس بها. متى؟... كلاّ هذا مقبول. أريد اقتفاء الأثر بنفسي. بعد عشر دقائق... بالتأكيد». مدّ إدوارد يده وأعطاني السماعة. «بيلاّ؟».

أخذتها منه، وكنت أشعر بالارتباك.

«ماذا يدور بينكم؟». قلت بغيظٍ يشبه غيظ الأطفال، وتأفّفت لكوني خارج النقّاش كليّاً.

«أظنّ أنّها هدنة. ولكن حاولي إقناع صديقك مصّاص الدّماء بأنّ محميتنا هي أفضل مكان لبقائك في غيابه. نحن قادرون على حمايتك».

«هل هذا ما كنت تحاول إقناعه به؟».

«نعم، وهذا طبيعي. حتى تشارلي، فإنّه سيكون بأمان هنا».

«دع بيلي يقنعه». قلت مؤيّدةً رأيه. مع أنّي كنت أكره أن يصبح تشارلي معي في محور النزاع. «وماذا أيضاً؟».

قال: «سنعيد النظر في الحدود الفاصلة، كي نتمكّن من الانقضاض على كلّ مصدر خطر يداهم فوركس. لا أدري إن كان سام سيوافق، لكنّي سأكون متيقّظاً ريثما يعود».

«ماذا تعني بأنّك ستبقى متيقّظاً؟».

«أعني، لو رأيتم ذئباً حول بيتكم، لا تطلقوا عليه النّار».

«لن نفعل ذلك بالتأكيد، لكن أرجو ألاّ تعرّض نفسك للخطر».

«لا تكوني ساذجة، يمكنني الدّفاع عن نفسي».

ثمّ أضاف: «لقد حاولت إقناعه أيضاً بأن يسمح لكِ بزيارتنا. إنّه يفكّر وفقاً لأحكام مسبقة لا يتخلّى عنها، وهو يعلم بقدر ما أعلم أنا شخصيّاً أنّ لا خطر عليك هنا. لا تسمحي له بتشويش دماغك من هذه الناحية».

«سوف أتذكّر ذلك».

قال: «سأراكِ قريباً...».

«هل ستأتِ أنتَ إلى هنا؟».

«نعم، سآتي لأحفظ رائحة الزائر وكي أتمكّن من اقتفاء أثره إن جاء ثانيةً».

قلت: «جايك، حقّاً أنا أخاف عليك من عمليّة اقتفاء الأثر والمطاردة».

قاطعني قائلاً: «أوه، أرجوك يا بيلاّ...». ثمّ ضحك، وأقفل الهاتف.

10

الرّائحة

كانت تصرّفاتهم صبيانيّة إلى حدٍّ كبير. لمَ يغادر إدوارد عندما يحضر جايكوب؟ ألم يحِن الوقت ليتخطّيا هذا المستوى من عدم النضوج؟

قال لي إدوارد وهو يتأهّب للمغادرة: «ليس لأنّي أشعر بالعدائية ضدّه يا بيلاّ، لكن هكذا تكون الأمور أسهل بالنسبة لكلينا. لن أذهب بعيداً، وستكونين بخير».

«لست خائفة من هذه الناحية».

ابتسم ورمقني بنظرةٍ ماكرة، ثمّ شدّني إليه ودفن وجهه في شعري، الذي عبق بعطر أنفاسه، فأحسست بقشعريرة باردة تسري في عنقي.

«سأعود حالاً»، قال ذلك واطلق ضحكةً، كأنّني أخبرته نكتة.

قلت: «ما الذي يضحكك؟».

لم يجب، لكنّه ابتسم وتوجّه إلى الباب.

دمدمت متذمّرةً، وانصرفت إلى تنظيف المطبخ. وما هي إلاّ دقائق، وقبل أن أبدأ بجلي الصحون، حتى رنّ جرس الباب. فوجئت بسرعة جايكوب التي تفوق سرعة السيارة... وفكّرت بمرارة: جميعهم أسرع منّي!

«تعالَ يا جايك، تفضّل!».

كنت لا أزال أملأ الحوض بالماء والصابون، عندما سمعت صوته، وكان يقف كالشبح ورائي.

«هل يعقل أن تتركي بابك مفتوحاً هكذا؟».

«لا يخيفني من يعيق دخوله بابٌ مقفل».

«أوافقك الرّأي. هذا صحيح!».

استدرت لأراه، لكنّي سرعان ما رمقته بنظرةٍ ناقدة، وقلت: «هل من الصّعب عليك حقّاً ارتداء الثياب؟». كان جايكوب عاري الصّدر، ولا يرتدي سوى سروال قديم من نوع الجينز، كان قد اختصر من طوله بشكلٍ ملحوظ. ساورني الشكّ أنّ اعتزازه بعضلاته يمنعه من تغطيتها. لا أخالفه الرأي إنّها ملفتة...، لكنّي لا أعتقد أنّه على هذا القدر من الغرور. «أعلم أنّك لا تشعر بالبرد، لكن...؟».

رفع يده ومشّط شعره المبلول بأصابعه، وقال: «هكذا... أسهل!».

«ما هو الأسهل؟».

ابتسم ابتسامة المتفوّق والمتواضع في آن، وقال: «يكفيني أن أحمل سروالي، لا يمكن أن أحمل بدلة كاملة، وإلاّ سأبدو كالبغل الذي يلبس بردعة».

قلت: «لم أفهم قصدك يا جايكوب؟».

قال: «ألا تعلمي، يا بيلاّ أن ثيابي تتمزّق وتتناثر عندما أتغيّر، وأضطرّ إلى حملها. ألا يحقّ لي أن أخفّف من هذه المشقّة قدر الامكان؟».

شعرت بالخجل، وتمتمت: «أعتذر. لم أفكّر بهذا الأمر».

ضحك، واشار إلى خيطٍ جلدي أسود كان ملفوفاً حول كاحل ساقه اليسرى. لاحظت حينئذٍ أنّه كان أيضاً حافي القدمين. «أنا لا أقصد بهذا المظهر موضة معيّنة، لكن تكفيني مشقّة حمل سروالي بأسناني».

لم أجد الكلمات التي يمكن أن أجيبه بها.

وضحك من جديد وقال: «هل تزعجك رؤيتي نصف عارٍ؟».

قلت: «كلّا».

فضحك أيضاً. أدرت ظهري لأكمل غسيل الصحون، وتمنّيت أن يكون قد فهم أنّ احمرار وجهي كان خجلاً من جهلي، وليس بسبب سؤاله.

تنفّس عميقاً وقال: «دعيني الآن أباشر بعملي. لا أريده أن يتهمني بالمماطلة».

قلت: «جايكوب، هذه ليست مسؤوليتك...».

رفع يده ليقاطعني، وقال: «اعتبري أنّه عمل تطوّعيّ... أين تتوقّعين أن تكون الرّائحة على أشدّها».

«في غرفتي، أعتقد».

قطّب حاجبيه، فقد أزعجه بقدر ما أزعج إدوارد دخول الزائر المجهول إلى غرفتي. قال: «سأعود حالاً».

عدت إلى الصحن الذي في يدي، ورحت أنظفه بالفرشاة بقوّة، ولم يُسمع في المطبخ سوى حفيف شعيرات البلاستيك وهي تدور مرّات ومرّات على الصّحن. حاولت الإصغاء إلى ما يفعله جايكوب في الطّابق الثاني، فسمعت صرير فتح الباب، ووقع أقدامه على الأرض الخشبيّة. ثمّ تنبّهت إلى أنّي استغرقت وقتاً طويلاً في تنظيف ذلك الصحن، فقرّرت الإسراع في عملي.

«هوو!». قال جايكوب وهو يقف ورائي، فأذهلني ظهوره المفاجئ.

قلت: «إيه، جايكوب!».

«آسف! لم أقصد ترويعك». وأخذ منشفة ومسح فقاقيع الصابون

التي تناثرت فوق صدري. سأعوّض لك عن ذلك. ما رأيك بأن أشطفَ الصحون بالماء، وأنشّفها؟

أعطيته الصّحن، وقلت: «لا بأس!».

«كان سهلاً عليّ تمييز الرّائحة. لكنّ غرفتك تفحّ بالروائح الكريهة».

«سأشتري معطّراً للجوّ...».

ضحك.

عملنا بصمت معاً خلال دقائق. أنا أغسل الصحون وهو يشطفها وينشفها.

قال: «هل أستطيع أن أطرح سؤالاً؟».

أجبت: «هذا يتوقّف على نوع المعلومات التي تودّ معرفتها».

«إنّه سؤالٌ من باب الفضوليّة، فحسب».

«حسناً، ما هو السؤال؟».

بعد لحظة من الصّمت، قال: «كيف يمكن أن تكون علاقة الحبّ مع مصّاص دماء؟».

قلت متبرّمة: «علاقة رائعة».

«ألا تشعرين بالرّعب...، حقّاً ألا تشعرين بذلك؟».

«مطلقاً».

أعطيته الوعاء، ونظرت إلى وجهه. كان عابساً وشفته السفلى مقلوبة.

«هل لديك سؤالٌ آخر؟»، قلت.

«كنت أتساءل، هل...، هل تقبّلينه؟».

ضحكت: «نعم».

ارتجف وعبّر عن اشمئزازه: «أغ...!».

«لكلّ فردٍ مزاجه». تمتمت.

«ألا تخافين من الأنياب؟».

ضربته على ذراعه، ورششت ماء الصابون على وجهه. «أطبق فاهك يا جايكوب، أنت تعلم أن ليس له أنياب».

«لديه ما يشبهها». قال مغمغماً.

شعرت بالغيظ، ورحت أنظّف أحد السكاكين بطريقة عصبيّة.

«أيمكنني طرح سؤال آخر؟». قال، بعد أن أعطيته السكين كي يشطفه.

أجبت بحدّة: «ما هو؟».

أخذ يقلّب السكين تحت الماء مرّات عديدة، ثمّ قال بهمس: «قلتِ بعد بضعة أسابيع... متى بالتحديد؟».

لم أدعه يكمل سؤاله، وأجبت: «بعد التخرّج». نظرت إلى وجهه بحذر، خوفاً من أن يبدي ردّ فعلٍ قوياً، كما في المرّة الماضية.

«بهذه السرعة؟»، قالها بأسىً، وعيناه مغمضتان. ولاحظت كتفيه وعضلات ذراعيه تتشنّج.

وصرخ: «آخ!». واخترق صوته سكون الغرفة فجأةً، فقفزت من مكاني.

واشتدّت قبضة يده اليمنى على حدّ السكّين. ثمّ أرخى يده، فوقعت السكّين ورأيت جرحاً كبيراً وعميقاً في كفّه...، وسال الدّم المتدفّق كالنافورة من يده إلى الأرض.

«أووه»، تأوّه شاكياً.

أصابني دوار في رأسي وانقلبت معدتي. أخذتُ نفساً عميقاً، وحاولت مسك نفسي كي أتمكّن من الاهتمام به.

«أوه! لا يا جايكوب. ماذا فعلت؟». التقطت منشفة الصحون وأعطيته إيّاها: «إربطها حول الجرح».

رفض المنشفة قائلاً: «لا تقلقي يا بيلاّ، هذا ليس مهمّاً».

شعرت بجدران المطبخ تهتزّ أمام عينيّ. لكنّني أخذت نفساً عميقاً من جديد.

«جرحتَ يدك بهذا الشكل، وتقول لي إنّ الأمر ليس مهمّاً؟!».

فتح حنفية الماء، وراح يغسل الجرح. رأيت الماء الغزير الأحمر يصبّ في الحوض، فشعرت بدوار شديد.

«بيلاّ!».

أزحت نظري عن يده المجروحة، ونظرت إلى وجهه. كان عابساً.

قلت: «ماذا؟».

«يكاد أن يغمى عليكِ، وتعضّين على شفتك بقوّة. توقّفي. استرخي وتنفّسي بعمق؛ أنا بخير».

تنفّست بعمق، وتوقّفت عن العضّ على شفتي.

قلت: «تعالَ، سآخذك إلى المستشفى». كنت متيقّنة من قدرتي على قيادة السيارة، فالجدران كانت قد توقّفت عن الاهتزاز على الأقلّ.

«لا ضرورة!». أقفل جايك الحنفية، وأخذ المنشفة من يدي، وغطّى جرح كفّه.

«انتظر!». قلت معترضة. «دعني ألقي نظرة على الجرح». وأمسكت بطرف الطاولة بإحكام، كي لا أسقط أرضاً إذا ما عاد إليّ الدوار.

«لم أكن على علم بأنّك طبيبة...!؟».

«أريد أن أرى، سيفور غضبي من رفضك الذهاب إلى المستشفى».

ادّعى ساخراً الخوف: «أرجوك لا... لا لفورات الغضب!».

«إن لم تدعني أرى يدك، لن تسلم من فورة الغضب».

تنفّس بعمق، وقال بشجاعة: «حسناً».

كشف عن الجرح، ومددت يدي لأخذ المنشفة، وإذا به يلقي يده المصابة في يدي.

نظرت إلى كفّه بارتباك، فرأيت أنّ الجرح كان قد التأمَ، ولم يبقَ منه سوى خطّ زهريّ عريض.

«لكنّك كنت تنزف بقوّة!». قلت مذهولة.

سحب يده من يدي، وصوّب إلى عينيّ نظراته الداكنة، وقال: «جراحنا تلتئم بسرعة!».

قلت: «هذا ما أرى».

لقد رأيت الجرح الكبير بأمّ عيني، ورأيت شلال المياه الأحمر ينساب تحت الحنفيّة، وكدت أسقط أرضاً من رائحة الدمّ. تصوّرت أنّه بحاجة إلى مساعدة طبيّة. وكان مفترضاً أن يستغرق الجرح أيّاماً كي يلتئم، وأسابيع ليصبح أثره بالشكل الذي هو عليه الآن.

ابتسم، ورفع يده إلى صدره، وقال بما يشبه الاعتداد بالنفس: «أنا رجلٌ ذئب، تذكّري!».

تركّزت عيناه في عينيّ للحظات شعرت كأنّها خارج الزمن.

وأخيراً قلت: «حسناً!».

ضحك لرؤية تعابير وجهي. وقال: «أخبرتك بذلك من قبل، ورأيت أثر جرح بول».

أومأت برأسي، وقلت: «يختلف الأمر عندما تشاهد حصول ذلك أمام عينيك».

انحنيت، والتقطت من الخزانة قنينة سائل التبييض، وأفرغت منها على فوطة التنظيف، ورحت أنظّف بقع الدمّ المتجمّدة على الأرض.

«دعيني أنظّف بنفسي». قال جايكوب.

قلت: «أنا أهتمّ بهذا الأمر. يمكنك وضع تلك المنشفة في الغسّالة؟».

عندما تأكّدت من نظافة الأرض، انصرفت إلى تنظيف حافّة الحوض بسائل التبييض أيضاً. بعد ذلك، توجّهت إلى غرفة الغسيل وأفرغت مقداراً من السائل ذاته في الغسّالة، وكبست زرّ التشغيل. كان جايكوب يراقبني بفضول.

«هل تعانين من هوس النظافة؟». سألني بعد أن انتهيت.

«أنتَ تعلم أنّ مسألة الدمّ هي بالتحديد حسّاسة هنا، ويمكنك بالطّبع تفهّم هذا الأمر».

«أوه!». مظهراً اشمئزازه.

«لا أريده أن يتعرّض إلى تحدّيات إضافيّة؟ أعتبر ما يتحمّله الآن كافياً».

«طبعاً، طبعاً، ولمَ لا؟ لكن، هل بإمكاني أن أطرح عليك سؤالاً يا بيلاّ؟».

«ماذا؟».

«كيف هي علاقة الصداقة مع رجلٍ ذئب؟».

فاجأني سؤاله، لكنّي أطلقت ضحكة عالية.

وأضاف: «هل يخيفك ذلك؟».

قلت: «كلاّ، بشرط أن يتصرّف الرجل الذئب بأسلوبٍ لطيف ومهذّب؛ عندئذٍ تكون علاقة الصداقة معه رائعة».

ضحك ضحكةً كبيرة، ولمعت أسنانه البيضاء فوق بشرته السمراء الخمريّة. ثمّ قال: «شكراً يا بيلاّ!». وأخذ يدي وشدّني إليه بقوّة كعادته، فشعرت أنّ قفصي الصدري يكاد يتحطّم.

وقبل أن أبدي أيّ ردّ فعل، أرخى ذراعيه وتراجع بخطواتٍ إلى الوراء.

«إغ!». قال متأفّفاً، «رائحة شعرك توازي رائحة غرفتك نتانةً».

«آسفة!». وفهمت للتّو، سبب ضَحِك إدوارد قبيل مغادرته، عندما أغرق وجهه في شعري.

وأضاف: «إحدى مساوئ معاشرة مصّاصي الدّماء هي الرّائحة الكريهة التي ينقلونها إلى أصدقائهم. لكنّ هذه المشكلة هي تافهة بالتأكيد مقارنةً مع المشاكل الأخرى».

تأمّلت وجهه، وقلت: «لا أحد يتذمّر من رائحتي سوى أنت يا جايك».

ضحك. «سأراكِ قريباً يا بيلاّ».

«ستذهب الآن؟».

«أسمع حركته في الخارج. إنّه ينتظر رحيلي».

«أوه!».

سأخرج من الباب الخلفي. إسمعي، هل تأتين اللّيلة إلى لا بّوش؟ سنقيم سهرة نار. وستكون إميلي موجودة، وستتعرّفين على كيم. . . وأعلم أنّ كويل يودّ رؤيتك، فهو لم يتقبّل كثيراً كونك علمت بشأن تغيّره قبل أن يعلم هو نفسه.

ضحكت لهذا الأمر. وتصوّرت انزعاج كويل، صديق جايكوب، عندما كان لا يزال إنساناً عاديّاً وبريئاً بين مجموعة الرّجال الذئاب، وكان يجهل حقيقة ما يحدث.

وأجبت: «أنظر يا جايك، لا أعلم بالتأكيد، فالأجواء لا تزال صعبة الآن. . .».

«هذا غير معقول! أتخافين أن يهاجمك أحد في حضورنا كلّنا، نحن السّتّة من. . .».

شعرت أنّه تردّد قليلاً عندما وصل إلى نهاية عبارته. فتساءلت إن كان يشعر بالخجل من لفظ كلمة «الرّجال الذئاب» عالياً، كما أشعر أنا بالخجل غالباً من لفظ كلمة «مصّاص الدّماء».

لكنّ عينيه الواسعتين كانتا تصرّان على دعوتي للذهاب هذا المساء.

قلت بنبرةٍ فيها شكّ: «سوف أسأل. . .؟».

«هل أصبح وصيّاً عليك أيضاً؟ الأسبوعَ الماضي، انتبهي! الأسبوع الماضي، شاهدت برنامجاً على التلفزيون يتحدّث عن استغلال المراهقين والسيطرة عليهم. . .».

قاطعته: «حسناً، حان الآن وقت انصراف الرّجل الذئب!».

ضحك وقال: «وداعاً يا عزيزتي، لا تنسي أن تطلبي الإذن!».

وتوارى من الباب الخلفي، قبل أن أجد شيئاً أضربه به.

بعد ثوانٍ من انصراف جايكوب، دخل إدوارد بخطىً بطيئة إلى المطبخ، وقطرات المطر تلمع كالماس بين خصلات شعره البرونزي. كان ينظر حوله بحذر.

«هل كنتما في عراك لسببٍ ما؟».

قلت بنبرةٍ موسيقيّة: «إدوارد!» وألقيت بنفسي على صدره.

«أهلاً! ضحك ولفّ ذراعيه حولي. هل تريدين تحويل انتباهي. . .، لا شكّ أنّك تنجحين في ذلك».

«كلّا، لم أتشاجر مع جايكوب كثيراً. لماذا تسأل؟».

«كنت أتساءل لمَ هاجمته بالسكّين؟ برغم أنّي قد لا أعترضك في ذلك. . .»، وأومأ بذقنه إلى السكّين الذي كان لا يزال على الطاولة؟

«ياه! كنت أظنّ أنّي نظّفت كلّ شيء».

تحرّرت من ذراعيه وأسرعت إلى السكّين ووضعته في الحوض، ثمّ أغرقته بالسائل المبيّض.

«لم أهاجمه!». أوضحت، «بل نسي السكين في يده».

هزّ برأسه قائلاً: «إذاً، ليس الأمر ممتعاً بقدر ما تصوّرت».

«كن لطيفاً».

مدّ إدوارد يده إلى جيب سترته وأخرج مغلّفاً كبيراً ورماه على الطاولة. «فتحت لك صندوق البريد».

«هل من خبرٍ جيّد؟».

«أعتقد ذلك».

أثارت طريقته بالكلام شكوكي، فتحرّكت للتوّ لأرى بنفسي.

أمسكت المغلّف الكبير بيديّ ونظرت إلى عنوان المرسل، فقرأت: «جامعة دارتموث!؟ لا أصدّق».

«أظنّ أنّه إيعاز بالقبول».

«ماذا فعلت يا إدوارد؟».

«قمت بإرسال الطلب. هذا هو كلّ ما فعلت».

«أنظر! قد لا أكون بمستوى طلّاب جامعة دارتموث العلمي، لكنّي لست غبيّة إلى درجة أن أصدّق ذلك».

«لكنّ الجامعة تعتبرك في المستوى المطلوب».

أخذت نفساً عميقاً، وقلت: «أقدّر كرم أخلاقهم، لكن إن كنت مقبولة أو العكس، تبقى مسألة القسط. أقساط هذه الجامعة تفوق قدرتي المالية، ولن أسمح لك أن تتكلّف ثمن سيّارة سبور جديدة من أجل الادّعاء الكاذب بأنّي سأذهب إلى الجامعة في الفصل القادم».

قال متمتماً: «أنا لست بحاجة إلى سيّارة سبور جديدة. وليس عليك ادّعاء أيّ شيء. لن ينالك أيّ أذى من متابعة الدراسة الجامعية خلال السنة القادمة، وأتوقّع أنّك ستحبّين ذلك. فكّري بالأمر يا بيلاّ، وتصوّري كم تشارلي ورينيه سيسعدان ويفخران بك...».

وبلباقته، وصوته المخمليّ، استطاع أن يجعلني أتخيّل الصورة في دماغي. فتخيّلت صدر تشارلي ينتفخ فخراً، وهو يُخبر كلّ من يصادفه عن التحاقي بدارتموث. أمّا رينيه فستطير فرحاً، لكنّها ستؤكّد للنّاس أنّها

لم تفاجأ، وأنّها كانت تتوقّع لي النجاح الباهر منذ طفولتي.

حاولت إلغاء هذه الصورة من تفكيري، وقلت: «إدوارد، إنّي خائفة من الانتظار حتى التخرّج، فكيف سيكون حالي لو انتظرت انقضاء الصيف، حتى يأتي الخريف المقبل؟».

ضمّني إلى صدره، وقال: «لن يُصيبك أذىً. لديك كلّ الوقت الذي تحتاجين إليه».

تنهّدت، وقلت: «سأرسل غداً معلوماتي المصرفية إلى جامعة آلاسكا. إنّها الغطاء المناسب الذي أحتاج إليه. فالمسافة البعيدة ستجعل تشارلي لا يتوقّع عودتي إلى فوركس قبل عيد الميلاد، وعندما يقترب العيد، سأجد عذراً آخر». وأضفت: «أنت تعلم أنّ قصص الكذب والتستّر ليست ممتعة. . . ، إنّها في الحقيقة مؤلمة!».

تغيّرت تعابير وجه إدوارد، وقال: «ستكون الأمور أسهل بعد بضعة عقود. عندما يموت كلّ الّذين يعرفونك، ستنتهي المشكلة».

روّعني كلامه.

«أعتذر، ربّما كان كلامي قاسياً، لكنّه صحيح».

نظرت طويلاً إلى المغلّف الأبيض الملقى على الطاولة، من دون أن أراه.

ثمّ قال: «إن استطعت التوصّل إلى حلّ بشأن المشكلة الحالية، هل توافقين على الانتظار؟».

«كلّا».

«أنتِ دائماً شديدة العناد».

«نعم».

سمعنا ضجيج الغسّالة تتحرّك بسرعة في غرفة الغسيل قبل أن تتوقّف، فذكّرني ذلك بالثياب التي اختفت من غرفتي. فقلت لإدوارد:

«أرجوك أن تسأل آليس ماذا فعلت بأغراضي عندما رتّبت غرفتي، فتّشت عن بعض الأشياء ولم أجدها».

نظر إليّ بارتباك. «هل قامت آليس بترتيب غرفتك؟».

«بلى، أظنّ أنّها فعلت ذلك عندما أتت لتأخذ بيجامتي ومخدّتي، و. . . لقد التقطت كلّ ما وجدته في طريقها مثل قميصي الأحمر وجواربي، ولا أعرف أين وضعتها».

كان لا يزال مرتبكاً، ولكن ما ان انتهيت من الكلام، حتى انقبضت ملامحه، وقال: «لم تأخذ آليس من غرفتك سوى ما استعملتِه أنت بنفسك في بيتنا».

«من أخذ الأشياء إذاً يا إدوارد؟».

«كلّ هذه الأشياء التي سميتها تحمل رائحتك. . .».

نظرنا إلى بعضنا خلال لحظات، حسبتها طويلة جدّاً، وتمتمت: «إنّه الزائر!؟».

«كان يجمع أشياء تحمل رائحتك. . . كي يبرهن أنّه وجدك».

«لماذا؟»، همست.

«لا أعلم، لكنّي أقسم لك يا بيلاّ أنّي سأكتشف ذلك».

«ليس لديّ شكّ في قدرتك. . .»، ووضعت رأسي فوق صدره، فشعرت بهاتفه يهتزّ في جيبه.

أخرج هاتفه ونظر إلى الرّقم. «الشخص الذي أريد مكالمته، بالذات!». تمتم، وفتح الهاتف:

«أهلا كارلايل، كنت. . .». لكنّه قطع كلامه ليصغي، وبدت ملامح التركيز على وجهه. «سأنظر في الأمر، إسمع. . .».

تكلّم عن أغراضي الضائعة، لكنّي لم أشعر أنّ كارلايل تقدّم بأيّ فكرة قد تساعدنا بشأن هذا الموضوع.

وأكمل إدوارد وهو ينظر في اتجاهي: «قد أذهب. . .، ولكن لا تدع إيميت يذهب بمفرده، فأنت تعلم كيف يتصرّف. على الأقلّ، قل لآليس أن تبقى متيقّظة وتتابع الأمور. سنفكّر بهذا الأمر لاحقاً».

أقفل الهاتف بسرعة، وسألني: «أين الجريدة؟».

«لا أعلم بالضّبط. لماذا؟».

«أحتاج إلى أن ألقي نظرة عليها، أتظنين أنّ تشارلي قد رماها؟».

«هذا محتمل. . .».

وفي خلال ثوانٍ، خرج إدوارد وعاد. كانت حبّات جديدة من الماسّ تتلألأ في شعره، والجريدة الرّطبة بين يديه. طرح الجريدة فوق الطاوله، وجال بنظره بين العناوين الكبيرة. ثمّ انحنى قليلاً، مركّزاً على أسطرٍ معيّنة.

«نعم، كارلايل على حقّ. . .، إنّها تصرّفات صبيانيّة. شباب مجانين. . .». قال متمتماً.

حاولت ملاحظة تلك الأسطر. كان أحد العناوين الكبيرة يقول: «مسلسل الجرائم مستمرّ في سياتل. . .، لا يجد البوليس أيّ دلائل جديدة».

عناوين جريدة اليوم تشبه العناوين التي أرعبت تشارلي منذ بضعة أسابيع، ولكن هناك زيادة كبيرة في عدد الضحايا!

«يبدو أنّ الأمور تزداد سوءاً»، قلت متمتمة.

قطّب حاجبيه وقال: «إنّها فوضى مخيفة، ولا بدّ أنّها مسؤولية أكثر من مصّاص دماء منفرد جديد. لا أعلم ماذا يجري. . .، وكأنّهم لم يسمعوا بالعائلة الملكية وقوانينها. وكأنّ أحداً لم يفسّر لهم تلك القوانين. من قام بتحويلهم يا تُرى؟».

«العائلة الملكية؟». ردّدت بعده، وأنا أرتعد.

«التخلّص من مثل هذه الجماعات هو عمل تقوم به عادةً العائلة

الملكية. يقضون على كلّ الذين يعرضون سرّ وجودنا للإفشاء... وسبق أن قضوا على فوضى مماثلة في آتلانتا منذ بضع سنوات. لذا أتوقّع أنّهم سيتدخّلون قريباً، وقريباً جدّاً إن لم نجد نحن سبيلاً إلى تهدئة الوضع. لكنّي أفضّل ألاّ يأتوا إلى سياتل في الوقت الحاضر، لأنّهم لو أتوا إلى الجوار...، فقد يحاولون إيجادك.

قلت مذعورةً: «وماذا نفعل؟».

«نحتاج إلى معرفة بعض الأمور قبل أن نقرّر ما يمكن فعله. قد نتوصّل إلى حلّ المشكلة بطريقة سلمية عن طريق التحدّث إلى هؤلاء الجدد مثلاً». وبدا أنّ لديه شكوكاً كثيرة حول إمكانية الحلّ بهذه الطريقة. «سننتظر حتى يتسنّى لآليس تقديم تصوّر حول ما يجري...، لا نريد التدخّل إلاّ إذا اقتضت الضرورة حقّاً. لأنّنا لسنا مسؤولين رسميّاً عن هذا الموضوع». وأضاف كأنّه يحدّث نفسه: «وجود جاسبر يساعدنا...».

«جاسبر؟ لماذا؟».

«إنّه يُتقن التعامل مع الجدد».

«لماذا يُتقن جاسبر ذلك؟».

«إطرحي عليه هذا السؤال بنفسك، وسيخبرك كلّ القصّة».

«ما هذه الفوضى المخيفة!؟»، قلت مدمدمة.

«ألا تشعرين كأنّ المشاكل تطبق علينا من جميع الجهات في هذه الأيّام؟».

وأضاف متنهّداً: «هل يخطر ببالك أحياناً أنّك كنت ستعيشين بشكلٍ أسهل، لو لم ترتبطي بعلاقة حبّ معي؟».

«ربّما، لكنّي لن أرضى بحياة أنتَ بعيد عنها».

«وأنا أيضاً...، والآن، أظنّ أنّ لديك سؤالاً تودّين طرحه عليّ». قال ذلك بابتسامةٍ ساخرة.

نظرت إليه بتعجّب، وقلت: «أيّ سؤال؟».

«ربّما كنت مخطئاً. كنت قد اعتقدت أنّك تريدين الذهاب إلى سهرة يقيمها الرّجال الذئاب اللّيلة».

«آه، كنت تسترق السّمع مجدّداً؟».

«قليلاً، سمعت آخر الكلام فحسب».

«حسناً، كنت لا أنوي التحدّث في الموضوع...، فقد تصوّرت أنّ لديك ما يكفي من الهموم».

وضع يده تحت ذقني، ونظر إلى داخل عينيّ، وقال: «هل تريدين الذهاب؟».

أجبت: «هذا ليس أمراً مهمّاً. لا تشغل بالك».

«بيلاّ! لا تطلبي منّي الإذن بالذهاب، فأنا لست والدك...، لمَ لا تستشيري تشارلي حول الموضوع».

«أنت تعلم أنّ جوابه سيكون إيجابيّاً».

«نعم، قد أكون أكثر من يعرف بما يجول في فكر تشارلي. أنت على حقّ، فجوابه سيكون بالموافقة».

نظرت إليه طويلاً كي أفهم ما يريد، محاولةً التخلّي عن ميلي للذهاب إلى لا بّوش. أرفض أن أعطي لرغباتي الشخصيّة فرصة التحكّم بسلوكي. من الحماقة أن أفكّر بقضاء سهرة مع مجموعة من الرّجال الذئاب، في حين تتربّص بي الأخطار من كلّ صوب. ولكن قد يكون هذا بالتحديد السبب الذي يدعوني إلى الذهاب. سئمت الشعور بأنّ حياتي معرّضة للخطر...، أريد الهروب ولو لساعاتٍ قليلة، لأتصرّف كفتاة لامبالية، لأضحك مع جايكوب وأنسى، ولو مؤقّتاً.

قال إدوارد: «بيلا، سبق ووعدتك أنّي سأكون منطقيّاً، وأثق برأيك. إن كنت تثقين بالرّجال الذئاب، إذهبي ولن أعترض سبيلك».

وأكمل: «جايكوب على حقّ، لا خطر عليك هناك من الغرباء فباستطاعتهم حمايتك».

«هل أنتَ متأكّد؟».

«بالطبع، ولكن. . .».

حبست أنفاسي بانتظار أن يكمل جملته.

«أرجو ألاّ يكون لديك مانع من اتخاذ بعض التدابير الوقائيّة. أوّلاً، سآخذك في سيّارتي إلى الحدود الفاصلة. وثانياً، احملي معك هاتفاً خلويّاً كي تتصلي بي عندما تنوين العودة».

«هذا. . . معقول جدّاً، أوافق».

«ممتاز».

ابتسم، ولم ألاحظ أيّ خوفٍ في عينيه اللامعتين كجوهرتين.

بالطّبع، لم يبدِ تشارلي أيّ اعتراض على ذهابي لقضاء سهرة نار في لا بّوش. صرخ جايكوب من فرط حماسته عندما أخبرته عن قراري، وأظهر استعداده لملاقاتنا في الساعة السادسة، عند الخطّ الفاصل.

كنت قد وصلت في تفكيري إلى قرار عدم بيع درّاجتي، بل إعادتها إلى مكانها في لا بّوش. وعند انتهاء حاجتي لها، سأترك لجايكوب حرّية التصرّف بها. ولكنّي كنت مصرّة على أخذها معي اللّيلة من دون تأجيل، فربّما تكون هذه آخر فرصةٍ أمامي للقيام بذلك. كانت الكآبة تسيطر عليّ في تلك الفترة، وتوقّعت منّ كلّ يوم جديد أن يكون آخر أيّام حياتي، لذلك رفضت تأجيل أيّ أمرٍ كنت أريد إتمامه.

هزّ إدوارد رأسه عندما أخبرته عن عزمي إعادة الدراجة إلى لا بّوش، فقلت في نفسي إنّه يخاف عليّ من خطر ركوبها مثل تشارلي.

قدت شاحنتي وتبعته إلى منزله، حيث تركت درّاجتي في الكاراج المرّة الماضية. لكنّي لم أرَ المفاجأة إلاّ بعد أن وصلنا، وعلمت أنّ هزّة رأسه كانت تعني حقّاً أكثر من خوفه عليّ من خطر ركوب الدرّاجة.

إلى جانب درّاجتي المتواضعة، وقفت درّاجة فضيّة، كبيرة وفخمة. ومن منظرها وجمالها وحجمها. . .، بدت سريعة جدّاً. كانت درّاجتي تبدو هزيلةً وقبيحة أمامها، فشعرت أنّه لا يمكن إطلاق اسم درّاجة على كليهما بالتساوي.

قلت: «ما هذا؟».

تَمتَم قائلاً: «لا شيء».

«بل يبدو شيئاً مهمّاً».

«لم أكن على علم إن كنتِ ستسامحين صديقك، أو إن كان سيسامحك، وإن كنت ستركبين درّاجتك من جديد. لكنّي لاحظت أنّ ركوب الدرّاجة يستهويك جدّاً، لذا اشتريت هذه كي أستطيع مرافقتك إذا أحببتِ».

نظرت إلى تلك الآلة الجميلة، وتأملت درّاجتي وكيف تبدو إلى جانبها، فانتابني شعورٌ بالحزن، عندما لاح في خاطري أنّ صورتي إلى جانب إدوارد قد تشبه حال هاتين الدراجتين في تناقضها.

«لن أتمكّن من اللّحاق بك»، قلت بصوتٍ منخفض.

وضع إصبعه تحت ذقني ورفع وجهي، ونظر إليّ مليّاً، وقال: «سأجعل سرعتي تتناسب مع سرعتك».

«لكنّك لن تستمتع. . .».

«سأستمتع بالتأكيد لأنّنا هكذا نكون معاً».

عضّيت على شفتي، وقلت: «إدوارد! إن رأيتني أقود بسرعة، أو أفقد السيطرة على الدرّاجة، ماذا تفعل؟».

تردّد قليلاً وتوقّعت أنّه كالعادة، سيفاجئني بخطّة سريعة تنقذني من الحادث.

ابتسم بحذر، وقال: «هذا ما تقومين به مع جايكوب، لقد توضّحت الصورة أمامي الآن».

قلت: «أضاعِف سرعتي، كي لا أبطئ من سرعته كثيراً. أحاول على الأقل. . .».

ثمّ نظرت إلى الدرّاجة الفضيّة بريبة.

«لا تخافي من هذا الموضوع». قال إدوارد ضاحكاً. «لمحت جاسبر يتأملها بإعجاب. ربّما حان الوقت ليكتشف أسلوب مواصلات جديد. على كلّ حال، لدى آليس سيّارة بورش الآن».

«إدوارد، أنا. . .».

قاطعني بقبلة سريعة، وقال: «لا تقلقي، لكن هل تسدين إليّ خدمة؟».

قلت فوراً: «أيّ شيء تريد».

تركني للتوّ، وعاد وبيده شيئان. الأوّل أسود، لكنّ شكله لم يكن واضحاً، وكان الثاني، خوذةً حمراء.

رسم على وجهه ابتسامته التي لا تقاوم، وأعطاني الخوذة. فقلت: «سأبدو كالبلهاء إذا ارتديتها».

«لا بل ستبدين ذكيّة، لأنّك لا تعرّضين نفسك للأذى». وألقى الشيء الآخر الأسود فوق ذراعه. ثمّ أخذ وجهي بين يديه، وقال: «أنا لا أقوى على العيش من دونك. أرجو منك المحافظة على نفسك».

قلت «حسناً، وما هو هذا الشيء الذي على ذراعك؟».

ضحك، وقال: «هذه سترة وقاية، وهي مبطّنة».

مدّ يده ليعطيني السترة. تنهّدت مذعنة لإرادته، ورفعت شعري وأدخلت رأسي في الخوذة. ثمّ أدخلت ذراعيّ في أكمام السترة، فرفع هو السحاب، وابتسامة كبيرة تشرق على وجهه. تراجع خطوة إلى الوراء، ونظر إليّ.

شعرت وكأنّي مقيّدة.

قلت: «قل الحقيقة، ألا أبدو قبيحة؟».

تراجع خطوة ثانية، وزمّ شفتيه.

قلت: «هل أبدو قبيحة إلى هذه الدرجة؟».

«كلاّ، كلاّ يا بيلاّ. في الحقيقة...»، وبدا كأنّه يفتّش على الكلمة المناسبة. «أنت تبدين جذابة».

أطلقت ضحكة عالية: «شديدة الجاذبيّة، حقّاً».

«انت تقول ذلك كي أوافق على ارتدائها؛ لكنّك على حقّ، فالتدابير الوقائية تدلّ على الوعي».

لفّ ذراعيه حولي وشدّني إلى صدره، وقال: «تضحكني تصرّفاتك السخيفة أحياناً، لكنّها تساهم في جاذبيتك، ومع ذلك، فإنّي أوافق أنّ لهذه الخوذة سيئات». ورفعها عن رأسي كي يتمكّن من تقبيلي.

أوصلني إدوارد بسيّارته إلى لا بّوش، فشعرت كأنّه سبق لي أن مررت بهذه التجربة غير المسبوقة. فقلت: «أتعلم إلى أين عادت بي الذاكرة الآن؟»، سألته، وأكملت: «إلى طفولتي، عندما كانت رينيه تأتي بي لقضاء العطلة الصيفية مع تشارلي. أشعر كأنّي في السابعة من عمري الآن».

ضحك إدوارد.

لكنّي لم أصف الفرق الكبير بين التجربتين بصوتٍ مسموع، فتشارلي ورينيه كانا على علاقةٍ أفضل.

عند منتصف الطريق إلى لا بّوش تقريباً، كان جايكوب ينتظر أمام سيارة الفولكسفاكن الحمراء التي صنعها بنفسه من قطع الخردة القديمة التي استخرجها من الرّكام.

أضاء الابتسام وجه جايكوب عندما لمحني. توقّفت سيّارة الفولفو على بعد حوالى عشرين متراً. وقال إدوارد: «اتصلي بي عندما تكونين جاهزة للعودة، سأكون هنا بانتظارك».

وعدته بأنّي لن أتأخر.

أخرج إدوارد الدرّاجة من صندوق السيّارة، ومعها الخوذة والسترة.

كان جايكوب يراقبنا من دون القيام بأيّ خطوة. كانت ابتسامته قد اختفت، وبقيت نظراته الغامضة.

وضعت الخوذة تحت ذراعي، والسترة فوق مقعد الدرّاجة. قال إدوارد: «هل أخذت كلّ شيء؟».

«لن تكون هناك مشكلة، لا تقلق».

تنهّد واقترب منّي، فرفعت وجهي لأقبله قبلة سريعة، لكنّه أخذني بقوّةٍ بين ذراعيه، وقبّلني قبلةً طويلة كادت أن تقطع أنفاسي.

ثمّ ضحك قليلاً لسببٍ ما...، قبل أن يطلق سراحي.

وقال: «إلى اللّقاء!».

قبل أن أدير ظهري له وأنطلق نحو جايكوب، لمحت بريقاً غريباً في عينيه، ربّما أراد إخفاءه عنّي. هل كان نتيجة قلقه أو خوفه!؟ لكنّي...، كما في العادة، أميل إلى تضخيم الأمور في مخيّلتي.

كنت أشعر بعينيه تتبعاني، بينما كنت أدفع بدرّاجتي كي أقطع ذلك الخطّ الفاصل، وغير المنظور، بين مصّاصي الدماء والرّجال الذئاب.

«ما هذا؟»، كلّمني جايكوب مرتاباً، ونظراته الحائرة تتفحّص الدرّاجة.

قلت: «فكّرت أن أعيدها إلى هنا، مكانها الطبيعي».

أخذ الدرّاجة منّي ووضعها بطريقةٍ متوازنة فوق مقدّمة السيارة، وحملني بين ذراعيه عالياً في عناقٍ قويّ.

سمعت صوت الفولفو يزمجر، ويهيج في انطلاقته.

«توقّف عن هذا العمل يا جايك!».

ضحك، وأنزلني لأقف على قدميّ، فاستدرت لألوّح بيدي إلى إدوارد، لكنّ السيّارة الفضّية كانت قد توارت عن نظري.

«عظيم!»، قلتُ بنبرة معاتبة.

اتّسعت عيناه، وأجاب مدّعياً البراءة: «ماذا؟».

«موقفه من كلّ هذا كان في غاية اللّطف، أنصحك ألاّ تغامر بحظّك».

ضحك عالياً، ثمّ ترجّل من السيّارة واقترب ليفتح لي الباب، فحاولت أن أسترجع الكلمات التي قلتها، لعلّني أفهم سبب ضحكه.

«بيلاّ!»، قال، وما زال مقهقهاً: «كيف أغامر بشيءٍ لا أملكه؟».

11

أساطير

«هل ستأكلها؟»، سأل بول جايكوب، وعيناه مصوّبتان إلى قطعة الهوت دوغ الأخيرة من الوجبة الهائلة التي أكلتها المجموعة.

أسند جايكوب ظهره إلى ركبتيّ، وتأمّل قطعة الهوت دوغ التي كان قد شكّها بسيخٍ طويل، وقد لسعت ألسنة النيران أطرافها فأحرقتها. ثمّ أطلق زفرةً طويلة وربّت على معدته التي لا تزال منبسطة تقريباً، برغم أنّي كنت قد تعبت من مراقبة عدد القطع التي التهمها، فتوقّفت عن العدّ عند القطعة العاشرة؛ بالإضافةً إلى كيس شرائح البطاطا المقلية الكبير، وليترين من المشروبات الغازيّة. ثمّ التفت إلى بول، وقال محاولاً إغاظته: «أشعر بالتخمة، وأكاد أتقيّأ، لكنّي سآكلها...».

كان بول قد أكل كميّةً توازي ما أكله جايكوب لكنّ أنظاره كانت لا تزال معلّقة على تلك القطعة الأخيرة، ويداه تنقبضان بعصبيّة.

ضحك جايكوب، «أنظري، ماذا سأفعل». وأمسك السيخ بالسبابة والإبهام عند منتصفه، ونقفه فجأةً كي يطير إلى النقطة المقابلة من الحلقة، حيث يجلس بول. توقعت أن يقع السيخ أرضاً، وتتلوّث قطعة اللّحم بالرّمال، لكنّ بول التقطه بخفّة وبساطة. وما لبثت قطعة الهوت دوغ أن وجدت طريقها إلى معدته.

فكّرت بمهارة جايكوب، وتساءلت إن كانت عشرتي الطويلة له،

ولغيره من أصحاب القدرات المتفوّقة والخارقة، ستجعلني يوماً أعاني من عقدة نقصٍ لن أستطيع حلّها!

«شكراً يا صاحبي!»، قال بول مسروراً.

قعقعت النيران وطقطقت، ولاحظت أنّ ألسنتها لم تعد عالية كثيراً عن مستوى الرّمل. وفجأةً، ارتفعت شراراتٌ منها، وسطعت بلونها البرتقالي الخلّاب فأضاءت عتمة الأفق. في الحقيقة، لم أنتبه حتّى تلك اللّحظة إلى أنّ الشمس كانت قد غربت، فاستنتجت أنّ الوقت قد مرّ بسرعة.

واكتشفت أيضاً أنّ صحبة أفراد قبيلة كويلوت سهلة ومسلّية، بعكس ما توقّعت.

عند وصولي، ونحن نضع درّاجتي في الكاراج، أثنى جايكوب على فكرة استعمال الخوذة لكنّني شعرت بأنّه نادمٌ لأنّه لم يفكّر بها قبل إدوارد؛ لكنّني شعرت في تلك الدقيقة بالخوف من أن يعتبرني رفاق جايكوب جاسوسة. وتساءلت: «هل سيغضبون من جايكوب لأنّه دعاني إلى السهرة، وهل سيكون وجودي معهم سبباً في تعكير الأجواء؟».

ولكن مخاوفي سرعان ما تلاشت لدى وصولنا معاً إلى حيث تحلّق الجميع حول النار عند أعلى الصخرة الكبيرة؛ فالجوّ العام كان لطيفاً ومشجّعاً.

«أهلاً بصديقة مصّاصي الدماء!». قال إيمبري بصوتٍ عالٍ. وقفز كويل من مكانه ليصافحني ويقبّلني على خدّي. أمّا إميلي، فشدّت على يدي عندما جلست على الأرض الصخرية الباردة، بقربها وبقرب سام.

شعرت وكأنّي واحدةً منهم، لولا بعض الممازحات الخفيفة، كقول بول إنّه يجب عليّ أن أداري اتجاه الرّيح في مكان جلوسي، كي لا تصل إليهم رائحة مصّاصي الدّماء.

لم يقتصر الحضور على الشباب، فهناك كان بيلي جالساً على كرسيّه المتحرّك في نقطةٍ تبدو وكأنّها رأس الحلقة. وإلى جانبه، جلس على كرسيّ خاصّ رجل مسنّ جدّاً، هزيل البنية، وذو شعرٍ أبيض، إنّه جدّ كويل. وعلى كرسيٍّ من الجهة الأخرى، جلست سوزان كليرووتر وهي أرملة هارّي صديق والدي، وكان هناك أيضاً، أولادها سيث ولِيا اللّذان افترشا الأرض مثلنا. فوجئت بوجود سوزان وأولادها، لكنّني سرعان ما استنتجت أنّها أخذت مكان زوجها في لجنة الكبار، ما يشير إلى أنّها اطّلعت على أسرار المجموعة. هل يعني ذلك أنّ ولديها انضمّا تلقائيّاً إلى مجموعة لا بّوش السريّة؟

تأمّلت صعوبةَ موقف لِيا وهي تجلس قبالة سام وإميلي. لم يظهر على وجهها الجميل أيّ مشاعر سلبية، لكنّها أبقت أنظارها معلّقة على النيران المشتعلة طوال الوقت. لم أستطع منع نفسي من إجراء المقارنة بين وجهها الجميل، ووجه إميلي الذي شوّهته مخالب سام. هل اعتبرت لِيا كلّ ما حدث مقبولاً، بعد أن تسنّى لها الاطّلاع على الأسرار؟

لم يعد سيث كليرووتر ذو الابتسامة العريضة، صبيّاً يافعاً، فهو الآن طويل القامة وقويّ البنية. ذكّرني بجايكوب عندما كان أصغر سنّاً؛ لكنّ هذا الأمر جعلني ابتسم، ثمّ أزفر حسرةً. هل سيلاقي سيث مصير بقيّة الشباب هنا، وهل هذا سبب وجوده مع عائلته ضمن هذه الحلقة؟

كان جميع أعضاء المجموعة حاضرين. سام مع إميلي، وبول وإمبري وكويل؛ كذلك غارد مع كيم، الفتاة التي تطابق معها.

لأوّل وهلة، وجدت كيم فتاةً لطيفة، خجولة بعض الشيء، ولكنّها عاديّة. وجهها عريض، وعيناها تبدوان صغيرتان فوق عظمتي خدّيها البارزتين. وكان أنفها وفمها عريضين، غير متلائمين مع مقاييس الجمال التقليدية. كان شعرها الأسود الناعم والخفيف، يتطاير بهشاشة مع الرّيح التي لم تهدأ لحظةً فوقَ قمّة تلك الصخرة.

هكذا رأيت كيم في البداية، ولكن بعد بضع ساعات على مشاهدتي غارد وكيم، لم تعد تلك الفتاة في نظري عاديّة.

كان غارد ينظر إليها وكأنّه يشاهد الشمس لأوّل مرّةٍ في حياته، أو كأنّه أحد هواة جمع الآثار الفنيّة الراقية، وقد عثر على لوحة مفقودة لدافنشي؛ أو كأنه امرأةً شابّة تتأمّل في وجه مولودها الأوّل.

إعجابه بها جعلني أرى ملامح جديدة في وجهها. فلاحظت بشرتها السمراء البرونزية الناعمة تلمع في ضوء اللّهب، وشفتيها ترتسمان في استدارة دقيقة متكاملة حول أسنانها البيضاء النّاصعة. ولاحظت أيضاً كم كانت رموشها طويلة، فهي تلامس أعلى خدّيها عندما تنظر إلى تحت.

كم تتلوّح بشرتها باللّون الخمري الجميل عندما تلاحظ عينيّ غارد ترمقها، فتنخفض جفونها خجلاً لترتفع من جديد، وتقابل نظراته الولهة بمثلها.

ساعدتني فرصة مشاهدتهما معاً على فهم ما قاله لي جايكوب عن التطابق: «من الصعب الوقوف في وجه هذا المستوى من الالتزام والعشق الذي يصل إلى درجة العبادة».

كانت ذراعا غارد تلتفّ حولها، وهي تكاد تغفو فوق صدره الدّافئ. فهمست لجايكوب: «ها قد تأخّر الوقت!».

«لا تقولي هذا الآن، فالجزء الثاني من السّهرة هو الأهمّ». قال ذلك هامساً، برغم أنّه كان يمكن لمعظم الحاضرين الاستماع إلى همسنا، بفضل قدراتهم السّمعية العالية.

«ماذا بقي من السهرة، هل تنوي ابتلاع عجل كامل؟».

كبت جايكوب ضحكةً كادت تنطلق عالياً. «لا، لن نجتمع من أجل تناول هذه الكميّة الضّخمة من الطعام فحسب. إنّه في الحقيقة اجتماع مجلس الكبار بالدرجة الأولى. هذه هي المرّة الأولى التي سيستمع فيها كويل إلى قصص الأجداد. لا شكّ أنّه سمعها من قبل،

لكنّه اللّيلة، سيعلم أنّها -حقيقيّة. كيم وسيث ولِيا سيستمعون إليها لأوّل مرّةٍ أيضاً».

«هل سنستمع إلى القصص الآن!؟».

أسند جايكوب ظهره إلى مصطبةٍ منخفضة من الصخر كنت استند إليها، ووضع ذراعه حول كتفيّ وتكلّم في أذني بصوتٍ منخفض جدّاً.

«سنستمع إلى قصص من التاريخ، كنّا نخالها أساطير، وهي تخبرنا كيف وصلنا إلى ما نحن عليه. أولّها قصّة الأرواح المحاربة».

شعرت كأنّ جايكوب تعمّد أن يتلو عليّ مقدّمة البرنامج في أذني. وإذا بالجوّ يتغيّر فجأةً. جلس بول وإيمبري بوضعٍ مستقيم، وحثّ غارد كيم على الجلوس بوضعٍ جيّد.

أخرجت إميلي دفتراً وقلماً فبدت وكأنّها طالبة تستعد إلى سماع محاضرة مهمّة جدّاً. استدار سام قليلاً، فأصبح متوازياً مع الاتجاه الذي يجلس فيه الجدّ كويل الذي جلس إلى جانبه من الجهة الثانية. لاحظت حينئذٍ أنّ أعضاء المجلس كانوا أربعة وليس ثلاثة.

أغمضت لِيا كليرووتر عينيها كي تستطيع التركيز، وصحّح أخوها طريقة جلوسه، مبدياً اهتمامه الشديد.

بدأ بيلي بسرد القصّة بصوتٍ هادئ وعميق، وانسابت الكلمات على لسانه بدقّةٍ وإحساس، وكانت تنتظم وفق إيقاعٍ معيّن وكأنّها قصائد شعر.

«كان أفراد قبيلة كويلوت قليلي العدد، وما زالوا، لكنّهم لم ينقرضوا أبداً، فهناك سرّ سحريّ في دمائنا، ولا أتحدّث هنا عن سرّ التحوّل، وتغيّر الشكل الذي اكتسبناه لاحقاً، بل عن أرواح جدودنا المحاربة».

لم ألاحظ من قبل سمة العظمة في صوت بيلي بلاك، لكنّي تنبّهت في تلك الساعة إلى أنّ ميزة السلطة لم تفارقه منذ عرفته.

وكانت إميلي تسرع في الكتابة بشكلٍ ملحوظ كي لا يفوتها تدوين أيّ من كلماته.

«في البدء، استقرّت القبيلة قريباً من هذا المرفأ، واتّقن أفرادها بناء السفن وصيد الأسماك. لكنّ المرفأ كان غنيّاً بالأسماك فجذب إليه قبيلةً أخرى حاولت أن تطردنا من أرضنا وتستوطن مكاننا. كنّا قليلي العدد، ولم نقوَ على الدّفاع، فأبحرنا في سفننا ولذنا بالفرار.

لم يكن جدّنا كاهيليها أوّل الأرواح المحاربة، لكنّنا لا نعلم شيئاً عن الذين سبقوه، ولا نعلم من كان أوّل من اكتشف هذه القدرة لدى قبيلتنا. كان كاهيليها أوّل الأرواح المحاربة في تاريخنا المعلوم، وقد لجأ إلى استعمال هذه القدرة من أجل الدّفاع عن أرضنا.

غادرت روحه وأرواح جميع المحاربين السفينة، وتركوا أجسادهم والسفن في حماية النساء. عادت الأرواح المحاربة إلى المرفأ كي تستعيد الأرض. بالطّبع لم يستطيعوا محاربة العدو بالطرق المعروفة، لكنّهم وكما تقول القصص، كانوا ينفخون رياحاً عاتية في اتجاه مساكنهم، ويرسلون أصواتاً مخيفة مع الرّيح، إلى أن أصيب الأعداء برعبٍ شديد. وتقول القصّة إنّه كان باستطاعة الحيوانات أن ترى الأرواح المحاربة، وأن تتفاهم معها؛ حتّى أنّها كانت تتسلّى بالمراهنة على المتحاربين.

استطاع كاهيليها بمساعدة الأرواح المحاربة الأخرى التغلّب على العدو وتشريده. ويقال إنّه كان لدى تلك القبيلة الغازية عددٌ كبيرٌ من الكلاب الضّخمة، التي كانوا يستخدمونها لجرّ عرباتهم في منطقة الشمال المتجمّد حيث كانوا. استطاعت الأرواح التأثير على الكلاب كي تنقضّ على أصحابها. كما أنّهم دفعوا أسراباً كثيفة من الوطاويط القابعة في المغاور الصّخرية إلى أن تطير، وتحطّ فوقهم. عندما ربحت الكلاب والوطاويط، دبّ الذعر في قلوب النّاجين من الأعداء، فهربوا معتبرين أنّ المكان مسكونٌ بالأرواح الشريرة. انطلقت كلاب العدوّ في البراري،

وعادت أرواح كويلوت المحاربة إلى السفن لتستعيد أجسادها، ولتعود مع النساء والأولاد إلى المرفأ وتنعم بالانتصار.

حينئذٍ، أسرعت قبيلتا هوه وماكّا إلى توقيع اتفاقيّات الصداقة مع قبيلتنا خوفاً من التعرّض لأذى قدراتنا السحريّة. لذلك عشنا بسلام معهم. وكانت الأرواح المحاربة هي المُدافع، كلّما تعرّضت قبيلة كويلوت للغزو.

وبعد مرور أجيال، وفي زمن آخر الأرواح المحاربة طاها آكي، الذي عرف بحكمته وحبّه للسّلام، كان الناس يعيشون بمحبّة وطمأنينة لولا أطماع أحدهم، وكان اسمه أوتلابا».

سمِعتُ هسيس النّار الخافت فالتفتّ، لكنّ بيلي استمرّ في سرد الأسطورة:

«كان أوتلابا أحد أهمّ الأرواح المحاربة المساعدة لزعيم القبيلة طاها آكي. وكان رجلاً قويّاً لكنّه كان جشعاً. اعتقد أوتلابا أنّ من الممكن استخدام القدرات السحرية من أجل التوسّع والاستيلاء على ممتلكات قبيلتي هوه وماكّا.

وكان باستطاعة الأرواح المحاربة، عندما تتخلّى عن أجسادها، قراءة أفكار بعضها. وهكذا عرف طاها آكي ما يجول في خاطر أوتلابا فأغضبه ذلك. وتلقّى أوتلابا أمراً بالمغادرة وعدم استخدام روحه المحاربة بعد ذلك. لم يجرؤ أوتلابا على مقاومة ذلك القرار خوفاً من بقيّة المحاربين، فهرب إلى الغابات يتربّص الفرصة المناسبة للانتقام.

لم يهمل طاها آكي حماية قومه حتّى في أوقات السّلم. فكان يذهب في بعض الأحيان إلى مكان سرّي في الجبل، ويترك جسده، ويحوم فوق الغابات والبراري ليتأكّد من عدم وجود أيّ أخطار تتهدّد قبيلته.

وذات مرّة، عندما انطلق طاها آكي في مهمّته تلك، تبعه أوتلابا.

في البداية، كان ينوي قتل الزعيم، لكنّه كان يعلم أنّ بقيّة المحاربين سوف يلاحقونه لو فعل ذلك. وفيما كان مختبئاً وراء صخرةٍ، يراقب طاها آكي، خطرت له خطّة جديدة.

ترك طاها آكي جسده وانطلق لمراقبة أمن عشيرته. ولكنّه علم في الحال، وفي اللّحظة التي دخل فيها اوتلابا إلى المكان السرّي، وتخلّى عن جسده، ما كان ينوي هذا الأخير فعله.

فعاد بسرعةٍ قصوى إلى المكان، ولكنّ اتّجاه الرّيح كان معاكساً، ما تسبّب في تأخّره. عند عودته، كان جسده قد اختفى، وكان جسد أوتلابا مشلوحاً هناك. لكنّ السّارق كان قد تنبّه من خطر أن يستعيض الزعيم بجسده هو، بشكلٍ مؤقّت، فانقضّ عليه وقطّع رأسه بيدي طاها آكي.

لحقت روح الزعيم بالسّارق وهي تنادي وتصرخ. لكنّ المجرم تجاهلها، ومضى في مخطّطه.

راقب طاها آكي أوتلابا ينتحل شخصيته ويتسلّم زعامة القبيلة، متعمّداً عدم القيام بأيّ خطوة جديدة في البداية كي لا يشكّ أحداً بمصداقيّته. ولكنّه، وبعد مرور بضعة أسابيع، أصدر أمراً يقضي بمنع المحاربين خلعَ أجسادهم والتواجد كأرواح، مدّعياً أنّه شاهد رؤيةً تنذر بالشؤم على القبيلة. لكنّ أوتلابا كان في الحقيقة خائفاً، لعلمه أن طاها آكي ينتظر أوّل فرصة لقاء ببقيّة الأرواح، كي يخبرهم بما جرى. وحتّى أوتلابا ذاته، بات غير قادرٍ على خلع جسد طاها آكي ولو للحظة واحدة، خوفاً من أن يسترجع الزعيم جسده على الفور. وهكذا أصبحت أحلامه التوسّعية، التي تعتمد على الأرواح المحاربة كي تتحقّق، مستحيلة. عندئذٍ اكتفى لإشباع أطماعه بممارسة السلطة على قومه. لكنّ حكمه اختلف عن حكم طاها آكي، إذ أخذ يعطي لنفسه كثيراً من الامتيازات، ويترفّع عن العمل إلى جانب المحاربين. ثمّ اتّخذ لنفسه زوجة ثانية شابّة، وبعدها ثالثة، برغم أنّ زوجة طاها آكي كانت لا تزال

حيّة، وتعدّد الزوجات كان أمراً غير مألوفٍ في القبيلة. وكان طاها آكي يراقب بسخطٍ وعجز.

عندما ضاق ذرع طاها آكي بممارسات أوتلابا الفظيعة، قرّر قتله كي يخلّص القبيلة. فأتى بذئبٍ مفترس من الجبال، لكنّ اوتلابا اختبأ وراء المحاربين. عندما قتل الذئب أحد المحاربين الشباب، شعر طاها آكي بحزنٍ شديد، وأمر الذئب بالتراجع.

تفيدنا جميع القصص أنّ حالة الرّوح خارج الجسد هي حالة مخيفة، وليست مريحة كما قد نعتقد. لذلك كانوا لا يخرجون من أجسادهم إلاّ عند الحاجة الضرورية. وكانت رحلات الزعيم الانفرادية من أجل مراقبة أمن القبيلة، تضحية كبيرة، لأنّ التنقّل من دون جسد كان مربكاً ومتعباً، وحتّى مرعباً. لذلك شعر طاها آكي، بعد انقضاء تلك الفترة الطويلة على وجوده خارج جسده بالتعب الشديد، وكان يتمنّى لو يموت ليذهب إلى لقاء أجداده في الدّار الآخرة. لكنّ وجوده كروح تائهة في فضاء العدم كان يمنعه من الموت، ومن ملاقاة أجداده.

بقي الذئب يرافق تحرّكات طاها آكي الحائرة في فضاء الغابات. وكان ذلك الحيوان ضخماً بالنسبة لبني جنسه وجميلاً. نظر طاها آكي إليه يوماً بعينٍ حاسدة، وقال في نفسه: إنّه على الأقلّ يملك جسداً، ويعيش بشكلٍ طبيعي. والحياة في جسد حيوان هي أفضل من البقاء في الفراغ.

وفي ذات يومٍ راودت طاها آكي فكرةٌ كانت السبب في تغيير مصيرنا جميعاً. طلب الزعيم من الذئب الضخم أن يفسح له مكاناً في جسده. وافق الذئب ودخل طاها آكي في جسده، فشعر بالرّاحة والطمأنينة. كان الوجود في جسد حيوان أفضل بالنسبة إليه من الضياع في العدم.

عاد الذئب والرّجل إلى المرفأ في جسدٍ واحد. ذعر الأهالي لدى رؤية الذئب، وصرخوا في طلب النجدة من المحاربين الذين أسرعوا بحرابهم للتصدّي، ولكنّ أوتلابا بقي مختبئاً كعادته.

لم يهاجم طاها آكي قومه، بل أخذ يتراجع ببطء محاولاً التواصل معهم بعينيه. وأخذ يصدر، بقدر ما استطاع، نغمات ترانيمهم التقليديّة. لاحظ المحاربون أنّ ذلك الذئب كان مختلفاً عن غيره من الذئاب، وبدا لهم أنّه يتحرّك تحت تأثير إحدى الأرواح. فقرّر محاربٌ مسنّ يدعى يوت عدم الالتزام بالأوامر والتواصل مع الذئب.

انتقل يوت على الفور إلى حالة الرّوح، وترك طاها آكي جسد الذئب كي يتكلّم معه. فهم يوت القصّة، ورحب بعودة زعيمه الحقيقي.

في هذا الوقت جاء أوتلابا ليرى ما حلّ بالذئب، فوجد جسد يوت ممدّداً على الأرض ومحاطاً بحرّاس محاربين. استوعب على الفور ما جرى، وأخذ سكينه وهاجم جسد يوت قبل عودة الرّوح إليه.

وصرخ: «الخائن!»، ولم يعرف المحاربون ماذا يفعلون أمام ثورة غضب زعيمهم الذي اعتبر أنّ يوت خان أوامره عندما ترك جسده.

عاد يوت بسرعة إلى جسده، لكنّ أوتلابا كان قد وضع السكين على رقبته، ويده على فمه. كان جسد أوتلابا قويّاً، وجسد يوت ضعيفاً بفعل تقدّمه بالسنّ، فلم يستطع العجوز إبداء أيّ مقاومة ولا التفوّه بأي كلمة، لأنّ أوتلابا سارع إلى قطع رأسه وإسكاته إلى الأبد.

راقب طاها آكي روح يوت وهي تنتقل إلى الدّار الآخرة، المكان المحظور عليه إلى الأبد. وشعر بغضبٍ شديدٍ جدّاً لم يشعر بمثله في حياته. وعاد إلى جسد الذئب من جديد، مصمّماً الانقضاض على اوتلابا في أقرب فرصة. وفيما كان يدخل جسد الذئب، تحقّق الأمر السحري العجيب.

كان غضب طاها آكي غضبَ إنسان. وكان حبّه لعشيرته وكراهيته للظّالم أكبر من أن يستوعبه جسد الذئب. كانت تلك العواطف إنسانية بحتة، لذلك، وأمام أعين المحاربين وأوتلابا، ارتعد الذئب فجأةً وتحوّل إلى إنسان بهيّ الطلعة.

لم يشبه الرّجل الجديد جسد طاها آكي، بل كان أكثر روعةً. إنّه الجسد الذي يمثّل روح طاها آكي الجميلة. تعرّف رفاقه المحاربون إليه بسهولة، لأنّهم كانوا يطيرون معه كأرواح في السابق.

حاول أوتلابا الفرار، لكنّ الزعيم، وبجسده الذي يتمتّع بقوّة الذئب، كان أسرع منه، فانقضّ عليه، ووضع حدّاً لحياته.

فرح الناس عندما علموا بما حصل. وأعاد طاها آكي الأمور إلى ما كانت عليه في السابق. وأعاد الزوجات الشابّات إلى عائلاتهن. لكنّه أبقى على أمر منع الأرواح من مغادرة الأجساد، خوفاً من أن تتكرّر عمليّات السرقة. وبهذا انتهى عهد الأرواح المحاربة.

منذ ذلك الحين، لم تعد روح طاها آكي تنتقل لتأخذ مكاناً إلى جانب روح الذئب بل توحّدت معها. فكان يُطلق عليه لقب الذئب العظيم، أو الرّجل الرّوح. حكم القبيلة خلال أزمنة طويلة لأنّه لم يتقدّم في السنّ. وعندما يتعرّض قومه للخطر، كان يعود إلى حالة الذئب ليقاتل المعتدين، أو ليرمي الرّعب في قلوبهم. عاش الناس بسلام، وأصبح لطاها آكي عددٌ كبيرٌ من الأولاد الذكور. ثمّ اكتشف الأولاد أنّهم، عندما يبلغون سنّ النّضج، يصبح بإمكانهم أيضاً التحوّل إلى ذئاب. وكانت تلك الذئاب مختلفة عن الذئاب العاديّة لأنّها كانت تعكس الأرواح الانسانيّة التي في داخلها».

تمتم كويل وهو يضحك بصوتٍ منخفض: «الآن علمت لمَ لون سام أسود، فالقلب الأسود ينعكس في فروة سوداء!».

كنت مستغرقة في القصّة إلى درجة أنّ الرّجوع إلى الواقع أجفلني. واعترتني الرّهبة عندما نظرت إلى وجوه من كانوا حولي، وفكّرت أنّهم أحفاد الجدّ القديم طاها آكي.

أرسلت النّار شرارات جديدة تراقصت أمام أعيننا بأشكال عجيبة.

«وماذا يعني لون فروتك الشبيه بلون الشوكولاتة؟ هل يعني أنّك شديد الحلاوة؟»، سأله سام بصوتٍ خفيض أيضاً.

تجاهل بيلي حوارهما السّاخر. وأكمل كلامه.

بعض أولاد طاها آكي أصبحوا محاربين، وتوقفوا عن التقدّم في السنّ. ولكنّ بعضهم الآخر رفض فكرة التحوّل إلى رجال ذئاب، فتقدّموا في السنّ. لكنّ القبيلة اكتشفت في ما بعد، أنّه يمكن للرّجال الذئاب أن يشيخوا مثل باقي الناس، عندما يتنازلون عن روح الذئب التي في داخلهم. عاش طاها آكي ثلاثة أضعاف عمر الرّجل العاديّ، وتزوّج بثلاث نساء. بعد وفاة زوجته الثانية، تزوّج بالثالثة، ولكنّه اكتشف أنّها كانت زوجة روحه الحقيقيّة. لقد أحبّ زوجتيه السابقتين لكنّ حبّه للثالثة كان مختلفاً. فقرّر أن يتخلّى عن روح الذئب كي يموت هو أيضاً، عندما تموت.

وهكذا أخبرتكم كيف وصلت إلينا هذه القدرة السحرية، لكنّ القصّة لم تنته بعد...».

نظر بيلي إلى الجدّ كويل آتيارا، الذي أَجلس ظهره وشدّ كتفيه النحيلين إلى الوراء.

«كانت تلك قصّة الأرواح المحاربة». قال الجدّ كويل بصوتٍ رفيع وعالي النبرة، «والآن سأخبركم عن تضحية الزوجة الثالثة».

بعد انقضاء سنوات عدة على تخلّي طاها آكي عن روح الذئب، وكان قد شاخ، توتّرت العلاقة مع قبيلة ماكّا في الشمال. وكان سبب التوتّر اختفاء عددٍ من نساء قبيلة ماكّا الشّابات. ألقت القبيلة اللّوم في ذلك على الذئاب الضخمة التي كانت تتجوّل في الغابات المجاورة. وكان الرّجال الذئاب يتمتّعون بالقدرة على قراءة أفكار بعضهم، وهم في حالة الذئاب، مثلما كان أجدادهم في حالة الأرواح المحاربة، فتيقّنوا أنّ لا أحد منهم كان مسؤولاً عمّا حدث. حاول طاها آكي تهدئة زعيم قبيلة

ماكّا، لكنّه لم ينجح. ولأنه كان يرفض أن يجرّ قبيلته لخوض الحرب ضدّ الجيران، فقد استدعى ابنه الأكبر الرجل الذئب طاها وي، وطلب منه العمل على كشف المذنب الحقيقي، قبل أن يشتدّ العداء بين القبيلتين.

انطلق طاها وي مع خمسة رجالٍ ذئاب إلى الجبال للتفتيش عن دلائل بشأن ضحايا قبيلة ماكا. فوجئوا في الغابة برائحة عطريّة غريبة، وقويّة إلى حدّ أنّهم شعروا بالألم لدى تنشّقها».

شعرت ببعض الخوف، واقتربت أكثر من جايكوب، فلفّ ذراعه حولي، وهو يقاوم ابتسامةً كانت ترتسم بقوةٍ على وجهه.

«لم يصادفوا في السابق أيّاً من المخلوقات التي ينبعث منها هذا العطر، فقرّروا أن يتبعوا الرّائحة». لم يحمل صوت الجدّ كويل المتهدّج نبرة العظمة التي اتّسم بها صوت بيلي، لكنّه استطاع أن يخلق جوّاً من الرّهبة والترقّب، فكنت أشعر بنبضات قلبي تتسارع كلّما أسرع في كلامه». وفي الدّرب، لاحظوا رائحة آدميين خفيفة، وآثار دماء، فعلموا أنّهم في الطريق الصحيح نحو اكتشاف العدوّ الذي يبحثون عنه.

لكنّ طاها وي وجد أنّ الدّرب ما زال طويلاً باتجاه الشمال، فطلب من رفاقه الأصغر سنّاً العودة إلى المرفأ، وإحاطة والده علماً بتطوّر البحث. وأكمل هو واثنان من أخويه الطريق.

طاها وي وأخواه لم يعودا أبداً.

فتّش الأخوة الأصغر سنّاً عنهم، ولكن من دون جدوى. فأعلن طاها آكي العجوز الحداد على أولاده وتألّم لعدم قدرته على الانتقام. ثمّ قام بزيارة زعيم قبيلة ماكّا مرتدياً ثياب الحداد، وأخبره بما حدث. تأسّف الزعيم لحزن طاها آكي وصدّق أقواله، وعادت العلاقات الودّية بين القبيلتين.

وبعد مرور عام، اختفت فتاتان من قبيلة ماكّا، في ليلةٍ واحدة. طلبت القبيلة مساعدة أصدقائها ذئاب كويلوت على الفور، فذهبوا ووجدوا الرائحة ذاتها في كلّ أرجاء القرية. فانطلق الذئاب إلى الغابات في محاولةٍ أخرى لاكتشاف الخاطفين.

لم يعد من المجموعة سوى ياها أوطا، أصغر الرّجال الذئاب سنّاً، وكان الابن الأكبر لزوجة طاها آكي الثالثة. حمل معه شيئاً لم تره القبيلة من قبل، وكان عبارة عن أشلاء جثة غريبة الشكل، شديدة البرودة، وقاسية كالصّخر. وكانت تنبعث منها رائحة نتنة وقويّة أزعجت كلّ أبناء وأحفاد طاها آكي، وحتّى غيرَ الذئاب بينهم. وكانت تلك جثّة المعتدي على قبيلة ماكّا.

قصّ ياها أوتا ماذا حصل: «وجد هو وأخوته هذا المخلوق الذي كان له مظهر إنسان، لكنّه كان قاسياً كأنّه صخر. وكانت الفتاتان المخطوفتان معه. واحدة منهما كانت جثّةً هامدة على الأرض. والثانية كانت لا تزال بين يديه، وكان فمه على عنقها. وقال: (ربّما كانت لا تزال حيّة عندما وصلنا، لكنّه سرعان ما كسر عنقها ورماها كخرقة بالية من دون حياة. كانت شفاهه البيضاء مصبوغةً بدمائها، وعيناه حمراء قانية).

وصف ياها أوطا شراسة المخلوق الغريب وقوّته الجسدية. لم يقدّروا في البداية مقدار تلك القوّة بشكلٍ صحيح، لذلك تغلّب المخلوق على الأخ الذي هاجم أوّلاً، وقتله في الحال. لكنّه وأخاه الآخر تنبّها للأمر، فهاجما المخلوق من جانبيه، وأربكاه. كان عليهما اللّجوء إلى أقصى درجات قوتّهما وسرعتهما، لكنّ المخلوق كان بارداً كالجليد وقاسياً كالصخر، ولم يكن هناك سبيلٌ لدحره سوى نتش أجزائه بأنيابهما.

لكنّ المخلوق فهم للتّو طريقتهما في القتال، فأخذ يداور ويتصدّى لهجومهما بهجومٍ معاكس. فوضع يديه على أخ ياها أوطا. عندئذٍ،

اقتنص ياها أوطا الفرصة للهجوم على عنق المخلوق، فانقضّ عليه ومزّقه بأنيابه، ففصل الرّأس عن الجسد، لكنّ يدي المخلوق استمرّت متمسّكةً بأخيه.

أخذ ياها أوطا ينتش أجزاء من المخلوق من جميع الجوانب، كيّ يعطّل قدرته على قتل أخيه، لكنّه لم يتوصّل إلى إنهاء مهمّته في الوقت المناسب، فمات أخوه. ثمّ أكمل هو عمليّة التمزيق حتى تمكّن من القضاء على ذلك المخلوق قضاءً كاملاً. أو أنّه ظنّ ذلك. . . ، عندما ألقى ياها أوطا الأشلاء على الأرض كي يتفحّصها كبار القبيلة، كانت اليد والذراع متقاربتين. قام أحد الكبار بنخزها بعودٍ، فلامست اليد الذراع قليلاً، ولوحظ على الفور أنّ حركةً معيّنة صدرت عن الأشلاء في محاولة للالتحام معاً واستعادة الحياة.

ذُعر الجميع أمام ذلك المشهد، وأسرع الكبار إلى حرق الأشلاء، فصدرت عن احتراقها غيمة كثيفة من الدخان الخانق والروائح المؤذية. وعندما لم يتبقّ من الجثّة سوى الرّماد. فرّقوا ذلك في أكياس عديدة، ورموها في أماكن منفصلة وبعيدة جدّاً، بعضها في الغابة، وبعضها الآخر في البحر، أو في مغاور الصّخور. واحتفظ طاها آكي بكيسٍ ربطه بخيطٍ حول رقبته، كي يظلّ متنبهاً إلى أيّ حركة تنذر بمحاولة المخلوق استجماع أجزائه من جديد».

توقّف الجدّ كويل عن السّرد ونظر إلى بيلي، فأخرج هذا الأخير من تحت سترته خيطاً جلديّاً عُلّق به كيسٌ بدا أنّه قديمٌ جدّاً. سمعت بعض الأفراد يلهثون، وأظنّ أنّي كنت واحدة منهم.

«أطلقوا على المخلوق الغريب لقب المخلوق البارد أو لقب مصّاص الدماء، وخيّمت عليهم مشاعر الرّعب من خطر وجود آخرين مثله، إذ لم يكن قد تبقّى من الرّجال الذئاب حاميًا للقبيلة، سوى الشاب ياها أوطا.

لم ينتظروا طويلاً، فقد ظهر لذلك المخلوق زوجة، سرعان ما جاءت إلى القبيلة كي تأخذ بثأر زوجها.

تقول القصص إنّ المرأة الباردة كانت أجمل مخلوقٍ قد تقع عليه عينا إنسان. فقد ظهرت وكأنّها إلـٰهة الفجر، عندما دخلت إلى القرية في ذلك الصّباح. كانت الشمس قد أشرقت، فانعكس شعاعها على بشرة تلك المرأة البيضاء، فزاد في تألّقها، وعلى خصلات شعرها الذهبي الطويل حتى الركبتين، فأضاف إلى ضيائه ضياءً. كان وجهها ساحراً، تزيّنه عينان سوداوان جميلتان. قيل إنّ بعضهم ركع على ركبتيه لدى رؤيتها.

وطرحت سؤالاً بصوتٍ عالٍ، وبلغةٍ لم يسمعها أحد من قبل. لم يدرك أحدٌ ممّن سمعها قصدها لأوّل وهلةٍ، ووقفوا مشدوهين بجمالها. لم يكن بين الحاضرين أيّ من أبناء أو أحفاد طاها آكي، سوى طفلٍ صغير تعلّق بأمّه وصرخ لشدّة انزعاجه من الرّائحة القويّة. كان أحد الكبار مارّاً، فسمع صراخ الطّفل، واقترب، فأدرك للتوّ من كانت الزائرة الغريبة، فصرخ في الجماعة كي يتفرّقوا ويهربوا، لكنّها سرعان ما قتلته.

قضت المرأة الباردة على معظم الرّجال والنساء الذين شاهدتهم لدى دخولها إلى القرية، ولم تترك منهم سوى اثنين أحياء؛ أرادت امتصاص دماء من قتلتهم أوّلاً، قبل الانقضاض على من تبقّى. فهرب الاثنان ليحملا الخبر المرعب إلى طاها آكي الذي كان مجتمعاً مع كبار القبيلة، وكانت معهم زوجته الثالثة وأبناؤه.

ياها أوطا تغيّر إلى ذئب في اللّحظة التي سمع فيها الخبر، وانطلق لمهاجمة مصّاصة الدّماء منفرداً. لكن سرعان ما تبعه طاها آكي وزوجته الثالثة وأبناؤه وكبار القبيلة.

وصلوا إلى المكان ولم يكن هناك سوى جثث في كلّ اتجاه. ثمّ سمعوا صراخاً آتياً من المرفأ، فهرعوا إلى هناك.

كانت حفنةٌ من الأهالي قد هربت إلى السفن، وكانت مصّاصة الدماء قد لحقت بهم وسبحت في البحر وكأنّها سمكة قرش، وكسرت بقبضتها القويّة قوس القارب فأغرقته. وعندما حاول بعض الناس النجاة من الغرق، تبعتهم في عرض البحر وقضت عليهم أيضاً.

عندئذٍ، لمحت المرأة الباردة الذئبَ الضّخم يتربّص بها من مكانه على الشاطئ، فعادت أدراجها بسرعةٍ هائلة، وانتصبت ترمق ياها أوطا بعينيها، وصوّبت نحوه إصبعها، ثمّ طرحت عليه سؤالاً غير مفهوم.

كان العراك قاسياً. صحيحٌ أنّها لم تكن بمثل قوّة زوجها، لكنّ ياها أوطا كان يصارع منفرداً، ولم يكن في المعركة إلى جانبه من يقوم بإرباكها، من أجل تحويل تركيزها عن القتال.

خسر ياها أوطا ولاقى حتفه، فصرخ والده العجوز طاها آكي بغضبٍ شديد، وتحوّل للتوّ إلى ذئبٍ وقفز على المخلوقة الغريبة. كان الوالد عجوزاً، لكنّه حارب بروح طاها آكي الغاضبة والقويّة.

شاهدت الزوجة الثالثة ولدها يموت أمام عينيها، والآن ترى زوجها يتعرّض لخطر الموت الأكيد. فتذكّرت كلّ ما قاله أبناء القبيلة أمام مجلس الكبار عن تلك المرأة، وما فعلت. وتذكّرت ما قاله ابنها ياها أوطا، عندما انتصر في أوّل مرّةٍ؛ فلولا انشغال المخلوق البارد بأخيه، لما تمكّن هو من قتله.

نظرت الزوجة الثالثة إلى أبنائها الذين وقفوا إلى جانبها، وكانوا يافعين، ولا يحتملون الحياة من دون أبيهم. مدّت يدها والتقطت خنجراً من حزام أحدهم، وركضت إلى المرأة الباردة، والخنجر عالياً في يدها. نظرت الباردة إليها بابتسام، ولم يصرفها مشهد تلك المرأة الضعيفة، والخنجر الذي لا يخدش جلدها، عن مقاتلة الذئب العجوز، خصوصاً أنّها كانت على وشك القضاء عليه.

وفجأةً قامت الزوجة الثالثة بعملٍ لم تنتظره المرأة الباردة، عندما

ركعت على ركبتيها أمام مصّاصة الدّماء، وأغرزت الخنجر في قلبها. فانفجر الدّم مثل الينبوع وغطّى صدرها، وتناثرت قطراته على المرأة الباردة. لم تستطع هذه الأخيرة مقاومة منظر الدّماء الطازجة المندفعة من جسد المرأة الشابّة. فاستجابت لغريزتها واستدارت تلقائيّاً كي تطفئ عطشها.

في هذه اللّحظة أطبق طاها آكي أنيابه على عنقها.

لكن لم تنتهِ المعركة عند هذا الحدّ، ولم يبقَ العجوز وحيداً في السّاحة، فقد تحوّل اثنان من أبنائه غير البالغين إلى ذئابٍ، بسبب شدّة غضبهم لمصرع أمّهم.

ونجح الذئبان اليافعان في مساعدة والدهما، وقضوا معاً على المرأة الباردة.

لم يعش طاها آكي مع القبيلة مطلقاً بعد ذلك، ولم يستعد شكله الانساني قط؛ فتمدّد خلال يومٍ كاملٍ إلى جانب جسد زوجته الثالثة، وكان يهدر بصوته كلّما حاول أحَدٌ لمسها؛ ثمّ ذهب إلى الغابة ولم يعد.

لم تتعرّض القبيلة إلى مواجهة المخلوقات الباردة إلاّ نادراً بعد ذلك الوقت. والتزم أبناء طاها آكي مسؤولية حماية القبيلة إلى أن كبر أولادهم، وحلّوا مكانهم. لم تكن القبيلة بحاجة إلى أكثر من ثلاثة ذئاب معاً، إذ لم يأتِ مصّاصو الدماء إلى هذه المناطق إلاّ نادراً. وفي حال مرورهم، كانت الذئاب تفاجئهم وتنقضّ عليهم. قد يقتل ذئبٌ في المعركة في بعض الأحيان، ولكن لم تتعرّض القبيلة إلى الهلاك الجماعي كما حدث في السابق. لقد تعلّموا كيفيّة محاربة المخلوقات الباردة، وكانوا يتناقلون هذه المعرفة، من فكر ذئبٍ إلى فكر ذئبٍ آخر، ومن روحٍ إلى روح، ومن الآباء إلى الأبناء.

مرّت الأيّام، وتوقّفت سلالة طاها آكي عن التغيّر إلى رجالٍ ذئاب عند سنّ البلوغ، إلاّ إذا حدث واستقرّت مخلوقات باردة في أمكنة

قريبة، عندئذٍ يعود الذئاب إلى الظهور. كانت تأتي تلك المخلوقات أفراداً ومثنىً، لذا انتفت الحاجة إلى وجود عددٍ كبيرٍ من الذئاب.

بعد انقضاء حقبة من الزمن، جاءت جماعةٌ كبيرة منهم واستقرّت في الجوار، فاستعدّ أجدادكم لمحاربتهم. لكنّ قائدهم تكلّم مع إفرايم بلاك، ووعد بعدم إلحاق الأذى بأفراد القبيلة. وكانت عيونه الصفراء الغريبة، بمثابة برهان على أنّهم مختلفون عن مصّاصي الدّماء ذوي العيون الحمراء. وكذلك، فإنّ عددهم الذي يفوق عدد الذئاب، كان دليلاً على أنّهم كانوا يطلبون السلام ليس خوفاً، بل محبّةً بالسلام.

وافق إفرايم، وحافظوا هؤلاء على وعدهم، ولكنّ وجودهم ساهم في تشجيع عددٍ أكبر منهم على المجيء إلى هذه المنطقة.

وكان تضاعف عددهم سبباً في بلوغ عدد الذئاب رقماً لم تشهده القبيلة، إلاّ في أيّام طاها آكي». وجالت عيناه السوداوان بين الوجوه، وشعرت أنّهما تركّزتا على وجهي. وتابع: «الآن، يتحمّل أبناء قبيلتنا الشباب قدَرَ أجدادهم الصّعب، ويشاركون في تقديم التضحيات من أجل حماية قبيلة كويلوت».

بقي الجميع صامتين خلال دقائق، وتبادل أحفاد أبطال الأسطورة السحرية جميعهم نظرات يتخلّلها الحزن، إلاّ كويل، الذي قال بصوتٍ منخفض: «قدرٌ صعب! لكن أظنّ أنّ الأمر مسلٍّ، ومثير للغاية».

ومن الجهة المقابلة، هزّ سيث كليرووتر رأسه بالموافقة، وفي عينيه نظرات إعجاب كبير بروح الأخوّة السائدة بين حماة القبيلة.

ضحك بيلي طويلاً بصوتٍ خفيض، وانحسر السحر واستقرّ في جذوة الجمر المتوهّج. وعادت الأجواء فجأةً إلى طبيعتها. وما لبث أن ضحك الجميع، عندما قام غارد برمي حصىً صغيرة نحو كويل، جعلته يقفز من مكانه مجفّلاً. ودارت بعض الأحاديث المرحة والعاديّة.

لم ترفع لِيا كليرووتر عينيها، لكنّي لاحظت دمعةً لمعت فوق خدّها

سرعان ما مسحتها. ولم نتبادل أنا وجايكوب الكلام. كان يجلس ساكناً، وأنفاسه عميقة ومنتظمة، فظننته نائماً.

كانت أفكاري ترحل إلى أزمانٍ بعيدة. لم أفكّر في ياها أوطا، ولا الذئاب الأخرى. ولم أحاول أن أتخيّل صورة المرأة الباردة الجميلة. لكنّي، خارج عالم الأرواح السحرية، كنت أحاول أن أتصوّر وجه تلك المرأة المجهولة الاسم، التي أنقذت حياة القبيلة كلّها...، الزوجة الثالثة.

إنّها انسانة عاديّة، لا تملك سحراً ولا قوّة خارقة. كانت من الناحية الجسديَّة، أضعف من كل الأبطال والوحوش في القصّة، لكنّ الحلّ كان بيدها. لقد أنقذت أبناءها اليافعين، وزوجها والقبيلة.

تمنّيت لو تذكّروا اسمها...

ثمّ شعرت بشيءٍ يهزّ ذراعي.

«بيلاّ!»، همس جايكوب في أذني. «نحن هنا».

فتحت عينيّ، وشعرت ببعض الضياع. لم أجد النار أمامي. حاولت الانتباه إلى ما حولي، فعرفت أنّنا لم نعد جالسين فوق الصّخرة، كنّا أنا وجايكوب وحدنا.

تساءلت في نفسي: «لمَ أنا في سيّارة جايكوب!؟».

«يا إلهي، كنت نائمة... كم السّاعة الآن؟ أين الهاتف؟». وتحسّست كالمجنونة جيوب سترتي مفتّشةً عنه، فلم أجده.

«لا تقلقي، ما زلنا قبل منتصف اللّيل، لقد قمت بالاتصال عنكِ. أنظري، إنّه ينتظرك هناك».

«منتصف اللّيل؟». ردّدت ببلاهة. ونظرت في الظلمة فتسارعت ضربات قلبي لدى رؤية سيّارة الفولفو المتوقّفة على بعد عشرين متراً تقريباً. مددت يدي لأفتح الباب، فقال جايكوب: «لا تنسي! أمسكي...»، ووضع الهاتف الخلوي في يدي الأخرى.

«لقد اتّصلتَ بإدوارد؟!».

أجابني، ولاحظت بريق ابتسامته في العتمة: «تصوّرت أنّي لو تصرّفت بلباقة، ستتاح لي فرص أكثر لرؤيتك».

«شكراً يا جايك، شكراً لدعوتك اللّيلة. في الحقيقة. . .». وشعرت بالعجز عن إيجاد التعبير المناسب. «واو! بالفعل، لقد كانت سهرة مميّزة».

ضحك وقال: «سرّني أنّ تكوني قد استمتعتِ بالسهرة. وجودك معي كان مهمّاً بالنسبة لي».

لاحظنا أنّ إدوارد كان يسير في محاذاة سيّارته ذهاباً وإياباً. قال جايك: «يبدو أنّ صبره قد نفد. إذهبي، ولا تتأخري عن العودة».

ودّعته قائلة: «بالطّبع يا جايك». وفتحت باب السيّارة.

«إذهبي للنّوم يا بيلاّ ولا تقلقي. سأتولّى مراقبة سلامتك اللّيلة». فقلت: «لا يا جايك، نم أنتَ واسترح، سأكون بخير».

قال: «بالتأكيد، بالتأكيد». لكنّه بدا مصرّاً على قراره.

«ليلة سعيدة يا جايك!».

«ليلة سعيدة يا بيلاّ!».

انطلقت في الظلمة متّجهةً نحو إدوارد.

لاقاني إدوارد عند الخطّ الفاصل، وأخذني بين ذراعيه.

قلت: «مساء الخير يا إدوارد، وأعتذر لأنّي تأخّرت. لقد غلبني النعاس، و. . .».

«أعرف. لقد قال لي جايكوب ذلك». ومشينا نحو السيّارة.

«هل أنت متعبة؟ يمكنني حملك».

«كلاّ، أنا مرتاحة».

«فلنذهب إلى البيت حالاً كي تنامي. هل أمضيت وقتاً ممتعاً؟».

«بلى، كانت سهرة ممتعة جدّاً، ليتك كنت معنا. لقد سرد والد جايكوب على مسامع الحاضرين أساطير قديمة. . .، وسحرية».

«ستخبريني عنها، بعد أن تستيقظي من نومك».

«لن أتمكّن من سرد كلّ التفاصيل». وتثاءبت بقوّة.

ضحك إدوارد قليلاً وفتح باب السيّارة، ثم حملني إلى المقعد وأقفل حزام الأمان حولي.

لم أذهب في تلك اللّيلة إلى النّوم مباشرةً، بل فتحت نافذة غرفتي ورحت أنتظر عودة إدوارد. كان الجوّ بارداً، وذكّرني بفصل الشتاء. لكنّي لم أشعر ببرودة الطقس فوق الصخرة العالية، ولا شكّ أن النّار لم تكن مصدر الدفء الذي شعرتُ به هناك، بقدر ما كان جسد جايكوب مصدره.

بلّلت بعض قطرات المطر الباردة وجهي، وكانت الظلمة حالكة لا تسمح برؤية أيّ شيء سوى محيط أشجار السّرو التي كانت تميل وتهتزّ بفعل الأرياح العاصفة. حاولت رؤية شيء آخر. . .، شخص يتحرك كالشبح في العتمة، أو ربّما. . . ظلّ ذئبٍ ضخمٍ يمشي، لكنّ عينيّ المتعبتين لم تقويا على التحديق أكثر.

وفجأةً، شعرت بحركةٍ تقترب منّي. تسلّل إدوارد من الشباك، وكانت يداه أشدّ برودةً من المطر.

سألته وأنا أرتجف من البرد: «هل رأيت جايكوب في الخارج؟».

أخذني بين ذراعيه، وقال: «نعم، في مكانٍ ما، وإيزمي هي الآن في طريقها للمغادرة».

«الطقس باردٌ وممطر. لا شكّ أنّهما متضايقان».

ضحك قليلاً وقال: «الطقس ليس بارداً إلاّ بالنسبة إليكِ يا بيلاّ».

نمت على صدر إدوارد، وحلمت أنّي في الخارج، والرّيح الباردة

تعصف بشعري، وتضرب به على وجهي، فتمنع عنّي الرؤية. كنت واقفة في الظلمة على الشاطئ، أنظر إلى أشكالٍ غامضة كانت تتحرّك بسرعة فوق المياه. في البدء، لم يكن هناك سوى أشباح بيضاء وسوداء تنطلق كالرّماح في اتجاه بعضها، ثمّ تبتعد. وفجأةً، انقشع الظلام، واتّضح المشهد.

كانت روزالي، بشعرها الأشقر المبلّل والطويل حتى ركبتيها، تهاجم ذئباً ضخماً، خطّ أنفه وفكّيه الشّيب، وعرفت على الفور أنّ ذلك الذئب كان بيلي بلاك.

حاولت الهرب، لكنّي شعرت بثقلٍ في ساقيّ. فحاولت أن أصرخ وأطلب منهما أن يتوقّفا عن مهاجمة بعضهما، لكنّ الرّيح خطفت صوتي، فعجزت عن التفوّه بأي كلمة. وعندما لوّحت بذراعيّ في محاولة للفت انتباههما، لاحظت أنّي كنت أمسك بيدي اليمنى سيفاً طويلاً لونه فضّي، ترك عليه الدّم بقع سوداء جافّة.

رميت السيف من يدي، وفتحت عينيّ مذعورةً، لأرى أنّي كنت في غرفتي، وإدوارد لا يزال إلى جانبي. أدرتُ رأسي ودفنته في صدره، كي يهدئ العطر المنبعث من جلده رَوْعي، ويبعد الكوابيس عنّي.

«هل أيقظتك؟»، سألني همساً، وسمعت صوت تقليب صفحات كتاب، وضجّة خفيفة أحدثها وقوع شيءٍ خفيف على الأرض.

تنفّست الصعداء عندما شعرت بذراعيه تلتفّان بشدّة حولي، وتمتمت: «لا، لكنّي رأيت حلماً مزعجاً».

«هل تخبريني عنه؟».

«لا زلت مرهقة، ربّما أخبرك عنه في الصّباح... إن تذكّرته».

«حسناً، في الصّباح».

«ماذا كنت تقرأ؟»، سألته، وأنا بين النوم واليقظة.

«رواية مرتفعات وذرينغ».

تمتمت متعجّبة: «ظننتك لا تحبّ هذه الرواية».

أجاب بصوتٍ هادئ: «وجدت الكتاب إلى جانب السرير. إضافةً إلى أنّي، كلّما طالت معاشرتي للآدميّين، ازدادت قدرتي على فهم عواطفهم. أشعر أنّ باستطاعتي تفهّم سلوك هيثكليف الآن أكثر من السابق».

قال شيئاً آخر بصوتٍ منخفض، لكنّي كنت قد عدت للنّوم.

أفقتُ في اليوم التالي، كانت العاصفة قد هدأت، والضباب الفضّي يلفّ الأرجاء. سألني إدوارد عن الحلم الذي رأيته، لكنّي لم أستطع أن أتذكّر سوى أنّي كنت أشعر بالبرد، وفرحت لرؤيته بجانبي عندما فتحت عينيّ. قبّلني طويلاً حتّى تسارعت ضربات قلبي، ثمّ انصرف لتغيير ثيابه، والعودة بسيّارته.

ارتديت ثيابي بسرعة، وأنا أفكّر ماذا أخذ ذلك الزائر المجهول من أغراضي.

كنت على وشك الخروج من غرفتي، عندما رأيت نسختي البالية من كتاب مرتفعات وذرينغ مفتوحة على الصفحة التي كان إدوارد يقرأ فيها في اللّيل.

التقطتّ الكتاب بفضوليّة، محاولةً تذكّرَ ما قاله عن تعاطفه الجديد مع هيثكليف. لم أصدّق تحوّل رأيه المفاجئ حول تلك الشخصيّة، فتصوّرت أنّي سمعت ذلك القول في حلمي.

لفتت نظري تلك الفقرة من كلمات هيثكليف، فقرأتها من جديد.

> *وهنا ترين الفرق بين مشاعرنا: لو كان هو في مكاني وأنا في مكانه، برغم حقدي الشديد، لم أكن لأرفع يدي عليه. يمكنكِ أن تشكّي بكلامي قدر ما تشائين، لكنّي لم أكن لأبعده كلياً عن حياتها، ما دامت تصرّ على وجوده. وفي اللّحظة التي تتوقّف فيها عن الاهتمام به، قد أنزع قلبه من صدره وأشرب دمه.*

ولكن، وحتّى ذلك الحين... إن كنت لا تصدّقينني، فهذا يعني أنّك لا تعرفينني. حتّى ذلك الحين، قد أموت قبل أن ألمس شعرةً من رأسه.

لفتت نظري كلمتان: «أشرب دمه». فارتعدت خوفاً.

لا شكّ، أنّي كنت أحلم عندما سمعت إدوارد يقول شيئاً إيجابيّاً عن هيثكليف. وقد تكون صفحات الكتاب قد انقلبت تلقائيّاً، ولم يقرأ إدوارد هذه الصفحة بالتحديد.

12

الوقت

«شاهدت رؤيا جديدة!»، أعلنت آليس وهي تمشي إلى جانب إدوارد.

وخزها إدوارد بكوعه، فهربت منه.

وقالت لي بغمغمة: «حسناً، إنّي أفعل هذا بناءً على طلب إدوارد. لكنّه اتضح لي من خلال الرؤيا أنّ الأمور ستتعقّد لو فاجأتك بالأمر».

كنّا في طريقنا إلى السيّارة بعد انتهاء دوام المدرسة، ولم يكن لديّ أيّ فكرة عمّا كانت تتحدّث.

قلت: «تحدّثي بلغة مفهومة من فضلِك».

«حسناً، لكن لا تهلعي وتتصرّفي كالأطفال».

«كلامك الآن يسبّب لي الخوف».

«سوف نقيم حفلة بمناسبة تخرّجك... أعني تخرّجنا، لا شيء أكثر من حفلة عاديّة، لكنّي تصوّرت أنّكِ ستصابين بالرّعب لو جعلتها مفاجأة». قالت آليس ذلك، وقفزت بعيداً عن إدوارد الذي كان قد مدّ يده ليخرّب تسريحة شعرها. وتابعت: «أصرّ إدوارد عليّ أن أخبرك، وأؤكّد لكِ أنّها حفلة عاديّة».

زفرت نفساً طويلاً، وقلت: «هل هناك فائدة من النّقاش؟».

ردّت آليس على الفور: «كلاّ!».

«حسناً يا آليس، سآتي إلى الحفلة، لكنّي لن أكون سعيدة. صدّقيني».

«عظيم! آه، لقد تذكّرت... هديّتك لي رائعة، لمَ تكلّفتِ كلّ هذا العناء؟».

«آليس! لم أحضر أيّ هديّة».

«أعرف ذلك، لكنّكِ ستحضرين».

وعدت في الذاكرة للتوّ إلى الوراء، كي أتذكّر الهديّة التي قرّرتُ في لحظةٍ معيّنة أنّها تناسب آليس، فذلك على الأرجح ما شاهدته في الرّؤيا.

تمتم إدوارد: «عجيب! أن يسبّب أحدٌ بمثل هذا الحجم الصغير هذا القدر الكبير من الإزعاج!».

ضحكت آليس وقالت: «إنّها موهبة».

قلت بعصبيّة: «بدأت أشعر بالتوتّر، ليتك انتظرتِ اقتراب موعد التخرّج قبل أن تتكلّمي على هذا الأمر».

قطّبت آليس حاجبيها، وسألت بنبرة عتاب: «بيلاّ، هل نسيت أنّ اليوم هو الاثنين الرّابع من حزيران، ونسيتِ أيضاً أنّ التخرّج يصادف بعد أسبوعٍ واحدٍ من اليوم؟».

ثمّ أمسكت بذراعي، واستدارت بي نحو مدخل قاعة الرّياضة، حيث علّقت يافطة كبيرة تحمل تاريخ التخرّج بخطٍّ أسود عريض.

قلت: «غير معقول! كيف مرّت الأيّام بهذه السرعة؟» وشعرت وكأنّي تلقّيت ضربة أيقظتني من سباتي. مضت أسابيع في وسط القلق والخوف، ولم يبقَ أمامي الوقت الكافي لأنظّم وأنهي ما أريد القيام به. لقد اقترب الموعد جدّاً لكنّي لستُ جاهزة.

لا أعلم ما يتوجّب عليّ القيام به تحديداً. بأيّ طريقةٍ سأودّع تشارلي ورينيه... وجايكوب... كيف سأودّع إنسانيّتي؟

كنت أعلم ما أريد، لكنّي أحسستُ فجأةً بالخوف من الحصول عليه.

من حيث المبدأ، كنت متشوّقة ومصرّة على استبدال حياةً تنتهي بالموت بأخرى خالدة؛ فهي من جهة، الحلّ الذي يتيح لي فرصة البقاء مع إدوارد إلى الأبد. ومن جهة أخرى، لا أريد أن أبقى في عجزي، هدفاً سهلاً ولذيذاً للأخطار التي تُحدق بي من كلّ حدبٍ وصوب.

كانت الخيارات التي اتخذتها منطقيّة جدّاً من حيث المبدأ. ولكن واقعيّاً، الإنسانية هي كلّ ما اختبرته في حياتي، والعبور إلى الضفّة الثانية هو قفزٌ في المجهول الغامض والمخيف.

الانتباه لتاريخ اليوم، الذي كنت على الأرجح أتجاهل معرفته عن قصدٍ، ينبع من منطقة اللاوعي في دماغي، جعلني فجأةً أرى الموعد الحاسم الذي كنت أنتظره بفارغ الصبر كأنّه موعد تنفيذ الحكم بإعدامي.

وقفت أمام السيّارة بجسدي فحسب، أمّا فكري فكان سابحاً في مكانٍ بعيد. كنت أرى بشحوبٍ مشهد إدوارد وهو يفتح أمامي باب السيّارة، وأسمع صوت آليس يتردّد من المقعد الخلفي وكأنّه لغطٌ غير مفهوم. لم يحاول إدوارد إيقاظي من شرودي، أو أنّه كان يحاول. . . لكنّي لم أعِ كيف قطعنا الطريق لنصل أخيراً إلى بيتي.

جلس إدوارد إلى جانبي على الكنبة، ونظرت من النافذة في عمق الضّباب الرّمادي المتحرّك، ورحت أفكّر كيف فقدت عزمي فجأةً. لَمَ شعوري بالرّعب الآن. كنت أعلم أنّ الموعد آتٍ، لكن لَمَ خوفي الآن. . . عند اقتراب حلوله؟

لا أعلم الوقتَ الذي أمضيته في تأمّلي الصّامت، وكان الظلام قد أسدل غطاءه على كلّ ما في الخارج، عندما نفد صبر إدوارد من طول الانتظار.

وضع يديه الباردتين حول وجهي، ونظر إلى عينيّ بعينيه الذهبيّتين.

وقال: «هلاّ أطلعتني على ما يشغل أفكارِك، قبل أن أفقد عقلي».

لم أجد الكلمات المناسبة... ماذا يمكنني أن أقول له؟ هل أقول له إنّي خائفة وجبانة؟

«شفتاكِ تبدوان من دون لون...، تحدّثي يا بيلاّ!».

أطلقت زفرةً طويلة، بعد احتباس أنفاسي لدقائق أجهل عددها.

قلت بصوتٍ هامس: «لقد تفاجأت باقتراب الموعد. هذا كلّ شيء».

انتظر إدوارد قليلاً، وأمارات القلق والشكّ على وجهه.

قلت: «لا أعلم ماذا أفعل... ماذا أقول لتشارلي... وكيف...»، وغاص صوتي.

«إذاً، لا علاقة للأمر بالحفلة؟».

«كلاّ، لكنّي أشكركما على لفت انتباهي».

علا صوت المطر في الخارج، وكان إدوارد يحدّق في وجهي محاولاً قراءة أفكاري.

ثمّ أعلن همساً: «لا تزالين غير جاهزة».

كان ردّ فعلي فوريّاً وكاذباً: «بلى، أنا جاهزة». لكنّي لاحظت أنّه اكتشف كذبي، فأسرعت إلى قول الحقيقة: «بل سأكون جاهزة».

«لستِ بحاجة إلى أن تكوني كذلك».

كنت أشعر بالرّعب يقفز من عينيّ وأنا أعدّ الأسباب التي تستوجب تحوّلي: «فيكتوريا، جاين، كايوس...، وأحد هؤلاء كان في غرفتي...!».

«كلّها أسباب تستدعي الانتظار».

«كلامك غير مقنع يا إدوارد!».

«بيلاّ! لم ينعم أحدٌ منّا بفرصة الاختيار. وانظري إلى تأثير ذلك

علينا، وخصوصاً على روزالي. . . ، كان علينا أن نبذل جهوداً جبّارة كي نتقبّل مصيرنا، الذي لم يكن لنا يدٌ في تحديده. . . ، لن أسمح بأن تعيشي أنتِ أيضاً هذه المعاناة. بل ستنعمين بحريّة القرار».

«لقد اتخذت قراري».

«لا تتمسّكي بهذا القرار خوفاً من الأخطار المحدقة بك. نحن سنهتمّ بتقصّي الحقائق وأقسم أنّي سأهتمّ بسلامتك. وعندما نتخطّى هذه الظروف، ويتوقّف شعورك بالرّعب، يمكنك عندئذٍ أخذ القرار في أن تصبحي مثلي إن شعرتِ برغبة في ذلك، وليس هروباً ولا خوفاً. لن أقبل أن تمضي في هذه الطريق رغماً عنكِ».

«وعدني كارلايل أن يقوم بالعمليّة بعد التخرّج». قلت بتردّد.

«ليس قبل أن تصبحي جاهزة ويتلاشى شعورك بالخطر».

لم أجب. ولم أجد في تلك اللّحظة ما أدافع به عن التزامي السابق.

قبّل إدوارد جبيني، وقال: «لا شيء يدعو للقلق».

أطلقت ضحكة متقطّعة وقلت: «لا شيء إلاّ سوء حظّي المستمرّ».

قال: «ثقي بكلامي».

«أثق بكلامك».

كان لا يزال ينظر إلى وجهي، عندما قلت: «أريد أن أطرح عليك سؤالاً».

«اسألي ما شئتِ».

تردّدت، وعضضتُ على شفتي، ثمّ طرحتُ سؤالاً غير السؤال الذي كان يدور في بالي.

«ماذا كنتُ سأقدّم إلى آليس بمناسبة التخرّج؟».

ابتسم بخبث: «يبدو أنّك فكّرت بإعطائنا بطاقات لحضور حفلة موسيقيّة».

ضحكتُ ضحكة مكبوتة، وقلت: «هذا صحيح! قرأت الأسبوع الماضي إعلاناً في الجريدة عن تلك الحفلة في تاكوما، وتذكّرت أنّكما أحببتما الأسطوانة المدمجة للفرقة ذاتها، فقلت إنّها هديّة مناسبة».

«فكرة عظيمة! شكراً لكِ».

«أتمنّى ألاّ تكون البطاقات قد نفدت».

«في جميع الأحوال، إرادة تقديم الهديّة هي الأهمّ، وقد اكتشفت آليس ذلك في الرؤيا».

ثمّ تابع: «كنتِ تنوين طرح سؤالٍ آخر. ما هو؟».

حدّقتُ إليه: «كيف عرفت؟».

«تعلّمت قراءة تعابير وجهِك. . . ، هيّا ما السؤال».

أغمضتُ عينيّ، ودسست وجهي في صدره، وقلت: «أنت لا تريدني أن أتحوّل إلى مصّاصة دماء».

قال بصوتٍ ناعم: «أنتِ على حقّ، لا أريدك أن تتحوّلي». ثمّ انتظر قليلاً، وأضاف: «هذا ليس سؤالاً».

«حسناً، . . . كنت قلقة حول السبب وراء ذلك».

«قلقة! لماذا؟».

«أيمكنك أن تقول لي الحقيقة من دون تحفّظ، ومن دون مراعاةٍ لمشاعري».

تردّد قليلاً، ثمّ قال: «إن أجبتُ طلبك، هل تفسرّي لي بعدئذٍ سؤالك».

هززتُ برأسي موافقةً، وكان وجهي لا يزال مختبئاً في خبايا صدره.

تنفّس بعمق وقال: «أنتِ أفضل من مصّاصي الدماء يا بيلاّ. أنتِ حقّاً تؤمنين بأنّي أملك روحاً. . . ، لكنّي في الحقيقة لست واثقاً من هذا

الأمر. أنا لا أريد ان تغامري بخسارة روحكِ، وموافقتي على تحوّلك بهدف أن لا أخسرك، هي بالنسبة لي عمل أنانيّ صرف. بالطبع إنّي أرغب بذلك كثيراً لنفسي، ولكنّي أتمنّى لك مستقبلاً أفضل. ضعفي أمام هذا الأمر سيكون جريمة وأنانية مطلقة. ولو كان باستطاعتي أن أصبح إنساناً من أجلك، لفعلت مهما كان الثمن».

جلست من دون حراك، أستوعب كلّ كلمةٍ يقولها.

ثمّ ابتسمت وأنا أستعيد كلماته في فكري... إنّه يرفض أن يتصرّف بأنانية.

وقلت: «أفهم ممّا قلته... أنّ السبب ليس خوفك من أن أتغيّر... وتتغيّر طراوة جسدي وحرارته ورائحته، ويؤثّر ذلك على حبّك لي؟ هل حقّاً ستحافظ على حبّي مهما تغيّرت؟».

أطلق زفرةً قويّة، وقال: «أنتِ خائفة من أن أتوقّف عن حبّك؟» وقبل أن أجيب على سؤاله، قهقه ضاحكاً وهو يتابع: «بيلّا! بالنسبة إلى الفطنة التي تتمتّعين بها...، أفكارٌ كهذه هي بالفعل ساذجة!».

شعرتُ بالارتياح برغم أنّه اعتبر مخاوفي سخيفة. وقلتُ في نفسي: «إن كان سيبقى معي مهما تغيّرت، فكلّ الأمور الأخرى لن تكون صعبة». ووجدتُ فجأةً أنّ معنى كلمة «أنانية» أصبح لطيفاً ومستحبّاً.

ثمّ قال، قبل أن تغادر رنّات الضّحك صوته: «لا تتخيّلي كم أن الأمور تكون أسهل بالنسبة لي عندما لا أضطرّ إلى مراقبة نفسي في كلّ لحظة خوفاً من أن أقتلك. بالطّبع، سأفتقد إلى بعض الأمور...، وقد يكون هذا أحدها مثلاً».

نظر في عمق عينيّ وداعب خدّي بيده، فشعرت بالدّم يندفع إلى وجهي. ضحك قليلاً، ثمّ أكمل بجديّة، محافظاً على ابتسامةٍ خفيفة: «دقّاتُ قلبك، بالنسبة لي أهمّ صوتٍ أسمعه في هذا العالم. لقد تعوّدت عليه إلى درجة...، أقسم أنّي قد أسمعه على مسافة أميال». ثمّ أمسك

بوجهي بين يديه، وقال: «لكن لا شيء من كلّ هذا يهمّني لأنك أنتِ، ستبقين معي. ستظلّين بيلاّ حبيبتي، لكنّك ستصبحين أكثر صلابةً وأطول عمراً».

أطلقتُ تنهيدة، وأطبقت عينيّ باطمئنان.

«والآن، هل تجاوبين على سؤالي، وتقولين الحقيقة من دون تحفّظ، ومن دون مراعاة لمشاعري؟».

«بكلّ تأكيد»، أجبت.

تكلّم ببطء قائلاً: «أنت لا ترغبين في أن تصبحي زوجتي».

شعرتُ وكأنّ قلبي توقّف في تلك اللّحظةً عن الخفقان، ليعود ويستعيد ضرباته بسرعة جنونيّة.

وكان ينتظر وهو يراقب ردّ فعلي واضطرابي.

فقلت بصوتٍ منخفض: «هذا ليس سؤالاً».

نظر إلى الأسفل، فرسمت ظلال رموشه أشكالاً على أعلى خدّيه، وأنزل يده عن وجهي وأمسك بها يدي، وأخذ يلاعب أصابعي ويتكلّم: «أنا قلقٌ، وأتساءل عن السبب وراء موقفك هذا».

وهمست: «وهذا ليس سؤالاً، أيضاً».

«أرجوك يا بيلاّ».

«هل تريد الحقيقة؟».

أجاب: «بالطّبع، أستطيع تقبّلها مهما كانت».

تنفّست بعمق، وقلت: «قد تهزأ منّي، لو قلت لك».

«أهزأ؟ لا أتصوّر ذلك».

«سوف ترى. . . ، وأنا متأكّدة من أنك ستجد الأمر مضحكاً للغاية، ولكن في الحقيقة إنّي أشعر بإحراجٍ شديد». وأحسستُ بوجنتيّ تتورّدان خجلاً، فخبّأت وجهي في صدره من جديد.

قال بعد برهة صمت: «أنا لا أفهم ما تقولين».

نظرت إليه، وتحدّيت مشاعر الاحراج، وقلت: «أنا لست تلك الفتاة التي تقع في حبّ شابّ وتتزوّج منه فور تخرّجها من المدرسة الثانويّة، كما تفعل بنات القرى والمدن الصغيرة؛ أنتَ تعرف ما سيقوله عنّي الناس وتلاحظ أنّنا نعيش في عصرٍ متقدّم. والفتاة الذكيّة والواعية والناضجة لا تتزوّج وهي في الثامنة عشرة».

«هذا كلّ شيء؟».

«أليس سبباً كافياً؟».

«السبب ليس إذاً أنّك تطمحين إلى حياة خالدة، أكثر مما تطمحين أن تصبحي زوجتي؟».

توقّعت أن أرى إدوارد يقهقه ضاحكاً، لكنّي شرعت أنا بالضّحك بطريقة هستيرية.

وقلت له ولا أزال أضحك بشدّة: «إدوارد! كنت أظنّك... أشدّ ذكاءً منّي... بكثير!».

أخذني بين يديه، وشاركني ضحكي.

«إسمع يا إدوارد. الحياة الأبديّة لا تعني لي شيئاً إلاّ إذا كنت معك. لا أتقبّل أن أمضي يوماً واحداً من دونك».

فقال: «أشعر بالارتياح الآن!».

قلت: «ولكن...، هذا لا يغيّر من موقفي».

«الأفضل أن نعتمد الصراحة. إنّي، في الحقيقة يا بيلاّ، أتفهّم نظرتك إلى الأمور، لكنّي أحبّ لو حاولتِ تفهّم نظرتي إليها أيضاً».

كنت قد استعدتُ هدوئي. فهززت رأسي بالإيجاب وتخلّيت عن كلّ مظاهر التشنّج.

نظر إلى عينيّ، فأحسست بالسائل الذهبي في عينيه يجذبني بقوّةٍ تكاد تكون مغناطيسية.

«أنظري يا بيلاّ! في العالم الذي كنت أعيش فيه، كنتُ ذلك

الشابّ. . . الناضج. لم أسعَ ملهوفاً وراء الحبّ. . . ، بل كنت تواقاً للجنديّة. لم أكن أحلم إلاّ بمجد الانتصار في الحرب التي كانوا يسوّقون لها في تلك الأيّام. لكنّي. . .»، وتوقّف عن الكلام، ومال برأسه جانباً، وقال: «كنت سأقول إنّي لو وجدت فتاةً أحبّها، لكنّي أستدرك وأقول إنّي لو وجدتك أنتِ بالذات، لتغيّر كلّ شيءٍ في حياتي. كنت ذلك الشابّ الذي لن يتأخّر في اللّحظة التي يكتشف فيها أنّكِ الفتاة التي يفتّش عنها، ليجثوَ على إحدى ركبتيه، ويطلب يدك للزواج بإصرار. لو وجدتك أنتِ بالذّات، لطلبتُ يدك لتكوني زوجتي إلى الأبد، برغم أنّ هذه الكلمة لم تكن تعني بالنسبة لي في ذلك الوقت ما تعنيه اليوم».

ورسم على وجهه تلك الابتسامة الساحرة، فنظرت إليه كالمسحورة، وكالعادة نسيت أن أتنفّس.

فقال: «بيلاّ، تنفّسي!». فتنفّست.

«هل فهمتِ ما قصدت قوله يا بيلاّ، ولو جزئيّاً؟».

فهمت قصده. وتخيّلت نفسي للحظةٍ في أجواء قصّة رومانسية من أدب القرن التاسع عشر، أرتدي تنّورةً طويلة وقميصاً ذات قبّة عالية من الدانتيل، وشعري مرفوعٌ ومعقوصٌ عند أعلى رأسي. وتخيّلت إدوارد يرتدي بذلةً فاتحة اللّون ويبدو وسيماً جدّاً، وهو يحمل باقةً من الأزهار البرّية في يده ويجلس بقربي على أرجوحة نصبت أمام مدخل البيت.

عدتُ إلى الواقع، وقلت: «بالنسبة لي يا إدوارد، الزواج والأبديّة ليسا مفهومين متلازمين، وبما أنّنا نعيش الآن في عالمي أنا، دعنا نتّبع المألوف في هذا العصر. هل تفهم ما أعني؟».

أسرع إدوارد إلى الرّد قائلاً: «بما أنّكِ ستتحرّرين قريباً من عامل الزمن. . . ، فلِمَ تتمسّكين بعادات تتعلّق بهذه المرحلة المؤقتة؟».

حاولت أن أذكّره بالقول الشائع: «عندما تعيش في روما، يجب أن تماشي عادات أهلها».

ضحك، وقال: «لا أطلب منك يا بيلاّ أن تقولي نعم أو كلاّ اليوم. الآن وقد عرفتِ وجهة نظري، فكّري في الأمر مجدّداً».

قلت: «أفهم أنّ الشرط الذي وضعته في السابق...».

وأكمل جملتي: «لم يتغيّر. أفهم وجهة نظرك يا بيلاّ، لكنّكِ إن أردت أن أحوّلكِ أنا بنفسي...».

«دوم، دوم، داه-دوم» رحت أردّد في نفسي موسيقى الزفاف، لكنّي شعرت أنّها تكاد تتحوّل إلى ترنيمة موت.

انقضت تلك اللّيلة بسرعة. وموعد التخرّج كان أوّل ما فكّرت به في الصباح. كان عليّ ان أستعدّ للامتحانات فالوقتَ بات قصيراً، ويجب أن أتمكّن من مراجعة جميع المواد المطلوبة.

نزلت من غرفتي، فكان تشارلي قد غادر البيت والجريدة لا تزال مفتوحة على الطاولة. تذكّرت للتوّ ما أريد شراءه، ففكّرتُ في البحث عن الإعلان كي اتصل وأشتري البطاقات. بالطّبع، لقد فقدت هديّتي عنصر المفاجأة، ولكن هل في الإمكان الاعتماد على عنصر المفاجأة عندما يتعلّق الموضوع بآليس...!؟.

عندما شرعتُ في البحث عن صفحة النشاطات المتنوّعة، توقّفت مذهولةً أمام عنوانٍ آخر من تلك العناوين المخيفة، وقد كتب بخطٍّ أسود وعريض:

الرّعب في سياتل وجرائم القتل تتضاعف

منذ أقلّ من عشر سنوات، هزّ الرعب مدينة سياتل التي كانت مسرحاً لسلسلة جرائم ارتكبها أسوأ قاتلٍ كانت قد شهدته الولايات المتحدة الأميركية في تاريخها. اسم المجرم الذي قام بقتل ثمانٍ وأربعين إمرأة كان غاري ريدجواي من منطقة غرين ريفر.

والآن تواجه المدينة ذاتها احتمال وجود مجرمٍ آخر. لقد تكرّرت حوادث القتل والخطف وتخطّى عدد الضحايا هذه المرّة كلّ تصوّر. لكن الشرطة تستبعد أنّ تكون هذه الجرائم من فعل مجرمٍ واحد. وفي حال اكتشاف أنّ المسؤول عن تسع وثلاثين جريمة قتل وخطف، ارتُكبت في

خلال ثلاثة أشهر هو شخصٌ واحد، فسيعتبر هذا المجرم مقارنة بريدجواي، الذي اقترف جرائمه على امتداد إحدى وعشرين سنة، أخطر المجرمين في تاريخ الولايات المتحدة على الإطلاق.

لكنّ البوليس يميل إلى توقّع وجود عصابة مجرمين، مستنداً في ذلك إلى عدد الجرائم الكبير من ناحية، وعدم وجود طريقة معيّنة يتّبعها المجرم في تنفيذ جرائمه، من ناحية أخرى.

في استعراضٍ للجرائم التي قام بها المجرمون المهووسون بالقتل في السابق، من جاك «المعتدي على النساء»، إلى تيد بندي، نجد عادةً بين الضحايا وجوه شبهٍ، من ناحية الجنس أو العمر أو اللون، أو خليط من هذه العناصر الثلاثة معاً. أمّا ضحايا سياتل في هذه الآونة، فإنّهم يتراوحون في العمر بين الخامسة عشرة، عمر الطالبة المتفوّقة آماندا ريد، وسبع وستين عاماً، عمر ساعي البريد المتقاعد عمر جنكس. والجرائم تتوزّع تقريباً بالتساوي بين الرّجال والنساء وبين اجناسٍ متعدّدة، فمنهم الابيض والأسود والإسباني والآسيوي.

لا يبدو أنّ المجرم يختار ضحيّته وفقاً لاوصاف معيّنة، لذلك فإنّ الهدف من القتل هو القتل، ولا شيء سواه.

لكن هناك أوجه شبه عدة في طريقة تنفيذ الجريمة. لقد أحرقت الجثث إلى حدّ لم يبقَ هناك وسيلة للتعرف عليها سوى عن طريق الأسنان. ويتوقّع المحققون أن يكون المجرم قد استعمل مواد تساعد على اندلاع النيران، ولم يكتشف أيّ من تلك المواد بعد. ولكن، ومن دواعي العجب أنّ المجرم لا يسعى أبداً إلى إخفاء جريمته بل يتركها كيفما اتفّق.

وما يضيف فظاعة إلى هذه الجرائم، أنّ معظم الجثث تعرّضت إلى عنفٍ شديد، وإلى قوّة كبيرة تسبّبت في تحطّم عظامها وتفتّتها. ويعتقد الأطباء أنّ أعمال العنف قد حدثت قبل الوفاة. لكن لا سبيل للتأكّد من ذلك بسبب حالة الجثث الشنيعة.

ومن عناصر التشابه بين هذه الجرائم ايضاً، وهو ما يدفع إلى الاعتقاد أنّ المجرم شخصٌ واحد، أنّ هذا الأخير لم يترك أبداً ما يدلّ عليه؛ لا بصمات أصابع، ولا شعرة واحدة، ولا أثر لدولاب سيّارة.

ويستهدف الخطف والقتل اناساً هم في معظم الأحيان من الفئات المحترمة في المجتمع. لم يكن بين الضحايا هاربون من العدالة، أو مشرّدون على الطرقات، ممّن قد لا يكتشف أمر اختطافهم بسرعة، بل اختطف هؤلاء من منازلهم، أو من نادي رياضي أو من حفلة زفاف. من الضحايا ايضاً لاعب البوكس، ابن الثلاثين عاماً روبرت والش. كان قد دخل إلى قاعة السينما مع صديقته، وما هي إلا دقائق حتى لاحظت هذه الأخيرة اختفاءه من مقعده بجانبها. ثم وُجدت جثته بعد ثلاث ساعات، عندما دعي البوليس للتحقيق في مكانٍ لرمي النفايات، حيث أُضرمت النيران.

وهناك ايضاً وجه شبهٍ آخر بين الجرائم. لقد حدثت كلّها أثناء الليل.

والخيط المشترك المخيف هو مؤشّر تضاعف السرعة بينها. وقعت ستّ جرائم

في الشهر الأوّل، وإحدى عشرة جريمة في الشهر الثاني. ووقعت في العشرة أيّام الماضية اثنتان وعشرون جريمة. أما البوليس فلم يرَ أيّ مؤشّر جديد يدلّه على المجرم حتّى الآن.

تبدو الحقائق متضاربة، والأشلاء مخيفة. هل هي عصابة إجراميّة جديدة، أو مجرمٌ واحد مهووس بحبّ القتل؟ أم أنّه شيءٌ آخر مجهول لم يتوصّل البوليس إلى تصوّره بعد؟

والنتيجة في كلّ الحالات تبقى واحدة: عاصفة بشعة تهبّ على سياتل.

* * *

كانت يداي ترتجفان وأنا أحمل تلك الصفحة من الجريدة، فاضطررت إلى استعادة الفقرة الأخيرة ثلاث مرّات قبل التمكّن من استيعاب مضمونها.

«بيلاّ!».

روّعني صوته على الرّغم من هدوئه.

كان إدوارد يقف مستنداً إلى حاجب الباب، ولكنّه اقترب منّي على عجل، وأمسك يدي.

«آسف لأنّي أفزعتك، لقد قرعتُ الباب قبل أن أدخل...».

أجبتُ حالاً: «لا، لا تهتمّ، هل قرأت هذا؟». وأشرت إلى الجريدة.

قطّب إدوارد جبينه وقال: «لم أرَ جريدة اليوم بعد، لكن أعلم أنّ الحالة تتفاقم. يتحتّم علينا القيام بشيءٍ... على الفور!».

لا أريد أن يتعرّض أحدهم للخطر، لكنّ ما يحدث في سياتل يخيفني حقّاً، أمّا قدوم عائلة فولتوري إلى الجوار، فهذا يرعبني أكثر من أيّ شيء آخر.

«ماذا تقول آليس؟».

«هنا المشكلة». وازداد عبوس وجهه. «لا ترى شيئاً برغم أنّنا قرّرنا مرّات عدة الذهاب إلى هناك. تشعر أنّها عاجزة عن رؤية أمورٍ عديدة

هذه الأيّام، وتكاد تخسر ثقتها بنفسها. إنّها تخاف أن يكون ذلك مؤشّراً لخسارة موهبتها في رؤية المستقبل».

نظرت إليه بتعجّب، وقلت: «هل هذا معقول؟».

«من يعلم؟ ليس هناك أيّ دراسة حول هذا الموضوع. ولكنّي أعتقد أن هذه القدرات تزداد مع مرور الوقت. أنظري إلى آرو وجاين».

«إذاً، ماذا يحدث؟».

«ربّما أنّ السبب الحقيقي هو نفسيّ. فنحن ننتظر أن ترى شيئاً قبل أن نذهب، وهي لا ترى شيئاً، لأنّها في الواقع لا تريد أن ترانا هناك. ربّما سنذهب دون أن ننتظر رؤية آليس وقتاً أطول».

ارتعدت خوفاً. «كلاّ!».

«هل ترغبين حقّاً بالذهاب إلى المدرسة اليوم؟ لا أعتقد أنّ دروساً جديدة ستعطى قبل موعد الامتحانات النهائية بيومين».

«لن أموت إن لم أذهب إلى المدرسة اليوم! ما هي مشاريعك؟».

«أريد التحدّث إلى جاسبر».

جاسبر مجدّداً!؟ في الحقيقة، لم أكن أتوقّع أن يلعب جاسبر دوراً فاعلاً في أيّ مسألة تهمّ عائلة كولن. تعوّدت أن أراه دائماً خارج الأحداث وليس في وسطها. كنت أظنّ أن وجوده هو من أجل آليس فحسب. وتصوّرت أنّ أسلوب الحياة الذي اختارته عائلة كولن لنفسها لا يرضيه كثيراً، لذا فهو لا يُظهرَ التزاماً قويّاً، بل يكتفي بأن يتبع آليس في تحرّكاتها.

لم أكن أتصوّر أنّه سيأتي يومٌ ويعتمد إدوارد على مساعدة جاسبر في حلّ مسألة معقّدة، لكنّي كنت أجهل كلّ شيء عن خبرات هذا الأخير وماضيه، سوى أنّ آليس وجدته وقد جاء من منطقة معيّنة في الجنوب.

وكان إدوارد يتحاشى الإجابة عن أسئلتي بشأن أخيه الجديد، وأنا

لا أجد الشجاعة لطرح أسئلتي عليه مباشرةً، فغالباً ما أشعر بالإحراج أمامه، وهو يبدو كممثلي هوليوود بطول قامته وجمال طلعته.

وصلنا إلى بيت إدوارد، فوجدنا كارلايل وإيزمي وجاسبر يتابعون نشرة الأخبار ولكنّ صوت التلفزيون كان منخفضاً إلى درجة أنّي لم أتمكّن من فهم ما كان يُقال بوضوح. وكانت آليس جالسة على أسفل الدّرج الكبير، يداها حول وجهها وتبدو غارقة في التفكير. وما هي إلاّ لحظات، حتّى دخل إيميت من باب المطبخ إلى غرفة الجلوس بخطًى كبيرة وكان مبتسماً. لا شيء البتّة يعكّر مزاج إيميت!

«أهلاً إدوارد. أهلاً يا بيلاّ، ستتخرّجين من المدرسة قريباً!».

«أهلاً إيميت، أذكّرك أنّ كلانا سنتخرّج». قال إدوارد.

«الأمر يختلف. إنّها المرّة الأولى بالنسبة إلى بيلاّ...».

أدار إدوارد عينيه عن إيميت، ورمى الجريدة إلى كارلايل.

«هل عرفت أنّهم يفترضون وجود قاتل بالتسلسل الآن؟».

«كان هناك نقاش متخصّص حول هذا الافتراض على محطّة سي.أن.أن. هذا الصباح».

«لنذهب الآن لمقاتلتهم!». قال إيميت بحماسة مفاجئة. أكاد أموت ضجراً.

وسُمِع على الفور هسيسٌ من الطابق العلوي.

«إنّها تميل إلى التشاؤم دائماً». تمتم إيميت.

وافق إدوارد على اقتراح إيميت، وقال: «يجب أن نذهب قريباً».

ظهرت روزالي في أعلى الدّرج، وكان وجهها خالياً من أيّ تعبير.

هزّ كارلايل برأسه، وقال: «لست مرتاحاً لهذا القرار. لم نتدخّل في مثل هذه الأمور من قبل. هذه ليست مهمتنا، نحن لسنا عائلة فولتوري».

قال إدوارد: «أنا لا أريد أن تضطّر عائلة فولتوري إلى المجيء. وجودهم في الجوار سيمنع عنّا فرصة تحضير أنفسنا إن قرّروا الهجوم».

وأدلت إيزمي برأيها متمتمة: «وليس عدلاً أن نترك كلّ هؤلاء الأبرياء في سياتل يموتون بهذه الطريقة».

«أوافقك الرأي». قال كارلايل.

واندفع إدوارد قائلاً وهو يلتفت إلى جاسبر. «أوه! لم أفكّر بهذا الأمر. أنتَ على حقّ. أعتقد أنّك اكتشفت نقطة مهمّة، وهذا سيغيّر كلّ شيء».

نظرت إلى إدوارد، كما نظر إليه الجميع، بارتباك. لكنّي كنت الوحيدة التي لم يبدُ عليها الانزعاج بينهم.

«أعتقد أنّه من الأفضل أن تطلعَ الباقين على رأيك». قال إدوارد لجاسبر. «ما الهدف من هذا التصرّف؟» وأخذ يتمشى مفكّراً.

لم ألاحظ أنّ آليس كانت قد قامت من مكانها ووقفت بقربي، حتّى سمعتها تسأل جاسبر: «بماذا يفكّر إدوارد؟ وبماذا تفكّر أنت؟».

تردّد جاسبر في الإجابة، لم يتعوّد أن يكون في دائرة الضوء، وراح يتأمّل في جميع الوجوه التي تحلّقت حوله، ثمّ ركّز نظره على وجهي، وقال: «إنّك مرتبكة».

كان كلامه تأكيداً، وليس سؤالاً. فقد كان على معرفة بشعوري في تلك اللّحظة وبشعور جميع الحاضرين.

«كلّنا نشعر بالارتباك!». قال إيميت مدمدماً.

يمكنك أن تصبر بعض الشيء يا إيميت. بيلاّ هي فردٌ منّا الآن، ويحقّ لها فهم هذا الموضوع أيضاً.

فوجئت لموقفه الإيجابي منّي. كنت أحاول الابتعاد عنه منذ أن حاول قتلي في عيد ميلادي الأخير.

وسألني: «ماذا تعرفين عنّي يا بيلاّ؟».

تنهّد إيميت معبّراً عن قلّة صبره، ورمى بنفسه على الكنبة، منتظراً.

أجبت: «لا أعرف الكثير».

نظر جاسبر في اتجاه إدوارد الذي رفع عينيه مجيباً: «كلاّ، لم أخبرها تلك القصّة. ولكن أعتقد أنّها تحتاج لسماعها الآن».

هزّ جاسبر رأسه، وأخذ يرفع كمّ كنزته.

وقفت أراقب ما كان يفعل بفضولٍ وارتباك. فرأيته يقترب من المصباح الموضوع على الطاولة، ويعرّض معصم يده إلى الضوء المباشر، ثمّ يشير لي بإصبعه إلى علامة على شكل هلال نافر على بشرته البيضاء.

لم أنتبه على الفور إلى الشبه الموجود بين تلك العلامة، والعلامة التي على يدي أنا.

مددت يدي، فبدا الهلال الفضّي النافر، أكثر وضوحاً على بشرتي العاجيّة.

«لديّ الكثير من هذه العلامات، يا بيلاّ». ورفع كمّ كنزته أكثر، وبدت فوق ذراعه طبقة كثيفة من تلك العلامات النافرة، كانت عديدة جدّاً ومتقاطعة في ما بينها.

نظرت إلى العلامة الوحيدة التي تركتها أسنان جايمس على يدي، وقلت: «جاسبر ماذا حدث لك؟».

13

مولود جديد

أجاب جاسبر بهدوء على سؤالي قائلاً: «حدث لذراعي ما حدث ليدك بالضّبط، ولكن مضاعفٌ ألف مرّة». وصدرت عنه ضحكة حزينة. «سمُّنا هو الوحيد الذي يترك علامات كهذه».

قلت، وأنا أنظر باستنكار إلى مشهد ذراعه المشوّهة: «لماذا؟».

قال بمرارة: «لم أعش سابقاً في ظروف مماثلة لظروف أفراد العائلة التي أنتمي إليها بالتبنّي الآن. كانت بدايتي مختلفة تماماً». وأنهى عبارته بنبرةٍ قاسية.

نظرت إليه بتعجّبٍ شديد.

«قبل أن أخبرك قصّتي، أودّ منك أن تعلمي أنّ في بعض الأماكن في عالمنا يا بيلاّ، لا يعيش من هم مثلنا أكثر من بضعة أسابيع، عوضاً عن بضعة قرون».

لاحظت تراجع اهتمام الآخرين بالإصغاء إلى القصّة التي يعرفونها، فعاد كارلايل وإيزمي ووجّها انتباههما إلى التلفزيون. وذهبت آليس كي تجلس بقرب إيزمي. لكنّ إدوارد كانَ يصغي بانتباهٍ شديد، وعيناه لا تفارقان وجهي ليراقب جميع انفعالاتي.

«ومن أجل أن تتمكّني من فهم ذلك الواقع، يجب أن تنظري إلى العالم بمنظار مختلف. تخيّلي صورة هذا العالم في عيني القويّ والجشع، أو في عيون الّذين يعانون من الظمأ الدائم.

تعلمين أنّ هناك أماكن في العالم قد تجذبنا إليها أكثر من غيرها. أماكن حيث لا يوجد قيود، ولا نتعرّض لخطر انكشاف أمرنا.

تخيّلي مثلاً خريطة النصف الغربي للكرة الأرضيّة، وتخيّلي نقطة حمراء في مكان كلّ إنسان؛ عندما يزداد اللّون الأحمر كثافةً في بقعةٍ ما، تكون هذه البقعة أكثر ملاءمةً بالنسبة إلى الذين يتّبعون ذلك الأسلوب من العيش، إذ تقدّم لهم المرعى والغطاء».

فكّرت في تلك الصورة وفي كلمة مرعى، فارتجفت. لم يخطر ببال جاسبر أن يراعي مشاعري كما يفعل إدوارد، فتابع من غير توقّف.

«لا تأبه الجماعات في الجنوب لخطر انكشاف أمرها، ولولا عائلة فولتوري التي يخافها الجنوبيّون والتي تفرض عليهم الالتزام بالنظام، لانكشف أمرنا جميعاً».

قطّبت جبيني تعجّباً من الاحترام والامتنان اللذين أبداهما جاسبر عندما ذكر اسم عائلة فولتوري. لم أتوقّع أبداً أن يكون لهذه العائلة أفضالٌ تُذكر.

«مقارنة بالجنوب، الشمال متمدّن جدّاً. نحن لا نستقرّ بأعداد كبيرة هنا، ونتعامل مع الناس بطريقة طبيعيّة، ونخرج من بيوتنا في النهار وفي اللّيل على حدّ سواء، وفي الدرجة الأولى نحرص على إخفاء حقيقتنا.

أمّا في الجنوب، فلا يخرج مصّاصو الدّماء سوى في اللّيل ويقضون النهار في تخطيط الهجوم التالي على عدوّهم، أو صدّ هجوم العدوّ عليهم. لم تتوقّف الحرب في الجنوب طيلة عدّة قرون. الجماعات هناك لا يهتمّون لأمر الآدميين أكثر ممّا قد يهتمّ الناس إلى قطيعٍ من الأبقار يمرّ من أمامهم، ولا يعتبرونهم سوى مصدر غذاء فحسب. إنّهم لا يراعون مسألة عدم لفت أنظار القطيع إلاّ خوفاً من عائلة فولتوري».

سألته: «ما هو سبب اقتتالهم؟».

ابتسم جاسبر، وقال: «تذكّري صورة الخريطة والنقاط الحمر. إنّهم يتنازعون من أجل السيطرة على المناطق الأشد احمراراً.

خطر في بال أحدهم يوماً أنّه لو كان هو مصاص الدماء الوحيد في منطقة مثل مدينة مكسيكو الجديدة مثلاً، فإنّه سيتمكّن من الحصول على الغذاء مرّتين أو ثلاث مرّات في اللّيلة الواحدة من دون أن يتنبّه إليه أحد، فأخذ يخطّط كي يتخلّص من منافسيه.

ثمّ فكّر كثيرون بالطريقة ذاتها ورسموا خططاً متفاوتة من حيث فعاليتها كي يصلوا إلى أهدافهم.

والخطّة الأنجح، كانت تلك التي اتّبعها مصّاص دماء جديد لم يكن قد سمع به أحدٌ من قبل، وكان يدعى بنيتو. هبط هذا الأخير من منطقة في شمال دالاّس وهاجم مجموعتين كانتا تعيشان في منطقة قريبة من هيوستن وتغلّب على المجموعتين. ثمّ قضى خلال ليلتين على مجموعاتٍ قويّة كانت تسيطر على منطقة مونترّي في شمال مكسيكو».

«كيف استطاع التغلّب عليهم؟» طرحت السؤال بفضولٍ اكتنفه الخوف الشديد.

«كان بنيتو سبّاقاً إلى فكرة تأليف جيشٍ من مصّاصي الدّماء الجدد. مصّاصو الدّماء الجدد هم عادةً متقلّبون ومتوحّشون جدّاً ومن الصعب السيطرة عليهم. قد يستطيع أحدنا التواصل مع أحدهم ومراقبة تصرّفاته؛ لكن عندما يرتفع عددهم، فغالباً ما يحارب بعضهم بعضاً عوضاً عن محاربة العدوّ. لذلك، كان على بنيتو الاستمرار في خلق مصّاصي دماء جدد، لأنّ عددهم يتناقص بسبب الحرب من جهة، وبسبب نزاعاتهم الداخليّة من جهة أخرى.

وهكذا فإنّ الجدد شديدو الخطورة ولكن يمكن التغلّب عليهم بطرائق معيّنة.

إنّهم يتمتّعون بقوّة جسديّة خارقة خصوصاً في أوّل سنة من

عمرهم، حيث يمكنهم التغلّب على من هم أكبر سنّاً بسهولة. ولكنّهم يخضعون لغرائزهم، ولذلك يمكننا توقّع ما قد يقومون به. وهم لا يمتلكون عادةً مهارات قتالية عالية، بل يعتمدون على قوّة عضلاتهم ووحشيتهم، إضافةً إلى أنّهم يتكاثرون بأعدادٍ هائلة.

شعر مصّاصو الدّماء في جنوب مكسيكو بالخطر القادم إليهم، فلم يجدوا أمامهم سوى حلّ واحد، وهو بناء جيش خاصّ بهم ليصارع جيش بنيتو.

ربّما كانت جهنّم أرحم من الحرب التي دارت رحاها في مكسيكو في ذلك الوقت. أقول هذا وأعني ما أقول. نحن أيضاً لنا تاريخنا وهو لا يزال يذكر تلك الحرب الشنيعة التي ألحقت الأذى بالآدميين أيضاً. عندما يلاحظ المؤرّخون البشر انخفاض مستوى سكان بعض المناطق في حقبة معيّنة من الزمن، يظنّون أنّ السبب هو انتشار الأوبئة بين الناس...!

وأخيراً تدخّلت عائلة فولتوري بجميع أفرادها وحَرَسها. وكان هدفهم القضاء على كلّ مصّاص دماء جديد يعيش في القسم الجنوبي من أميركا الشمالية. كان بنيتو في هذه الأثناء مشغولاً ببناء جيشٍ جديد من أجل السيطرة على مدينة مكسيكو، فتمّ القضاء عليه وعلى من تبقّى من الجدد.

وعاقب الفولتوري كلّ من كان يُرى بصحبة مصّاص دماء جديد بالقتل فوراً، لذا خلت مكسيكو من هؤلاء لمدّة طويلة من الزمن.

استمرّ الفولتوري بعمليّات التنظيف لمدّة سنة تقريباً، فكان ذلك فصلٌ آخر من العنف لا يزال تاريخنا يتذكره، برغم أنّه لم يبقَ من الذين عايشوا تلك الفترة المرعبة سوى قلّة.

حدّثني أحد الذين شاهدوا من بعيد ما حدث في كُليكان عن أشياء فظيعة لا يمكنني ذكرها».

ارتعد جاسبر وهو يتكلّم. ولم يسبق لي أن رأيته خائفاً أو مذعوراً من قبل.

«وهكذا منع الفولتوري جنون السيطرة والتوسّع من الامتداد إلى الشمال، ويعود لهم الفضل بنوعيّة الحياة التي نحياها الآن.

ولكن عندما عادت العائلة الملكية إلى إيطاليا، حاول بعض أصحاب النفوذ القدامى استرجاع سيطرتهم على بعض المناطق.

لم يمضِ وقتٌ طويل حتّى عادت النزاعات وازدادت حوادث الأخذ بالثأر. وعادت فكرة الاستعانة بمصّاصي دماء جُدد لتراود أذهان الطامحين والمتنازعين. لكنّ أحداً لم ينسَ الفولتوري، لذا حاول الجميع مراقبة سلوكهم إلى حدٍّ معيّن. أما الجُدد فكان يتمّ اختيارهم من بين الآدميين بعناية قبل أن يتمّ تحويلهم، ويُدرّبون لفترةٍ أطول ولا يُدفعون إلى ساحة القتال إلاّ عند الضرورة القصوى.

عادت الحروب ولو على نطاقٍ ضيّق. وفي بعض الأحيان، عندما كانت تحدث بعض المبالغات وتتكلّم جرائد الآدميين عنها وتطرح الأسئلة حول حقيقة ما يجري، يسرع الفولتوري إلى التدخّل قبل تفاقم الأمور، لكنّهم لم يتدخّلوا في حياة مصّاصي الدّماء الذين يعيشون بطريقةٍ نظاميّة ومسؤولة».

وقدّرتُ في فكري أن تكون تلك الفترة هي التي شهدت تحوّل جاسبر، فسألت بما يشبه الهمس: «وفي هذه الأثناء، حصل تحوّلك أنتَ أيضاً إلى مصّاص دماء؟».

قال: «نعم، عندما كنت إنساناً، كنت أعيش في مدينة هيوستن في مقاطعة تكساس. في عام 1861، كنت في السابعة عشرة لكنّي كنت طويل القامة، فادّعيت أن عمري عشرين سنة والتحقت بالجيش الكونفيدرالي.

لم أمضِ في الجيش وقتاً طويلاً لكن مستقبلي كان واعداً. كنت

أنمتّع بقدرة كبيرة على اكتساب محبّة النّاس واحترامهم، فساعدني ذلك على الترقّي بسرعة ونافست زملائي الأوسع خبرةً والأكبر سنّاً. كان جيش الاتحاد في سعيٍ حثيث لإعادة تنظيم صفوفه، ففتح ذلك أمامي فرصاً كبيرة، فنلت رتبة رائد بعد إحراز الانتصار في معركة غالفستن الأولى. وكنت الرائد الأصغر سنّاً في تكساس.

وعندما هدّدت القوارب الحربية التابعة لجيش الوحدة والمجهّزة بالمدافع أمن المدينة، أوكلت إليّ مهمّة إخراج جميع النساء والأطفال. وبعد يوم من التحضير، ذهبت برفقة دفعة أولى من المدنيّين إلى هيوستن.

أذكر تلك اللّيلة بوضوح. بعد أن وصلنا، وتأكّدت من سلامة الجميع وراحتهم، ركبت حصاناً جديداً وقفلت عائداً إلى غالفستن.

كنت قد ابتعدت ميلاً واحداً عن المدينة عندما لمحت ثلاث نساء يمشين على الأقدام. للوهلة الأولى، اعتقدتّ أنّهن من نساء غالفستن اللواتي أضعن الطريق، فاقتربت منهنّ ونزلت عن حصاني لكي أقدّم المساعدة. ولكن عندما بانت أمامي وجوههنّ في ضوء القمر الشاحب في تلك اللّيلة، اكتشفت أنّي لم أرَ أجمل منهنّ في حياتي.

وقفت أمامهنّ صامتاً ومأخوذاً بسحر جمالهنّ. كان شعر إحداهنّ أسود وملامحها مكسيكيّة، لكنّ بشرتها كالمرمر. الشابّات الثلاث كنّ في مقتبل العمر، ولسنَ من غالفستن.

«إنّه لا يتكلّم!»، قالت الفتاة الشقراء ذات القامة الطويلة والبشرة البيضاء كالثلج بصوتٍ رقيق رنّ في أذني كالموسيقى.

وانحنت الثانية نحوي، وكانت شقراء مثل رفيقتها، ووجهها شديد البياض ذو ملامح ملائكيّة. فتنشّقت نفساً عميقاً، ثمّ تنهّدت وقالت: «ممم، لذيذ!».

أمسكت صاحبة الشعر الأسود بذراع رفيقتها، وتكلّمت بسرعة. كان

صوتها خفيضاً وموسيقيّاً، لكنّه حمل تنبيهاً: «انتبهي وركّزي يا نيتي!».

من خلال خبرتي بطبيعة العلاقات بين الناس، توقّعت أن تكون ذات الشعر الأسود أشدّ نضجاً من رفيقتيها. ولو كنّ في الجيش، لقلت إنّها أعلى رتبةً منهما.

وتابعت: «إنّه شابّ قويّ، وهو ضابط في الجيش. وهناك شيءٌ آخر، هل لاحظتما... أنّه خاضع لإرادتنا؟».

«هذا صحيح». وافقت نيتي بسرعة، ثمّ انحنت نحوي من جديد.

«مهلاً!». قالت ذات الشعر الأسود مجدّداً، «أريد أن أحتفظ بهذا».

قطّبت نيتي حاجبيها وبدا عليها الامتعاض.

قالت الشقراء ذات القامة الطويلة: «أفضّل أن تقومي أنتِ بالمهمّة، إن كان يهمّك أمره يا ماريّا. غالباً ما يموتون معي، ونادراً ما أنجح في المحافظة عليهم».

«نعم، سوف أقوم بذلك شخصيّاً. إنّي حقّاً أحبّ هذا. خذي نيتي من هنا، أريد أن أركّز على عملي ولا يمكنني حماية ظهري».

شعرت بالرّعب، برغم أنّي لم أفهم شيئاً من حديث تلك المخلوقات الجميلة. انتابني شعورٌ غرائزيّ بأنّي أواجه خطراً كبيراً، وأنّ الملاك الجميل الذي أمامي، كان يعني ما يقول عندما تكلّم على الموت. ولكنّ عقلي تغلّب على غريزتي، فقلت في نفسي: «لم أتعوّد الخوف من النساء، بل حمايتهنّ».

«لننطلق إلى الصيد!». قالت نيتي، ومدّت يدها لتمسك بيد الشقراء الأخرى، وركضت الاثنتان بخفّة في اتجاه المدينة، كأنهما طائران. كان ثوباهما الأبيضان يطيران وراءهما كأجنحة الملائكة، وفي خلال ثوانٍ معدودة، توارتا عن الأنظار.

نظرت إلى ماريا، فوجدتها تحدّق بي بفضول.

لم أؤمن في حياتي بالخرافات ولا بالأشباح، ولكن في تلك اللّحظة، انتابني الشكّ.

«ما هو اسمك أيّها الجندي؟». قالت ماريّا.

قلت متلعثماً: «الرائد جاسبر ويتلوك». لقد تعوّدت أن أكون مهذباً مع المرأة، بغضّ النظر عما قد تكونه.

فقالت بصوتٍ ناعم: «أتمنّى لك يا جاسبر أن تبقى حيّاً، فقد انتابني شعورٌ جيّد بشأنك».

تقدّمت خطوةً نحوي، وانحنت كأنّها تريد أن تقبّلني، فتسمّرت في مكاني كتمثال من جليد متجاهلاً غريزتي التي كانت تدفعني لكي أهرب.

توقّف جاسبر عن الكلام، وبدا مفكّراً، ثمّ قال: «وبعد بضعة أيّام...»، لم أعلم إن كان قد تجنّب التفاصيل المزعجة مراعاةً لمشاعري، أم تجاوباً مع الضغط الصامت الآتي من إدوارد، «بدأت حياتي الجديدة».

كانت أسماؤهن، ماريّا ونيتي ولوسي. لم يكن قد مضى طويلاً على وجودهنّ معاً. قامت ماريّا بضمّ الفتاتين إليها بعد أن نجا الثلاثة من معارك خاسرة. اجتمعن معاً من أجل تحقيق مصالح مشتركة. كانت ماريّا تسعى للانتقام واسترجاع أراضيها، فيما تسعى رفيقتاها لزيادة حجم القطعان طمعاً بمزيدٍ من الغذاء.

أراد الثلاثة بناء جيشٍ متفوّقٍ وأصرّت ماريّا على اصطياد أصحاب القدرات المميّزة من الناس. لقد أعارتنا الكثير من الاهتمام، ودرّبتنا أفضل تدريب. علّمتنا فنون القتال وكيفيّة التواري عن أعين البشر. وكانت لا تتأخّر عن مكافأتنا عندما نقوم بعملٍ شجاع.

ولكن كان الوقت يُداهم ماريّا. لقد شعرت بضرورة استغلال قوّتنا وهي في أوجها، أيّ خلال العام الأوّل بعد تحوّلنا. بعد انضمامي إلى

جيش ماريّا أصبح عددنا ستّة، ولكنّها أسرعت إلى تحويل أربعة آخرين خلال أسبوعين. أرادت أن يتألّف جيشها من الذكور فحسب. ولكن غالباً ما كنّا نتصارع في ما بيننا، وكنت أسرع من الباقين وأتمتّع بمهارات قتاليّة عالية. لكنّ ماريّا كانت تستاء منّي في بعض الأحيان لأنّي كنت أقضي على بعض زملائي، فتضطرّ إلى اصطياد غيرهم للتعويض عن النقص. ولكنّها غالباً ما كانت تكافئني فتزداد بفضل ذلك قوتي.

وكانت لدى ماريّا قدرة على فهم شخصيّات المقاتلين ومواهبهم، لذا قرّرت أن توكل إليّ مسؤولية الإشراف على الآخرين. فرحت بهذه المسؤولية وشعرتُ بأنّي حصلت على ترقية. ولم يمضِ وقت طويل حتّى انخفض عدد ضحايا النزاعات الداخلية في صفوفنا، فتزايد عددنا ليصل إلى عشرين.

كان هذا العدد كبيراً بالنسبة لضرورة اعتماد الحذر في ذلك الوقت. وبرغم أنّ موهبتي في التحكّم بعواطف من حولي لم تكن قد توضّحت بعد، لكنّ تأثيرها كان ظاهراً في الجوّ السلمي الذي ساد بين أفراد الجيش، وفي تعاون ماريّا ونيتي ولوسي معاً.

اشتدّ تعلّق ماريّا بي وأصبحت تعتمد عليّ في معظم الأمور، كما أنّي كنت أقدّس الأرض التي تمشي عليها، ولا أتصوّر الحياة بأسلوبٍ مختلف.

طلبت منّي ماريّا أن أخبرها عندما يصبح جيشنا حاضراً للقتال وكنت متحمّساً لأبرهن عن قدراتي. فخرجت بجيشٍ من ثلاثة وعشرين جنديّاً مدرّباً ومنظّماً من مصّاصي الدّماء الجدد. فأعجبت ماريّا بنا.

مشينا إلى مدينة مونترّي، ديارها السابقة، وقضينا على الجيش المحتلّ. كانوا تسعة مصّاصي دماء جدد واثنين من القدامى، فسيطرنا عليهم بسرعة وسجّلنا انتصاراً لم يسبق له مثيل.

لم نخسر سوى أربعة منّا، وبفضل حسن تدريبنا، انتقلت السيطرة

إلى أيدينا من دون ان يشعر سكّان المدينة بأيّ تغيير أو توتّر.

شجّع ذلك الانتصار ماريّا على غزو مناطق جديدة. فلم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى امتدّت سيطرتها إلى معظم مناطق تكساس وشمال المكسيك. ولكن سرعان ما جاءت جماعات من الجنوب وهاجمتها.

كان القتال حامياً واستمرّ طويلاً، وتوقّع البعض عودة الفولتوري. لم يبقَ من جيش ماريّا بعد انقضاء عام ونصف سوى أنا. حتى أن نيتي ولوسي انقلبتا ضدّ ماريّا، لكنّنا تغلّبنا علَيهما.

استطعنا أنا وماريّا أن نحافظ على مونترّي. كانت الحرب لا تزال مشتعلة لكنّنا تخلّينا عن فكرة الغزو من أجل اكتساب مناطق جديدة. واقتصر القتال على الأخذ بالثأر. فكثيرون كانوا قد فقدوا أقرانهم في المعارك، ومصّاصو الدّماء لا يتساهلون بهذا الأمر.

كنّا، أنا وماريّا، نحتفظ دائماً باثني عشر مقاتلاً لوقت الحاجة. وعندما تنتهي حاجتنا إلى أيّ منهم، نسعى إلى قتله. قضيت سنوات طويلة في ممارسة العنف حتى شعرت بالضجر والاشمئزاز من تلك الحياة.

بعد مرور بضعة عقودٍ من الزمن، أصبح لي صديق بين مصّاصي الدّماء الجدد يدعى بيتر. استطاع بيتر أن يقنعنا بضرورة إبقائه حيّاً لأنّه يملك مواهب مفيدة. وكان مهذّباً ويجيد القتال ولكنّه لا يهوى العنف.

كانت مهمّته تدريب مصّاصي الدّماء الجدد، وعندما يتخطّى هؤلاء ذروة قوّتهم ويحين وقت التخلّص منهم، يساعدني على القيام بذلك أيضاً.

وفي ذات مرّة، عندما حان الوقت وبدأنا نأخذهم جانباً كلاً في دوره، حاول أن يقنعني أنّ بعضهم ما زال مفيداً. ولكنّي قلت له إن أوامر ماريّا تقضي بالتخلّص من جميعهم. لم أستطع إقناعه وكنت على

وشك أن أطلب منه الانصراف كي أنهي المهمّة بمفردي. ثمّ ناديت اسم الضحية التالية، فكانت أنثى تدعى شارلوت، ولم يمضِ وقت طويل على تخطّيها العام الأول بعد تحوّلها. ما إن ظهرت شارلوت حتى صرخ بها كي تهرب. فانطلقت هاربة وهرب بدوره وراءها. كان بإمكاني مطاردتهما ولكنّي لم أفعل. ورفضت التفكير بقتلهما.

أزعج تصرّفي هذا ماريّا.

وفي ذات يومٍ بعد انقضاء خمس سنوات على تلك الحادثة، عاد بيتر في الوقت الصحيح ليطلب منّي المغادرة معه.

كنت أعاني من الاكتئاب ولم تستطع ماريّا تفهّم حالتي. ثمّ ساورني شعورٌ بتغيّر موقفها منّي. وفي ذلك اليوم بالذات، اقتربت منّي وطغت عليّ إحاسيس تنذر بالخداع والمكر وتوحي بالخوف واقتراب الخطر، وتشبه تلك الأحاسيس التي شعرت بها عندما هاجمتنا نيتي ولوسي. لم أكن راغباً في قتل ماريّا، حليفتي الوحيدة وسبب وجودي. ثمّ وصل بيتر في الوقت المناسب وأنقذني من ذلك الموقف الحرج.

أخبرني بيتر عن حياته في الشمال مع شارلوت. وقال إنّهما يعيشان في سلامٍ دائم. أقنعني فوراً بضرورة المغادرة، وفرحت أنّي لم أقتل ماريّا. كانت علاقتي بماريّا توازي بطول مدّتها علاقة إدوارد بكارلايل، لكنّها لا تشبهها من ناحية الإخلاص والوفاء. فعندما يكون العنف هو السيّد، تصعب المحافظة على نوعيّة العلاقة واستمرارها.

مشيت مع بيتر من دون أن ألتفت إلى الوراء.

رحت أرافق بيتر وشارلوت في رحلات الصيد، لكنّ الشعور بالاكتئاب لم يفارقني كليّاً، ولاحظ بيتر أنّ اكتئابي يزداد بعد الصيد.

فكّرت في نفسي، لقد تحوّلت عبر السنين إلى وحشٍ كاسر وابتعدت كلّ البعد عن المشاعر الانسانيّة. ولكنّي كنت لا أزال، في كلّ

مرّة يقع بين يدي إنسان، أتصوّر المشاعر التي يعيشها وهو أمامي. أتأمّل عيونهم المندهشة بجمالي، وأتذكّر تلعثم لساني أمام جمال ماريّا ورفيقتيها في تلك اللّيلة الأخيرة من حياتي كجاسبر ويتلوك. كنت أتعذّب أكثر من غيري بسبب قدرتي على تذكّر المشاعر الانسانية. كنت أشعر بكلّ ما كان يشعر به الضحايا وأعيش انفعالاتهم وأنا أقتلهم.

لقد اختبرتِ يا بيلاّ قدرتي على السيطرة على عواطف الناس حولي، ولكنّكِ لا تعلمين كم أتأثر أنا بعواطف الذين حولي. أنا أعيش دائماً وسط الانفعالات. أمضيتُ القرن الأوّل من حياتي في ممارسة العنف الشديد، وتنمية مشاعر الكراهية والثأر. ارتحت إلى حدٍّ ما من هذه المشاعر عندما تركت ماريّا، لكنّي كنت لا أزال أعاني من مشاعر الرّعب والخوف التي يشعر بها الآدميّون الذين أصطادهم.

تركت صحبة بيتر وشارلوت عندما اشتدّ اكتئابي. لقد كانا على مستوى من الحضارة، ويرفضان الاقتتال. لكنّهما كانا يحبّان الصّيد. أمّا أنا فبتّ أرفض فكرة القتل كليّاً، حتّى قتل الآدميّين.

كنت أحاول تجنّب القتل، ولكن عندما أشعر بالعطش لا أجد أمامي سوى ذلك. عشت قرناً كاملاً أشرب الدّماء ساعة أريد، لذا لم يكن من السهل عليّ التقيّد بالنظام والسيطرة على نفسي... لكنّي كنت أحاول».

كان جاسبر مثلي، مأخوذاً بالقصّة، ثمّ لاحظت معالم وجهه البائسة تتحوّل فجأةً إلى ابتسامة سلام. ثم تابع الكلام:

«كنت في فيلادلفيا، وقد خرجت في ذلك اليوم على غير عادتي خلال النهار، والطقس عاصفٌ جدّاً. كان المطر ينهمر بغزارة، فعلمت أنّ وقوفي تحت المطر سيلفت انتباه المارّة، لذا دخلت إلى مطعمٍ قريب وقليل الزبائن.

وكانت هناك تنتظرني. وما أن لمحتني، حتّى قفزت عن مقعدها

العالي خلف الطاولة، واقتربت منّي. خفت لدى الوهلة الأولى من أن يكون قصدها مهاجمتي، لكنّ ابتسامتها والعواطف التي كانت تنبعث منها، سرعان ما أوحت إليّ بسعادة لم أشعر بها من قبل.

«ما بالك...، لقد جعلتني أنتظر وقتاً طويلاً...؟».

لم ألاحظ في تلك اللّحظة أن آليس كانت قد عادت لتقف ورائي من جديد.

وقالت لجاسبر وهي تضحك: «وأحنيت رأسك شأن سيّدٍ مهذّب من الجنوب، وقلت: «المعذرة يا سيّدتي»».

وأجابها جاسبر مبتسماً: «مددتِ لي يدك، فأخذتها من دون تردّد. وكانت المرّة الأولى التي شعرت فيها بالأمل خلال قرن من الزمن تقريباً».

وأمسك جاسبر بيد آليس، وتابع كلامه.

وقالت آليس ضاحكة: «كدتّ أفقد الأمل من مجيئك، لذلك شعرتُ بالارتياح الشديد عندما شاهدتك!».

وتبادلا الابتسام، ثمّ نظر جاسبر إليّ، وتابع كلامه: «أخبرتني آليس عمّا رأته بشأن كارلايل وعائلته. لم أصدّق أذنيّ، لم أصدّق أنّه من الممكن أن يعيش جماعةٌ مثلنا بهذا الأسلوب. لكنّها شجّعتني على التفاؤل، وذهبنا معاً لنفتّش عنهم...».

«ولإلقاء الرّعب في قلوبهم أيضاً...!». أكمل إدوارد. «كنت قد خرجت في رحلة صيد مع إيميت، وعدنا لنرى جاسبر بجسده المليء بآثار الجراح من المعارك، وإلى جانبه هذه الفتاة الصغيرة ذات الأطوار الغريبة». ولمس بمرفقه آليس مداعباً، وقال: «فإذا بها تعرف أسماءنا وتعرف كلّ شيءٍ عنّا، وتسأل منذ لحظة قدومها، في أيّ غرفة ستقيم».

ضحك جاسبر وآليس بتناغمٍ معاً.

تابع إدوارد: «عندما عدتُ، كانت جميع أغراضي في الكاراج».

دافعت آليس عن نفسها قائلةً: «لأنّنا وجدنا أنّ غرفتك تسمح برؤية الطبيعة أكثر من غيرها».

ثمّ ضحك الجميع معاً.

قلت: «إنّها قصّة جميلة». لكنّي لاحظت عيونهم تتحوّل إليّ فجأةً سائلة عن صحتّي العقلية.

فاستدركت: «أقصد القسم الأخير منها، نهايتها السعيدة مع آليس».

قال جاسبر: «أوافق أنّ آليس غيّرت كلّ شيء في حياتي. وأنا سعيدٌ بالعيش هنا».

وقعت لحظة صمت ولكنّها لم تدم، فالجوّ السائد كان متوتّراً.

وهمست آليس بالسؤال: «لمَ لم تخبرني أنّهم جيش؟».

وكانت أنظار الجميع مركّزة على وجه جاسبر.

فأجاب: «خفتُ من أن أكون قد فسّرت الإشارات بطريقة غير صحيحة. لأنّي كنت لا أرى الهدف الذي يستدعي وجود جيشٍ في سياتل. لا يوجد تاريخ حروب في سياتل ولا دوافع للأخذ بالثأر. ولا يمكن أن نتصوّر أنّ يكون هناك مشروع غزو بهدف الاستيلاء على المدينة أو للقضاء على جماعة معيّنة. لا تسكن أيّ جماعة من مصّاصي الدّماء في سياتل، ولا أحد هناك ليهاجموه، ولا أحد ليدافعوا عن أنفسهم خوفاً منه.

لكنّي رأيت مثل هذه الحالة من قبل. هناك جيش من مصّاصي الدّماء الجدد في سياتل وعددهم أقلّ من عشرين على ما اعتقد. لكنّ الخطورة تكمن في أنّهم غير مدرّبين البتّة. تركهم من قام بتحويلهم ليعيثوا في الأرض فساداً دون قيدٍ أو شرط. أتوقّع أن الأمور ستشتدّ سوءاً، وستتدخّل عائلة فولتوري قريباً. أعجب أنّهم تركوا الأمور تتفاقم إلى هذا الحدّ».

«ماذا يمكننا أن نفعل؟». سأل كارلايل.

أجاب جاسبر بحدّة: «إن كنّا لا نرغب في تدخّل عائلة فولتوري، فعلينا التخلّص من هؤلاء بأنفسنا، ولكن بأقصى سرعة».

الآن بعد أن عرفت قصته، أقدّر المشاعر الصعبة التي تنتابه عندما يتلفّظ بمثل هذه العبارات. «بإمكاني أن أعلّمكم كيفية التغلّب عليهم. في الحقيقة إنّ عدم اكتراثهم لأمر السرّية يصعّب عمليّة التخلّص منهم. ولكن قد نتمكّن من جذبهم إلى خارج المدينة باعتماد أسلوب الحيلة».

«ربّما لا يناسبنا القيام بذلك». قال إدوارد بصوتٍ كئيب. «هل خطر في بال أحدٍ منكم أنّ السبب الوحيد الذي قد يدفع مصّاص دماء إلى بناء جيش هو وجودنا نحن هنا؟».

تقلّصت عينا جاسبر؛ وجحظت عينا كارلايل تحت تأثير الصدمة.

ثمّ حاولت إيزمي التهرّب من فكرة إدوارد، فقالت: «عائلة تانيا قريبة أيضاً».

«المخرّبون في سياتل. . .، وليسوا في مدينة آنكوراج يا إيزمي. بات علينا القبول بالواقع الذي يشير إلى أنّنا الهدف».

لكنّ آليس أصرّت: «إنّهم لا يفكّرون بإيذائنا. . .، أو على الأقل لا يعرفون حتى الآن أنّنا الهدف من تحرّكهم».

«ما هذا؟ ماذا تتذكّرين؟». سألها إدوارد بفضول وعصبيّة.

«ومضات». قالت آليس. «لا شيء واضحاً، بل ومضات غريبة. وكأنّ أحداً يعمل على دفعهم بسرعة من عمل إلى عمل، حتّى لا يتسنّى لي أن أرى الصورة بوضوح. . .».

سأل جاسبر باستغراب: «أيّ أنّ هناك تردّداً في اتخاذ القرار!؟».

«لا أعلم. . .».

قال إدوارد بصوتٍ هادر: «ليس تردّداً بل معرفة مستفيضة. إنّه شخصٌ يعرف أنّك لا تستطيعين الرؤية إلاّ إذا تمّ اتّخاذ القرار. إنّه يختبئ عنّا، ويتهرّب من دائرة رؤيتك بتفادي اتخاذ أيّ قرار».

«من يكون هذا الشخص الذي يعرف هذه التفاصيل؟». أجابت آليس.

تجمّدت عينا إدوارد عن الحركة، وقال: «آرو يعرفك كما تعرفين نفسك».

«لكنّي سأراهم إن قرّروا المجيء...».

«إلاّ إذا قرّروا عدم تلويث أيديهم مباشرةً».

وأدلت روزالي للمرّة الأولى برأيها: «قد تكون خدمة يقوم بها بعض المتمرّدين في الجنوب، بعض الذين حكم عليهم الفولتوري بالموت. أظنّ أنّ الفولتوري قد أعطوا لهؤلاء فرصةً أخيرة لكي يبرهنوا عن فائدتهم وقدرتهم على حلّ هذه المشكلة البسيطة...، هذا ما قد يفسّر تقاعسهم عن المجيء بأنفسهم حتّى الآن».

سأل كارلايل ولا يزال مصعوقاً: «ولكن لماذا؟...، لا أجد الأسباب التي قد تدفع الفولتوري إلى...».

أجاب إدوارد: «الأسباب موجودة، ولكنّي أستغرب هذا التصرّف، وهذه العجلة في التنفيذ، خصوصاً أنّ أفكار آرو الأخرى كانت أقوى...! في رأسه صورةٌ يراني فيها جالساً إلى يمينه وآليس إلى يساره. الحاضر والمستقبل. إنّه يحلم بالمعرفة الكليّة وغير المحدودة. سيطرت عليه هذه الفكرة القويّة ولم يستطع التغلّب عليها. وإلى جانب ذلك، هناك أنتَ يا كارلايل. عائلتنا تزداد قوّةً وعدداً. إنّه يشعر بالغيرة والخوف: أنتَ لا تملك ما يملكه...، ولكنّك تملك ما يريده لنفسه. حاول آرو أن يبعد هذه الفكرة عن ذهنه ولكنّه لم ينجح في إخفائها. نحن ننافسهم من ناحية عدد أفراد عائلتنا وفكرة التخلّص منّا تراوده».

كنت أحدّق في وجه إدوارد، لم يخبرني عن هذا الأمر أبداً! ولكنّي تذكّرت حلمَ آرو. لقد رأى هذا الأخير في حلمه أنّه جالسٌ فيما إدوارد

وآليس يسبحان إلى جانبيه بثوبين أسودين، وعيونهما باردة وحمراء بلون الدّم.

قطع عليّ كارلايل تلك التصوّرات المخيفة، عندما قال: «إنّهم ملتزمون برسالتهم إلى درجة عالية، ولا أتوقّع منهم أن يخالفوا القوانين التي وضعوها بأنفسهم. أعمالٌ كهذه تلغي كلّ إنجازاتهم السابقة».

وقال إدوارد بتجهّم: «ينظّفون وراءهم...، ويبعدون الشبهة عنهم. وتكون الخيانة مضاعفة».

انحنى جاسبر إلى الأمام قليلاً، وقال: «أعتقد أنّ كارلايل على حقّ. لا يقوم الفولتوري بأعمال تناقض القوانين. إضافةً إلى أنّ الوضع القائم شديد القذارة، وهؤلاء يتصرّفون بغير وعي. إنّهم مصّاصو دماء جدد، ولا يمكن أن يتواطأ الفولتوري معهم، ولكنّهم سيتدخلون لقمعهم».

تبادل الجميع نظرات القلق.

وقال إيميت: «إذاً لنقضِ عليهم، ماذا ننتظر؟».

نظر كارلايل إلى إدوارد طويلاً، ثم توجّه إلى جاسبر قائلاً: «حسناً يا جاسبر، نريدك أن تعلّمنا كيفية التخلّص منهم». كانت عضلات وجه كارلايل مشدودة، ونظراته حزينة، إذ لا أحد يكره العنف مثله.

شعورٌ غامضٌ اجتاح أعماقي، لم أعرف مصدره بالضبط. كنت أحسّ بالخدر، والرّعب والخوف المميت. ولكنّي أحسست بأنّي أجهل شيئاً معيّناً... شيئاً على قدر كبير من الأهميّة، وقد يفسّر ما يحدث الآن في هذه المعمعة.

«سوف نحتاج إلى المساعدة»، قال جاسبر. «هل هناك مانع لدى عائلة تانيا كي...، بحسب اعتقادكم؟ إن حصلنا على مساعدة خمسة من مصّاصي الدّماء البالغين، ستكون النتيجة مختلفة. ثمّ إنّ مساعدة

كايت وإليعازار، بشكلٍ خاصّ، سترجّح الكفّة لمصلحتنا ويكون الانتصار سهلاً».

«سوف نسألهم». قال كارلايل.

مدّ جاسبر يده إلى كارلايل، وأعطاه الهاتف المحمول: «نحتاج إلى التحرّك بسرعة».

لم أكن قد شاهدت كارلايل الهادئ متوتّراً إلى هذه الدرجة من قبل. أخذ الهاتف، ومشى باتجاه النافذة، ثمّ توقّف ليطلب الرّقم، ورفع الهاتف إلى أذنه وأسند يده الأخرى إلى زجاج النافذة. ثمّ سبحت نظراته إلى الخارج بوجعٍ وحيرة.

أخذ إدوارد بيدي وشدّني إلى المقعد الثنائي الأبيض. جلست بقربه وحوّلت عينيّ إلى وجهه؛ ولكنّ عينيه لم تفارقا وجه كارلايل.

تكلّم كارلايل بسرعة وبصوتٍ خفيض. لم أسمع بوضوح سوى التحيّة، ولم أفهم ما قاله بعد ذلك. بالطّبع، لقد أطلع تانيا على الوضع القائم، ولكنّي لا أظنّ أنّ مصّاصي الدماء في آلاسكا كانوا يجهلون ما يجري في سياتل.

وإذا بنبرة صوت كارلايل تتغيّر.

فقال: «أوه! لم نكن نعلم بموقف آيرينا هذا».

غمغم إدوارد بصوته، ودمدم: «اللّعنة على لورانت! لتلحق به اللّعنة إلى عمق أعماق جهنّم حيث هو!».

سألته بهمس: «لورانت؟» وشعرت بالدّم يهرب من وجهي. لكنّ إدوارد لم يجب، وبقي مركّزاً على كارلايل.

لم أنسَ لقائي السريع بلورانت في بداية فصل الربيع هذه السنة، والكلمات التي قالها والتي ما زالت تتردّد في رأسي، قبل أن أجبرته الذئاب على التزام الصمت إلى الأبد: «أنا آتٍ من أجل أن أسدي إليها خدمةً. . .».

كان إرسال لورانت أوّل خطوةٍ قامت بها فيكتوريا تمهيداً لانتقامها. أرسلته ليكتشف مكاني وكيفيّة الوصول إليّ. لكنّ الذئاب قطعت عليه طريق العودة إليها بالمعلومات المطلوبة.

وبرغم أنّه حافظ بعد موت جايمس على علاقته القديمة بفيكتوريا، ذهب ليعيش مع عائلة تانيا في آلاسكا. ترتبط عائلة تانيا بعائلة كولن بصداقة مميّزة وتكاد العلاقة بينهما أن تكون علاقة قربى وأخوّة. ولكنّ لورانت عاش مع هذه العائلة قرابة عام قبل موته.

كان كارلايل لا يزال يتكلّم، وطغت الحدّة على نبرات صوته، وبدا أنّه على وشك التوقّف عن محاولة الاقناع.

«هذه المسألة هي خارج نطاق البحث. لقد وقّعنا معاهدة هدنة بيننا. لم يتخطّوا شروط الهدنة ولن نفعل نحن ذلك. أشعر بالأسف... طبعاً! ولكنّنا سنقوم بمهمّة الدفاع بمفردنا».

قطع كارلايل المخابرة عند هذا الحدّ. وتابع النظر إلى الضباب من خلال النافذة.

«ما المشكلة؟». همس إيميت إلى إدوارد.

«يبدو أن آيرينا كانت على علاقة حميمة مع لورانت، وهي حاقدة على الرّجال الذئاب لأنّهم قتلوه من أجل حماية بيلاّ. إنّها تريد...». وتوقّف عن المتابعة ونظر إليّ.

قلت: «تابع». بصوتٍ تعمّدت أن يكون هادئاً.

تابع قائلاً: «إنّها تريد الانتقام. وتقترح أن نعطيها الإذن بالقضاء على الذئاب مقابل تقديم المساعدة لنا».

قلت بلهفة: «كلاّ!».

«لا تخافي، لن يوافق كارلايل أبداً على ذلك». تردّد قليلاً، ثم أطلق زفرةً، وقال: «ولا يمكن أن أوافق أنا أيضاً. كان لورانت آتياً لكي يقضي عليك. إنّي مدينٌ للذئاب بما قاموا به».

«هذا ليس مطمئناً»، قال جاسبر. «لدينا الخبرة، ولكن ينقصنا العدد. قد نربح... ولكن سندفع ثمناً باهظاً! وذهبت عيناه القلقتان في اتجاه آليس بسرعة، وعادت إلينا».

عندما استوعبت معنى كلام جاسبر، شعرت بحاجةٍ ملّحة إلى الصراخ. قد نربح ولكن الخسارة واقعة في جميع الأحوال لأنّ بعض أفراد العائلة سيموتون.

جلتُ بنظري على الوجوه حولي...، جاسبر، آليس، إيميت، روز، إيزمي، كارلايل...، إدوارد؛ إنّهم عائلتي.

14

إفصاح

«بعد ظهر هذا الأربعاء!؟ لا أعتقد أنكِ جادّة، هل فقدتِ عقلك؟».

«قولي ما شئتِ، لكنّ موعد الحفلة لا يزال قائماً».

نظرت إليها بتعجّب، وشعرت كأنّ عينيّ الجاحظتين ستسقطان من وجهي، وتقعان فوق طبق الطعام.

«إهدئي يا بيلاّ، لا يوجد سبب لإلغاء الحفلة والدعوات قد أُرسلت».

وحاولتُ الإجابة: «ولكن... ال... أنت... أنا... غير معقول!».

«لقد اشتريتِ هديّتي وليس هناك ما يعيقك، فما عليك سوى الحضور».

حاولت تمالك نفسي...، ولكن تبدو الحفلة في غير مكانها الآن، في وسط الوضع المتفاقم.

«التخرّج هو الحدث الآن. والحفلة أمرٌ طبيعي لا جدال حوله».

«آليس!».

تنهّدت آليس وقالت: «هناك عددٌ من الأمور التي تنتظر حلولاً، وبما أنّنا الآن في حالة انتظار، فلمَ لا نستمتع ببعض المناسبات المهمّة.

إنّك تتخرجين من المدرسة لأوّل مرّة يا بيلاّ، ولن تكون هناك مرّةً ثانية. لن يتسنّى لك أن تعيشي هذه المشاعر الانسانية مجدّداً يا بيلاّ. ستكون هذه المرّة بالنسبة إليك المرّة الوحيدة والأخيرة».

صوّب إدوارد إلى آليس نظرة تحذير فمدّت لسانها إليه بحركة تحدّي. كانت على حقّ، فلا يمكن لأحد سماع حديثنا وسط الضجّة السائدة في الكافيتيريا. إضافةً إلى أنّهم لو سمعوا، فلن يفهموا المقصود من كلامنا.

استعدتّ عبارتها، مع طرح السؤال: «وما هي الأمور التي تنتظر حلولاً؟».

أجاب إدوارد بصوتٍ خفيض: «يرى جاسبر أنّ بإمكاننا الحصول على المساعدة من خارج عائلة تانيا. يحاول كارلايل الآن الاتصال ببعض الأصدقاء القدامى. وجاسبر يفكّر الاستعانة بصديقيه بيتر وشارلوت، وربّما يستدعي ماريّا، ولكن لا أحد يرغب في تدخّل الجنوبيّين».

ارتجفت آليس قليلاً.

وتابع إدوارد: «لن يكون من الصّعب إقناعهم بتقديم المساعدة، فلا أحد يرغب في عودة الفولتوري إلى هنا».

قلتُ معترضة: «ولكنّ هؤلاء الأصدقاء ليسوا نباتيّين! أليس كذلك؟». وحاولت استعمال العبارة التي تطلقها عائلة كولن على نفسها.

«كلاّ!». أجاب إدوارد، وخلا وجهه من أيّ تعبير.

«هنا؟ في فوركس؟».

«إنّهم أصدقاء، لا تقلقي فكلّ الأمور ستسير على ما يرام. وسيعطينا جاسبر بعض الدروس حول كيفيّة القضاء على الجدد...».

رأيت بريقاً في عينيّ إدوارد وابتسامةً خاطفة تشرق على وجهه، فشعرت بسكاكين من الجليد تمزّق معدتي.

«متى تنوون الذهاب؟». سألته بصوتٍ جافّ. لم يكن باستطاعتي تصوّر أنّ أحداً منهم سيذهب إلى المعركة ولا يعود. ماذا لو أن إيميت بشجاعته المعروفة، وتسرّعه، لم يحافظ على سلامته؟ وكيف يمكنني تصوّر إيزمي اللّطيفة والمحبّة في خضمّ معركة، أو آليس التي تبدو صغيرة ورقيقة؟ أو. . . لا يمكنني أن أفكّر باسمه، يتعرّض لذلك الاحتمال.

«بعد أسبوع». أجاب إدوارد بطريقة عاديّة. «هكذا يكون لدينا الوقت الكافي لتحضير أنفسنا».

شعرت بالسكاكين تتحرّك مجدّداً في معدتي، وكدتّ أتقيأ.

قالت آليس: «ما بالك يا بيلاّ، لونك يميل إلى الصّفرة».

وضع إدوارد ذراعه حولي وشدّني إلى جانبه، وقال: «سنكون بخير يا بيلاّ، صدّقيني».

«بكل تأكيد!». قلت في نفسي. ليس هو الذي سيجلس منتظراً ومترقّباً إن كان حبيبه سيبقى حيّاً أم لا.

وخطر في بالي فجأةً أنّه ليس ضروريّاً أن أجلس وأنتظر. أمامي فرصة أسبوع وهي كافية.

فقلت بهدوء: «أنتم بحاجة إلى المساعدة».

قالت آليس: «نعم!». ثمّ مالت برأسها جانباً عندما لاحظت تغيّر صوتي.

والتفتُّ إليها متفاديةً النظر إلى إدوارد، وقلت بصوتٍ يكاد أن يكون همساً: «باستطاعتي المساعدة!».

لاحظتُ ذراع إدوارد تشتدّ حولي، وأنفاسه تصدر هسيساً مسموعاً.

حافظت آليس على هدوئها، وقالت: «في الواقع، هذه الفكرة ليست مفيدة».

فقلت بإصرار: «ولمَ لا؟ ثمانية مقاتلين أفضل من سبعة، ولديّ الوقت الكافي كي أصبح جاهزة».

«ليس لدينا الوقت الكافي لتدريبك يا بيلاّ؛ أنت تذكرين ما قاله جاسبر حول صعوبة تدريب الجدد. لن تكوني صالحة للدخول في معركة بهذه السرعة، ولن تستطيعي التحكّم بغرائزك، بل ستكونين هدفاً سهلاً. ثمّ إنّ إدوارد سيصاب بالأذى إن حاول حمايتك». قالت ذلك، وبدت فخورة بالأسباب المنطقيّة التي استحضرتها من أجل إقناعي.

أقنعتني حجتّها ولكنّي شعرت بخيبة الأمل. أمّا إدوارد فقد استرخى وبدا عليه الارتياح.

ثمّ همس في أذني مذكّراً: «لن تأخذي القرار تحت ضغط الخوف».

«أوه!». قالت آليس. «أكره الاعتذار في آخر لحظة...، لقد انخفض عدد المدعوّين إلى خمسة وستين».

«خمسة وستون!. ليس عندي هذا العدد الكبير من الأصدقاء...، حتّى أنّي لا أعرف هذا العدد من الناس!».

«من الذي اعتذر؟». سأل إدوارد، غير آبهٍ بردّ فعلي.

«رينيه».

«ماذا؟». قلت لاهثة.

«كانت تودّ مفاجأتك بقدومِها، لكنّ حدثاً معيّناً اضطرّها إلى الاعتذار».

شعرت بالارتياح، مهما كان الحدث الذي أجبر والدتي على الاعتذار، فقد جاء في الوقت المناسب. لم أتصوّر كيف سيكون شعوري لو أتت رينيه إلى فوركس في هذا الظرف المحرج.

* * *

كان جهاز التسجيل في الهاتف يستقبل رسالة الاعتذار من أمي عندما دخلت مع إدوارد إلى البيت. قالت إنّ فيليب تعثّر على أرض ملعب البايسبول وهو يدرّب اللاّعبين على حركة جديدة وتسبّب الحادث في كسر ساقه. وقالت إنّه لا يقوى على الحركة ويعتمد على مساعدتها في شتّى الأمور لذا فهي تعتذر عن المجيء إلى فوركس.

أطلقت زفرة استرخاء، وقلت: «هذه واحدة».

«ماذا تعني. . . بواحدة؟».

«باعتذارها عن المجيء، خفّضت رينيه عدد الأشخاص الذين أخاف عليهم من القتل هذا الأسبوع، واحداً».

نفخ تعبيراً عن انزعاجه.

قلت: «لِمَ لا تأخذان الأمر بجديّة أنتَ وآليس؟».

ابتسم، وقال: «تحلّي بالثقة».

أجبت متذمّرة: «عظيم!».

ثمّ أخذت الهاتف وطلبت رقم رينيه. كنت أعلم أنّ المخابرة ستكون طويلة كالعادة، ولكن مساهمتي ستقتصر على قسطٍ ضئيل من الكلام.

كنتُ أصغي وكلّما سنحت لي الفرصة، أؤكّد لها أنّي لست غاضبة من عدم قدومها ولم أشعر بالخيبة. وأخبرتني عن حالة فيليب وحاجته لها، فتمنّيتُ له الشفاء العاجل. ثمّ لجأت إلى ذريعة التحضير للامتحانات النهائية، فأنهيت المكالمة واعدةً بتزويدها بجميع وقائع حفلة التخرّج لاحقاً.

كان صبر إدوارد طويلاً ولم يبدِ أيّ انزعاج في انتظار انتهاء المكالمة. بل كان يتسلّى بمداعبة شعري ويبتسم كلّما رفعت عينيّ إلى وجهه. وكالعادة يتلعثم لساني وتنحبس أنفاسي أمام روعة ابتسامته. . .، لا أقوى على مقاومة جماله أيّاً كانت الظروف. فأنا لست سوى إنسان.

بعد انتهاء المخابرة، وقفت على رؤوس أصابعي كي تصل شفتيّ إلى شفتيه فلفّ ذراعه حول خصري ورفعني إلى الطاولة العالية. فعانقته وذبت فوق صدره البارد.

لكنّه وضع حدّاً للعناق قبل أن أشعر بالاكتفاء.

فخاب أملي وظهرت الخيبة على وجهي. ضحك وهو يتخلّص بصعوبة من ذراعيّ وساقيّ. ثمّ استدار ولفّ ذراعه حول كتفيّ.

«تظنّين أنّي قادرٌ على السيطرة على نفسي دائماً، وهذا ليس صحيحاً».

تنهّدتّ قائلة: «كنت أتمنّى ألاّ يكون صحيحاً».

فتنهّد هو أيضاً.

وقال: «غداً بعد الظهر، بعد انتهاء دوام المدرسة، سنذهب أنا وكارلايل وإيزمي وروزالي لنتصيّد في الجوار. لن نغيب سوى بضع ساعات، وسيتمكّن جاسبر وإيميت وآليس من حمايتك».

«غداً! غداً موعد امتحان التاريخ وامتحان الحساب، وأتوقّع أن يستغرقا وقتاً طويلاً. هذا يعني أنّي سأقضي طيلة نهار غدٍ بمفردي، وكم أكره أن يكون هناك من يقوم بحمايتي كأنّي طفلة بحاجة لمن يرعاها».

قال: «هذا وضعٌ استثنائي ولن يدوم طويلا!».

فقلت: «سيضجر جاسبر، وسيسخر إيميت منّي».

«سيتصرّف الجميع بتهذيب».

ثمّ تذكّرت أنّي لو ذهبت إلى لا بّوش، لن يضطرّوا إلى حراستي.

«تعلم... إنّي لم أذهب إلى لا بّوش منذ سهرة النار». قلت ذلك، وراقبت تعابير وجهه. فنظر إليّ وتقلّصت عيناه قليلاً.

تابعت: «تذكّر أنّه لا خوف على سلامتي هناك».

فكّر في الأمر لبضع ثوانٍ. «قد تكونين على حقّ».

كان وجهه هادئاً جدّاً، فأوشكت على سؤاله إن كان يفضّل أن أبقى هنا. لكنّي خفت من تمادي إيميت في المزاح والسخرية، وغيّرت رأيي.

«هل تشعر بالظمأ؟»، سألته، ولمست بيدي الخطّ الداكن قليلاً حول عينه، ولاحظت أن لون عينيه ما زال ذهبيّاً لامعاً.

فقال: «ليس الأمر كذلك تحديداً». وبدا متردّداً في الإجابة. تعجّبت من ذلك، وانتظرت التوضيح.

«نودّ أن نصبح على أفضل مستوى ممكن من القوّة». وأضاف وهو لا يزال متردّداً: «ستتصيّد الحيوانات الضّخمة».

«هل يضاعف هذا الأمر قوّتكم؟».

نظر إلى تعابير وجهي، فلم يرَ سوى الفضول.

وأخيراً، قال: «نعم، دماء الآدميّين تجعلنا أقوى ولكن من منظارٍ معيّن. فكّر جاسبر أنّ مخالفة القوانين قليلاً، قد تكون فكرة جيّدة من الناحية العمليّة، لكنّه ابتعد عنها لأنّه يكره ذلك شخصيّاً، ولكونه يعرف موقف كارلايل المتشدّد إزاء هذا الأمر».

فقلت: «وهل صيد الحيوانات يعوّض عن ذلك؟».

«... لن نغيّر عاداتنا».

قطّبت جبيني. «الأهمّ هو ألاّ يصيبهم مكروه، ولكن إن كان الأمر يستدعي...»، ارتجفت رعباً من أفكاري السقيمة، لكنّي لم أرفضها كليّاً. وسألتُ نفسي: «هل أنا مستعدّة لرؤية إنسانٍ بريء يموت، كي ينجوَ إدوارد؟».

وتحوّل عن النقطة المحورية في الموضوع، وقال: «لهذا نجد مصّاصي الدّماء الجدد أقوياء جدّاً. فإنّ دماءهم الانسانية، كردّ فعل على التحوّل، تبقى في أنسجتهم لوقتٍ طويل وتزوّدهم بالقوّة. تستخدم أجسادهم هذه الدّماء ببطء لكنّها تنفد بعد سنةٍ تقريباً، فتتراجع قوّتهم، كما أخبرنا جاسبر».

سألته: «بأيّ مستوى من القوّة تتوقّعني أن أكون؟».

أجاب ضاحكاً: «أقوى منّي».

فقلت: «أقوى من إيميت؟».

ضحك أكثر، وقال: «تذكّري أن تتحدّيه عندما تتحوّلي، فتكون تجربة مفيدة له».

ضحكت، ولكنّي استغربت ضحكي.

وأخيراً، قفزت عن الطاولة المرتفعة إلى الأرض. لم يعد بإمكاني تأجيل التحضير لامتحانات الغدّ. من حسن حظّي أنّ إدوارد كان إلى جانبي، فهو أفضل مدرّس لأنّه على علم تامّ بجميع المواد المدرسية. يبقى عليّ التركيز على الأسئلة غداً، أخاف أن أخطئ قراءة السؤال في امتحان التاريخ، وأسرد على الورقة قصص حروب مصّاصي الدماء في الجنوب.

ثمّ اعتذرت من إدوارد لأطلبَ رقم جايكوب، فلم يبدِ أي انزعاج بل أخذ يداعب خصلات شعري مثلما فعل عندما تكلّمت مع رينيه.

ردّ عليّ جايكوب بنبرةٍ ساخطة، فكأنّ رنين الهاتف قد أيقظه من النّوم برغم أنّ الساعة كانت تقارب الثالثة بعد الظهر. إلاّ أنّ مزاجه ما لبث أن تحسّن عندما أخبرته بمشروع زيارتي غداً بعد الظهر. كانت الدروس قد انتهت في مدرسة كويلوت، لذا أصرّ جايكوب أن آتي باكراً. كنت مسرورة لوجود خيار آخر أمامي، غير الرّضوخ المهين للحراسة.

لكنّ قرار إدوارد باصطحابي بنفسه حتّى الحدّ الفاصل، أعاد إليّ شعور الطفلة التي يتناوب والداها أمر رعايتها، فيسلّمها واحدهما إلى الآخر بدراية وانتباه.

وقال إدوارد في الطريق محاولاً تبادل الحديث معي: «كيف كان امتحانك؟».

«امتحان التاريخ كان سهلاً، لكن المفاجئ أن الحساب بدا لي سهلاً أيضاً، ولذلك أظنّ آنّي أخطأت في فهم ما هو مطلوب».

ضحك وقال: «أظنّ آنّك ستنجحين في المادتين؛ ولكن إن كنت تشكّين في الأمر، يمكنني أن أعطي رشوة إلى الأستاذ فارنر، فيعطيك درجة (A)».

«كلاّ شكراً.»

ضحك مجدّداً، لكنّ تعابير وجهه ما لبثت أن تغيّرت عندما استدارت السيارة واقتربنا من الخطّ الفاصل.

قطّب جبينه مركّزاً على أمرٍ معيّن، ثمّ أطلق زفرة عميقة بعد أن أوقف محرّك السيّارة.

«ما المشكلة؟». قلت، ويدي على مقبض الباب.

هزّ رأسه، وقال: «لا شيء». وكان ينظر بعينين مضطربتين من خلال الزجاج الأمامي إلى سيارة جايكوب، فذكّرتني نظراته تلك بحادثةٍ سابقة.

«لا تقل لي إنّك تصغي إلى ما يدور في ذهن جايكوب من أفكار».

«ليس من السّهل عدم الاصغاء عندما تكون الأفكار بمثابة صراخ».

«أوه! ماذا يقول في صراخه؟». سألت بصوتٍ خافت.

أجاب إدوارد بمرارة: «إنّي متأكّدٌ من آنّه سيخبرك بنفسه».

كدت أعيد طرح السؤال، وأصرّ على فهم فحوى أفكار جايكوب، لو لم يضغط هذا الأخير على بوقِ سيّارته مرّتين متتاليتين.

«يا له من تصرّف غير لائق!». قال إدوارد ساخطاً.

قلت: «هذا هو جايكوب». وخرجت من السيارة قبل أن يبالغ صديقي بتصرّفه الأرعن، فيضايق إدوارد أكثر.

أومأت إلى إدوارد، قبل أن أصعد إلى السيارة (السلحفاة)،

ولاحظت من بعيد أنّه ما زال شديد التوتر بسبب تصرّف جايكوب غير اللائق، أو ربّما بسبب أفكار هذا الأخير. لكنّي شككت بدقّة نظري الذي غالباً ما يقع في الخطأ.

كنت أتمنّى أن يقتربا من بعضهما ويتصافحا، ويتصرّفا كإدوارد وجايكوب، وليس كمصّاص دماء ورجل ذئب. شعرتُ وكأنّي أمسك بقطعتي المغنطيس الكبيرتين، محاولةً جعلهما في وضعٍ معاكس لوضعهما الطبيعي، ولكنّهما لا يمتثلان.

أطلقتُ زفرةً، وصعدتّ إلى سيّارة جايكوب.

«أهلاً بك يا بيلاّ!». قال جايكوب بابتهاج. ثمّ أدار محرّك سيارته متوجّهاً إلى لا بّوش. نظرت إلى وجهه، فبدا متعباً ويوحي بالمرض. كان جفناه يهبطان بثقل فوق عينيه، ووجهه متجهّماً. أما شعره فكان أشعث ومبعثراً في جميع الاتجاهات.

«هل أنتَ بخير يا جايك؟».

«أشعر ببعض التعب، لا غير». ثم خرج من السيارة وهو يتثاءب من شدّة النعاس. وقال: «ماذا تودّين أن نفعل اليوم؟».

تمعّنت في وجهه وقلت: «لنذهب إلى منزلك الآن، ويمكننا أن نركب درّاجاتنا لاحقاً».

«بالتأكيد! بالتأكيد!». قال ذلك، وعاد إلى التثاؤب.

وصلنا إلى البيت ولم يكن بيلي هناك. لم أكن أتصوّر ذلك البيت من دونه. فسارعت إلى السؤال: «أين بيلي؟».

عند عائلة كليرووتر. تشعر سوزان بوحدة شديدة بسبب وفاة زوجها، فيذهب لزيارتهم غالباً.

وجلس جايكوب على المقعد القديم الذي يتّسع لشخصين، وترك لي مكاناً كي أجلس إلى جانبه.

فقلت: «هذا تصرّف لطيف من جانب بيل. . . ،مسكينة سوزان!».

«إنّها تمرّ بأوقات صعبة. . .» وتابع متردّداً: «مع أولادها».

«بالطّبع، فبالنسبة إلى سيث وليا، خسارة والدهما ليست أمراً سهلاً».

أيّد جايك كلامي، لكنّ أفكاره بدت مشغولة بشيءٍ آخر. أدار جهاز التلفزيون وأخذ يستعرض المحطات بحركة تلقائية ومن دون اكتراث؛ ثمّ تثاءب من جديد.

قلت: «ما بالك يا جايك، تبدو مثل النائم».

«لم أنم سوى ساعتين اللّيلة الماضية، وأربع اللّيلة التي قبلها. أشعر بالإرهاق»

سألته: «ولمَ قلّة النوم؟».

«سام لا يثق بمصّاصي الدّماء كليّاً، ويطلب منّي القيام بحراسة مكثّفة كلّ ليلة. إنّي أقوم بدورتَيّ حراسة كلّ ليلة، ولم أرَ أيّاً منهم. من الآن وصاعداً، سأقوم بالحراسة ولكن بالطريقة التي أراها مناسبة».

«قلتَ إنّك تقوم بدورتي حراسة! هل هذا لأنّك تقوم بحمايتي أيضاً. هذا خطأ يا جايكوب، من الضروري أن تأخذ قسطك من النوّم. لا تقلق فأنا بخير».

«لا تأبهي للأمر». واتّسعت عيناه فجأةً، وقال: «هل عرفتم من هو الذي كان في غرفتك؟ هل هناك أيّ شيء جديد؟».

تجاهلت القسم الثاني من السؤال، واكتفيت بالقول: «كلاّ، لم نكتشف أيّ جديد بشأن. . . الزائر».

«إذاً، سأذهب إلى الحراسة».

وعدت لأردّد: «جايك. . .، لا لزوم لذلك، إنّك ترهق نفسك».

«هذه أقلّ واجباتي. تذكّري إنّي قطعت وعداً على نفسي بخدمتك ما حييت. أنا عبدك على مدى الحياة».

«لا أحتاج إلى استعباد أحد!».

ثمّ سألني، وعيناه نصف مغلقتين: «ماذا تريدين؟».

«أريد صديقي جايكوب، حيّاً وليس ميتاً. لا أريدك أن تتأذى نتيجة التسرّع».

«أنظري إلى الموضوع بهذا الشكل. أقوم بهذا آملاً أن يكون المذنب هو مصّاص دماء، فأقتله، ويكون لديّ الحقّ في قتله».

لم أجب، فنظر إليّ محاولاً قراءة تعابير وجهي.

«لا تغضبي، لست جادّاً في ما أقوله».

حوّلت نظري إلى التلفزيون.

«ماذا تخطّطين بالنسبة للأسبوع القادم؟ سوف تتخرّجين، واو!». لكنّ صوته كان خالياً من أيّ شعور، ووجهه المتعب بدا شاحباً جدّاً، وأجفانه هبطت فوق عينيه ليس من شدّة الإرهاق، بل هروباً من الواقع. لاحظتُ أنّ موعد تخرّجي لا يزال مرعباً بالنسبة إلى جايك لأنه لم يعلم بقرار التأجيل الذي اتّخذناه أنا وإدوارد.

«لم أخطّط شيئاً بالنسبة للأسبوع القادم». حاولت أن أضمّن كلماتي رسالة مطمئنة له، من دون الإسهاب في التفسير. لم أكن أرغب في الكلام عن أسباب التأجيل لسببين؛ أوّلهما أن حالة جايكوب الحاضرة لا تؤهّله للاستماع. وثانيهما أنّه سيذهب بعيداً في تفسيرها. وقلت: «ولكن آليس ستقيم حفلة كبيرة بمناسبة تخرّجي. لقد دعت إليها عدداً كبيراً من الناس وأنا لا أطيق الفكرة».

فتح عينيه وابتسم، فبدا على وجهه بعض الارتياح. وقال ممازحاً: «لم تصلني دعوة، فأنا مستاء».

«اعتبر نفسك مدعوّاً. الحفلة هي على شرفي وأستطيع دعوة من أشاء».

«شكراً!». قال ساخراً. وأطبق جفنيه من جديد.

«أتمنّى لو تأتي. إن أتيت، سيكون الجوّ مسلّياً أكثر بالنسبة لي».

أجاب ببطء: «بالتأكيد، وقرار ذهابي يكون غاية في الحكمة».

وبعد ثوانٍ، غلبه النعاس، واستسلم للنّوم.

مسكين جايكوب. تأمّلت وجهه الحالم فلم أرَ تجهّماً ولا مرارة، بل كان وجه صديقي المخلص والصبي العادي الذي عرفته، قبل أن تبدأ كلّ تلك السخافات التي تلت تحوّله إلى رجلٍ ذئب.

حاولت عدم إزعاجه كي يرتاح ويعوّض ولو قليلاً عن ساعات النّوم التي فاتته. فبقيت في مكاني ورحت أقلّب بين محطّات التلفزيون علّني أجد برنامجاً مسليّاً فوقعت على محطّة تستعرض وصفات طبخٍ جديدة. عندما غرق جايكوب في نومٍ عميق وارتفع صوتُ شخيره عاليّاً، رفعت صوت التلفزيون.

استرخيت في المقعد، وشعرت برغبةٍ في النّوم أنا أيضاً، لكنّ شخيره منعني، فلم أجد أمامي سوى التفكير واستعراض الأمور. لقد فرغتُ من تقديم الامتحانات وكان معظمها سهلاً. ها قد وصلت إلى نهاية دراستي الثانوية ولكنّ مشاعري في هذه المرحلة ليست واضحة، فالنظر إليها بموضوعيّة أمرٌ صعب لارتباطها بموعد نهاية حياتي الانسانية.

إلى متى سيستمرّ لجوء إدوارد إلى العبارة العذر «لن تختاري تحت وطأة الخوف...؟!». قريباً، سيأتي الوقت المناسب لأفرض إرادتي.

من الأفضل عمليّاً أن أطلب من كارلايل أن يحوّلني في اللّحظة الأولى بعد تخرجي، خصوصاً وأنّ بلدة فوركس تكاد تصبح ساحة قتال، بل إنّها باتت كذلك. وبالنسبة للحفلة التي تقيمها آليس، فتحوّلي سيكون عذراً لعدم حضورها. وفي هذه الحال، سيكون الدافع لاتخاذي هذا القرار المهمّ سخيفاً ولكن مغرياً.

لكنّ إدوارد على صواب، فأنا لستُ جاهزة في الوقت الحاضر.

أجدُ صعوبةً في فهم رغبتي بتلقّي تلك العضّة من إدوارد دون غيره. إنّها مجرّد رغبة سخيفة. إذ، من الناحية العملية، بعد أن أتلقّى العضّة فعليّاً ويسري السمّ في شراييني، لن تبقى ثمّة أهميّة عندي لمن عضّني من مصّاصي الدّماء، لذا فلن يكون هناك أيّ فرق.

هناك سببٌ وراء تمسّك إدوارد في اختيار الموعد، فهو يسعى إلى تأجيله باستمرار حتى يمنع حدوث التحوّل أبداً. لكن بالنسبة لي، أعشق أن تكون لمسة شفتيه آخر ما أشعر به في حياتي الانسانيّة. وأشعر بالإحراج عندما أقول إنّي أتمنّى أن أستقبل سمّه هو بالتحديد في جسدي. أشعر بأنّ ذلك يجعل الرّابط بيننا ماديّاً وملموساً.

ولكنّي أعلم أنّه لن يتراجع عن شرط الزواج المسبق منّي لأنّ ذلك سيحقّق له التأجيل الذي يريده. تصوّرت نفسي وأنا أتحفّز لإعلان رغبتي في الزواج هذا الصيف إلى والديّ وآنجيلا وبن ومايك. تخيّلت أنّه من الأسهل أن أعلن لهم، وخصوصاً إلى رينيه، عن قراري في التحوّل إلى مصّاص دماء، على أن أعلن عزمي على الزواج. ضحكت عندما تخيّلت الرّعب على وجه رينيه لو تلقّت مثل هذا الخبر.

وفي خلال لحظة، عادت إلى مخيّلتي من جديد تلك الصورة التي تمثلني أنا وإدوارد نجلس على أرجوحة أمام باب البيت، ونرتدي ثياباً تعود إلى عصرٍ آخر، حيث لا يستغرب الناس خاتم الزواج في إصبعي. عالمٌ آخر أكثر بساطة.

تحرّك جايكوب واستدار نحوي، فشعرت بشدّة الحرارة المنبعثة من جسده. تحرّكت بهدوء كي أترك المقعد، لكنّه فتح عينيه فجأةً، وانتصب واقفاً.

«ماذا؟ ماذا؟». أخذ يتساءل، وهو ينظر حوله مرتبكاً.

قلت: «لا تأبه، لقد أخذتك غفوة».

فقال: «أوه. . . ، لقد غلبني النوم. آسف! هل نمتُ طويلاً؟».

«لبعض الوقت، لم ألاحظ الساعة».

عاد ليجلس فوق المقعد إلى جانبي. «واو! أنا آسف حقّاً!».

مددت يدي إلى شعره، وحاولت ترتيب الخصلات المتشابكة، وقلت: «لا تشعر بالأسف. أسعدني أنّك ارتحتَ قليلاً».

تثاءب وتمغّط، وقال: «لا عجب في أن يغادر بيلي البيت غالباً، فأنا مملٌّ هذه الأيام».

«لا تبدو مملاً، لا تقلق».

«لنخرج إلى الهواء الطّلق، وإلاّ سأنام ثانيةً».

«عد إلى النوم يا جايك. سأكون بخير وسأتصل بإدوارد، كي يأتي ليأخذني». ورحت أتحسّس جيوب سترتي وأنا أتكلّم، ولكنّها كانت فارغة. «هل أستطيع أن أستعمل هاتفك، نسيت أن أجلب هاتفه معي؟».

«كلاّ!». قال جايكوب، وأمسك بيدي. «إبقي الآن، نادراً ما تأتي إلى هنا. لا أصدّق كيف أضعت كلّ ذلك الوقت!».

شدّ بيدي لأقوم عن المقعد، ومشى أمامي إلى الخارج. ساهم الهواء البارد في تنشيط جايكوب، فراح يسير أمام البيت ذهاباً وإياباً وهو يجرّني معه ويتمتم: «أنا غبيّ».

«لَم المبالغة يا جايك، لقد غلبك النعاس، أين المشكلة؟».

«كنتُ أريد التحدّث إليك. لا أصدّق كيف أضعت الوقت».

قلت: «تحدّث إليّ الآن».

حدّق في عينيّ قليلاً، ثمّ حوّل نظره إلى الأشجار. لاحظت بشرته السمراء تكتسب حمرةً قانية، وسرعان ما تذكّرت ما قاله إدوارد عن أنّ جايكوب سيطلعني على ما كان يدور في رأسه، فرحت أترقّب وأنا أعضّ على شفتيّ.

«كنت أخطّط لطرح هذا الموضوع بطريقةٍ أخرى. . .أكثر لباقة»، وضحك، وكأنّه يضحك من نفسه، «وكنت أفضّل أن نستعرض الأمور تدريجاً. . .»، ونظر إلى ألوان المغيب التي تنذر بانتهاء النهار، وأكمل ضاحكاً: «ولكن لم يبقَ أمامي الوقت الكافي لذلك».

كنا نمشي ببطء، فقلت: «عمّ تتكلّم؟».

أخذ نفساً عميقاً، وقال: «أريد أن أطلعكِ على أمر. . .، أنتِ على معرفة سابقة به، ولكنّي أريد التعبير عنه بوضوح وبصوتٍ عالٍ».

تسمّرت في مكاني وسحبت يدي من يده وشبكت ذراعيّ على صدري. انتابني شعورٌ مفاجئ بعدم الرّغبة في معرفة ما ينوي قوله.

توقّف عن المشي وقطّب حاجبيه فاختبأت عيناه في ظلّهما. ثمّ عاد ورفعهما إلى عينيّ.

«أنا أحبّك يا بيلّا!». قال جايكوب ذلك بصوتٍ قويّ وصارم. «بيلّا، أنا أحبّك، وأريدك أن تختاريني بدلاً منه. أعلم أنّك لا توافقين على ذلك، ولكن أريد أن تكون الحقيقة واضحة أمامك، وأن تعلمي أنّ لديك خياراً آخر. لا أريد أن أترك مجالاً للالتباس بيننا حول هذا الموضوع».

15

رهان

نظرت إليه طويلاً، من دون أن أنبس بحرف. لم أجد شيئاً أقوله.

أمام الصدمة التي أصبتُ بها، غيّر مظهره الجدّي قليلاً، وأضاف مبتسماً: «حسناً، هذا كلّ شيء».

«جايك...». وشعرت بانسداد قويّ في حنجرتي، ثمّ قلتُ لاهثة: «لا أستطيع، أعني إنّي لا...، يجب أن أذهب».

استدرت لأذهب، لكنّه أمسك بكتفي وأدارني نحوه.

«لا، انتظري» ثم نظر في عينيّ وقال: «أجيبي عن هذا السؤال بصراحة: هل ترغبين في أن أختفي من حياتك كليّاً؟».

شعرت بصعوبة في التركيز ولكنّي أجبته بعد دقيقة: «كلاّ، لا أريد ذلك».

فضحك، وقال: «أرأيتِ؟»؛

«ولكن أريد الاحتفاظ بكَ في حياتي لسببٍ مختلف».

«وما هو هذا السبب؟».

قلت بانتباه: «أشتاق إليك في غيابك. وعندما تكون سعيداً، أكون سعيدة أيضاً. ولكنّ هذا ينطبق على شعوري نحو تشارلي أيضاً. جايكوب! علاقتنا هي علاقة عائلية. أنت عزيزٌ عليّ، ولكنّك لستَ حبيبي».

هزّ برأسه ولم يضطرب، وقال: «ولكنّك تريدين أن أبقى في حياتك».

تنهّدتّ وقلت: «نعم».

«إذاً، سأبقى حاضراً».

«أنتَ كالعقوبة التي لا مفرّ منها». قلت مغمغمة.

«نعم!». ورفع يده مداعباً خدّي، فضربته عليها، فأزاحها.

«ألا تظنّ أنّه ينبغي أن تراقب تصرّفاتك؟».

«لا أظنّ. عليك الاختيار، فإمّا أن تقبلي بوجودي كما أنا، أو أختفي من حياتك كليّاً».

صوّبت إليه نظرة إحباط، وقلت: «هذا تصرّف خسيس».

«وتصرّفك هو كذلك أيضاً».

نفّرني كلامه، وخطوتُ خطوة تلقائية إلى الوراء. ولكنّه كان على حقّ؛ كان يفترض بي، لو لم أكن خسيسة وطمّاعة أيضاً، أن أطلب منه الابتعاد عنّي، وإخلاء المكان كليّاً في حياتي. إنّي مخطئة في محاولة المحافظة على صديقي بالطريقة التي تؤلمه. تنبّهت الآن إلى أنّ ما كنتُ أقوم به لم يكن تصرّفاً عادلاً.

«إنّك على حقّ!». اعترفت هامسة.

ضحك. «لقد سامحتك، لكن حاولي ألاّ تغضبي منّي. لأنّي قرّرت عدم الاستسلام. إنّه صراعُ مستميت لاستدراك خسارة قبل وقوعها».

قلتُ وأنا أحدّق في عينيه السوداوين: «جايكوب، إنّي أحبّه، وأختصر فيه كلّ معاني حياتي».

«أنتِ تحبّيني أيضاً». ورفع يده مشيراً إليّ بعدم مقاطعته، وتابع: «ربّما لا تحبّينني بالطريقة ذاتها، ولكنّه لا يختصر كلّ حياتك. كان كذلك قبل أن يتركِكِ، لكن عليه الآن تحمّل تبعات ما فعله، ألا وهي وجودي أنا في حياتك».

هززت رأسي، وقلت: «كم أنتَ صعب المراس!».

وإذا بتعابيره قد أصبحت أكثر جديّة، فوضع يده تحت ذقني وثبّت وجهي قبالة وجهه حتّى التقت نظراتنا، وقال: «سأبقى أصارع من أجلك يا بيلاّ ما دام قلبك ينبض. لا تنسي أنّ أمامك خياراً آخر».

حاولت دون جدوى أن أحرّر وجهي من يده، وقلت: «لا أرغب في تعدّد الخيارات. ومن جهة نبضات قلبي فقد أصبحت معدودة. الوقت شارف على الانتهاء».

أجاب هامساً: «إن ذلك يمنحني دوافع أقوى للصراع؛ وسوف أصارع بكلّ قوّتي الآن، قبل فوات الآوان!».

كانت أصابعه لا تزال تمسك بذقني، عندما لاحظت في عينيه رغبةً في تقبيلي فحاولت الإفلات، لكنّ شفتيه أطبقتا على شفتيّ.

قبّلني بانفعال وعنف، وهو يمسك برأسي من الوراء، فانعدمت قدرتي على الهروب. لجأت إلى كلّ ما أملك من قوةّ كي أدفعه عنّي، لكنّه لم يتحرّك. كانت شفتاه الطريّتين برغم الغضب، تلتقي بشفتيّ بحنانٍ ودفء لم أعهدهما في حياتي.

أمسكتُ بوجهه محاولةً دفعه إلى الوراء، فازداد عناداً. واشتدت قبلته عنفاً حتى شعرت بأنفاسه الحارّة داخل فمي.

عندئذٍ لجأت إلى طريقة غرائزيّة بالدفاع. أرخيت ذراعيّ، وأغلقت الستار على جميع مشاعري، وفتحت عينيّ، ورحت أنتظره ريثما ينتهي.

بعد دقيقة، عندما هدأت سورة غضبه، توقّف عن تقبيلي، ونظر إليّ نظرة استفهام. ثمّ عاد وأطبق شفتيه الطريّتين فوق شفتيّ مرّتين و. . .ثلاثاً، وأنا أقف أمامه كالتمثال.

وأخيراً، ارتاح وابتعد قليلاً.

«هل فعلت ما تريد الآن؟». قلت بصوتٍ خالٍ من كلّ تعبير.

تنهّد وقال: «نعم». وابتسم وهو يغلق عينيه.

أرجعت ذراعي بقوّةٍ إلى الخلف، ثمّ صوبّت بقبضة يدي ضربةً إلى فمه شحنتها بكل ما أوتيت من قوّة.

انطلق صوت تحطّم.

وصرخت: «أو! أوه!». صرخت بجنون، ورحت أقفز في مكاني من شدّة الألم ويدي على صدري... شعرت بأنّها تحطّمت.

نظر إليّ جايكوب مذعوراً: «هل أنتِ بخير؟».

«اللعنة! لقد كسرتَ يدي».

«بيلاّ، توقّفي عن القفز، لقد كسرتِ يدك. دعيني أنظر إليها».

«لا تلمسني، سأذهب إلى البيت حالاً!».

«سآخذك بسيارتي». قال ذلك بهدوء من دون أثر للندم. ما هذه المذلّة؟

«كلاّ شكراً، أفضّل أن أذهب مشياً على الأقدام».

استدرت في اتجاه الطريق، وفكّرت أنّ الخط الفاصل لا يبعد سوى أميال معدودة. ستراني آليس حالما أبتعد من هنا وترسل أحداً كي يأخذني.

«دعيني آخذك إلى البيت». وبوقاحة كدت لا أصدّقها، وضع ذراعه حول وسطي.

فقفزتُ بعيداً عنه.

قلتُ بغضب: «حسناً، خذني إلى البيت. أتشوّق لرؤية ما سيفعله بك إدوارد. أتمنّى أن يدقّ عنقك، أيها الكلب الوقح والمجنون والبغيض!».

لم يأبه بما قلته، ومشى معي إلى السيارة، وفتح الباب وساعدني لأصعد. وعندما جلس خلف المقود، راح يصدر صفيراً بشفتيه.

«ألم تشعر بالألم أبداً من لكمتي؟». سألته بانزعاج وسخطٍ شديدين.

«هل أنتِ جدّية في سؤالك؟ ربّما، لولا صراخك، لما لاحظت تلك اللكمة التي سدَّدتِها إلى وجهي. أنا لست صخرةً بالطّبع، ولكنّي لست هشّاً إلى هذه الدرجة».

«أكرهك...، جايكوب بلاك!».

«هذا دليل إيجابي. فالكراهية هي عاطفة جيّاشة».

«هل تريد عاطفة جيّاشة. حسناً، سأقتلك. القتل ينطوي على أقوى العواطف الجيّاشة».

«لا تبالغي!». وبدا مرتاحاً، وكأنّه على وشك العودة إلى الصفير مجدّداً. «كفى أنّي شعرتُ وكأنّي اقبّل صخرةً».

قلت ببرود تامّ: «وقد يكون تقبيل الصخرة أفضل».

زمّ شفتيه، وقال: «من المحتمل أن تكون هذه الكلمات مجرّد كلمات، ولا تعكس الحقيقة».

«لكنّها الحقيقة».

شعرت بأنّ كلامي أزعجه قليلاً، لكنّه ما لبث أن تخطّاه، وقال: «قد تكوني متضايقة لقلّة خبرتي في التقبيل، لكن من جهتي، فقد استمتعت بذلك إلى أبعد حدّ».

«إمّم!». غمغمت.

«سوف تفكرين بي اللّيلة. عندما يظنّ أنّكِ تنامين، ستستعرضين في رأسك الخيار الآخر الذي أمامك».

«ربّما تعود إلى ذهني اللّيلة وسط كابوسٍ مزعج».

خفّف من سرعة السيارة، واستدار لينظر إليّ بجدّية بعينيه الواسعتين، وقال بلهجة حارّة، وهادئة: «فكّري يا بيلاّ كم تكون الحياة جميلة لو اخترتني. لن تضطرّي إلى تغيير أيّ شيء كي تكوني معي؛ وتشارلي سيكون راضياً. باستطاعتي حمايتك كما يحميك مصّاص الدّماء وأكثر. ستعيشين سعيدة معي يا بيلاّ...، تذكّري أنّ ما أقدّمه لك، لا

بملكه هو. أراهن أنّه لا يستطيع تقبيلك بهذا الشكل، لأنّه لو فعل فقد يؤذيك. بينما لا يمكن أن أؤذيك أنا أبداً، أبداً يا بيلاّ».

رفعتُ يدي المكسورة من أجل تذكيره.

«لست مَنْ اقترف هذا الخطأ، كان يجب أن تتوقّعي هذه النتيجة».

«إسمع يا جايكوب، لا يمكنني أن أكون سعيدة من غيره».

«لم تحاولي أبداً. عندما غادر، صرفتِ كلّ طاقتك في الاصرار على عودته. كنتِ ستكونين سعيدة لو تقبّلتِ غيابه. كنتِ ستكونين سعيدة معي».

قلتُ بعناد: «لا أريد أن أكون سعيدة مع أحدٍ سواه».

«لا يمكنك أن تكوني أكيدة من استمرار وجوده معك، كما هو أكيد استمراري أنا معك. لقد تركَكِ مرّةً، وقد يتركُكِ مرّةً أخرى».

شعرتُ بضيقٍ شديد، وقلت: «لا، لن يتركني». وعادت إليّ آلام تلك الفترة العصيبة، وأردتُ أن أسدّد له ردّاً محكماً، فقلت ببرود: «وأنتَ تركتني مرّةً». وكنتُ أشير إلى الأسابيع التي توارى فيها عنّي، والكلمات التي قالها لي في الغابة قرب منزله...

«لم أتركْكِ قطّ. لقد قالوا لي إنّ وجودي معك يعرّضك للخطر. ولكنّي لم أغادر أبداً. كنتُ أدور حول منزلك كلّ ليلة لأتأكّد من سلامتك، كما أفعل الآن».

لم أدع نفسي أشعر بالذنب تجاهه، كما كنت على وشك أن أفعل.

«خذني إلى البيت، إنّ يدي تؤلمني».

تنهّد، وعاد إلى التركيز على قيادة السيارة.

«فكّري بالأمر يا بيلاّ».

«كلاّ!». قلت بعناد.

«سوف تفكّرين هذه اللّيلة، وسأفكّر بك في الوقت نفسه».

«كما قلت لك. . . ، قد أرى كابوساً».

التفت إليّ وقال ضاحكاً: «قبّلتني أنتِ أيضاً».

انفعلتُ وتسارعت أنفاسي، وشددتُ بطريقة غير واعية يدي لأسدّد إليه لكمةً أخرى، وصرختُ من الألم.

«هل أنتِ بخير؟».

«لم أقبّلك».

«يمكنني أن أعرف الفارق».

«من الواضح أنّك لا تعرف الفارق. أيها الغبيّ، كنتُ أحاول أن أبعدك عنّي».

أصدر ضحكةً خافتة، وقال: «هذا مؤثر، إنّك تبالغين بالدّفاع عن نفسك!».

أخذتُ نفساً عميقاً وقلتُ في نفسي أن لا جدوى من الكلام معه، فهو يفهم كلّ ما أقوله على طريقته الخاصّة. نظرت إلى يدي ورحتُ أحاول فتح أصابعي كي أحدّد مكان الكسر، وتوقّعت أن يكون على مستوى الأصابع.

قال: «أنا آسف لما أصاب يدك!». وشعرت بصدق شعوره. وتابع: «ولكن في المرّة القادمة، استعيني بعصا بايسبول».

«لا أظنّ أنّي سأنسى ذلك».

لم أنتبه إلى أنّه كان يقود السيارة في اتجاه بيتي. فقلتُ له: «إلى أين تأخذني؟».

نظر إليّ بحيرة وقال: «ألم تطلبي العودة إلى بيتك؟».

«إمّم! أظنّ أنّك لا تستطيع أن تأخذني إلى بيت إدوارد، أليس كذلك؟». وصررتُ على أسناني استياءً.

رأيت وجهه يعتصر ألماً وكأنّ وقع كلماتي الأخيرة كان أصعب عليه من كلّ ما تلفّظت به سابقاً.

وقال بهدوء: «هذا بيتك يا بيلاّ».

«نعم، ولكن هل من طبيب في بيتي؟». قلتُ رافعةً يدي من جديد.

فكّر قليلاً، ثمّ اقترح: «هل آخذك أنا إلى المستشفى؟ أو يأخذك تشارلي؟».

«لا أريد أن أذهب إلى المستشفى. سيكون الأمر محرجاً، ولا لزوم لذلك».

كان لا يزال يفكّر عندما وصلنا أمام البيت، وكانت سيارة تشارلي متوقّفة هناك.

أطلقتُ زفرةً، وقلت: «عد إلىّ بيتك يا جايكوب».

خرجت من السيارة بصعوبة ومشيت نحو البيت. وإذا بجايكوب يطفئ محرّك سيارته ويتبعني، ففاجأني إصراره على مرافقتي إلى داخل البيت.

«ماذا ستفعلين؟».

«سأضع بعض مكعّبات الثلج على يدي، وأكلّم إدوارد في الهاتف كي يأخذني إلى كارلايل ليعالجها. ثمّ، إن كنتَ لا تزال هنا، سأجد عصا بايسبول لأضربك بها».

لم يجبني، بل ساعدني في فتح باب البيت الأمامي كي أدخل.

مررنا من أمام الغرفة الأمامية حيث كان تشارلي مستلقياً، فجلس للتوّ عندما رآنا، ورحّب بجايكوب بفرحٍ ظاهر.

تمهّل جايكوب ليلقي التحيّة على تشارلي، فيما تابعت خطواتي نحو المطبخ.

«هل من مشكلة مع بيلاّ؟». سأل تشارلي.

سمعت جواب جايكوب وأنا أفتح الثلاجة لأخرج بعض الثلج: «تشعر بأنّ يدها مكسورة».

أجاب تشارلي بمرح: «كيف فعلت ذلك؟» صُدمت بردّ فعله، إذ كنت أتوقّع من والدي أن يظهر اهتماماً أكثر. على الأقلّ، ألاّ يتكلّم عن الأمر وكأنّه أضحوكة كما فعل جايكوب.

ضحك جايكوب وأجاب: «لقد ضربتني».

سمعتُ تشارلي يضحك أيضاً. كنتُ في تلك اللّحظة أضرب قالب الثلج على حافة حوض الصحون لأخرج منه بعض المكعّبات، فضربته بقوّة حتّى تناثرت جميع المكعّبات في قعر الحوض. وضعت بعضها داخل منشفة ولففتها حول يدي.

«لمَ ضربتك؟». سأل تشارلي.

«لأنّي قبلتها». أجاب جايكوب من غير استحياء.

فهنّأه تشارلي قائلاً: «حسناً فعلتَ!».

تأفّفت بشدّة، وأخذت الهاتف لأطلب رقم إدوارد.

أجاب إدوارد حالاً: «بيلاّ!». وشعرتُ بارتياحه لسماع صوتي. «لقد نسيتِ الهاتف، هل أوصلك جايكوب إلى البيت؟».

«بلى، قلت. هل يمكنك أن تأتي لتأخذني، من فضلك؟».

قال: «أنا في طريقي. هل من مشكلة؟».

«أعتقد أنّ يدي مكسورة وأريد من كارلايل أن يعاينها».

كانت الأصوات قد خفتت في غرفة الجلوس، وتساءلت متى سيقرّر جايكوب المغادرة.

«ماذا حدث؟». قال إدوارد باهتمام.

أجبت: «صوّبت لكمة إلى وجه جايكوب».

«جيّد!». قال إدوارد. ولكنّي آسف أنّك كسرتِ يدك.

ضحكت ضحكةً قصيرة، وأنا أفكّر كيف أنّ الخبر أفرح إدوارد، مثلما أفرح تشارلي.

«كنت أتمنّى لو آذيته. لم يتأثّر بلكمتي أبداً».

قال: «سأهتمّ بالأمر».

«يسرّني قولك هذا!».

بعد لحظة صمت، سأل متوجّساً: «ليس من عادتك اتخاذ هذا الموقف من جايكوب. ماذا فعل؟».

«لقد قبّلني». قلتُ بغضب.

كلّ ما سمعته بعد ذلك هو تضاعف هدير محرّك سيّارة الفولفو.

ومن الغرفة، ارتفع صوت تشارلي من جديد: «جايكوب! أقترح عليك أن تغادر».

«سأبقى هنا. إن سمحت؟».

«ستكون نهايتك».

وأخيراً سمعت صوت إدوارد من جديد: «ما زال الكلب هناك؟».

«نعم».

«سأصل بعد لحظات». قال بصوتٍ جافّ، وقطع المكالمة.

وما كدتُ أضع الهاتف من يدي مبتسمة، حتّى ضجّ هدير الفولفو، واخترق صرير الكوابح الأجواء، قبل أن تتوقّف السيارة أمام البيت.

توجّهت بسرعة لأفتح الباب وفي لحظة مروري أمام غرفة الجلوس، عاجلني تشارلي بالسؤال: «كيف تشعرين بيدك؟». وكان يبدو متوتّراً. أمّا جايكوب فكان يجلس في مقعده مسترخياً.

رفعتُ كيس الثلج عنها، وقلت: «إنها متورّمة».

فقال: «يجب أن توفّري لكماتك إلى من هم في مثل قوّتك!».

قلت: «قد تكون على حق».

فتحت الباب، وكان إدوارد ينتظر.

«دعيني ألقي نظرة». لمس يدي بانتباه وعناية، وكان ملمس أصابعه الباردة مريحاً كملمس الثلج.

أنت على حقّ، إنّها على الأرجح مكسورة. أنا شديد الاعتزاز بك، ويبدو أنّك ضربته بكامل قوّتك...!

«يبدو أنّ قوتي لم تكن كافية».

قبّل يدي بنعومة، وقال: «سأهتمّ بالأمر». وبصوتٍ هادئ، نادى: «جايكوب!».

«مهلاً، مهلاً»، قال تشارلي محذّراً. وسمعته يتنهّد وهو يرفع جسده عن المقعد. ولكّن جايكوب ما لبث أن حضر ووقف منتصباً في مواجهة إدوارد، وبدا متيقّظاً، ومتحمّساً.

وإذا بتشارلي يصرخ بصوتٍ حازم: «لا أريد أي اصطدام. يمكنني أن أضع إشارة البوليس في هذه اللحظة، كي تعتبرا طلبي رسميّاً».

«هذا ليس ضروريّاً». قال إدوارد بنبرةٍ مقتضبة.

«لِمَ لا تلقي القبض عليّ يا أبي، فأنا التي توزّع اللّكمات؟».

رفع تشارلي حاجبيه، والتفت إلى جايكوب قائلاً: «هل تريد أن ترفع دعوى يا جايك؟».

ضحك جايك، وقال: «كلّا، سأرجئ المطالبة بحقّي إلى فرصة أخرى».

ابتسم إدوارد بسخرية.

«هل في غرفتك عصا بايسبول يا أبي، أريد استعارتها لدقيقة واحدة؟».

صوّب تشارلي إليّ نظرة تأديبية: «كفى يا بيلّا!».

قال إدوارد: «هيّا نذهب كي يعالج كارلايل يدك، بدلاً من أن ينتهي بك الأمر في السجن اللّيلة». ووضع ذراعه حولي، ومشينا نحو الباب.

قلت: «حسناً». وكان قد عاد الهدوء إليّ، وخفّ ألمي بعد مجيء إدوارد.

كنّا قد خرجنا وسرنا في اتجاه السيارة، عندما سمعت تشارلي يدمدم محذّراً: «هل أنتَ مجنون، ماذا ستفعل؟».

«لا تقلق يا تشارلي، سأعود حالاً». أجاب جايكوب.

نظرت إلى الوراء، فرأيت جايكوب يتبعنا بعد أن أغلق باب البيت وراءه، وتشارلي لا يزال في الداخل ينظر من خلال النافذة.

تجاهله إدوارد، وأكمل خطواته معي نحو السيارة. ساعدني لأصعد وأغلق الباب، ثمّ التفت إلى جايكوب. فمددت رأسي لأراقبهما من شباك السيارة، وكنت خائفة.

وقف جايكوب وعقد ذراعيه فوق صدره، وبدت عضلاتُ فكّيه منقبضة.

خاطبه إدوارد بأسلوب لطيف وهادئ يوحي بخطورة الموقف: «لن أقتلك الآن لأنّ ذلك قد يؤذي مشاعر بيلّا!».

«أفّ!». أصدرتُ تأفّفاً مبهماً.

التفت إليّ إدوارد مبتسماً وكان وجهه لا يزال هادئاً، ثمّ داعب خدّي بأصابعه وتمتم: «سيستمرّ الألم حتى صباح الغد».

ثمّ عاد والتفت إلى جايكوب: «ولكن إن كنتَ ستعيدها لي مرّةً أخرى وقد لحقها أيّ أذى بسبب خطإٍ صدر عنك أو عنها؛ لا فرقَ إن تعثّرت في مشيتها، أو وقع شهب من السماء وأصابها في رأسها؛ إن أعدتها إليّ بحالةٍ غير سليمة، وعلى غير الحالة التي تسلّمتها بها، سأجعلك تركض على ثلاث قوائم. هل فهمت أيها المهجّن؟».

أدار جايكوب عينيه متبرّماً.

قلت مدمدمة: «لا تتوقّع منّي أن أذهب إلى ذلك المكان مجدّداً!».

وتابع إدوارد بصوتٍ مخمليٍّ ومخيف: «وإن حاولت تقبيلها مجدّداً، سأكسر فكّك بنفسي هذه المرّة».

تشدّق جايكوب بغطرسة: «وماذا لو طلبَت منّي تقبيلها؟».

«هه!!» قلتُ بازدراء.

هزّ إدوارد كتفيه، وقال بغير اضطراب: «إن كان ذلك ما ترغب به، لن أعترضها في ما تريد. ولكن يجب أن تنتظر حتى تقول لك ذلك بنفسها، ولا تتسرّع في الاستنتاج استناداً إلى بعض الإشارات غير الدقيقة. ولكن فكّر بالأذى الذي سيلحق بوجهك».

ابتسم جايكوب.

فقلت له بغضب: «لا تحلم بذلك!».

قال إدوارد: «نعم، إنّه يحلم».

وإذا بجايكوب يتوجّه فجأةً إلى إدوارد ساخطاً: «بدل من أن تقف هنا محاولاً العبث بأفكاري، أسرع إلى الاهتمام بيدها».

«هناك شيءٌ آخر أريدك أن تعرفه»، قال إدوارد ببطء. «سأحارب من أجلها أنا أيضاً. لا تظنّ أنّ حبّها لي سيجعلني أستخفّ بالتحدّي. . . ، سأحارب من أجلها أكثر منك».

«أمرٌ جيّد!». قال جايكوب. «لا لذّة في الانتصار على من يستسلم بسرعة».

«إنّها لي». قال إدوارد بنبرةٍ داكنة. «أنا لا أعدك بأنّ المعركة بيننا ستكون متكافئة».

«ولا أنا». قال جايكوب.

«أتمنّى لك الحظّ».

هزّ جايكوب برأسه قائلاً: «وليربح الأفضل بيننا».

«حقّاً. . . !».

انحنى جايكوب ونظر إليّ مبتسماً، وقال: «أتمنّى لك الشفاء السريع، آسف جدّاً للأذى الذي أصابك».

قابلت ابتسامته بالعبوس، وأشحتُ بنظري عنه كما يفعل الأطفال. وبقيتُ كذلك حتّى وصل إدوارد إلى مقعده في السيارة، ولم ألاحظ إن كان جايكوب قد عاد ودخل إلى البيت، أم بقي واقفاً في مكانه.

«كيف تشعرين؟». سألني إدوارد بعد أن أدار محرّك السيارة.

«متوتّرة».

«أعني ماذا عن الألم في يدك».

قلتُ: «سبق واختبرت أصعب منه».

«أنتِ على حقّ!». وافق على قولي وقطّب حاجبيه.

وصلنا إلى بيت إدوارد، ووجدنا إيميت وروزالي في الكاراج. كان إيميت يرفع بيده سيارته (الجيب) الضخمة، وروزالي ممدّدة تحتها لتصلح عِطلاً معيّناً.

وإذا بعينيّ إيميت ترمقاني بفضول عندما خرجت من السيارة وأنا أحمل يدي على صدري. فقال ضاحكاً: «هل سقطتِّ مرّة أخرى يا بيلّا؟».

حدّقت في وجهه بشراسة وقلتُ: «كلّا، سدّدتُ لكمةً إلى رجلٍ ذئب».

تعجّب إيميت ممّا سمعت أذناه، ثمّ أطلق ضحكةً عالية.

وصرخت روزالي من تحت السيارة: «سيربح جاسبر الرّهان».

توقّف إيميت عن الضحك في الحال، وألقى عليّ نظرةً تقييمية.

تسمّرت في مكاني، وقلت: «أيّ رهان؟».

«لنذهب إلى كارلايل». قال لي إدوارد، ونظر إلى إيميت نظرة استهجان وعتاب.

التفتّ إليه، وسألت بإصرار: «أيّ رهان؟».

لكنّ إدوارد شدّ ذراعه حول خصري ودفع بي نحو باب البيت، قائلاً: «أشكرك يا روزالي!».

قلت متذمّرة: «إدوارد. . . ؟!».

أجاب: «أمرٌ سخيف، إيميت وجاسبر يحبّون المقامرة».

قلت: «إيميت سيجيبني». وحاولت أن أدير رأسي لأخاطب إيميت، لكنّ إدوارد استمرّ في دفعي إلى الأمام.

«كانا يراهنان حول عدد المرّات التي ستخطئين فيها خلال السنة الأولى».

«أوه! قلت باشمئزاز، بعد أن تيقّنت من معنى كلامه. إنهما يراهنان على عدد الناس الذين سأقتلهم؟».

«نعم». قال متردّداً. «وروزالي تعتقد أنّ عصبيتك دليلٌ على أنّ جاسبر سوف يربح الرّهان».

شعرت بالدّم يتدفّق في عروقي. «هل يعتقد جاسبر إنّي سأقتل عدداً كبيراً من الناس؟».

«لقد تعب من كونه الحلقة الأضعف من هذه الناحية».

«لا شكّ في ذلك! سأقتل أعداداً هائلة من البشر من أجل إرضاء جاسبر. ولمَ لا؟». رحت أتمتم وأغمغم من دون وعي. وفي رأسي، كنت أرى عناوين الصحف وأسماء الضحايا. . .

«ليس من الضروري أن ينتابك القلق بسبب هذا الأمر الآن. إنّك غير مجبرة على أن تقلقي بسببه أبداً. . . إذا أردتِ».

تأوّهت، فظنّ إدوارد أنّي أتأوّه من شدّة الألم، فدفعني إلى الإسراع في الوصول إلى كارلايل.

قال كارلايل إن الإصابة بسيطة ولا أحتاج إلى وضع يدي في

الجص، واكتفى بأنّ شدّ أصابعي برباط طلب منّي أن أحتفظ به لبضعة أسابيع.

لم أكن بحاجة لمزيد من الهموم، لكنّ الرّهان الذي تكلّم عنه إيميت لم يفارقني، خصوصاً وأنّ قِصص مصّاصي الدّماء الجدد التي رواها لي جاسبر ما زالت تراود مخيّلتي. ولكنّي تساءلت عن الجائزة التي ستكون من نصيب رابح الرّهان. ما هو الشيء الذي لا يزالان في توقٍ للحصول عليه، برغم قدرتهما على امتلاك أيّ شيء بسهولة؟

أنا على يقين بأنّي سأكون مختلفة. وآمل أنّي سأكون قويّة جدّاً كما يتوقّع إدوارد. سأكون قويّة وسريعة. . .، والأهم بالنسبة لي، هو أن أكون على قدر كبير من الجمال الذي يخوّلني الوقوف إلى جانب إدوارد من دون أن أشعر بالنقص.

لكنّي كنت أبتعد عن التفكير بالجوانب الأخرى لتلك الشخصيّة الجديدة؛ شرسة، ظمأى إلى الدّماء. . .، ربّما لن أستطيع ردع نفسي عن قتل الناس باستمرار. سأكون السبب وراء قائمة أخرى من الضحايا مثل الذين أقرأ أسماءهم يوميّاً في الجريدة. أناسٌ لهم حياتهم وأحلامهم، ولهم محبّون وعائلات وأطفال. قد أكون أنا المجرمة التي ستحرمهم من كلّ هذا.

وعدني إدوارد، وأنا أثق جدّاً بوعوده، إنّه سيمنعني من أن أقوم بعملٍ يجلب عليّ الندم. لقد قال إنّه سيأخذني إلى آنتاركتيكا كي أصطاد حيوانات البطريق. سأفعل كلّ ما أستطيع كي أكون فتاة صالحة، أو بالأحرى مصّاصة دماء صالحة. غالباً ما أضحكتني هذه الفكرة، وكدتُ أبتسم الآن لولا هذا الهمّ الجديد الذي لا يزال يراودني. . .

هل باستطاعتي أن أبقى أنا نفسي إن كنت سأقتل الناس الأبرياء، كما فعل مصّاصو الدماء الجدد في حكاية جاسبر؟ إن كان قتل الناس هو كلّ ما سأسعى إليه، ماذا سيحلّ بالقيم التي أؤمن بها الآن؟

يصرّ إدوارد على أن أستمتع بجميع التجارب الانسانية خلال حياتي كإنسان، ولكنّي في الحقيقة لا أهتمّ إن فاتني عددٌ كبيرٌ منها. . .، فعندما أكون معه لا أشعر بحاجة إلى أيّ شيءٍ آخر!

نظرتُ إلى وجهه، وهو يراقب كارلايل يربط يدي. لا شيء يهمّني في هذا العالم أكثر منه. هل سيتغيّر أو هل يمكن أن يتغيّر هذا الأمر؟

هل هناك تجربة إنسانية معينة قد أرفض التنازل عنها؟

16

عهد جديد

«ليس عندي ثيابٌ مناسبة!». تمتمتُ لنفسي شاكيةً.

كلّ ما كنت أملكه من ثياب كان ملقىً أمامي فوق السرير. لقد أفرغت الخزانة والأدراج من محتوياتها، ورحتُ أستعرضها علّني أجد شيئاً يلائم المناسبة.

حان وقت الانطلاق، ولا أزال أرتدي ثيابي القطنيّة العاديّة جدّاً. نظرت إلى الكرسي الهزّاز حيث وضعت التنورة ذات اللّون الكاكي وقلتُ مدمدمة: «لو لم يأخذ مصّاص الدّماء اللّعين قميصي الحمراء التي تتلاءم معها، لما كنت أواجه هذه المشكلة الآن».

وإذا بآليس تجيب على تأفّفي من مصّاصي الدّماء، وتفاجئني: «وما الذنب الذي اقترفته أنا بحقّك؟».

كانت تقف إلى جانب الشبّاك المفتوح مستندةً إلى الحائط، وكأنّها كانت تنتظر هناك منذ زمن.

وضحكت وهي تتظاهر بالطّرق على الباب: «طق، طق!».

قلتُ: «هل كان من الصّعب حقّاً أن تنتظري كي أفتح لكِ الباب؟».

ولكنّها ألقت فوق السرير علبةً بيضاء مسطّحة كانت في يدها، وقالت: «كنت مارّة من هنا، ففكّرتُ انّك قد تحتاجين إلى بعض الملابس من أجل المناسبة».

نظرتُ إلى العلبة الكبيرة الملقاة فوق ثيابي القديمة، فسارعت آليس إلى التبجّح: «اعترفي إنّي أنقذتك من مأزقٍ كبير».

قلت: «لقد أنقذتني حقّاً، شكراً!».

وتابعت: «جميلٌ أن تكون مواهبك مفيدة هذه المرّة. . .، لا تتصوّري صعوبة أن تخسري الملابس التي خسرتها. أشعر بأنّي عاجزة، كما يشعر أيّ إنسان طبيعي في مثل هذه الظروف».

تظاهرتُ بالاشمئزاز، وقالت: «أف! لا يمكنني أن أتصوّر صعوبة أن يكون المرء طبيعيّاً».

ثمّ ضحكت: «على الأقلّ، قد أعوّض لك بهذه الطريقة عجزي عن اكتشاف هويّة سارق ملابسك. ويبقى عليّ اكتشاف هويّة هؤلاء العابثين بأمن سياتل».

عندما أتمّت تلك الجملة، وذكرت الأمرين معاً، اتّضحت الصورة أمامي فجأةً. رأيت أمام عينيّ تلك الحقيقة غير الملموسة التي كنت أفتّش عنها. نظرت إليها وتجمّدت عيناي على وجهها، ولا أدري كيف بدت ملامحي في تلك اللّحظة.

«ما بالك لا تفتحين العلبة؟»، وعندما لم أتحرّك من مكاني، مدّت يدها ورفعت الغطاء بنفسها وأخرجت شيئاً منها وعرضته أمام عينيّ، لكنّي لم أركّز لأرى ما هو. «اخترت اللّون الأزرق لأنّ إدوارد يجده مناسباً للون بشرتك».

لم أسمع ما قالت.

«هو نفسه». قلتُ بهمس.

قالت: «ما هو؟ ليس عندك مثله. لا تملكين سوى تنورة واحدة. . .!».

«كلاّ يا آليس، أنا لا أتكلّم عن الملابس، إسمعي!».

«لم يعجبك ما اخترتُ لك؟». وبدت على وجهها أمارات الخيبة.

«إسمعي يا آليس، الزائر الذي اقتحم غرفتي وسرق ثيابي، ومصّاصو الدماء الجدد في سياتل! إنهم معاً، إنّهم واحد».

سقطت الثياب من بين أصابعها وعادت إلى العلبة.

ركّزت آليس تفكيرها معي في تلك اللّحظة، وقالت بصوتٍ حادّ: «ما الذي دفعك إلى هذا الاستنتاج؟».

«أتذكرين ما قاله إدوارد، عن الشخص الذي يستغلّ حسن معرفته بنقاط الضعف في الرؤية لديك كي يمنعك من رؤية مصّاصي الدّماء الجدد؟ ثمّ أنّكِ قلتِ سابقاً إنّ الذي جاء إلى غرفتي، قام باختيار وقت مجيئه بدقّة، كأنّه تعمّد عدم لقاء أحدٍ منّا، لأنّه يعلم أنه لو قابل أحدنا لرأيته أنتِ. أعتقد أنّك على حقّ يا آليس. أعتقد أنّه يعلم ذلك، وأنّه كان يستغلّ نقاط الضعف ذاتها. ما هي الاحتمالات لو أنّ جهتين مختلفتين هما على درجة عالية من المعرفة الدقيقة بقدراتك، تقومان بما قامتا به، وتختاران الفترة الزمنيّه عينها؟ إنّي متأكّدة من أنّ هاتين الجهتين هما جهة واحدة. الذي سرق رائحتي هو نفسه الذي يبني جيش مصّاصي الدماء الجدد في سياتل».

لم تعتد آليس المفاجآت. لذا تجمّدت في مكانها ولم تتحرّك خلال حوالى دقيقتين. بعد ذلك، نظرت إليّ وقالت: «أنتِ على حقّ! مؤكّداً، أنتِ على حقّ!».

قلتُ بصوتٍ خافت: «لم يصب إدوارد في تقديره. كان الأمر بمثابة اختبار. يريد الزائر أن يتأكّد أنّ باستطاعته الدخول إلى هنا والخروج بأمان طالما أنّه لا يقوم بعملٍ تترقبينه، كأن يحاول قتلي مثلاً. والزائر لم يأخذ ثيابي ليبرهن أنّه وجدني، بل ليعطي رائحتي للآخرين كي يجدوني».

صعقت آليس، وبدت مؤمنة بالذي قلته لها.

لم أعد أشعر بالحيرة، وهدأت مشاعري لسببين، أولّهما أنّي

وجدت تلك الحلقة المفقودة التي كنت أفتش عنها. وثانيهما وهو الأهمّ، أنّ هدف ذلك الجيش في سياتل كان القضاء عليّ أنا، وليس التخلّص من عائلة كولن.

وقلتُ لآليس: «لا لزوم الآن للقلق، لا أحد ينوي إفناء عائلة كولن على الأقلّ».

«إن كنتِ تظنّين أن ذلك يغيّر في الأمر، فأنتِ مخطئة جدّاً. لن ينجو عدوّك من مواجهتنا جميعاً قبل أن يصل إليك».

«شكراً يا آليس، لكنّنا نعلم الآن على الأقلّ ما هو هدفهم. هذا من شأنه أن يساعدنا».

تمتمت: «ربّما»، وأخذت تقطع أرض الغرفة ذهاباً وإياباً.

«طق، طق».

طرق تشارلي الباب، وقال بعصبية: «هل أنتِ جاهزة؟ نكاد نتأخّر».

يكره تشارلي الاجتماعات الرسمية مثلي، لسببٍ رئيسي وهو أنه لا يحبّ التقيّد بارتداء ملابس رسمية.

«سأحضر حالاً». قلت بصوتٍ متحشرج.

«هل تبكين؟».

«كلاّ، لكنّي متوتّرة. ابتعد قليلاً!».

همست آليس: «سوف أذهب».

قلتُ: «لماذا؟».

«سيأتي إدوارد الآن، لو علم بالأمر...».

قلتُ: «إذهبي حالاً!».

لو علم إدوارد بما قلنا سيفقد صوابه. لن أستطيع إخفاء الأمر عنه لمدّة طويلة، لكنّ حفلة التخرّج ليست الإطار المناسِب لردّ فعله.

«ارتدي الثياب الجديدة!» قالت آليس وهي تخرج بسرعة الطير من الشباك.

قمت بما طلبت مني وارتديت الثياب. كنت قد فكّرت بتصفيف شعري بطريقة خاصّة تليق بالمناسبة، ولكن قصر الوقت جعلني أتخلّى عن الفكرة وبقي شعري مسترسلاً حول وجهي كما في الأيام العاديّة، حتّى أنّي لم أنظر إلى نفسي في المرآة كي أرى كيف تبدو تلك الثياب عليّ. وضعت ثوب التخرّج الأصفر المقيت على ذراعي، واندفعت إلى الطابق السفلي.

نظر إليّ تشارلي وتحرّكت عواطفه، فقال وهو يكبت دمعته: «تبدين جميلة. هل هذه الثياب جديدة؟».

أجبت: «شكراً، إنّها هديّة من آليس».

وصل إدوارد بعد انطلاق آليس بدقائق، لم أكن قد ارتديت قناع الهدوء التامّ بعد، لكنّنا سنذهب في سيارة تشارلي، ولن يتسنّى له ان يتفحّص وجهي ويسألني عمّا يشغل بالي.

رفض تشارلي الأسبوع الماضي اقتراحي في أن أذهب مع إدوارد إلى حفلة التخرّج. تفهّمت وجهة نظره، وتنازلت عن فكرتي احتراماً لحقوقه كوالد في هذه المناسبة الخاصّة. بعد ذلك، أظهر إدوارد رغبةً في مرافقتنا، ولم يجد تشارلي عذراً مقبولاً كي يعترض على ذلك.

جلس إدوارد في المقعد الخلفي في سيارة البوليس وراء الحاجز الزجاجي. وكان يضحك من حينٍ إلى آخر، خصوصاً عندما ينظر إليه تشارلي في المرآة ضاحكاً. لو عبّر أبي عمّا كان يدور في رأسه في تلك اللّحظات بصوتٍ عالٍ، لدخل في شجارٍ عنيفٍ معي لا محالة.

«هل أنتِ بخير؟». سألني إدوارد وهو يأخذ يدي كي أخرج من السيارة عندما وصلنا.

أجبته: «متوتّرة». ولم أكذب.

«تبدين جميلة جدّاً!». وكان يودّ أن يضيف شيئاً، لولا أنّ تشارلي وقف فجأةً بيننا، ووضع ذراعه حول كتفيّ، وقال: «هل تشعرين بالحماسة؟».

أجبت بصراحة: «ليس بالقدر الكافي».

«بيلاّ! هذه مناسبة كبيرة في حياتك، إنّك تقفين الآن على عتبة الحياة الحقيقية. ستتركين البيت وتلتحقين بالجامعة. لقد كبرتِ... وكادت الكلمات تختنق في حنجرته».

«أرجوك يا أبي، لا تذرف الدموع على فراقي الآن».

«أنا لا أذرف الدّموع!؟ ولكن لمَ لستِ متحمّسة؟».

«لا أدري. ربّما لأنّي لم أستوعب الأمر بعد».

«حسناً فعلت آليس بإقامة هذه الحفلة، ربّما يساعدك ذلك كي تتنبّهي إلى أهميّة تخرّجك».

«ليست الحفلة كلّ ما أحتاجه بالتأكيد».

ضحك تشارلي وشدّ ذراعه حولي. كان إدوارد ينظر إلى الغيوم السابحة في السماء وبدا أنّه يفكّر.

تركنا أبي أمام باب قاعة الرّياضة حيث اجتمع الطلاب المتخرّجون، وذهب ليقف مع الأهالي في الجهة الأمامية.

صخبٌ كبير كان يرافق محاولة السيّدة كوب والأستاذ فارنر لجعل الطلاب يقفون بحسب تسلسل أسمائهم الأبجدي.

«إلى مقدّمة الصفّ يا سيّد كولن»، صرخ الأستاذ فارنر بإدوارد.

«مرحباً بيلاّ!».

نظرت إلى مصدر الصوت، فرأيت جيسيكا ستانلي تومئ إليّ من مؤخرة الصفّ وهي تبتسم.

قبّلني إدوارد بسرعة، وأطلق تنهّيدةً، ثمّ ذهب ليقف في مكانه. لم

تكن آليس موجودة معنا. . .، هل هي مشغولة بأمرٍ ما ولن تحضر المناسبة. قلتُ في نفسي: «ليتني أرجأت التفكير في ذلك الموضوع إلى ما بعد التخرّج».

«تعالي إلى هنا يا بيلاّ!». نادتني جيسيكا مجدّداً.

مشيت نحو مؤخّرة الصف كي أقف وراء جيسيكا، متعجّبة قليلاً من تودّدها المفاجئ. ورأيتُ آنجيلا، فلاحظتُ على وجهها تعجّباً مماثلاً من تصرّف جيسيكا.

بدأت جيسيكا بالكلام قبل أن أقترب إلى حدٍّ كافٍ لكي أسمعها. «أليس غريباً، أشعر أنّه لم يمضِ وقتٌ طويل على تعارفنا، وها أنّنا نتخرّج معاً. أكاد لا أصدّق أنّنا انتهينا من هذه المرحلة، أكاد أصرخ!».

«وهذا لسان حالي». قلتُ متمتمة.

«أتذكرين كيف أصبحنا صديقتين من المرّة الأولى عندما التقينا؟ والآن سأذهب إلى كاليفورنيا، وأنتِ إلى آلاسكا. سوف أشتاق إليك كثيراً. أنا سعيدة جدّاً لأنّك تقيمين حفلة هذا المساء، سيتسنّى لنا التحدّث معاً، فقد مضى زمنٌ طويل ولم نفعل ذلك، وها إنّنا على وشك الابتعاد عن بعضنا. . .».

واستمرّت في الكلام بلا انقطاع. لا شكّ أنّ سبب تدفّق عواطفها المفاجئ كان الحنين بسبب التخرّج من ناحية، والشكر على دعوتها إلى الحفلة الذي أرادت التعبير عنه من ناحية أخرى؛ الأمر الذي لم يكن لي يدٌ فيه مطلقاً. لكنّي شعرت بالارتياح من أن تنتهي علاقتي بجيسيكا على نحوٍ طيّب.

تكلّم أريك باسم الطلاّب، وشرح أنّ النهاية هي في الحقيقة بداية، لكنّي برغم قلّة اكتراثي لخطابه، شعرتُ كالآخرين بالحنين لما كنت سأتركه ورائي.

مرّ الاحتفال بسرعة. كان إريك متوتّراً فانتهى من إلقاء كلمته على

عجل. ثمّ أخذ الأستاذ غرين ينادي أسماء المتخرّجين، واحداً تلوَ الآخر، فعمّت بعض الفوضى في الصفّ الأمامي، وبدأ الطلاب يهرولون للوصول إلى المنصّة لاستلام الشهادة قبل أن ينادي المدير على الاسم التالي. وكانت السيّدة كوب تحاول مواكبة الحركة السريعة، فتعطي المدير الشهادة كي يسلّمها إلى صاحبها. شاهدت آليس تعتلي المنصّة فجأةً وتتسلّم شهادتها، ثمّ تبعها إدوارد. كان تميّزهما وجمالهما ملائكيّاً ولا أصدّق كيف لم أكتشف حقيقتهما غير الانسانيّة منذ اللّحظة الأولى. ظهر التركيز العميق على وجه آليس، أمّا إدوارد فبدا مرتبكاً وليس غاضباً.

سمعت السيّد غرين ينادي اسمي، قمت عن الكرسي ووقفت أنتظر أن يسير من كان أمامي، كي أسير بدوري نحو المنّصة. وإذا بي أسمع هتافاً آتياً من عمق الصالة، فنظرتُ إلى مصدره ورأيت تشارلي وجايكوب وبيل يصفّقون ويطلقون صرخات التشجيع. فابتسمت قليلاً.

انتهى الأستاذ غرين من تلاوة الأسماء، وكان يسلّم لكل متخرّج يمرّ من أمامه شهادته بحركة تلقائيّة سريعة.

«مبروك، آنسة ستانلي». قال وهو يسلّم الشهادة إلى جيسيكا.

«مبروك، آنسة سوان». قال لي وهو يضع الشهادة في يدي السليمة.

قلت: «شكراً!». وانتهى الأمر.

وتوجّهت لأقف مع مجموعة المتخرّجين، عندما لفتتني عينا جيسيكا الحمراوان، وحركتها وهي ترفع كمّ ثوبها إلى وجهها، فاستنتجتُ أنّها تبكي. بعد ذلك قال الأستاذ غرين عبارةً لم أسمعها بوضوح، وإذا بالقبعات الصفراء تتطاير في فضاء الصالة، وارتفعت الأصوات والصرخات؛ رفعت بدوري قبعتي وجعلتها تسقط على الأرض.

«أوه بيلّا! لا أصدّق أنّ هذه المرحلة قد انتهت». قالت لي جيسيكا

محاولةً أن ترفع صوتها فوق الضجة السائدة.

«لا أصدّق أنّ هذا الاحتفال قد انتهى». تمتمت.

ورمت بذراعيها حول عنقي قائلة: «عديني أنّ نبقى على اتصال».

عانقتها أيضاً، ولكنّي اكتفيت بالقول: «أنا سعيدة بأنّي تعرّفت إليك يا جيسيكا، وأعتبر أن السنتين الماضيتين معاً كانتا ممتعتين».

قالت: «حقّاً». ثمّ نظرت في اتجاهٍ آخر ونادت «لورين!». وراحت تشقّ طريقها نحوه عبر الأثواب الصفراء. في هذا الوقت كانت العائلات تقترب لتختلط بالمتخرّجين.

لمحت آنجيلا وبن مع عائلتيهما، ففكّرت أن أهنئهما لاحقاً.

وأدرت رأسي مفتّشةً عن آليس، وإذا بإدوارد من ورائي يلفّ ذراعيه حولي ويهمس في أذني: «مبروك!» كانت نبرته خالية من الحماسة، فهو لم يكن يستعجل أبداً وصولي إلى هذه المرحلة.

أجبت: «شكراً».

«يبدو أنّك لم تتخلّصي من التوتّر بعد».

«ليس كليّاً».

«لمَ التوتّر؟ لم يتبقَ الآن سوى الحفلة، ولن تكون مملّة ولا مرعبة إلى هذا الحدّ!».

«قد تكون على حقّ!».

لم يتوقّف نظري عن البحث محاولةً إيجاد آليس، فسارع إلى سؤالي: «عمّن تفتشين؟».

«آليس. . . ، أين هي؟».

«خرجت من هنا في اللّحظة التي تسلّمت فيها الشهادة».

وفجأةً تغيّرت نبرة صوته وهو ينظر إلى عمق الصالة. رفعت عينيّ إلى وجهه فوجدته حائراً. فعاجلته بالسؤال مثل العادة: «هل تشعر بالقلق بشأن آليس؟».

بدا أنه لا يرغب في الإجابة على سؤالي.

«ما هو الأمر الذي كان يشغلها. . . حتى تركتك وذهبت؟».

«كانت تفكّر في ترجمة النشيد الحربي الوطني إلى الصينية، وبعد ذلك إلى لغة الإشارة الكورية».

ضحكت بعصبيّة: «قد يكون هذا كافياً ليشغل عقلها».

«هل تعلمين الأمر الذي تخبئه آليس عنّي؟».

ابتسمت بفتور وقلت: «بالطبع، أنا التي اكتشفت الأمر».

كان يصغي إليّ ولا يزال مرتبكاً. نظرتُ حولي لأنّي كنت أتوقّع أن أرى تشارلي أمامي في أيّ لحظة.

قلت هامسة: «أعرف أنّ آليس ستخفي الأمر عنك حتى انتهاء الحفلة، لكنّي أفضّل أن أعلمك بما وصلت إليه من استنتاج، خصوصاً أنّي لا أكترث إن ألغيت الحفلة. لكن مهلاً، لا أريدك أن تفقد هدوءك في جميع الأحوال. سأطلعك على استنتاجي الآن، فالمعرفة أفضل من عدمها».

«ماذا تقولين؟».

رأيت رأس تشارلي بين الرؤوس. كان يقترب منّي والتقت نظراتنا وأومأ لي بيده.

«عدني أن تحافظ على هدوئك».

هزّ برأسه متجهّماً.

تلاحقت أنفاسي بينما كنت أطلعه همساً على الاستنتاج المنطقي الذي توصّلت إليه: «كنت على خطأ عندما اعتقدت أنّ التحدّيات تأتينا من جهات متعدّدة. إنّي أعتقد أنّها تأتينا بالأحرى من جهةٍ واحدة. وأعتقد أنّها تستهدفني أنا بالذات. كلّ الأمور مرتبطة ببعضها، وأظنّ أنّه فردٌ واحدٌ، ذلك الذي نجح حتى الآن في التهرّب من رؤيا آليس.

الزائر الغريب الذي أتى إلى غرفتي، جاء ليتحقّق من إمكانيّة التواري عن آليس. إنّه هو نفسه الذي يغيّر قراره في كل لحظة، والذي يؤلّف جيشاً من مصّاصي الدماء. سرقة ثيابي وكلّ تلك الأمور هي عمليّة مترابطة؛ لقد أخذ الزائر ما يدلّ على رائحتي كي يتسنّى لجميعهم ملاحقتي والقضاء عليّ».

اختفى اللّون من وجهه بينما كنت أكلّمه، فتوقّفت عن المتابعة.

«ألا ترى الآن أنّ لا خطر على عائلتكم؟ لا أحد يريد إلحاق الأذى بإيزمي وكارلايل وآليس، وهذا أمرٌ يدعو إلى الاطمئنان!».

اتّسعت عيناه هلعاً. فقد توضّحت الصورة أمامه واقتنع بما قلته، مثلما اقتنعت آليس.

لمست خدّه بيدي ورجوته أن يستعيد هدوءه.

«بيلّا!». صرخ تشارلي وهو يقتحم جموع العائلات المتراصّة التي تقف في طريقه.

«مبروك يا حبيبتي!». قال صارخاً برغم أنّه كان يقف أمامي في تلك اللّحظة. ومدّ ذراعيه واحتضنني محاولاً الدفع بإدوارد إلى الوراء بأسلوبٍ ماكر.

قلت: «شكراً!» ولكنّي كنت لا أزال مشغولة بوقع كلامي على إدوارد. كانت يداه ممدودتين إلى حدٍّ ما نحوي، وكأنّه كان على وشك أن يلتقطني ويطير بي. ربّما كنتُ أشعر بالسيطرة على نفسي في تلك اللّحظات أكثر منه، ولكن فكرة الهروب لم تكن بعيدةً عن ذهني.

«اضطرّ جايكوب وبيلي إلى المغادرة. هل لاحظتِ أنهما كانا هنا؟». سألني تشارلي بعد أن قام بخطوةٍ إلى الوراء، لكنّ يديه كانتا لا تزالان على كتفيّ. كان يدير ظهره إلى إدوارد متعمّداً استبعاده، لكنّي وجدتّ الأمر مناسباً في تلك الدقيقة؛ فقد كان إدوارد لا يزال مشدوهاً ومظهره فاضحاً.

حاولت تركيز انتباهي على تشارلي قليلاً، فقلتُ مؤكّدةً: «نعم، لقد شاهدتهما وسمعتهما أيضاً».

«مجيئهما دليل لطف!». قال تشارلي.

تمتمت بالموافقة.

كانت آليس على حقّ في إبقاء أفكارها مشوّشة حتى لا يكتشفها إدوارد. كان من الأفضل أن أخبره عندما نكون وحدنا في مكانٍ ما، ربّما مع عائلته. في مكانٍ خالٍ من النوافذ والسيارات وأبنية المدرسة خوفاً من أن يحطمها تحت وقع غضبه. أعاد لي وجهه الآن جميع مخاوفي برغم أن الرّعب قد فارقه الآن ليفسح المجال أمام الغضب. كان الغضب الصرف يسيطر على وجهه في تلك اللّحظات.

«أين تودّين تناول العشاء؟ اختاري المكان الذي تريدينه».

«يمكنني أن أحضّر العشاء بنفسي».

«لا تبالغي، هل تذهبين إلى مطعم لودج؟»، سألني بحماسة.

لم يكن هذا المطعم المفضّل عند تشارلي مفضّلاً عندي أيضاً، لكنّي وافقتُ، لأنّي لم أكن أشعر برغبةٍ في الأكل على كلّ حال.

«مطعم لودج هو اختيار ملائم، بالتأكيد!».

اتسعت ضحكة تشارلي، وأدار رأسه قليلاً في اتجاه إدوارد، وسأله من دون أن ينظر إلى وجهه: «هل تأتي معنا يا إدوارد؟».

نظرت إليه بتوسّل، فحسّن مظهره بسرعة قبل أن يصوّب تشارلي إليه نظرةً مباشرة بعد أن تأخّر جوابه.

أجاب إدوارد بنبرةٍ جامدة: «كلاّ، شكراً». وكان وجهه متشنّجاً وقاسياً.

«هل ستخرج برفقة عائلتك؟». سأله تشارلي بصوتٍ حادّ. اعتاد تشارلي على أن يبادل إدوارد فظاظته بالتهذيب دائماً، لذلك فوجئ بسلوكه غير الودّي هذه المرّة.

أجاب إدوارد: «نعم، واسمحا لي بالانطلاق».

واستدار واقتحم الحشد بمشيته الفريدة غير آبهٍ بالمظهر الانساني العادي الذي اعتاد التقيّد به.

«هل أنتما متخاصمان من جديد؟».

«لسنا متخاصمين. أرجو أن تهتمّ بالأمور التي تتعلّق بك».

«أنتِ هو الأمر الذي يتعلّق بي».

حوّلت نظري من شدّة الضيق، وقلت: «لنذهب إلى المطعم!».

كان مطعم لودج مزدحماً بقسم كبير من المتخرّجين وعائلاتهم، فهو على بساطته كان الأفخم في البلدة. جلست قبالة تشارلي بينما كان يتلّذذ بطعم قطعة اللّحم الفاخرة التي طلبها ويتكلّم إلى الناس من وقتٍ إلى آخر.

كنتُ أحسّ بالعيون التي تراقبني من النافذة التي ورائي. لا شكّ أنّ إدوارد الآن في مكانٍ ما حول المطعم لأنّه لا يعقل أن يتركني من دون حراسة بعد الآن. كنت أشعر بالضيق والملل وكأنّ الوقت يمرّ ببطءٍ شديد. أمامي كان قرص البرغر ينتظرُ، لكنّي كنتُ أقطع منه أجزاء وأدفنها في فوطة الورق في غفلةٍ عن تشارلي. وأخيراً دفع أبي الفاتورة وترك بقشيشاً على الطاولة، فوقفت استعداداً للانصراف.

«أراكِ في عجلة!؟».

«أريد أن أذهب لأساعد آليس في تحضير بعض الأمور».

قال: «حسناً!». وتركني كي يلقي التحيّة على بعض الناس، ويودّع بعضهم الآخر، فخرجت لأنتظره قرب السيارة. كان الظلام يزحف على المكان، خصوصاً أنّ الغيوم في السماء كانت تحجب ما تبقّى من أشعة الشمس لشدّة كثافتها.

وفجأةً رأيت ظلاًّ يتحرّك نحوي.

وإذا بإدوارد يظهر أمامي من حيث لا أدري، فيتحوّل اضطرابي إلى ارتياح.

من دون أن يتلفّظ بأيّ كلمة، شدّني إلى صدره بقوّة، وبيده الباردة رفع ذقني وطبع على شفتيّ قبلةً. شعرتُ للتوّ بتشنّج فكّيه.

«كيف حالك؟». قلت في اللّحظة التي ترك لي الفرصة كي أتنفّس.

«أعتذر أنّي فقدت السيطرة على نفسي في المدرسة».

«إنّها غلطتي، كان عليّ أن أخفي الأمر عنك إلى وقت لاحق».

«كلاّ! من الضروري أن أطّلع على هذا الأمر. أستغرب حقّاً كيف لم أكتشفه بنفسي».

«لديك همومٌ كثيرة».

«وأنتِ، ألا هموم لديك؟».

وفجأةً، طبع على شفتيّ قبلةً ثانية وقال: «تشارلي في طريقه إلى هنا».

«سأطلب منه أن يأخذني إلى بيتكم».

«وسأتبعكم».

كنت سأقول إنّ ذلك ليس ضرورياً، لكنّه انطلق قبل أن أفتح فمي.

«بيلاّ!». نادى تشارلي وهو يقف أمام مدخل المطعم.

«أنا هنا!».

وراح يتمشىّ ببطء نحو السيارة مدمدماً وهو يعلّق على قلّة صبري.

«كان يوماً مهمّاً، كيف تشعرين؟». سألني تشارلي وهو يقود السيارة في اتجاه الشمال.

«أشعر بالارتياح». قلت.

ضحك لأنّه اكتشف كذبي، «هل انتِ قلقة بشأن الحفلة؟». سألني.

كذبت من جديد عندما قلت «بلى»، لكنّه لم يكتشف هذه المرّة.

وقال: «لم تحبّي الحفلات في حياتك».

«ولا غرابة لأنّي أشبهك في ذلك».

ضحك وقال: «تبدين جميلة حقّاً. . .، آسف لأنّي لم أحضر لك هديّة».

«لا تأبه لهذا الأمر السخيف يا أبي».

«ليست سخافة. أشعر في بعض الأحيان أني لا أقوم بجميع واجباتي نحوك».

«هذا خطأ. أنتَ تقوم بمهمتّك على أفضل وجه. أنتَ أبٌ مثالي، و. . .»، لم يكن سهلاً التكلّم عن المشاعر مع تشارلي، لكنّي تابعت: «أنا سعيدة لاتخاذي قرار العيش معك يا أبي، كان أفضل قرار اتخذته في حياتي. لا تقلق فإنّ ما تشعر به هو حالة طبيعية يشعر بها معظم الأهل بعد تخرّج أولادهم».

هزّ رأسه وقال: «قد تكونين على حقّ، لكنّي تقاعست عن واجبي في بعض الأحيان، أعني. . . أنظري إلى يدك».

نظرت إلى يدي، أكاد أنسى ما أصابها لولا وجود الرّباط. لم أعد أشعر بأيّ ألم في أصابعي.

قال تشارلي: «لم يخطر في بالي تدريبك على كيفيّة تسديد اللّكمات بالطريقة الصحيحة، وأعتبر هذا تقصيراً».

«كنت أظنّك تقف إلى جانب جايكوب؟».

«لا فرق إلى جانب مَنْ أقف. إن قبّلك أحدهم رغماً عنك، فمن حقّك أن تعبّري عن استيائك من دون أن تتعرّضي للأذى. لم تضعِي إبهامك داخل يدك، أليس كذلك؟».

«كلاّ يا أبي، أشكرك على هذه الإشارة، ولكن لا أعتقد أنّ التدريب كان سيساعدني، فرأس جايكوب قاسٍ جدّاً».

ضحك تشارلي وقال: «صوّبي لكمتك إلى بطنه في المرّة القادمة».

سألته بتعجّب: «المرّة القادمة؟».

«أوه، لا تكوني قاسية جدّاً عليه. إنّه يافع».

«إنّه بغيض».

«ولكنّه لا يزال صديقك».

تنهّدتُ وقلت: «أعلم، لكنّي لست أدري كيف أتصرّف الآن يا أبي».

هزّ تشارلي رأسه ببطء، وقال: «التصرّف الصحيح بالنسبة لشخصٍ ما، قد لا يكون صحيحاً بالنسبه لغيره، لذلك. . . ، أتمنّى أن يحالفكِ الحظّ وتجدي الجواب بنفسك».

تمتمت بنبرةٍ جافّة: «شكراً».

ضحك تشارلي مجدّداً، ثمّ ما لبث أن عبس وقال: «إن تغيّر جوّ الحفلة وتخطّى الحدود. . .».

قلت: «لا تقلق يا أبي، فكارلايل وإيزمي سيكونان في البيت ويمكنك أنتَ أن تأتي أيضاً إذا أحببت».

ابتسم تشارلي بسخرية وهو يحدّق في الظلام محاولاً رؤية الطريق الفرعية التي تؤدّي إلى بيت عائلة كولن.

«أظنّ أنه المنعطف الثاني. إنّك على حقّ، لا يجد الزائر الطريق بسهولة. أرفقت آليس خريطة مع الدعوة، ولكن برغم ذلك، أتوقّع أن يضلّ الناس الطريق».

«قد يضلّون الطريق وقد لا يضلّون». قال تشارلي ذلك وهو يتبع الطريق التي تنعطف شرقاً. وفجأةً انتهت الظلمة وانفتحت عتمة اللّيل بالإنارة الساطعة أمام بيت عائلة كولن. حبالٌ من آلاف الأضواء، التفّت بها جذوع الأشجار من جهتيْ المدخل.

ولم تقتصر الأضواء على أوّل المدخل بل كانت منتشرة في خط يبلغ حوالى ثلاثة أميال حتى تصل إلى باب البيت الأبيض الكبير.

«إنّ آليس لا تكتفي بأنصاف الحلول كما يبدو». قال تشارلي.

«هل أنت متأكّد من عدم رغبتك في الدخول؟».

«بكلّ تأكيد. أتمنّى أن تمضي وقتاً طيّباً يا ابنتي».

«شكراً جزيلاً يا أبي».

نزلت من السيارة. وراقبت تشارلي وهو يبتعد ضاحكاً.

17

الحلف

صعدت الدرج، وإذا بي أسمع صوت إدوارد يناديني بلطف: «بيلاّ!».

نظرتُ إلى الوراء فرأيته يتسلّق الدرجات الأولى بخفّة، وقد عبثت الريح بشعره خلال الركض. وإذا به يشدّني إليه بقوّة ويرفع ذقني ليطبع قبلةً على شفتيّ كما فعل في موقف السيارات أمام المطعم.

أخافتني قبلته هذه المرّة. لقد شعرت بأنّه كان شديد التوتّر، وبرغم ذلك كان حريصاً على تقبيلي وكأنّه يشعر بأنّ الوقت يداهمنا.

تفاديت هذه الأفكار كي أتمكّن من تمضية الساعات القليلة المقبلة بأسلوبٍ انساني طبيعي. ابتعدت قليلاً، وقلت: «دعنا ننتهي من هذه الحفلة السخيفة أوّلاً».

عندئذٍ أحاط وجهي بكفّيه، ونظر في عينيّ وقال: «لن أسمح بأن يصيبك أذىً».

فلمست بأصابعي شفتيه وقلت: «أنا لست خائفة كثيراً على نفسي».

«وهذا لا يفاجئني. . .!» ثم تنفّس بعمق، وقال مبتسماً: «تعالي لنحتفل».

ثمّ فتح الباب أمامي وذراعه لا تزال حول خصري. وقفت مذهولة أمام ما رأيت، وقلت: «غير معقول!».

هزّ إدوارد رأسه وقال: «إنّها آليس وتبقى آليس!».

كان منزل كولن قد تحوّل إلى نادٍ ليلي غير عاديّ، كالذي نراه في الأفلام.

«إدوارد!»، نادت آليس من وراء مكبّر صوت ضخم: «ماذا تنصحني؟» وأشارت إلى مجموعة كبيرة من الأقراص المدمجة: «هل نسمعهم موسيقى مريحة تعوّدوا سماعها أم نوعاً آخر يساهم في تطوير ذوقهم؟».

«دعي الأجواء تبقى مريحة. يكفي أن تأتي بالحصان إلى حيث الماء».

هزّت آليس رأسها بالموافقة، وراحت تعيد مجموعة الأقراص الأخرى إلى علبتها. كانت قد غيّرت الثياب التي ارتدتها في النهار، وهي الآن تلبس سروالاً جلديّاً أحمر وقميصاً قصيراً برّاقاً. كانت الأضواء الحمراء والبنفسجية تنعكس فوق المناطق العارية من جلدها فتعطيه لوناً غريباً.

قلت: «أشعر بأنّي لا أرتدي ثياباً تليق بالحفلة».

أجاب إدوارد: «تبدين جميلة جدّاً!».

وقالت آليس: «ثيابك مناسبة».

«شكراً! ولكن، هل أن المدعوّين سيأتون حقّاً؟» ولم يغب عن أحد أملي في عدم مجيئهم؛ فرمقتني آليس بنظرة معاتبة.

وأجاب إدوارد: «الجميع سيأتي. كلّهم متشوّقون للدّخول إلى منزلنا المنعزل والغامض بالنسبة إليهم».

قلت بتأفّف: «عظيم!».

لم يكن هناك ما يمكنني أن أساعد آليس في تحضيره. حتى لو تحوّلت وأصبحت سريعة جدّاً ولم أعد بحاجة إلى النوم، لا أتصوّر أنّي سأقوم بالأمور بالطريقة التي تقوم بها.

لم يسمح لي إدوارد بالابتعاد عنه قطّ. كان يجرّني معه وهو يفتّش

عن جاسبر، ثمّ عن كارلايل ليخبرهم عن الاستنتاج الذي وصلت إليه. أصغيت برعب صامت إلى نقاشهم في موضوع الهجوم على الجيش في سياتل. لاحظت قلق جاسبر بشأن قلّة عددهم، إذ لم ينجحوا في الاتصال بأصدقائهم القدامى، وعائلة تانيا تتردّد في المساعدة. لم يحاول جاسبر إخفاء يأسه كما قد يفعل إدوارد وبدا خائفاً من المقامرة الخطرة.

عندما يذهبون إلى المعركة سأفقد عقلي لو بقيت بمفردي هنا أنتظر عودتهم.

ودقّ جرس الباب.

فجأةً، تحوّل الجوّ إلى طبيعي جداً. . . ، وتحوّل القلق على وجه كارلايل إلى ابتسامة دفء ومحبّة، ورفعت آليس صوت الموسيقى في طريقها نحو الباب.

وظهرت أمام الباب مجموعة من رفاقي. هل قرّروا المجيء معاً بسبب الخوف أم بسبب الخجل؟ وقفت جيسيكا في المقدّمة وكان مايك وراءها مباشرةً. وتبعهما تايلر وكونّر وأوستن ولي وسامنتا. . . ، وكانت لورين تسير ببطء في المؤخرة وتنظر بفضولٍ شديد إلى كلّ ما حولها. كان الفضول بادياً على وجوه الجميع، وما لبثت أن سيطرت عليهم المفاجأة عندما أحاطت بهم أجواء البيت الأنيقة والسحريّة. وكان في استقبالهم أيضاً جميع أفراد عائلة كولن جالسين في أماكنهم، ومستعدّين كالعادة للعب التمثيلية الانسانية على أكمل وجه. ولكنّي كنت ألعب أنا أيضاً في تلك اللّيلة دوراً في هذه التمثيلية.

رحتُ ألقي التحية على جيسيكا ومايك محاولةً إظهار مستوىً مقبول من الحماسة، وقبل أن يتسنّى لي التحدّث إلى الآخرين، رنّ الجرس مجدّداً ففتحت الباب لأستقبل آنجيلا وبن، وتركت الباب مفتوحاً لأنّ إريك وكايتي كانا يقتربان من الدرج.

لم يكن أمامي أي خيار سوى استقبال المدعوّين ببشاشة وحماسة،

فالحفلة كانت بمناسبة تخرّجنا نحن الثلاثة، أنا وآليس وإدوارد. لكنّ عبارات الشكر والتهنئة كانت تنهال عليّ بنوعٍ خاصّ، ربّما أنّ مظهر أفراد عائلة كولن كان يبدو مربكاً تحت وميض الأضواء الملوّنة. وبالتأكيد خلقت تلك الأضواء الخافتة جوّاً من الغموض. لم يكن ذلك الجوّ مساعداً قطّ كي يشعر الانسان العادي بالثقة أمام أشخاص مثل إيميت مثلاً. لاحظت إيميت يبتسم لمايك وهما يقفان أمام مائدة الطعام، وانعكست الإضاءة على أسنانه فجأةً، فرأيت مايك يجفل ويقوم بخطوة إلى الوراء بطريقة تلقائيّة.

فكّرت في احتمال أن تكون آليس قد تعمّدت هذا الجوّ كي أصبح أنا محطّ الاهتمام، وأكون سعيدة. إنّها تحاول دائماً أن تجعلني أعيش الحياة الانسانية المثالية بحسب اعتبارها.

كانت الحفلة ناجحة برغم التوتر الطبيعي الذي خلقه وجود أفراد عائلة كولن، أو ربّما أضاف ذلك جوّاً من الإثارة! كانت الموسيقى رائعة تلهب الأجساد بإيقاعها، والأضواء أخّاذة. أما الطعام فلا شكّ أنّه كان لذيذاً جدّاً فقد اختفى عن الطاولة بسرعة قياسية.

لم أجد صعوبة في الاندماج في الجوّ والترحيب بالمدعوين. رحت أتنقّل بين المجموعات فأتحدّث معهم وأضحك. لا أعتقد أنّ أحداً في فوركس أقام حفلةً على هذا المستوى من النجاح من قبل. أمّا آليس فبدت فخورة جدّاً وكأنّها على وشك أن تقول: «لن ينسى أحدٌ من الموجودين هذه اللّيلة».

كنتُ قد تكلّمت مع الجميع وعدتّ إلى جيسيكا التي كانت تثرثر بحماسة مستفيضة ولا تنتظر أجوبةً على معظم ما تقوله. أما إدوارد فكان لا يزال إلى جانبي ولا يسمح لي بالابتعاد عنه لحظةً. بقيت ذراعه حول خصري، تشدّني إليه بقوّة من حينٍ إلى آخر، بحسب بعض الأفكار التي تراوده والتي قد لا أرغب في معرفتها.

لذلك انتابني الشكّ فوراً عندما أرخى ذراعه كليّاً وابتعد عنّي بعد أن همس في أذني:

«إنتظريني هنا، سأعود حالاً».

ابتعد بسرعةٍ مخترقاً الجمع بخفّة، قبل أن أتفوّه بكلمة.

تبعته بنظري، فرأيته يتوقّف أمام المطبخ وينحني. كانت الإضاءة هناك خافتة ومتقطّعة. بدا لي أنّه كان يتكلّم مع أحد ما لكنّي لم أستطع رؤية ذلك بوضوح. وقفت على أصابع قدميّ ومددتّ عنقي بقدر ما أستطيع كي أرى شيئاً وراء زحمة الرؤوس التي تفصلنا. في تلك اللّحظة لمع شعاعٌ أحمر فوق ظهره وانعكس على قميص آليس اللامع. أنار الضوء وجهها خلال ثانية وكان ذلك كافياً.

اعتذرت من جيسيكا التي كانت لا تزال تثرثر، وحاولت شقّ طريقي في زحمة الواقفين والرّاقصين، إلى أن وصلت إلى باب المطبخ. كانت آليس وحدها هناك في العتمة والذهول بادياً على وجهها ويدها الممسكة بحاجب الباب تعبّر عن حاجتها للمساعدة.

«ماذا يا آليس؟ ماذا رأيتِ؟». قلت متوسّلة.

لم تلتفت إليّ بل بقيت عيناها مصوّبتين إلى الجهة المقابلة. لاحقتُ اتجاه نظرها، واكتشفت أنّها قد تبادلت للتوّ مع إدوارد نظرةً ذات معانٍ. كان إدوارد قد انتقل إلى هناك، لكنّه ما لبث أن اختفى في الظلال القاتمة وراء الدرج.

رنّ جرس الباب في تلك الدقيقة، فرفعت آليس عينيها وسألتني: «من وجّه دعوة إلى الرّجال الذئاب؟».

أجبت: «أعترف بهذا الذنب».

اعتقدت أنّ الدعوة التي وجّهتها إلى جايكوب كانت من باب اللّياقة فحسب. لم أكن أتصوّر أنّه سيأتي.

«إذاً، إذهبي واهتمّي بالأمر بنفسك. أنا بحاجة للتحدّث مع كارلايل».

«لا آليس. . .، انتظري!» لكنّها ذهبت من أمامي بسرعة البرق.

رنّ الجرس ثانيةً ولكنّي لم أشعر بالقدرة على فتح الباب، ولا الانتظار وقتاً أطول قبل معرفة ما شاهدت آليس في رؤيتها. رنّ الجرس طويلاً لكنّي أدرت ظهري للباب، وهممت أن ألحق بآليس. عندئذٍ سمعت صوت جايكوب ينادي اسمي، فأجبرني ذلك على التراجع.

أمام الباب وقف ثلاثة رجالٍ ذئاب. فأظهرت امتعاضي لرؤيتهم.

دخل جايكوب وإلى جانبيه كويل وإيمبري وبدا عليهما التوتّر الشديد. كانت نظراتهما تدور حول الغرفة بحذر، وكأنّهما يتفحّصان خفايا سردابٍ مسكون بأرواحٍ شريرة.

أومأ إليّ جايكوب وكان مرتاحاً أكثر من رفيقيه، لكنّ أنفه كان يتقلّص اشمئزازاً. أومأت إليه في المقابل وكأنّي كنت أقول له: «وداعاً»، وعدتّ لأفتّش عن آليس. وإذا به يتبعني ويمسك بكتفي، ويشدّني في اتجاه المطبخ. تخلّصت من قبضته، لكنّه أمسك بمعصم يدي السليمة، ومشى بي بعيداً عن زحمة المدعوّين.

«يا لهذا الترحيب!».

خلّصت يدي من قبضته، وسألته بغضب: «لمَ أتيتَ إلى هنا؟».

«ألا تذكرين أنّك دعوتني إلى حضور الحفلة؟».

«لم تكن دعوتي لك جدّية بل مجرّد لياقة عابرة».

«لا تكوني فظّة إلى هذه الدرجة، لقد أحضرت لك هديّة بمناسبة تخرّجك».

لم أكن أرغب في التشاجر مع جايكوب في تلك اللّحظة. عقدت ذراعيّ فوق صدري ورحت أشدّ عنقي لعلّني ألمح إدوارد أو آليس أو كارلايل.

«أرجو أن تعيد الهدية إلى المكان الذي اشتريتها منه يا جايكوب. إنّي مشغولة الآن...».

وقف أمامي مانعاً عنّي الرؤية كي يستقطب اهتمامي: «لم أشترِ هذه الهديّة بل صنعتها بيدي وصرفت وقتاً طويلاً في صناعتها».

كانت عيناي لا تزالان حائرتين في كلّ اتجاه، عندما قال: «أرجوك يا بيلاّ، لا تدّعي عدم الاكتراث بي إلى هذه الدرجة!».

«أنا لا أدّعي شيئاً لكنّي قلقة الآن ومشغولة إلى أقصى حدّ».

وضع يده تحت ذقني وقال: «هل تسمحي بأن أحصل على انتباهك لحظة واحدة يا آنسة سوان؟».

قفزت إلى الوراء. «أبعد يدك عنّي يا جايكوب!».

«عذراً!». قال فجأةً ورفع يديه. «أعتذر أيضاً عن المرّة الماضية، لم يكن مقبولاً أن أتصرّف بتلك الطريقة، لكنّي خدعت نفسي بالتفكير أنّك كنتِ ترغبين في ذلك».

«خدعتَ نفسك... يا له من عذر!».

«أرجو أن تكوني لطيفة، وتقبلي اعتذاري».

«حسناً، قبلت اعتذارك. والآن اسمح لي لحظة...».

شكرني، وتغيّرت نبرة صوته فدفعني ذلك إلى التحديق في وجهه. لم أستطع النظر في عينيه فقد أخفض نظره إلى الأرض، لكنّي لاحظت شفته السفلى ترتجف قليلاً.

ثمّ قال بلهجة المنكسر: «لقد فهمت...، إنّك تفضلين أن تمضي هذا الوقت مع أصدقائك الحقيقيّين».

«أوه جايك! هذا ليس صحيحاً وأنتَ تعلم ذلك».

انحنيت قليلاً كي أسترق النظر إلى عينيه، لكنّه رفع رأسه كي لا أراهما.

«جايك؟».

رفض النظر إليّ.

«قلتَ إنّك أحضرتَ لي هديّة من صنع يديك، أين هي؟». وفتحتُ يدي مدّعيةً الحماسة لاستقبال الهدّية.

أدار عينيه وابتسم بحزن.

قلتُ: «أنا أنتظر!».

قال: «حسناً»، ومدّ يده إلى جيبه الخلفي وأخرج كيساً صغيراً مشغولاً بخيطانٍ ملوّنة ومربوطاً بحبلٍ جلدي صغير، ووضعه في يدي.

«هذا جميلٌ يا جايك، شكراً».

«الهديّة في الداخل يا بيلاّ».

«أوه!».

لم أستطع فك الحبل الصغير، فمدّ يده وفكّ العقدة بخفّة، ثمّ قلب الكيس فوق كفّي، وانحدرت منه سلسلة فضّية. «لم أقم بصنع السوار، لكنّي صنعت المنحوتة الصغيرة».

لقد علّق جايكوب إلى إحدى حلقات السوار منحوتة خشبيّة صغيرة تمثّل ذئباً صغيراً رائعاً بدقّة تفاصيله. أما لون الخشب الذي نُحِت منه فكان بنيّاً مائلاً إلى الحمرة شبيهاً بلون بشرة جايكوب.

همست: «هذا جميلٌ جدّاً! كيف استطعت أن تقوم بنحته؟».

«بيلي علّمني. لكنّه أمهر منّي».

«أكاد لا أصدّق!». وكنت لا أزال أتأمّل ذلك الذئب المتناهي في صغره، والحقيقي في تفاصيله.

«هل أعجبك حقّا؟».

«بالتأكيد!».

ابتسم بفرح أوّلاً، ثمّ غلبت المرارة على ملامحه عندما قال: «ربّما

يساعدك هذا السوار على أن تتذكريني. يقولون إنّ من يكون بعيداً عن العين يصبح بعيداً عن القلب أيضاً».

تجاهلت حزنه، وقلت: «هيّا، ساعدني في وضعه حول معصمي».

ساعدني في وضعه حول معصم يدي اليسرى وسألني بلهفة: «هل ستبقينه حول معصمك؟».

«بالطبع!».

وارتسمت على وجهه تلك الابتسامة التي طالما أحببتها.

بادلته الابتسام خلال لحظة، وعادت عيناي مجدّداً للتفتيش عن إدوارد أو آليس.

«لَمَ أنتِ شاردة الذهن إلى هذه الدرجة؟».

«لا شيء!». قلت كاذبة. «أشكرك على الهديّة، لقد أعجبتني كثيراً».

قطّب حاجبيه وقال: «بيلّا! ماذا يحدث؟».

«لا شيء يا جايك... !».

«لا تكذبي فأنتِ لا تجيدين الكذب. يجب أن تصارحيني بما يحدث. يهمنّا أن نعلم هذه الأشياء». وتكلّم بضمير الجمع في نهاية عبارته.

كان على حقّ. من المهمّ أن يعرف الذئاب بما يحدث. لكنّي لم أكن على معرفة بذلك أنا شخصيّاً.

«سأقول لك يا جايكوب، ولكن دعني أطّلع من خلال آليس على ما يحدث حقّاً».

بدا على وجهه أنّه فهم ما يجري. هل شاهدت عالمة الغيب شيئاً؟

«نعم. قبيل وصولكم».

همس في أذني: «هل هذا يتعلّق بمصّاص الدماء الذي جاء إلى غرفتك؟».

«نعم. . .».

مال برأسه قليلاً وأخذ يتفرّس في وجهي ثمّ قال: «إنّكِ تعلمين شيئاً وتخفينه عنّي. . .، شيئاً مهمّاً».

لن أستطيع الاستمرار بالكذب على جايكوب. إنّه يعرفني جيّداً ويكتشف كذبي. فقلت: «نعم».

نظر إليّ قليلاً، ثمّ تطلّع إلى مرافقيه اللّذين كانا لا يزالان واقفين في المدخل. فتبادلا معه النظرات، وتحرّكا فجاةً ليخترقا الجمع بخفّة ويصلا إلينا ويقفا إلى جانبي جايكوب.

«أخبرينا الآن».

وقف إيمبري وكويل ينظران إلينا بارتباكٍ وخوف.

قلت: «جايكوب أنا لا أعرف كلّ شيء». وتابعت التفتيش بنظري في كلّ الاتجاهات علّني أجد من ينجدني.

«ما الذي تعرفينه؟».

وعقد كلّ منهم ذراعيه فوق صدره في اللّحظة عينها، كان مظهرهم يثير الضحك قليلاً، لكنّه يثير الرّعب أيضاً.

ولمحت آليس تهبط الدرج وبشرتها البيضاء تتوهّج تحت الأضواء البنفسجية.

تنفّست الصعداء وقلت: «آليس!».

وإذا بها تنظر إليّ في الحال، فقد سمعت ندائي برغم صوت الموسيقى العالي. كان من السهل قراءة القلق والخوف على وجهها، ولكنّي لاحظت ملامحها تتغيّر في الحال لرؤية الرّجال الذئاب حولي. أومأت إليها، فاقتربت منّي بلمح البصر ووضعت يدها حول خصري. ابتعد الرّجال الذئاب فوراً وظهر الانزعاج عليهم.

«أريد التحدّث إليك». همست آليس في أذني.

فنظرت إلى جايك وقلت: «سأراك بعد قليل».

مدّ جايك ذراعه إليّ وقطع علينا الطريق. «لا يمكنكما الابتعاد بهذه السرعة».

نظرت إليه آليس مستنكرة، وسألته بتعجّب: «ماذا تقول؟!».

قال مهمهماً: «نريد معرفة ما يجري».

وإذا بجاسبر يظهر فجأةً، ويقف من الجهة الثانية خلف ذراع جايكوب. كان وجهه يبدو مرعباً، فأنزل جايكوب ذراعه خوفاً عليها.

«لنا الحقّ بمعرفة ما يجري».. ردّد جايكوب، موجّهاً كلامه إلى آليس.

قام جاسبر بخطوةٍ إلى الأمام، فوقف الرجال الذئاب بحزمٍ أمامه.

تدخّلت بسرعة هستيرية: «يجب ألاّ ينسى أحدٌ أنّنا في حفلة!».

لم يعرني أيّ منهم انتباهه. واستمرّ جايكوب محدّقاً في وجه آليس، وجاسبر يحملق في وجه جايكوب.

وإذا بملامح آليس تتغيّر فجأةً، ويبدو أنّ فكرةً جديدة قد لمعت في بالها: «دعه يا جاسبر. أظنّ أنّه محقّ في طلبه».

لم يبدِ جاسبر تجاوباً مع طلب آليس، واستمرّ في التوتّر.

كان القلق قد وصل إلى أوجه في نفسي، ولم أعد أطيق الانتظار فقلت: «ماذا شاهدتِ في رؤيتك يا آليس؟».

نظرت إلى جايكوب قليلاً ثم استدارت نحوي، وبدا واضحاً أنّها اختارت أن تتكلّم أمامهم.

«لقد تمّ اتّخاذ القرار».

«هل ستذهبون إلى سياتل؟».

«كلاّ».

شعرت بمعدتي تتقلّص وبالدّم يهجر وجهي. «هل سيأتون إلى هنا؟». سألتها وقد اختنق صوتي.

كان رجال الكويلوت يراقبون الانفعالات غير الإرادية على وجوهنا. كانوا يقفون في أماكنهم من دون حركة، ولكنّ أيديهم وحدها... كانت ترتجف.

أجابت آليس على سؤالي: «نعم».

«إلى فوركس؟».

«نعم».

«وهدفهم...؟».

فهمت قصدي، وقالت: «أحدهم يحمل قميصك الحمراء».

شعرت بانسدادٍ في حنجرتي فبلعت ريقي بصعوبة.

بدا جاسبر غير راضٍ على تبادلنا الحديث أمام الذئاب، ولكنّه قال: «لا يمكننا أن ندعهم يأتون إلى هنا. عددنا ليس كافياً لحماية البلدة».

قالت آليس: «أنتَ على حقّ، ولكن في أيّ مكانٍ نقرّر محاربتهم سنواجه مشكلة العدد؛ وسيأتي بعضهم إلى هنا من أجل البحث على كل حال».

قلت: «كلّا!».

من حسن الحظ أنّ ضجة الموسيقى كانت تعلو على أصواتنا. حولي كانت هذه المجموعة الكبيرة من رفاقي وجيراني. كانوا يتحدثون ويضحكون ويأكلون وأجسادهم تتمايل مع الموسيقى، ولكنّهم كانوا في جهلٍ تامّ أنّهم سيتعرّضون للرّعب والخطر وربّما الموت بسببي.

قلت: «آليس! يجب أن أترك هذا المكان في الحال».

«هذا لن يُحدث أي فارق، ولن يغيّر شيئاً. نحن لا نتكلّم عن فردٍ يتعمّد مطاردتك، بل عن جيشٍ بكامله. سيأتون إلى هنا أوّلاً في جميع الأحوال».

عوضاً عن الصراخ، تمالكت القدرة على الكلام ولو بصوتٍ

مرتجف وأجشّ: «إذاً عليّ أن أذهب بنفسي لملاقاتهم. إن حصلوا على مطلبهم. . .، لن يعرّضوا حياة الجميع للخطر».

اعترضت آليس على كلامي: «بيلاّ!».

«توقّفوا». أمر جايكوب بصوتٍ منخفض وقويّ. «ما الذي تقولون إنّه قادمٌ إلى هنا؟».

التفتت إليه آليس وقالت: «جماعات من نوعنا، ولكن بأعداد كبيرة».

«ولماذا؟».

«كلّ ما نعرفه حتّى الآن أنّهم يريدون بيلاّ».

«وعددهم يفوق عددكم؟».

أصرّ جاسبر على القول غير متنازلٍ عن كبريائه: «أيّها الكلب، لدينا ما يميّزنا عنهم، والمعركة ستكون متكافئة».

«كلاّ». قال جايكوب، وابتسامة شرسة وغريبة ظهرت على وجهه. «لن تكون المعركة متكافئة».

«ممتاز!». قالت آليس بحماسة، واختفت عن وجهها جميع أمارات اليأس والخوف. وابتسمت لجايكوب، فقابل ابتسامتها بمثلها. وقالت بنبرةٍ متعالية:

«ها إنّ الحلّ يبدو ممكناً. هذا ليس مناسباً لنا تماماً، ولكن بسبب كلّ المعطيات الحاضرة سأقبل بذلك».

فأجاب جايكوب: «لن يكون الأمر سهلاً. وعلينا أن نتعاون وننسّق معاً. ولكنّنا نعتبر أنّ هذه المهمّة هي مهمّتنا نحن في الدرجة الأولى».

«ليس لهذه الدرجة! ولكنّنا بحاجة للمساعدة ولن نعقّد الأمور».

فقطعت للتوّ حوارهما: «مهلاً، مهلاً، مهلاً».

صوبّ كلاهما إليّ نظرة استغراب. كانت آليس تقف على رؤوس

أصابعها، وجايكوب يحني رأسه نحوها. كلاهما شديد الحماسة، ولكنّ نفور كل طرف من رائحة الآخر بادٍ على كلٍّ منهما من خلال مشهد أنفه المتقلّص.

ردّدت العبارة مستنكرة: «تتعاونان!؟».

قال جايكوب: «لا تقولي لي إنّك تنوين استبعادنا عن هذا الأمر!؟».

«لن تتدخّلوا في هذا الأمر!».

«صديقتك عالمة الغيب لا ترى ما تقولين صواباً».

«أرجوكِ يا آليس، امنعيهم من التدخّل لأنهم سيقتلون!».

وأطلق الثلاثة، جايكوب وإيمبري وكويل، ضحكةً عالية.

«بيلاّ»، قالت آليس بصوتٍ هادئ ومعتدل: «سيقضى علينا لو حاربنا منفصلين، ولكن إذا اتحدنا. . .».

وأكمل جايكوب عبارتها: «إذا اتحدنا لن تكون هناك مشكلة».

وضحك كويل مجدّداً ثمّ سأل بحماسة: «ما هو عددهم؟».

قلتُ بحدّة: «كلاّ!».

أجابته آليس: «إنّهم اليوم واحد وعشرون عنصراً، ولكنّ عددهم ينحدر». .

«لماذا؟». سأل جايكوب بفضول.

أجابت آليس بعد أن دارت بنظرها حول الغرفة المليئة بالمدعوّين: «إنّها قصّة طويلة، والوقت الآن ليس مناسباً».

وتابع جايكوب بإصرار: «هل ستخبرينا في وقتٍ لاحق هذه اللّيلة؟».

«نعم»، أجاب جاسبر. «سنجتمع بشأن هذه المعركة لاحقاً هذه اللّيلة، فإن كنتم ستحاربون إلى جانبنا سيلزمكم بعض التوجيهات».

لم يتقبّل الذئاب القسم الأخير من الحديث وبدا الاستياء على وجوههم.

أطلقت أنيناً حزيناً وأنا أقول: «كلاّ!».

وقال جاسبر بعد التفكير: «ستكون هذه المرّة الأولى التي يحدث فيها تعاونٌ من هذا النوع!».

فوافق جايكوب: «لا شكّ في ذلك». ولكنّه شعر في تلك اللّحظة بوجوب الإسراع، فقال: «علينا أن نعود ونجتمع بسام الآن. في أيّ ساعة الاجتماع هذه اللّيلة؟».

«عند الساعة الثالثة».

«أين؟».

«حوالى عشرة أميال إلى شمال محطّة هوه فورست رينجر. تعالوا إلى هناك من جهة الغرب، ثمّ تدلّكم رائحتنا على مكاننا».

«سنكون هناك».

وأداروا ظهورهم في طريقهم إلى الباب. فصرخت: «انتظر يا جايك. أرجوك لا تفعل هذا!».

توقّف واستدار لينظر إليّ ضاحكاً، بينما تابع إيمبري وكويل طريقهما، وقال: «غريبٌ أمرك يا بيلاّ! إعلمي أنّك ستقدّمين لي هديّة أجمل بكثير من التي قدّمتها إليك».

صرختُ مجدّداً: «لا!» ولكن صوت الموسيقى العالية أخمد صوتي.

لم يستجب إلى ندائي، وحثّ خطاه كي يلحق برفيقيه وسرعان ما توارى جميعهم عن نظري.

18

توجيه

في طريق العودة إلى البيت قلت لإدوارد: «لا شكّ أنّها كانت أطول حفلةٍ في تاريخ البشر!».

«على كلّ حال، لقد انتهت الآن». قال إدوارد وهو يداعب يدي بحنان.

كنت الوحيدة التي لا تزال قلقة حتى الآن. لقد ارتاح بال إدوارد، واطمأن جميع أفراد عائلة كولن.

حاول جميعهم تهدئتي عند الباب. ربتّت آليس على رأسي ونظرت إلى جاسبر فلجأ هذا الأخير إلى تلطيف عواطفي وتهدئتها. أمّا إيزمي فقبّلت جبيني وأكّدت لي أن كلّ شيء سينتهي بسلام. وإيميت، من جهته، كان يضحك ويسألني عن سرّ الاتفاق النوعي المفاجئ مع الرجال الذئاب من أجلي. لقد نجح الحلّ الذي قدّمه جايكوب وكأنّه سحر ساحرٍ في تهدئتهم جميعاً بعد أسابيع طويلة من القلق المتواصل. حلّت الثقة الآن مكان الشكّ، وانتهت الحفلة بجوّ من الاحتفال الحقيقي.

ولكن الحقيقة لم تكن كذلك بالنسبة لي.

كان يكفيني قلقاً ورعباً أن جميع أفراد عائلة كولن سيتعرّضون للخطر من أجلي. فكيف الآن وقد أُضيف إليهم جايكوب أيضاً وإخوته. إخوته الذين يتطلّعون إلى هذه المعركة بحماسة وينتظرونها بفارغ الصبر،

وكأنّهم يستعدّون للذهاب في نزهة. بغضّ النظر عن عضلاتهم النامية وقاماتهم الطويلة، فإنّهم أولاد وبعضهم أصغر منّي سنّاً. لا أريد أن أكون السبب في أن يتعرّض هؤلاء للخطر من أجلي. أكاد أفقد سيطرتي على نفسي وأصرخ عالياً في وجه الجميع.

همست لإدوارد في محاولة للسيطرة على صوتي: «سأذهب معك اللّيلة».

«إنّك منهوكة القوى يا بيلاّ».

«وهل تظنّ أنّني قادرة على النوم؟».

قطّب حاجبيه وقال: «هذا اختبار. وهناك احتمال ألاّ يكون الجميع... متعاوناً. لا أريد زجّك في وسط كلّ ذلك».

لم يخطر في بال إدوارد أنّ ما قاله سيزيد من اندفاعي للذهاب. قلت مهدّدة بطريقة رخيصة: «إن رفضتَ اصطحابي سأذهب مع جايكوب».

لم يجبني، وكنّا قد وصلنا أمام بيت تشارلي في تلك اللّحظة. كان المصباح الأمامي مضاءً.

تمتمت: «إلى اللّقاء في غرفتي».

دخلت إلى البيت على رؤوس أصابع قدميّ. كان تشارلي نائماً على الكنبة في غرفة الجلوس وصوت شخيره عالياً جدّاً، بحيث إنّي لو أدرت منشاراً كهربائيّاً في البيت في تلك الساعة، لما أيقظه.

هززت كتفه بقوّة وقلت: «أبي! تشارلي!».

دمدم متذمّراً ولم تزل عيناه مغمضتان.

«أنا في البيت الآن. قم إلى سريرك. ستؤذي ظهرك إن بقيت نائماً بهذه الطريقة. تعالَ، قم الآن».

وبعد بضع محاولات نجحت في إيقاظه نوعاً ما وإقناعه بضرورة

الصعود إلى غرفته. عندما وصل إلى سريره، لم يخلع ثيابه بل رمى بنفسه فوق الغطاء وغرق في النّوم مجدّداً واسترسل في الشخير.

لن يستيقظ تشارلي من نومه العميق قبل بضع ساعات، ولن يشعر بغيابي إذا خرجت.

جلس إدوارد على الكرسيّ الهزّاز في غرفتي ينتظرني بينما كنتُ أغسل وجهي وأسناني وأغيّر ثيابي. لم يكن راضياً لرؤيتي أرتدي سروال جينز وفانيلاّ قطنيّة بعد أن علّقت الثياب التي قدّمتها لي آليس في الخزانة.

أمسكت بيده وشددته نحو السرير. ثمّ استلقيتُ إلى جانبه والتصقت بصدره. قد يكون على حقّ في قوله إنّي متعبة جدّاً، ولكنّي لن أدعه يذهب من دوني. أمسك اللِحاف وغطّاني. ثمّ همس في أذني: «أرجوكِ أن تسترخي».

«بكل تأكيد، لكن كيف؟».

«ستنجح مهمّتنا يا بيلاّ، لا تقلقي».

كنت أصرّ على أسناني.

بدا إدوارد مرتاحاً. لا أحد غيري يكترث إن أصاب جايكوب أو رفاقه أذىً. وحتّى جايكوب نفسه وإخوته، فإنّهم لا يكترثون.

«أصغي إليّ يا بيلاّ، سيكون الأمر سهلاً. سنفاجئهم بهجومنا. وسيفاجئهم الذئاب لأنّهم ليسوا على علم قطّ أن هناك رجالاً ذئاباً في الوجود. إنّي أعلم كيف يتحرّكون وسط المجموعة...، كما وصفهم لنا جاسبر. إنّي متأكّد من أنّ تقنيّات الصيد التي يتّبعها الذئاب ستربكهم وتشتّتهم وتساعد في القضاء عليهم بسهولة. ربّما لن يحتاج الأمر إلى اشتراك الجميع في المعركة». وأضاف ممازحاً: «ربّما لن يكون هناك ما يستدعي دخول الجميع إلى المعركة، قد يضطرّ أحدنا إلى البقاء خارجها».

«أمرٌ سهلٌ جدّاً كلعب الأطفال. . .»، قلتُ.

«ششش»، وداعب خدّي بأصابعه. «سوف ترين. استرخي الآن وتوقّفي عن القلق».

بدأ يدندن الترنيمة التي تساعدني على النّوم ولكنّها لم تنجح هذه المرّة في تهدئتي.

أناسٌ أحبّهم، ولو أنّهم مصّاصو دماء ورجال ذئاب، سيصابون بأذىً بسببي. ليت سوء حظّي ينجح في التركيز عليّ. شعرت برغبة في أن أصرخ وأنادي السماء: «ألست أنا المقصودة؟ إنّي هنا! أنا وليس غيري!».

حاولت أن أفكّر بطريقة لأجبر حظّي السيئ على أن يركّز عليّ دون غيري. لا أظنّ أنّه بإمكاني فعل ذلك، فليس أمامي سوى الانتظار إلى أن يحين وقتي.

لم يغلبني النعاس. مرّت الدقائق بسرعة، وكنت لا أزال مستيقّظة ومشدودة الأعصاب. إلى أن جلس إدوارد وجلست معه.

«هل أنتِ متأكّدة من عزمك على الذهاب معي؟».

نظرت إليه بغصّة.

تنهّد وحملني بين ذراعيه وقفز من النافذة.

وراح يركض في الغابة الهادئة السوداء وأنا على ظهره. كان يركض بتيهٍ وابتهاج كما كان يركض في نزهاتنا الجميلة. كنت بالتأكيد سأشعر بالفرح لو كان الظرف اليوم أقلّ صعوبةً.

عندما وصلنا إلى المرج الكبير كانت عائلته هناك. كانوا يجلسون بارتياح ويتبادلون الأحاديث، وكانت ضحكات إيميت تنطلق في الهواء من حينٍ لآخر. أنزلني إدوارد إلى الأرض ومشينا يداً بيد نحوهم.

كان ضوء القمر شاحباً بسبب كثافة الغيوم، ولم أنتبه أنّنا في ملعب البايسبول إلا بعد دقائق. في هذا الملعب كنّا نلعب بفرحٍ مع جميع أفراد

عائلة كولن في ذلك المساء منذ سنة تقريباً، عندما فاجأنا جايمس وجماعته. انتابني شعورٌ غريب عندما حطّت خطواتي في هذا المكان مجدّداً. . .، وكأنّ هذه الجلسة لن تكتمل إلاّ بوجود جايمس ولورانت وفيكتوريا. ولكن جايمس ولورانت ذهبا إلى غير رجعة، لذا فإنّ هذا المشهد لن يتجدّد. ربّما لا رجعة إلى كلّ تلك المشاهد والنماذج.

إن كان هناك من غيّر أسلوبه وطريقته، فهل يكونوا الفولتوري بالضرورة؟

شعرت بالشكّ في ذلك.

كنت دائماً أرى فيكتوريا تشبه قوى الطبيعة؛ كأنّها إعصار يقتحم الشواطئ فيقترب على خطٍّ مستقيم نحو الشاطئ. لا مجال للهرب منه أو التخفيف من حدّته، لكنّه يتبع نظاماً معيّناً ومتوقّعاً. قد لا أكون على حقّ في أن أحدّدها في هذا الإطار، فربّما كانتِ قابلة لتغيير نظامها وأسلوبها.

سألت إدوارد: «أتعلم بماذا أفكّر؟».

ضحك وقال: «لا، بماذا تفكّرين؟».

كدت ابتسم، ولكنّي قلت: «أفكّر في أنّ هناك ثلاثة أمور مرتبطة ببعضها لا أمران فحسب». .

«ماذا تقصدين؟».

«ثلاثة أحداثٍ حصلت بعد عودتك؛ مسألة مصّاصي الدماء الجدد في سياتل، واقتحام غرفتي من قبل مجهول، وقبل كلّ شيء، مجيء فيكتوريا بقصد القضاء عليّ».

استمع إليّ باهتمام وقال: «وما سبب هذا التفكير؟».

«لأنّي أوافق جاسبر الرأي في أنّ عائلة فولتوري حريصة على تطبيق القوانين التي سنّتها، ولنفترض أنّها أرادت مخالفتها فلا بدّ أن تفعل ذلك بطريقة أفضل». ولكنتُ أنا في عداد الأموات في الوقت الحاضر، أكملت في نفسي. «أتذكر عندما كنتَ تطارد فيكتوريا السنة الماضية؟».

أجاب بعبوس: «نعم، ولم أنجح كثيراً في ذلك».

«قالت لي آليس إنّك ذهبت إلى تكساس، هل تبعتها إلى هناك؟».

قطّب حاجبيه وهمهم: «نعم».

«ألا توافقني أنّها تعلّمت فكرة المطاردة في المدن منك، لكنّها فقدت السيطرة على اللّعبة وعلى مصّاصي الدّماء الجدد؟».

هزّ رأسه نفياً: «لا أحد غير آرو يعرف الشروط الضرورية كي تتمكّن آليس من رؤية المستقبل».

«معرفة آرو بقدرات آليس هي دقيقة بالطّبع. ولكن، ألا تعتقد أنّ تانيا وآيرين وبقيّة أصدقائكم في دينالي على اطّلاع كافٍ أيضاً. تذكّر أنّ لورانت عاش مع عائلة تانيا لمدّة طويلة. ألا تعتقد أنّه أطلع فيكتوريا على هذه المعلومات المهمّة من باب صداقته لها وتفانيه في خدمتها؟».

أجاب إدوارد: «لم تأتِ فيكتوريا إلى غرفتك».

«ولكنّ لفيكتوريا أصدقاء. فكّر في الأمر يا إدوارد. إن كانت هي سبب الشغب في سياتل فلديها إذاً الكثير من الأصدقاء».

«لا زلت مقتنعاً بتورّط عائلة فولتوري في الأمر. ولكن هناك عناصر تدعم صحّة نظريتك ومنها شخصيّة فيكتوريا التي تمتلك موهبة إبعاد نفسها عن الخطر. ففي هذه المواجهة مثلاً، ستبقى هي تراقب من بعيد، ولن تتعرّض بالتالي إلى المحاسبة من قبل الفولتوري. ربّما أنّها تتوقّع أن يموت كلّ أفراد ذلك الجيش الصغير من الجدد الّذين خلقتهم ودفعتهم إلى المعركة، وتنتهي المعركة لصالحنا ولكن بعد أن نكون قد دفعنا خسائر فادحة. وفي تلك الحال، لن يبقى من يبلّغ الفولتوري عن حقيقة تورّطها». وتابع بعد لحظات: «أراهن أنّه لو بقي أحد هؤلاء الجدد حيّاً فستقتله بنفسها. ولكن، لا بدّ أنّ لديها صديقاً غير هؤلاء، أكثر نضجاً منهم... ، قادراً على أن يدخل إلى البيت ويترك تشارلي حيّاً».

نظر إلى الفضاء البعيد مفكّراً، ثم التفت إليّ مبتسماً وقال: «بكل

تأكيد، نظريتك قد تكون صائبة. ولكن علينا أن نتوقّع جميع الاحتمالات إلى أن نكتشف الحقيقة بكاملها. على كلّ حال، أنا معجبٌ بوضوح الرؤيا التي تتمتّعين بها اليوم!».

أطلقت زفرةً وقلت: «قد يكون السبب هو ردّ فعلي لدى رؤية هذا المكان ثانيةً. إنّي أشعر أنّها تراقبني من مكانٍ قريب».

انقبضت عضلات فكّيه عند سماع ذلك، وقال: «لن أسمح لها بلمس شعرةٍ منك يا بيلاّ».

وأدار عينيه بحركة تلقائية حول المكان. بدا كأنّه يتأكد من عدم وجود ظلالهم هناك، ثمّ كشّر عن أسنانه ولمع في عينيه نور غريب...، ينمّ عن توق متوحّش وشرس.

«في الحقيقة، أتمنّى أن تكون قريبة من هنا الآن، فيُتاح لي أن أنهي حياتها بيديّ، وحياة كلّ من فكّر بإيذائك».

ارتجفت من ذلك التوق المخيف في صوته، وأمسكت بيده فتشابكت أصابعنا معاً، وتمنّيت أن أمتلك القوّة الكافية كي نبقى متعاونين إلى الأبد.

عندما أشرفنا على الوصول إلى مكان عائلته، لاحظتُ أن آليس تقف متجهّمة بعيداً عنهم، تراقب استعدادات جاسبر للقيام ببعض التمارين، وكانت تبدو أقلّ تفاؤلاً من الباقين.

قلت بهمس: «لا تبدو آليس على ما يرام...، ما المشكلة؟».

هزّ إدوارد كتفيه، وأطلق ضحكةً خافتة وقال: «الذئاب في طريقهم إلى هنا وهي عاجزة عن رؤيتهم. يزعجها الشعور بأنّها عمياء».

وصلت كلمات إدوارد إلى أذنيها، فنظرت إليه ومدّت لسانها له. فضحك من جديد.

قال جاسبر: «أهلاً إدوارد، أهلاً بيلاّ...، هل سيسمح لك بممارسة التمارين أيضاً؟».

هدر إدوارد بصوته وقال لأخيه: «أرجو ألا تعطيها أيّ أفكار جديدة».

وسأل كارلايل إدوارد: «متى سيصل ضيوفنا؟».

فكّر إدوارد قليلاً، وقال: «بعد دقيقة ونصف. لكن، ثقتهم بنا ليست كافية، لذلك فضّلوا المجيء كذئاب وسأضطرّ إلى الترجمة».

«بلا شكّ أنّ الأمر صعبٌ عليهم. أشكر استعدادهم للمساعدة في جميع الأحوال».

نظرت إلى إدوارد، وتأكّدت من كلامه بتعجّب: «إنّهم آتون بشكل ذئاب؟».

هزّ إدوارد رأسه بالإيجاب متنبّهاً لردّ فعلي. بلعت ريقي بصعوبة، إذ لم أشاهد جايكوب في حالة الذئب سوى مرّتين. الأولى خلال المعركة ضدّ لورانت، والثانية عندما هاجمني بول في الغابة. ولم يبقَ في نفسي من تلك المرّتين سوى ذكريات مرعبة.

لمعت عينا إدوارد، وكأنّ شيئاً قد خطر في باله، شيئاً قد لا يكون مزعجاً. استدار فجأةً وبسرعة إلى كارلايل والباقين وقال: «انتظموا واستعدّوا، إنّهم يراقبوننا من بعيد».

«ماذا تعني؟». سألت آليس.

قال منبّهاً: «شش!». ونظر إلى البعيد عبر الظلام.

انتظم أفراد عائلة كولن في خطٍّ مستقيم مع إيميت وجاسبر في مقدّمته. شعرت من انحناء إدوارد إلى الأمام توقه إلى الوقوف بجانبهم، ولكنّي شددتّ بيدي حول يده ونظرت في اتجاه الغابة المظلمة من دون أن أرى شيئاً.

«تبّاً لهم! هل رأيت في حياتك شيئاً مثل هذا؟».

تبادلت إيزمي وروزالي نظرات التعجّب.

همستُ بحذر: «ماذا هناك؟ أنا لا أرى شيئاً بعد».

تمتم إدوارد في أذني: «لقد كبرت المجموعة».

ألم أقل له سابقاً إنّ كويل قد انضمّ إلى المجموعة!؟ مددتّ عنقي لأرى، فبدا لي أخيراً وميض نورٍ يلمع في الظلام. كانت تلك عيونهم ولكنّها كانت على مسافة عالية من الأرض أكثر ممّا توقّعت. كان قد ذهب عن بالي كم قامات الرّجال الذئاب طويلة. . . ، كأنّهم أحصنة كبيرة، مع فراء كثيف وعضلات ضخمة وأسنان تلمع كالسكاكين لا يمكن للناظر تجاهلها.

كل ما كان يمكنني مشاهدته بوضوح هو أعينهم. حدّقت بنظري لأرى أكثر فلاحظت أنّهم أكثر من ستة أزواج من العيون. عددتّهم وتأكّدت بإعادة العدّ مرّتين أو أكثر فوجدتّهم عشرة.

«منظرٌ آسر!». قال إدوارد بصوتٍ خافت.

تقدّم كارلايل بخطوةٍ مدروسة نحو الأمام كان يهدف منها إلى طمأنة القادمين، ثمّ ألقى التحيّة عليهم: «أهلاً بكم!».

«شكراً»، أجاب إدوارد بنبرةٍ غريبة. لاحظت أنّ الكلمات كانت قد أتت من سام. فنظرت إلى العينين المشعّتين في وسط الصفّ. كان الأعلى بينهم والأطول قامةً. ووجدت صعوبةً كبرى عندما حاولت أن أميّز خطوط الذئب الأسود الضخم من سواد الليل حوله.

تكلّم إدوارد مجدّداً بالصوت الغريب الخالي من أيّ انفعال: «سوف نصغي ونراقب. هذا كلّ ما يمكننا القيام به من دون أن نعرّض أنفسنا لفقدان السيطرة».

أجاب كارلايل: «سيكون هذا كافياً». وأشار إلى جاسبر وقال: «لدى ابني جاسبر خبرة في هذا المجال، سيطلعنا على أساليبهم في القتال وعلى كيفيّة التغلّب عليهم. إنّي متأكّد من قدرتكم على الاستفادة من هذه التوجيهات».

وسأل سام بصوت إدوارد: «هل هم مختلفون عنكم؟».

هزّ كارلايل رأسه وقال: «إنّهم جميعاً جدد. إنهم «أولاد» فأعمارهم كمصّاصي دماء لا تتجاوز بضعة أشهر. وهم لا يمتلكون مهارات استراتيجية في القتال بل يلجأون إلى قوّتهم التي لا تزال في شكلها الخام. عددهم اللّيلة عشرون. يمكننا أن نتقاسم هذا العدد بالتساوي، عشرة لنا وعشرة لكم. ولكنّ عددهم قابلٌ للانخفاض إذ إنّهم يتقاتلون في ما بينهم».

وسرت ضجّة خفيفة كأنّها دمدمة تنبئ بالرّضا والحماسة بين الذئاب.

«بإمكاننا أن نهتمّ بأكثر من نصفهم إذا لزم الأمر». تكلّم إدوارد عن سام بصوتٍ تخالجه بعض الحماسة الآن.

ابتسم كارلايل، وقال: «سنرى كيف ستجري الأمور».

«هل تعلمون متى وكيف سيصلون؟».

«سيأتون من جهة الجبال ويصلون بعد أربعة أيّام. عندما يقتربون في آخر ساعات الصباح، ستنذرنا آليس باقترابهم فنقطع عليهم الطريق».

«شكراً لهذه المعلومات. ونحن الآن مستعدّون للمشاهدة».

سمعت حشرجة زفير وانخفضت العيون إلى مسافة أقرب إلى الأرض.

حلّ السكون واستمرّ بضع لحظات، وتقدّم جاسبر إلى المنطقة الخالية بين مصّاصي الدّماء والذئاب. لم يكن من الصعب رؤية جاسبر فجلدته البيضاء كانت تلمع في الظلام كما كانت تلمع عيون الذئاب. رمق جاسبر إدوارد بنظرة فيها خوف وريبة، لكنّ هذا الأخير هزّ رأسه مطمئناً، ثمّ أدار ظهره للذئاب بطريقةٍ لا تخلو من التوتّر، وقال: «كارلايل على حقّ». كان كلامه موجّهاً إلينا وكأنه قصد أن يتجاهل من كان وراءه. «إنّهم يقاتلون كالأولاد. هناك أمران مهمّان يجب

مراعاتهما. أوّلاً: لا تسمحوا لهم بلفّ الذراعين حولكم، وثانياً: لا تهاجموهم وتحاولوا قتلهم بصورة مباشرة، لأنّهم على استعداد لردّ هذا النوع من الهجوم. إن جئتم إليهم من الجانب وقمتم بحركة مستمرّة، سيصابون بالارتباك ويتعذّر عليهم الرّد». ثمّ نادى: «إيميت!».

تقدّم إيميت قليلاً وابتسامة كبيرة تنتشر على وجهه.

تراجع جاسبر بضع خطوات وأشار إلى إيميت بالتقدّم أكثر.

«حسناً، إيميت أولاً. إنّه يستطيع إعطاء أفضل مثال لهجوم مصّاص دماء جديد».

زمّ إيميت عينيه وتمتم: «سأحاول عدم تحطيم أيّ شيء».

ضحك جاسبر. «أعني أنّ إيميت يعتمد على قوتّه، وهو يهاجم من أجل القتل بشكلٍ مباشر. هكذا يتصرّف الجدد. إنّهم أيضاً لا يعتمدون على الحيلة. إيميت، حاول أن تهاجمني لكي تقتلني».

قام جاسبر بعدّة خطوات إلى الوراء، وبدا جسده متشنّجاً.

«حسناً يا إيميت، حاول أن تقبض عليّ».

لم أعد أرى جاسبر أبداً بعد أن هجم عليه إيميت هجوم الدبّ مبتسماً وهو يزمجر. كان إيميت شديد السرعة، ولكن جاسبر راح يتحرّك بخفّة الشبح، وفي كلّ مرّة كنت أظنّ أنّ إيميت قد أطبق عليه بيديه الضخمتين، كانت اليدان تطبقان على فراغ. إلى جانبي كان إدوارد يشدّ بعنقه إلى الأمام بقصد التركيز التامّ على المشهد القتالي الراقص.

وإذا بإيميت يتجمّد في مكانه.

لقد انقضّ عليه جاسبر من الوراء، وأسنانه على مسافة قصيرة جدّاً من حنجرته.

وأطلق إيميت لعنةً.

هدر الذئاب معبّرين عن تقديرهم وإعجابهم.

قال إيميت: «النقم بالتمرين مرّة جديدة».

اعترض إدوارد قائلاً: «الآن دوري». فاشتدّت قبضة أصابعي حول أصابعه.

أجاب جاسبر: «بعد قليل. الآن أريد أن أعرض شيئاً أمام بيلّا».

نظرت بعينين قلقتين بينما أومأ إلى آليس بأن تتقدّم.

«أعلم أنّك تقلقين بشأنها». قال لي بينما تقدّمت آليس بمرح، «ولكن أريدك أن تشاهدي بنفسك أنّ لا لزوم للقلق».

كنت متيقّنة من حرص جاسبر التام على سلامة آليس، لكنّني لم أتحمّل بسهولة رؤية جاسبر وقد قفز قليلاً، ثم ربض يتربّص بها. وقفت آليس من دون حراك وبدت كأنّها لعبة مقارنة بإيميت. تحرّك جاسبر إلى الأمام ثم إلى يسارها.

أغمضت آليس عينيها.

تسارعت دقّات قلبي عندما اقترب جاسبر بحركة مريبة من آليس. ثم قفز فجأةً واختفى وظهر من جديد بقربها من الجانب الآخر. لم نرَ أنّها تحرّكت.

تحرّك جاسبر وعاد ليقفز نحوها من جديد ويربض وراءها هذه المرّة. ولكنّ آليس كانت لا تزال واقفة تبتسم وعيناها مغمضتان.

حاولت أن أنظر إليها بتركيزٍ أكبر الآن.

كانت تتحرّك. لكنّ هجوم جاسبر كان يسرق انتباهي. كانت تقوم بخطوة صغيرة خارج النقطة التي كانت تقف فيها في اللّحظة التي يقفز فيها جاسبر إلى تلك النقطة. ها إنّها قامت بخطوة جديدة في اللّحظة التي أطبق جاسبر يديه قاصداً خصرها. زاد جاسبر هجماته، فزادت تحرّكات آليس سرعةً. كانت ترقص فتدور وتلتفّ وتنكمش على نفسها. وجاسبر كأنّه شريكها في الرّقص، يقفز ويحاول التقاطها من دون أن يتمكّن من لمسها. وأخيراً ضحكت آليس.

وفي لحظة، وبسرعة البرق قفزت فوق ظهر جاسبر وشفاهها فوق حنجرته.

وقالت: «انتهى أمرك!». وطبعت قبلةً على عنقه.

ضحك جاسبر وهو يهزّ رأسه قائلاً: «أنتِ شيطانة صغيرة ومخيفة!».

هدر الذئاب مجدّداً لكنّ ضجّتهم كانت تنمّ عن الخوف والريبة.

«من المفيد أن يظهروا بعض الرّهبة». تمتم إدوارد بصوتٍ خافت. ثمّ قال بصوتٍ أعلى: «إنّه دوري الآن». وشدّ على يدي قبل أن يتركها.

جاءت آليس لتجلس إلى جانبي وبادرتني بفخر: «كان عراكاً ممتعاً أليس كذلك؟».

قلت: «ممتعاً جدّاً». وتبعت عيناي إدوارد في تقدّمه نحو جاسبر. تحرّك برشاقة متيقظاً لما حوله كالقطّ الوحشي.

«إنّي أراقبك يا بيلّا». همست فجأةً بصوتٍ منخفض جدّاً سمعته بصعوبة برغم أنّ شفتيها كانتا في محاذاة أذني. التفتّ إليها بسرعة، وعدت لأراقب إدوارد وهو يقترب من جاسبر.

«سأوجّه إنذاراً إلى إدوارد إن كنتِ تنوين المتابعة. لا فائدة من وجودك معنا وتعرّضك للخطر. أتظنّين أنّك لو متّ سنتوقّف عن القتال؟ لن يتوقّف أحدٌ منّا عن القتال، لذا أنصحك أنت تتصرّفي بحكمة».

هززت برأسي محاولةً تجاهل أقوالها.

«سأراقبك».

وصل إدوارد أمام جاسبر. هناك تقاربٌ بين مستوى الطرفين هذه المرّة. استند جاسبر إلى خبرة قرنٍ كامل في القتال، ولكنّ أفكاره كانت تفضح خطّته في التحرّك قبل التنفيذ. أمّا إدوارد فكان أسرع منه بقليل، لكنّه لم يتعوّد هذه الطريقة في القتال بالتحديد. وفي كلّ مرّة كانا يقتربان من لحظة الحسم، ينجح أحدهما في التملّص من الآخر، فتنطلق

أصواتهما مزمجرة. لم يكن سهلاً مراقبتهما كما لم يكن من السهل أبداً الالتفات جانباً ولو للحظة؛ سرعتهما الخارقة جعلتني عاجزة عن فهم ما يدور حقاً، وتهيّأ لي أنّ الذئاب تابعوا تطوّر القتال بدقّة أكثر منّي، وتعلّموا من هذه المشاهد عن فنون وإستراتيجيّة القتال لدى مصّاصي الدّماء أكثر ممّا ينبغي.

وأخيراً أطلق كارلايل همهمةً.

ضحك جاسبر وتراجع خطوةً إلى الوراء فانتصب إدوارد واقفاً وابتسم له.

«يمكننا القول إنّ القتال انتهى إلى تعادل». أعلن جاسبر. «لنعد إلى التمارين!».

وأخذ كارلايل دوره، وإيزمي وروزالي، وإيميت مرّةً ثانية. لم أستطع تحمّل مشهد جاسبر وهو يهاجم إيزمي. لكنّه كان يتمهّل ويعطي بعض الارشادات.

«هل ترين ماذا أفعل هنا؟ نعم هكذا، ركّزي على الجانبين، ولا تنسي أين يكمن هدفه. لا تتوقّفي عن الحركة».

بقي إدوارد مركّزاً انتباهه، وكان يراقب ويصغي إلى ما لم يستطع الباقون سماعه.

شعرت بصعوبة في أن أبقى متيقّظة، وكاد النعاس يتغلّب عليّ بعد أربع وعشرين ساعة من اليقظة المستمرّة. أحنيت رأسي على كتف إدوارد، وأغمضتُ عينيّ.

همس لي: «شارفنا على الانتهاء».

أكّد جاسبر على ما قاله إدوارد، والتفت إلى الذئاب هذه المرّة وبدا على وجهه التوتّر: «سنكرّر هذه التمارين غداً، ونرحّب بحضوركم أيضاً».

أجاب سام بصوت إدوارد: «سنكون هنا».

هزّ إدوارد رأسه، وربّت على يدي، ثمّ قام من مكانه واستدار ليتكلّم مع أفراد عائلته: «يرى سام أنّه من الأفضل أن يتعرّفوا إلى روائحنا من أجل تفادي الخطأ. ويطلبون أن نقف في أمكنتنا من دون حراك كي نسهّل عليهم هذه العمليّة».

«بالتأكيد». أجاب كارلايل.

وصدرت حشرجةٌ تدلّ على بعض الانزعاج من طرف الذئاب بينما انتصبوا على قوائمهم.

تغلّبت على تعبي فجأةً واتسّعت عيناي لأراقب ما يجري.

كان ظلام اللّيل الدامس قد بدأ بالانقشاع، وطلعت بشائر النهار من دون أن تطرد حتى تلك الساعة كلّ جيوش العتمة من الأفق البعيد. اقترب الذئاب وأصبح ممكناً رؤية أحجامهم... وألوانهم.

كان سام في الطليعة وكان ضخماً إلى درجة لا تصدّق، أما لونه فكان أسود كالظلام الدامس. لم يكن شكله غريباً عن مخيّلتي، فمنذ المعركة التي خاضها مع بقيّة الذئاب ضدّ لورانت في المرج، أصبح سام أحد أبطال كوابيسي الليليّة.

الآن وقد أصبح بإمكاني مشاهدتهم تأكّدت أن عددهم قد زاد حقّاً فأصبحوا مجموعة لا يستهان بحجمها.

كان إدوارد يرمقني بطرف عينيه مراقباً ردّ فعلي.

تقدّم سام من كارلايل واصطفّ بقيّة الذئاب وراءه. تشنّج جاسبر وكان على يمين كارلايل ولكنّ إيميت الذي وقف على يساره بدا مسترخياً ومبتسماً.

شمّ سام كارلايل ورأيته يجفل قليلاً؛ ثمّ انتقل إلى جاسبر.

فيما استعرضت عيناي حبل الذئاب، لاحظت عدداً من الجدد بينهم. كان هناك ذئب رماديّ أصغر قامةً من رفاقه وقد انتصب الشعر على ظهر عنقه بشكل نافر، وآخر بلون رمال الصحراء كان يبدو فوضويّاً

بعض الشيء وسرعان ما همهم شاكياً عندما ابتعد عنه سام وتركه بين جاسبر وكارلايل وحيداً.

توقّف نظري على الذئب الذي وراء سام، وكان فراؤه طويلاً ذا لونٍ بنيٍّ مائل إلى الحمرة، وعلوّ قامته بارتفاع قامة سام تقريباً. إنّه الثاني في المجموعة من حيث الضخامة. كان يقف مرتاحاً وكأنّه لا يحسّ بالتوتّر أو النفور الذي بدا واضحاً على معظم رفاقه.

نظر إليّ الذئب البنّي الضخم بعينين سوداوين أليفتين، فبادلته النظرات مؤكّدةً لنفسي ما كنت أعرفه، وشعرت بالسحر والإعجاب باديان على وجهي.

فتح الذئب فكّيه وكشّر عن أنيابه، ولولا لسانه الذي تدلّى جانباً بابتسامةٍ ذئبيّة. . .، لكنت ارتجفت رعباً.

قهقهت ضاحكة.

اتسعت ضحكة جايكوب وبانت أنيابه أكثر، ثمّ ترك مكانه في الصفّ غير مكترثٍ بنظرات رفاقه التي تبعته، وقفز متخطّياً إدوارد وآليس ليقف على بعد أقلّ من قدمين منّي. ثمّ راحت عيناه ترمقان إدوارد بسرعة.

بقي إدوارد واقفاً في مكانه كالتمثال، لا يقوم بأيّ حركة سوى أنّه يراقب بطرف عينيه ردّ فعلي.

وانحدر جايكوب إلى الأرض وربض أمامي، وأحنى رأسه فصارت عيناه بمحاذاة عينيّ. أخذ يتأمّل وجهي ويراقب انفعالاتي مثله مثل إدوارد.

أطلقت زفرةً وقلت: «جايكوب؟».

أجابني بقرقرةٍ انطلقت من أعماق صدره وكأنّها ضحكةٌ مكبوتة.

ومددتّ يدي، وبأصابعي المرتجفة لمست الشعر البنيّ على جانب وجهه.

أغمض عينيه وألقى رأسه الضخم على باطن يدي، وتردّدت همهمة لطيفة من حنجرته. كان ملمس شعره دافئاً ويتراوح بين الناعم والخشن، فرحت أداعب عنقه عند بعض النقاط. لم أنتبه إلى مدى اقترابي منه حتّى شعرت بلسانه فجأةً يلحس ذقني ويصعد إلى أعلى خدّي.

«ما هذا التصرّف يا جايك؟». وقفزت إلى الوراء ووجّهت إليه صفعةً كما كنت سأفعل لو كان بشكله الإنساني.

هرب من صفعتي وأصدر عواءً متقطّعاً كأنّه قهقهة.

ومسحت وجهي بكمّ قميصي ورحتُ أضحك معه.

لم أنتبه حتّى تلك اللّحظة إلى الأنظار المنصبّة علينا. قرأت تعابير الالتباس والقرف على وجوه عائلة كولن. وبرغم عدم تمكّني من معرفة ما شعر به الذئاب فقد كنتُ متأكّدة من عدم رضا سام عن المشهد.

أمّا إدوارد فبدا الغضب وخيبة الأمل على وجهه. أعلم أنّه كان يتوقّع منّي ردّ فعلٍ مختلفاً، كأن أصرخ وأهرب مذعورةً.

أطلق جايكوب صوتاً يشبه الضحك مرّة ثانية.

في هذا الوقت كانت الذئاب تتراجع بحذر. راقب جايكوب انسحاب رفاقه من دون أن يتحرّك من مكانه. اختفى الذئاب في ضباب الغابة سوى اثنين، فقد بقيا بين الأشجار يراقبان جايكوب من بعيد.

تجاهل إدوارد وجود جايكوب واقترب منّي وأمسك بيدي قائلاً: «هل أنتِ مستعدّة للذهاب الآن؟».

وقبل أن أجيبه، التفت إلى جايكوب وأجاب على سؤالٍ طرحه هذا الأخير عبر أفكاره.

«لم أفكّر في التفاصيل بعد».

هدر الذئب جايكوب بتجهّم.

«الأمر أكثر تعقيداً من ذلك. لا تقلق، سأحرص على تأمين الحماية التامّة».

سألت: «عمّا تتكلمان؟».

«نناقش تفاصيل استراتيجيّة».

أدار جايكوب رأسه ونظر إليّ تارةً وإلى إدوارد تارةً أخرى، وبعد لحظات اندفع صوب الغابة بسرعة البرق، فلاحظت أنّ مربّعاً من القماش الأسود كان مربوطاً بإحدى قوائمه الخلفيّة.

قلت: «إنتظر!». ومددتّ يدي بحركةٍ تلقائيّة نحوه، لكنّه سرعان ما اختفى في اتجاه الغابة والذئبان الآخران وراءه.

سألت إدوارد مستاءة: «ما سبب ذهابه المفاجئ؟».

«سيعود للتوّ. يريد أن يسترجع قدرته على الكلام بلسانه».

ألقيت رأسي على كتف إدوارد ورحت أقاوم النعاس.

ظهر جايكوب مجدّداً واقفاً على ساقيه الآن. كان صدره العريض عارياً وشعره أشعث. وكان يلبس سروالاً قطنيّا أسود، ويمشي على أرض الغابة الباردة والرّطبة حافي القدمين. عاد بمفرده لكنّي توقّعت أن رفيقيه مختبئان في مكانٍ ما بين الأشجار.

قطع المسافة بسرعة ومشى نحونا متجنّباً أفراد عائلة كولن الّذين وقفوا ضمن حلقة يتبادلون الأحاديث معاً.

وعلى بعد بضع أقدام، توقّف وتابع مع إدوارد الحديث الذي كانت قد فاتتني بدايته: «حسناً يا مصّاص الدماء، قل لي ما هو الأمر الذي تعتبره معقّداً إلى هذا الحدّ؟».

أجاب إدوارد بهدوء: «عليّ أن آخذ في الاعتبار جميع الاحتمالات. ماذا لو اقترب أحدهم منك؟».

لم يقتنع جايكوب بكلام إدوارد، ولكنّه قدّم اقتراحاً آخر: «إذاً دعها تبقى في المحميّة. سنترك ذئبين هناك للحراسة وستكون في أمان».

فقلتُ بانزعاج: «هل تتكلّمان عنّي؟».

أجاب جايكوب: «أريد معرفة أين سيتركك خلال المعركة؟».

«أين سيتركني!؟».

تدخّل إدوارد بلهجةٍ هادئة، وقال: «لا يمكنك أن تبقي في فوركس يا بيلاّ. إنّهم يعرفون مكانك. وقد يتسلّل واحد منهم ويذهب إلى هناك».

شعرت بانقباض شديد في معدتي، فقلت بهلع: «وماذا سيحلّ بتشارلي؟».

«سيكون مع بيلي. لن يسمح له أبي بعدم المجيء ولو كلّفه ذلك ارتكاب جريمة. على كلّ حال، ستقع المعركة ليلَ السبت ولن يصعب على بيلي إقناعه بالحضور لمشاهدة المباراة معه على التلفزيون في لا بّوش».

وبسبب أفكاري المشتّتة، تعجّبت فجأةً من مطابقة ذلك الموعد المشؤوم مع موعد الحفلة الموسيقيّة، فقطّبت حاجبيّ وقلت لإدوارد: «هذا السبت!!؟ تبّاً لهذه المصادفة. . . ، ستذهب هديّة التخرّج هدراً».

ضحك إدوارد وذكّرني بقوله سابقاً: «لا تنسي أنّ التفكير بالهديّة هو الأهمّ. يمكنك إعطاء البطاقتين إلى أصدقاء غيرنا».

خطر في بالي فوراً «آنجيلا وبن». وقلت: «على الأقلّ، ستكون الحفلة دافعاً لإخراجهما من فوركس».

لمس خدّي وقال بصوتٍ هادئ: «لن تتمكّني من إخراج الجميع من البلدة. نحن نفكّر في تخبئتك من باب الوقاية فحسب. كما قلت لكِ، القضاء عليهم جميعاً لن يكون صعباً».

وألحّ جايكوب على اقتراحه: «ولكن ماذا تقول عن إبقائها في لا بّوش؟».

لقد زارت لا بّوش مرّات عديدة ورائحتها في كلّ مكانٍ هناك. تمكّنت آليس من رؤية مصّاصي دماء جدد يهاجموننا، ولكن هناك الذي تسبّب في وجودهم. هناك خبير. . . ، أو خبيرة وراء هذه العمليّة. ربّما

الهدف من تلك المعركة هو إلهاؤنا. . .، يمكن لآليس الرؤية إذا ما قرّر مصّاص الدماء صاحب الخبرة التفتيش عن بيلاّ بنفسه، ولكن سنكون حينئذٍ مشغولين في القتال. إن كان هذا الافتراض صحيحاً سأفعل ما بوسعي لكي أترك بيلاّ في مكانٍ يصعب عليهم اقتفاء رائحتها إليه. قد يكون هذا التفكير مجرّد افتراض غير صحيح، ولكن لا يمكنني المغامرة بسلامتها».

كنت أحدّق به وهو يتكلّم، فربّت على ذراعي مطمئناً، وأكّد لي: «ليس ذلك سوى من باب الوقاية الشديدة فحسب».

أشار جايكوب بيده إلى عمق الغابة من جهة الشرق حيث سلسلة الجبال الأولمبيّة.

«إذاً أخبئها هنا. هناك العديد من الأماكن التي يمكنها البقاء فيها، ويمكننا الذهاب إليها بلمح البصر عند الضرورة».

هزّ إدوارد رأسه بعدم الموافقة: «رائحتها قويّة جدّاً، وعندما تندمج برائحتي سيكون من السّهل التعرّف إليها. رائحة عائلتنا منتشرة في كلّ مكان هنا، ولكن عندما تمتزج رائحتي مع رائحة بيلاّ ستلفت انتباههم. لسنا حتّى الآن على معرفة أكيدة بالطريق التي سيأتون منها، لأنّهم لم يقرّروا ذلك بعد. ماذا لو وجدوا رائحتها قبل أن يصلوا إلينا. . .؟».

بدا على الاثنين القلق والتركيز.

«هل ترى معي حجم الصعوبات؟». سأل إدوارد.

أجاب جايكوب متمتماً وهو ينظر إلى الغابة: «يجب أن نجد حلاًّ».

ارتجفت ساقاي وكدتّ أسقط من شدّة التعب. فلفّ إدوارد ذراعه حولي وأسندني إليه.

«من الأفضل أن أصطحبكِ إلى البيت فأنتِ مرهقة. . .، وقريباً سيستيقظ تشارلي ويفتّش عنك».

شعّت عينا جايكوب ببريق مفاجئ وقال لإدوارد: «إنتظر لحظة... رائحتي تسبّب لديكم النفور، أليس كذلك؟».

«هه، إلى حدٍّ ما». أجاب إدوارد، ثمّ تابع: «هذا ممكن!». واستدار نحو أفراد عائلته ونادى جاسبر.

«ماذا يا إدوارد؟». أجاب جاسبر بفضول. ثمّ اقترب مع آليس التي سرعان ما عادت إليها مظاهر الغيظ.

هزّ إدوارد رأسه إيجاباً وقال: «حسناً يا جايكوب».

التفت جايكوب إليّ، وعلى وجهه مزيجٌ غريب من العواطف. كان يبدو متحمّساً لخطّته الجديدة التي لا أعرفها. ولكنّه كان أيضاً متوتّراً لقربه من الأعداء الحلفاء. وفجأةً أصابني الذهول عندما مدّ ذراعيه نحوي.

التقط إدوارد نفساً عميقاً.

قال جايكوب: «إنّها خطّة لمزج رائحتك مع رائحتي فيصعب على العدوّ العثور عليك».

نظرت إلى ذراعيه الممدودتين نظرة شكّ.

«يجب أن تدعيه يحملك يا بيلاّ». قال إدوارد بصوتٍ هادئ من دون أن ينجح بإخفاء قرفه.

قطّبتُ جبيني.

أدار جايكوب عينيه معبّراً عن ضيقه، وانحنى ليرفعني على ذراعيه. وتمتم: «لا تتصرّفي كالأطفال». لكنّ عينيه التفتتا إلى إدوارد كما فعلت عيناي.

ثمّ انطلق جايكوب بخفّة في اتجاه الغابة، وكنت مكوّمةً بين ذراعيه لا أنبس بكلمة. كان يضمّني بشدّة إلى صدره فشعرت ببعض الانزعاج، وتساءلت في نفسي عن شعوره في تلك اللّحظات. وعادت إلى مخيّلتي قبلته في لا بّوش وحاولت الابتعاد عن التفكير في ذلك، ولكنّ الرّباط

الذي كان لا يزال على أصابعي أبى إلاّ أن يعيد إليّ بعض مشاعر الغيظ التي شعرت بها آنذاك.

لم يذهب جايكوب بعيداً بل رسم في ركضه قوساً واسعاً وعاد إلى مكان الاجتماع من جهةٍ مختلفة عن الجهة التي انطلقنا منها. كان إدوارد ينتظرنا بمفرده وتوجّه جايكوب نحوه.

«بإمكانك أن تنزلني عن ذراعيه الآن».

«لا أريد أن أخاطر وأفسد العمليّة». ومشى بخطوات بطيئة وذراعاه مشدودتان حولي.

فتمتمت: «أنت تغيظني جدّاً».

«شكراً».

وإذا بآليس وجاسبر يظهران فجأةً إلى جانب إدوارد.

مشى جايكوب خطوةً إضافيّة إلى الأمام وأنزلني على قدميّ على بعد حوال ست أقدام من إدوارد.

لم ألتفت إلى جايكوب بل ركضت فوراً إلى إدوارد وأمسكت بيده.

«لن يحاول أحد تمييز رائحتك في هذا المكان عن رائحة الذئاب يا بيلّا. رائحتك الآن قادرة على تضليل من يطاردك».

وافقت آليس على قول جاسبر وأضافت وهي تزمّ أنفها: «إنّها خطّة ناجحة، وأعطتني فكرة جديدة ستكون ناجحة أيضاً».

«عظيم!». قال إدوارد موافقاً.

فتمتم لي جايكوب: «ما هو رأيك؟».

نظر إدوارد إليّ وقال: «سوف تتركين أثراً مضلّلاً يجذبهم إلى هذا المكان. إنّهم يفتّشون عن رائحتك، وسيأتون إلى هنا تلقائيّاً كما نريدهم أن يفعلوا. لقد رأت آليس أنّ هذه الخطّة سيكتب لها النجاح. عندما يتنبّهون إلى رائحتنا سينقسمون إلى قسمين كي يفاجئونا من الجانبين.

فيذهب نصفهم إلى الغابة، ولكنّ لا سبيل لترى آليس ماذا سيحصل في تلك الجهة...».

فاندفع جايكوب بحماسة: «نعم سنكون على استعداد لمواجهتهم هناك!».

وظهرت على وجه ادوارد ابتسامة لطيفة تقديراً للصداقة والتعاون.

وقفت أنظر إليهما بتعجب واستغراب. كيف يتحمّسان لتعريض نفسيهما للخطر ويطلبان منّي أن أبقى صامتة ومسترخية؟

لن أوافق على ذلك.

«لا مجال». قال إدوارد فجأةً بنفور. فانتابني القلق والعجب من أن يكون قد قرأ أفكاري. ولكنّه كان ملتفتاً إلى جاسبر.

«أعرف، أعرف، لم آخذ الفكرة على محمل الجدّ أبداً».

ورأيت آليس تضغط بقدمها على قدمه.

ففسّر لها جاسبر: «لو كانت بيلاّ حقّاً هنا في ذلك الوقت، فسيصابون بالخبل ويعجزون عن التركيز على أيّ شيء غيرها، ويصبح اقتناصهم سهلاً جدّاً...».

ولكنّ إدوارد صوّب إليه نظرةً جعلته يتراجع بسرعة: «لا شكّ أنّ هذا الأمر يعرّض بيلاّ للخطر الشديد. إنّها فكرة عابرة خطرت في بالي وليس أكثر». وراح يرمقني بنظراتٍ خاطفة وحزينة.

وقال إدوارد بحزمٍ شديد: «كلاّ!».

«أنتَ على حقّ». قال جاسبر والتقط يد آليس وتوجّه معها نحو الآخرين. فسمعته يسألها استعداداً لإكمال التمارين. «من هما أفضل اثنين بين الثلاثة؟».

فتبعه جايكوب بنظرة اشمئزاز.

فاستدرك إدوارد مدافعاً عن أخيه: «جاسبر ليس قاسياً ولكنّه يريد أن يستعرض جميع الأفكار. فهو ينظر إلى الأمور بطريقة عسكرية».

شخر جايكوب بازدراء.

كان جايكوب مشغولاً بالتخطيط فتقدّم بغير انتباه من إدوارد. كنت أقف بين الاثنين وأشعر بموجات التوتّر تمرّ في تلك المسافة الضيقة بينهما كأنّها موجات كهربائية غير مريحة.

وعاد إدوارد إلى استكمال الخطّة: «سأجلب بيلاّ بعد ظهر يوم الجمعة إلى هذا المكان كي تترك رائحتها هنا. ثمّ تتبعنا أنتَ وتصطحبها إلى مكانٍ أعرفه أنا، شرط أن يكون من السهل الوصول إليه والدفاع عنها. ولكنّ الأمور لن تصل إلى هذا الحدّ بالطّبع. سأسلك أنا طريقاً أخرى إلى ذلك المكان».

«وبعد ذلك...؟ نعطيها هاتفاً خليوياً ونتركها، هل هذا كلّ شيء؟». طرح جايكوب السؤال بنبرة انتقاد.

«هل لديك فكرة أفضل؟».

أجاب فخوراً: «بالطّبع!».

«أوه...، لا بأس أيّها الكلب!».

التفت إليّ جايكوب متنبّهاً إلى أصول التهذيب الذي يقضي بالتوجّه إليّ بالحديث أيضاً. «حاولنا إقناع سيث كي يبقى في لا بّوش مع الذئبين الأصغرين، لكنّه لم يقبل فهو لا يزال يافعاً وعنيداً. لهذا فإنّي أفكّر بإعطائه مهمّة الاتصال».

«عندما يكون سيث كليروُوتر في حالة الذئب، يكون على اتصال ذهني مع بقيّة الذئاب، والمسافة عندئذٍ لا تكون عائقاً؟». قال إدوارد ملتفتاً إلى جايكوب.

فأكّد جايكوب على ذلك: «طبعاً».

«إذاً فالاتصال بينكم يبقى ممكناً على مسافة ثلاثمائة ميل...، هذا لافتٌ حقّاً!».

واستعاد جايكوب دور الشّاب المهذب، ونظر إليّ قائلاً: «هذه هي المسافة القصوى التي اختبرنا التواصل عبرها حتّى الآن، فوجدناه واضحاً جدّاً كصوت الجرس».

هززت برأسي، ولكنّي كنتُ أفكّر بسيث كليرووتر الذي لا يتجاوز عمر الخامسة عشرة والذي أصبح ذئباً أيضاً. كنتُ أرى في ذهني ابتسامته المشرقة التي تذكّرني بجايكوب عندما كان يافعاً. ها إنّي عرفتُ الآن سبب حماسته الشديدة خلال سهرة النار....

«إنّها فكرة جيّدة». اعترف إدوارد رغماً عنه. «سأكون أشدّ اطمئناناً لوجود سيث هناك حتّى لو لم يكن هناك مجالٌ للتواصل المباشر. لا أعتقد أنّ بإمكاني ترك بيلّا بمفردها هناك أبداً. ها قد وصلت إلى اليوم الذي أثق فيه بالذئاب!».

فقابل جايكوب نبرة الاشمئزاز في كلام إدوارد بنبرةٍ مماثلة: «ها إنّي أقاتل إلى جانب مصّاصي الدّماء عوضاً عن القتال ضدّهم!».

«ولكنّك ستقاتل ضدّ بعضهم».

ابتسم جايكوب وقال: «هذا هو سبب وجودنا هنا».

19

أنانية

حملني إدوارد في طريقنا إلى البيت، فغلبني النعاس ونمتُ على ذراعيه قبل وصولنا.

عندما استيقظت، كنت في سريري وكان نور الشمس الشاحب يدخل إلى غرفتي من زاويةٍ مختلفة، فاكتشفتُ للتوّ أنّ معظم النهار قد ولّى.

تثاءبتُ وتمغطتّ، وراحت أصابعي تبحث عنه من دون جدوى.

ثمّ غمغمت: «إدوارد؟».

في هذه اللّحظة عثرت أصابعي على شيءٍ ناعمٍ وبارد. إنّها يده.

«هل إنّك حقّاً مستيقظة هذه المرّة؟».

أخذت نفساً عميقاً، وغمغمت: «ممم، هل أعطيتك إنذارات خاطئة من قبل».

«كنتُ تتكلّمين في نومك طيلة النهار».

نظرتُ ثانيةً إلى النافذة بتعجّب: «طيلة النهار؟».

كان ليلك طويلاً ومتعباً، فلا عجب أن تنامي طيلة النهار.

جلست في السرير، فشعرت بدوارٍ في رأسي. «واو! أشعة الشمس تدخل غرفتي من الغرب. . . !».

«هل تشعرين بالجوع؟ ما رأيك أن أجلب إليك طعام الفطور إلى هنا؟».

«سأتناوله في المطبخ، فأنا بحاجة لبعض الحركة».

أمسك بيدي حتّى وصلنا إلى المطبخ وكأنّه خائفٌ عليّ من الوقوع، أو ظن أنّني أمشي في نومي.

اكتفيت بقطعتين من الخبز المحمّص، ورحت أنظر إلى انعكاس صورتي في جوانب محمصة الخبز المصنوعة من معدن الكروم اللامع كالمرآة. «إف، أبدو قبيحة جدّاً».

«كانت ليلة متعبة وطويلة. كان يجب أن تبقي في البيت وتنامي».

«هل أنت جادّ في ما تقوله؟ لو بقيت هنا، لفاتني كلّ ما حدث وقيل. يجب أن تتعوّد على أنّي أحد أفراد العائلة الآن».

ابتسم وقال: «ربّما سأستطيع أن أتعوّد على ذلك».

جلست لتناول فطوري، وجلس قبالتي وإذا به ينظر إلى معصمي. كنت لا أزال أرتدي السوار الذي قدّمه لي جايكوب في السهرة.

«هل تسمحين؟». ومدّ يده ولمس منحوتة الذئب المعلّقة بالسوار.

قلتُ: «بالتأكيد».

أخذ يحرّك المنحوتة بين أصابعه العاجيّة، فأمسكت أنفاسي لأنّه لو ضغط عليها قليلاً لتحوّلت إلى فتات.

شعرت بالخجل من هذه الفكرة التي راودتني. لا يمكن أن يقترف إدوارد مثل هذا الخطأ. لقد تحسّس وزنها في كفّه خلال لحظة ثمّ تركها.

حاولت أن أقرأ تعابير وجهه، فوجدته مستغرقاً في التفكير، ولم ألحظ أيّ تعبيرٍ واضح.

«تتقبّلين من جايكوب بلاك الهدايا».

برغم أنّ كلامه لم يصدر بلهجة السؤال ولا العتاب، بل صدر بلهجة البيان العادي، لكنّي عرفت أنّه يشير إلى رفضي تقبّل الهدايا

بمناسبة عيد ميلادي الماضي، وخاصّةً منه. بالطبع، لم يكن رفضي منطقياً. . .، وتجاهله الجميع على كلّ حال.

«سبق وقدّمت لي هدايا وقبلتها، وأنت تعرف أنّي أحبّ تلك التي من صنع اليد».

زمّ شفتيه قليلاً وقال: «وماذا عن المنقولة من يدٍ ليد، هل تقبلينها؟».

«ماذا تعني؟».

أشار بيده إلى معصمي، وقال: «هذا السوار. هل ستبقينه حول معصمك لوقتٍ طويل؟».

هززت برأسي إيجاباً.

«كي لا تؤذي مشاعر جايكوب. . .»، أضاف بذكاء.

«طبعاً، لهذا السبب».

أمسك يدي وقلب باطنها إلى أعلى، وراح يداعب الشرايين البارزة عند المعصم، قائلاً: «إذاً توافقين على أن أترك لديك، أنا أيضاً، شيئاً يمثلني ويذكّرك بي؟».

«شيئاً يمثّلك؟».

«منحوتة، شيءٌ يذكّرك بي».

«أنت موجود في فكري دائماً، وافكاري تدور حولك. لا أحتاج لأشياء تذكّرني بك».

«إن أعطيتك شيئاً، فهل ترتدينه؟». سألني بإلحاح.

«شيءٌ منقولٌ من يد ليد؟». قلت.

«نعم، أحد الأشياء التي أملكها منذ بعض الوقت». وارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الملائكية.

«لا مانع لديّ إن أرضاك ذلك».

«هل لاحظتِ عدم المساواة؟».

«أيّ عدم مساواة؟».

«تتقبّلين الهدايا من الجميع إلاّ منّي. كنت أودّ أن أقدّم لك هديّة بمناسبة تخرّجك، ولكنّي أقلعت عن الفكرة إذ توقّعت أن يسيئك ذلك أكثر ممّا لو قدّمها لك أيّ شخص آخر. أتسمّين هذا عدلاً؟».

قلت له. «مهلاً! أنت أهمّ من الجميع بالنسبة إليّ. لقد أعطيتني ذاتك وهذا أكثر ممّا أستحقّ، لذا لا أريد أشياء أخرى كي يبقى التوازن قائماً بيننا على الأقلّ».

فكّر بالأمر خلال لحظات، ثمّ أدار عينيه وقال: «إنّك تتعاملين معي بطريقة مضحكة وغير مفهومة».

تابعت مضغ طعامي بهدوء. ثمّ رنّ هاتفه، فنظر إلى الرّقم وأجاب: «ماذا يا آليس؟».

كنت أراقب وجهه وهو يصغي إلى آليس، فرأيته يتوتّر ويطلق عدّة زفرات، ولكنّه لم يفاجأ بأيّ خبرٍ جديد.

أجابها وهو يحدّق في عينيّ، رافعاً أحد حاجبيه بحركةٍ تنمّ عن عدم الرّضى: «توقّعت ذلك. لقد كانت تتكلّم في نومها».

احمرّت وجنتاي خجلاً. ماذا قلت يا تُرى؟

وتابع إدوارد: «سأهتمّ بالأمر».

نظر إليّ وقال بعد أن أقفل الخطّ: «هل هناك ما تودّين التحدّث معي بشأنه؟».

فكّرت في الأمر، وعلى ضوء التحذير الذي وجّهته لي آليس البارحة، توقّعت السبب الذي دفعها للاتصال بإدوارد. وتذكّرت الأحلام المضطربة التي راودتني خلال نومي. رأيت نفسي بين أشجار الغابة

الكثيفة حيث أضعت الطريق، أركض وراء جاسبر كي أتبعه إلى مكان المعركة حيث سأجد إدوارد. . . ، إدوارد والوحوش الذين يريدون قتلي. ولكنّي كنت غير مكترثة لوجودهم لأنّي قد اتخذت قراري. وكان يخطر في بالي أيضاً ما قد يكون سمعه إدوارد منّي خلال نومي.

أطبقت شفتيّ خلال لحظات، غير قادرة على النظر في عينيه. وكان ينتظر بصمت.

وأخيراً قلت: «إنّي أؤيّد فكرة جاسبر».

همهم مستنكراً.

لكني أصرّيت: «أريد مساعدتكم. أريد القيام بدورٍ مفيد».

«لن تساعدينا إذا عرّضتِ نفسك للخطر».

«قال جاسبر إنّ ذلك سيكون مفيداً، وهو الأوسع خبرةً في هذا المجال».

كان إدوارد يحملق بي متعجّباً.

وأضفت: «لن تجبرني على أن أبقى مختبئة في الغابة فيما تعرّضون أنفسكم جميعاً للخطر من أجلي».

وارتسمت على وجهه ضحكة مفاجئة، وقال: «لم ترَك آليس في أرض المعركة يا بيلاّ، بل ضائعة في الغابة. لن تتوصّلي إلى معرفة مكاننا، بل ستكلّفيني مشقة أن أجدك في ما بعد».

حاولت أن أحتفظ بالنمط الهادئ الذي تكلّم به. فقلت: «هذا لأنّ آليس لم تأخذ في حسابها وجود سيث كليرووتر». وتابعت بأسلوبٍ مهذّب: «وبالطبع لو فعلت ذلك لما استطاعت أن ترى شيئاً البتّة. ولكن كما فهمت، فإنّ سيث متحمسٌ للذهاب إلى أرض المعركة مثلي ولن يكون من الصعب عليّ إقناعه بأن يدلّني على الطريق».

انقبض وجهه غضباً، وأجابني بعد أن تمالك نفسه: «لو لم تقولي لي هذا، ربّما كنتِ ستنجحين في خطّتك، ولكنّي الآن سأطلب من سام

أن يعطي سيث بعض الأوامر. لن يستطيع سيث مخالفة أوامر سام مهما كانت حماسته للاشتراك في القتال».

حافظت على ابتسامةٍ لطيفة، وقلت: «ولماذا يعطي سام أوامر كهذه؟ أراهنك أنّي لو قلتُ لسام عن الأسباب التي تدفعني للذهاب إلى هناك، سيتفهّم موقفي أكثر منك».

حاول الالتزام بهدوئه، وقال: «قد تكونين على حقّ، ولكنّ جايكوب سيصرّ على إعطاء تلك الأوامر».

«جايكوب؟».

«جايكوب هو الثاني في القيادة. وأوامره يجب أن تُطاع أيضاً. ألم يقل لكِ ذلك أبداً؟».

لقد استطاع إسكاتي. وابتسامته المنتصرة تدلّ على ثقته بما يقول. لا شك أنّ جايكوب سيقف معه ضدّي في هذه المرّة بالذات. ولكنّ لم يسبق لجايكوب أن أخبرني قطّ عن مركزه القيادي بين رفاقه.

إغتنم إدوارد ارتباكي ليكمل كلامه بصوت وأسلوبٍ ناعم يدعو إلى الشكّ:

«اطّلعت اللّيلة الماضية على فكر الذئاب وكانت تجربة آسرة! شعرت وكأنّي أشاهد مسلسلاً تلفزيونيّاً مشوّقاً. لم يخطر في بالي من قبل تطوّر النشاط القائم بين أذهان تلك المجموعة الكبيرة، وخاصّةً حركة الانفتاح والانكماش بين الذهن الفردي والذهن الجماعي. إنّه أمرٌ مدهش».

كان هدف إدوارد من هذا الحديث صرف اهتمامي عن الموضوع الرئيسي. فرحت أنظر إليه وأترقّب الفرصة لأثبت صحّة رأيي. كنت أحدّق إليه وهو يتابع حديثه:

«ليس لديك فكرة عن كميّة الأسرار التي لا يفصح جايكوب عنها. هل لاحظتِ مثلاً الذئب الرّمادي القصير القامة بين المجموعة؟».

هززت رأسي مرّة واحدة مقتضبة بالإيجاب.

ضحك، وقال: «إنّهم يصدّقون أساطيرهم إلى حدٍّ بعيد، ولكنّهم يفاجأون ببعض الأمور التي غفلت عن ذكرها القصص».

اضطررت إلى التجاوب معه، وقلت: «عمّ تتكلّم؟».

«إنّهم يؤمنون إيماناً قاطعاً بأن الذين يمتلكون القدرة على التغيّر إلى ذئاب هم أحفاد الذئب الأوّل ولا أحد سواهم».

«وهل تريد القول إنّ أحداً من غير الأحفاد المباشرين تغيّر؟».

«لا، فهي حفيدة مباشرة ولا شكّ حول ذلك».

قلت بتعجّب: «هي؟».

هزّ برأسه: «وهي تعرفك، واسمها لِيا كليروونر».

«ماذا؟ لِيا تتغيّر إلى ذئب، ومنذ متى!؟ ولماذا أخفى جايكوب عنّي هذا الأمر؟».

«هناك أشياء لا يستطيع جايكوب الافصاح عنها؛ فعدد أفراد المجموعة مثلاً يجب يبقى سرّاً. وكما قلتُ لكِ بأنّهم جميعاً يطيعون أوامر سام. لذلك كان جايكوب حذراً في إبعاد أفكاره عندما يقترب منّي. ولكنّ اللّيلة الماضية فُتحت النوافذ على الأسرار».

أكاد ألا أصدّق. لِيا كليروونر! وتذكّرت كيف انقبض جايكوب وخاف من أن يكون قد أفشى سرّاً، بعد أن أخبرني عن الحَرَج الذي يشعر به سام كلّما نظر في عينيْ لِيا. وتذكّرت الدمعة التي تجمّدت في عينيها عندما تكلّم الجدّ كويل عن المسؤولية التي تقع على عاتق أحفاد الكويلوت والعذاب الذي يتحملونه. كذلك خطرت في بالي كلمات جايكوب عن أنّ بيلي غالباً ما يذهب لمواساة سوزان كليروونر التي كانت تواجه بعض الصعوبات في التعاطي مع أولادها...، وها إنّ تلك الصعوبات تكمن في تحولّ الاثنين إلى بشر ذئاب!

لم أهتمّ كثيراً بلِيا كليروتر في السابق، سوى بمشاركتها حزنها لفقدان أبيها هاري، والشفقة عليها بعد أن أخبرني جايكوب كيف أنّ مسألة التطابق الغريبة جعلت حبيبها سام ينصرف عنها فجأةً ليعشق قريبتها إميلي.

والآن أفكّر بحالتها وهي بين مجموعة الذئاب، تعرف أفكار سام. . .، ولا تستطيع إخفاء أفكارها.

سبق وقال لي جايكوب: ما أكرهه حقّاً، هو أنّ كلّ ما يخجل منه أحدنا مفتوح أمام جميع أفراد المجموعة لتطّلع عليه.

همست: «مسكينة ليا!».

«لا أظنّ أنّها تستحقّ شفقتك فهي ماكرة لأنّها تتسبّب في تعقيد الأمور بالنسبة للمجموعة».

«ماذا تعني؟».

«الاشتراك في الأفكار هو أمرٌ صعب ومعظمهم يقدّر ذلك ويبدي تعاوناً كي تبقى الأجواء مقبولة. ولكن عندما يتعمّد أحدهم الشرّ يلحِق الأذى بالجميع».

«إنّ لها من الأسباب ما يكفي». دمدمت مدافعةً عنها.

«إنّ مسألة التطابق القسري هي من أغرب الأمور التي شهدتها في حياتي. لقد اطّلعت حقّاً على أمور غريبة». وهزّ برأسه متعجّباً: «طريقة تعلّق سام بإميلي تفوق الوصف، فكأنّه ملكٌ حصريٌّ لها. تذكّرني هذه المسألة بفيلم حلم ليلة صيف، وبالفوضى التي حلّت نتيجة تعويذات الحب التي فرضتها الساحرات. . .، نعم إنّه عشقٌ أشبه بالسحر». ثمّ ابتسم وقال: «إنّه يساوي تقريباً بقوتّه ما أشعر به نحوك».

«مسكينة ليا. . .، ولكن ماذا تعني بقولك إنّها ماكرة؟».

«إنّها لا تكفّ عن التفكير في أمور يفضّلون تحاشيها. كمسألة إيمبري على وجه المثال».

سألته باستغراب: «وماذا عن إيمبري؟».

«كانت أمّه قد انتقلت من محميّة ماكّا لتعيش مع قبيلة كويلوت منذ سبع عشرة سنة، وكانت حاملاً به. الجميع يعلم أنّها ليست من قبيلة كويلوت، وظنّوا أنّ زوجها كان لا يزال في ماكّا. ولكنّ إيمبري تغيّر مؤخّراً إلى رجلٍ ذئب...».

«وإذاً؟».

«إذاً، أصابع الشكّ تفتّش عن أبيه الحقيقي، وتدور حول كويل آتيارا، أو جوشوا أولي، أو بيلي بلاك، وبالطّبع كان الثلاثة متزوّجين في ذلك الوقت».

صرخت: «لا!». كان إدوارد على حقّ فهذه القصّة أشبه ما تكون بالمسلسلات التلفزيونية.

«والآن يفكّر كلّ من سام وجايكوب وكويل في إمكانيّة أن يكون لديه أخٌ من أبيه. كلّهم يفضّلون أن يكون سام، لأنّه معروفٌ عن والد سام أنه لم يكن مخلصاً لزوجته. ولكنّ الشكّ حاضرٌ في أذهانهم، خصوصاً أن جايكوب لم يتطرّق إلى الموضوع مع بيلي حتّى الآن».

قلت: «واو! كيف تمكّنت من الاطّلاع على كلّ هذه المعلومات خلال ليلة واحدة؟».

«فكر الذئاب عجيب. كلّهم يفكّرون معاً، وفي الوقت عينه يفكّر كلّ منهم على انفراد. هناك الكثير من المعلومات التي يمكن الاطّلاع عليها!».

أنهى إدوارد كلامه وكأنّه يتوق إلى متابعة قصّة ممتعة كان يقرأها، ثمّ اضطرّ إلى إغلاق الكتاب عند ذروة التشويق. فقلت: «فكر الذئاب عجيب، والأعجب منه قدرتك على تحويل انتباهي عن الموضوع الأهمّ!».

وإذا به يعود للتصرّف بحذاقة وتهذيبٍ رفيع، متعمّداً عدم إظهار أيّ انفعال.

قلت: «يجب أن أذهب إلى أرض المعركة يوم السبت يا إدوارد».

أجاب بنبرةٍ حاسمة ونهائية: «كلاّ».

وفي تلك اللّحظة فكّرت في أنّ ما يهمّني حقّاً هو أن أكون إلى جانبه بغضّ النظر عن المكان. فلمعت في ذهني بارقة حلٍّ جديد.

وفي داخلي ارتفع صوتٌ يؤنبّني: «لا تتصرّفي بأنانيّة. هذه أنانيّة مقيتة، لا تفعلي هذا».

لم أصغِ لصوت الضمير في داخلي. وفتحت فمي لأتكلّم ولكنّي لم أستطع النظر في عينيه، فأبقيت عينيّ مسمّرة على الطاولة أمامي.

«أنظر يا إدوارد. كلّ الموضوع يُختصر بعبارة: لا أقوى على الابتعاد عنك. لقد مررت بالتجربة سابقاً وكدتُ أفقد عقلي، وأنا الآن أعي حدود قدرتي على التحمّل».

لم أرفع عينيّ لأقرأ ردّ فعله خوفاً من رؤية مقدار الألم الذي تسبّبت له به، ثمّ سمعت صوت تنفّسه العميق فجأةً، والصمت الذي وقع بعده. بقيت عيناي معلّقتين على الطاولة أمامي وتمنّيت للحظة لو كان باستطاعتي استعادة الكلمات التي قلتها، ولكن لو تسنّى لي ذلك لما كنت فعلت. وخصوصاً أن هذا النوع من الضغط أثبت فعاليته.

وإذا به يلفّ ذراعيه حولي في محاولة للتخفيف عنّي. تحرّكت مشاعر الذنب لديه بقوّة، ولكنّ غريزة حبّ البقاء كانت أقوى. لا شكّ أنّه يعتبر بقائي على قيد الحياة في رأس سلّم الأولويّات.

«إعلمي يا بيلاّ أنّ الأمر مختلف هذه المرّة، لن أكون بعيداً عنك وستنتهي المشكلة بسرعة».

«لا أقوى على التحمّل». قلت بإصرار. «لا أتحمّل أن أنتظر

عودتك وأنا في حالة من الجهلِ الكلّي. . . وأنا أجهل إن كنت ستعود حقاً أم لا، مهما كان وقت الانتظار قصيراً!».

تنهّد وقال: «سيكون القضاء على الأعداء سهلاً يا بيلاّ، ولا لزوم لهذا القلق الشديد».

«لا لزوم للقلق أبداً؟».

«أبداً».

«وسيبقى الجميع بخير».

«الجميع». قال مؤكّداً.

قلت: «إذاً لا حاجة لذهابي إلى مكان القتال أبداً؟».

«بالطّبع لا. قالت لي آليس إنّ عددهم انخفض إلى تسعة عشر. ستتمكّن منهم بسهولة».

«هذا ما سبق وقلته لي. لقد قلت إنّ أحدكم قد يضطرّ إلى البقاء خارج المعركة، لأنّها على قدر من السهولة قد لا يستدعي تدخّل الجميع». وحرصت على ترديد الكلمات التي قالها لي مساء أمس. «هل كنتَ تعني ما تقول حقّاً؟».

قال: «نعم».

وبالطّبع، لم يكن من الصعب عليه استنتاج النقطة التي أردت الوصول إليها.

«إذن قد تكون المعركة على قدرٍ من السهولة يسمح لك بالبقاء خارجها؟».

طرحتُ السؤال عليه ورحت انتظر الإجابة خلال لحظات حسبتها دهراً. أخيراً رفعت عينيّ إلى وجهه فاكتشفت ذلك القناع الخالي من التعبير مجدّداً.

تنفّست بعمقٍ وقلت: «إنّها بالتأكيد إحدى الحالتين. إمّا أنّ الخطر

في الحقيقة كبيرٌ جداً، وأنت لا تريد الافصاح عن ذلك، وفي هذه الحالة يجب أن أذهب بنفسي إلى أرض المعركة كي أساهم وأساعد بأيّ طريقةٍ كانت. أو. . . أنّ المعركة ستكون سهلةً حقّاً ولا لزوم لاشتراكك فيها. أيّ الحالتين هي الحقيقة؟».

كنت أعلم ما كان يفكّر به. إنّه مثلي يفكّر بكارلايل وإيزمي وإيميت وروزالي وجاسبر و. . . .آليس.

تساءلت في نفسي إن كنتُ أنا من نوع الوحوش الخالية من الرأفة، القادرة على إلحاق الأذى بالآخرين من أجل تحقيق أهدافها.

كان هدفي أن يبقى حيّاً ونبقى معاً. هل كانت هناك حدود لما قد أقوم به وأضحّي به من أجل ذلك؟

لم أجد الجواب الواضح على تساؤلي.

«أنتِ تطلبين منّي أن أتركهم يخوضون المعركة من غير مساعدتي؟» سألني بصوتٍ هادئ.

قلت: «نعم». وفوجئت بقدرتي على التكلّم من غير اضطراب، برغم مشاعر الحقارة والخسّة التي كانت تعذّبني. «أو توافق أنت على وجودي معكم. من جهتي أوافق على أحد الحلّين، لأنّ المهمّ بالنسبة لي أن نكون معاً».

أخذ نفساً عميقاً ونفخه. ثمّ رفع يديه ليضعهما حول وجهي مصرّاً على النظر إلى داخل عينيّ. نظر طويلاً، وأجهل عمّ كان يفتش أو ما قد رأى فيهما. هل اكتشف مشاعر الذنب الثقيلة؟ هل بدت كثيفة وثقيلة هذه المشاعر من خلال عينيّ وعلى وجهي كما كانت في داخلي؟

زمّ عينيه في انفعالات لم أفهم معانيها.

ثمّ أسقط إحدى يديه عن وجهي وأخذ الهاتف.

«آليس! هل يمكنك أن تأتي لتحرسي بيلاّ قليلاً. فعليّ الذهاب للتحدّث مع جاسبر». وكان يرمقني بنظرة فيها تحدّي.

وافقت آليس بالطبع. وضع الهاتف جانباً وعاد ليحدّق إلى وجهي.

«ماذا ستقول لجاسبر؟». سألت بهمس.

«سأطرح معه موضوع بقائي... خارج المعركة».

لم تُخفِ تعابير وجهه الصعوبة التي يواجهها في لفظ هذه الكلمات.

«إنّي آسفة».

كنت حقّاً آسفة، لكن ليس إلى حدّ يجعلني أصطنع ابتسامة، وأسمح له بأن يذهب إلى المعركة من دوني. لا، ليس إلى هذا الحدّ قطعاً.

«لا تعتذري يا بيلاّ». قال محاولاً الابتسام. «لا تخافي أبداً من الكشف عن مشاعرك أمامي. إن كان هذا ما تريدين...، فأنتِ الأهمّ من كلّ شيء بالنسبة لي».

«لم أقصد أن أفرض عليك الاختيار بيني وبين عائلتك».

«أعلم أنّك لم تطلبي ذلك. لقد عرضتِ عليّ حلّين مقبولين بالنسبة لك، فقمتُ باختيار الحلّ المقبول بالنسبة لي. إنّها تسوية مثاليّة».

اقتربت منه وألقيت جبيني على صدره. وهمست: «شكراً».

«أهلاً... أيّ شيء تطلبينه...». ثمّ قبّل شعري وأضاف: «وفي أيّ وقت!».

أبقيت وجهي مختبئاً في صدره لدقائق طويلة. وكنت أشعر بصوتين يتصارعان في داخلي. أحدهما يريدني أن أكون قويّة وصادقة، والآخر يضغط على ذاتي الصّادقة بأن تلتزم الصمت.

«من هي الزوجة الثالثة؟» سألني إدوارد فجأةً.

قلت مذعورة: «هه؟». لم أتذكّر أنّي رأيت هذا الحلم مجدّداً.

«كنتِ تغمغمين شيئاً حول الزوجة الثالثة. لم أفهم سوى هذه الكلمات».

«أوه، إمم، بلى. هذه إحدى القصص التي سمعتها في سهرة النار في تلك اللّيلة. يبدو أنّها علقت في ذهني».

ابتعد إدوارد قليلاً، ونظر إليّ وهو يميل برأسه. ربّما لفته التغيّر الذي أصاب صوتي.

وقبل أن يتسنّى له طرح أيّ سؤال، وصلت آليس ووقفت أمام مدخل باب المطبخ وعلى وجهها ارتسمت أمارات اللّوم.

«سيفوتكَ كلّ المرح». قالت لإدوارد معاتبة.

«أهلاً آليس!». ألقى على آليس التحية، ووضع أصابعه تحت ذقني، ورفع وجهي كي يطبع على شفتيّ قبلة الاستئذان بالانطلاق.

وقال لي: «سأذهب الآن لإعادة تنظيم الأمور مع الآخرين، ثم أعود لاحقاً اللّيلة».

قلتُ: «حسناً».

«لا داعي لذلك. لقد أطلعتهم على قرارك وإيميت سعيدٌ به».

فقال إدوارد: «سيكون سعيداً بكلّ تأكيد».

وخرج وتركني وجهاً لوجه مع آليس.

«أعتذر. هل انسحاب إدوارد يعني ازدياد الخطر عليكم».

هزّت رأسها نفياً، وقالت: «أنتِ تقلقين كثيراً يا بيلاّ ستصابين بالشيب باكراً».

«ولِمَ أنتِ مستاءة إذاً؟».

«التعامل مع إدوارد صعب عندما لا تسير الأمور بحسب إرادته. أرى أني لن أعيش معه في بيتٍ واحد اكثر من بضعة أشهر بعد الآن. ولكن من الأفضل لك يا بيلاّ أن تخفّفي من التشاؤم».

«هل توافقين على أن يذهب جاسبر من دونك؟».

أجابت: «هذا أمرٌ مختلف».

«لا أظنّ ذلك».

ثمّ نصحتني بأن أذهب إلى الحمّام وأغتسل وأرتّب هندامي قبل أن يعود تشارلي. «سيعود بعد ربع ساعة، وإن رآك بهذا الشكل الأشعث سيمنعك من الخروج مجدّداً».

«واو، في الحقيقة لقد أضعت كلّ نهاري. يا لها من خسارة! حسناً إنّي لا أفعل ذلك إلاّ نادراً».

كنتُ في منظرٍ لائق عندما عاد تشارلي، وقدّمت له طعام العشاء. جلست آليس في مكان إدوارد فاغتبط أبي بوجودها كثيراً.

«كيف حالكِ يا عزيزتي آليس؟».

«أنا بخير يا تشارلي، شكراً».

«وأخيراً استيقظتِ من النوم يا بيلاّ». وعاد ليحدّث آليس: «أخبار السهرة عندكم شغلت البلدة اليوم. لا شكّ أنّكم تواجهون الآن مهمّة تنظيف البيت».

من خلال معرفتي بآليس توقّعت أنّ مهمّة التنظيف قد انتهت منذ ساعات.

هزّت آليس كتفيها وقالت: «كانت الحفلة ناجحة جدّاً، وتستحقّ العناء».

«أين إدوارد؟». سأل تشارلي بمكر. «هل أوكلتِ إليه بعض مهمات التنظيف؟».

تنهّدت آليس وبدت على وجهها التعاسة. ربّما كانت تنوي تمثيل دورٍ معيّن أمام تشارلي، لكنّ دقّة تمثيلها أثرت سلباً على مظهري الإيجابي: «كلاّ، لقد ذهب لينظّم مع كارلايل وإيميت مشروع رحلة في

نهاية الأسبوع».

«إلى تسلّق الجبال من جديد؟».

هزّت برأسها وبدت بائسة وقالت: «نعم، جميعهم سيذهبون إلاّ أنا. نقوم عادةً برحلة سير على الأقدام لنحتفل بنهاية السنة المدرسية، لكنّي فضّلت هذه السنة أن أزور الأسواق وأشتري بعض الثياب، ولا أحد من أفراد عائلتي يرضى بالبقاء معي ومرافقتي إلى الأسواق. وهكذا سأبقى وحيدة».

وبدا على وجهها الحزن الشديد إلى حدّ دفع تشارلي إلى الاقتراب منها ومدّ يد المساعدة. نظرت إليها بريبة، وقلت في نفسي: «ماذا تريد من وراء ذلك؟».

«عزيزتي آليس، تعالي وامكثي عندنا خلال فترة غيابهم. لا أتصوّر أن تبقين بمفردك في ذلك البيت الكبير؟».

تنهّدت آليس. وشعرت بضغط على قدمي تحت الطاولة.

تذمّرت: «أوه!».

قال تشارلي: «ماذا؟».

فصوبّت إليّ آليس نظرة تنمّ عن استيائها من بلادة ذهني.

لكنّي أجبت على سؤال تشارلي: «اصطدمت قدمي بالطاولة».

وعاد أبي ليصرّ على آليس: «ماذا تقولين إذاً يا آليس؟».

فضغطت على رجلي مجدّداً ولكن ليس بالقوّة ذاتها.

«أنت تعلم يا أبي أنّ غرفتي لا تستوعب ضيوفاً. ليس من اللائق أن تنام آليس في مكانٍ غير مريح، أو على الأرض...».

اشتدّت تعابير الحزن على وجه آليس. أما تشارلي الذي وقع في الفخّ فقد زمّ شفتيه واقترح: «قد يكون من الأفضل أن تبقى بيلاّ معك في بيتكم».

رسمت آليس على وجهها ابتسامة مشرقة والتفتت نحوي راجية: «أتوافقين على التسوّق معي يا بيلاّ، أرجوكِ؟».

قلت: «لا أمانع في الذهاب إلى الأسواق معاً».

وسأل تشارلي: «متى تنوون الذهاب؟».

قالت آليس: «غداً».

فقلت: «ومتى تريدين أن أذهب إليك؟».

قالت: «بعد العشاء». ثمّ وضعت إبهامها تحت ذقنها، فبدت مطرقة في التفكير. ثمّ قالت: «ليس لديك ارتباط نهار السبت، أليس كذلك؟ أودّ الذهاب إلى خارج فوركس للتسوّق، سنقضي نهاراً كاملاً».

فتدخّل تشارلي على الفور، وبحدّة: «ولكن لن تذهبا إلى سياتل».

«لا بكل تأكيد». طمأنته آليس في الحال، برغم أنّنا كنّا، نحن الاثنتين، نعلم كم ستكون سياتل آمنة يوم السبت. وتابعت آليس: «ربّما سنذهب إلى أولمبيا...».

«إذهبي يا بيلاّ مع آليس واستمتعا بنهارٍ طويل في المدينة».

«نعم يا أبي، إنّها فكرة عظيمة. وأنا أشكرك».

ها إن آليس قد نجحت، من خلال حديثٍ سهل مع أبي، في التخطيط لغيابي عن البيت يوم المعركة.

عاد إدوارد بعد قليل، واستقبل تمنيات تشارلي بقضاء فرصة ممتعة من غير أن يفاجئه الأمر. ثمّ استأذن بالانصراف بعد وقتٍ قصير بحجة أنّ الانطلاق سيكون في الصباح الباكر، وانصرفت آليس معه.

انتظرت قليلاً بعد ذهابهم، ثمّ اعتذرت بدوري من تشارلي لكي أصعد إلى غرفتي.

اعترض تشارلي: «غير معقول أن تعودي إلى النوم الآن!».

كذبت: «لا زلت أشعر ببعض التعب».

«فهمت الآن لم لا تحبّين الحفلات. يلزمك كثير من النوم لاسترجاع نشاطك!».

صعدت إلى غرفتي، فوجدتُ إدوارد مستلقياً على سريري.

استلقيت إلى جانبه وسألت: «متى سنلتقي مع الذئاب؟».

«بعد ساعة».

«حسناً، هكذا يكون جايك ورفاقه قد أخذوا قسطاً كافياً من النوم».

فأشار: «لكنّهم لا يحتاجون للنوم بالقدر الذي تحتاجينه أنت».

انتقلت إلى الحديث عن موضوعٍ آخر خوفاً من أن يحاول إقناعي بالمكوث اللّيلة في البيت. فقلت: «هل أخبرتك آليس أنّها ستخطفني مرّة ثانية».

ضحك وقال: «لن تخطفك آليس».

حدّقت إليه بارتباك. فضحك من ردّ فعلي.

«تذكّري أنّي لا أسمح لأحدٍ غيري بخطفك. آليس ستذهب إلى الصيد معهم. أمّا أنا فلم أعد بحاجة إلى القيام بذلك».

«هل ستخطفني؟».

هزّ رأسه بالإيجاب.

واستعرضتُ الأمر بلمح البصر. لن أخاف من أن يسمعني تشارلي من الطابق السفلي، أو من أن يصعد إلى غرفتي ليطمئنّ عليّ. سيكون بيت إدوارد خالياً من ذلك العدد من مصّاصي الدماء مرهفي السمع، والذين لا ينامون قطّ. سأكون أنا وإدوارد بمفردنا...

أقلقه صمتي، فقال: «ما المشكلة؟».

قلت: «لا شيء، لقد خطر ببالي أمر».

«ما هو؟». سألني بإلحاح وخوف من تردّدي، فقرّرت الكلام بوضوحٍ أكثر.

«كنت أتمنّى لو قالت آليس لتشارلي أنّكم ستغادرون اللّيلة. . .».

فضحك وتنفّس الصعداء.

استمتعت بالرحلة إلى الغابة في تلك اللّيلة أكثر من اللّيلة الماضية. كنت لا أزال أشعر بالذنب وبالخوف ولكنّي لم أكن مرعوبة. كان باستطاعتي أن أتحرّك وأفكّر في مرحلة ما بعد المعركة. لقد صدّقت تقريباً احتمال أن تنتهي المعركة بسلام. ومن جهة إدوارد فقد بدا مرتاحاً إلى قراره بعدم الاشتراك في القتال. وذلك القرار بحدّ ذاته جعلني أصدّق قوله إنّ القضاء على الأعداء سيكون سهلاً. فكيف يوافق على عدم القتال إلى جانب عائلته لو لم يكن مؤمناً بسهولة المعركة؟ ربّما كانت آليس على حقّ عندما قالت إنّي أبالغ في الخوف والقلق.

كان الجميع هناك عندما وصلنا.

كان جاسبر وإيميت يتصارعان، وضحكهما يدلّ على انّ التمارين الجدّية لم تبدأ بعد، وأمامهما جلست آليس وروزالي على الأرض تراقبان. على بعد أمتار، وقف كارلايل وإيزمي يتحدّثان معاً، ولا يعيران اهتماماً لما يجري حولهما.

كان ضوء القمر مشعّاً اللّيلة، فتمكّنت فوراً من رؤية ثلاثة ذئاب حول حلقة التمرين. لقد تعمّدوا الجلوس في نقاطٍ متباعدة كي يتمكّنوا من المراقبة من زوايا مختلفة.

كان من السهل عليّ التعرّف إلى جايكوب اليوم. . .، حتى لو لم يلتفت إلينا فور وصولنا.

«أين بقيّة الذئاب؟». سألت بتعجّب.

«لا تحتاج المجموعة إلى إرسال جميع أفرادها. حتى إنّه كان بإمكانهم أن يرسلوا واحداً منهم فقط. كان جايكوب على استعداد للمجيء بمفرده ولكنّ سام، نتيجة عدم ثقته التامّة بنا، أصرّ عليه أن يصطحب مرافقيه شبه الدائمين إيمبري وكويل».

«جايكوب يثق بكم».

«إنّه يثق بعدم رغبتنا في قتله. هذا كلّ شيء».

سألته بتردّد: «هل ستتمرّن اللّيلة؟» كنتُ أتوقّع أن يكون شعوره اللّيلة مشابهاً لشعوري لو أجبرت على البقاء في البيت، وربّما أصعب.

أجاب: «سأساعد جاسبر عندما تدعو الحاجة. سيقوم معهم بتمارين خاصّة بحالة عدم التكافؤ العددي بين الفريقين. يريد أن يعلّمهم كيف يدافع أحدهم عن نفسه ضدّ أكثر من مهاجم واحد».

وعلت في نفسي فجأةً موجة ذعر طغت على مشاعر الاطمئنان التي نعمت بها خلال فترة وجيزة.

ما زالوا يواجهون مشكلة نقص عددهم بالنسبة لعدد المهاجمين وها إنّي أتسبّب في جعل هذه المشكلة أشدّ سوءاً.

نظرتُ إلى البعيد كي أخفي ردّ فعلي عن إدوارد.

ولكنّي نظرت في غير الاتجاه المناسب. فبينما كنت أحاول إقناع نفسي بالكذبة التي تقول إنّ كلّ الأمور ستنتهي كما أشتهي، وأحاول عدم النظر في اتجاه أفراد عائلة كولن الذين كانوا يقومون ببعض التمارين وهم يضحكون؛ تلك التمارين التي قد تتحوّل إلى عراك مميت بعد أيام معدودة، التقت عيناي بعينيّ جايكوب... وابتسم.

ضحك ضحكته الذئبيّة كما فعل ليلة أمس، لكنّ العينين المشعتين كانتا عينا جايكوب الانسان ذاتها.

غريبٌ أمري، ففي الأمس القريب، كان مشهد الرّجال الذئاب يرعبني ويسبّب لي كوابيس ليلية!!

عرفتُ على الفور أيّ الذئبين الآخرين كان إيمبري وأيّهما كويل. كان إيمبري يراقب بصبرٍ وهدوء، وهو نحيلٌ وفراؤه رماديّ اللّون مع بقعٍ داكنة على الظهر. أمّا كويل فكان بنّياً غامقاً بلون الشوكولاتة، وكان ينتفّض في مكانه وكأنّه يتحرّق شوقاً للمشاركة بالتمارين القتالية التي

كانت تجري أمامه. لم أرَ في الذئاب وحوشاً برغم شكلهم الحاضر، بل أصدقاء.

أصدقاء. . .، ولكنّهم ليسوا مثل إيميت وجاسبر اللّذين كانا يتحرّكان أسرع من الأفاعي تحت ضوء القمر المنعكس على جلدتهم البيضاء القاسية كالصخر. أصدقاء غافلون إلى حدٍّ ما عن فداحة الخطر في هذه المعركة. أصدقاء قابلون للموت. قد ينزف دمهم ويموتون.

كان إدوارد مطمئناً، وذلك عائد لثقته بأنّ المعركة المتوقّعة لن تعرّض حياة عائلته للخطر.

هل سيتألّم إدوارد لو أصيب أحد الذئاب بخطر؟ هل سلامة الذئاب تهمّه حقّاً؟ إن كانت سلامتهم لا تهمّه، فشعوره بالاطمئنان لا يريحني.

حاولتُ مبادلة جايكوب الابتسامة، ولكنّي لم أستطع إخفاء القلق الذي أصابني جرّاء هذه الأفكار. فقفز جايكوب بخفّةٍ من مكانه متناسياً ضخامة حجمه واقترب من حيث وقفنا أنا وإدوارد خارج الحلقة.

بادره إدوارد بتهذيب: «جايكوب!».

تجاهل تحيّة إدوارد ونظر إليّ. ثمّ أخفض رأسه حتى صار في مستوى رأسي كما فعل البارحة، ومال به إلى الجانب وأطلق أنيناً خافتاً.

لم أنتظر ترجمة إدوارد، بل أجبتُ في الحال: «أنا بخير. . .، قلقة بعض الشيء كما تعرف».

تابع جايكوب النظر إليّ.

«إنّه يريد أن يعرف سبب قلقك». قال إدوارد.

همهم جايكوب، ففهمت أنّه مستاء. . .، واهتزّت شفتا إدوارد.

قلت: «ماذا؟».

«لم تعجبه ترجمتي التي قصدتُ بها تحسين تعابيره. ما كان يفكّر به في الحقيقة هو التالي: «هذه بلاهة. ليس هناك أسباب تستدعي القلق».

ابتسمت رغماً عنّي، وقلت: «هناك ما يستحقّ القلق كثيراً، وخصوصاً على مجموعة الذئاب المغفّلة التي تريد أن تعرّض حياتها للخطر».

ضحك جايكوب بطريقته الخاصّة.

ثمّ قال إدوارد: «جاسبر يريد مساعدتي. هل ستتفاهمان من غير مترجم؟».

قلتُ: «سأتدبّر الأمر».

رمقني إدوارد بنظرة خاطفة لم أفهم معناها، ثمّ أدار ظهره وذهب لمساعدة جاسبر.

جلست على الأرض في مكاني وكان التراب بارداً ورطباً.

تقدّم جايكوب خطوةً نحوي، ثمّ نصف خطوة وسمعت حشرجةً خفيفة تصعد من حنجرته.

ثم مال برأسه مجدّداً، وطوى قوائمه وجلس على الأرض أمامي مصدراً قرقرةً خفيفة.

«إذهب يا جايكوب لتشاهد ما يجري». قلت له.

ولكنّه لم يجب، بل أخفض رأسه ووضعه فوق قوائمه.

أشحت نظري عن مشهد القتال، ورحت أتأمّل الغيوم اللاّمعة في ضوء القمر... كان في مخيّلتي وقوداً كافياً للقلق ولا أحتاج إلى المزيد...، ثمّ هبّت نسمةٌ باردة فارتجفت قليلاً.

جرّ جايكوب نفسه نحوي، وضغط بفرائه الدافئ عليّ من جهة اليسار.

تمتمت: «شكراً».

وبعد دقائق قليلة، ملت بجسدي واستلقيت على كتفه الضخمة فشعرت بالراحة. كانت الغيوم تسبح بهدوء في السماء فتحجب ضوء القمر تارةً وتنكشح عنه تارةً أخرى.

وبحركةٍ غير واعية أدخلت أصابعي في الفراء حول عنقه. وراح يصدر همهمةً غريبة كما فعل البارحة. كان الصوت أخشن وأعلى من خرخرة الهرّ ولكنّه يعبّر عن حالة الرّضا عينها.

قلتُ ممازحة: «كنت أميل دائماً إلى امتلاك كلب، ولكنّ رينيه تصاب بعوارض حساسيّة من الكلاب».

ضحك جايكوب واهتز جسده.

«ألستَ قلقاً بشأن المعركة يوم السبت أبداً؟».

أدار رأسه الضخم نحوي، ورأيت الجواب في عينيه.

«أتمنّى لو كنت متفائلة مثلك».

ألصق رأسه بساقي وراح يخرخر مجدّداً. فشعرت ببعض الارتياح.

وقلت: «أمامنا رحلة غداً كما أعتقد».

فأصدر صوتاً يعبّر عن حماسته.

قلت محذّرة: «قد تكون الرحلة طويلة، فإدوارد لا يقدّر المسافات كما يراها الانسان الطبيعي».

وضحك مجدّداً على طريقته.

مِلْتُ برأسي على عنقه، وارتحتُ أكثر إلى دفء فرائه.

لم يقف شكل جايكوب الغريب عائقاً أمام صداقتنا والحوار الطبيعي بيننا، برغم أنّي كنت أتوقّع العكس.

ألعاب القتل كانت لا تزال مستمرّة؛ لم أهتمّ بها، وعدتُ أنظر إلى القمر السابح بين الغيوم.

20

تسوية

كنت جاهزة لقضاء يومين مع «آليس».

وكانت حقيبتي تنتظر على المقعد الخلفي في شاحنتي. كنت قد أعطيت بطاقات الحفلة الموسيقية إلى بن وآنجيلا ومايك وجيسيكا. أمّا بيلي، فقد دعا تشارلي إلى رحلة صيد السمك في عرض البحر يوم السبت، قبل موعد المباراة على التلفزيون بعد الظهر. وبرغم أنّ الذئبين كولان وبرادلي، اللّذين أوكلت إليهما حماية لا بّوش، لا يتجاوز عمر كلٍّ منهما الثالثة عشرة، فإنّ تشارلي سيكون أكثر أمناً من كلّ السكان في فوركس.

بعد أن قمت بكلّ ما أستطيع فعله، قرّرت عدم القلق بشأن الأمور التي تتخطّى قدراتي. وفي جميع الأحوال، بات الموعد على مسافة ثمانٍ وأربعين ساعة لا غير.

طلب إدوارد منّي الاسترخاء، ووعدته بأن أبذل جهدي.

«تعالي ننسى كلّ شيء هذه اللّيلة ونكون معاً. . .، معاً فحسب». واستعمل سحر عيونه ليأسرني ويأسر أفكاري. «نادراً ما تسنح لنا الفرصة كي نكون معاً بعيداً عن الجميع وعن كلّ شيء».

«لم يكن طلبه صعباً ولكنّ الكلام عن ترك المخاوف جانباً كان أسهل من التنفيذ. في الحقيقة، الآن وقد تغيّرت بعض الأمور،

وأصبحت جاهزة، كنت أفكّر ببعض المواضيع التي أحتاج إلى طرحها مع إدوارد اللّيلة.

كنت جاهزة لأنضم إلى عالمه وإلى عائلته. لقد تعلّمت من الخوف ومشاعر الذنب والقلق الكثير. تعلّمت، من خلال مراقبة القمر في اللّيل متكئةً على كتف ذئب، ألا أصاب بالرّعب بعد الآن. سأكون جاهزة في المرّة القادمة كمصدر قوّة وليس كموطن ضعف. لن يكون عليه بعد الآن أن يختار بين البقاء إلى جانبي أو إلى جانب عائلته. في المرّة القادمة سأكون شريكته، كما هي آليس بالنسبة إلى جاسبر الآن. سأقوم بدوري على أكمل وجه.

نزولاً عند طلب إدوارد سأنتظر حتى يختفي الخوف تماماً، ويبتعد السيف عن عنقي. لكنّي جاهزة.

سوى أنّه يبقى هناك أمرٌ واحد.

أمرٌ واحد، لأنّ هناك بعض الأشياء التي لم تتغيّر وبينها حبّي الشديد له.

فكّرت طويلاً بالرّهان القائم بين جاسبر وإيميت ومعاني ذلك، وتحقّقت من الأشياء التي أستطيع التنازل عنها عندما أتنازل عن إنسانيتي، والأخرى التي سأتمسّك بها. هناك أمور إنسانية سأصرّ عليها قبل أن أتحوّل إلى وحش.

لذا فهناك أمور يجب أن نناقشها اللّيلة، إذ إنّي وبفعل ما مررت به من تجارب خلال السنتين الماضيتين، لم أعد أؤمن بكلمة مستحيل. لن تكون هذه الكلمة كافية لتحبط عزيمتي أبداً.

ولكن في الحقيقة، قد يكون الأمر في غاية الصعوبة، ولكنّي سأحاول.

كنت متأكّدة ممّا أريد، ولكنّي أجهل طريق الوصول إليه. لذلك لم أستغرب توتّري وأنا أقود شاحنتي نحو بيت إدوارد. لم يصرّ على القيادة

بنفسه اليوم بل جلس إلى جانبي بعد أن وعدني بأن يكون صبوراً اللّيلة ويتقبّل قلّة سرعتي؛ لكنّه لم يستطع إخفاء ابتسامته من وقتٍ لآخر.

وصلنا إلى البيت بعد الظلام وكانت الأنوار تشعّ من خلال النوافذ على الحديقة.

ما إن أوقفت محرّك السيارة، حتى كان يفتح لي الباب ويحملني إلى خارج السيارة بإحدى ذراعيه؛ ويشدّ حقيبتي إلى الخارج ويضعها على كتفه بالذراع الأخرى. وسرعان ما أطبق شفتيه على شفتيّ بينما ضرب الباب برجله فأغلقه.

وحملني على ذراعه إلى داخل البيت وهو لا يزال يقبّلني.

هل كان الباب الأمامي مفتوحاً؟ لا أدري. أحسست بدوارٍ خفيف عندما دخلنا، فتذكّرت أن أتنفّس.

لم توحي إليّ قبلته الطويلة بالخوف كما في بعض الأحيان، بل إنّ شفتيه الباردتين اليوم توحيان بالفرح والحماسة. إنّه يشعر بالإثارة مثلي لوجودنا الليلة معاً بعيداً عن الآخرين. واستمرّ في تقبيلي بشغف خلال بضع دقائق في مدخل البيت.

شعرتُ بتفاؤلٍ حذر، وقلت في نفسي إنّي قد أصل إلى ما أريد بسهولة أكثر ممّا توقّعت.

ربّما أنا مخطئة، وسيكون الأمر بالصعوبة التي توقّعت.

وبضحكة خفيفة، ابتعد قليلاً إلى الوراء.

ونظر إليّ بحيويّة وحرارة، وقال: «أهلاً بك في منزلك».

«هذا لطيفٌ حقّاً». قلتُ حابسةً أنفاسي.

وأنزلني بلطفٍ لأقف على قدميّ، ولكنّي عدتّ والتصقت به، وعقدت ذراعيّ حوله.

قال لي: «عندي شيءٌ لكِ».

«أوه!».

«شيءٌ منقول من يدٍ ليد. تذكّري أنكِ وافقتِ على قبول مثل هذه الهديّة».

«نعم، أنت على حقّ. لقد وافقت على ذلك».

أضحكه تردّدي. «إنّها في غرفتي. هل نصعد معاً؟».

غرفته؟ «طبعاً» وشعرت وكأنّي أخدعه وأنا أشبك أصابعي بأصابعه وأقول: «لنصعد!».

كان شديد الحماسة لإعطائي الهديّة، لذلك فالسرعة التي كنت أتحرّك بها لم تكن كافية بالنسبة إليه، فحملني مجدّداً وطار بي إلى غرفته. وضعني على أقدامي عند الباب، وذهب كالسهم إلى الخزانة.

عاد قبل أن أخطو إلى داخل الغرفة، لكنّي تجاهلته ورحت في اتجاه السرير الواسع وارتميت على طرفه، ثمّ زحفت إلى وسطه وتكوّمت كالطابة، ولففت ذراعي حول ركبتيّ.

قلت مدمدمة: «حسناً، أعطني إياها».

أمّا وقد صرت حيث أريد، يمكنني أن أتظاهر بالدّلع إلى حدٍّ ما.

ضحك إدوارد، وقفز على السرير وجلس إلى جانبي. تسارعت دقّات قلبي، فتمنّيت أن يعتبر ذلك كردّ فعلٍ مرافقة لتقبّلي هديّته.

«منقولة من يدٍ ليد»، قال لي مذكّراً بجدّية. ثمّ أخذ يدي اليسرى نحوه، وأمسك السوار الفضّي خلال لحظة، ثمّ أعاد يدي إليّ. تفحّصتها جيّداً وإذا في الجهة المقابلة للذئب الخشبيّ الصغير، علّق إدوارد قلباً من الكريستال البرّاق. أخذت نفساً عميقاً أمام جمال هذه القطعة الخلاّبة المصنوعة بدقّةٍ فائقة والتي ترسل انعكاسات بجميع الألوان حتّى في ضوء الغرفة الخافت.

«كان لأمّي». وضحك مظهراً بعض الاستخفاف. «لقد ورثت عدداً

من الحلي المشابهة لهذا القلب. سبق أن أعطيت بعضها إلى إيزمي وآليس. إنّها ليست ثمينة بالطبع».

ابتسمت بحزن أمام هذا التأكيد.

وتابع: «ولكنّي وجدت أنّه يمثلني: قاسٍ وبارد». ثمّ ضحك: «ويظهر بألوان قوس القزح تحت الشمس».

فقلت: «نسيت الصفة المشتركة الأهم بينكما: إنّه جميل».

«وقلبي الصامت مثله، وهو أيضاً ملكك».

أدرت معصمي، فلمع القلب. وقلتُ: «شكراً للقلبين».

«أنا أشكرك لأنّك تقبّلتِ هديّةً منّي. على كلّ حال، هكذا تكتسبين عادة جيّدة». وضحك فلمعت أسنانه.

انحنيت نحوه، ووضعت رأسي تحت ذراعه وتكوّمت إلى جانبه، فشعرتُ وكأنّي إلى جانب تمثال داوود لمايكل آنجلو، إلاّ أنّ هذا المخلوق الجميل من الرخام ما لبث أن شدّني أقرب إليه.

شعرت أنّه من المناسب أن أبدأ الآن.

«هل يمكننا أن نناقش أمراً معاً؟ ولكن أرجو أن تكون مرناً».

تردّد قليلاً، ثمّ قال بحذر: «سأبذل جهدي».

«لا شيء ضدّ القوانين، بل إنّه أمرٌ يتعلّق بي وبك...، كنت مسرورة بنجاحنا في الوصول إلى تسوية مثالية المرّة الماضية، فقلت إنّ بإمكاننا أن نطبّق الأسلوب عينه على موضوع آخر». تساءلت لمَ كنت أتكلّم بنبرةٍ جدّية، وأجبت نفسي إنّه بسبب التوتّر.

«وأيّ أمرٍ تريدين إيجاد تسوية حوله؟». قال ضاحكاً.

حاولت بصعوبة البحث عن الكلمات المناسبة لفتح الموضوع.

«أَصغي إلى قلبكِ. فهو يرفّ في صدرك كالطائر الطّنان. هل أنتِ بخير؟».

«نعم، في أحسن حال».

قال مشجّعاً: «إذاً، أرجو أن تتكلّمي».

«أوّلاً، أريد أن أتكلّم معك عن شرط الزواج غير المفهوم».

«إنّه غير مفهوم منكِ فحسب. ماذا عنه؟».

«هل هذا الشرط قابلٌ للنقاش؟».

قطّب إدوارد حاجبيه وتكلّم بجدّية: «لقد وافقتك على قرارٍ كبير جدّاً على الرغم من عدم قناعتي: وهو أن تضعي حدّاً لحياتك الإنسانية. وهذا يحتّم عليك أن تقومي ببعض التنازلات من جانبك».

«كلاّ». قلت محاولةً أن أتمالك هدوئي. «لقد تخطّينا هذا الموضوع ولسنا الآن في صدد مناقشته...، لكن هناك بعض التفاصيل التي أودّ التكلّم عنها الآن».

نظر إليّ بريبة: «أيّ التفاصيل بالتحديد؟».

تردّدتُ وقلت: «النقم بتوضيح الشروط المسبقة التي تفرضها».

«أنتِ تعرفين ما أريد».

«الزواج». ولفظتُ الكلمة بازدراء.

«نعم. كنقطة بداية». وابتسم ابتسامة عريضة.

ارتبكت أمام هذا الاصرار، وقلت: «وغير ذلك؟».

«حسناً، عندما تكونين زوجتي، يكون ما أملكه ملكاً لك أيضاً، مثل قسط الجامعة. وهكذا لا يعود هناك أيّ مانع من الذهاب إلى دارتموث».

«وماذا بعد من شروطك غير المعقولة؟».

«أفضّل أن تنتظري بعض الوقت».

«كلاّ. لا وقت إضافياً. فذلك مناقضٌ للاتفاق».

تنهّد قائلاً: «سنة واحدة أو سنتين؟».

هززت رأسي، وزممت شفتيّ وقلت بعناد: «أقلب الصفحة. انتقل إلى موضوع آخر».

«هـذا كـلّ شـيء، سـوى إن كـنـت تـريـديـن فـتـح مـوضـوع السيارات. . .».

تململت من كلامه، فضحك وأخذ يدي وداعب أصابعي.

«لم يخطر في بالي أن يكون لديك أيّ طلب غير إصرارك على التحوّل إلى وحش». ووراء صوته اللّطيف والخافت، كان يخفي عصبيّةً لم أكن لأكتشفها لولا شدّة معرفتي به.

لم أجد الكلمات كي أبدأ، ورحت أنظر بصمتٍ إلى يده التي ما زالت تداعب أصابعي. وما لبث الدّم أن صعد متسارعاً إلى وجنتيّ.

«وجنتاك تتورّدان». قال لي متعجّباً، وارتفعت أصابعه الباردة لتلامس خدّي. «أرجوك يا بيلاّ تكلّمي، أتحرّق شوقاً لمعرفة ما يدور في رأسك».

وأخيراً، نظرتُ إلى وجهه وقلت: «حسناً، أنا قلقة بعض الشيء حول ما سأشعر به. . . بعدئذٍ».

أحسستُ بجسده يتشنّج، لكنّ صوته بقي لطيفاً وخافتاً. «وما هو محور قلقك بالضبط؟».

«كلّكم تتوّقعون أن أرتكب المجازر بحقّ الأبرياء، وأن هذا هو كلّ ما سأهتمّ به لاحقاً، لذا فإنّي أخاف أن يغيّرني هذا الأمر ويغيّر شعوري من ناحيتك. . .، فلا أشتهيك في ما بعد، كما أشتهيك اليوم».

«تلك المرحلة لا تدوم يا بيلاّ».

لم يفهم قصدي.

أخفضتُ نظري، وقلت: «هناك أمرٌ أريد أن أقوم به وأنا لا أزال إنسانة».

انتظر منّي توضيحاً لكنّي توقّفت عن الكلام واعتراني الخجل.

«قولي ماذا تريدين وأنا مستعدّ لأيّ شيء». وبدا متوتّراً ولا يملك أدنى فكرة عن قصدي.

قلتُ: «هل تعدني بتنفيذ ما أطلبه منك؟». قلت ذلك، ولكنّ أملي بإجباره على تنفيذ رغبتي كان ضئيلاً.

قال: «نعم»، ونظرت إلى عينيه فوجدتهما تعبّران عن الاهتمام والارتباك في الوقت نفسه. «أطلبي ما تريدين وسأنفّذه لك».

شعرت بارتباك شديد، وكنتُ أجهل أساليب الاغراء الأنثوي.

تمتمت بصعوبة: «أنت»

«أنا لكِ»، قال مبتسماً، من غير أن يعي قصدي. نظر إلى عينيّ لكنّي حوّلت نظري جانباً.

أخذتُ نفساً عميقاً واقتربت منه وعقدتُ ذراعيّ حول عنقه وقبّلته.

قبّلني مظهراً رغبته في ذلك، ولكنّ تفكيره كان مشغولاً في فكّ اللّغز. فقرّرت أنّه يحتاج إلى مساعدة.

أفلتّ يدي عن عنقه وأنزلتها إلى قميصه ورحتُ أسرع في فكّ الأزرار بأصابع مرتجفة قبل أن يوقفني.

أحسست باللّحظة التي انقشعت فيها أمامه حقيقة رغبتي على ضوء كلماتي وأفعالي، فأبعدني عنه فوراً.

«كوني عاقلة يا بيلاّ».

«لقد وعدتني بتنفيذ ما أريد». قلت مذكّرة.

«هذا الأمر ليس على بساط البحث». وعاد وأغلق الأزرار التي فتحتها.

«ولماذا؟». ومددتُ أصابعي إلى قميصي وباشرت في فكّ أزراره.

أمسك بمعصميّ وأبعد يديّ عن القميص، ثمّ قال: «سبق وقلتُ إنّ هذا الموضوع غير قابلٍ للنقاش».

تفرّست في وجهه مستنكرة رفضه، وقلت: «ألم تطلب منّي الإفصاح عن رغبتي؟».

«ظننتُ أنّها رغبة قابلة للتحقيق».

«أنت تسمح لنفسك بطلب تافه وغير مقبول كالزواج، ثم ترفض حتى أن تناقش معي طلباً بديهيّاً كهذا. . . !».

وفيما كنتُ أتلفّظ بكلمات اللّوم الحادّة، أمسك بيديّ الاثنتين وحبسهما في إحدى يديه وأغلق بيده الأخرى فمي. وقال بحزم: «كلاّ».

تنفّست بعمق كي أستعيد هدوئي، وبعد تلاشي الغضب انتابني شعورٌ آخر.

وما هي إلاّ دقيقة حتى اكتشفت سبب عودة الخجل إلى نظراتي، والاحمرار إلى وجهي، وتقلّص معدتي وامتلاء عينيّ بالدّموع. وعرفتُ سبب رغبتي المفاجئة في الهروب من تلك الغرفة.

إنّه الشعور الغرائزي القويّ الذي يقول لي إنّه غير مرغوبٍ بي، وأنّي منفّرة.

كنتُ أعلم بُعد هذا الشعور عن الحقيقة والمنطق. فقد سبق وأكّد لي أنّ السبب الذي يمنعه من تنفيذ رغبتي هو الحفاظ على سلامتي فحسب. رحت أحدّق إلى غطاء السرير الذهبي اللّون مثل عينيه محاولةً التخلّص من ذلك الشعور الصّعب.

تنهّد إدوارد، ويده التي كانت على فمي انخفضت إلى ذقني ورفع وجهي حتى التقت عيناي بعينيه. وقال: «وماذا الآن؟».

تمتمت: «لا شيء».

وإذا به يحدّق في وجهي، ثمّ يقطّب حاجبيه فجأةً ويقول مذعوراً: «هل جرحتُ كرامتك؟».

كذبت: «كلاّ».

لم أدرِ كيف أخذني بين ذراعيه وشدّ رأسي إلى كتفه، وقال: «أنتِ تعلمين ما يدفعني إلى الرّفض. وتعلمين أيضاً أنّي أرغب بممارسة الحبّ معك مثلما ترغبين أنتِ تماماً».

همست بصوتٍ يساوره الشك: «هل هذا صحيح؟».

«بالطّبع أرغب... أيّها الساذجة والحسّاسة والجميلة». وضحك قليلاً، ثمّ أضاف بنبرةٍ كئيبة: «ألا ترين كم من العيون تنظر إليك، وكم من طامعٍ ينتظر هفوةً أقوم بها ليتقدّم ويأخذ مكاني... الجميع يتمنّى نظرةً منكِ».

«من هو الساذج الآن؟».

«هل تودّين الحصول على بيانٍ بالأسماء؟ هل ترغبين في معرفة من هم على رأس هذه اللائحة؟ تعرفين بعضهم وستتفاجئين لو كشفتُ لك عن بعضهم الآخر».

هززت رأسي مظهرة عدم الاقتناع، وقلت له: «إنّك تحاول تحويل انتباهي عن الأمر الأساسي. لنعد إلى موضوعنا».

وأضفت مدّعية الموضوعيّة: «قل لي السبب الحقيقي لرفضك. طلباتك هي الزواج، ودفع أقساط الجامعة، وتتمنّى لو أوافق على اقتناء سيّارة أسرع من شاحنتي. وماذا أيضاً على لائحة طلباتك الطويلة؟».

«الطلب الأوّل فقط أساسي والطلبات الباقية ثانويّة».

«وطلبي البسيط والوحيد هو...».

«هل إنّه طلب أساسي؟».

«نعم، إنّه طلب أساسي».

زمّ عينيه مستنكراً.

فتابعت: «القبول بالزواج سيكون بمثابة تنازل منّي، ولكنّي لن أرضى بهذا التنازل دون أن تعطيني ما أريد في المقابل».

انحنى وهمس في أذني بصوتٍ ناعم: «كلاّ، هذا ليس ممكناً الآن. أصبري يا بيلاّ ريثما تصبحين أشدّ صلابة، وغير قابلة للكسر».

حاولت الحفاظ على النبرة الهادئة والحياديّة: «ولكن هنا تكمن المشكلة. سيتغيّر الأمر عندما أصبح أشدّ صلابة، سأتغيّر أنا! لا أعرف من سأكون عندئذٍ».

«ثقي أنّك ستظلّين بيلاّ».

«كيف يمكن أن أبقى أنا، عندما أكون قادرة على شرب دماء تشارلي أو جايكوب أو آنجيلا إن سنحت لي الفرصة؟».

«تلك المرحلة ستكون عابرة. على كلّ حال لا أشكّ أنّك سترغبين في امتصاص دماء كلب». وتظاهر بالقرف إزاء الفكرة.

تجاهلت محاولته إبعادي عن محور الحديث، وقلت: «لكن امتصاص الدماء سيكون أهمّ ما أسعى إليه. دماء، دماء. . . ، ثمّ دماء!».

«في الحقيقة إنّ بقاءك حيّة حتى الآن يشير إلى أنّ ما تقولينه ليس حقيقة».

«بعد أكثر من ثمانين سنة»، قلتُ مذكّرةً. «لست قلقة أن أتغيّر كليّاً من الناحية الفكرية، لكن من الناحية الجسدية، سأكون دائماً ظمأى للدّماء».

بقي صامتاً.

واغتنمت فرصة عدم اعتراضه على ما قلت، فتابعت: «من الناحية الجسديّة الآن، أنتَ تحتلّ الأولويّة على كلّ ما تبقّى. أريدك أكثر من الطعام والشراب والهواء. أمّا من الناحية الفكرية فالعقل يفرض تغيّراً ولو بسيطاً في سلّم الأولويّات. . .». وأدرت رأسي لأقبّل باطن يده.

أخذ نفساً عميقاً، على دفعات.

قال همساً: «بيلاّ! قد تموتين».

«لا أظنّك قادراً على قتلي».

زمّ إدوارد عينيه قليلاً، ورفع يده التي كانت تداعب وجهي، ومدّها إلى الوراء. سمعت صوت شيءٍ يُكسر، واهتزّ السرير تحتنا. ثمّ أعاد يده إلى الأمام وفتحها فرأيت وردة حديد سوداء، فعرفت أنّها إحدى الوردات التي تزيّن أعمدة السرير المصنوعة من الحديد. أغلق يده خلال نصف ثانية، وفتحها أمامي، فرأيت الوردة وقد تغيّر شكلها، وأخذت شكل كفّه من الداخل، كأنّها كتلة من المعجون في يد أحد الأطفال. وما هي إلاّ نصف ثانية أخرى حتّى حوّل إدوارد تلك الكتلة في يده إلى حفنة من الرملِ أسود.

نظرت إليه باستغرابٍ وقلت: «لم يكن قصدي ذلك، ولم تكن بحاجة لكسر السرير كي تبرهن عن قوّتك لأنّي أعرف أنّك قويّ».

«ماذا كان قصدك إذاً؟». سألني بصوتٍ غاضب ورمى دقيق الحديد من يده إلى إحدى زوايا الغرفة، فأحدثت لدى وقوعها صوتاً كزخّ المطر.

«لم أقصد أنّك غير قادر على إيذائي بقوّتك، لكنّي عنيت أنّك لا تريد أذيتي ولذلك لن تستطيع فعل ذلك».

أخذ يهزّ رأسه قبل أن أكمل عبارتي. وقال: «قد لا يكون الأمر كذلك يا بيلاّ».

«قد لا يكون!». قلت بسخرية. «ليس لديك فكرة أفضل منّي حول هذا الموضوع».

«هذا صحيح، لذلك لا تتوقعي أن أجازف بمثل هذا الأمر معك».

نظرت إلى داخل عينيه مليّاً، فلم أرَ ما يشير إلى استعداده للقيام بأيّ تسوية، ولا يوجد احتمال للتردّد أو التراجع.

فأغمضتُ عينيّ في محاولة أخيرة ويائسة، وقلت: «أرجوك، هذا كلّ ما أريد!».

لكنّه لم يجب، وسمعت أنفاسه تتسارع.

ففتحت عينيّ وقرأت على وجهه الحيرة...

قلت: «أرجوك، دعنا نحاول مرّة واحدة فقط، فإن لم ننجح فسننسى الموضوع. لا أريد منك أيّ ضمان بالنجاح. دعنا نحاول، وسأوافق على جميع شروطك. سأتزوّجك، سأسمح لك أن تدفع أقساط الجامعة، ولن أعترض بشأن الرشوة التي دفعتها كي يقبلوني. وحتى سأوافق على أن تشتري لي سيارة جديدة، إن كنت تريد ذلك... أرجوك!».

لفّ ذراعيه حولي، ووضع شفتيه على أذني فارتجفت من برودة أنفاسه: «هذا لا يطاق. لا أطيق أن أراك تتوسّلين إلى هذه الدرجة...، فهذا يؤلمني. أردتّ أن أعطيك أشياء أخرى كثيرة، وأنتِ لا تطلبين سوى هذا الأمر!».

قلت بإسراع: «إذاً لا ترفض طلبي».

لم يجب.

فحاولت مجدّداً: «أرجوك».

«بيلاّ...» هزّ رأسه ولكنّي لم أفهم من ذلك تراجعاً في موقفه، وبقيت شفتاه تداعبان عنقي في كلّ الاتجاهات فتيقّنت من استسلامه أخيراً لإرادتي. وكاد قلبي ينشقّ من شدّة ضرباته.

ورحتُ أحاول اغتنام ما أتاحته تلك اللّحظة، فأدرت وجهي إلى وجهه حتى التقت شفتاي بشفتيه. قبّلني بعصبيّة فشعرت أنّه لا يزال حائراً ومتردّداً. أحكمت ذراعيّ حول عنقه وشعرت بفارق الحرارة بين جسمه وجسمي. ثمّ ارتجفت، ولم يكن ذلك بسبب البرد.

لم يتوقّف عن تقبيلي حتى حاولت الهروب قليلاً من شفتيه لأتمكّن من التنفّس. لكنّه تابع تقبيل عنقي. صعدت نشوة الانتصار العارمة الى

رأسي فشعرت بأنّي قويّة وشجاعة. لم ترتعش أصابعي عندما مددتُها إلى أزرار قميصه هذه المرّة. لمست صدره الجليديّ المسطّح والرائع. كان جماله آسراً فتذكّرت ذلك التعبير الذي لجأ إليه هو منذ لحظات: (لا يطاق). نعم كان جماله شديداً إلى حدٍّ لا يطاق...

عدت لأطبق شفتيّ على شفتيه، فشعرت به مشتاقاً لحبّي بنفس قوّة شوقي إليه. كانت إحدى يديه حول وجهي، وذراعه الأخرى تشدّني إليه إلى درجة جعلتني أواجه صعوبة عندما حاولت فتح قميصي. وعندما نجحت في الوصول إلى الأزرار...، امتدّت يداه كقبضتين من الحديد وأطبقتا على معصميّ، ورفعتهما إلى ما فوق رأسي.

واقتربت شفتاه إلى أذنيّ من جديد وتمتم بصوتٍ هادئ وحنون: «بيلاّ، توقّفي عن نزع ثيابك... أرجوك».

«هل تودّ أن تقوم بذلك بنفسك؟». سألته حائرة.

«ليس اللّيلة». أجابني بلطف، وخفّ الإلحاح في قبلاته.

«لا يا إدوارد...!».

«أنا لا أقول كلاّ لا أريد، ولكنّي أقول ليس هذه اللّيلة».

تباطأت أنفاسي وفكّرت قليلاً، ثمّ قلت: «أعطني سبباً مقنعاً للتأجيل».

«أنا لست من مواليد البارحة يا بيلاّ. لقد وافقتِ منذ قليل على شرط الزواج منّي قبل التحوّل ولكن، لو نزلت عند رغبتك اللّيلة وأعطيتك ما تريدين، من يضمن لي أنّك لن تذهبي إلى كارلايل غداً، وتطلبي منه أن يحوّلك قبل أن نتزوّج؟ لذلك... أصرّ أن تلبّي طلبي أنتِ أوّلاً».

أطلقتُ زفرة عالية، وقلت غير مصدّقة: «عليّ أن أتزوّجك أوّلاً؟».

«هذا هو الشرط، إمّا أن تقبلي به أو لا مجال لأن تنالي طلبك. إنّه أسلوب التسوية، تذكّري».

لفّ ذراعيه حولي وأخذ يقبّلني بطريقة فيها الكثير من الإحراج والاقناع بالترغيب والاغراء. . . ، حاولت التفكير بعرضه بقوّة عقلي ولكنّي لم أنجح.

وعندما أفلتّ من قبلاته والتقطتّ أنفاسي، قلت: «هذه فكرة غير صالحة».

«لا عجب ممّا تقولين، فعقلك يعمل في اتجاهٍ واحد».

«ماذا حدث؟ كنت على وشك الحصول على طلبي اللّيلة، وفجأةً تغيّر كلّ شيء. . . !».

«أنكِ الآن مخطوبة». أعلن بنبرة نهائية.

«أوه! أرجوك لا تُسْمِعني هذه العبارة».

«هل سترجعين عن كلامك؟» سألني، وأبعد وجهه عن وجهي كي يقرأ تعابيره، فاكتشفت أنّه مستمتع باللّعبة.

نظرت إليه متجاهلةً تأثير ابتسامته على قلبي.

فأصرّ على سؤاله: «هل سترجعين عن كلامك؟».

قلت متأوّهة: «أوه! كلّا لن أرجع في كلامي. هل أنت سعيدٌ الآن؟».

أجاب بابتسامةٍ ساحرة: «أكثر مما تتصوّرين!».

تأوّهت من جديد.

فسألني: «ألستِ سعيدة أنتِ أيضاً؟».

وطبع على شفتيّ قبلته المقنعة، قبل أن يسمح لي بالإجابة. وعندما أجبته، قلت: «قليلاً، ولكن ليس بخصوص موضوع الزواج».

قبّلني ثانيةً، وهمس في أذني: «ألا ترين معي أنّ الأمور مقلوبة بيننا. تقليدياً، يجب أن أطلب أنا طلبك، وأنتِ تطلبين طلبي».

«علاقتنا هي أبعد ما يكون عن التقاليد».

قال: «أنتِ على حقّ!».

وراح يقبّلني حتّى صرت أسمع نبضات قلبي، وأحسّ بوجهي يحمّر ويلتهب.

واغتنمت لحظة انتقال شفتيه إلى تقبيل يدي، لأتمتم: «إدوارد، إسمعني، لقد قلت لك إنّي سأتزوّجك وسأفعل. أعدك وأستطيع أن أقسم لك بذلك، أو أوقّع على هذا التصريح بدمي إن أردتّ».

فهمس، وأنفاسه حول معصمي: «عبارتك الأخيرة غير مستحبّة».

«ما أريد قوله هو أنّي لا أنوي خداعك. أنتَ تعرفني جيّداً. . .، لذلك لا داعي للانتظار. نحن اللّيلة بمفردنا ونادراً ما نكون كذلك. إضافةً إلى أنّك اشتريتَ هذا السرير الواسع والمريح. . .».

«ليس اللّيلة». قال مجدّداً. «هل تشكّكين بوعدي لك؟».

«بالطّبع لا».

ورفعتُ وجهه بيدي التي كان لا يزال يقبّلها وتفرّست في تعابيره، وقلت بغضب: «إذاً أين هي المشكلة. أنتَ تخطّط للتغلّب عليّ منذ اللّحظة الأولى. أنتَ تنجح في التوصّل إلى ما تريد بشكلٍ دائم».

فأجاب بهدوء: «أنا لا أقصد سوى حماية مطالبي».

كنتُ أرى من خلال تعابير وجهه أنّ هناك سرّاً كان يحتفظ به لنفسه. فقلتُ: «أظنّ أنّ هناك أمراً تريد إخفاءه عنّي. هل تنوي الرّجوع عن وعدك؟».

فأعلن بجديّة: «كلّا! أقسم لكِ أنّنا سنحاول بعد أن تتزوّجي بي».

هززتُ رأسي وضحكت بكآبة: «تجعلني أشعر وكأنّي رجلٌ شرير يحاول إقناع فتاة عذراء بالاستغناء عن عفّتها، والاستسلام إلى مآربه الشيطانيّة».

رأيت في عينيه حذراً وخوفاً وسرعان ما خبّأ وجهه عنّي ودفنه فوق عنقي.

«هل هذا ما تفعل؟». وأفلتت منّي ضحكةٌ سريعة عبّرت عن ذهولي

واستغرابي. «هل تحاول الاحتفاظ بعفّتك؟». وغطّيت فمي بأصابعي كي أخنق ضحكتي السريعة أمام هذا الموقف الغريب والتعابير القديمة البالية.

«كلاّ أيتها الساذجة. إنّي أحاول حماية عفّتك أنتِ. وأنتِ تجعلين مهمّتي شديدة الصعوبة».

«كم تصرّفاتك غريبة...!».

قاطعني قائلاً: «دعيني أطرح عليك سؤالاً. كم شخصاً في هذه الغرفة يمتلك روحاً، أو حظّاً في السماء أو في أيّ مكان تذهب إليه النفوس بعد الموت؟».

قلت بسرعة وبنبرةٍ حادّة: «اثنان».

أجاب: «حسناً ربّما أنتِ على صواب. ولكن برغم حجم الخلاف حول هذا الموضوع، ما زال جزء كبير من العالم يؤمن أنّ هناك قوانين يجب على الناس التقيّد بها».

«ألا يكفيك احترام قوانين مصّاصي الدّماء فتصرّ على إشغال نفسك بقوانين الآدميّين؟».

«وما الضرر في ذلك؟» قال وهو يخفي ضحكةً.

نظرت إليه وأنا أضيّق عينيَّ.

«بالطبع، لقد تأخّرت...، حتى لو كان لديّ روحٌ كما تعتقدين».

«كلاّ، لم تتأخّر».

«الوصيّة التي تقول (لا تقتل) أساسيّة بالنسبة لمعظم العقائد الدينيّة. وأنا قمتُ بقتل العديد من البشر يا بيلاّ».

«قتلت الشريرين فحسب».

فقال: «قد يؤخذ هذا الأمر في الاعتبار، وقد لا يؤخَذ أمّا أنتِ فلم تقتلي أحداً».

تمتمت: «هذا بحسب معلوماتك...».

ابتسم وتابع: «وسأفعل كلّ ما أستطيع حتّى لا تتعرّضي لهذه الخطيئة».

قلتُ: «حسناً، ولكن القتل ليس موضوع خلافنا».

«العفّة هي الفضيلة الوحيدة التي لا زلت أملكها. ألا تسمحين لي بالمحافظة عليها؟».

«الفضيلة الوحيدة!؟».

«تعلمين أنّي سبق أن سرقت، وكذبت، واشتهيت مال غيري...، العفّة هي كلّ ما تبقّى لي». وابتسم بمكر.

قلت: «أنا أكذب دائماً».

«نعم، ولكنّك كاذبة فاشلة ولا أحد يصدّق كذبك. لذلك فكذبك لا يعدّ خطيئة».

«أتمنّى أن تكون مخطئاً بشأن هذا الموضوع...، وإلاّ فلا تتعجّب إن رأيت تشارلي يقتحم الغرفة الآن وبيده مسدس محشوٌّ بالرصاص».

فقال ضاحكاً: «يشعر تشارلي بسعادة أكثر عندما يقنع نفسه بقصصك الملفقة، وهو يفضّل ذلك على عناء التدقيق في حقائق الأمور».

«ولكن، لديك كلّ شيء، فماذا اشتهيت من مال غيرك؟». سألته بريبة.

«لقد اشتهيتك أنتِ. لم يكن من حقّي الحصول عليك ولكنّي فعلت. وانظري إلى أين وصلتِ الآن...! تريدين إغرائي بممارسة الحبّ معك». قال ذلك وهزّ رأسه متظاهراً بالاشمئزاز.

فقلت موضّحة أمراً مهمّاً: «من حقّك اشتهاء ما هو ملكك». ثمّ أضفت: «حسبتُ أنّ همّك الأساسي كان حمايتي أنا من الخطيئة؟».

«هذا هو همّي. إن كنتُ قد استحقيت اللّعنة، ولا طريق أمامي سوى طريق جهنّم...، فلمَ لا أحاول إبعادك عن ذلك الطريق؟».

«لا يمكنك إجباري على الذهاب حيث لا تكون أنت. هل تفهمني؟ جهنّم بالنسبة لي هي المكان الذي لستَ موجوداً فيه أنت. على كلّ حال، الحلّ الأفضل هو عدم الموت».

فقال ضاحكاً: «الأمر بغاية البساطة، ولكنّه لم يخطر ببالي».

وضحك مجدّداً، فنفد صبري وقلت: «إذاً أنت مصرّ على عدم النّوم معي قبل الزواج».

«بالمعنى التقني الصحيح للكلمة، لا أستطيع النوم معك أبداً. عدا عن ذلك فأنتِ على حقّ».

تبرّمت من كلامه، وقلت: «لكنّي أعتقد أنّ لديك دافعاً آخر».

جحظت عيناه وقال بتعجّبٍ بريء: «دافعٌ آخر!».

«وأنتَ تعلم أنّه يساهم في تسريع الأمور».

حاول عدم الابتسام: «شيءٌ واحد أريده بسرعة، أمّا الباقي فيمكنه الانتظار. . . ، أما هرموناتك الانسانية الملحّة فهي حليفتي لأنّها ضمانتي في تعجيل حصولي على ما أريد».

«لا أصدّق نفسي حين أتحدّث عن الزواج. تصوّر ردّ فعل تشارلي. . . ، ورينيه! هل تتوقّع ماذا ستقول آنجيلا؟ أو جيسيكا؟ أكاد أسمع الثرثرة الآن».

صوّب إليّ نظرة استفهام وعتاب، وعرفتُ قصده. لمَ اهتمامي بثرثرتهم وأنا أنوي الذهاب قريباً وعدم العودة؟ هل أنا شديدة الحساسية وغير قادرة على احتمال بعض النظرات والأسئلة خلال أسابيع قليلة؟

ما كنت سأنزعج بهذا القدر لولا معرفتي بأنّي سأثرثر بالطريقة ذاتها لو أعلنت إحدى رفيقاتي خطبتها خلال هذا الصيف.

ها إنّي ارتعد قرفاً من الفكرة!

ثمّ إنّي ما كنت لأنزعج بهذا القدر لو لم أكن قد تربّيت على فكرة النفور من فكرة الزواج.

قاطع إدوارد أفكاري المزعجة، قائلاً: «أنا لا أريد عرساً كبيراً. ليس ضرورياً أن نعلن الخبر. يمكننا الاستفادة من (خدمات) الزواج السريعة في فيغاس وأنتِ ترتدين سروالك الجينز القديم. كلّ ما أريده هو أن يكون ارتباطنا رسمياً وتكوني لي، وليس لسواي».

دمدمت قائلة: «ارتباطنا رسمي بما فيه الكفاية!». لكنّ فكرته كانت مقبولة، مع أنّ استغناءنا عن الحفلة سيخيّب آمال آليس.

«سنرى. . . !». ثمّ ابتسم بلطف، وقال: «أظنّ أنّك لا ترغبين برؤية خاتم الزواج الآن».

بلعتُ ريقي، وقلت: «ظنّك في مكانه».

أضحكته عبارتي، وقال: «حسناً، سأضعه حول إصبعك في وقتٍ قريب».

قلت: «تتحدّث وكأنّ الخاتم في حوزتك».

وقال من دون أن يشعر بالخجل: «نعم. وأنا حاضر لاغتنام أوّل لحظة ضعف من جانبك كي أضعه حول إصبعك».

«إنّك تبالغ!».

«هل تريدين رؤيته؟». سألني ولمعت عيناه الذهبيّتان بالحماسة.

«كلّا!». أجبتُ بما يشبه الصراخ. كان ردّ فعلي تلقائياً، فشعرت بالندم على الفور. ورأيتُ عتباً على وجهه، فحاولت إصلاح الموقف: «إلاّ إذا كنت ترغب حقّاً في أن أشاهده». وصررت على أسناني محاولةً إخفاء رعبي غير المبرّر.

فقال: «ليس مهمّاً، يمكننا الانتظار».

«أرني ذلك الخاتم يا إدوارد!».

هزّ برأسه. . . «كلّا».

نظرتُ إلى وجهه وتذكّرت الطريقة الجديدة التي لا يستطيع

مقاومتها. فقلت: «أرجوك؟». ولمست خدّه برفقٍ. «أرجوك...، هل يمكنني مشاهدته؟».

زمّ عينيه وقال: «إنّك أخطر مخلوقة رأيتها في حياتي». ثمّ قام، وبحركة أنيقة فتح أحد الأدراج. وبعد ثوانٍ، عاد إليّ حاملاً بيده علبة صغيرة سوداء. اقترب منّي ولفّ إحدى ذراعيه حولي ووضع العلبة على ركبتي.

«هيّا، افتحيها والقي نظرة».

مددت يدي إلى العلبة بصعوبة، وحاولت عدم إظهار تردّدي خوفاً على مشاعره. كان الغطاء مصنوعاً من الحرير الأسود فلمسته بأصابعي المرتجفة، وقلت: «إن كنت قد دفعتَ مبلغاً كبيراً من المال فلا بأس أن تخفي ذلك عنّي».

«لم أدفع شيئاً. هذه أيضاً هديّة منقولة من يدٍ ليد. إنّه الخاتم الذي قدّمه أبي لأمّي بمناسبة زواجهما».

فوجئت: «أوه!». وبإبهامي وسبابتي حاولت رفع غطاء العلبة، ولكنّي لم أنجح.

«إنّه موضة قديمة بعض الشيء... مثلي. أستطيع أن أشتري لك خاتماً جديداً إذا أحببتِ».

قلت مغمغمة: «تستهويني الأشياء القديمة». وحاولت فتح العلبة، فنجحت هذه المرّة.

ما أن رأى خاتم اليزابيث ماسن النور حتى بدأت حبيبات الماس المستديرة المثبتة على رأسه بشكلٍ بيضاوي تشعّ سحراً. كان إطار الخاتم المصنوع بدقّة من الذهب الأصفر يضفي على رونق الماس وجماله رونقاً وجمالاً.

طغت عليّ المفاجأة، فهمست وكأنّي أحدث نفسي: «إنّه جميل للغاية!».

«هل أعجبك؟».

«إنّه جميل. لا يمكنني إنكار ذلك». أجبته محاولةً عدم إظهار اهتمامي الشديد.

ضحك قليلاً، وقال: «لنرَ إن كان قياسه ملائماً لإصبعك».

أغلقت يدي اليسرى فوراً.

«بيلّا! ضعيه حول إصبعك لنرى قياسه، ثمّ انزعيه حالاً. لا تخافي...، لن يلتحم بإصبعك».

قلت: «حسناً». ومددتّ يدي نحو الخاتم، لكنّه سبقني إليه بأصابعه الطويلة، ثمّ أخذ يدي اليسرى ووضع الخاتم في مكانه حول إصبعي. رفعتُ يدي ورحنا ننظر معاً. كان الخاتم يبدو جميلاً ولائقاً.

«قياسه ملائم تماماً ولا أحتاج إلى زيارة الصائغ».

أراد إدوارد التكلّم بلهجةٍ عاديّة جدّاً كي يخفي مشاعره، لكنّي رأيتها واضحةً من خلال نظراته.

«أنتَ سعيد، ألستَ كذلك؟». سألته بريبة وأنا أتأمّل الخاتم في إصبعي وأقول في نفسي: «ليتني كسرتُ يدي اليسرى في ذلك اليوم في لا بّوش».

هزّ كتفيه مدّعياً اللامبالاة: «طبعاً، فهو يبدو جميلاً حول إصبعك».

نظرتُ إلى عينيه محاولةً تفسير الرموز التي كانت تتراءى وراء القناع، فنظر إليّ في المقابل وانقشع الغطاء فجأةً، وأطلّت مشاعر الفرح الشديد وغبطة الانتصار. فشعّ وجهه الملائكي الجميل وانحبست أمام سحره أنفاسي.

وقبل أن يتسنّى لي استعادة روعي، راح يقبّلني وشفاهه ترقص جذلاً. ثمّ همس في أذني، ملتقطاً أنفاسه بصعوبةٍ مثلي: «إنّي في غاية السعادة... لا يمكنك أن تتخيّلي!».

ضحكتُ لاهثة: «إنّي أصدّقك».

«هل تسمحين لي بالقيام بشيء معيّن؟». وكانت ذراعاه تشدّانني إليه بقوّة.

«إفعل ما تريد».

لكنّه أرخى ذراعيه وابتعد عنّي قليلاً.

«كلّ شيء إلاّ هذا». قلتُ له.

تجاهل كلامي وأمسك بيدي وشدّني بعيداً عن السرير. ثمّ وقف أمامي ووضع يديه على أكتافي، ونظر إليّ بجديّة.

أريد الآن أن أقوم بهذا الأمر بشكلٍ صحيح. سبق ووافقت على طلبي، لذلك أرجو ألاّ تخرّبي هذه اللّحظة.

وفاجأني عندما ركع على ركبته أماميّ.

«كوني لطيفة». قال منبّهاً.

فأخذتُ نفساً عميقاً.

«إيزابيلاّ سوان؟». قال ونظر إليّ من خلال تلك الرموش الطويلة الآسرة. كانت عيناه هادئتين ولكنهما لم تخْلُوَا من الحسرة. «أعدك بأن أحبّك إلى الأبد، وفي كلّ يوم حتّى آخر أيام الدهر. هل توافقين على الزواج منّي؟».

خطرت في بالي أفكار كثيرة كنت أريد التعبير عنها، بعضها لم يكن لطيفاً، وبعضها الآخر رومانسيّاً إلى حدّ مملّ، لكنّي فضّلت عدم إحراج نفسي بأيٍّ منها، فأجبت بكلّ بساطة: «نعم».

قال ببساطة: «شكراً». وأخذ يدي وراح يقبّلها، ويقبّل أطراف أصابعي، ثمّ قبّل الخاتم الذي أصبح الآن لي.

21

اقتفاء الأثر

لا أحبّ إضاعة اللّيالي بالنّوم. ولكن لا مفرّ من النوم لبضع ساعات. عندما استيقظت في الصباح كانت الشمس تعلو في السماء، والغيوم المتناثرة تتحرّك بسرعة، والرّيح تعبث برؤوس الأشجار فتراقصها تارة وتخبطها بعنف تارةً أخرى.

ترك الغرفة ليتيح لي فرصة ارتداء ثيابي. كنت بحاجة لأن أكون بمفردي، لأسترجع في ذهني كلّ ما جرى في اللّيل من انقلاب الخطّة التي كنت قد رسمتها ونتائج ذلك. كنتُ قد أعدتُ له الخاتم الموروث بطريقةٍ لطيفة لم تؤذِ مشاعره، لكنّي ما زلت أشعر بثقل الخاتم في إصبعي.

لن يكون الأمر صعباً، قلت في نفسي. سنذهب بالسيارة إلى فيغاس. . . ولن تستغرق المراسم أكثر من خمس عشرة دقيقة. سأتدبّر الأمر بسهولة.

بعد ذلك، يأتي دوره ليفي بوعده.

قال إنّنا لن ننشر الخبر، وسأتمسّك بهذا الاتفاق بيني وبينه. ولكن لا يمكن تجاهل آليس كليّاً.

عاد أفراد العائلة عند الظهر تقريباً، وكانوا يناقشون مواضيع جديّة أعادتني إلى أجواء الرّعب المرتقب.

كان مزاج آليس سيّئاً فوق العادة، فتوقّعت أن يكون انزعاجها عائداً إلى مشاركة الذئاب في خططنا، فهذا مما يعرقل قدرتها على الرؤية. وما لبثت كلماتها إلى إدوارد أن أثبتت ذلك.

«أعتقد أنّ عليك أن تتحضّر للطقس البارد. لا أرى تماماً أين ستكون بعد الظهر لأنّك ستذهب برفقة ذلك الكلب. ولكن العاصفة المتوقّعة ستكون على أشدها في تلك المنطقة».

هزّ إدوارد رأسه.

فأضافت: «سيتساقط الثلج على الجبال».

«يتساقط الثلج في حزيران!». تمتمت في نفسي.

«خذي معك سترة سميكة». كلّمتني آليس بلهجةٍ جافّة، فتعجّبت من ذلك. حاولت قراءة وجهها، لكنّها تجنّبت نظراتي.

نظرتُ إلى إدوارد فوجدته مبتسماً. من المؤكّد أن ما أزعج آليس كان يضحكه.

كان لدى إدوارد كلّ ما يلزم للرّحلات الطويلة في الهواء الطّلق. مظاهر تساعده على استكمال التمثيلية الإنسانية. فأخذ فراشاً وخيمةً وطعاماً مجفّفاً، ووضع كلّ ذلك في حقيبة تُحمَلُ على الظهر.

جاءت آليس إلى الكاراج وراقبت إدوارد وهو يحضّر عدّته ولكنّها لم تتلفّظ بكلمة.

ثمّ طلب منّي إدوارد الاتصال بجايكوب وإعلامه بأنّنا سنكون في المكان المتّفق عليه بعد حوالى ساعة.

لم يكن جايكوب في البيت، لكنّ بيلي وعدني بأن يوصل الخبر إليه عن طريق أيّ رجلٍ ذئب يلتقي به.

«لا تخافي على تشارلي يا بيلاّ فقد قمت بتنسيق كلّ شيء».

«بالتأكيد، أعلم أن تشارلي سيكون بخير». لم أكن واثقة بالقوّة

عينها من سلامة ابنه. لكنّي لم أقل شيئاً عن ذلك.

«لا تتصوّري كم أتمنّى أن أكون إلى جانب الشباب غداً».

وبضحكةٍ خافتة أضاف متحسّراً: «لكنّ التقدّم بالعمر ليس أمراً سهلاً يا بيلّا!».

لا شكّ أنّ الحماسة للقتال هي صفة مرسومة في جينات الرجال الذكورية.

قلت: «أتمنّى لك ولتشارلي وقتاً ممتعاً غداً».

أجاب: «حظّاً سعيداً يا بيلّا، وأرجو أن تبلّغي تمنيّاتي إلى... عائلة كولن أيضاً».

قلت بعد أن فوجئت بالتفاتته اللّطيفة: «سأفعل».

أعدت الهاتف الخلوي إلى إدوارد ولاحظت أنّ نقاشاً صامتاً كان يدور بينه وبين آليس. كانت تحدّق إليه بنظراتٍ توسّل وهو يرمقها عابساً، غير سعيد بما يراود ذهنها.

قلت: «يتمنّى بيلي لكم التوفيق».

«هذه التفاتة طيّبة منه». قال إدوارد واضعاً حدّاً للنقاش مع آليس.

«بيلّا، هل أستطيع أن أكلّمك على انفراد؟» سألتني آليس بسرعة.

فقال لها إدوارد: «إنّك تصرّين على تعقيد حياتي...، أفضّل ألاّ تفعلي».

فأجابته على الفور: «هذا لا يتعلّق بك يا إدوارد».

ضحك. ولا أدري ما الذي أضحكه في جوابها.

«هذا موضوع أنثوي لا علاقة لك به».

قطّب جبينه. فقلت: «دعها تكلّمني، أريد أن أعرف...».

ضحك ضحكةً فيها مزيج من المرح والانزعاج: «ستجلبين المشاكل لنفسك. إنّي أحذّرك». وخرج من الكاراج.

التفتّ إلى آليس لكنّها أبعدت عينيها عنّي. كانت لا تزال غاضبة.

راحت لتجلس على الغطاء الأمامي لسيارتها البورش، فتبعتها واستندت إلى السيارة بقربها.

قالت بصوتٍ بائس: «بيلاّ؟».

قلت: «ما المشكلة يا آليس؟».

«ألا تحبينني؟».

«بالطّبع أحبّك وأنتِ تعرفين ذلك».

«لماذا تنوين الذهاب إلى فيغاس من دون دعوتي لحضور مراسم الزواج؟».

شعرتُ أنّي أسأت حقّاً إلى مشاعرها، فأسرعت إلى الدفاع عن نفسي قائلة: «أنتِ تعرفين مقدار نفوري من تضخيم الأمور. إنّها فكرة إدوارد على كلّ حال!».

«لا يهمّني فكرة من كانت. أنا أحبّك وكأنّك أختي الحقيقية، فكيف يمكن أن تعامليني بهذه الطريقة؟ قد أتوقّع هذا التصرّف من إدوارد، ولكن ليس منكِ».

«بالنسبة لي يا آليس، أنتِ أختي».

غمغمت: «مجرّد كلمات!».

«حسناً يمكنك مرافقتنا. لن يكون هناك احتفال».

«كم تحبينني يا بيلاّ؟».

سألت: «لماذا؟».

نظرت إليّ بعينين راجيتين، وشفتاها ترتجفان فأشفقتُ عليها.

«أرجوكِ، أرجوك، أرجوك يا بيلاّ، إن كنتِ تحبينني حقّاً، دعيني أهتمّ بزفافك».

«آو، آليس!». قلت مؤنّبة: «كلاّ، لا تفعلي هذا!».

«إن كنتِ تحبينني في الحقيقة يا بيلا...».

عقدتُ ذراعيَّ على صدري، وقلت: «هذا ليس عدلاً. لقد سبق لإدوارد أن استعمل هذه الوسيلة للضغط عليَّ أيضاً!».

«أراهن أنّ إدوارد يفضّل أن يكون الزواج بالطريقة التقليدية، ولو لم يقل لك ذلك صراحةً. وإيزمي ستكون سعيدة جدّاً...!».

دمدمت بسخط: «مواجهة مصّاصي الدماء الجدد بمفردي أسهل عليّ من حفلة زفاف تقليدية».

«سأكون مدينة لكِ على مدى عشر سنوات».

قلتُ: «بل على مدى قرن كامل!».

لمعت عيناها: «هل يعني قولك أنّك وافقتِ؟».

«كلّا! لا أريد أن أفعل هذا!».

«لن يكون عليك فعل أيّ شيء سوى أن تسيري بضع خطوات وتردّدي وراء القسّ: نعم، نعم، نعم!».

وأخذت تقفز في مكانها، وترجوني مرّة ومرّتين وثلاثاً و... خمس مرات، كي أوافق.

«لن أسامحك أبداً، أبداً ومطلقاً على هذا يا آليس».

صفقت بيديها، وصرخت: «ياي!».

«هذه ليست موافقة!».

«ولكنّها ستصبح كذلك». قالت وكأنّها تغنّي.

«إدوارد!». خرجت من الكاراج وناديته: «أعلم أنّك تسمع... تعالَ إلى هنا!». تبعتني آليس، ويداها تصفّقان.

جاء إدوارد من ورائي، وقال بغيظ: «شكراً جزيلاً يا آليس!» استدرت لأعاتبه بقوّة، لكنّي لاحظتُ أنّه كان قلقاً ومتوتّراً، فصرفت النظر عن ذلك واقتربت منه ولففت ذراعيّ حول عنقه بحنان.

«في فيغاس». همس في أذني.

«لا يمكن أن تتصرّف بيلاّ بهذه الطريقة وتؤذي مشاعري. أنتَ أخي، ولكنّك في الحقيقة تخيّب أملي في بعض الأحيان».

«لا تكوني قاسية»، قلتُ لها. «بخلافك، فهو يريدني أن أكون سعيدة».

«أنا أريدك أن تكوني سعيدة أيضاً. ولكنّي أكثر معرفة منكِ بما يسعدك على المدى الطويل. سوف تشكرينني في المستقبل. قد لا يكون خلال الخمسين سنة القادمة، ولكن لا بدّ أن تشكريني ذات يوم».

قلت: «لم أكن أتصوّر أنّي في يومٍ من الأيام سأراهنك حول أمرٍ معيّن. ولكن هذا اليوم قد حان».

ضحكت ضحكتها الرّنانة، وقالت: «هل سترينني الخاتم؟».

انتفضت اشمئزازاً عندما مدّت يدها إلى يدي اليسرى وما لبثت أن تركتها في الحال.

«هاه. لقد رأيته وهو يضع الخاتم حول إصبعك. هل فاتني شيء؟». ثمّ أطرقت مفكّرة وهي تعقد حاجبيها، وقالت لنفسها: «كلاّ، مشروع الزواج لا يزال قائماً».

«بيلاّ لا تحبّ المجوهرات كثيراً». قال إدوارد.

«وماذا عن تلك الماسة الأخرى يا بيلاّ؟ أعلم أنّ الخاتم مرصّع بماسات عديدة، ولكنّي أقصد أنّه قد وضع واحدة...».

«كفى يا آليس!» أسكتها إدوارد في الحال، ورمقها بنظرة حادّة... أعادت إليه مظهر مصّاص الدّماء.

«لا أفهم. ماذا هنالك حول أحجار الماس؟».

«سنتكلّم عن الأمر لاحقاً». قالت آليس. «إدوارد على حقّ. يجب أن تنطلقوا. يجب أن تقوموا بنصب فخّ، ونصب خيمة قبل حلول

العاصفة». وقطّبت جبينها: «لا تنسي معطفك يا بيلّا، فالحرارة ستكون. . . منخفضة جدّاً».

«لقد أحضرته لها». أكّد إدوارد.

«أرجو لكما ليلةً سعيدة!». قالت وهي تودّعنا.

كان طول المسافة إلى الغابة مضاعفاً هذه المرّة. فقد تَبع إدوارد خطّاً مختلفاً لكي يبعد رائحتي عن الخطّ الذي سيتعمّد جايكوب إخفاءه لاحقاً. كان يحملني بين ذراعيه والحقيبة الكبيرة مثبتة على ظهره.

وعندما وصلنا إلى الساحة الخالية من الأشجار، حيث كنّا منذ يومين، أنزلني كي أسير على قدميّ، وقال: «إمشي الآن نحو الشمال، وحاولي أن تلمسي ما يحيط بك قدر الإمكان. لقد أطلعتني آليس على الدّرب الذي سيتبعونه، وسوف نتقاطع معه قريباً».

قلت: «إلى الشمال؟». وباشرت السير في الاتجاه المعاكس.

ابتسم، وأشار بيده إلى الاتجاه الصحيح.

مشيت إلى داخل الغابة تاركةً ورائي ضوء النهار الساطع فوق الساحة. كانت السماء صافية فوق العادة في ذلك اليوم، ففكرت في احتمال أن تكون آليس قد اختلطت عليها الرؤيا، ولاح أمامها هذا الضوء الأبيض كأنّه ثلج. ولكنّ الرّياح العاتية كانت تعصف بشدّة أقوى حيث تخفّ كثافة الأشجار في داخل الغابة، فشعرت بقشعريرة بردٍ برغم أنّي كنت أرتدي قميصاً بكمّين طويلين وكنزة سميكة من الصوف فوقه. كنت أمشي ببطء وألمس بأصابعي كلّ شيءٍ قريبٍ منّي. لحاء الشجر القاسي، والخنشار الرّطب، والصخور المكسوّة بالخزّ الأخضر.

مشى إدوارد في موازاتي، ولكن على مسافة أربعين قدماً منّي تقريباً.

ناديته: «هل تراني أقوم بالمطلوب بشكلٍ صحيح؟».

«عظيم!».

ثمّ خطرت في بالي فكرة جديدة. فأدخلت أصابعي في شعري، وسحبت منه بعض الخصلات الصغيرة وتركتها حولي وفوق نبات الخنشار، وناديت إدوارد مجدّداً: «ما رأيك بهذه الطريقة؟».

«بالطبع هذا جيّد، المطلوب أن تكون الرائحة قويّة، ولكن ليس ضرورياً أن تنتفي شعر رأسك يا بيلاّ. هذا كافٍ».

«شعري كثيف، لا تقلق».

كان الجوّ داكناً وكئيباً تحت الأشجار، وتمنّيت لو أستطيع الاقتراب من إدوارد والتمسّك بيده.

اقتلعت شعرة أخرى ورميتها على غصنٍ مكسور كان يقطع طريقي.

«أنتِ تعلمين، ليس من الضروري أن تنفّذ رغبات آليس». قال إدوارد.

«لا تقلق يا إدوارد. في جميع الأحوال، لن أتركك وحدك في الكنيسة وأهرب». كان لديّ شعور غامض بأنّ آليس ستصل إلى ما تريد، أوّلاً لأنّها لا تدع أيّ شيء يقف في طريقها مهما كلّف الأمر، وثانياً لأنّي أنا شخصيّاً لا أحتمل الشعور بالذنب.

«ليس هذا ما يشغل بالي. ما أصرّ عليه، هو أن يكون لك أنتِ ما تريدين».

تمالكتُ تنهيدة عميقة كادت تصدر عنّي. قد أؤذي مشاعره لو قلت الحقيقة، إذ لا فرق عندي بأي شكل يتمّ الزواج، لأنّ كل الأشكال هي درجات متباينة لأمرٍ بغيض.

«حتى لو استطاعت آليس تغيير خطّتنا، يمكننا الاكتفاء بحفلة زفاف صغيرة تقتصر على أفراد العائلة. ويمكن لإيميت القيام بدور القسّ بعد أن يحصل على إذن بذلك من خلال الإنترنت».

قهقهت للفكرة وقلت: «هذه فكرة جيّدة». لن أشعر بأنّ المراسم

رسميّة جدّاً إن قام إيميت بدور القسّ. لكنّني سأجد صعوبة بعدم الضحك.

«أرأيتِ كيف أن هنالك دائماً سبيلاً للتسوية!».

سار إدوارد بسرعة تتماشى مع سرعتي حتى وصلنا إلى نقطة تقاطع خطّ المهاجمين، كما رأته آليس، مع الدّرب الذي سرتُ عليه.

ولكنّه مشى بخطواتٍ أسرع في طريق العودة كي يرشدني إلى الاتجاه الصحيح، خوفاً من أن أضل الدّرب إلى الساحة.

كنّا قد قاربنا على الوصول ولاحت أمامي من خلال الأشجار الساحة التي انطلقنا منها، فتحمست وأسرعت خطواتي حتى تعثّرت رجلي. استعدتُ توازني قبل أن يرتطم رأسي بالشجرة التي أمامي، ولكنّ غصناً صغيراً انكسر تحت يدي اليسرى وجرحني.

«واو! أوه، عظيم!». قلت متمتمة.

«هل أنتِ بخير؟».

«أنا بخير. ابقَ في مكانك فالدم ينزف من يدي، ولكنّه سيتوقّف بعد قليل».

تجاهل طلبي، وما هي إلاّ ثوانٍ حتى كان أمامي.

«أحمل علبة الإسعافات الأولية لأنّي توقّعت أن يحصل شيءٌ من هذا القبيل». قال ذلك وأنزل الحقيبة عن ظهره.

قلتُ: «الجرح ليس كبيراً وأستطيع الاهتمام به. لا ضرورة لأن تسبّب لنفسك الانزعاج».

«لا أشعر بالانزعاج»، قال بهدوء. «دعيني أنظّفه».

«انتظر لحظة، لديّ فكرة أخرى».

رحت أتنفّس عن طريق فمي ولم أنظر إلى الدّم خوفاً من الغثيان، واقتربت من صخرة وضغطتُ كفّي عليها.

«ماذا تفعلين؟».

«كم سيفرح جاسبر بهذا الأمر». قلت في نفسي. وعدت لمتابعة السير في اتجاه الساحة، وكنت أمسح كفّي بكلّ شيءٍ أصادفه. «هذا سيجعلهم يفقدون عقلهم».

تنهّد إدوارد.

قلتُ: «لا تتنفّس!».

«أنا بخير، لكنّي أظنّ أنّك تبالغين».

«هذا كلّ ما هو مطلوب منّي القيام به، لذلك أريد أن أفعله بإتقان».

وفي طريقنا بين الأشجار الأخيرة قبل الوصول إلى الساحة، مسحت يدي بكلّ نبات الخنشار الذي صادفته.

«حسناً»، قال إدوارد. «لقد قمت بواجبك على أكمل وجه. المهاجمون سيصابون بالجنون، وجاسبر سيكون راضياً جدّاً. الآن، دعيني أنظف جرحك الذي أصبح شديد القذارة».

«أرجوك، دعني أفعل ذلك بنفسي».

لكنّه أخذ يدي وابتسم وهو يتفحّصها. «لم يعد هذا الأمر يضايقني».

راقبته وهو ينظف الجرح. بقي مبتسماً، يتنفّس بانتظام، ولم يظهر عليه أيّ نوع من الضيق.

«وما سبب التغيّر؟». قلتُ أخيراً بينما كان يلفّ الضمادة حول كفّي.

أجابني: «تغلّبت على الأمر».

«تغلّبتَ على الأمر؟ كيف؟ ومتى؟». وحاولت أن أتذكّر آخر مرّة كان يحبس أنفاسه وهو بقربي. كلّ ما خطر في بالي كان حفلة عيد ميلادي البائسة في شهر أيلول الماضي.

زمّ إدوارد شفتيه مفتّشاً عن الكلمات، ثمّ قال: «عشت فترة أربع وعشرين ساعة معتقداً أنّك فقدتِ الحياة يا بيلاّ. . .، وهذا أثّر على نظرتي إلى الكثير من الأمور».

«هل أثّر ذلك على حبّك لرائحتي؟».

«كلاّ، ولكن تلك التجربة المؤلمة جعلت ردّ فعلي يتغيّر، فأصبح جسدي يرفض تلقائيّاً كل ما يوحي له بعودة ذلك الألم».

لم أدرِ ماذا أقول.

ضحك إزاء ردّ فعلي، وقال: «يمكننا تسمية تلك التجربة تجربة تعليمية بامتياز».

نفخت الريح في المكان، فتطاير شعري وارتجفت من البرد.

قال بحماسة ظاهريّة: «حسناً، لقد أنهيتِ مهمتك». ومدّ يده وأخرج معطفي من الحقيبة، وساعدني على ارتدائه. «لنذهب وننصب الخيمة».

ضحكتُ لحماسته المصطنعة. ثمّ أمسك بيدي المجروحة، لأنّ الأخرى كانت أشد سوءاً وهي لا تزال في الرّباط الذي أمرني كارلايل بعدم نزعه قبل مضيّ عدّة أسابيع، ومشينا إلى الجهة الثانية من الساحة.

وسألته: «أين سنلتقي بجايكوب؟».

«هنا». ودلّني على الأشجار قبالتنا، وفي اللّحظة عينها ظهر جايكوب من بين الظلال وكان يمشي بحذر.

لا أدري لماذا فوجئت عندما رأيت جايكوب بشكله الإنساني، وليس الذئب البنّي المائل إلى الحمرة الذي كنت أتوقّعه.

بدا لي أنّه ازداد ضخامةً، فعرفتُ أنّ هذا الانطباع كان من فعل مخيّلتي التي تفضّل صديقي جايكوب الأصغر سنّاً، الذي كان يساعدني ولا يعقّد الأمور. كانت ذراعاه معقودتين فوق صدره العاري. وفي

إحدى يديه، كان يحمل سترةً. كان ينظر إلينا بوجهٍ خالٍ من أيّ تعبير.

قلب إدوارد شفتيه وتمتم قائلاً: «كان بإمكاننا أن نجد طريقة أفضل لتنفيذ هذا الأمر».

«تأخرنا الآن». قلتُ بكآبة.

«أهلاً جايك!». قلتُ عندما اقتربنا.

«أهلاً بيلاّ!».

«مرحباً يا جايكوب»، قال إدوارد.

حاول جايكوب أن يكون في غاية الجديّة، فقال: «إلى أين سآخذها؟».

أخرج إدوارد خريطة من الجيب الجانبي في الحقيبة وأعطاها لجايكوب. فأخذها هذا الأخير وفتحها.

«نحن هنا الآن». قال إدوارد، ومدّ يده ليشير إلى النقطة على الخريطة، فإذا بجايكوب يقفز إلى الخلف نفوراً من يد إدوارد، ولكنّه ما لبث أن استدرك ووقف بشكلٍ لائق. أمّا إدوارد فتظاهر بعدم ملاحظة ما حدث.

«وأنتَ ستأخذها إلى هنا». وأشار إلى طريق ملتوٍ فوق المناطق المرتفعة قليلاً الظاهرة على الخريطة. «حوالى تسعة أميال».

هزّ جايكوب برأسه مرّةً واحدة.

«عندما تبتعد ميلاً واحداً، ستلتقي بالخطّ الذي سأتبعه أنا. وهذا سيدلّك على المكان. هل تحتاج إلى الخريطة؟».

«كلاّ، شكراً. أنا أعرف هذه المنطقة جيّداً. أظنّ أنّي أعلم بالضبط إلى أين سأذهب».

كان على جايكوب أن يبذل جهداً إضافيّاً لكي يتكلّم بتهذيب مع إدوارد.

«سأتبع طريقاً أطول، وسنلتقي بعد بضع ساعات».

نظر إليّ إدوارد، وكان يكره هذا الجزء من الخطّة.

فقلت: «إلى اللّقاء».

اختفى إدوارد بين الأشجار في الاتجاه المعاكس.

وما إن توارى إدوارد حتى تغيّرت تعابير جايكوب وأصبحت أشد مرحاً.

«هل من جديد يا بيلاّ؟» سألني بابتسامةٍ كبيرة.

«كلّ شيء باقٍ على ما هو. لا جديد أبداً!».

«القصّة عينها. مجموعة من مصّاصي الدماء يريدون قتلك».

«القصّة عينها».

«حسناً»، قال وهو يلبس السترة بسرعة. «لننطلق!».

اقتربت منه قليلاً. فانحنى وأنزل إحدى ذراعيه تحت ركبتيّ، وقبل أن يرتطم رأسي بالأرض، مدّ ذراعه الثانية تحت كتفيّ ورفعني.

قلت: «أحمق!».

فضحك، وانطلقت ساقاه بين الأشجار. كان يقفز قفزات منتظمة، قد يستطيع الإنسان العاديّ القيام بها على أرضٍ مسطّحة، إن كان يتمتّع بلياقة بدنيّة عالية ولا يحمل على ذراعيه وزناً يساوي خمسين كيلوغراماً أو أكثر.

«ليس من الضروري أن تركض لأنّك ستتعب».

«الرّكض لا يتعبني». وكان يتنفّس بانتظام وكأنّه يركض في ماراثون. «لكنّ الحرارة ستنخفض بشدّة بعد قليل. آمل أن يكون قد نصب الخيمة عندما نصل».

تحسّست سترته المبطّنة، وقلت: «لن تشعر بالبرد الآن».

«لا أشعر بالبرد. في الحقيقة حملت هذه السترة لك، لتلبسيها لو شعرتِ بالبرد». ونظر إلى سترتي، وكأنّه كان يتمنّى لو لم أحضرها. «لا أحبّ هذا الطقس فهو يشعرني بالتوتّر. هل تلاحظين أنّنا لا نرى أيّ حيوانات؟».

«أنتَ على حقّ».

«أنتِ لا ترينها على كلّ حال. فحواسك مشوّشة».

لم أردّ على كلامه. ثمّ قلت: «آليس قلقة أيضاً بشأن العاصفة».

«ليس من السهل تمضية اللّيل في الغابة في هذا الطقس. لن تهدأ العاصفة بسهولة».

«لم تكن فكرتي بالضبط!».

ما لبث الدّرب أن ازداد وعورةً. فتسلّق جايكوب التلال وقفز بين الصخور بخفّة، محافظاً على توازنه وكأنّه معزاة جبليّة.

«ما هذا الشيء الذي أضيف إلى سوارك؟». سألني. نظرتُ فوجدت أنّ قلب الكريستال كان من الجهة العليا لمعصمي. فأجبتُ وكأنّي أخفي ذنباً اقترفته: «إنّها هديّة أخرى بمناسبة تخرّجي».

فقال بشخرة: «جوهرة...».

تذكّرت فجأةً ما قالته آليس خارج الكاراج. نظرت إلى قطعة الكريستال البرّاقة واستعدتُ في ذهني العبارة التي لم يسمح لها إدوارد إكمالها عن قطعة الماسّ. هل أرادت الإشارة إلى هذا القلب المعلّق إلى سواري...؟ هل يعقل أنّي أضع حول معصمي الآن ماسةً من إدوارد وزنها خمسة قراريط أو أكثر!؟

«لم تأتِ إلى لا بّوش منذ زمن طويل...!؟».

«كنت مشغولة. وفي جميع الأحوال...، قد لا أذهب إلى لا بّوش بعد الآن».

«كنتُ أظنّ أنّك أنتِ المتسامحة، وأنا الذي يحمل الحقد. . . !».

هززتُ برأسي.

فقال: «أتوقّع أنّك فكّرتِ بالأمر كثيراً. . . ؟».

«كلّا!».

ضحك. ثمّ قال: «أظنّ أنّك تكذبين. . .أو أنّك أشدّ الناس عناداً على الإطلاق».

«لا أستطيع إجابتك عن موضوع العناد، لكنّي أؤكّد لك أنّي لا أكذب».

كنت أفضّل تجنّب هذا الحديث في الحالة الحاضرة. كانت ذراعاه الدافئتان تلتفّان حولي ولا يمكنني الهروب من هذا الوضع بأيّ طريقة. وكان وجهه أقرب إلى وجهي ممّا كنت أتمنّى.

«لا يأخذ الإنسان العاقل قراراً إلاّ بعد أن ينظر إلى الأمور من جميع نواحيها».

تصدّيت لكلامه: «لقد نظرت في الأمور بما يكفي».

«إن كنتِ لم تفكّري بحوارنا الأخير في لا بّوش، فمعنى ذلك أنّك لا تقولين الحقيقة الآن».

«ذلك الحوار لا يؤثّر على قراري».

«بعض الناس يبالغون في تضليل أنفسهم».

«لاحظت أنّ الرجال الذئاب هم أكثر من يقوم بهذا الأمر، هل تعتقد أنّه خطأ وراثي».

«هل هذا يعني أنّه يتقن فن القبلة أكثر منّي؟». سألني، وقد بدت عليه الكآبة فجأةً.

«لا أستطيع أن أجيبك يا جايك، فإدوارد هو الوحيد الذي قبّلته».

«بالإضافة إليّ».

«لكنّي لا أعتبر تلك القبلة قبلةً بل أعتبرها عمليّة تعدٍّ».

«أف! الطقس بارد».

لم أجب، لأنّي مصرّة على ما قلته.

«لقد سبق لي واعتذرت»، قال مذكّراً.

«وسامحتك إلى حدٍّ كبير. لكنّ ذلك لم يمحُ الحادثة من مخيّلتي».

تمتم شيئاً لم أفهمه، ثم ساد الصمت بيننا خلال بعض الوقت. كنتُ لا أسمع سوى صدى أنفاسه المنتظمة، وهدير الرياح العاصفة. ثمّ طالعتنا صخرة كبيرة رماديّة ملساء فسرنا بمحاذاتها في دربٍ تؤدّي إلى خارج الغابة.

«لا زلت أعتقد أنّ قراركِ غير مسؤول».

«أنتَ مخطئ في ما تقول».

«اسمعي يا بيلّا. أنتِ تقولين إنّك لم تقبّلي في حياتك سوى إنسانٍ واحد، وهو في الحقيقة ليس إنساناً، وتدّعي أنّك قمتِ بواجبك أمام ذاتك. كيف تعلمين أنّ هذا هو حقّاً الشخص الذي تريدينه؟ ألا يجدر بك أن تختبري الحياة أكثر قبل أن تتخذي قرارك؟».

«أنا أعرف بالضّبط ما أريد».

«ولا شيء يمنعك من أن تعيدي النظر. ربّما من الأفضل أن تحاولي تقبيل شخص آخر. . . ، من أجل المقارنة على الأقلّ، لأنّك لم تعتبري الذي حدث بيننا في ذلك اليوم قبلةً. يمكنك تقبيلي الآن مثلاً. لا يهمّني إن اعتبرتني حقل تجربة».

ضحك وشدّني بقوّة نحوه فأصبح وجهي أقرب إلى وجهه.

«لا تسئ التصرّف معي يا جايك. أقسم لو فعلتَ شيئاً، لن أوقفه لو أراد أن يكسر حنكك».

أضحكته نبرة الرّعب في صوتي. «إن قبلتك بناءً على طلبك، فلن

يكون هناك سببٌ لغضبه. هذا ما قاله المرّة الماضية».

«حسناً، احبس أنفاسك وانتظر حتى أطلب منك أن تقبّلني»، قلت بسخرية.

«مزاجكِ سيّئ اليوم».

«هل تستغرب؟».

«أعتقد أحياناً أنّكِ تحبينني أكثر وأنا في حالة الذئب».

«في بعض الأحيان أفضّلك حقّاً في حالة الذئب، ربّما لعدم قدرتك على الكلام في تلك الحالة».

فكّر قليلاً، وقال: «لا، بل أظنّ أنّه من الأسهل عليك أن تكوني بقربي وأنا في حالة الذئب، لأنّه لا يترتّب عليك عندئذٍ أن تخفي انجذابك إليّ».

أصبتُ بالذهول، وفتحت فاهي، وأغلقته بسرعة وصررت على أسناني.

لاحظ جايكوب ردّ فعلي، فابتسم ابتسامة عريضة فرحاً بالانتصار.

تنفّست ببطء قبل أن أتكلّم: «كلّا، إنّي متأكّدة أنّ السبب هو عدم قدرتك على الكلام».

تنهّد وقال: «متى ستتعبين من الكذب على نفسك؟ يجب أن تلاحظي كم تتأثرين بي... وأقصد من الناحية الجسديّة».

«كيف يمكن لأحد ألا يتأثر بك من الناحية الجسدية، يا جايكوب؟»، سألته. «أنت وحش شديد الضخامة، وترفض احترام خصوصيّات الآخرين».

«بقربي، أنتِ تصابين بالتوتّر عندما أكون في حالة إنسان، ولكنّك تشعرين براحة أكبر عندما أكون ذئباً».

«التوتّر والسخط حالتان مختلفتان».

نظر إليّ نظرةً طويلة، وخفّت سرعة خطواته وفارق المرح وجهه. ثمّ قلّص عينيه وقطّب حاجبيه واستعاد سرعته فانتظمت أنفاسه. وببطء حنى وجهه حتى اقترب أكثر من وجهي. حدّقت في عينيه بجرأة كي أثنيه عمّا كان ينوي القيام به.

«ابعد وجهك». قلت.

ضحك عالياً وراح يقفز من جديد. «أنا لا أريد أن أصارع صديقك مصّاص الدماء اللّيلة...، لا مانع لديّ من أن أصارعه في أيّ ليلةٍ اخرى. ولكن أمامنا مهمّة غداً ولا أريد أن تخسر عائلة كولن أحد مقاتليها».

وفجأةً شعرت بالخجل الشديد ينتابني ويغيّر ملامحي.

«أعرف، أعرف. أنتِ تظنين أنّ باستطاعته التغلّب عليّ».

لم أستطع الكلام. سيخسرون مقاتلاً بسببي. ماذا لو أصيب أحدهم بمكروه بسبب ضعفي؟ ولكن ماذا لو كنت أكثر شجاعة وأصيب إدوارد... لا أستطيع أن أفكّر بذلك.

«ما المشكلة يا بيلاّ؟» وفجأةً سقط قناع الضحك والممازحة عن وجه جايكوب وظهر وجه صديقي الحقيقي. «إن كانت أقوالي قد أزعجتك حقّاً، فأنا أمازحك. لم أكن جديّاً. بيلاّ أرجوك لا تبكي».

حاولت أن أستجمع قواي. وقلت: «لن أبكي».

«ما الذي قلته وأزعجك إلى هذا الحدّ؟».

«ليس الذي قلته، إنّما شيءٌ يتعلّق بي...، لقد قمتُ بعمل سيّئ».

نظر إليّ بارتباك شديد.

قلت بهمس: «لن يذهب إدوارد إلى المعركة غداً، لقد ضغطتُ عليه كي يبقى معي لأنّي جبانة».

عبس وقال: «تظنين أنّ هذه العملية لن تنجح؟ وأنّهم سيتمكّنون من اكتشاف مكانك؟ هل تعرفين أمراً لا أعرفه؟».

«كلاّ، أنا لست خائفة من هذا الأمر. أخاف عليه أن يذهب. لأنّه لو لم يعُد...». وارتعدتُ خوفاً وأغمضت عينيّ هروباً من الفكرة.

وتابعتُ الهمس وعيناي مغمضتان: «لو أصيب أحد بمكروه سيكون ذلك بسببي. وحتى لو لم يصب أحد، فتصرّفي كان بغيضاً. تصرّفت بهذه الطريقة لكي أقنعه بالبقاء معي. لن يلومني على ذلك في المستقبل، ولكنّي أحتقر نفسي». شعرتُ بالارتياح قليلاً وأزحت جزءاً من ذلك الثقل عن صدري، حتى لو لم أعترف بالأمر سوى لجايكوب.

شخر، ففتحت عينيّ وأصابني الحزن عندما وجدتُ أنّه أعاد القناع القاسي إلى وجهه.

«لا أصدّق أنك استطعتِ إقناعه بعدم الذهاب. لا أتصوّر أن أتنازل عن الذهاب بأيّ ثمن».

تنهّدتُ، وقلت: «أعلم ذلك».

واستدرك قائلاً: «ولكن هذا لا يعني شيئاً...، لا يعني أنّه يحبّك أكثر منّي».

«ولكن أنتَ لن تبقى معي حتّى لو رجوتك».

زمّ شفتيه، فظننت أنّه سينفي ذلك برغم أنّ كلانا يعلم الحقيقة. لكنّه قال: «لأنّي أعرفك جيّداً. كلّ شيء سيمرّ من غير أن يصاب أحدٌ بأذى، لذلك حتّى لو سألتني وقلت كلاّ، لن تكوني غاضبة منّي في ما بعد».

«إن كان كلّ شيء سيمرّ من غير أن يصاب أحدٌ بأذى، لن أغضب منك. ولكن خلال غيابك يا جايكوب سأقلق كثيراً، سأجنّ».

«لماذا؟ هل ستحزنين لو أصابني مكروه؟».

«لا تقل هذا فأنتَ تعرف مكانتك عندي. أعتذر لأن عاطفتي نحوك

ليست بالطريقة التي تريدها، ولكنّك أعز صديق لي. على الأقلّ هكذا كنت، وهكذا لا تزال عندما تتصرّف على سجيّتك».

وابتسم ابتسامته التي أحبّها. «أنا صديقك دائماً، حتّى عندما لا أتصرّف كما يجب. . .، في داخلي سأبقى كما أنا».

«أعرف ذلك، وإلاّ لما كنت أتحمّل حماقتك».

وضحكنا. ثمّ عاد الحزن إلى عينيه: «متى ستكتشفين في داخلك أنّكِ تحبينني كما أحبّك؟».

«كم أنتَ ماهرٌ بإفساد الأجواء!».

«أنا لستُ مغفّلاً ولا أدّعي أنّك لا تحبينه، ولكن من الممكن أن تقعي بحبّ شخصين في الوقت نفسه يا بيلاّ. لا تستغربي. . . فقد سبق أن شاهدت بنفسي مثل هذه الحالة».

«أنا لستُ رجلاً ذئباً غريب الأطوار يا جايك!».

زمّ أنفه ولم يجب، فأردتُ الاعتذار عن تعبيري، لكنّه تحوّل إلى موضوع آخر.

«أشمّ رائحته، لقد اقتربنا من المكان».

أطلقت زفرة ارتياح، لكنّه أساء تفسيرها.

«كنتُ أتمنّى لو كان باستطاعتنا التمهّل، ولكنّ العاصفة تقترب ويجب أن تصلي إلى الخيمة بسرعة».

ونظرنا معاً إلى السماء.

كان جدارٌ من الغيوم الكثيفة الداكنة يغطّي السماء من جهة الغرب، ويحجب الغابة تحت رداءٍ أسود يتمدّد بحركة حثيثة نحونا.

«واو! أسرع يا جايك كي تتمكّن من العودة إلى البيت قبل وصول العاصفة».

«لن أعود إلى البيت».

نظرتُ إليه بتعجّب: «لن تبقى معنا في الخيمة طبعاً!؟».

«لا طبعاً، فأنا أفضّل البقاء خارجاً في العاصفة على الرائحة في داخل الخيمة. لكنّي سأسدي خدمة إلى صديقك مصّاص الدّماء وأبقى هنا من أجل متابعة التنسيق مع مجموعة الذئاب».

«كنتُ أظنّ أن سيث سيقوم بهذه المهمّة».

«سأوكلها إليه غداً، عندما أذهب إلى المعركة».

كلامه عن المعركة جعل موجة من القلق الشديد تعلو فجأةً في داخلي. فقلت:

«بما أنّك هنا، لا أظنّ أنّك ستقتنع منّي لو طلبتُ منك أن تعود إلى البيت ولا تشترك في المعركة. لكن لو رجوتك وتوسّلت إليك، أو وعدتك بتنفيذ كلّ طلباتك على مدى الحياة...؟».

«عرضٌ مغرٍ ولكنّه غير مجدٍ. ولكن...، جرّبي التوسّل، إبدئي!».

«هذا يعني أنّك لن تتراجع مهما طلبتُ منك ذلك؟».

«كلاّ، إلاّ إذا وعدتني بمعركة أهمّ! وفي كلّ الأحوال، يعود القرار في هذه الأمور إلى سام وليس إليّ».

ذكّرني كلامه بطرح السؤال.

«قال لي إدوارد شيئاً عنك...».

«قد يكون كلامه غير صحيح».

«إذاً لستَ في المركز الثاني بعد سام في قيادة المجموعة؟».

«كلّمك عن هذا الأمر!؟».

«لمَاذا لم تخبرني عن هذا الموضوع من قبل؟».

«لأنّه غير مهمّ!».

«ولكنّي أتساءل عن أسباب توزيع الأدوار بهذه الطريقة. كيف

وصل سام إلى المركز الأوّل وأنتَ إلى المركز الثاني؟».

«كان سام أوّل مَن تحوَّل إلى رجلٍ ذئب. لذلك كان من الطبيعي أن يكون في مركز القيادة».

«ولكن بول وغارد تحوَّلا قبل أن تتحوَّل أنت، فلمَ وجودك في المركز الثاني؟».

«حسناً، الأمور معقّدة بعض الشيء ومن الصعب تفسيرها».

«حاول».

«الأسباب تعود إلى الخطّ الوراثي. أمور تقليدية قديمة تتعلّق بمَن هو جدّك».

تذكّرت أمراً عرفته من جايكوب قبل أن يتحوَّل أحدٌ منهم إلى ذئب. فقلت: «ألم تقل لي مرّةً إن إفرايم بلايك كان آخر زعيم لقبيلة كويلوت؟».

«نعم لقد كان الزعيم والقائد. هل تعلمين أنّ سام هو بمثابة زعيم القبيلة الآن؟ تقاليد غريبة!».

فكّرت في كلّ تلك المعلومات خلال برهة، وقلت: «لقد قلت لي أيضاً ذات مرّة إنّ الجميع يطيعون ما يقوله والدك بشكل خاص، لكونه حفيد إفرايم».

«وأين الأهمية في ذلك؟».

«أستنتج من هنا أهميّة الخطّ الوراثي. إذاً، لماذا لا تكون أنتَ في مركز القيادة عوضاً عن سام؟».

لم يجب عن سؤالي، بل نظر إلى البعيد، وكأنّه يتأكّد من صحّة الاتجاه نحو مكان وجود إدوارد.

قلتُ: «جايك؟».

قال وعيناه مركزتان على الدرب أمامنا: «كلّا، هذا مركز سام».

«لماذا؟ أليس سام حفيد ليفي أولي؟ هل كان ليفي زعيماً أيضاً؟».

«ليس هناك سوى زعيم واحد».

«وفي أيّ مركزٍ كان ليفي؟».

«ربّما في المركز الثاني. . . مثلي الآن».

«هذا ليس منطقيّاً».

«لا يهمّ».

«أريد أن أستوضح الصورة فحسب».

التقت عيناه أخيراً بعينيّ المتسائلتين، وقال: «نعم، كان يجب أن أكون في القيادة».

قطّبت حاجبيّ وسألت: «هل رفض سام التنازل عن المركز؟».

«كلاّ، ليس بالتحديد، بل أنا لم أطلب منه ذلك».

قطّب حاجبيه، وقد أحرجته كثرة أسئلتي. فقلتُ في نفسي إنّ دوره قد حان الآن ليشعر بالإحراج.

«لم أرغب بشيء من هذا يا بيلاّ! لم أرغب في إحداث إيّ تغيير، ولا في أن أصبح زعيماً أسطوريّاً. كنتُ رافضاً واقع الرجال الذئاب كليّاً، فكيف تتوقّعين منّي أن أطمح إلى القيادة؟ سألني سام إن كنت أرغب في أن أكون القائد فرفضت».

لذتُ بالصمت خلال بضع دقائق، وعاد جايكوب لينظر إلى الغابة.

ثمّ قلت: «ظننتك تخطّيت الحزن، وتقبّلت هذا الواقع الآن».

ابتسم لي مطمئناً، وقال: «ليس الأمر غاية في الصعوبة، حتى أنّه ممتعٌ في بعض الأحيان، كما سيكون غداً مثلاً. في البدء، شعرتُ وكأنّي مجبر على خوض حرب لم يكن لديّ أيّ فكرة عنها. تعلمين أنّ ليس لدينا خيار. ولكنّي سعيد في خوضها الآن لكي ننتهي من الأمر ونرتاح. وهل من الممكن أن أثق بالآخرين للقيام بهذه المهمّة؟ من الأفضل أن أقوم بها بنفسي».

حدّقت في وجهه بإعجابٍ شديد. كان على مستوىً عالٍ من النضج لم أكن أتوقّعه. كما لم أكن أتوقّع ما اكتشفت لدى والده بيلي من عظمة في تلك الليلة خلال سهرة النار.

«أيّها الزعيم جايكوب!». وابتسمت لدى سماعي رنّة تلك العبارة وهي تخرج من فمي.

فنفخ متبرّماً.

في تلك الدقيقة، عصفت الريح بقوّة وحملت معها صقيعاً وثلجاً.

ضاعف جايكوب سرعة خطواته، وراح يقفز. أما أنا فتكوّمت بين ذراعيه وخبأت وجهي في حنايا صدره هرباً من الثلج المتساقط.

لم يمضِ وقت طويل حتى وصلنا إلى جانب من الصخرة محجوباً عن الرّيح، ورأيت الخيمة من بعيد، وإدوارد يسير أمامها ذهاباً وإياباً.

«بيلّا!»، صرخ إدوارد عندما لمحنا. وركض نحوي بسرعة البرق. صرّ جايكوب على أسنانه ممتعضاً، ثمّ أنزلني إلى الأرض. أما إدوارد فاندفع إليّ وشدّني إلى صدره.

ثمّ بادره متجاهلاً نفوره: «شكراً! استغرقت الرحلة وقتاً أقصر ممّا توقّعت. إنّي أقدّر مساعدتك كثيراً».

استدرت لأرى تجاوبه.

أجاب جايكوب بغير اكتراث، وتكلّم بنبرة بعيدة جدّاً عن الوديّة قائلاً: «خذها إلى الداخل، الطقس باردٌ جدّاً. هل الخيمة ثابتة؟».

«جدّاً. فعلت كلّ شيء ممكن، كنتُ سألحمها إلى الصخر لو استطعت!».

«جيّد».

رفع رأسه ونظر إلى السماء الداكنة، فاستقرّت على وجهه بعض نُدَف الثلج الطائرة، فارتجف أنفه.

«سأغيّر نفسي الآن. أريد أن أطّلع على الاستعدادات الجارية في لا بّوش».

علّق سترته على غصن شجرة منخفضة، وعاد إلى الغابة ولم ينظر إلى الوراء.

22

نار وثلج

هزّت الريح العاتية الخيمة مرّة جديدة وارتجفت معها من جديد.

استمرّت الحرارة في الانخفاض، وشعرت بالبرد وأنا متكوّمة داخل فراش الرّيش، على الرغم من المعطف السميك الذي كنتُ أرتديه، والحذاء الطويل الذي لم أخلعه. ما هذا البرد القارس؟ ومتى ستستقرّ الحرارة على درجة معيّنة؟

«ك-ك-ك-ك كم الس- الس- الس الساعة؟». بصعوبة استطعت النطق بهذه الكلمات متغلّبة على طقطقة أسناني.

«الساعة الآن الثانية».

جلس إدوارد في زاوية ذلك المكان الضيّق، محاولاً الابتعاد عنّي ما استطاع، خوفاً من أن تزيد أنفاسه الباردة برداً إضافيّاً على البرد الذي كنتُ أشعر به. لم أستطع رؤية وجهه في الظلام الدامس، لكنّ صوته كان يحمل قلقاً وحيرةً وغضباً.

قال: «ربّما من الأفضل...».

«لا، أنا بخ-خ-خ-ير، لا أر- أر- أريد الخروج».

حاول إقناعي بالخروج والرّكض قليلاً من أجل المحافظة على حرارة جسمي، لكنّني رفضت خوفاً من التعرّض للريح في الخارج. وفضّلت البقاء حيث أنا وتحمّل الارتجاف وطقطقة الأسنان طيلة اللّيل.

كنت قلقة بشأن ضياع الرائحة التي تعمّدت تركها في مهبّ الريح، فقال إنّ أثري سيبقى وسيلاحظه المتوحشون الجدد من دون ريبة.

«كيف يمكنني مساعدتك؟». قال إدوارد بما يشبه التوسّل.

لم أقوَ على الإجابة واكتفيت بهزّ رأسي.

كان جايكوب يئنّ خارج الخيمة.

تأتأت بإصرار: «إذ- إذ- إذهب من هنا».

قال إدوارد: «إنّه قلقٌ بشأنك، لكنّه بخير فجسده معدّ لتحمّل هذه الدرجات المنخفضة من الصقيع».

«لا-لا-لا». أردت أن أعبّر عن رغبتي في أن يذهب بعيداً، لكنّي لم أتوصّل إلى إخراج الكلمات من بين أسناني فأوشكت على عضّ لساني. وفكّرت أنّ باستطاعة جايكوب تحمّل البرد أكثر من رفاقه بفضل فرائه النحاسي اللّون الكثيف والطويل والأشعث. فتساءلت لمَ هذا الفرق بينه وبين الآخرين في المجموعة يا تُرى؟

ثمّ سمعته يصدر همهمةً عالية كأنّها اعتراض.

«ماذا تريدني أن أفعل؟». أجاب إدوارد غاضباً. «لمَ لا تقوم أنتَ بعملٍ مفيد وتحضر مدفأة من مكانٍ ما؟».

«أنا بخ-بخ-بخير». قلت لكنّي استنتجت أنّهما لم يقتنعا بذلك، وما زالا يهمهمان ويدمدمان. هبّت الريح واهتزّت الخيمة واهتزّت معها أوصالي.

وفجأةً ارتفع عواءٌ اخترق صخب الريح. فسارعت إلى سدّ أذنيّ، وهدر إدوارد مستاءً. ثمّ قال:

«هذا ليس ضرورياً، وفكرتك ليست جيّدة على الاطلاق».

«أفضل من كلّ أفكارك». أجاب جايكوب، وروّعني فجأةً صوته. فاستنتجت أنّه عاد إلى شكله الانساني في تلك اللّحظة، ثمّ أكمل متوجّهاً

إلى إدوارد: «إذهب وأحضر لها مدفأة بنفسك».

وسمعت صوت السحّاب حول باب الخيمة ينفتح بسرعة.

دخل جايكوب ودخلت معه كميّة من الهواء القطبي ونُدَفٌ من الثلج سقطت فوق أرض الخيمة. ارتجفت بقوّة وتحوّل ارتجافي إلى نوبة تشنّج.

«لا أوافق على ما تقوم به. أعطِها السترة وانصرف». كانت عيناي قد تعوّدتا على الظلام، فاستطعت أن أرى جايكوب والسترة التي كانت معلّقة على الشجرة في يده.

حاولت الاستفهام عن موضوع حديثهم، لكنّي لم أستطع أن أخرج من فمي سوى بعض الحروف غير المفهومة...

رمى السترة من يده بقرب الباب، وقال: «سترتدي هذه السترة غداً، فهي الآن باردة جدّاً ولا تفيدها بشيء. قلتَ إنّ بيلاّ بحاجة إلى مدفأة، وها أنا ذا!». وقف جايكوب فاتحاً ذراعيه بالقدر الذي سمحت به مساحة الخيمة. وكان كعادته قبيل أو بعد التحوّل إلى ذئب، عاري الصدر وحافي القدمين، لا يرتدي سوى سرواله الأسود القطني.

فقلتُ له: «ج-ج-ج-ايك، قد تتجم-م-مد من البرد».

«إني آخر من يتجمّد من البرد. سأجعل حرارة جسدك ترتفع في وقتٍ قصير».

زمجر إدوارد معبّراً عن غضبه، لكنّ جايكوب تجاهله كليّاً، وتقدّم على ركبتيه نحوي لِيَفْتَحَ سحّاب فراشي.

وفجأةً، أمسكت يد إدوارد البيضاء كالثلج بكتف جايكوب السمراء بقوّةٍ رادعة، فاشتدّت عضلات هذا الأخير في ردّ فعلٍ تلقائي، وتقلّص حنكه واهتزّ أنفه، وقال زاجراً:

«إرفع يدك عنّي».

وأجاب إدوارد بصوتٍ كئيب: «لا تلمسها بيدك!».

«لا تت-تت-تت-قاتلا»، رجوتُهما وهزّني البرد من جديد، حتى كادت أسناني تسقط لشدّة اصطكاكها ببعضها.

«لن تشكرك بيلاّ على هذا التصرّف، لو تجلّدت أصابع قدميها واسودّت وانكسرت».

تردّد إدوارد قليلاً ثمّ رفع يده عن كتف جايكوب، وانسحب عائداً إلى مكانه في زاوية الخيمة.

وما لبث أن تكلّم بصوتٍ حانق ومخيف: «انتبه إلى سلوكك!».

ضحك جايكوب بصوتٍ خافت.

«افسحي لي مكاناً إلى جانبك يا بيلاّ». وما لبث أن فتح سحّاب الفراش.

نظرتُ إليه وشعرت بالإهانة، وتفهّمت تصرّف إدوارد في تلك اللّحظة.

«ك-ك-ك-كلاّ!». صرختُ رافضة دخوله إلى الفراش.

فقال بعد أن ضاق ذرعاً: «كفّي عن الحماقة، ألا يهمّك الاحتفاظ بأصابع قدميك؟».

وتكوّم في المساحة القليلة جدّاً، ثمّ أغلق سحّاب الفراش بصعوبة.

بعد ذلك، وعندما شعرتُ بحرارة جسده، التصقتُ به بملء إرادتي، وكتمت لساني عن الاعتراض. عقد ذراعيه حولي وشدّني بحنان إلى صدره العاري. شعرتُ بسعادة لا توصف تشبه فرح من يتنشّق الهواء فجأةً بعد احتباسٍ طويل تحت سطح الماء.

تكمّشت به فانقبض لبرودة أصابعي واندفع شاكياً: «ززز. . . بيلاّ، إنّك باردة كالثلج».

فقلتُ متأتئة: «آس-س-ف-فة».

وبعد دقيقة اخترقت رجفة قويّة جميع أوصالي، فقال: «حاولي

الاسترخاء، وستشعرين بالدفء خلال لحظات، ولكن لو خلعت ثيابك فسيتمّ ذلك بسرعةٍ أكبر».

همهم إدوارد من مكانه زاجراً.

أجاب جايكوب مدافعاً عن نفسه: «أنا لا أقصد سوى الحقيقة العلمية. إنّها إحدى قواعد الإسعافات الأوّلية!».

قلتُ غاضبة: «توقّف عن الثرثرة يا جايك. لا-لا-لا، أنا لست بحا-حاجة إلى كلّ أصابع قدمي...»، ولكنّ جسدي رفض حتى محاولة الابتعاد عنه.

أجابني بنبرةٍ دافئة: «لا تقلقي بشأن مصّاص الدماء فهو يشعر بالغيرة».

«إنّي أشعر بالغيرة طبعاً». قال إدوارد بصوته المخمليّ، فاستنتجت أنّه استعاد هدوءه. وتابع: «لا يمكنكَ أن تتصوّر كم أتمنّى لو كان باستطاعتي القيام بما تقوم به أنت لمساعدتها، أيّها المهجّن».

«إنّها ليست أكثر من فرصة نادرة أتيحت لي». قال جايكوب، ثمّ أكمل بمرارة: «أنتَ تعلم على الأقلّ أنها تتمنّى لو كنتَ أنت بقربها في هذه اللّحظة».

كنت أستمع إلى الحوار وأشعر بالدفء يسري في عروقي وبنوبة الارتجاف من البرد تتراجع.

سألني جايكوب: «هل تشعرين بتحسّن؟».

أجبتُ ومن دون تأتأة: «نعم».

«لا زالت شفتاك زرقاوين. هل ترغبين في تدفئتهما أيضاً، ما عليك سوى السؤال؟».

من مكانه، أطلق إدوارد زفرةً مسموعة.

«راقب سلوكك». تمتمت وأنا أضغط بوجهي على كتفه.

انتشر الدفء من جسد جايكوب الضخم في كلّ أنحاء الفراش، فخلعت حذائي وألصقت أصابع قدميّ بساقيه فانتفض قليلاً بسبب برودتها، لكنّه عاد وحنى رأسه وضغط بخدّه الدافئ على أذني الخدرة.

لم تزعجني رائحة جسد جايكوب، بل على العكس، فقد ذكّرتني بعطر الأشجار الصنوبرية، منسجمةً في تلك اللّيلة مع وجودنا في وسط الغابة. ففكّرت في إمكانية أن تكون مسألة الرائحة المنفّرة بين الكويلوت وعائلة كولن جزءاً من الأحكام المسبقة التي يطلقها كلّ منهما على الآخر؛ من جهتي كنت أتقبّل الرائحتين بشكلٍ طبيعي.

زمجرت الريح كوحش ضار، فاهتزّت الخيمة ولكنّي لم أعبأ بها، فقد أصبح جايكوب في الداخل، وإلى جانبه كنت أنعم بالدفء. كنت بحالة من الإرهاق لا تسمح لي بالتفكير بأيّ أمرٍ آخر. فقد أتعبني طول السهر، إضافةً إلى الوهن الذي أصاب جميع عضلاتي من كثرة الانقباض والارتجاف. أخذت أشعر بالارتياح بشكلٍ تدريجي حتى انتقل جسدي إلى حالة من الارتخاء العام.

قلتُ بكسل: «جايك، هل تجيبني على سؤال سأطرحه عليك من باب الفضوليّة فحسب؟». تلفّظت بالعبارة ذاتها التي استعملها عندما طرح عليّ بعض الأسئلة المحرجة في المطبخ، يوم جاء ليتعرّف إلى رائحة الزائر الغريب...

«طبعاً»، وضحك وهو يتذكّر.

«لـمَ فراؤك مختلف عن فراء رفاقك؟ ويمكنك عدم الاجابة إن وجدتَ سؤالي غير لائق». لم أكن على اطّلاع على قواعد التهذيب المتّبعة في ثقافة الرّجال الذئاب.

أجاب بمرح فارتحت لكونه لم ينزعج: «لأنّ شعري أطول». وهزّ رأسه، فدغدغت خصلات شعره خدّي.

«أوه!». لقد فاجأني جوابه ولكنّه أقنعني، وخصوصاً عندما تذكّرت

كيف قام معظمهم بقصّ شعورهم في بداية عهد انضمامهم إلى المجموعة. ثمّ قلت: «ولماذا لا تقصّه؟ هل تفضّل أن يكون فراؤك طويلاً وأشعث؟».

هذه المرّة، لم أسمع جوابه في الحال، بل لاحظت ضحكة إدوارد المكبوتة.

قلت: «آسفة، لا أقصد التدخّل في شؤونك الخاصّة». توقّفت عن الكلام لأتثاءب، ثمّ أكملت: «ليس ضرورياً أن تخبرني عن السبب».

تململ جايكوب، وقال: «أعلم أنّه سيخبرك لاحقاً، فلماذا لا أخبرك بنفسي. . . ، لم أقصّ شعري لاعتقادي أنّك تفضلينه طويلاً».

شعرتُ بإحراجٍ شديد، وقلت: «أوه، أنا أحبّه في الحالتين يا جايك، لا داعي لأنَ. . . تتقيّد بهذا الأمر».

ضحك وقال: «في الحقيقة، لقد كان مفيداً جدّاً اللّيلة. لذا، لا تقلقي بشأن ذلك».

لم يعد لديّ ما أقوله، فلزمت الصمت وشعرت بثقل أجفاني، فأغلقت عينيّ وتتابعت أنفاسي بانتظام رتيب.

فسمعت جايكوب يهمس في أذني: «حسناً يا حبيبتي، نامي وارتاحي».

تنهّدت باطمئنان بين اليقظة والنّوم.

«لقد جاء سيث». قال إدوارد بصوتٍ خافت.

«عظيم، يمكنك الآن الاهتمام بجميع الأمور فيما أنا أهتمّ براحة بيلا».

لم ينبس إدوارد بكلمة، لكنّي قلت مغمغمة: «توقّف يا جايك عن إثارة المشاكل».

ساد الهدوء في داخل الخيمة بعد ذلك، لكنّ الرّيح ما انفكّت

تجول وتصول في الخارج فتصفر بين الأشجار، وتدفع بالخيمة هزّاً وزعزعةً. وبرغم النعاس الذي كاد يسرقني من عالم اليقظة، راحت الريح توقظني كلّما أصبحت على شفا الغوص في عالم النوم العميق. وشعرتُ بالشفقة على الصبي الذئب الذي كان رابضاً في الخارج وسط العاصفة.

وراحت الأفكار تحملني من مكانٍ إلى آخر فتذكّرت أيّام كان جايكوب شمس حياتي في غياب إدوارد. لقد مدّ لي يد العون في ذلك الوقت، ولولا وجوده إلى جانبي لما بقيت حيّة حتّى الآن. . .، كان دائماً مصدر الدفء والحنان. لم أفكّر به بهذه الطريقة منذ زمن، وها هو الآن ينقذني بدفئه من جديد.

«هس! أرجوك!». همس إدوارد. «أيمكنك أن. . .؟».

«ماذا؟». قال جايكوب متفاجئاً.

فتمتم إدوارد متذمّراً: «أرجو أن تحاول السيطرة على أفكارك».

«ولِمَ لا تقلع عن الاستماع؟». دمدم جايكوب بنبرة التحدي التي لم تُخْفِ شعوره بالإحراج. «أرجو أن تخرج من رأسي».

«أتمنّى لو كنتُ أستطيع. لا تتصوّر بأيّ درجة من الصخب تقتحم تخيلاتك ونزواتك رأسي. إنّها تأتي إليّ وكأنّها صراخٌ في أذني».

«سأحاول ألاّ أرفع الصوت». همس جايكوب ساخراً.

وصمتَ الاثنان خلال لحظات.

ثمّ أجاب إدوارد بصوتٍ خافت عن سؤال طرحه عليه جايكوب من غير كلام: «نعم! أنا أغار بسبب ذلك أيضاً».

«تصوّرت ذلك، وهذا يخلق بعض التكافؤ في الفرص إلى حدٍّ ما». أجاب جايكوب مفتخراً.

قال إدوارد: «لا تحلم بذلك».

«ما زال هناك احتمال أن تغيّر رأيها، وأنتَ تعلم ذلك. خصوصاً، إن أخذت في الاعتبار كلّ ما يمكنني تقديمه لها ويتعذّر عليك، من دون أن تعرّض حياتها للخطر».

«اخلد إلى النوم يا جايكوب، إنّك تستفزّني».

«سأنام لأنّي في الحقيقة مرتاحٌ جدّاً».

لم يجب إدوارد. ولم أشعر بامتلاك الطاقة الكافية في تلك الساعة كي أطلب منهما التوقّف عن الكلام عنّي وكأنّي غير موجودة. كنت بين اليقظة والنوم، فوصلت همساتهما إلى أذنيّ في مراكب الأحلام تارةً، والحقيقة تارةً أخرى.

«ربّما أفعل». قال إدوارد مجيباً عن سؤالٍ لم أسمعه.

«وهل ستكون صادقاً؟».

«يمكنك أن تسأل وترى». لهجة إدوارد كانت فكاهيّة بعض الشيء.

فقال جايكوب: «حسناً، العدل يقضي بأن أعلم ما يدور في رأسك، كما تعلم ما يدور في رأسي».

«هناك زحمة أسئلة في رأسك، على أيّ منها تريدني أن أجيب؟».

«عن الشعور بالغيرة...، لا بدّ أنّه يتآكلك. لا يمكن أن تكون حقّاً بهذا الهدوء الذي تتظاهر به إلاّ إن كنت خالياً من المشاعر!».

«بالتأكيد، أنا أعاني من الغيرة الشديدة وبصعوبة أن أتحكّم بهدوئي في هذه اللّحظة. حتّى إنّ هذا الشعور يتفاقم عندما تكون معك بعيدةً عنّي، حيث لا أتمكّن من رؤيتها».

«هل تفكّر بهذا الأمر كثيراً؟ وهل يصعب عليك التركيز عندما لا تكون معك؟»، همس جايكوب.

«نعم وكلاّ». أجاب إدوارد مبدياً استعداده للإجابة بصدق. «الأسلوب الذي يعمل به فكري مختلف عنك، إذ يمكنني التفكير بعدد

أكبر من الأمور في وقتٍ واحد. أعني أنّي قادر على التفكير بك دائماً، وأتساءل عندما يغلب على بيلاّ الصمت أو الشرود وهي إلى جانبي، إن كان تفكيرها يسبح في اتجاهك».

مرّت لحظات من الصمت بينهما.

وعاد إدوارد ليقول: «نعم، أعتقد أنّها تفكّر بك في كثير من الأحيان، وهذا يزعجني. إنّها تخاف عليك ألاّ تكون سعيداً. أعلم أنّك على معرفة أكيدة بذلك، وتستفيد من هذا الأمر...».

«أستفيد من كلّ ما يتاح لي، ولا أنفي الواقع الذي يصبّ في مصلحتك... مثل حبّها الصريح لك».

«هذا مطمئن».

ولكن جايكوب استدرك متحدّياً: «لكنّها تحبّني أيضاً، وأنتَ تعرف ذلك».

لزم إدوارد الصمت ولم يجب.

تنهّد جايكوب مضيفاً: «لكنّها تجهل ذلك».

قال إدوارد: «لا يمكنني التأكيد إن كنتَ على حقّ».

«هل يزعجك ذلك؟ هل تتمنّى لو تعلم ما يجول في خاطرها؟».

«من جهة، يزعجني أحياناً ذلك إلى حدّ الجنون، ولكنّه لا يزعجني من جهة أخرى لأنّي أعلم أنّها تفضّل ألاّ أطّلع على كل ما يدور في رأسها، وأنا أريدها أن تبقى راضية وسعيدة».

عصفت الريح حول الخيمة فجأةً وهزّتها كما الزلزال...، وبصورة تلقائية شدّ جايكوب ذراعيه حولي ليحميني.

فهمس إدوارد: «شكراً لك يا جايكوب. قد تستغرب ما أقول، لكنّي سعيدٌ بوجودك هنا».

فقال جايكوب: «بعبارةٍ أخرى، أنتَ تقول ما معناه: بقدر ما أرغب

في قتلك. . . أنا سعيد بأنّها تشعر بالدفء، أليس كذلك؟».

«إنّها هدنة غير مريحة، ألا ترى ذلك؟».

همس جايكوب عندئذٍ بلهجةٍ واثقة: «كنتُ أعرف أنّك تكاد تموت من الغيرة مثلي».

«ولكنّي لا أتصرّف بحماقة مثلك، وأظهر غيرتي بشكلٍ فاضح كما تفعل أنت، لأنّ ذلك لا يفيد».

«أنتَ قادرٌ على الصبر أكثر منّي».

«هذا طبيعي. لديّ خبرة مئة عام. لقد انتظرت مئة عام قبل أن أجدها».

«ومتى قرّرت أن تلعب دور الشابّ الصبور والحكيم؟». سأل جايكوب.

«عندما رأيت أنّ مسألة الاختيار تعذّبها. ليس من الصعب عليّ تمالك أعصابي، والتخفيف من حدّة العواطف غير الحضارية التي قد أشعر بها نحوك. أحسّ في بعض الأحيان أنّها على معرفة تامّة بأفكاري ومشاعري، لكنّي لستُ متأكّداً من ذلك».

«أعتقد أنّك لا تريد أن تدفعها إلى الاختيار خوفاً من أن تختارني أنا».

صمت إدوارد قليلاً، ثمّ قال: «أنتَ على حقّ، ولكن إلى درجة محدودة، فكلّنا يعاني من ضعف الثقة أحياناً. ولكنّي اتخذت موقفاً معتدلاً بما يخصّ لقاءاتها بك، لأنّي خفت من أن يدفعها تشدّدي إلى الذهاب لرؤيتك خفيةً وتعريض نفسها للخطر. وهذا بعد أن اقتنعت بأنّها ستكون إلى حدٍّ ما بأمان معك. لم أعد أجد من مبرّر لشدّ الخناق عليها ودفعها إلى التطرّف».

«قد أحاول إخبارها بكلّ ما قلته لي، ولكنّها لن تصدّقني».

«أعلم ذلك!» وشعرتُ كأنّ إدوارد يبتسم.

«تظنّ أنّك تعرف كلّ شيء!؟». تمتم جايكوب.

«أعجز عن رؤية المستقبل». أجاب إدوارد بصوتٍ مضطرب.

وانقطع الحوار خلال بضع لحظات.

وسأل جايكوب: «ماذا ستفعل لو غيّرت رأيها؟».

«ليس لديّ فكرة».

وبنبرة لا تخلو من السخرية والاستفزاز، وكأنّه يشكّك في قدرة إدوارد، قال جايكوب: «هل تحاول قتلي؟».

«كلّا!».

«ولِمَ لا؟».

أجاب إدوارد: «هل تظنّ أنّي قادرٌ على أذيتها بهذا الشكل؟».

وبعد قليل من التردّد، قال جايكوب: «أفهم ذلك، وأنتَ على حقّ. إنّك على حقّ، ولكن. . .، هذا الأمر مدعاة للحيرة».

شدّ جايكوب الغطاء على فمه ليخفي ضحكته، ليضيف أخيراً: «بكل تأكيد».

ما هذا الحلم الغريب. . .، هل كنت أتخيّل ذلك الهمس بسبب صوت الرّيح. . .، لكنّ صوت الرّيح كان عالياً ولم يكن همساً.

«كيف كان شعورك عندما ابتعدتَ عنها واعتقدتَ أنّك خسرتها للأبد. . .، كيف تحمّلت ذلك؟». سأل جايكوب بنبرةٍ جديّة.

«صعبٌ عليّ التحدّث عن هذا الأمر».

سكت جايكوب في انتظار الجواب.

«اعتقدتُ مرّتين أنّي خسرتها. تكلّم إدوارد ببطء. «المرّة الأولى، عندما ظننتُ أنّ بإمكاني أن أتركها. . .، وكان الأمر محمولاً إلى حدٍّ ما. إذ اعتقدت أنها سوف تنساني ويختفي أثري من حياتها. استطعت أن أبقى بعيداً لمدّة ستة أشهر من دون أن أتدخّل في حياتها. كادت خطّتي تنجح. كنت أصارع نفسي ولكن في أعماقي كنت أشعر بأنّي لن أقوى

على ذلك. كنتُ سأعود لكي أطمئن عنها. . .، وإن وجدتها بخير، كنت سأعود من حيث أتيت. هذا ما كنت أقوله لنفسي على الأقلّ.

لكنّها لم تكن بخير. وهذا ما كان سيجبرني على البقاء. وهذا بالضبط ما أقنعني بالبقاء إلى جانبها غداً. كنتَ تتساءل في نفسكَ منذ بعض الوقت عن السبب الحقيقي الذي دفعني إلى اتخاذ هذا القرار، وعن سبب شعورها غير المبرّر بالذنب. السبب الحقيقي هو أنّها ذكّرتني بما لحق بها من عذاب عندما ابتعدت عنها، وبالعذاب الذي قد تقاسيه إن ابتعدتُ عنها مجدّداً. وهي تشعر بالذنب عندما تضطر إلى تذكيري بتلك المرحلة، ولكنّها على حقّ. أشعر بأنّي عاجزٌ عن تعويضها عن الأذى الذي لحقها بسببي، ولكنّي لن أتوقّف في حياتي عن محاولاتي في سبيل ذلك».

بقي جايكوب صامتاً. ولم أعلم سبب صمته. هل كان يصغي إلى صفير العاصفة، أم يحاول استيعاب ما تفوّه به إدوارد؟

ولكنّه ما لبث أن همس: «وماذا عن المرّة الثانية، عندما اعتقدت أنّها ماتت؟».

لكنّ إدوارد أجاب عن سؤالٍ آخر: «تتوقّع أنّها لن تبقى هي نفسها لأنّك تنظر إلينا من هذا المنظار. لكنّها ستبقى بيلاّ نفسها».

«لم تجب عن سؤالي».

عاد صوت إدوارد بقوّة وبسرعة: «لا يمكنني أن أصف لك ذلك الشعور. تعجز الكلمات عن التعبير».

شدّ جايكوب ذراعيه حولي، وقال: «لكنّك غادرت لأنّك لا تريدها أن تتحوّل إلى مصّاص دماء. تريدها أن تبقى إنساناً».

تكلّم إدوارد برويّة: «اسمع يا جايكوب، منذ اللّحظة التي اكتشفت فيها أنّي أحبّ بيلاّ، علمت أنّ هناك أربعة خيارات. أوّلها، وهو الأفضل لبيلاّ، ويقتضي أن تتخطّى حبّها لي وتنساني، وتكمل حياتها الطبيعية،

مع أنّ شعوري نحوها لن يتغيّر أبداً. أنتَ... تعتبرني صخرة قاسية وباردة. هذا صحيح... نحن نبقى كما نحن ولا نتغيّر بسهولة. لكن عندما يطرأ أيّ تغيير على حياتنا، كدخول بيلاّ إلى حياتي مثلاً...، يكون التغيير أبديّاً، ولا عودة عنه.

والخيار الثاني هو أن أبقى إلى جانبها مع المحافظة عليها كإنسان. ليس هذا الخيار صالحاً لها لأنّه سيحرمها من أن تعيش حياتها بطريقة طبيعية، لكنّه سهلٌ بالنسبة لي. فكّرت أن أرافق بيلاّ خلال سنين عمرها، ستين أو سبعين عاماً...، وبعد ذلك ألجأ إلى طريقة ما كي أضع حدّاً لحياتي أنا أيضاً. ولكنّ قربها من مصّاصي الدماء يعرّضها إلى كثير من الأخطار التي أخذت تلوح فوق رأسها منذ البداية، وهي تهدّد حياتها في كلّ لحظة.

أما الخيار الثالث، فهو الذي اخترته، واقترفت بذلك خطأً لم أقترف بمثل فداحته طيلة الدهر الذي عشته. كما تعلم، فقد اخترت أن أنسحب من حياتها وأفرض عليها الابتعاد عنّي. وهذا يعني أنّي أردت أن أفرض عليها الخيار الأول قسراً. لم أنجح بما قمتُ به وكاد ذلك يتسبّب بموتها وموتي.

وهكذا لم يبقَ أمامي سوى الخيار الرابع. هذا ما تريد، أو على الأقل ما تظنّ أنها تريد. حاولت تأخير الموعد لأعطيها الفرصة، فربّما تغيّر رأيها. لكنّها عنيدة جدّاً وأنتَ تعلم ذلك. أتمنّى أن أنجح في إقناعها بالانتظار بضعة أشهر إضافيّة، لكنّها تخاف كثيراً من التقدّم في السنّ، وعيد ميلادها في شهر أيلول...».

«أميل إلى الخيار الأوّل». دمدمَ جايكوب.

ولكنّ إدوارد لم يُجب.

أكمل جايكوب: «أنتَ تعلم كم أكره الاعتراف بذلك، لكنّي اقتنعت أنّك تحبّها على طريقتك، ولن أناقش هذا الأمر بعد الآن.

ولهذا، لا أشجّعك على التنازل عن الخيار الأول. أعتقد أنّه كان هناك احتمال كبير في أن تكون بخير. . .، لو لم تقفز عن الصخرة في شهر آذار. . .، ولو تأخرتَ أنتَ عن المجيء ستة أشهر أخرى، لما كانت هناك مشكلة الآن بحسب اعتقادي، لأنّي كنت أيضاً أخطّط لأمرٍ ما لأجل إنقاذها».

«أقرّ أنّ خطّتك كانت مدروسة بشكلٍ جيّد، وكان بإمكانها أن تنجح».

أطلق جايك زفرةً، وفجأةً انطلقت الكلمات من فمه بسرعة وكأنّها كادت ترتطم وتتشابك ببعضها. «أعطني سنة يا مصّ. . .، يا إدوارد. أنا على يقين من قدرتي على إسعادها. إنّها عنيدة، ولا أحد يعرف ذلك أكثر منّي، ولكنّها قابلة للشفاء. حتّى إنّها كانت على وشك الشفاء سابقاً. وهكذا ستبقى إنساناً وتعيش بقرب والديها، وتكبر سنّاً وترزق بأطفال، ستكون بيلاّ الحقيقية.

بفضل حبّك لها ستقتنع بحسنات هذا الخيار. بيلاّ تعتقد أنّك بعيد عن الأنانية، هل أنتَ حقّاً كذلك؟ هل تتقبّل فكرة أنّي الأصلح بالنسبة إلى مستقبلها منك؟».

أجاب إدوارد بهدوء: «لقد فكّرت بالأمر، وأظنّ أنّك أفضل بالنسبة إليها من بقيّة الآدميين، إذ باستطاعتك حمايتها من نفسها، ومن كلّ ما يتربّص بها من أخطار. لقد برهنتَ على ذلك وأنا مدينٌ لك، وسأبقى مديناً لك إلى الأبد.

حتّى أنّي سألت آليس إن كان بإمكانها رؤية هذا الأمر في المستقبل. لكنّها لا تستطيع لأنّها لا تتمكّن من رؤيتك طبعاً، وبيلاّ مصمّمة على قرارها في الوقت الحاضر. ولكنّي لن أقع في الخطأ الذي وقعتُ به في السابق. لن أجبرها على قبول الخيار الأول. سأبقى بجانبها ما دامت تريدني أن أبقى».

«وإن قرَّرَت أنّها تريدني؟». سأل جايكوب متحدّياً.

قال إدوارد: «سأتنازل عنها».

«بهذه البساطة؟».

«نعم، لأنّي لا أريدها أن تعرف مدى معاناتي بسبب فراقها. ولكنّي سأراقبكما خوفاً من أن يأتي يومٌ وتتركها مجبراً، كما فعل سام بحبيبته السابقة عندما التقى بإميلي. سأكون منتظراً، ولا أخفيك بأنّي سأراقب ما يحصل على أمل في أن يحدث هذا الأمر».

وبهدوء قال جايكوب: «أشكرك يا إدوارد على صراحتك وصدقك».

«كما قلتُ لك، أنا سعيدٌ بوجودك في حياتها هذه اللّيلة، ومصارحتك بما يدور في رأسي من أفكار هي أقلّ واجباتي. في الحقيقة، لو لم نكن عدوَّين تقليديين، ولو أنّك لستَ من يسعى إلى سرقة حبيبتي التي هي أهمّ ما في وجودي، لوجدتك لطيفاً ومحبّباً».

«ربّما...، لو لم تكن مصّاص الدّماء المقيت الذي كان يخطّط لامتصاص الحياة من جسد حبيبتي، لا...حتى لو لم تكن كذلك...، فمن الصعب أن أحبّك».

قال إدوارد: «أودّ أن أطرح عليك سؤالاً».

«ولمَ السؤال؟».

«لا يصلني تلقائيّاً من أفكارك سوى ما تفكّر به في اللّحظة الحاضرة. أمّا سؤالي فهو عن قصّة رفضت بيلاّ أن تطلعني عليها. حكاية تدور حول شخصيّات مثل...الزوجة الثالثة؟!».

«ماذا عنها؟».

«صَمَتَ إدوارد، وراح يستمع إلى القصّة من خلال أفكار جايكوب الصامتة». ثم سمعتُ هسيساً خافتاً يصدر عنه.

«ماذا؟». سأله جايكوب مجدّداً.

«بالطبع!». قال إدوارد بنبرة غاضبة. «بالطّبع، كنت أودّ لو احتفظ شيوخكم بهذه القصّة لأنفسهم».

«أنتَ ترفض أن يظهر مصّاصو الدماء بمظهرٍ شرير، لكنّهم أشرار وأنت تعرف ذلك. كانوا كذلك وما زالوا».

قال إدوارد: «لا يهمّني ذلك الوجه من القصّة. لم يخطر في بالك بالطبع أن بيلاّ ستشبّه نفسها يوماً ما بالزوجة الثالثة...، إنّها تريد أن تكون في أرض المعركة غداً لكي تسهم في الدفاع على طريقتها. لذلك أيضاً، قرّرت البقاء معها غداً».

قال جايكوب: «تذكّر أن أخاك العسكري أوحى إليها بهذه الفكرة، تماماً كما فعلت القصّة؟».

«حسناً». قال إدوارد. «لم تتعمّد أيّ من الجهتين الإيحاء بهذه الفكرة إلى بيلاّ. لذلك لن نحمّل أحداً مسؤوليّة ذلك، ولنعد إلى أجواء السلام بيننا».

وسأل جايكوب: «ومتى ستنتهي هذه الهدنة بيننا؟ عند الفجر، أم ننتظر إلى ما بعد المعركة؟».

صمت الاثنان من أجل التفكير.

«عند الفجر». همسا معاً. وما لبث الاثنان أن ضحكا بهدوء.

«نوماً هنيئاً يا جايكوب!». تمتم إدوارد. «استمتع باللّحظة الحاضرة».

هدأ الجوّ، وكأنّ العاصفة قرّرت الهدوء أيضاً، وتراجعت عن هجومها.

واستدرك إدوارد كلامه مدمدماً: «لم أعنِ ما قلته بالضبط».

فهمس جايكوب: «آسف، ولكن يمكنك الانصراف...، نحتاج إلى الخصوصيّة».

«هل تقبل منّي أن أساعدك لكي تنام؟».

«يمكنك أن تحاول. وسنرى مدى نجاحك». قال جايكوب بغير اهتمام.

«لا تبالغ في استفزازي، فقد ينفد صبري أيّها الذئب».

ضحك جايكوب بهمس: «أفضّل عدم التحرّك من مكاني الآن...، من فضلك».

وفي محاولة لتغيير مجرى أفكار جايكوب، بحسب اعتقادي، راح إدوارد يدندن الترنيمة التي تعوّد أن يردّدها لكي أنام، ولكن بصوتٍ أعلى. وبرغم انزعاجي من ذلك الحلم الهامس، استغرقت في نومٍ عميق...، في أحلام أخرى أكثر واقعيّة...

23

وحش

استيقظت في الصباح وكان نور الشمس قد ملأ الخيمة. أمّا شخير جايكوب الخفيف فهو في أذني، وذراعاه معقودتان حولي.

رفعتُ رأسي قليلاً عن صدره الدافئ، فلفح برد الصباح خدّي المتعرّق. تنهّد جايكوب في نومه، وأحكم بحركة غير واعية ذراعيه حولي.

حاولت التخلّص من ذلك الوضع المربك فلم أستطع، حتى أنّي لم أتمكّن من رفع رأسي قليلاً لأنظر حولي...

والتقت عيناي بعينيّ إدوارد. كانت ملامح وجهه هادئة، أمّا الألم فكان واضحاً في عينيه.

فهمستُ بالسؤال: «هل ارتفعت الحرارة قليلاً في الخارج؟».

«نعم، ولا أتوقّع أن تحتاجي إلى مدفأة اليوم».

حاولت أن أفتح سحاب الفراش، لكنّي لم أستطع الإفلات من قوّة جايكوب الثابتة فوقي.

«هل تساعدني؟». قلتُ لإدوارد بصوتٍ هادئ.

فأجاب مبتسماً: «أتريدين منّي أن أقتلع ذراعيه كليّاً؟».

«كلاّ، بل ساعدني لكي أتمكّن من النهوض، قبل أن أصاب بعارض صحّي من شدّة الدفء».

فتح إدوارد الفراش بحركة سريعة وعنيفة، فانقلب جايكوب على ظهره ووقع على أرض الخيمة الباردة.

فتح عينيه حالاً واعترض شاكياً: «لماذا؟». وبحركة هروب من البرد تلقائية، عاد وارتمى فوقي في الفراش. فضايقني ثقل وزنه ورحت ألهث لكي ألتقط أنفاسي.

ولكن ما لبث ذلك الوزن أن غادرني فجأةً، وشعرتُ بالارتجاج من وقع الضربة عندما ارتطم جسد جايكوب بعمود الخيمة التي اهتزّت.

وارتفعت الأصوات الحانقة من كلّ الجهات. كان إدوارد يجثم على الأرض أمامي، لم أرَ وجهه ولكنّي سمعت هدير الغضب يرتفع من صدره. أمّا جايكوب، فكان يربض أيضاً على الأرض وجسده يرتعد وصوته يزمجر. وفي الخارج ارتفع عواء سيث المدوّي بين صخور الغابة.

توقّفا! توقّفا! وتدحرجتُ على الأرض، ثمّ وقفت بينهما ووضعتُ كفيّ على صدريهما. مدّ إدوارد ذراعه ليلفّها حول وسطي ويبعدني من أمامه. فقلتُ له: «أحذّرك بأن تتوقّف حالاً عن هذا العمل».

أمّا جايكوب، فقد تجاوب مع لمس يدي وراح يهدأ تدريجاً. خفّ ارتجافه لكنّ أسنانه كانت لا تزال ظاهرة، وعيناه مصوّبتان بغضب نحو إدوارد.

قلتُ: «جايكوب؟». وانتظرت حتى أزاح عينيه عن إدوارد. «هل أصبتَ بأذى؟».

أجاب: «كلّا، طبعاً!».

التفتّ إلى إدوارد. كان يراقبني وتعابير الغضب لم تفارق وجهه. فقلت له: «تصرّفك لم يكن لائقاً. يجب أن تعتذر».

فتح عينيه بازدراء: «هل تمزحين؟ كاد يحطّم عظامك!».

«لأنّك رميته على الأرض! لم يقم بتلك الحركة عن قصد، ولم يلحق بي أيّ أذى».

زمجر رافضاً. ثمّ رفع عينيه ونظر إلى جايكوب بكراهية: «عذراً أيّها الكلب».

«قبلت اعتذارك». قال جايكوب بنبرةٍ موبّخة وساخرة.

كان البرد لا يزال قارساً، فالتقط إدوارد سترة جايكوب عن الأرض ووضعها فوق كتفيَّ.

«هذه سترة جايكوب». قلتُ معترضة.

«جايكوب لديه معطف من الفراء». قال ممازحاً وكان قد استعاد هدوءه.

لم يعره جايكوب اهتماماً، بل عاد وانزلق إلى داخل الفراش، قائلاً: «لا زلت أشعر بالنعاس. لم يكن نومي مريحاً هذه اللّيلة».

أجاب إدوارد بانفعال: «كانت تلك الفكرة فكرتك».

أغمض جايكوب عينيه، وهو يتثاءب ويقول: «لا أعني أنّها لم تكن أفضل ليلة أمضيتها، لكنّي قلتُ إني لم أنل قسطاً كافياً من النوم، فبيلاّ لم تتوقّف عن الثرثرة».

أجفلني قوله. ماذا قد خرج من فمي وأنا نائمة يا تُرى. فكّرت بالاحتمالات فأصابني الرّعب.

«أنا سعيد أنّك كنتَ مرتاحاً». تمتم إدوارد.

انفتحت عينا جايكوب في الحال: «ألم تكن مرتاحاً أنتَ أيضاً؟». سأله جايكوب متحدّياً.

«لم تكن أسوأ ليلة في حياتي».

«هل كانت بين اللّيالي العشر الأفضل؟». سأل جايكوب بسرور المشاكس.

«قد يكون ذلك صحيحاً».

ابتسم جايكوب وأغلق أجفانه.

«ولكن»، قال إدوارد، «لو كان بإمكاني أخذ مكانك اللّيلة الماضية، لما كانت بين أفضل عشر ليالٍ في حياتي. فكّر واحلم بهذا الأمر».

فتح جايكوب عينيه أكثر، ثمّ انتصب واقفاً متشنّج العضلات، وقال: «الخيمة ضيّقة...، سأنصرف».

«أوافقك الرأي».

عاجلتُ إدوارد بضربةٍ خفيفة من مرفقي على صدره...، وخفت أن أؤذي ذراعي.

«أعتقد أنّي سأعود وأكمل نومي لاحقاً. أمّا الآن، فحان الوقت لأتواصل مع سام».

وانحنى ليفتح باب الخيمة.

انتابتني رعشة من الألم انحدرت من ظهري واستقرّت في معدتي عندما خطر في بالي أنّي قد لا أرى جايكوب ثانيةً، فهو في طريقه للتواصل مع سام ومن ثمّ سيذهب ليصارع جماعة مصّاصي الدّماء المتوحشين.

«تمهّل يا جايك!». لحقتُ به وحاولت الإمساك بذراعه.

انتفض، وأبعد ذراعه.

«أرجوك يا جايك أن تبقى هنا؟».

«كلاّ».

قال كلمته بقسوة وبرود. لكنّ الألم الواضح على وجهي جعل ملامحه تلين بعض الشيء، فنظر إليّ وقال بابتسام: «لا تقلقي يا بيلا، سأكون بخير». ثمّ اصطنع ضحكةً، وأضاف: «هل تظنّين أنّي سأدع سيث يذهب مكاني ويستمتع بالمرح ويكسب الشرف والمجد...؟».

«كن حذراً!».

خرج من الخيمة قبل أن أنهي عبارتي، وأجابني وهو يعيد رفع سحّاب الخيمة: «استرخي يا بيلاّ».

استمعتُ إلى وقع خطواته يتلاشى في السكون. لقد ذهب جايكوب بصمت، وانتهت العاصفة وخيّم الهدوء، وعلت زقزقة العصافير في الجبال البعيدة.

جلستُ إلى جانب إدوارد وألقيت رأسي على كتفه، ولزمنا الصمت خلال وقتٍ طويل.

ثمّ سألته: «كم بقي من الوقت؟».

«قالت آليس لسام إنّهم سيكونون هنا بعد حوالى الساعة». أجابني بصوتٍ هادئ وكئيب.

قلتُ: «سنبقى معاً مهما حصل»..

«مهما حصل». أجاب مؤيّداً، ولكنّي قرأت القلق في عينيه.

«أعلم. أنا أيضاً خائفة جدّاً عليهم».

«لا تخافي فهم يتقنون الدّفاع عن أنفسهم». وتعمّد التكلّم بخفّة عندما أضاف: «سيفوتني قسط كبير من التسلية».

«لا تزال تتكلّم عن التسلية!».

لفّ ذراعه حول كتفيّ: «لا تقلقي». قال مجدّداً. ثمّ قبّل جبيني. وكأنّه كان باستطاعتي تفادي القلق...

«أتوافقين على أن نتسلّى قليلاً؟»، وتنفّس، وداعب بأصابعه خدّي.

ارتجفت من البرد. فأبعد يده، وقال: «ربّما ليس الآن».

فقلت: «لنتسلّى بطريقةٍ أخرى».

«ماذا تريدين أن نفعل؟».

«يمكنكَ أن تخبرني عن أفضل عشر ليالٍ في حياتك. أشعر بالفضول».

ضحك وقال: «حاولي أن تحزري».

قلت: «من أين لي أن أحزر؟ فعدد اللّيالي كبيرٌ جدّاً. . .، قرنٌ بطوله».

قال: «سأسهّل عليك الأمر. عشت أفضل اللّيالي في حياتي بعدَ أن التقيتُ بك».

«حقّاً؟».

«حقّاً، وبكلّ تأكيد». .

حاولت التخمين، لكنّي لم أفكّر إلاّ ببعض اللّيالي المفضّلة لديّ.

فقال إدوارد: «ربّما تلك المفضّلة لديك ستكون هي ذاتها التي تحتلّ رأس القائمة لديّ». .

«حسناً، أوّل ليلة أمضيتها معي في غرفتي».

«نعم، وهي مفضّلة لديّ أيضاً، والجزء الأهمّ منها كان بعدما استسلمتِ أنتِ للنوم».

«هذا صحيح. في تلك اللّيلة كنت أتكلّم في نومي أيضاً».

وشعرتُ بالارتباك مجدّداً عندما تخوّفتُ ممّا تفوّهت به في اللّيلة الماضية، وأنا نائمة بين ذراعيّ جايكوب. لم أتذكّر أحلامي، وحتّى أنّي لم أتذكّر إن كنت قد رأيت أحلاماً أم لا.

فسألته بهدوء: «عمَّ تكلّمت في نومي خلال اللّيلة الماضية؟».

تنحنح متهرّباً من الإجابة، فجفلت، وقلت: «هل ما قلته فظيعٌ إلى هذه الدرجة؟».

«لا، ليس على هذه الدرجة من السوء».

«قل لي إذاً، أرجوك!».

«مثل العادة، تردّد اسمي على لسانك مرّات عدة».

«هذا مقبول». قلتُ بحذر.

«وقبيل الصباح. . .»، أكمل بنبرةٍ لم تخفي ألمه: «رحتِ تغمغمين بعض الكلمات غير المفهومة حول جايكوب: جايكوب، جايكوب الذي أحبّ. وجايكوب الذي تحبّين استمتع كثيراً عندما سَمِع ذلك».

مددتُ عنقي وقبّلته عند أسفل خدّه، حاولتُ النظر إلى عينيه، ولكنّه كان ينظر إلى سقف الخيمة.

وقلت: «أنا آسفة، لكنّ هذه هي طريقتي في التمييز».

«التمييز؟».

ففسّرت له: «نعم، التمييز بين جايكوب الذي أحبّه، وذلك الذي يضايقني ويزعجني». .

قال بليونة: «تفسيرٌ مقبول. أخبريني عن ليلة أخرى مفضّلة».

«ليلة عودتنا من إيطاليا».

قطّب حاجبيه.

فقلتُ باستغراب: «هل هذه اللّيلة على قائمتك؟».

«إنّها على قائمتي بالفعل، لكنّي أستغرب أنّها مفضّلة لديك أيضاً! ألم تكن لديك تلك الفكرة السخيفة وهي أن تصرّفاتي كانت تنبع من شعوري بالذنب، وأنّي سألوذ بالفرار ساعة تحطّ الطائرة على أرض المطار؟».

«نعم»، قلتُ مبتسمة. «ولكنّك كنتَ معي».

قبّل شعري، وقال: «إنّك تحبينني أكثر ممّا أستحقّ».

ضحكتُ لتلك العبارة المستحيلة. وأكملت: «بعد ذلك، تأتي اللّيلة التي تَلَتْ ليلة عودتنا من إيطاليا».

«نعم، إنّها على قائمتي أيضاً. كانت ليلة مضحكة».

«مضحكة!؟». قلتُ.

«لم أكن أعلم أنّ أحلامك كانت على ذلك المستوى العالي من

الحيويّة، فأمضيتُ ساعات طويلة محاولاً إقناعك بأنّك كنتِ مستيقظة».

«لم أزل غير مقتنعة حتّى الآن»، قلتُ متمتمة. «إنّك دائماً بالنسبة لي تشبه الحلم أكثر من الحقيقة. أخبرني الآن عن إحدى لياليك المفضّلة. هل بين التي جئنا على ذكرها الآن تلك التي تحتلّ المرتبة الأولى على رأس قائمتك؟».

«كلاّ. تلك التي تحتلّ المرتبة الأولى هي اللّيلة ما قبل الماضية، عندما وافقتِ على الزواج بي».

نظرتُ إليه بامتعاض.

فقال: «أليست تلك اللّيلة بارزة على قائمتك أيضاً؟».

فكّرت بقبلاته، وبوعده لي فغيّرت رأيي. وقلت: «بلى. . .، إنّها على قائمتي، ولكن مع بعض التحفّظات. لا أعلم سبب أهميّة موافقتي بالنسبة إليك، ما دمت تعلم أنّي سأبقى معك طيلة الدهر».

«بعد مئة سنة من الآن، عندما تكونين قد اكتسبت نظرة شمولية أوسع، وقدرة على فهم الجواب، سأشرح لك ذلك».

«سأذكّرك بعد مئة سنة لكي تشرح لي».

وسألني فجأةً: «هل تشعرين بالدفء؟».

«أنا مرتاحة، لماذا؟».

وقبل أن يجيب، ارتفعت صرخة ألم من أمام الخيمة مزّقت الهدوء الذي كان سائداً، وردّد سفح الجبل الصخري أصداءها، فتوزّع رجعها وعاد ليخترق الآذان من كلّ صوب.

عصفت الصرخة في نفسي كالإعصار فمزقتها. كانت غريبة وفي الوقت ذاته أليفة. كانت غريبة لأنّي لم أسمع صرخةَ ألم مثلها في حياتي؛ وأليفة لأنّي عرفت الصوت في الحال، عرفتُ مصدره، وفهمتُ معناه وكأنّي أطلقته أنا بذاتي. لا فرق إن كان جايكوب إنساناً أو ذئباً،

فصوته واحدٌ بالنسبة لي؛ لأنّي أفهمه ولا أحتاج لمن يترجم لي معانيه.

قلتُ لإدوارد: «كان جايكوب قريباً من الخيمة. لقد سمع كلّ حديثنا... وهو يتعذّب!».

واختنق الصراخ وتحوّل إلى نشيجٍ متقطّعٍ، ثمّ توقف.

لم أسمع وقع خطواته وهو يبتعد، لكنّي شعرتُ بغيابه، وبالفراغ الذي تركه وراءه. ولم أخطئ التقدير هذه المرّة كما فعلت سابقاً.

«لأنّ مدفأتك أوشك على أن يتخطّى حدوده، انتهت الهدنة بيننا». أجاب إدوارد بصوتٍ منخفض كدتُ لا أسمعه.

«لقد سمع جايكوب حديثنا». همستُ.

«نعم».

«وهل كنتَ تعلم؟».

«نعم».

شعرتُ بغشاءٍ كثيف يحجب نظري وتفكيري.

فقال إدوارد بهدوء مذكّراً: «لم أعده أنّ حربنا ستكون متكافئة أبداً. ويجب أن يعلم».

لم يعد بإمكاني حملَ رأسي فأسندته إلى يديّ.

سألني: «هل أنتِ غاضبة منّي؟».

قلتُ: «لستُ غاضبة منك، لكنّي لا أطيق نفسي».

«أرجوكِ ألاّ تعذّبي نفسك».

قلتُ بمرارة: «أنتَ على حقّ، يجب أن أوفّر طاقتي من أجل التمادي بتعذيب جايكوب، وإلحاق الأذى به...».

«إنّه يعي ما يقوم به».

«ليس مهمّاً إن كان يعي أو لا يعي، وإن كنت قد أعطيته إنذاراً بعدم تكافؤ النزاع بينكما... إنّه يتعذّب بسببي. إنّي ألحق به الأذى في

كلّ ما أقوم به». كنت أمسك دموعي وأنا أتكلّم، لكنّ صوتي راح يرتفع تدريجاً بشكلٍ هستيري. وصرخت: «أنا إنسانة بشعة». .

لفّ ذراعيه بشدّة حولي وقال: «كلاّ، لستِ كذلك».

«نعم أنا كذلك، ولا أعرف لماذا». حاولت التخلّص من ذراعيه، فتركني. وقلتُ: «سأذهب وراءه».

«بيلاّ! لقد أصبح الآن على بعد أميالٍ من هنا، والطقس بارد».

«لا يهمّني ذلك، لا يمكنني أن أبقى هنا. يجب أن. . .، يجب أن. . .»، ولم أجد الكلمات لإكمال الجملة، ولم أعلم ما يمكنني القيام به، ولكنّي وضعتُ قدميّ في الحذاء، وتخلّصت من سترة جايكوب التي كانت على كتفيَّ، وفتحتُ باب الخيمة وقفزت خارجاً.

كان البرد قارساً ونور الشمس ساطعاً. أمّا الثلج فكان خفيفاً، ربّما بسبب الرياح التي حملته إلى البعيد.

وفي ظلّ إحدى الأشجار الصنوبرية الكثيفة كان سيث كليرووتر جاثياً على الأرض ويكاد لا يُرى لامتزاج لون فرائه الترابي مع لون أوراق الصنوبر اليابسة تحته، لكنّي لاحظتُ عينيه ترمقانني بنظرة شعرتُ بأنّها تتهمني.

عرفتُ أنّ إدوارد كان يتبعني، فقد رأيتُ على امتداد الدرب أمامي انعكاسات أشعة الشمس على جلده تلمع بألوان قوس القزح. لم يحاول قطع الطريق عليّ، بل تبعني حتى اقتربت من منطقة الأشجار الكثيفة.

أمسك بمعصم يدي اليسرى، ولم يهتمّ لمحاولتي الإفلات منه. وقال: «لا يمكنك اللّحاق به اليوم. ليس مفيداً بأيّ حال أن تضيعي الآن في الغابة، خصوصاً أن ساعة الاصطدام باتت قريبة».

حرّكت معصمي وحاولت الانسحاب من قبضته، ولكن من دون جدوى.

«أعتذر يا بيلاّ على فعلتي». قال هامساً.

«أنتَ لم تفعل شيئاً، أنا المسؤولة عن الخطأ. كلّ ما قمت به لم يكن صواباً. كان بإمكاني أن...، عندما...، أخطأت في...، أنا...». ورحت أجهش بالبكاء.

«بيلاّ، بيلاّ».

عقد ذراعيه حولي، فتساقطت دموعي الغزيرة على قميصه.

«كان يجب أن أخبره، كان يجب أن أقول... لم يكن من الصواب أن يكتشف الحقيقة هكذا».

«ماذا لو أحاول أن ألحق به وأطلب منه العودة الآن، فتتمكّني من مصارحته؟ لا يزال أمامنا بعض الوقت».

أومأت برأسي موافقة على اقتراحه، ولم أجرؤ على النظر إلى وجهه.

«امكثي بقرب الخيمة، سأعود حالاً».

وفي خلال لحظة اختفت ذراعاه من حولي، فرفعت عينيَّ لأراه ولكنّه كان قد ذهب. وبقيت وحيدة.

واحتدمت نوبة بكاءٍ جديدة في صدري. إنّي مصدر أذيّة لمشاعر الجميع اليوم. هل بقي أحد لم أؤذه اليوم؟

لا أعلم لمَ شعوري الكبير بالذنب اليوم؟ كنت أتوقّع أنّه سيأتي يومٌ ويواجه فيه جايكوب الواقع. ولكن لم يسبق لجايكوب أن عبّر عن ألمه بهذه القوّة ولا تزال صرخة وجعه تذبح صدري في العمق. وهناك في العمق أيضاً، ألمٌ آخر؛ الألم بسبب إلحاق الأذى بإدوارد لأني غير قادرة على التخلّي عن جايكوب بطريقة واعية تأخذ في الاعتبار القرار الصحيح الذي اتخذته.

أنا مؤذية، وأتصرّف بأنانية مقيتة، وألحق الأذى بالّذين أحبّهم.

أنا أتصرّف مثل كاثي في قصّة مرتفعات وذرينغ. لكن، وبرغم أنّي

. لست مضطرّة مثلها للاختيار بين حبيبين أحدهما شرير والآخر ضعيف، إلاّ أنّي أقف مكتوفة اليدين مثلها، ولا أتصرّف بحكمة.

لن أسمح للألم بأن يؤثر على قراري بعد اليوم. ربّما تأخرت في اكتشاف ما يتوجّب عليّ القيام به، ولكنّي سأقوم بالعمل الصواب الآن. قد يكون القدر قد قام به عنّي. ربّما لا ينجح إدوارد في إعادة جايكوب إلى هنا الآن. في هذه الحال سأتقبّل الأمر وأكمل حياتي. ولن يراني إدوارد أذرف دمعةً على جايكوب بلاك بعد ذلك.

وبأصابعي الباردة، مسحت عينيّ وقلتُ في نفسي: «لا دموع بعد اليوم».

ولكن، لو عاد جايكوب مع إدوارد، فسأطلب منه أن يذهب ويبتعد عنّي إلى الأبد.

لِمَ وداع جايكوب صعبٌ عليّ إلى هذا الحدّ؟ ولماذا هو مختلف عن وداع بقيّة أصدقائي مثل مايك وآنجيلا؟ لِمَ يؤلمني وداعه؟ يجب ألاّ يؤلمني ذلك. سأحصل على الذي أريد. لا يمكنني الحصول على كلاهما معاً. لا يوافق جايكوب على أن يكون مجرّد صديقي ولا يمكنني الاستمرار في تمنّي ذلك. إلى أين يمكن أن تصل بي شدّة الطمع؟

يجب أن أتخلّص من شعوري بأنّ جايكوب جزء من حياتي. لا يمكنه أن يظلّ جايكوب الذي أحبّ ولا أن يبقى في حياتي، إن كانت حياتي مرتبطة بشخصٍ آخر.

عدتُ نحو الخيمة وأنا أجرّ قدميّ. عندما اقتربت، رميت نظرة سريعة في اتجاه سيث فوجدت أنّه لا يزال في مكانه جاثياً فوق بساط الأوراق اليابسة، لكنّي لم أطل النظر إليه خوفاً من أن يرمقني بنظرته العاتبة من جديد.

كان شعري بحالة يرثى لها من الفوضى، فشعرت بأنّ رأسي شبيهٌ برأس الساحرة المغطى بالثعابين في الأسطورة اليونانيّة. فمددتُ يدي

لكي أرتّب شعري بأصابعي بعض الشيء، لكنّي أقلعت فوراً عن الفكرة، فلمَ الاهتمام، ولمَ الاكتراث بمظهري على كلّ حال؟

أمسكت بالمطرة المعلّقة على باب الخيمة، وخضضتها فوجدت أنّها تحتوي على بعض الماء. ففتحتها وغسلت داخل فمي بجرعة من الماء المثلّج. كان هناك طعامٌ في مكانٍ ما، لكنّي لم أكن أشعر بالجوع إلى درجة تدفعني للبحث عنه. ورحتُ أقطع المساحة الصغيرة أمام الخيمة ذهاباً وإياباً، وكنتُ أشعر بعينيّ سيث تتحرّكان معي.

كنتُ على وشك أن أطلب من سيث أن يعوي ويتواصل مع جايكوب ليخبرني إن كان سيعود، ولكنّي لزمت الصمت. لا فرق إن عاد جايكوب أو لم يعد. ستجري الأمور بطريقةٍ أسهل إن لم يعد. ولكنّي تمنّيت لو كان بإمكاني الاتصال بإدوارد.

عوى سيث في تلك الدقيقة وانتصب على قوائمه.

«ما الأمر؟» سألته ببلاهة.

لم يعرني اهتمامه، بل ركض مهرولاً باتجاه الأشجار الكثيفة مصوّباً أنفه نحو الغرب. ثمّ راح يصدر عواءً حزيناً يشبه الأنين.

«هل وصل الآخرون يا سيث؟ هل بدأت المعركة؟».

نظر في اتجاهي ونبح بلطف، ولكنّه ما لبث أن أعاد رأسه في اتجاه الغرب. وراح يعوي من جديد.

كيف تصرّفت بهذه الحماقة؟ كيف سمحت لإدوارد بالابتعاد عنّي ومن أين لي الآن ان أعلم بما يجري وأنا لا أفهم لغة الذئاب.

وأخذت أشعر بقشعريرة الخوف الباردة تسري من رأسي إلى أسفل ظهري. ماذا لو أنّ الوقت قد حان الآن وكان جايكوب وإدوارد هناك بقرب ساحة المعركة؟ ماذا لو قرّر إدوارد الاشتراك في القتال؟

واستقرّ الخوف في معدتي فتقلّصت. ماذا لو لم يقصد سيث بعوائه

الحزين المعركة الكبيرة، بل معركة جانبية بين إدوارد وجايكوب في مكانٍ بعيد في الغابة؟ هل من الممكن أن يفعلا ذلك يا تُرى؟

وأجبت نفسي بذعر أنّهما قد ينجرّان إلى التقاتل إذا تلفّظا بالكلمات المسيئة جدّاً، كما حصل هذا الصباح في الخيمة، عندما أوشكا على الاشتباك بالفعل.

سيكون العقاب بمقدار ما أستحقّ، لو أصاب الاثنين مكروهٌ وخسرتُ كلاهما!

وإذا بشعورٍ جليديّ يحبس قلبي، وقبل أن أستسلم للرّعب وأسقط أرضاً، تعالت قرقرة من صدر سيث، الذي ما لبث أن استدار وعاد ليربض في مكانه تحت الشجرة. ساعدتني عودته على الاطمئنان، ولكنّي تضايقت منه في الوقتِ عينه. ألا يمكنه أن يخربش بعض الإشارات المطمئنة على التراب أمامي؟

شعرتُ بالحرّ من شدّة الحركة المكوكيّة التي كنت أقوم بها أمام الخيمة، فرميت معطفي إلى الداخل، ورحتُ أسير في اتجاه الأشجار. انتفض سيث وانتصب مجدّداً وكان الشعر على عنقه منتصباً أيضاً. نظرت في جميع الاتجاهات، فلم أرَ شيئاً. ولو لم يقطع سيث حيرتي في تلك اللّحظة، كنت سأضربه بكوز صنوبر على رأسه.

هدر بصوت إنذارٍ خافت. ثمّ توجّه عائداً إلى جهة الغرب حيث كان منذ قليل. لكنّي تمالكت أعصابي، واعتمدتُ الصبر.

«هذا نحن يا سيث، لا تقلق». نادى جايكوب من بعيد.

حاولت أن أفسّر لنفسي سبب تسارع ضربات قلبي عندما سمعتُ صوته. فقلت إنّه الخوف ممّا يترتّب عليّ القيام به الآن، وليس سوى ذلك. لم أترك لنفسي فرصة الشعور بالاسترخاء لأنّه عاد، فذلك لن يساعدني في شيء الآن.

رأيت إدوارد أوّلاً، وكان وجهه هادئاً وخالياً من التعابير. عندما

خرج من بين الأشجار لمعت أشعّة الشمس على بشرته البيضاء كما تلمع فوق الثلج. تقدّم سيث ليلقي التحيّة عليه وعيناه مصوّبتان إلى عينيه. هزّ إدوارد برأسه قليلاً لكنّ القلق بدا واضحاً على جبينه.

«نعم، هذا كلّ ما نريده»، تمتم قبل أن يتوجّه إلى الذئب الكبير: «يجب ألاّ نتفاجأ. لكنّ الوقت قريب جدّاً. أرجو أن تطلب من سام أن يتكلّم مع آليس من أجل تحديد الوقت بشكل أدقّ».

حنى سيث رأسه مرّة واحدة. فتمنّيت لو استطعت أن أسخط به. بكلّ تأكيد، ها إنّه يستطيع أن يعطي إشارة برأسه الآن! وعندما أدرت رأسي معربةً عن استنكاري، رأيت جايكوب يقف في مكانٍ قريب.

كان يدير ظهره لي وينظر في الاتجاه الذي جاء منه. فانتظرت مترقّبة اللّحظة عندما سيلتفت باتجاهي.

«بيلاّ»، تمتم إدوارد، وقد انتقل فجأةً إلى جانبي. نظر إليّ باهتمام وقلق. فتساءلت في نفسي إن كنت حقّاً أستحق رحابة صدره وسموّ أخلاقه.

«طرأ إشكال بسيط». قال محاولاً إخفاء مدى خطورة الأمر. «سأذهب مع سيث لنحاول معالجته. لن أذهبَ بعيداً، لكنّي لن أصغي إلى الحديث بينكما. أقدّر أنّك تفضّلين الخصوصيّة أيّاً كان القرار الذي ستتخذينه».

بقي مسيطراً على نبرة صوته العاديّة ولكنّ الألم الذي كان يعاني منه أبى إلاّ أن يلوّن كلماته في النهاية.

يجب أن أتوقّف عن تعذيبه، ويجب أن أحرص على إبعاد هذه النظرة عن عينيه إلى الأبد.

لم أسأله عن نوعية الإشكال الذي حدث، فقد كنت شديدة التوتر وغير قادرة على التفكير بأيّ شيء خارج دوامة همومي.

فقلتُ بهمس: «لا تتأخر بالعودة».

طبع قبلة خفيفة على شفتيّ، واختفى في الغابة وركض سيث في محاذاته.

كان جايكوب لا يزال واقفاً في ظلّ الأشجار فلم أرَ تعابير وجهه بوضوح.

«أنا مستعجل يا بيلّا، أرجو أن تقولي ما لديك بسرعة».

شعرت بحنجرتي تجفّ فجأةً، وخفت أن أفقد قدرتي على الكلام.

«قولي الكلمات التي تودّين قولها فينتهي الأمر».

أخذتُ نفساً عميقاً.

«أعتذر لأنّي تصرّفت بهذا المستوى من الأنانية والجشع. لو لم ألتقيك أبداً في حياتي، لما عذّبتك. وليتني لم ألتقِك. أعدك بأنّي لن أعذّبك قطّ بعد الآن. سأنتقل لأعيش في مقاطعة أخرى حتّى لا تضطرّ إلى النظر إليّ بعد الآن».

«هذا ليس اعتذاراً...»، قال بمرارة.

قلتُ بصوتٍ مرتجف: «قل لي كيف أعتذر».

«ماذا لو كنتُ لا أريدك أن ترحلي؟ ماذا لو كنت أفضّل أن تبقي، أنانية كنتِ أم لا؟ ألا يحقّ لي الاختيار إن كنتِ تنوين التعويض لي عما مرّ من إساءة؟».

«لن يفيدنا بقائي هنا أبداً. كان من الخطأ أن أبقى على تواصل معك برغم معرفتي بأنّ ما تريده أنتَ من علاقتنا مختلفٌ عمّا أريده أنا منها. إن بقيتُ قريبة منك فسيبقى الحال على ما هو عليه، وسأستمرّ في إيذاء مشاعرك. أنا لا أريد أن أعذّبك أكثر. أرفض ذلك». واختنق صوتي...

تنهّد وقال: «توقّفي، لا تكملي. لقد فهمت».

كنت أريد أن أقول له كم سأشتاق إليه، لكنّي عضضتُ على لساني...، فذلك أيضاً لا يساعد في حلّ المشكلة.

وقف مطرقاً خلال لحظات، ينظر إلى الأرض بصمت. فتغلّبت بصعوبة على رغبتي في أن أغمره بين ذراعيّ وأخفّف عنه.

ولكن، سرعان ما رفع رأسه وقال: «الستِ الوحيدة القادرة على التضحية. أنا قادرٌ على ذلك أيضاً».

«ماذا؟».

«لقد أسأت التصرّف أنا أيضاً، وسمحت للأمور بأن تصل إلى هذا الحدّ. كان حريّاً بي أن أنسحب من حياتك منذ البداية. ولكنّي سبّبت لك العذاب أيضاً».

«أنا المسؤولة عن الأخطاء التي حصلت».

«لن أسمح لك بإلقاء كلّ اللّوم على نفسك. ولن أسمح لك بالاعتزاز بالتضحية وحدكِ أيضاً. أنا أعلم كيف أقوم بواجبي في هذا المجال».

قلتُ بخوف بعد أن لاحظت الشعاع الناري الذي لمع من عينيه وهو ينهي عبارته: «ماذا تقول، ماذا تقصد؟».

رفع نظره في اتجاه الشمس برهة، وعاد ونظر إليّ بابتسام: «هناك معركة حامية ومميتة اليوم. لن يكون من الصعب أن أختفي خلالها عن وجه الأرض كليّاً».

دخلت كلماته إلى رأسي واستقرّت واحدة بعد الأخرى. فضاق صدري وتقطّعت أنفاسي. في تلك اللّحظة بالذات شعرتُ بعمق مكانة جايكوب في قلبي وبصعوبة اقتلاعه من حياتي.

«كلاّ يا جايك، كلاّ أرجوك لا تقم بمثل هذا العمل أرجوك، أرجوك!». وشعرت بالرّعب يخنقني، وبركبتيّ ترتجفان وتتلويّان تحتي.

«ما الفرق يا بيلاّ؟ هذا الحلّ سيسهّل الأمور على الجميع. حتّى أنّك لن تضطرّي إلى الانتقال للعيش في مقاطعة أخرى».

«كلّا يا جايكوب!» وصرخت بصوتٍ أعلى: «كلّا يا جايكوب! لن أسمح لك!».

«وكيف ستتمكّنين من منعي؟». سأل بطريقة ساخرة لا تخلو من العتب والإهانة.

«جايكوب، أتوسّل إليك أن تبقى معي!». كنت مستعدّة للركوع على ركبتيّ أمامه لو استطعت التحرّك.

«تودّين أن أبقى معك لمدة ربع ساعة تنتهي خلالها المعركة. وبعد أن تطمئني لسلامتي وارتفاع الخطر، تهربين منّي. لن أصدّق هذه الكذبة».

«لن أهرب منك. لقد غيّرت رأيي. سنصل إلى تسوية معيّنة يا جايكوب، ونفكّر بحلّ معتدل».

«أنتِ تكذبين».

«أنا لا أقصد الكذب. وأنت تعلم أنّي لا أتقن الكذب البتّة. أنظر إلى عينيّ فتعرف أنّي صادقة. سأبقى هنا إن بقيتَ أنت».

وقال بجفاء: «لكي أكون الإشبين في عرسك؟».

مرّت لحظة قبل أن أتمكّن من متابعة الكلام، ولكن كلّ ما استطعت التفوّه به كان كلمة: «أرجوك!».

«هذا ما فكّرت به». قال بعد أن هدأت ملامح وجهه وقبل أن يخبو النور الثائر في عينيه.

وتمتم: «أحبّك يا بيلّا».

فهمست مستسلمة: «أحبّك يا جايكوب».

«أعلم ذلك أكثر ممّا تعلمين أنتِ».

ثمّ استدار ليبتعد.

ناديتُه متلهّفة: «أنا مستعدّة لكلّ شيء تطلبه يا جايكوب، ولكن لا تفعل ذلك»..

توقّف والتفت إليَّ ببطء: «لا أصدّق أنّكِ تعنين ما قلته».

فرجوته: «إبقَ هنا!».

فكّر قليلاً وقال: «سأذهب وسأسلّم أمري للقدر».

«ماذا تعني؟». قلت، والكلمات تختنق في حنجرتي.

«لن أفعل ذلك عمداً. سأقوم بالدفاع عن مجموعتي بأقصى قدرتي وأتقبّل ما سيحدث». ثمّ أضاف: «سأهتمّ بسلامتي إن استطعتِ إقناعي بأنّ رغبتك في عودتي تفوق رغبتك في الابتعاد عنّي».

سألته: «كيف؟».

فقال: «بأن تطلبي منّي».

فهمست: «تعال، إبقَ هنا». لم أفهم كيف كان يشكّ في صدق طلبي إليه بالبقاء.

هزّ رأسه وهو يبتسم: «ليس هذا قصدي».

وخلال برهة، فهمتُ معنى كلامه. كان ينظر إليّ بتحدٍّ واثق من ردّ فعلي. وفي اللّحظة التي وصلت فيها الفكرة إلى دماغي، اندفعتُ قائلة من دون التفكير بأيّ شيءٍ آخر:

«قبّلني يا جايكوب!».

اتّسعت عيناه أمام المفاجأة، ثمّ ضاقت وهو يلقي عليّ نظرة مشكّكة: «هل هذه خدعة؟».

«قبّلني يا جايكوب، قبّلني الآن. ثم عد إليّ».

وقف متردّداً في حربٍ مع نفسه، كان جسده يستعدّ للانطلاق في اتجاه الغرب وقدماه ثابتتان في مكانهما لا تتحرّكان. أمّا عيناه فكانتا تنظران إلى البعيد عندما قام بخطوةٍ حائرة نحوي، تلتها خطوة ثانية. أدار وجهه ليراني، ونظر إليّ بريبة.

حدّقت به ولا أعرف أيّ التعابير بدت على وجهي.

ثمّ تحرّكت قدماه من جديد، وبثلاث خطوات واسعة وصل إلى أمامي.

عرفتُ أنّه سيستفيد من الفرصة. فتوقّعتُ ذلك ووقفتُ أمامه من دون حركة. أطبقتُ أجفاني، فشعرتُ بيده حول وجهي، وبشفتيه تلتقيان بشفتيّ بنهمٍ لا يخلو من العنف.

شعرت بغضبه عندما أحسّ ببرودي. فلفّ إحدى يديه حول مؤخّر عنقي، وأمسك بالثانية كتفي، فهزّني بقوّة وشدّني إليه، ثمّ تلمّس معصمي فأمسك به، ورفع يدي إلى عنقه. واستمرّت شفتاه الدافئتان في سعيٍ مضطرب لإيقاظ أحاسيسي.

أنزل يده إلى خصري ولمست أصابعه أسفل ظهري ثمّ شدّ بي نحوه فالتصق جسدانا.

تراجعت شفتاه عن شفتيّ لبرهة، لكنّي كنت أعلم أنّه لن يكتفي بتقبيلي بذلك القدر. ثمّ راح يقبّل أسفل خدّي، ثمّ عنقي. أمسك بيدي الثانية ورفعها أيضاً إلى عنقه، ووضع يديه الاثنتين حول خصري. أمّا شفتاه فكانتا تداعبان أذني.

«تحرّكي يا بيلاّ، ولا تستغرقي في التفكير».

وارتعشت أوصالي عندما شعرتُ بأسنانه على أذني. فتمتم: «أترين كيف تتجاوبين عندما تتركين لمشاعرك العنان وحرية التعبير».

هززتُ رأسي بحركة ميكانيكية، وإذا بإحدى يديه تخترق شعري وتمسك برأسي عن الحركة. وبصوتٍ تعتريه الحرقة سألني: «هل حقّاً تريدينني أن أعود؟ أم أنّك في الحقيقة تفضّلين أن أموت؟».

عصف بي الغضب وهزّني. إنّه يبالغ في استعمال الضغوط.

كانت يداي لا تزالان حول رأسه، فأمسكتُ بشعره، وشددت رأسه بعيداً عنّي لكي أتخلّص من شفتيه.

لكنّه لم يفهم قصدي.

لم يتأثر بقوّتي الضئيلة بالنسبة إلى قدرته على الاحتمال، وظنّ أنّي أقصد بتلك الحركة التعبير عن تجاوبي وعشقي.

فعادت شفتاه بحماسة إلى شفتيّ، وأمسكت أصابعه بخصري فشعرتُ بدفئها على جلدي.

وكسرت مشاعر الغضب تماسكي فأحسست بالارتخاء المفاجئ، وزاد في عدم قدرتي على الدفاع حماسته العارمة، وفرحه الذي لا يقاوم. شعرتُ بانفصال دماغي عن جسدي الذي استسلم كليّاً لجايكوب، فرحت أبادله القبل بأسلوبٍ لم أعهده عن نفسي في السابق أبداً. لستُ مجبرة على الحذر مع جايكوب، كما أنّه لم يفرض على نفسه الحذر معي.

اشتدت قبضة أصابعي على شعره الآن، لكنّني رحت أشدّ برأسه نحوي.

لقد ملأ عليّ العالم في تلك اللّحظات. وأصبح كلّ ما أرى وأسمع وأحسّ.

لم تبقَ سوى زاوية صغيرة ناشطة في عقلي الواعي، وقد راحت ترسل إليّ بعض الرسائل القصيرة: لماذا لا أتوقّف عن كلّ هذا؟ ولماذا لا أطلب منه أن يتوقّف؟ ماذا يعني أنّي لا أريد منه أن يتوقّف؟ ويداي الممسكتان بكتفيه. . .لمَ فرحي بقوّة وضخامة كتفيه، ويداه اللّتان تشدّان بي إلى جسده، لِمَ أريد لو تشدّاني إليه أكثر؟

كلّ تلك الأسئلة كانت سخيفة، لأنّي أعرف الجواب عنها.

والجواب يقول إنّي كنتُ أكذب على نفسي.

كان جايكوب على حقّ. كان على حقّ منذ البداية. لقد كان دائماً أكثر من صديق بالنسبة لي. لذا كان من المستحيل أن أقبل فكرة ابتعاده عنّي إلى الأبد. لأنّي كنتُ أحبّه. كنتُ أحبّه أيضاً. أحببته أكثر ممّا

يجب، ولكن ليس بالقدر الكافي. . . كنتُ أحبّه ولكن ليس بالقدر الكافي لأن أغيّر مجرى حياتي، ولكن ليشعر كلانا بالعذاب. لأسبّب له العذاب الذي لا طاقة له به.

لا يهمّني شيء سوى وجعه. لقد استحققت الألم الذي شعرتُ به. ليته يكون أقسى لكي أتوجّع أكثر.

في تلك اللّحظة شعرتُ وكأنّنا إنسان واحد. كان ألمه ألمي وسيبقى؛ وفرحه فرحي. شعرتُ بفرحه، ولكن هذه السعادة التي يشعر بها الآن كانت تؤلمني أيضاً. وهي تعذّبني بشكلٍ محسوسٍ جدّاً.

وخلال لحظة بعيدة الآفاق تخيلت وراء أجفاني المغلقة والمبلّلة بالدموع مساراً جديداً لحياتي. أحسستُ وكأنّي أنظر من خلال أفكار جايكوب أيضاً. فرأيتُ بوضوح الأمور التي سيترتّب عليّ طيّ صفحتها في حياتي، والأخرى التي لن أحرمَ منها. رأيت تشارلي ورينيه وبيلي وسام معاً في لا بّوش. رأيت كيف أنّ السنين ستمرّ وتترك أثرها على شخصيتي وحياتي. والذئب البنيّ الضخم الذي أحبّ، واقفاً إلى جانبي حاضراً لحمايتي، ولمحتُ في جزءٍ صغير من تلك اللّحظة طفلين شعرهما أسود يركضان أمامي في اتجاه الغابة التي أعرفها. واختفيا وانتهت الرؤيا باختفائهما.

وبعد ذلك رأيت وكأنّ قلبي، الجزء الصغير من قلبي قد انفصل عن البقيّة.

كانت شفتا جايكوب لا تزالان فوق شفتيّ. وعندما فتحتُ عينيّ وجدته يتأملني بإعجاب وابتهاج.

وهمس: «يجب أن أذهب».

«كلاّ».

ابتسم مسروراً. «لن أبقى طويلاً، ولكن. . .».

وانحنى ليقبّلني ولم يعد هناك أيّ مبرّر لتمنّعي.

كانت قبلته مختلفة الآن. وضع يديه بنعومة فوق خديّ وكانت شفتاه لطيفتين، ومتردّدتين. كانت قبلة سريعة، لكنّها طيّبة. . . ، طيّبة جدّاً.

عقد ذراعيه حولي، وضمّني وهو يقول في أذني: «هذه كانت أول قبلة لنا. ولو جاءت متأخّرة بعض الشيء».

وذرفت عيناي بصمت دموعاً فوق صدره، لم يرها.

24

قرار سريع

تمدّدت على بطني فوق الفراش داخل الخيمة متمنية نيل العقاب الذي أستحقّ. كنت أتمنى لو يهبط عليّ سيلٌ ويطمرني في ذلك المكان. تمنّيت لو أموت في تلك اللّحظة. لا أريد أن أرى وجهي في المرآة بعد الآن.

لم ينذرني أيّ صوتٍ بقدوم إدوارد، ولكنّي أحسست فجأةً بأصابعه الباردة تدخل بين خصلات شعري المتشابكة. فارتجفت يخالجني شعور المذنب أمام لمساته.

قال متمتماً وبنبرةٍ قلقة: «هل أنتِ بخير؟».

«كلاّ، أريد أن أموت».

«لن يحدث ذلك أبداً. لن أسمح بأن يحدث».

غمغمت، ثمّ همست: «ربّما ستغيّر رأيك حول هذا الموضوع».

سأل: «أين جايكوب؟».

«ذهب إلى المعركة». قلتُ، وأنا أنظر إلى الأرض.

كان جايكوب قد غادر إلى المعركة مسروراً. وقال بحماسة: «سأعود في وقتٍ قريب». كان قد بدأ يستعدّ ليتحوّل إلى ذئب. لا شكّ أنّ الخبر قد شاع الآن بين كلّ أفراد المجموعة. وسيث كليرووتر، الذي يهرول حول الخيمة الآن، فقد كان شاهداً على مهانتي.

بقي إدوارد صامتاً خلال دقائق. ثمّ أقلع أخيراً عن صمته وقال: «أوه!».

لم أجد في نبرة صوته ما ينبئ أنّ السيل الذي أترقّبه سيأتي بالسرعة التي أريد. اختلست النظر إليه، فوجدته شارداً. لقد كان يستمع إلى الخبر الذي أفضّل أن أموت على أن أتلفّظ به على مسمعه.

تعجّبتُ عندما سمعت إدوارد يضحك ضحكة خافتة رغماً عنه.

«وكنتُ أظنّ أنّي أنا الذي لا يراعي المشاعر في النزاع». قال شاكياً ومظهراً إعجابه بنفسه، «أبدو بالنسبة إليه قديساً، ورائداً في حسن الأخلاق». ولمس بأصابعه الباردة المساحة الظاهرة من خدّي. «لستُ مستاءً منكِ، لقد أظهر جايكوب بأنّه ماكر أكثر ممّا كنت أعتقد. ولكنّي كنتُ أتمنّى فقط لو لم تطلبي منه».

«إدوارد»، همست، وعيناي لا تزالان إلى الأسفل: «أنا. . . ، أنا، أنا. . .».

أسكتني. «شش» وأصابعه تداعب خدّي. أقصد أنّه كان سيقبّلك في جميع الأحوال، ولكن لو لم تصدّقي ادعاءه وتطلبي منه ذلك بنفسك، لكان بإمكاني أن أستفيد من إخلاله بالشرط، وأقوم بتحطيم وجهه.

«أصدّق ادّعاءه؟»، تمتمت باستغراب.

«بيلاّ، هل صدّقتِ حقّاً أنّه بهذا القدر من النبل؟ وأنّه قادر على أن يضّحي بحياته وأن يبتعد أو يفسح المجال من أجلي؟».

رفعتُ نظري لأرى عينيه. فلاحظت فيهما صبراً وعطفاً عوضاً عن النفور الذي كنت أستحقّه.

أجبته بصوتٍ خافت: «نعم لقد صدّقت ذلك». وأشحتُ بنظري من جديد. لكنّي لم أشعر بالغضب على جايكوب لأنّه خدعني. لم أقوَ على التفكير في تلك اللّحظة سوى بحقدي على ذاتي.

ضحك مجدّداً، وقال: «أنتِ يا بيلاّ لا تتقنين الكذب أبداً ولذلك تصدّقين ما يُقال لك بسهولة».

«أستغرب أنّك لستَ غاضباً منّي. . . ، أم أنّك لم تطّلع على كلّ ما حدث بعد!؟».

فقال بلهجة بسيطة وخالية من الانفعال: «أصبحت الصورة واضحة لديّ إلى حدٍّ بعيد. فجايكوب يستعيد الصوَر في مخيّلته بكل تفاصيلها. إنّها تسيء إلى مشاعر رفاقه الذئاب مثلما تسيء إلى مشاعري إلى حدّ كبير، ويكاد سيث المسكين أن يتقيّأ من شدّة الاشمئزاز، لكن سام نجح في حثّ جايكوب على التركيز الآن».

شعرت بغيظٍ مميت فأدرتُ رأسي وأغمضت أجفاني.

«أنتِ لستِ سوى إنسانة يا بيلاّ». همس وهو يداعب شعري.

«هذا أتعس عذرٍ سمعتُه في حياتي».

«ولكنّك إنسانة، ولسوء حظّي. . . ، هو إنسان أيضاً. هناك ثغرات غامضة في حياتك أعجز عن ملئها. أنا أتفهّم ذلك».

«ليس هذا صحيحاً. لا توجد ثغرات في حياتي، ولهذا أشعر بالخجل الشديد».

لكنّه تمتم بهدوء: «أنتِ تحبّينه».

«أحبّك أكثر». قلت.

«نعم، أعلم ذلك أيضاً. ولكن. . . ، عندما تركتك يا بيلاّ، كنتِ تنزفين والفضل يعود إلى جايكوب في التئام جراحك. كان لهذا الواقع أن يترك أثره عليكِ وعليه. لا يمكنني محاسبتكما على أمرٍ كنت أنا السبب في حدوثه. قد أنال العفو عن الخطأ الذي اقترفته، ولكن لا يمكنني التهرّب من نتائجه».

«كالعادة، أنت تلقي اللّوم على نفسك. لا أطيق هذا الأسلوب، أرجو أن تقلع عنه».

«ماذا تريدينني أن أقول؟».

«أريدك أن تطلق عليّ جميع الأوصاف البشعة التي تخطر في بالك، وبكلّ لغة تعرفها. أريدك أن تقول إنّي أسبّب لك الاشمئزاز وأن تهدّدني بالهجر حتّى أقع على ركبتيّ وأتوسّل إليك ألاّ تتركني».

«آسف، لا يمكنني أن أفعل ذلك».

«إذاً، لا تحاول أن تواسيني. دعني أتعذّب وأنال ما أستحقّ».

فتمتم: «كلاّ».

قلت: «أنتَ على حقّ...، استمرّ في تصرّفك اللّطيف فهذا بالتأكيد يزيد في عذابي».

بقي صامتاً خلال لحظات، فأحسست بتوتر طارئ في الأجواء.

«اقترب الوقت». قلت.

«نعم، لم يبقَ أمامنا سوى بضع دقائق. قد يسمح لنا هذا الوقت...».

انتظرت ما سيقول. وعندما تكلّم أخيراً، قال هامساً: «سأتصرّف بنبل يا بيلاّ ولن أطلب منك الاختيار بيننا. أريدك أن تكوني سعيدة، ويمكنك الحصول على الجزء الذي تريدينه منّي، أو على لا شيء البتّة إن أحببتِ».

قمت بسرعة على ركبتيّ، وصرختُ ساخطة: «توقّف عن هذا الكلام!».

فنظر إليّ بتعجّب، وقال: «كلاّ...، لم تفهمي قصدي. أنا لا أقصد يا بيلاّ التخفيف عنك بل أعني ما قلته حرفيّاً».

«أعلم ذلك». قلتُ مغمغمة. وأضفت: «لماذا لا تقاوم؟ لا تقل لي إنّك ستتصرّف بنبل وتضحّي بسعادتك. صارع من أجلي ولا تستسلم يا إدوارد».

قال: «كيف؟» ولمحت ظلّ حزنٍ قديم يطلّ من عينيه.

قفزتُ بخفّة إلى حضنه ولففتُ ذراعيّ حوله. وقلت:

«لا تهمّني برودة الطقس هنا، ولا يهمّني إن كانت رائحتي كريهة كرائحة الكلاب الآن؛ دعني أنسى قبحي واجعلني أنساه. اجعلني أنسى من أنا. قاوم يا إدوارد!».

لم أنتظر إجابته...، ولا قوله إنّه فقد رغبته في فتاة متوحّشة وقاسية وخائنة مثلي، بل اقتربت كثيراً منه وأطبقت شفتيّ على شفتيه.

«رويداً يا حبيبتي»، تمتم منبّهاً من خطر اندفاعي وإلحاحي.

فغمغت: «كلاّ».

ولكنّه أبعد وجهي عنه بلطفٍ، وقال: «لا تشعري بضرورة إصلاح أيّ أمر».

«أنا لا أحاول إصلاح أيّ أمر. ألم تقل إنّه بإمكاني الحصول على أيّ جزء منك، أريد الآن هذا الجزء، وأريد كلّ جزء». وغمرته بذراعيّ وحاولت الوصول مجدّداً إلى شفتيه. حنى رأسه ليقبّلني، لكنّي شعرتُ بتردّده فزاد إصراري. وأمام جموح رغبتي والتهاب جسدي، تراجع إدوارد كالعادة ومنعني من التمادي.

وقال ببرود: «الوقت الآن ليس مناسباً».

فأجبت: «ولمَ لا؟».

«أوّلاً، لأنّ الطقس بارد جدّاً». ومدّ يده والتقط الفراش وألقاه على ظهري وكتفيّ كأنّه غطاء.

قلتُ: «أنتَ مخطئ، فالسبب الأوّل هو أنّ تمسّكك بقواعد الأخلاق إلى هذه الدرجة يدلّ على أنّك مصّاص دماء غريب الأطوار».

ضحك وقال: «حسناً، أوافق معك على هذا. البرد إذن يأتي في الدرجة الثانية، وبعد ذلك...، فإنّ رائحتك لا تطاق يا حبيبتي».

ثمّ زمّ أنفه.

فتنهّدت.

«رابعاً»، تمتم وهو يحني رأسه، وأكمل هامساً في أذني: «سنحاول يا بيلاّ. سأفي بوعدي. ولكن أفضّل ألاّ يحدث ذلك كردّ فعل على جايكوب بلاك».

انكمشت بخجل، ودفنت وجهي في صدره.

ثمّ قال: «وخامساً...».

«إنّها تبدو قائمة طويلة...» دمدمت.

ضحك. «نعم، ولكن هل ترغبين في متابعة وقائع المعركة أم لا؟».

لم يكمل كلامه، حتّى ارتفع عواء سيث الحادّ في الخارج.

تشنّجت أوصالي، واشتدّت قبضة يدي اليسرى المربوطة بحركة عصبيّة، فتنبّه لها إدوارد وفتح أصابعي بلطف.

«سنربح المعركة»، قال لي مطمئناً. «فالمهارة وحسن التدريب وعنصر المفاجأة إلى جانبنا. سينتهي القتال بسرعة صدّقيني. لو لم أكن مؤمناً بذلك حقّاً، لكنتُ الآن بين المقاتلين، وأنتِ موثوقة إلى إحدى الأشجار».

قلتُ بصوتٍ باكٍ: «آليس صغيرة الحجم...!».

ضحك وقال: «قد يؤخذ هذا الأمر بعين الاعتبار لولا سرعتها واستحالة الامساك بها».

وراح سيث يصدر نباحاً حزيناً.

فسألت إدوارد بإلحاح: «ماذا حدث؟ ما المشكلة؟».

«سيث يعبّر عن غضبه لأنّ رفاقه أصّروا على بقائه هنا خوفاً على سلامته، وهو يموت شوقاً للذهاب إلى المعركة».

قطّبت حاجبيّ ونظرت في ذلك الاتجاه، حيث توقّعت أن يكون سيث واقفاً خارج الخيمة.

«خطّة جاسبر تسير بدقّة الساعة. يا له من عبقريّ! لقد وصل الجدد إلى رأس الدرب حيث تركتِ رائحتك البارحة. وفي الوقت عينه وصلت إلى أنوفهم رائحة الموجودين في الساحة. لقد انقسموا إلى قسمين، كما توقّعت آليس». كان إدوارد ينقل إليّ بتركيز تامّ تطوّر الأحداث. ثمّ صوّب عينيه إلى شيءٍ معيّن في نقطةٍ بعيدة، وتمتم متكلّماً بضمير الجمع عن الذئاب: «يقودنا الآن سام من الجهة الأخرى على رأس المجموعة التي ستفاجئهم وتوقعهم في الفخّ».

وفجأةً نظر إليّ وقال: «تنفّسي يا بيلاّ».

حاولت بصعوبة استعادة أنفاسي. كان لهاث سيث المنتظم يصل إلى أذنيّ من الخارج، فحاولت التنفّس بالوتيرة ذاتها حتى لا أقع فجأةً في خطأ التنفّس السريع والمفرط.

«وصلت المجموعة الأولى إلى الساحة الآن. يمكننا سماع جلبة القتال!».

أغلقت فكيّ بإحكام.

وأصدر إدوارد ضحكة قصيرة: «يمكنني سماع صوت إيميت. فهو يبدو مستمتعاً».

ثمّ أخذت نفساً آخر مع سيث.

أصدر إدوارد غمغمةً مبهمة.

قلتُ: «ماذا؟».

«إنّهم يتكلّمون عنكِ، ويريدون الإسراع قبل أن تهربي...» ثم تمتم بإعجاب: «رائع يا ليا...، إنّها سريعة!».

وتابع إدوارد: «التقط أحد الجدد رائحتنا، فانقضّت عليه لِيا قبل أن يتسنّى له أن يدير رأسه. وسام يساعدها الآن للقضاء عليه كليّاً. تغلّب

جايكوب وبول على مصّاص دماء جديد آخر وتخلّصوا منه. أمّا الآخرون فهم الآن في موقع ردّ الهجوم والدفاع عن أنفسهم. لقد فوجئوا ولا يعلمون ماذا يمكنهم أن يفعلوا. أرى أنّ الفريقين يحاولان اعتماد الحيلة الآن. . .، لا، اترك القيادة إلى سام! لا تقف في طريقه. ادفعوهم إلى أن يتفرّقوا حتّى لا يحمي واحدهم ظهر الآخر».

أصدر سيث نباحاً كأنّه أنين.

ولكنّ إدوارد قال مؤيّداً: «هذا أفضل، ادفعوهم نحو الساحة». وكان جسده يتحرّك بعصبيّة وكأنّه يقاتل بالفعل، ويداه تمسكان بيديّ، فعقدتُ أصابعي في أصابعه، وقلتُ في نفسي: «على الأقل، هو بجانبي وليس في ساحة القتال».

غياب الأصوات المفاجئ كان الإنذار الوحيد.

توقّفت أنفاس سيث عن النمط الذي كنت أرافقه به. فعلمت أنّ تغيّراً ما قد حدث.

توقّفت عن التنفّس أيضاً من شدّة الخوف عندما لاحظتُ أن إدوارد قد تحوّل إلى تمثال من الجليد أمامي.

أوه، لا. لا، لا.

من مات؟ أحدٌ منهم أم منّا؟ من مات من الذين أحبّهم؟ مَن خسرت أنا شخصيّاً؟

وفجأةً وجدت نفسي في العراء، لم أدرِ كيف مزّق إدوارد الخيمة وبأيّ سرعة ولماذا.

فتحت عينيّ بصعوبة تحت أشعّة الشمس الساطعة. ولم أرَ من المشهد حولي سوى سيث وكان يقف قريباً منّا. لم يكن بين وجهه ووجه إدوارد سوى بضع سنتيمترات. حدّق الواحد في عينيّ الآخر بتركيز شديد خلال ثانية حسبتها دهراً.

ثمّ همس إدوارد بسرعة: «إذهب يا سيث!».

وما لبث الذئب الضخم أن اختفى في عمق الغابة.

ثانيتان من الوقت... كأنّهما ساعات! أصبتُ برعبٍ شديد، وكدت أتقيّأ لظنّي أنّ أموراً مريعة تحدث في ساحة القتال. فتحتُ فمي لأطلب من إدوارد أن ينقلني حالاً إلى هناك، ولأقول له إنّهم بحاجة إليه وإليّ أيضاً. إن كان عليّ أن أمزّق صدري وأجعل دمي يسيل، وألاقي الموت لأخلّصهم، سأقوم بذلك كما فعلت الزوجة الثالثة. لا أحمل في يدي خنجراً فضيّاً، ولكن لا بدّ أنّي سأجد طريقةً أخرى لأجرح صدري.

وقبل أن أتفوّه بكلمة، شعرتُ وكأنّي طرتُ في الهواء. كانت يدا إدوارد ممسكتين بي. لقد قام إدوارد بنقلي من حيث كنّا إلى مكان آخر قريب بسرعة خاطفة فشعرتُ كأنّي طرتُ ثمّ وقعت أرضاً.

ثمّ وجدتُ نفسي واقفة وراء إدوارد، وظهري مثبتاً إلى الصخرة الكبيرة الملساء. لكنّ وضع إدوارد أمامي كالدرع الواقي جعلني أفهم ما يحدث في الحال.

شعرتُ وكأنّ أثقالاً قد رفعت عن كتفيّ...، وفي اللّحظة عينها، خلتُ أنّ قلبي قد هبط إلى قدميّ.

لقد أسأت فهم ما حدث.

شعرتُ بالارتياح فالمقاتلون ما زالوا بخير.

وبالذعر...، لأنّ ذروة المواجهة ستكون هنا.

وقف إدوارد أمامي متربّصاً وذراعاه مفتوحتان. فعادت إلى ذاكرتي تجربة مماثلة عشتها معه في إيطاليا، عندما دافع عنّي وخلّصني من براثن محاربي الفولتوري.

نحن مهدّدون بهجوم.

همست: «من سيهاجمنا؟».

وإذا بصوتٍ يرتفع مزجراً من صدره. ففهمتُ أنّه لم تعد هناك فائدة من الهمس، ولا مجال للاختباء. لقد وقعنا في الفخّ.

فقال بقرف وكأنّه يشتم: «فيكتوريا ومعها مرافق. لقد التقطت رائحتي وهي في طريقها لتراقب سير المعركة، ولم تكن بالطبع مصمّمة على الاشتراك في القتال. التقطت رائحتي وهي في الطريق، فقرّرت فوراً المجيء إلى هنا، لأنّها توقّعت أن تكوني معي. كان توقّعها صائباً، كما كان توقّعك صائباً بأنّ المعتدية كانت ولا تزال فيكتوريا».

باتت قريبة منّا، وأصبح بإمكان إدوارد سماع ما يدور في رأسها.

لمع بريق أمل في نفسي. لو كان القادمون للاعتداء علينا من الفولتوري، لتوقّعت الموت لكلينا. ولكن إدوارد قادر على التغلّب على فيكتوريا لأنّه محارب بارع مثل جاسبر. فإن لم يأتِ برفقتها كثيرون، فسيتمكّن إدوارد بفضل سرعته في القتال من البقاء حيّاً والعودة إلى عائلته.

شعرتُ بالارتياح لابتعاد سيث عن المكان. لا أتوقّع أن يتمكّن سيث من استدعاء أحد لنجدتنا، فقد أحكمت فيكتوريا توقيتها والجميع منشغلون في المعارك الأخرى. عندما أفكّر بسيث، أرى أمامي صبيّاً في الخامسة عشرة من عمره، وليس ذئباً ضخماً كالذي كان هنا منذ قليل.

استدار جسد إدوارد بدرجة خفيفة جدّاً، فتحوّلت بنظري إلى ذلك الاتجاه بالذات، وبعد قليل رأيت اثنين من مصّاصي الدّماء يخرجان من الغابة ويتقدّمان نحونا. فانتابني شعور أنّ كوابيسي اللّيلية أتت لملاقاتي.

كانا يلمعان في الشمس كحجارة ألماس، وعيونهما مصوّبة نحونا.

ألقيت نظرة سريعة على مرافقها. كان شابّاً يافعاً وأشقر، قامته طويلة وعضلاته مفتولة. توقّعت أن يكون قد تحوّل إلى مصّاص دماء وهو في مثل سنّي. وعيناه التي كانتا بلون الدم القاني لم تتحملا نظراتي فتهرّبتا منها. كان من الطبيعي أن أستمرّ في مراقبته لكونه على مسافة أقرب من إدوارد، ومصدر الخطر الأوّل، لكنّي لم أفعل.

وراءه، وعلى بُعد بضع أقدام، كانت فيكتوريا تُحَمْلق بي.

وشعرها البرتقالي يلمع حول وجهها كألسنة من نار.

أمّا الهالة السوداء الداكنة حول عينيها فتشير إلى شدّة ظمئها. لم تبتسم كما كانت تفعل في كوابيسي...، بل شدّت فمها فبدا كأنّه خط مستقيم ضيّق. كانت تتحرك بأسلوب ذكّرني بالحيوانات السنّورية. فبدت كأنّها لبوة تترقب الفرصة المناسبة للانقضاض على فريستها. وكانت تنقل نظراتها المتوحّشة بين إدوارد وبيني، لكنّها لا تتوقّف عنده أكثر من نصف ثانية. لم تتمكّن من رفع عينيها عن وجهي، واستحال عليّ إشاحة نظري عنها.

كانت تموّجات التوتّر الصادرة عنها واضحة وتكاد تُرى في الهواء. تحسّست شهوتها والحقد الذي كان يغذّي جنونها. وكنت على علم شبه أكيد بما كان يدور في رأسها كأنّي قادرة على قراءة الأفكار أيضاً.

كانت على مسافة قريبة من هدفها. الهدف الذي كان محور حياتها طيلة عامٍ كامل، بات قريب المنال جدّاً في تلك اللّحظات: إنه موتي.

كانت خطّتها شديدة الوضوح وعمليّة جدّاً. سيحاول الشاب الأشقر مهاجمة إدوارد، فينشغل هذا الأخير بمقاتلته عن حمايتي، عندئذٍ تنقضّ هي بنفسها عليّ وتسرق الحياة منّي.

وينقضي الأمر بسرعة. لن تضيّع فيكتوريا وقتاً طويلاً في هذه العمليّة، ولكنّ النتيجة ستكون نهائية وغير قابلة للترميم. حتّى سمّ مصّاصي الدّماء لن ينفع في مداواتي.

سيترتّب عليها إيقاف قلبي عن العمل. قد تفكّر في مدّ يدها إلى داخل قفصي الصدري واقتلاعه؛ أو ربما تلجأ إلى وسيلة أخرى مشابهة.

تسارعت ضربات قلبي بجنون وعلت ضجّتها، وكأنّ قلبي المسكين كان يستعجل وصول المُغتصِبة إليه.

ودوّى من أطراف الغابة البعيدة السوداء عواء ذئب. ماذا يعني هذا العواء يا تُرى ومن سيفسِر لنا ذلك في غياب سيث!؟

التفت الشاب الأشقر إلى فيكتوريا بطرف عينيه، منتظراً أوامرها.

تأمّلت ذلك الشاب فتيقّنت أنّه لم يتحوّل إلى مصّاص دماء منذ زمن طويل. لا بدّ أنّه قويّ ولكنه يفتقر إلى الخبرة. سيتدبّر إدوارد الأمر معه، وسيتغلّب عليه.

رفعت فيكتوريا ذقنها في اتجاه إدوارد مشيرةً إلى الشابّ بمهاجمته.

«ريلي»، ناداه إدوارد بصوتٍ هادئ ومشجّع على التفاهم.

فتجمّد الشاب الأشقر في مكانه كالصنم.

«إنّها تخدعك يا ريلي»، قال له إدوارد، «مثلما خدعت الآخرين الذين يموتون الآن في ساحة المعركة. أنتَ تعلم أنّها تخدعهم، ودفعتك أنتَ أيضاً لخداعهم ولتكذب عليهم بالقول إنكما ستذهبان لمساعدتهم. هل من الصعب عليها أن تخدعك أنتَ أيضاً؟».

سيطر الارتباك على وجه ريلي.

ثمّ قام إدوارد بالتحرك جانباً فابتعد بضع سنتيمترات عن مكانه، وسرعان ما تبعه ريلي.

«إنّها لا تحبّك يا ريلي». قال له إدوارد بصوتٍ هادئ وبلهجة تستهدف الإقناع بالقوّة، وكأنّه يمارس عليه التنويم المغنطيسي. وتابع: «لم تحبّك في حياتها. كانت تحبّ رجلاً يدعى جايمس. وأنتَ الآن لستَ سوى أداة في يدها».

عندما لفظ إدوارد اسم جايمس، كشّرت فيكتوريا عن أسنانها. أمّا عيناها فبقيتا مركّزتين عليّ.

التفت إليها ريلي ورمقها بنظرة غاضبة.

قال إدوارد: «ريلي؟» فأعاد ريلي نظره إليه.

«إنّها تعلم أنّي سأقتلك، وهي تريدك أن تموت حتّى تتهرّب من ادّعائها الكاذب. حتّى أنّك تعرف ذلك وشعرتَ به. لقد قرأتَ النفور في

عينيها وانتابك الشكّ في بعض وعودها الكاذبة. كنتَ على حقّ. إنّها لا تريدك البتة، وكلّ لمسة وكلّ قبلة لم تكن سوى كذب ورياء».

ثمّ تحرّك إدوارد مرّة ثانية، فاقترب بضع سنتيمترات من الشاب وابتعد مثلها عنّي.

وتحرّكت عينا فيكتوريا أيضاً، وركّزتا على المسافة التي اتسعت بين إدوارد وبيني.

أما ريلي فتحرّك ليواكب حركة إدوارد ولكن ببطء هذه المرّة.

فقال له إدوارد وعيناه لا تفارقان عينيّ الشابّ: «لستَ مجبراً على الموت يا ريلي. يمكنك أن تعيش بطريقة أخرى مختلفة عن حياة الخداع والقتل. يمكنك أن تتركها وتمشي الآن. لستَ مجبراً على الموت ضحيّة لكذبها».

انتقل إدوارد بقدميه قليلاً إلى الأمام، ثمّ إلى اليمين. فاتسعت الفجوة بيني وبينه. أمّا ريلي، فتحرّك أكثر هذه المرّة وابتعد بعض الشيء.

«لديك فرصة أخيرة لاتخاذ القرار يا ريلي...» قال إدوارد بهمس.

فنظر الشابّ إلى فيكتوريا مفتّشاً عن جواب.

«هو الكاذب يا ريلي»، قالت فيكتوريا، وفغرتُ فمي استغراباً لدى سماع صوتها. وتابعت: «أخبرتك عن أساليبهم في التأثير على الأفكار. أنتَ تعرف أنّي لا أحبّ سواك».

لم يكن صوتها كما توقّعته...، قويّاً ومتوحّشاً كهرير القطط الغاضبة، بل كان رنيناً ناعماً ورفيعاً يشبه أصوات الأطفال. لم أتوقّع أن يخرج مثل هذا الصوت من بين تلك الأسنان العارية والمخيفة.

عندئذٍ، فرغت عينا ريلي من الارتباك والشكّ، وباتت خالية من كلّ تعبير، فشدّ فكيه، ورفع كتفيه، وتحفّز للهجوم.

جرح كلام إدوارد فيكتوريا في الصميم، فراحت ترتجف حنقاً

وأصابعها كالمخالب، على استعدادٍ تامّ للانقضاض عليّ، حالما يبتعد إدوارد عنّي بضع سنتيمترات إضافية لا غير.

وارتفعت زمجرةٌ. . . ، لم يكن مصدرها أيّ من المتربّصين أمامي.

وعالياً في الهواء، رأينا كرة ضخمة بلون التراب تطير بسرعة هائلة وتنقضّ على ريلي.

«كلاّ!» صرخت فيكتوريا غير مصدّقة عينيها.

وأمامي، على بعد أقل من مسافة متر واحد، أخذ الذئب الضخم يمزّق بأنيابه جسد مصّاص الدماء الجاثم تحته، وما هي إلا لحظات حتى ارتطم شيءٌ أبيض وقاسٍ بالصخرة عند قدمَيّ، فانكمشت مذعورة.

لم تكلّف فيكتوريا نفسها التفاتة واحدة نحو الشابّ الذي أعلنت له حبّها على مسامعنا منذ لحظات. كانت عيناها لا تزالان مصوّبتين عليّ، ولكنّ خيبة الأمل زادت من شراسة نظراتها فبدت كالمجنونة.

«كلاّ!» قالت بحنق، عندما رأت إدوارد يتقدّم نحوها قاطعاً الطريق بينها وبيني.

وقف ريلي على قدميه من جديد وبدا متعثّراً ومنهكاً، ولكنّه استطاع تصويب ركلة سيئة إلى كتف سيث. سمعتُ صوت عظامٍ تتحطّم، ورأيت سيث يبتعد ويدور على ثلاث قوائم. مدّ ريلي ذراعيه جاهزاً لاستئناف القتال، فلاحظت أنّه فقد جزءاً من إحدى يديه.

وعلى بعد أمتار قليلة من هذه المعركة، كان إدوارد وفيكتوريا يرقصان.

حرص إدوارد على عدم التحرّك بشكلٍ دائري معها خوفاً من أن تصل إلى نقطة تقترب فيها منّي. فقامت بخطوة صغيرة إلى الوراء وراحت تتحرّك إلى اليمين وإلى اليسار في محاولة لتجد ثغرة في خطّ دفاعه. وكان يماشي حركة قدميها كالظل مطارداً إيّاها بتركيز تامّ. ثمّ أخذ يتحرّك قبلها بنصف ثانية، قارئاً أفكارها حول ما تنوي القيام به.

شنّ سيث هجوماً جانبيّاً على ريلي وسمعتُ زعقة ألم تخترق الجوّ. وطارت قطعة غليظة بيضاء إلى الغابة وارتطمت بالأرض. هدر ريلي بحنق شديد، وانسحب سيث إلى الوراء بخفّة لافتة بالنسبة لضخامة حجمه، هارباً من ضربة صوّبها إليه ريلي بيده المبتورة.

كانت فيكتوريا في هذه الأثناء تسير بحركة متلوية بين الأشجار عند طرف الغابة وإدوارد يسير قبالتها في حركة موازية. كانت قدماها تشدّان بها للهروب إلى برّ الأمان فيما عيناها لا تزالان تنظران إليّ بنَهَم وكأنّ بي قوّة مغنطيسية. فعرفتُ أنّها تتمزّق بين غريزة حبّ البقاء من جهة، وجموحها إلى قتلي من الجهة الثانية.

انتبه إدوارد إلى هذا الصراع الذي في داخلها أيضاً.

«لا تذهبي يا فيكتوريا»، قال لها بأسلوب التنويم المغنطيسي ذاته، «لن تحصلي على فرصة سانحة مثل هذه بعد الآن».

كشّرت عن أسنانها وفحّت كالأفعى، ولكنّها لم تتمكّن من الابتعاد عنّي أكثر.

فقال إدوارد بصوتٍ خفيض: «سيكون بإمكانك الهروب لاحقاً. هناك مزيد من الوقت لتقومي بذلك. مهارتك في الفرار هي التي دفعت جايمس للاحتفاظ بك. إنّها مفيدة لمن يهوى المغامرات المميتة. لو لم يتركك جايمس، لاستطاع الاستفادة من أساليبك الغرائزية المتفوّقة في الهروب عندما أطبقنا عليه في فينكس».

خرجت زمجرة مسموعة من صدرها لم تمنع إدوارد من المتابعة:

«هذا كلّ ما كنتِ بالنسبة إليه. أليس مؤسفاً أن تهدري كلّ طاقتك لتأخذي ثأر رجل لم يعتبرك سوى أداة لنيل غايته؟».

وبصرخةٍ مخنوقة قفزت فيكتوريا إلى خارج منطقة الأشجار، وعادت الرّقصة بينها وبين إدوارد لتُستأنف من جديد.

في هذا الوقت أمسك ريلي بساق سيث فأخذ هذا الأخير يزفر لهاثاً خافتاً. انفلت من قبضة مصّاص الدماء، ثم قفز إلى الوراء وارتعش بقوّة كأنّه ينفض عن نفسه الألم.

«أرجوك»، كنت أودّ أن أقول إلى ريلي لو وجدت القدرة على فتح فاهي وإخراج الهواء من صدري. «أرجوك، فهو ليس سوى صبيّ يافع».

لماذا لم يهرب سيث؟ لَمَ هو باقٍ هنا؟

عاد ريلي ليقترب منه، وليدفعه إلى مكان وجودي عند الصخرة. وكأنّ فيكتوريا تذكّرت فجأةً الاهتمام بمصير مساعدها، فرمقته بنظرة من طرف عينها لكي تقدّر المسافة التي تفصله عنّي. لكنّ سيث قفز في وجه ريلي وأجبره على الابتعاد والرجوع إلى الوراء. عندئذٍ أصدرت فيكتوريا هسيساً مقيتاً.

كان سيث قد تغلّب على ألمه وعاد ليتحرّك بشكلٍ طبيعي على قوائمه، فأخذ يدور وراء ريلي ويدفع به إلى وسط المكان، ثمّ وقف على مسافة سنتيمترات من إدوارد ولمسه بذيله، فجحظت عينا فيكتوريا وهي تنظر إليهما.

«لا تظنّي أنّه سيهاجمني»، قال إدوارد مجيباً عن السؤال الذي قرأه في رأسها، ومغتنماً فرصة انشغالها ليقترب منها أكثر. وتابع: «لقد جعلتِنا في موقع الدفاع عن عدوّ مشترك فأصبحنا بفضلِك حلفاء».

أطبقتْ أسنانها بإحكام محاولةً استعادة تركيزها على إدوارد.

لكنّه عرف كيف يلهو بخيوط انتباهها من جديد، فتمتم قائلاً: «انظري إليه جيّداً يا فيكتوريا، ألا يشبه الوحش الذي طارده جايمس في سيبيريا؟».

فتحت عينيها أكثر وراحت تنقلهما من إدوارد إليّ، ثمّ إلى سيث. وقالت بصوتها الرفيع: «ليس هو؟ هذا مستحيل!».

فقال إدوارد بصوته المخملي الهادئ، وهو يقترب منها أكثر: «لا شيء مستحيلاً، سوى ما تنوين فعله. لن تتمكّني في حياتك من لمسها».

هزّت برأسها باستخفاف، وحاولت أن تقفز إلى ورائه، لكنّه منعها على الفور. انقبض وجهها امتعاضاً، وأحكمت وقفتها المتحفّزة استعداداً للهجوم على إدوارد، فبدت كاللّبوة تماماً وهي تقترب بخطًى ثابتة نحوه.

لم تكن فيكتوريا جديدة مثل ريلي، تطيع غرائزها وتفتقر إلى الخبرة. بل كانت صعبة ومميتة. ولو قاتل سيث فيكتوريا وليس ريلي لما بقي حيّاً حتى الساعة.

أحكم إدوارد وقفته المتحفّزة أيضاً وظهر كالأسد في مواجهة اللّبوة.

اشتدّت سرعة الخطوات الصغيرة التي كانا يرسمانها. تذكّرت مشهد آليس وجاسبر في الساحة، ولكنّ الرقصة اليوم ليست على المستوى ذاته من الدقّة. كنت أسمع أصوات طقطقة وقرقعة حادّة تتكسّر أصداؤها فوق سفح المرتفع الصخري كلّما انزلقت أو تعثّرت أقدامهم في حركتها السريعة.

انشغل ريلي في مراقبة رقصة العنف وكانت عيناه تتابعان تقدّم شريكته بشغف. اغتنم سيث تلك الفرصة لينقض على مصّاص الدماء الشاب ويقضم من جسده قطعة صغيرة أخرى. وإذا بهذا الأخير يجأر من الألم ويردّ بضربة خلفية أصابت سيث في وسط صدره العريض. طار جسد سيث الضخم بضعة أمتار في الهواء، وهبط على الحائط الصخري فوق رأسي، محدثاً ضجّة عظيمة كادت تهزّ القمّة الصخرية بأكملها. سمعت صوت النفس ينطلق من صدره بوشّة كبيرة، فانكمشت لأداري خطر اصطدامه بي، عندما ارتدّ جرّاء قوّة الارتطام وعاد ليطير من جديد ويقع هذه المرّة على الأرض على بعد بضعة أمتارٍ منّي.

وسُمِع أنين منخفض من بين أسنان سيث.

وإذا بحجارة من فتات الصخر تتدحرج فوقي وتخدش جلدي، فسارعت بحركة تلقائية والتقطت إحداها قبل أن تصل إلى ذراعي اليمنى وتحطّمها. شعرت في تلك اللّحظة أنّ غريزة حبّ البقاء قد استيقظت في نفسي. أمام انعدام فرص الهروب تحضّر جسدي للدّفاع من أجل الحياة برغم ضآلة قدراته.

شعرت باندفاع الأدرينالين في عروقي، فتذكّرت الرّباط الذي كان يشدّ على كفّي والكسور في أصابعي، لكنّ جسدي تجاهل الألم.

وراء ريلي، لم أرَ سوى ألسنة نيران حمراء تتلوّى وأشباح بيضاء في اهتزاز مستمرّ. وكنت أسمع أصوات يتخلّلها لهاث مذعور وبكاء وهسهسة موتورة. فعرفت أنّ المعركة لن تنتهي إلاّ بموت أحد.

ولكن من؟

مشى ريلي نحوي مترنّحاً وعيناه تشتعلان غضباً. تطلّع إلى جبل الفراء الترابي اللّون الملقى على الأرض بيني وبينه، وكانت يداه المشوّهتان ملتفّتين كحوافر الحيوان. أما فمه فمفتوح على مصراعيه وأسنانه ظاهرة ومخيفة، وبدا متربّصاً للانقضاض على سيث ودقّ عنقه.

شعرت بدفعة جديدة من الأدرينالين في عروقي. وفجأةً بدت الصورة واضحة أمامي.

تدور المعركتان على مقربة منّي. كنتُ أرى سيث على وشك الخسارة، ولم يكن لديّ فكرة إن كان إدوارد سيربح أم سيخسر. هما بحاجة إلى المساعدة. ففكّرت في القيام بشيء يشتّت انتباه الفريق الآخر ويساعد أصدقائي على استعادة السيطرة.

أحكمت قبضتي على قطعة الصخرة المسنّنة التي في يدي.

هل لديّ القوّة الكافية؟ هل لديّ الشجاعة الكافية؟ هل يمكنني أن أضغط بقوّة على هذا الحجر لكي أجرح جسدي؟ وهل سأنجح في

إعطاء سيث بعض الوقت لكي يسترجع قواه. هل سيستعيد قواه بسرعة كي يكون هناك فائدة من تضحيتي؟

رفعت كمّ كنزتي لأكشف عن ذراعي ووضعت رأس الحجر الجارح فوق مرفقي من الخلف عند طيّات الجلد؛ لا يزال أثر الجرح الذي أصبتُ به في عيد ميلادي الماضي واضحاً. لقد تدفّق دمي في تلك اللّيلة وسال إلى درجة تكفي للفت نظر كلّ مصّاصي الدماء وإصابتهم بالانصعاق والذهول. صلّيتُ لكي يتدفّق دمي بقوّة مثل المرّة الماضية. ثمّ شددتُ أوتار عضلي وتنفّست بعمق.

انتبهت فيكتوريا لصوت تنفّسي العميق، فتوقّفت عيناها عن الحركة خلال جزء يسير من الثانية، والتقت بعينيّ. واختلطت فوق وجهها أمارات الغضب والفضول معاً.

ما زلتُ أجهل كيف استطعت أن أسمع ذلك الصوت الخافت بين جميع الأصوات الأخرى التي كانت أصداؤها ترتدّ فوق الجدار الصخري ورائي. وحتى ضربات قلبي كان بإمكانها أن تعلو فوقه. ولكن في ذلك الجزء اليسير من الثانية عندما رأيت عيني فيكتوريا، وصلت إلى أذني تنهيدة ساخطة ألفتها.

وفي تلك الثانية عينها انكسرت وتيرة الرّقص بقوّة وتفرّق الراقصان. حدث كلّ ذلك بسرعة يستحيل عليّ مواكبتها، ولكنّي قمتُ باستعادة ما جرى في عقلي.

طارت فيكتوريا في الهواء وارتطمت بجذع شجرة عالية، ثمّ سقطت على الأرض وهي في وضع التأهّب للانقضاض.

وفي اللحظة عينها كان إدوارد قد استدار بلمح البصر، وأمسك بذراع ريلي في غفلةٍ منه، ثمّ أسدى ركلةً قويّة إلى ظهره. فأطلق هذا الأخير صرخة ألم حادّة مزّقت الأجواء.

عندها قفز سيث وانتصب مجدّداً على قوائمه مانعاً عنّي الرؤية.

ولكنّي كنت لا أزال قادرة على رؤية فيكتوريا. ولاحظت أنّها لا تقوى على الوقوف بشكل مستقيم بسبب أذيّة قد لحقت بها. لكنّها رسمت على وجهها تلك الضحكة العريضة الوحشيّة التي أعرفها جيّداً في كوابيسي.

التفّت على نفسها، ثمّ شبّت.

لم أدرِ ما ذلك الشيء الأبيض الصغير الذي أحدث صفيراً في الهواء، ثمّ جلبة كبيرة عند اصطدامه، فغيّر وجهتها وأرسلها لترتطم بشجرة انكسرت إلى نصفين. وقد سقطت على قدميها مجدّداً وأيضاً كانت جاهزة للانقضاض. لكنّ أدوارد قد عاد للتربّص لها. لاحظتُ أنّه قادرٌ على الوقوف بشكلٍ طبيعي فاطمأنّ قلبي.

ورفست فيكتوريا بقدمها شيئاً، وكان ذلك هو الصاروخ الذي اصطدم بها في الهواء. تدحرج هذا الشيء نحوي فنظرت إليه وعرفت ما هو.

انقلبت معدتي وتقيأت.

كانت الأصابع لا تزال تتحرّك، وتتمسّك بالعشب. إنها ذراع ريلي وقد بدأت تزحف على الأرض.

أخذ سيث يدور وراء ريلي من جديد، ولكن هذا الأخير كان يحاول الانسحاب. أخذ يتراجع أمام الرّجل الذئب وتصلّب وجهه من شدّة الألم، وراح يرفع ذراعه الباقية في حركة دفاعية.

قفز نحوه سيث بسرعة فاختلّ توازن مصّاص الدماء ووقع أرضاً. وإذا بسيث يهجم عليه ويغرز أنيابه في كتفه ويمعن فيه تمزيقاً، ثم يعود ويقفز إلى الوراء.

وبصرخة ألمٍ مريع أخرى خسر ريلي ذراعه الثانية.

وبانتفاضةٍ برأسه، قذف سيث الذراع في اتجاه الغابة. ثم سمعت صوتاً غريباً صادراً عنه، كأنّه ضحكٌ ساخر.

وصرخ ريلي متوسّلاً النجدة: «فيكتوريا!».

لم تتحرّك فيكتوريا لدى سماع المناداة، ولا التفتت عيناها إلى شريكها لحظة.

وثب سيث على ريلي مجدّداً وشدّهما القتال إلى داخل الغابة، ومن هناك سمعت زعقات الألم الحادّة من حنجرة مصّاص الدماء، تبعتها قرقعات تحطّم وأصوات تمزيق.

أحسّت فيكتوريا، التي لم تكلّف نفسها إلقاء نظرة وداع على صديقها، بأنّها باتت وحيدة. أخذت تتراجع أمام إدوارد ومشاعر الخيبة تتآكلها ثمّ رمقتني بنظرة حرمان ويأس وراحت تتراجع بسرعةٍ أكبر.

«كلاّ»، قال إدوارد بصوتٍ رقيق. «ابقي هنا لوقتٍ أطول».

ولكنّها انطلقت بسرعة الرّمح إلى داخل الغابة.

كان إدوارد أسرع منها فانطلق كالرصاص. انقض عليها من الوراء وانتهت الرّقصة فجأةً.

انحنى إدوارد فوق عنقها بخفّة اللّمس. كانت الأصوات القادمة من ناحية سيث عالية، فمنعت عنّي سماع أيّ صوت يشير إلى العنف الذي رافق هجوم إدوارد الأخير. وبالاعتماد على النظر فحسب، فقد بدا كأنّه يقبّلها.

ولكنّ كرة الشعر البرتقالي الملتهبة انفصلت عن باقي الجسد، وتدحرجت بين جذوع الأشجار.

25

مرآة

بصعوبة أدرت عينيّ المذهولتين لكي أمنع نفسي من التحديق بذلك الجسم المستطيل المغطّى ببعض الخصلات المتناثرة من الشعر البرتقالي اللامع.

كان إدوارد يقطّع الجثّة المقطوعة الرأس بحركة دؤوبة وجادّة.

أردت السير نحوه، ولكنّي لم أستطع رفع قدميّ من مكانهما. فرحتُ أراقب تحرّكاته لأتأكّد من أنه لم يُصَب بأذى. أخذت دقّات قلبي تستعيد وتيرتها الطبيعية عندما رأيته يتحرّك بخفّة ورشاقة كعادته؛ حتّى ثيابه كانت على حالها ولم تتمزّق.

لم ينظر نحوي أبداً، بل ركّز على جمع الأشلاء في كومةٍ واحدة، ثمّ على طمرها بأوراق الصنوبر اليابسة. وبعد ذلك انطلق بسرعة إلى حيث كان سيث.

لم أنتظر طويلاً. فقد عاد إدوارد وذراعاه تحملان أشلاء ريلي ووراءه سيث الذي كان يحمل بفمه قطعةً ضخمة قدّرت أنّها الصدر. رمى الاثنان حملهما فوق الكومة الأولى وأخذ إدوارد ولاّعةً من جيبه وأضرم النار في المحرقة.

ثمّ توجّه إلى سيث بصوتٍ منخفض: «فتّش عن كلّ الأشلاء الصغيرة ولا تترك أيّاً منها».

وراحا معاً يمشّطان المكان، ومن وقتٍ إلى آخر يعودان ويرميان كتلاً بيضاء صغيرة وقاسية في النار. نقل سيث الأشلاء بفمه. لم يكن عقلي متيقّظاً بالقدر الكافي. . .، فتساءلت لماذا لا يستعيد سيث شكله الإنساني ويستعمل يديه.

انتهى الاثنان من تلك العمليّة وارتفعت ألسنة النار والدخان الكثيف في الهواء. كانت الرائحة المنبعثة تشبه رائحة البخور المشتعل، ولكنّها كانت قويّة جدّاً ومن الصعب احتمالها.

ارتفع من صدر سيث نباحٌ متقطّع وكأنّه قهقهة سخرية.

واجتاحت ابتسامة سريعة وجه إدوارد المنقبض.

مدّ إدوارد إحدى ذراعيه نحو سيث فاقترب هذا الأخير مكشّراً عن أنيابه ولمس بأنفه اليد المددودة.

«تعاون مثمر!» قال إدوارد متمتماً.

فضحك سيث على طريقته.

ثمّ التقط إدوارد نفساً عميقاً والتفت ببطء ليحدّق في وجهي.

قرأت في عينيه حذراً وخوفاً لم أفهم أسبابه، فاستغربت الأمر خصوصاً أنّه لم يظهر عليه أيّ أثر للخوف في مواجهة فيكتوريا وريلي. شعرتُ بفكري مكبّلاً عن الحركة مثل جسدي، فنظرتُ إليه بارتباك.

تقدّم نحوي ببطء شديد وذراعاه ممدودتان إلى الأمام ويداه مفتوحتان، وهو يقول: «بيلاّ. . . حبيبتي!» فخطر في بالي، في تلك اللّحظة، أنّه يبدو كمتهمٍ يقترب من أحد رجال البوليس مظهراً أنّ يديه فارغتان من السلاح . . .

«بيلاّ، هل يمكنك أن تُسقطي الحجر من يدك. ولكن بانتباه بحيث لا تؤذي نفسك».

كنت قد نسيت السلاح البدائي الذي في يدي. وعندما ذكّرني به إدوارد تنبّهت إلى أنّي كنت أقبض عليه بشدّة وبأنّ أصابعي كانت

تؤلمني. هل انكسرت مجدّداً؟ سوف يصرّ كارلايل من دون شكّ على أن يضعها في الجص هذه المرّة.

أصبح إدوارد على بعد خطواتٍ منّي، كان يمشي متردّداً ويداه لا تزالان مفتوحتين وعيناه خائفتين.

لم أُسقط الحجرة من يدي إلا بعد لحظات طويلة...، ولكن أصابعي بقيت متشنّجة في وضعها.

ارتاح إدوارد قليلاً بعدما أفرغت يدي، لكنّه لم يتابع اقترابه.

«لا تخافي يا بيلاّ، أنتِ الآن في أمان، وأنا لن أؤذيك».

زاد ذلك الوعد الغامض من ارتباكي. فنظرت إليه كالبلهاء أطلب توضيحاً.

«كلّ شيء سيكون على ما يرام يا بيلاّ. أعلم أنّك خائفة ولكن كلّ شيء قد انتهى. لن أمسّك أنا بأيّ أذى».

أخيراً استعدتُ قدرتي على النطق وقلت له: «لِمَ تقول ذلك؟».

ثمّ رسمتُ خطوة متعثرة نحوه، فابتعد قليلاً.

وهمستُ: «ماذا تعني؟».

فأجاب، وفي عينيه الذهبيّتين ارتباكٌ يوازي ارتباكي: «ألستِ خائفة منّي؟».

«خائفة منك! لماذا؟».

حاولت التقدّم مجدّداً فتعثّرت بخطواتي. التقطني إدوارد قبل أن أسقط، فارتميت على صدره، ورحت أجهش بالبكاء.

«آسف يا بيلاّ، آسف...، ولكن كلّ شيء قد انتهى».

«أنا بخير...، إنّها ردّة فعل لا غير. سأرتاح في الحال».

شدّ ذراعيه حولي متمتماً ومعيداً: «أنا آسف...، أنا آسف».

بقيتُ متمسّكة به إلى أن تمكّنت من استعادة أنفاسي. وبعد ذلك،

رحت أقبّله بحرارة على صدره وعنقه وكتفه، وفي كلّ مكان استطعت. وشعرت بعد ذلك باستعادة قدرتي على التفكير.

وسألته: «هل أنتَ بخير؟ هل ألحقت بك أيّ أذى؟».

«أنا بأحسن حال». قال مؤكّداً، وأغرق وجهه في شعري.

وسألته مجدّداً: «وسيث؟».

وبضحكة خافتة قال: «أكثر من جيّد. هو في الحقيقة فخور بما قام به».

«وكيف حال الجميع؟ آليس؟ إيزمي؟ الذئاب؟».

«كلّهم بخير. لقد انتهت المعركة هناك أيضاً ولم تكن صعبة. المعركة الأصعب كانت هنا».

حاولت استيعاب تلك المعلومات.

عائلتي وأصدقائي بخير. ماتت فيكتوريا ولم تعد تهدّد حياتي. لقد انتهت المشكلة.

ولكنّي لم أستطع الاستمتاع بهذا الواقع الجديد، وما زلت لا أفهم سبب تصرّفه الغريب.

فسألت مصرّة على تلقّي الجواب: «قل لي لماذا اعتقدتَ أنّي سأخاف منك؟».

«آسف!» قال معتذراً من جديد، ولكن كنت لا أزال أجهل سبب الاعتذار. «أنا أعتذر لأنّك تعرّضتِ لرؤية كلّ ما جرى. كنت أفضّل لو لم تريني أقوم بما قمتُ به. أعلم أنّي أرعبتك».

عدت وفكّرت بتردّده في الاقتراب منّي وبيديه المفتوحتين إلى الأمام، وكأنّه توقّع أن أحاول الهرب لو اقترب منّي بسرعة.

«هل أنتَ جادّ في ما تقول؟» قلتُ أخيراً. «هل فكّرتَ. . . ، أنك ستخيفني؟» كنتُ أتكلّم بلهجة الاستغراب التي تغطّي على ارتجاف الصوت، وتبدو طبيعيّة للغاية.

وضع يده تحتَ ذقني ورفع وجهي قليلاً ليقرأ تعابيره.

«بيلّا، منذ قليل وعلى بعد بضعة أمتار منك، قمتُ بقطع رأس مخلوقة، وبتقطيع جثتها. ألم يزعجك هذا الأمر؟».

تكلّمت بلا مبالاة، وذلك لإخفاء المشاعر الحقيقية: «كلاّ...، كنتُ قلقة على سلامتك وسلامة سيث. هذا كلّ ما في الأمر. كنتُ أودّ تقديم المساعدة، ولكن كما تعلم...، قدراتي محدودة».

وتغيّر فجأةً، وقال بمرارة: «نعم، كان التهوّر سيحملك على استعمال ذلك الحجر. تعلمين أنّي كدتُ أصاب بنوبة قلبية؟ تصوّري عواقب ما كنتِ ستفعلين».

لم أجد الكلمات لأجيب على عتابه وغيظه.

«أردتُ تقديم المساعدة...، كان سيث جريحاً...».

«كان سيث يتظاهر بأنّه جُرح. كان ذلك نوعاً من الحيلة. وإذا بك أنتِ...!» وهزّ برأسه. «لم يكن سيث يعلم بما تقومين به، لذلك تدخّلت أنا فوراً. وهو مستاء قليلاً الآن لأنّي شاركته شرف التغلّب على ريلي».

«كان سيث... يتظاهر؟».

قال إدوارد: «نعم».

«أوه».

نظر كلانا إلى سيث الذي كان يتجاهلنا باستمرار وقد وقف يراقب النيران المشتعلة، والفخر يشعّ من كلّ شعرةٍ في فرائه.

«حسناً، لم أكن على علم بذلك. وليس من السهل أن أكون الوحيدة التي لا تملك قدرات دفاعية بينكم. سوف تراني عندما أصبح مصّاصة دماء...، لن أبقى خارج حلبة القتال في المرّة القادمة».

تضاربت الانفعالات في نفسه وبانت انعكاساتها على وجهه، لكنّه

قرّر التظاهر بالمرح، فقال: «وهل تتوقّعين معركة أخرى قريبة؟».

«إذا أخذنا حظّي بعين الاعتبار. . .، فمن يعلم!؟».

حرّك عينيه، فشعرت به كأنّه يطير. كلانا يشعر بالارتياح إلى درجة النشوة. لقد انتهت المعركة.

هل إنّها. . . انتهت حقّاً؟

قلتُ: «ألم تقل شيئاً قبلَ أن. . .؟» وارتجفت عندما تذكّرت ما حدث قبل هجوم فيكتوريا. . .، ماذا كنت أريد أن أقول لجايكوب؟ ودقّ قلبي المشطور إلى نصفين دقّات مؤلمة. لا أكاد أصدّق نفسي أننا انتهينا من فيكتوريا، ولكنِ في الحقيقة لم تنتهِ صعوبات هذا اليوم بالنسبة لي بعد، والجزء الأصعب منه ما زال ينتظرني. وتابعت أسئلتي عن بعض التعقيدات التي حدثت؟ وعن ما قاله: «قلت إنّ الأمر سيكون قريباً. أيّ أمر سيكون قريباً؟».

التفت إدوارد إلى سيث وتبادل الاثنان نظرة طويلة وعميقة.

«ماذا؟»، قلت.

«لا شيء. ولكن من الأفضل أن ننطلق».

ثمّ أخذ يشدّني إلى ظهره. قاومت ذلك، وقلت: «ماذا تقصد بـ «لا شيء». أوضح لي».

وضع إدوارد كفّيه حول وجهي وقال: «ليس لدينا سوى دقيقة واحدة، لا تدعي الرّعب يسيطر عليك. قلتُ لك أن لا لزوم للخوف، فصدّقيني أرجوكِ».

نظرت إليه في محاولة لإخفاء ذعري. كم يمكنني أن أتحمّل أكثر قبل أن أنهار؟ أعرف ما يقصد بقوله أن لا لزوم للخوف؟

زمّ شفتيه خلال برهة مفكّراً في ما يريد قوله. ثمّ نظر بسرعة إلى سيث وكأنّ هذا الأخير قد ناداه.

«ماذا فعلت؟»، سأل إدوارد.

أصدر سيث أنيناً حزيناً جعلني أشعر بخوفٍ شديد.

ووقعت برهة من الصمت الثقيل.

وبعد ذلك صرخ إدوارد: «كلاّ!» ورفع إحدى يديه وكأنّه أراد أن يلتقط شيئاً لم يكن بوسعي مشاهدته. «لا. . . !».

اهتزّ جسد سيث وانطلقت من صدره صرخة ألم عالية.

وقع إدوارد على ركبتيه في اللّحظة عينها وهو يمسك رأسه بكلتا يديه، ووجهه يتقلّص من شدّة الألم.

صرخت ووقعت على ركبتيّ إلى جانبه: «إدوارد! إدوارد!».

بجهد واضح، نظر إليّ وقال: «لا تقلقي ستمرّ الأمور بسلام وسنكون بخير». وتقطّع صوته، وبدا عليه الارتياع من جديد.

صرخت: «ماذا يحدث؟» وعاد سيث ليطلق عواءً موجعاً.

وقال إدوارد لاهثاً: «نحن بخير. سنكون بخير. . .، سام! ساعده يا سام».

عندما لفظ اسم سام، عرفت أنّ الأمر لا يتعلّق به وبسيث. وأنّ الأصعب يجري الآن في مكانٍ آخر.

كان يتكلّم عن مجموعة الذئاب وكأنّه أحدهم، وهو يستعمل ضمير الجمع نحن.

لا شكّ أنّ مفعول الأدرينالين قد انتهى في جسدي. . . فقد تلاشيت كليّاً وكدتُ أقع على الأرض. تلقّفني إدوارد على ذراعيه ووقف بي. ثمّ توجّه بنظره إلى سيث الذي كان جاثياً على ركبتيه وكأنّه يستعدّ للانطلاق إلى ساحة القتال مجدّداً.

«سيث!» قال إدوارد. «اذهب إلى البيت في الحال. . .، وبأقصى سرعة!».

أصدر سيث نباحاً شاكياً ومال برأسه إلى اليمين وإلى اليسار.

«من الأفضل أن تفعل ذلك يا سيث، صدّقني».

حدّق الذئب الضخم في عيني إدوارد القلقة، ثمّ انتصب على قوائمه وانطلق بين الأشجار واختفى عن الأنظار، كأنّه شبح.

واندفع إدوارد وأنا على ذراعيه إلى الغابة أيضاً، ولكنّه سار في اتجاه مختلف.

وبجهدٍ كبير انطلقت من فمي بضع كلمات تتوسّل المعرفة والاطمئنان: «إدوارد، ماذا حدث يا إدوارد؟ هل أصيب سام بمكروه؟ إلى أين نحن ذاهبان؟ ماذا يحدث؟».

«يجب أن نعود إلى الساحة». قال لي بصوتٍ خافت. «كنّا نعلم بإمكانية حدوث هذا الشيء منذ الصباح. لقد رأت آليس ذلك وأخبرت سام عن الأمر، فنقله إلى سيث. لقد قرّرت عائلة فولتري التدخّل».

عائلة فولتري!

رفض عقلي استيعاب هذه المصيبة، فقرّر ادعاء عدم الفهم.

سار إدوارد بسرعة كبيرة جعلت الأشجار تبدو وكأنّها تنسحب من أمامنا لتفتح لنا الطريق.

«لا تجزعي يا بيلاّ. إنهم في دورة تفتيش يقومون بها عادةً بعد أحداث كالتي وقعت اليوم. الأمر ليس خطيراً. ولكنّهم أحكموا توقيت وصولهم جيّداً. . .، ما يدفعني لأفكّر أن لا أحد منهم كان سيحزن لو خسرت عائلة كولن بعض أفرادها». كان يتكلّم بعصبيّة وكآبة. «سأعلم بالضبط ما كانوا يفكّرون فيه، عندما يصلون إلى الساحة».

«ولهذا السبب نحن عائدان إلى هناك؟»، سألته بهمس. ولم أتصوّر أن بإمكاني احتمال رؤيتهم بأثوابهم السود الفضفاضة التي عادت لتغتصب مخيّلتي وتروّعني. فقد كنتُ على حافة الانهيار.

«نعم، لهذا السبب نحن عائدان، إضافةً إلى أنّه من الأفضل أن

نقابلهم بجبهة متماسكة. لا يوجد سبب يدفعهم لمهاجمتنا، ولكن...
جاين معهم. إن فكّرت في أنّنا وحدنا في مكانٍ ما، فربّما تحاول التفتيش عنّا كما فعلت فيكتوريا. لا شكّ أنّ ديمتري يرافقها، وسيحاول إيجادي إن طلبت منه ذلك».

رفضتُ التفكير بذلك الاسم. رفضت التفكير بذلك الوجه الطفولي الجميل. ارتفع صوتٌ في داخلي يقول: «لا تخافي يا بيلاّ...، كلّ شيء سيكون على ما يرام. لقد تأكّدت آليس من ذلك».

ولكن آليس لا ترى كلّ شيء... أين هي مجموعة الذئاب، ماذا سيحدث لهم؟

«والرجال الذئاب؟».

« لا يعترف الفولتري بالهدنة معهم.، لقد اضطرّوا إلى الانسحاب بسرعة».

أخذت أنفاسي تتسارع ولم أستطع السيطرة عليها، ورحتُ ألهث.

«صدّقيني، إنّهم في أمان. لن يتعرّف الفولتري إلى رائحتهم ولن يلاحظوا أنّهم كانوا هنا. لم تتعرّف عائلة فولتري على الذئاب من قبل. ستكون المجموعة في سلام».

لم أتمكّن من تحليل أقوال إدوارد، فتركيزي كان مشرذماً بفعل الخوف. كان قد قال: سنكون بخير ... ثمّ عواء سيث الباكي ...، إضافةً إلى أنّه تجنّب الإجابة عن سؤالي الأوّل وراح يشغلني بالحديث عن الفولتري...

كنتُ على وشك الانزلاق إلى الهاوية...، ولم أكن أتمسّك بحافتها سوى بأطراف أصابعي.

كانت الأشجار تجري إلى ورائنا بسرعة كأنهار خضراء.

«ماذا حدث يا إدوارد؟»، قلت بهمس. «ماذا حدث عندما نبح سيث بحزن، وفوجئت أنتَ وهبطت على ركبتيك؟».

تردّد إدوارد.

«إدوارد! أخبرني!».

«كان كلّ شيء قد انتهى. لم يتنبّه الرجال الذئاب إلى أنّ أحد مصّاصي الدماء الجدد كان مختبئاً...، فظنّوا أنّهم قضوا عليهم جميعهم. لم تستطع آليس رؤية ذلك بالطبع».

«وماذا حدث؟».

«رأته لِيا. فأرادت مقاتلته بمفردها...».

لِيا! وشعرتُ بالخجل في نفسي بسبب الراحة المفاجئة التي شعرتُ بها عندما لفظ اسم لِيا وليس اسم غيرها. «هل أصابها مكروه؟».

«لم تصب لِيا بأذى». تمتم إدوارد.

حدّقت به خلال لحظة. وتذكّرت ما لهث به؛ سام، ساعده يا سام! لقد قال ساعده ولم يقل ساعدها.

«نحن على وشك الوصول»، ونظر إلى نقطة معيّنة في الفضاء.

كانت هناك غيمة بنفسجيّة داكنة على ارتفاعٍ منخفض فوق الأشجار. هل هذه غيمة حقّاً؟ كلاّ، إنّها عمود من الدخان الكثيف مثل الذي ارتفع من محرقة فيكتوريا وريلي.

قلت بصوتٍ يكاد لا يسمع: «إدوارد، هل أصيب أحد؟».

لقد سمعت بكاء سيث...، ورأيت الألم على وجه إدوارد.

همس: «نعم».

«من؟»، سألته برغم معرفتي الأكيدة بالجواب.

نعم كنتُ أعلم الجواب. طبعاً، أعلم الجواب.

كنّا قد شارفنا على الوصول، وخفّت سرعة إدوارد.

تأخر في الإجابة عن سؤالي.

قال: «جايكوب».

أومأت برأسي وهمست: «بالطّبع»، ثمّ انزلقت يداي عن الحافة التي كنتُ أتمسّك بها في خيالي، ووقعت في الهاوية.

وغمرتني الظلمة.

* * *

شعرتُ أوّلاً بالأيدي الباردة التي كانت تلمسني، وبالذراعين اللتين حملتاني. وبالأصابع التي كانت تداعبُ خدّي وجبيني، وتجسّ نبضي.

بعد ذلك، تنبّهت إلى الأصوات. كانت بمثابة طنينٍ في أذني أوّلاً، ثمّ ارتفعت وتوضّحت تدريجاً.

سمعت إدوارد يقول: «كارلايل...، مضى عليها خمس دقائق».

«لا تقلق يا إدوارد، ستعود إلى الوعي عندما تصبح جاهزة». قال كارلايل بصوته الهادئ والمطمئن. «لقد تعرّضت للكثير من الصعوبات اليوم. دع عقلها يحمي نفسه».

لكنّ عقلي لم يحمِ نفسه. كان لا يزال أسير ما عرفه، ولم يغادره الألم حتى في حالة اللاّوعي.

شعرت بالانفصال عن جسدي وكأنّني مسجونة في زاوية من زوايا رأسي ولا أملك القدرة على السيطرة. لم أستطع مساعدة نفسي ولا التفكير في شيء. كنت مصابة بما يشبه الشلل غير قادرة على النهوض من تحت ثقل ذلك الحزن، ولا الهرب منه.

جايكوب.

جايكوب.

لا، لا، لا، ...

«كم بقي أمامنا من الوقت يا آليس؟». سأل إدوارد وكأنّ كلمات كارلايل المطمئنة لم تنفع في تهدئته.

أجابت آليس من بعيد، وكان صوتها واضحاً: «بعد خمس دقائق.

لكنّ بيلاّ ستفتح عينيها بعد سبع وثلاثين ثانية. لا أشكّ أنّها تسمعنا الآن».

«حبيبتي بيلاّ!» وكان هذا صوت إيزمي. «أنتِ بأمان الآن. هل تسمعينني؟».

«نعم أنا بأمان، ولكن هل هذا هو المهم؟».

وجاءت كلمات إدوارد التي همسها في أذني لتنتشلني أخيراً من براثن العذاب التي كانت تأسرني في الظلمة.

«جايكوب بلاك سيعيش يا بيلاّ. إنّه يتماثل للشفاء بسرعة. إنّه بخير».

خفّت أثقال الخوف والحزن عنّي، فشعرتُ بالاتصال مع جسدي وفتحتُ عينيّ.

«أوه بيلاّ!»، تنهّد إدوارد بارتياح، وقبّل شفتيّ.

همست: «إدوارد!».

فقال: «نعم، أنا هنا».

شددتُ بأجفاني لأفتحها، وحدّقت في دفء عينيه الذهبيتين.

«هل جايكوب بخير؟».

«نعم»، قال مؤكّداً.

تفحّصت تعابيره لأرى إن كان يهدف إلى تهدئتي فحسب، لكنّي أحسست أنّه كان صادقاً.

«لقد عاينته بنفسي». قال كارلايل، فأدرت رأسي لأرى وجهه، وكان يقف على مقربة منّي. كانت تعابير وجهه جديّة ومطمئنة في الوقت عينه، ولا مجال للتشكيك في أقواله. «حياته ليست في خطر. إنّه يتماثل للشفاء بسرعة لا تصدّق برغم أنّ جراحه بليغة ولن يتمكّن بحسب تقديري من استعادة كامل قواه قبل بضعة أيام. سأقوم بكلّ ما أستطيع

لأعالجه. حالياً يحاول سام مساعدته لكي يعود إلى حالة الإنسان؛ عندئذٍ يصبح الاعتناء به أسهل بالنسبة لي». ثمّ ابتسم وأضاف: «لم أدرس الطبّ البيطري من قبل».

«ماذا حدث له؟»، سألت. «ما مدى إصابته؟».

استعاد وجه كارلايل طابعه الجدّي، وقال: «كان ذئبٌ آخر في مأزق...».

قلت: «لِيا».

«أزاحها جايكوب من موقع الخطر، لكنّه أصيب قبل أن يتسنّى له الدفاع عن نفسه. فقد أطبق مصّاص الدماء الجديد بذراعيه حوله، فتحطّمت معظم العظام الموجودة في الجانب الأيمن من جسده».

شعرتُ بالارتياع.

وأكمل كارلايل: «وصل كلّ من سام وبول لنجدته في الوقت المناسب. وكان قد بدأ بالتحسّن عندما قاما بنقله إلى لا بّوش».

«هل سيستعيد كامل قواه ويعود إلى طبيعته؟».

أجابني: «نعم يا بيلاّ، بكلّ تأكيد».

فتنفّست بعمق.

«ثلاث دقائق»، قالت آليس بهدوء.

حاولت الوقوف ولكنّي وجدت صعوبة. لاحظ إدوارد محاولاتي فساعدني.

نظرتُ إلى المشهد أمامي، فرأيت أفراد عائلة كولن يقفون بشكل نصف دائرة حول المحرقة. كانت ألسنة النيران قد خَبَتْ، وتصاعد الدخان الداكن والكثيف في الهواء. لاحظت جاسبر يربض في ظلّ الدخان، مديراً ظهره لي، وأمامه شيءٌ معيّن كان يراقبه بحذر.

كنت في حالة من الخدر لم تسمح لي سوى بردّ فعلٍ خفيف أمام المشهد الذي ما لبث أن توضّح أمام عينيّ.

في ذلك الوقت، كان هناك ثمانية مصّاصي دماء في الساحة.

رأيت فتاة نحيلة ذات شعرٍ أسود ولا تتجاوز الخامسة عشرة، تجلس القرفصاء إلى جانب المحرقة. وكانت عيناها الحمراوان مصوّبتين نحوي وتتحرّكان بسرعة فائقة.

لاحظ إدوارد ارتباكي. فقال:

«لقد أعلنت استسلامها، فأتاح كارلايل لها هذه الفرصة غير المسبوقة، لكنّ جاسبر غير موافق».

لم أستطع إبعاد نظري عن المشهد الذي يجري إلى جانب المحرقة. كان جاسبر يحكّ ذراعه اليسرى بشدّة.

فسألت إدوارد: «هل جاسبر بخير؟».

«إنّه بخير، لكنّ السمّ يقرصه».

فأجبت مذعورة: «هل عضّه أحد هؤلاء؟».

«كان يحاول أن يكون في كلّ مكان، ويهتمّ بحماية آليس بشكلٍ خاصّ». وتابع وهو يهزّ برأسه: «مع أن آليس لم تكن بحاجة إلى المساعدة».

«إنّه شديد العطف... مجنون!»، قالت آليس بدعابة وهي تنظر في اتجاه حبيبها المخلص.

رأيت الفتاة ترمي برأسها إلى الوراء كأنّها حيوان، وتصيح منتحبة.

أنّبها جاسبر فانكمشت خوفاً. لكنّ أصابعها كانت تنبش في التراب كالبراثن ورأسها يترنّح اكتئاباً. تقدّم منها جاسبر ولا زال في وضع التحفّز للدفاع. أمّا إدوارد فتحرّك مدّعياً القيام بحركة عفوية، ووقف حاجزاً بيني وبين الفتاة. ولكنّي اختلست النظر من وراء ذراعه إلى مشهد جاسبر وتلك الفتاة المضطربة.

كان كارلايل قد وصل إلى جانب جاسبر في أقلّ من لحظة وأمسك

بذراعه، ثمّ قال للفتاة بلهجة هادئة:

«هل غيرّت رأيك أيتها الفتاة؟ نحن لا نريد القضاء عليك، ولكنّنا سنفعل إن عجزتِ عن ضبط نفسك».

«كيف تستطيعون مقاومة الظمأ؟»، صاحت الفتاة بصوتٍ مرتفع وواضح. «أريدها». وكانت حدقتاها القرمزيّتان اللامعتان مصوبّتين إلى إدوارد، ومن خلاله، ومن ورائه. . .، إليّ.

«يجب أن تقاومي الظمأ». قال لها كارلايل بوقار. «يجب أن تسيطري على رغباتك وهذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ حياتك».

رفعت الفتاة أصابعها المتّسخة بالتراب إلى رأسها، وراحت تموء احتجاجاً بصوتٍ خفيض.

«أليسَ من الأفضل أن نبتعد عنها؟»، قلت لإدوارد وأنا ممسكة بذراعه. ولكنّ الفتاة سمعت صوتي وكشّرت عن أسنانها، وبدا على وجهها العذاب.

«علينا البقاء هنا، لقد أصبحوا عند الطرف الشمالي من الساحة».

نظرت في الاتجاه المقصود بقلبٍ يكاد ينفلق من شدّة الخفقان، ولكنّي لم أرَ سوى الدخان الكثيف.

كلّما التفتُّ إلى الفتاة كنت ألاحظ أنّها لا تزال ترمقني بنظرات مجنونة.

كان شعرها الأسود منسدلاً حول وجهها الأبيض حتى أسفل الخدّين؛ ولكن ما لحق بملامحها جرّاء الغضب والظمأ منعني من تقدير مستوى جمالها. أمّا نظراتها الشرسة فكانت تطغى على كلّ مظهرها.

قلت في نفسي: «هل أنا أنظر الآن في مرآة مستقبلي يا تُرى!؟».

انضمّ كارلايل وجاسبر إلينا، ووقف الجميع بشكل نصف دائرة حول إدوارد وآليس وأنا. جبهة متماسكة كما وصفها إدوارد، وأنا في قلبها، في المكان الأكثر أماناً.

حوّلت نظري عن الفتاة المتوحّشة لمشاهدة هؤلاء القادمين.

لم يصلوا بعد ولا يزال إدوارد ينظر في ذلك الاتجاه، حيث الدخان الكثيف يلتفّ ويتدحرج على علوٍّ منخفض فوق العشب الأخضر.

انتفخت كرة الدخان فجأةً في اتجاهنا، أشدّ كثافةً في الوسط.

«ممم...» سمعتُ صوتاً متعجرفاً يهمهم من خلال الضباب الأسود، فعرفتُه.

«أهلاً جاين». قال إدوارد بأسلوبٍ يتكلّف التهذيب.

وانفصلت الأشباح المجلببة بالعباءات الرمادية الداكنة عن الهالة الضبابيّة وتقدّمت منّا. توقّعت أن تكون جاين هي التي تسير في الوسط. كانت أقصر قامةً من الآخرين وأشدّ اسوداداً، ولكن ملامح وجهها الملائكية لم تظهر بوضوح في ظلّ غطاء الرأس المعلّق بجلبابها كقلنسوة الرهبان.

تعرّفت، دون أن أكون متأكّدة، إلى مرافقيها الأربعة. وبينما كنتُ أحدّق النظر بأحدهم لأتأكّد، أزاح قلنسوته إلى الوراء وابتسم لي وغمز بطرف عينه، فعرفتُ أنّه فيليكس.

تفحّصت جاين وجوه عائلة كولن المشرقة، ورست عيناها على الفتاة التي سارعت إلى إلقاء رأسها فوق يديها مجدّداً.

«لا أفهم...؟»، قالت.

«لقد استسلمت». أجاب إدوارد.

فقالت باستهجان: «استسلمت؟».

تبادل فيليكس مع أحد رفاقه نظرة سريعة.

«لقد أعطاها كارلايل فرصة جديدة».

«لا تعطى فرص جديدة إلى الّذين يخالفون القانون». قالت جاين بنبرة حاسمة.

فأجاب كارلايل بأسلوبٍ هادئ: «القرار بين يديك. . . لم أرَ مبرّراً لقتلها بعدما أوقفت هجومها علينا. ولم يطلعها أحد على القانون من قبل».

«هذا ليس سبباً مقنعاً». أجابت جاين بإصرار.

«كما ترغبين».

حدّقت جاين في وجه كارلايل بذعر، وهزّت رأسها قليلاً، ثمّ تظاهرت بالهدوء.

«طلب منّا آرو أن نأتي لزيارتك، يا كارلايل، ونبلّغك سلامه».

هزّ كارلايل برأسه، وقال: «أودّ شاكراً إبلاغ سلامي له أيضاً».

«بالطبع». قالت مبتسمة، فأظهر الابتسام جمال وجهها. ثمّ التفتت إلى الوراء مشيرةً إلى الدخان، وقالت: «لقد قمتم عنّا اليوم بمعظم المهمّة. . .!» ورمقت بعينيها الفتاة مجدّداً. ثم تابعت كلامها: «أريد من باب الفضول المهني أن أسأل كم كان عددهم؟ لقد عاثوا خراباً واسعاً في سياتل».

«ثمانية عشر مقاتلاً مع هذه الفتاة». أجاب كارلايل.

جحظت عيناها ونظرت إلى المحرقة من جديد لتقدّر حجمها. وتبادل فيليكس ورفيقه النظرات لوقتٍ أطول هذه المرّة.

«ثمانية عشر مقاتلاً؟»، ردّدت وكأنّها لا تصدّق.

«كلّهم من الجدد غير المدرّبين». قال كارلايل رامياً إلى تخفيف استغرابها.

«كلّهم من الجدد؟! من كان إذاً السبب في تحوّلهم إلى مصّاصي دماء؟».

«كان اسمها فيكتوريا». أجاب إدوارد بصوتٍ خالٍ من الانفعال.

«كان؟»، سألت جاين.

أدار إدوارد رأسه نحو الجهة الشرقية، حيث ما زال يرتفع عمودٌ آخر من الدخان. ونظرت جاين في الاتجاه ذاته.

«فيكتوريا هذه...، غير الثمانية عشر مقاتلاً الذين أُحرقوا هنا؟».

«نعم، وكان معها مقاتل شابّ. كان أكبر من هذه الفتاة بحوالى عام واحد».

«عشرون». قالت بزفرة كبيرة. «ومن اهتمّ بأمر فيكتوريا؟».

«أنا». قال إدوارد.

زمّت جاين عينيها واستدارت نحو الفتاة بقرب المحرقة.

«ما اسمك؟».

نظرت الفتاة بتشاؤم إلى جاين وأطبقت شفتيها بقوّة.

فبادلتها جاين بابتسامة ملائكية.

ثمّ أطلقت الفتاة صيحةً حادّة تصمّ الآذان وتلوّى جسدها وتقوّس. نظرتُ إلى البعيد، ورحتُ أصرّ على أسناني، وشعرت بتقلّص في معدتي ودوار في رأسي. ازداد الصراخ، فلجأت إلى التركيز على وجه إدوارد فوجدته هادئاً وخالياً من أيّ انفعال. وتذكّرت عندما تعرّض إدوارد نفسه لتعذيب جاين النفسي، فاشتدّ شعوري بالغثيان. انتقلتُ بنظري إلى آليس ثمّ إلى إيزمي، وكانت تعابير وجهيهما خالية مثل تعابير وجهه.

وأخيراً هدأ الصراخ.

أعادت جاين السؤال بصوتٍ جافّ: «ما هو اسمك؟».

«بري». قالت الفتاة لاهثة.

فتدخّل إدوارد ليقول: «ستجيبك عن جميع أسئلتك ولا داعي للتعذيب».

رفعت جاين عينيها التي تلوّنت ببعض المرح، وأجابت: «أعلم».

وعادت لتطرح سؤالها الثاني على الفتاة: « هل ما أخبرني إيّاه كارلايل صحيح؟ هل كنتم عشرين مقاتلاً؟».

أجابت الفتاة وهي تلصق خدّها على التراب وتلهث: «تسعة عشر مقاتلاً أو عشرين أو أكثر، لا أعلم!» وارتاعت خوفاً من التعذيب بسبب جهلها العدد بدقّة. «سارة وفتاة أخرى لا أعرف اسمها قضيا في نزاعٍ بينهما على الطريق...».

«وهل فيكتوريا هي التي عضّتك، وكانت السبب في تحوّلك؟».

«لا أعرف». قالت بارتياع. «لم يقل لنا ريلي اسمها أبداً. كانت الظلمة داكنة في تلك الليلة. لم أرَ شيئاً...، لكنّي شعرت بألم شديد». وتابعت: «قال ريلي إنّ أفكارنا ستعرّضها للخطر لذلك يجب ألاّ نعرف اسمها».

رمقت جاين إدوارد بطرف عينيها وعادت لتنظر إلى الفتاة.

صمّمت فيكتوريا خطّتها بإحكام، ولولا لحاقها بنا لما عرف أحد أنّها كانت وراء كلّ ذلك.

ثمّ طرحت جاين على الفتاة سؤالاً آخر: «أخبريني عن ريلي، ولماذا أتى بكم إلى هنا؟».

«قال لنا ريلي إنّ علينا القضاء على أصحاب العيون الصفراء، فهم أصحاب المدينة ويخطّطون للقضاء علينا. وقال إن المهمّة لن تكون صعبة، وعندما نقضي عليهم سنستغلّ دماء المدينة نحن بمفردنا. وأعطانا رائحتها». ورفعت الفتاة يدها ودلّت بأصبعها عليّ. «قال إنّنا سنتعرّف إليهم من خلال رائحتها، فهي لا بدّ أن تكون معهم. وقال إنّ من يصل إليها أوّلاً تكون له».

سمعت إدوارد يحرك فكّيه بعصبية.

«يبدو أنّ ريلي قد أخطأ بشأن سهولة المعركة». قالت جاين.

هزّت الفتاة برأسها وكأنّها شعرت بالأمان. فجلست بحذر، ثمّ

تابعت: «لا أعرف ماذا حدث. انقسمنا إلى قسمين. لم يعد هؤلاء أبداً. ولم يعد ريلي هو الآخر وكان قد وعدنا بالمساعدة. وفجأةً رحنا نتمزّق إلى أشلاء. خفتُ وحاولت الهرب، فقام هذا الرجل، وقال إنّه سيبقيني على قيد الحياة لو توقّفت عن القتال».

«ولكن لا يحقّ له أن يعدكِ بذلك. فالذي يخالف القوانين يجب أن يلقى عقابه». قالت جاين بلطف شديد ومستغرب.

نظرت إليها الفتاة ببلاهة، ولم تفهم فحوى كلامها.

حوّلت جاين نظرها إلى كارلايل وقالت: «هل أنتَ متأكّد أنّكم قضيتم عليهم جميعاً؟ هل قضيتم أيضاً على الذين انقسموا عنهم؟».

أجاب كارلايل ببساطة بعد أنْ هزّ برأسه: «لقد انقسمنا نحن أيضاً».

«لا يمكنني إخفاء إعجابي». قالت جاين بابتسامة خافتة. وهزّ مرافقوها رؤوسهم بالموافقة. وتابعت: «لم أرَ في حياتي عائلة مصّاصي دماء تتغلّب على هجوم بهذا الحجم من دون خسائر. هل علمتم الدافع وراء هذا الموقف العدائي ضدّكم. يبدو لي أنّ السبب هو الأسلوب المختلف الذي تتبعونه في الحياة هنا. لكن لماذا هذه الأهميّة المعطاة لهذه الفتاة في كلّ هذا؟»، واستقرّت عيناها عليّ خلال ثانية من غير قصدٍ واضح.

فارتجفت.

أجاب إدوارد بحزم: «كانت فيكتوريا حاقدة على بيلّا».

ضحكت جاين. ورنّت قهقهاتها كأنّها تخرج من حنجرة طفل. «لا أدري ما سرّ قوّة تأثير هذه الفتاة على نوعنا». صوبّت إليّ نظرة مباشرة وهي تبتسم بفرح.

ثمّ تشنّجت ملامح إدوارد فجأةً، وتوجّه إلى جاين: «أرجو ألاّ تقومي بذلك».

ضحكت جاين ضحكة خفيفة، وقالت: «كنت أمتحنها، ويبدو أنّي لم أؤثّر عليها».

ارتجفتُ، ولكنّي كنت سعيدة جدّاً لأنّ ذلك الشيء الغريب في جسدي الذي حماني في المرّة الماضية من تدخّلات جاين الشريرة، ما زال فاعلاً، وها هو يحميني هذه المرّة أيضاً. وشدّ إدوارد ذراعه حولي.

«يبدو أنّ مهمتنا هنا قد انتهت قبل أن تبدأ». قالت جاين بأسلوب اللامبالاة الذي تعتمده غالباً. «أمرٌ غريب حقّاً! لم نتعوّد على هذا الأمر من قبل. كنتُ أتمنّى لو تسنّى لنا مشاهدة القتال. لا بدّ أنّه كان مشهداً مسلياً».

أجابها إدوارد بسرعة وبصوتٍ واضح: «من المؤسف أنّكم لم تصلوا قبل نصف ساعة برغم أنّكم كنتم في الجوار. لو فعلتم ربّما كنتم ستتمكّنون من تحقيق هذا التمنّي».

صوّبت جاين إلى إدوارد نظرة ثابتة غير مرتعشة، وقالت: «نعم من المؤسف أن تنتهي الأمور بهذه الطريقة... أليس كذلك؟».

هزّ إدوارد رأسه. لقد تأكّدت شكوكه.

والتفتت جاين بملل إلى الفتاة المتوحّشة. ونادت: «فيليكس».

«انتظر». قال إدوارد معترضاً. ثمّ نظر إلى كارلايل وتابع باستعجال: «يمكننا أن نعلّم هذه الشابّة القوانين، فهي تبدو قابلة للتعلّم. كانت تجهل ماذا تفعل».

«بالتأكيد». قال كارلايل. «يمكننا الاهتمام بتعليمها».

بدا الأمر مضحكاً وغريباً في آنٍ واحد بالنسبة إلى جاين.

«لا يُستثنى أحد من العقاب، ولا نعطي فرصة ثانية بحسب القانون. وهذا يذكّرني...» وعادت عيناها لتستقرّ عليّ، ووجهها الملائكي للابتسام. «سيهتمّ كايوس كثيراً عندما يعلم أنّك لا زلتِ إنساناً، يا بيلا، ربّما سيقرّر زيارتكم».

«لقد تحدّد الموعد»، تكلّمت آليس لأوّل مرّة. «قد نأتي نحن لزيارتكم بعد بضعة أشهر».

اختفت ابتسامة جاين، وأجابت بعدم اكتراث من دون أن تنظر إلى آليس. ثم أدارت رأسها وتوجّهت إلى كارلايل: «أنا سعيدة في التعرّف إليك يا كارلايل. . . ، كنتُ أعتقد أنّ آرو يبالغ عندما يتحدّث عنك. إلى اللقاء في المرّة القادمة. . .».

هزّ كارلايل برأسه وبدا الحزن على وجهه.

أشارت برأسها إلى الفتاة، وأمرت فيليكس بضجر: «انتهِ من هذا الأمر يا فيليكس. أريد أن أعود بسرعة».

«لا تنظري». همس إدوارد في أذني.

كان الذي رأيته حتى تلك الساعة من ذلك اليوم يكفي ليس ليومٍ واحدٍ فحسب بل لدهر كامل. لذا أطعتُ نصيحة إدوارد على الفور، فأطبقتُ عينيّ بشدّة وأدرتُ وجهي إلى صدره.

لكنّي ما زلت أسمع.

سمعتُ صرخة ذعرٍ وبعدها عويلاً كان قد أصبح مألوفاً. وفجأةً انقطع الصوت، وارتفعت جلبة التكسير والتحطيم المقزّزة للنفس.

شعرت بيدي إدوارد تدلّكان كتفيّ بشدّة.

وقالت جاين: «تعالوا».

رفعتُ رأسي ونظرت، فرأيت الأشباح الرّمادية تذهب في اتجاه الدخان. واشتدّت كثافة الرائحة العطرية من جديد.

واختفت الأشباح الرّمادية في الضباب.

26

أخلاق

كان على الرفّ الزجاجي العريض في حمّام آليس عشرات المستحضرات المنظّفة والتجميلية. وبما أنّ جميع من في هذا البيت يتمتّع بمستوى عالٍ من الجمال لا يتغيّر، أقدّر أنّ آليس هدرت كل ذلك المال من أجلي.

لكنّي تحاشيت النظر في المرآة.

راحت آليس تمشّط شعري بحركة بطيئة ومتتابعة.

قلتُ: «كفى يا آليس، أريد الذهاب إلى لا بّوش».

كان عليّ أن أنتظر بضع ساعات حتّى يغادر تشارلي لا بّوش، قبل أن أذهب لزيارة جايكوب. مرّت الدقائق وكأنّها أعوام، وفي كلّ دقيقة كنتُ أتساءل إن كان لا يزال يتنفّس أو لا. وأخيراً، عندما أصبح بإمكاني الذهاب لأتأكّد بنفسي أنّ جايكوب لا زال حيّاً، تكلّمت آليس مع إدوارد بالهاتف واقترحت أن أذهب لرؤية تشارلي أوّلاً. كان من الضروري بحسب آليس أن أقوم بالفصل النهائي من التمثيلية وأعود إلى البيت، خصوصاً أنّ تشارلي شاهد إدوارد وكارلايل عند جايكوب، واستنتج بالطبع أنّ العائلة قد عادت من الرحلة المزعومة.

«ما زال جايكوب في حالة اللاوعي»، قالت لي آليس. «سيتصل بنا إدوارد أو كارلايل عندما يستعيد وعيه. وفي جميع الأحوال، يجب أن

تذهبي لرؤية تشارلي أوّلاً خصوصاً أنّه رأى إدوارد وكارلايل، ويتوقّع أن يجدك في البيت الآن».

لقد تعلّمت الدرس جيّداً وحفظت الفصل الأخير من التمثيلية عن ظهر قلب.

«كلّ ما يهمّني الآن هو أن أكون إلى جانب جايكوب عندما يفتح عينيه».

«يجب أن تفكّري الآن في تشارلي. أعرف أنّك قضيتِ يوماً قاسياً ولم ينتهِ بعد، ولكن يجب ألاّ تتهرّبي من مسؤولياتك. من المهمّ جدّاً الآن، وأكثر من أيّ وقتٍ آخر، أن يبقى تشارلي في الظلّ وألاّ يعلم بحقيقة ما جرى. قومي بإتمام مهمّتك الآن يا بيلاّ، وافعلي ما تريدين بعد ذلك. لا تنسي أنّ أحد شروط الانتماء إلى عائلة كولن هو التصرّف الدقيق والمسؤول».

إنّها على صواب. ولولا اهتمامي بالمسؤولية التي تقع على عاتقي والتي جعلتني أتغلّب على الخوف والألم وعلى الشعور بالذنب، لما استطاع كارلايل أن يقنعني ولا للحظة بعدم المكوث إلى جانب جايكوب حتى وهو في حالة اللاوعي.

«اذهبي إلى تشارلي، وساعديه لكي يبقى مقتنعاً بأنّنا قضينا وقتاً ممتعاً معاً في الأسواق، وحافظي على سلامته».

انتصبت واقفة بعد جلوسٍ لوقتٍ طويل، فانحدرت الدماء إلى قدميّ فجأةً وشعرت بوخزٍ يشبه وخز الدبابيس.

«يبدو هذا الثوب جميلاً جدّاً عليك»، قالت آليس بتودّد شديد.

«أوه. . .، شكراً جزيلاً على الثياب». قلتُ من باب التهذيب وليس من باب الاهتمام الفعلي بالثياب.

«أنتِ بحاجة إلى تعزيز القصّة بالبراهين. أيعقل أن تقضي يوماً كاملاً في الأسواق ولا تشتري ثوباً جديداً؟».

وافقتها، ولم أنظر ثانيةً إلى الفستان الذي ألبستني إيّاه. كنت قد نسيت لونه. هكذا كانت أفكاري تهرب منّي بعد ثوانٍ كما تهرب الحشرات الزاحفة من الضوء...

«جايكوب بخير يا بيلاّ، ولا حاجة لأن تسرعي فقد أعطاه كارلايل كمية كبيرة من المورفين ولن يستعيد وعيه في وقتٍ قصير».

شعرت بالاطمئنان إلى أنّ جايكوب ينام الآن ولا يشعر بالألم.

«هل تودّين التكلّم عن شيءٍ معيّن قبل أن تنطلقي؟». سألتني آليس بحنان. «لقد مررتِ اليوم بتجارب أقلّ ما يُقال عنها أنّها مرعبة».

عرفت محور فضولها، ولكنّ أسئلتي كانت تدور حول مواضيع أخرى.

«هل سأكون مثل تلك الفتاة المتوحشة التي كانت في الساحة؟».

كان عليّ التفكير بأمور عديدة أخرى، لكنّني لم أستطع نزعَ صورة تلك الفتاة من مخيلتي. تلك الفتاة اليافعة التي انتهت حياتها بذلك الأسلوب المريع.

داعبت آليس ذراعي بأصابعها، وقالت: «لكلٍّ شخصيته الفرديّة، ولكنّ الجدد يتشابهون عموماً».

وقفتُ متسمّرة في مكاني، أحاول أن أتخيّل نفسي.

فأضافت: «إنّها فترة مؤقتة وتنتهي».

«بعد كم من الوقت؟».

قالت: «بعد بضعة أعوام، وربّما قبل ذلك. لم أرَ في حياتي أحداً اختار بملء إرادته الوصول إلى تلك الحالة. أتشوّق لمعرفة كيف سيكون تأثير تلك الحالة عليك».

«تتشوقين؟».

«سوف نبعدك عن المشاكل».

«أعلم ذلك». أجبتها بصوتٍ خالٍ من أي تعبير.

ثمّ قطبت آليس جبينها، وقالت: «إن كنتِ قلقة بشأن إدوارد وكارلايل، فلا خوف عليهما. أعتقد أنّنا كَسبنا ثقة سام...، وخصوصاً كارلايل». كانت هذه الثقة ضرورية جدّاً عندما اضطرّ كارلايل إلى فكّ كسور جايكوب...

«أرجوك يا آليس».

«آسفة».

أخذت نفساً عميقاً، وفكّرت بالأمر. ربّما التأمت كسور جايكوب بسرعة وبطريقة غير سليمة. ولكن، وبرغم تقبّلي لهذه الحقيقة...، لم يكن سهلاً عليّ التفكير في ذلك الأمر.

قلتُ: «آليس! هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً حول المستقبل؟».

وإذا بها تبدو فجأةً حذرة: «تعلمين أنّي لا أرى كلّ شيء».

«لا أريد أن أسأل عن كلّ شيء. ولكنّك ترين صوراً من مستقبلي في بعض الأحيان. لماذا تتمكّنين أنتِ من رؤية مستقبلي، ولا يتمكّن الآخرون من التأثير عليّ؟ لا يمكن لجاين أن تؤثّر عليّ ولا إدوارد، ولا آرو...».

اهتمّت آليس بالإجابة عن سؤالي الذي طرحته من باب الفضول فحسب: «لكنّ جاسبر يستطيع أن يؤثّر عليك يا بيلاّ. أرأيتِ لماذا؟ لأنّ قدرات جاسبر تفعل فعلها على صعيد الجسد، فهو باستطاعته تهدئة جهازك العصبي أو إثارته. تأثيره حقيقة وليس أوهاماً تصيب العقل. وكذلك أنا، فإنّي أرى صوراً من المستقبل؛ إنّها من نتاج الأفكار وليس الأفكار نفسها. إنّها خارج العقل وليست أوهاماً تتعلّق بالعقل. أمّا جاين وآرو وإدوارد وديمتري، فتأثيرهم يفعل داخل العقل. ما تختلقه جاين توهّمٌ بالألم وليس ألماً بالمعنى الحقيقي. إنّ عقلك يا بيلاّ هو في مأمن

من التأثيرات. لا قدرة لأحد على مسّه. لا عجبَ أن يتشوّق آرو لمعرفة قدراتك المستقبلية».

راقبت آليس تعابير وجهي لترى إن كنت قد فهمت شرحها. في الحقيقة لم أتمكّن من متابعة تسلسل أفكارها كما يجب، فقد تغلبت عليّ الانفعالات وصَعُبَ عليّ التركيز. أومأت برأسي محاولةً إيهامها بأنّي فهمت.

لكنّها لم تصدّقني، فداعبت خدّي بيدها وقالت: «سيكون بخير يا بيلاّ، لا أحتاج إلى الرؤيا لكي أعرف ذلك. هل أنتِ مستعدّة للذهاب الآن؟».

قلت: «هل أستطيع أن أطرح سؤالاً آخر حول المستقبل؟ سأكتفي بنظرة عامّة ولا أريد تفاصيل».

وبحذر أيضاً، أجابت: «سأحاول ما بوسعي».

«هل ما زلتِ ترين أنّي سأصبح مصّاصة دماء؟».

«أوه! هذا أمرٌ سهل. بالطبع أراك كذلك».

أومأتُ برأسي ببطء.

تفحّصت ملامحي بنظرة غامضة: «ألا تفهمين أفكارك يا بيلاّ؟».

«أفهمها. لكنّي أردت التأكّد».

«أنا لا أرى سوى نتيجة تفكيرك أنتِ يا بيلاّ. إن غيّرت رأيك فستتغيّر رؤياي... وفي الواقع ستختفي كليّاً في حالتك أنتِ».

تنهّدت وقلت: «لكنّ ذلك لن يحدث».

وضعت ذراعها حولي وقالت: «آسفة لا يمكنني أن أضع نفسي مكانك لأعرف شعورك لأنّي بحسب تجربتي الخاصة، عندما رأيت صورة جاسبر لأوّل مرّة، عرفت أنّي سأجده عندما يحين الوقت في المستقبل. ولكن يمكنني مواساتك، لأنّ عليك مع الأسف اتخاذ القرار بين خيارين جيّدين».

نزعتُ ذراعها عنّي، وقلت: «أنا لستُ بحاجة للمواساة». هناك من يستحقّ المواساة غيري. أنا لا أتّخذ قراراً بين خيارين صالحين، بل أعذّب قلوب الآخرين لأستمرّ في حياتي. «سأذهب الآن لأرى تشارلي».

قدتُ شاحنتي إلى البيت حيث كان تشارلي ينتظرني قلقاً كما توقعت آليس.

وعندما دخلت إلى المطبخ، استقبلني تشارلي قائلاً: «أهلاً بيلاّ! كيف كان مشوار التسوّق؟».

فقلت بنبرة خالية من الحماسة: «كان طويلاً! لقد عدنا منذ قليل».

وبسبب فتور مزاجي، توقّع أنّي سمعتُ بما أصاب جايكوب.

«أتوقّع أنّك عرفتِ بما حدث لجايك؟».

«نعم، لقد وصلَ بقيّة أفراد عائلة كولن قبلنا إلى البيت، وأخبرتنا إيزمي عن وجود كارلايل وإدوارد في لا بّوش».

«هل أنتِ بخير؟».

«قلقة بشأن جايك. عندما أحضّر طعام العشاء سأذهب لرؤيته».

«كم حذّرتكما من خطر الدرّاجات النارية. أرجو أن تعرفي الآن أنّي كنتُ على حقّ».

أومأت برأسي وأنا أفتح البرّاد. وكان تشارلي قد جلس إلى الطاولة، وبدا راغباً بالكلام أكثر من العادة.

«لا تقلقي على جايكوب...، من يستطيع إطلاق الشتائم بتلك الحيويّة لا خوف عليه».

«هل كان جايك واعياً عندما رأيته؟».

«بالطبع، ولو سمعتِه...! ولكن من الأفضل أنّكِ لم تسمعيه. كان صوته يلعلع في كلّ أرجاء لا بّوش. لا أعرف من أين تعلّم كلّ تلك

المفردات. . . ، أرجو ألاّ يكون معتاداً على استعمالها أمامك».

«يجب معذرته اليوم. كيف كان شكله؟».

«يبدو أنّ إصابته بالغة. حمله أصدقاؤه إلى البيت، ومن الجيّد أنّهم أقوياء فأنت تعرفين ضخامة جايكوب. قال كارلايل إنّ جميع عظام جسده من الجهة اليمنى، بما فيها ذراعه وساقه، قد تحطّمت بسبب سقوطه عن الدراجة اللّعينة». وهزّ تشارلي رأسه متابعاً: «لو سمعتُ أنّك تركبين درّاجة من جديد. . .».

«لن تسمع ذلك يا أبي، لا تقلق. هل تعتقد حقّاً أنّ جايك سيتعافى؟».

«لا تخافي يا بيلاّ، فهو بوعيه إلى درجة أنّه استعاد مزاجه العاديّ وراح يتحدّاني».

«يتحدّاك؟».

«بين شتيمة من هنا وشتيمة من هناك، قال لي: لا شكّ أنّكَ اليوم سعيد لأنّها تحبّ كولن، ولا تحبّني؟».

أدرتُ وجهي لكي لا أدعه يرى ردّ فعلي.

«لم أناقشه في الموضوع، لأنّي أعتقد حقّاً أنّ إدوارد أشدّ نضجاً ولا يعرّضك للمخاطر».

فتمتمت مدافعة عن جايكوب: «جايكوب ناضجٌ أيضاً، ولا أعتقد أنّه السبب في الحادث الذي حصل له».

«أنا لستُ من الناس الذين يؤمنون بالخرافات والأوهام، ولكن ما حدث اليوم كان شديد الغرابة يا بيلاّ. كان بيلي يتصرّف وكأنّ لديه عِلماً مسبقاً أن أمراً سيئاً سيواجه جايكوب. كان متوتراً طيلة ساعات الصباح ولا أظنّ أنّه سمع أيّ شيء ممّا قلته».

وتابع: «ثمّ حدث ما هو أشد غرابة. أتذكرين عندما كنّا نسمع عواء ذئاب في شهري شباط وآذار الماضيين؟».

انحنيت إلى الخزانة لألتقط المقلاة وخبّأت وجهي هناك لبضع ثوانٍ، ثمّ قلت: «نعم».

فقال: «أتمنّى ألاّ يحدث هذا مجدّداً. عندما كنّا في القارب هذا الصباح، وكان بيلي شارداً لا يعير اهتماماً لحديثي ولا للصيد، سمعنا فجأةً ذئاباً تعوي في الغابة. كان هناك أكثر من ذئبٍ واحد وكان العواء عالياً إلى درجة لا تصدّق، وكأنّ الذئاب كانت قريبة جدّاً. والأغرب من كلّ ذلك أنّ بيلي أدار وجهة القارب في اتجاه المرفأ وكأنّه سمع نداءً موجّهاً له شخصيّاً. حتّى أنّه لم يسمعني عندما سألته عن سبب عودته.

توقّف العواء قبل أن ننزل من القارب، لكنّ بيلي أصرّ أنّه لا يريد أن تفوته المباراة مع العلم أنّ موعد المباراة كان بعد بضع ساعات. وراح يغمغم أنّ هناك نقلاً مباشراً في ساعة مبكرة...، صدّقيني يا بيلاّ، كان ذلك غريباً!».

وتابع تشارلي: «ثمّ وجد مباراة تعرض على إحدى القنوات، فقال إنّه يريد مشاهدتها، لكنّه ما لبث أن غيّر رأيه. وراح يُجري اتصالات هاتفية عديدة، فتكلّم مع سوزان ومع إميلي، ثمّ اتصل بجدّ صديقك كويل. لم أعرف عمّا كان يسأل، ولكنّ الحديث بدا لي كأنّه عاديّ.

ثمّ علت أصوات الذئاب في مكان قريب جدّاً من البيت. لم أسمع مثل تلك الأصوات في حياتي فأصبتُ بقشعريرة. وتكلّمت مع بيلي. كان عليّ أن أصرخ لكي يسمعني وسألته إن كان قد نصب فخّاً قريباً، لأنّ الصوت كان يدلّ على أنّ الحيوان يعوي من شدّة الألم».

وتابع تشارلي مستغرقاً في الوصف من دون أن ينتبه إلى مدى الهلع الذي أصابني جرّاء ما قاله.

«ها إنّي ألاحظ الآن يا بيلاّ أن في اللّحظة عينها التي غاب فيها عواء الذئب، وصل جايكوب إلى البيت. وكأنّ الشتائم التي كان يطلقها بذلك الصوت العالي، أخافت الذئب وأسكتته».

ارتاح تشارلي قليلاً، ثمّ عاد ليكمل: «ولكن من اللافت أنّ أمراً جيّداً حدث في زحمة هذه المشاكل. لقد تخلّى الكويلوت عن موقفهم السلبي تجاه عائلة كولن. اتصل أحدهم بكارلايل، وعندما لبّى هذا الأخير النداء حالاً، عبّر له بيلي عن شكره وامتنانه. اقترحتُ أن يُنقل جايك إلى المستشفى، لكنّ بيلي قال إنّه يريد إبقاءه في البيت، فوافق كارلايل. يعالج كارلايل عدداً كبيراً من المرضى في البيت، ويستحقّ التقدير على هذه الخدمات».

توقّف قليلاً، وكأنّه كان يريد أن يقول شيئاً ثمّ تردّد. «وإدوارد. . . ، تصرّف إدوارد بلطف شديد. بدا قلقاً جدّاً على جايكوب مثلكِ. كان ينظر إليه بعطف شديد كأخ له. . . » ثمّ هزّ برأسه وقال وهو يبتسم: «إدوارد شابّ رزين يا بيلاّ وسأحاول أن أتذكّر ذلك. ولكني لا أعدك بشيء. . . ».

«لا تشغل بالك». قلتُ متمتمة.

مدّ تشارلي ساقيه وتنفّس الصعداء: «كم هو مريح أن يعود الإنسان إلى بيته! لا تتصوّري الزحمة في بيت بيلي الصغير. فقد كانوا سبعة شبّان من قبيلة كويلوت في تلك الغرفة. هل سبق لك أن لاحظتِ ضخامة هؤلاء الشبّان؟».

«أعرف ذلك».

«بيلاّ، لقد أكّد كارلايل أنّ جايكوب سيتماثل للشفاء بسرعة، وقال إنّ حالته أقلّ خطورة ممّا تبدو».

أومأت برأسي.

لقد رأيت جايكوب عندما ذهبتُ لزيارته بسرعة بعد أن غادر تشارلي. كان وجهه شاحباً وبدا كئيباً برغم أنّه غائبٌ عن الوعي، وقد شُدّ جسده بملاقط معدنيّة في كلّ مكان. نَصحَ كارلايل بعدم استعمال الجص لأنّ العظام ستلتئم بسرعة. عندما نظرتُ إليه وجدت أنّه، وبرغم

ضخامته، سريع الكسر. ربّما تخيّلته كذلك لأنّي كنتُ أعلم أنّي سأكون السبب في كسره.

ليتني أُصاب بصاعقة تشقّني إلى قسمين بشرط أن تؤلمني. لأوّل مرّة أشعر أن التخلّي عن الطبيعة الإنسانية هي تضحية حقيقية وخسارة كبيرة.

وضعتُ العشاء على الطاولة أمام تشارلي، وتوجّهت نحو الباب.

«بيلاّ! انتظري لحظة».

نظرتُ إلى صحنه. «هل نسيتُ شيئاً؟».

«كلاّ، كلاّ، أودّ أن أطلب منك. . .، اجلسي، لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً».

جلست قبالته وأنا أشعر بالارتباك، وقلت: «ماذا تريد يا أبي؟».

«سأدخل في صلب الموضوع». واحمرّ وجهه. «بيلاّ. . .، بعد مراقبة بيلي اليوم وتصرفاته الغريبة، بتّ أخاف من مشاعري غير المفهومة. لديّ شعور خفي. . . أنّي سأفقدك في وقتٍ قريب».

قلت: «لا تتفوّه بهذا الكلام الساذج يا أبي». تمتمت وأنا أشعر بالذنب. «ألا تريد منّي الالتحاق بالجامعة؟».

«ولكن أودّ منكِ أن تعديني بشيء واحد».

«ما هو؟».

«أن تخبريني قبل أن تقومي بأمر مهمّ. قبل أن تهربي معه مثلاً».

«أبي. . .!؟».

«أنا جادٌّ في كلامي. لن أعترض طريقك. . . ولكن أرجو أن تعطيني إنذاراً مسبقاً. أرجو أن تعطيني الفرصة لكي أغمرك وأودّعك».

شعرتُ بانكماش شديد. ولكنّي رفعت يدي وقلتُ: «هذا كلام ساذج، وأنا أعدك بذلك إن كان هذا ما تريده».

«شكراً يا بيلا. أحبّكِ يا ابنتي».

«أنا أحبّك أيضاً يا أبي»، قلت وأنا ألمس كتفه. «إن أردتَ منّي شيئاً، فسأكون في منزل بيلي».

خرجتُ من البيت ولم أنظر ورائي. وفي السيارة رحتُ أفكّر بطلب تشارلي وأدمدم طوال الطريق؛ هل هذا حقاً ما أحتاج إليه الآن؟

وصلتُ أمام منزل بيلي ولم تكن سيارة كارلايل المرسيدس السوداء هناك. كان هذا الأمر جيّداً وغير جيّد في آنٍ واحد. بالطبع كنتُ أريد التكلّم مع جايكوب على انفراد. ولكنّي أيضاً كنت أتمنّى أن أمسك بيد إدوارد إذا كان جايكوب لا يزال فاقد الوعي. لقد أمضيت معظم ساعات بعد الظهر مع آليس وحدها، لذلك أشعر الآن بالشوق إلى إدوارد. اعتقدتُ أنّ هذا الشعور يجعل الجواب عندي واضحاً. كنتُ أعلم ومنذ زمن، أنّي لا أستطيع العيش بعيداً عن إدوارد. ولكن معرفة هذا الواقع لن يساعد على التخفيف من ألمي.

طرقت على الباب الخارجي طرقات خفيفة.

«ادخلي يا بيلاّ!»، قال بيلي.

دخلتُ وألقيت التحية عليه، ثمّ سألت: «هل استيقظ؟».

«لقد استيقظ منذ نصف ساعة تقريباً، قبل أن يغادر كارلايل بقليل. ادخلي، أظنّ أنه في انتظارك».

وجف قلبي. ولكنّي أخذت نفساً عميقاً وقلت: «شكراً».

تردّدت أمام باب غرفة جايكوب، غير متأكّدة إن كان من الأفضل أن أطرق الباب. ولكنّي قرّرت أن أختلس النظر أوّلاً، على أمل أن يكون نائماً. كنتُ أريد أن أكسب بعض الدقائق الإضافية.

دفعت الباب قليلاً إلى الداخل، وانحنيت لكي أرى.

كان جايكوب ينتظرني بهدوء. وجهه مرتاح لكنّه خالٍ من التعبير. أمّا عيناه السوداوان. . .، فأين حيويتهما المعهودة؟

الآن، بعد أن عرفت أنّي أحبّه، أجدُ صعوبةً أكبر في النظر إلى وجهه. . .، والفرق أكبر ممّا توقّعت. هل كان يتعذّب بهذا القدر كل ذلك الوقت؟

ارتحتُ عندما لاحظت أنّ غطاءً قد وضع فوقه؛ لن أرى جميع الأضرار التي لحقت بجسده.

دخلت إلى الغرفة وأغلقت الباب خلفي بهدوء.

همست: «مرحباً يا جايك!».

لم يُجِب أوّلاً، بل نظر إلى وجهي بضع لحظات، ثمّ قال بسخرية خفيفة:

«كنت قد توقّعت شيئاً كهذا». وأطلق زفرةً. «تحوّل مجرى الأمور اليوم في اتجاهٍ سيّئ. اخترت المكان الخطأ، والمعركة الخطأ، وأحرز سيث كلّ المجد. ثمّ خطر في بال لِيا أن تتصرّف ببلاهة لكي تبرهن أنّها قويّة مثلنا، فتصرّفت أنا ببلاهة، واندفعت إلى نجدتها. والآن. . . هذا». وأشار بيده اليسرى إليّ، حيث كنتُ لا أزال أقف متردّدة بجانب الباب.

«كيف تشعر؟»، طرحتُ عليه هذا السؤال الغبي.

«أشعر بالخدر. لا يعلم طبيبي العتيد كمية المسكّنات التي أحتاج إليها بالضبط، لذلك فهو يجرّب. . .، وأظنّ أنّه بالغ في تخديري».

«لكنّك لا تشعر بالألم الآن؟».

«كلاّ، على الأقل لا أشعر بما أصابني». وابتسم بسخرية أيضاً.

عضضتُ على شفتي. لن أتغلّب على هذا الشعور في حياتي. كنت أريد الموت لنفسي، لماذا لم يقتلني أحد؟

غادرت السخرية وجهه فجأةً، وتقلّص جبينه ونظر إليّ بقلق قائلاً:

«كيف حالكِ؟ هل أنتِ بخير؟».

قلتُ: «أنا؟» تأمّلت وجهه. أهوَ يهذي تحت تأثير المسكّنات.

«لماذا؟».

«كنت متأكّداً تقريباً من أنّه لن يؤذيك. ولكن لم أدرِ إلى أيّ مدى سيذهب في ردّ فعله. كدت أجنّ من شدّة قلقي عليك منذ أن استعدت وعيي. خفتُ ألاّ يسمحوا لك بزيارتي. كنت أودّ لو كنتُ معكِ في المواجهة، لم أرد أن أتركَكِ وحيدة. هل كان قاسياً معكِ؟».

لم أفهم قصده بشكلٍ سريع. وعندما فهمت، سارعت إلى طمأنته.

«كلاّ يا جايك. أنا بخير. على أحسن حال في الواقع. بالطبع لم يكن قاسياً وليته كان كذلك!».

حدّق بي مذعوراً. «ماذا؟».

«لم يغضب منّي ولم يغضب حتّى منك! إنّه بعيد عن الأنانية إلى درجة تجعل الأمور أصعب بالنسبة لي. كنتُ أتمنّى لو صرخ في وجهي وأنّبني. كنت أستحقّ ذلك وتصرّفه اللّطيف هو أقسى عليّ من التأنيب. إنّه لا يهتمّ إلاّ بسعادتي».

«لم يغضب؟»، سأل جايكوب غير مصدّقٍ.

«كلاّ، بل كان شديد العطف».

فكّر جايكوب خلال دقيقة، ثمّ قطّب حاجبيه فجأةً وقال ساخطاً: «اللّعنة!».

«ما المشكلة يا جايك، هل تشعر بألم؟»، وتحرّكت يداي من غير جدوى مفتّشةً عن الدواء المسكّن.

«كلاّ!»، دمدم باشمئزاز. «أكاد لا أصدّق. ألم يفرض عليك اتخاذ القرار قبل تاريخ معيّن، أو أيّ شيء من هذا القبيل؟».

«أبداً، ما الذي يضايقك بهذا الشأن؟».

عبس وهزّ برأسه وقال: «كنت معتمداً على ردّ فعله. اللّعنة على كلّ شيء! إنّه أفضل ممّا توقّعت».

ذكرتني كلماته بما قاله إدوارد عندما انتقد قلّة تهذيب جايكوب في الخيمة ذلك الصباح. ما يعني أنّ جايك ما زال يحدوه الأمل وما زال يصارع. ولكنّ ذلك طعنني في العمق.

«إنّه صادق ولا يتعمّد المكر». قلت بهدوء.

«أراهن أنّه ماكر. إنّه يصارع من أجلك بالشدّة ذاتها. ولكنّه يعلم كيف يخطّط ويتصرّف. اعذريني إن كنت أقل مكراً وقدرة على التلاعب بعقلك منه. لقد علّمته حياته الطويلة أساليب في الخداع لم أتمكّن من أن أتعلّمها بعد».

«إنّه لا يتلاعب بعقلي!».

«بلى إنّه يفعل. متى ستعين وتعلمين أنّه لا يتحلّى بهذا المستوى الرفيع من النبل كما تعتقدين؟».

«على الأقلّ لم يهدّدني بأنّه سيدفع بنفسه إلى الموت إن لم أقبّله».

ندمت في تلك اللّحظة على تفوّهي بهذه الكلمات، وامتلأ قلبي حزناً. وقلت: «أرجو أن تنسى أنّي قلتُ هذا الكلام، لأنّي لم أتعمّد إثارة هذا الموضوع أبداً».

أخذ نفساً عميقاً، وسأل بهدوء: «ولِمَ لا؟».

«لأنّي لا أرغب في لومك على شيء».

«ولكن هذا صحيح. لقد فعلتُ ذلك».

«ولكنّي لست غاضبة منك».

ابتسم وقال: «ولست غاضباً من نفسي أيضاً، بل إنّي سعيد بما فعلت وقد أقوم به ثانيةً. كنتُ أعلم أنّك ستسامحينني. تعلمين الآن على الأقلّ بأنّك تحبينني. وهذا يساوي الكثير».

«هل من الأفضل حقّاً أن أعلم؟».

«ألا تظنّين أنّه يجب أن تتعرّفي إلى حقيقة مشاعرك...، حتى لا

تستيقظي يوماً على تلك الحقيقة، وأنتِ مصّاصة دماء متزوّجة، وتُفاجَئين بذلك؟».

هززتُ رأسي، وقلت: «كلاّ، لا أقصد بالسؤال إن كان ذلك أفضل بالنسبة لي، بل أقصد إن كان ذلك أفضل بالنسبة لك؟ هل معرفتي بأنّي أحبّكَ يسهّل الأمور عليك أم يصعّبها، خصوصاً أنّ ذلك لن يؤثر في اختياري؟ ألم يكن أسهل عليكَ لو لم أعرف؟».

فكّر في سؤالي وأجاب بجديّة: «نعم، من الأفضل بالنسبة لي أن تعرفي. لأنّك لو لم تعرفي، لتساءلتُ دائماً إن كان قرارك سيختلف لو عرفتِ. الآن أعلم أنّي قمتُ بكلّ ما أستطيع». ثمّ أخذ نفساً متقطّعاً وأغلق عينيه.

في هذه اللّحظة، لم أقوَ على مقاومة رغبتي الملحّة في التخفيف عنه. اقتربت منه ولم أجلس على السرير لئلاّ يرتجّ فيؤذي كسوره. ركعتُ على الأرض ووضعت جبيني فوق خدّه.

تنهّد جايكوب ووضع يده على شعري وتمسّك بي.

«أنا آسفة جدّاً يا جايك!».

«كنتُ أعلم أنّ الأمر لن يكون سهلاً. هذا ليس خطأك يا بيلاّ».

«لا تقل إنّه ليس خطأي، أرجوك!».

أبعد رأسه عنّي ونظر إليّ وقال: «ماذا؟».

«أنا السبب في كلّ هذا، وتعبتُ من سماع العكس».

ابتسم وظهرت أسنانه من دون أن تشرق عيناه: «أتريدينني أن أواجهك بأخطائك؟».

«في الواقع...، أريد هذا».

زمّ شفتيه وهو يتأمّل وجهي ليقدّر مدى جديّتي. ثمّ لمعت ابتسامة فوق وجهه ما لبث أن اختفت وتركت مكانها عبوساً مخيفاً.

وقال: «أنا لا أعذرك على تقبيلي بتلك الطريقة. إن كنتِ على معرفة بأنّك ستتراجعين، كان جديراً بك عدم تقبيلي بهذه الحرارة وإقناعي بتجاوبك معي».

جفلتُ وهززتُ برأسي: «أنا آسفة جدّاً».

«التعبير عن الأسف لا يساعد في شيء يا بيلاّ، ماذا كنتِ تقصدين بما فعلتِ؟».

«لم أقصد شيئاً». همست.

«كان من الأفضل أن تطلبي منّي أن أموت، فهذا ما تريدين في الحقيقة».

«لا يا جايكوب»، قلت بغصّة، وأنا أحارب دموعي. «كلاّ، أبداً».

«هل تبكين؟». سألني وقد عاد صوته فجأةً إلى طبيعته، وانتفض جسده فوق السرير.

«نعم». تمتمت، وضحكتُ بخفوت هزءاً من نفسي، وأنا أبكي. لكنّ الدموع ما لبثت أن تحوّلت فجأةً إلى نحيب.

مال بجسده إلى طرف السرير، ومدّ ساقه اليسرى السليمة إلى الأمام، وبدا كأنّه يحاول الوقوف.

«ماذا تفعل؟»، سألته من خلال الدموع. «استلقِ أيها الأحمق، وإلاّ ستؤذي نفسك!» ووقفتُ وأمسكتُ بكتفه اليسرى بيديّ الاثنتين وشددتُ به نزولاً نحو الفراش.

استسلم لإرادتي وأرخى جسده متأوّهاً من الألم. لكنّه أمسك بي حول خصري وشدّني إلى جانبه على السرير من الجهة اليسرى.

تكوّمت هناك وحاولت كبتَ بكائي المحرج بصدره الحار.

«أكاد لا أصدّق أنّك تبكين. لقد قلت ذلك نزولاً عند رغبتك، ولم أكن أعني ما أقول». وراح يدلّك بيده كتفيّ.

«أعلم»، وأخذت نفساً عميقاً لكي أتمالك مشاعري. وتساءلتُ في نفسي كيف أنا التي تبكي وهو الذي يواسيني؟ «ولكن كلّ ما قلتَه صواب وأشكرك لأنّك قلته بصراحة».

«هل ستعطيني نقاط مكافأة لأنّي أبكيتك؟».

«طبعاً وبالقدر الذي تريد». وحاولت الابتسام.

«لا تقلقي يا بيلاّ، يا حبيبتي، كلّ المشاكل ستُحلّ».

«لا أرى كيف ستُحلّ وبأيّ طريقة؟».

ربّتَ على رأسي وقال: «سأتصرّف بنبل وأتنازل».

«هل هي حيلة أخرى؟». قلتُ وأنا أرفع رأسي لأرى وجهه.

«ربّما». وضحك بجهد. ثمّ عبس وتابع: «سأحاول».

قطّبت جبيني.

«عوضاً عن الاكتئاب، اشكريني».

«ماذا تعني أنّك 'ستتصرّف بنبل'؟».

أجاب بهدوء: «سأكون صديقك يا بيلاّ، ولن أطلب شيئاً آخر».

«لقد فات الأوان على ذلك يا جايك. كيف يمكننا أن نبقى صديقين، ونحن نعلم أنّنا نحبّ بعضنا بهذا الشكل؟».

نظر إليّ نظرة متفحّصة وكأنّه كان يقرأ شيئاً هناك. «ربّما... ستكون صداقتنا من بعيد، عبر المسافات».

أطبقتُ على أسناني، مرتاحة أنّه لا يرى وجهي، ورحتُ أكبتُ نوبة بكاءٍ جديدة راحت تهدّدني بالانفجار من جديد. كنتُ بحاجة لأن أكون قويّة، ولكنّي أجهل كيف...

«أتعرفين تلك القصّة التي تتحدّث عن الملك والامرأتين المتنازعتين حول طفل؟».

«طبعاً، إنّها قصّة الملك سليمان».

«لقد أمر الملك سليمان بقطع الطفل إلى جزءين وكان ذلك امتحاناً لكي يرى أيّ المرأتين ستتنازل عن حصّتها لتنجّي الطفل».

«نعم أتذكّر هذه القصة».

«حسناً، لن أوافق على الاستمرار في قطعك إلى جزءين يا بيلاّ».

فهمتُ قصده، فهو يقول إنّه يحبّني أكثر من إدوارد. أردت أن أدافع عن إدوارد، وأقول إنّه مستعدّ لأن يفعل الشيء نفسه لو سمحتُ له، لكنّني أنا التي لا تتنازل عنه. لم أنبس بكلمة، فدفاعي لن يؤدي إلاّ إلى تعميق جراح جايكوب.

أطبقتُ جفنيّ بقصد السيطرة على ألمي. لن أحمّل جايكوب ألماً إضافيّاً.

كنّا صامتين خلال لحظات. شعرتُ أنّه كان بانتظار أن أقول شيئاً، وعندما طال صمتي، قال: «هل تنزعجين إن أخبرتك عن الأصعب في هذا الخيار؟».

«وما الفائدة من ذلك؟»، قلتُ بهمس.

«ربّما هناك فائدة، ولكنّ الكلام لن يؤذي في جميع الأحوال».

«وما هو ذلك الأمر الأصعب إذاً؟».

«الأصعب هو عندما تعرفين كيف كانت ستجري الأمور».

«كيف كانت ستجري الأمور؟»، قلتُ متنهّدة.

«أنا مناسبٌ لكِ تماماً يا بيلاّ. وجودنا معاً كان سيكون مريحاً وسهلاً كتنشّق الهواء. كنت أنا الشريك الطبيعي لحياتك يا بيلاّ... لو كان العالم كما يجب أن يكون، ولو لم يكن هناك سحرٌ ولا وحوش...».

كنتُ أصغي إلى ما يقول، وأعلم أنّه على حقّ. لو كان العالم طبيعيّاً كما يجب أن يكون، لكنّا، جايكوب وأنا معاً ولكان هو رفيق روحي؛ ويمكنه أن يكون كذلك الآن، لو لم يطغَ على وجوده في

حياتي عاملٌ أقوى، عاملٌ قويّ جدّاً إلى درجة أنّه يتناقض في وجوده مع مسلّمات العقل والمنطق.

هل سيكون في حياة جايكوب أيضاً جاذبٌ يصرف انتباهه عن رفيقة روحه؟ كنتُ أتوقّع ذلك.

من الصعب على الفرد الواحد أن يكون له مستقبَلان وحبيبان! وليس عدلاً أن يدفع غيري ضريبة ذلك أيضاً. يدفع جايكوب ضريبة ذلك عذاباً أليماً يروّعني التفكير به، ويجعلني أطرح السؤال على نفسي: «هل كنتُ سأغيّر رأيي في البقاء مع إدوارد لو لم أجرّب فراقه في السابق؟ لو لم أذق طعمَ الحياة من دونه؟». لا أستطيع معرفة الجواب. الجواب متجذّرٌ في أعماقي ولا أستطيع سبر أغوار نفسي إلى ذلك العمق لمعرفته.

«إنّه كالمخدّر بالنسبة إليك يا بيلّا». قال جايكوب بصوتٍ هادئ. «أعلم أنّك لا تستطيعين العيش من دونه الآن، ولقد فات الأوان للتغيير. ولكنّي كنتُ سأكون بالنسبة إليك، ليس المخدّر، بل الهواء والشمس. كنتُ سأكون الخيار الصحي يا بيلّا».

ابتسمت ابتسامة كئيبة وقلت: «أتعرف يا جايكوب أنّي كنتُ أتصوّرك كذلك؟ مثل الشمس. إنّك الشمس الخاصة بي. لقد تحدّيتَ عتمة الغيوم في حياتي».

استطعتُ التغلّب على عتمة الغيوم، ولكن لا حيلة لي أمام الكسوف.

وضعتُ راحة يدي على خدّه، فتنهّد وأغلق عينيه، وساد الهدوء. وشعرتُ بقلبه يدقّ خلال دقائق ببطءٍ وانتظام.

«أخبريني عن الجزء الأصعب بالنسبة إليكِ». قال هامساً.

«لا أظنّ أنّها فكرة جيّدة».

«أرجوكِ!».

«أعتقد أنّك ستحزن».

«أرجوكِ!».

كيف يمكنني أن أرفض طلبه في مثل هذا الوقت؟

«الجزء الأصعب...»، تردّدت أوّلاً، ولكنّ سيل الكلمات ما لبث أن فاض منّي بغزارة وصدق. «الأصعب هو أنّي تصوّرت كلّ شيء...، كلّ مستقبلنا. وشعرتُ أنّي أريد كلّ ذلك وأريده بقوّة. أريد أن أبقى هنا وألاّ أتزحزح من مكاني. أريد أن أحبّك يا جايك وأن أُسْعِدكَ، ولكنّي لا أستطيع ذلك وهذا يعذّبني. حالتي تشبه حالة سام وإميلي. لم يكن أمامي خيار يا جايك. ومنذ اللّحظة الأولى عرفت بأنّ لا شيء سيتغيّر. ولعلّني، لهذا السبب، كنتُ أتصدّى لك بهذا العناد».

رأيته يركّز على أنفاسه لكي يسيطر عليها.

«كنتُ أعلم أنّه يجب ألاّ أخبرك بهذا الأمر».

هزّ رأسه ببطء وقال: «كلاّ، أشكركِ لأنّكِ أخبرتني».

ثمّ قبّل رأسي وتنهّد: «سأكون بخير ولن أتصرّف بحماقة بعد الآن».

نظرتُ إلى وجهه، فوجدته مبتسماً.

«إذاً... ستتزوّجان؟».

«ليس ضروريّاً أن نتكلّم عن هذا الأمر».

«أريد معرفة بعض التفاصيل. لا أدري متى سيتسنّى لي التحدّث إليك مجدّداً».

كان عليّ الانتظار قليلاً حتّى أتأكّد من قدرتي على الكلام لأجيب على سؤاله.

«في الحقيقة لم تكن تلك فكرتي... ولكنّ موضوع الزواج مهمّ جدّاً بالنسبة إليه ولذلك وافقت عليه».

هزّ جايك رأسه وقال: «بالطبع. ليس الزواج مهمّاً بالمقارنة مع الأمور الأخرى».

كان صوته هادئاً وعمليّاً. نظرتُ إليه متسائلة كيف استطاع السيطرة على نفسه، ولكن في اللّحظة التي التقت فيها عيوننا انهار كلّ شيء. أدار رأسه عنّي، ولم أتابع الكلام حتى انتظمت أنفاسه من جديد.

«نعم، ليس مهمّاً بالمقارنة مع الأمور الأخرى».

«كم بقيَ من الوقت أمامك؟».

«هذا يتوقّف على المدّة التي ستحتاج إليها آليس لتحضير حفلة الزواج».

«قبل أم بعد؟». سأل بهدوء.

عرفتُ قصده، فقلتُ: «بعد».

ارتاح للجواب. كنتُ أعلم مقدار الأرق الذي أصابه قبل موعد تخرّجي.

«هل أنتِ خائفة؟». سأل هامساً.

وبهمسٍ قلتُ: «نعم».

«ممّ تخافين؟». وبات من الصعب سماع صوته الآن، أمّا عيناه فكانتا تحدّقان إلى يديّ.

«من أمور عديدة». حاولت التحدّث ببعض الخفّة للتخفيف من جديّة الموضوع، ولكنّي التزمت بالصدق. «لستُ من هواة الألم بالطبع... أتوقّع بعض الألم. وأتمنّى لو يبقى هو بعيداً خلال تلك الفترة حتى لا يتألّم لألمي، ولكن لا أظنّ أنّ ذلك ممكنٌ. كما أنّي أتوقّع صعوبة الابتعاد عن تشارلي ورينيه... وبعد ذلك، آمل أن أتمكّن من السيطرة على نفسي في وقتٍ قريب. أو ربّما أصبح عنصراً مؤذياً فيضطر الذئاب إلى القضاء عليّ».

«سأقطع رِجل كلّ من يحاول إيذاءك».

وابتسم قليلاً، وقال: «أليس الأمر أخطر من ذلك؟ فالقصص تحكي على أنّ هذا الأمر هو شديد الصعوبة، وأنّهم يفقدون السيطرة. . . ، والناس تموت. . . ».

«كلاّ، لستُ خائفة من ذلك. أين عقلك يا جايكوب؟ كيف يمكنك أن تصدّق تلك الحكايات السخيفة عن مصّاصي الدماء؟».

لم يتقبّل جايكوب مزاحي المصطنع.

فقلتُ: «حسناً، هناك قدر كبير من الهموم، ولكن النتيجة تستحقّ العناء».

هزّ رأسه مرغماً، لكنّي أعلم أنّه لن يوافقني البتّة.

مددتُ عنقي إلى مستوى أذنه ولامس خدّي وجهه الدافئ، وهمستُ: «تعلم أنّي أحبّك».

«أعلم»، وقد شدّ ذراعه بشكلٍ تلقائي حول خصري، «وتعلمين كم أتمنّى لو أحببتني بالشكل الكافي».

«نعم».

«سأبقى منتظراً في الكواليس يا بيلاّ». قال بصوتٍ عاديّ وهو يرخي ذراعه عن خصري. انسحبتُ من قربه وشعورٌ بالخسارة يثقلني. . . أحسستُ أنّي أترك جزءاً من نفسي ورائي، هناك على السرير إلى جانبه. «سوف يبقى الخيار الثاني أمامك في أيّ وقت».

حاولتُ جاهدةً الابتسام، وقلت: «إلى أن يتوقّف قلبي عن الخفقان».

ضحك، وقال: «وربّما لن أتراجع عن موقفي حتى بعد ذلك الوقت، يتوقّف ذلك على مدى نتانة رائحتك».

«أتريدني أن أعود لزيارتك أم أنّك تفضّل ألاّ أعود».

«سأفكّر بالأمر وأجيبك. لا أطيق الوحدة. . . فقد قال لي الجرّاح العظيم مصّاص الدماء أنّ عليّ عدم التحوّل إلى ذئب حتى تلتئم عظامي كليّاً».

«افعل ما نصحك به كارلايل حتى تشفى بسرعة».

«بالتأكيد، بالتأكيد».

«متى يا تُرى سيحدث ذلك، متى سيقع نظرك على الفتاة المطابقة لك!؟».

«أعرف يا بيلاّ أنّ ذلك سيريحك، ولكنّ لا تأملي كثيراً».

«قد يريحني وقد لا يريحني. ومن الممكن أن أجدها غير لائقة بك. لا أعلم إن كنت سأشعر بالغيرة وإلى أي درجة».

«سيكون ذلك مضحكاً بالتأكيد».

«دعني أعرف إن كنتَ ترغب في زيارتي، وأعدُك بأنّي ساعود».

تنهّد وأدار خدّه صوبي.

انحنيت وقبّلته بلطف، وقلت: «أحبّك يا جايكوب».

ضحك قليلاً وأجاب: «أحبّكِ أكثر».

راقبني وأنا أخرج من الغرفة بعينين اعترى سوادَهما غموضٌ كثيف.

27

حاجات

لم أقطع من الطريق مسافة كبيرة حتى بات من المستحيل عليّ متابعة القيادة.

عندما حجبت الدموع عنّي الرؤية كليّاً، تركت الدواليب تتلمّس الزفت الخشن لتتعرّف إلى جانب الطريق، انحرفت بالمقود ببطءٍ إلى اليمين وأوقفتُ المحرّك. رميتُ نفسي فوق المقعد وتركت الضعف الذي عملتُ جاهدة على إخفائه أمام جايكوب يتفجّر. لكنّي فوجئتُ بقوّته. كنت على حقّ في إخفاء هذا كلّه عن جايكوب، وهو ما يجب ألاّ يراه أحد البتّة.

لكنّي لم أبقَ وحيدة لوقتٍ طويل، فسرعان ما اكتشفت آليس مكاني، ووصل إدوارد إلى نجدتي. فتح باب السيارة وأخذني بين ذراعيه.

كانت النوبة قويّة في البداية. كان ذلك الجزء، الذي انفجر غضبه، يصرخ طالباً ذراعين مختلفتين. لكن ما لبث أن عاد الشعور المتجدّد بالذنب ليخفّف من حدّة غضبه.

تركني إدوارد أبكي وأجهش من دون أن ينبس بكلمة، إلى أن رحتُ ألفظ اسم تشارلي وأنا أنحب.

«هل أنتِ حقّاً قادرة على الذهاب إلى البيت؟». سألني مشكّكاً.

استطعت أن أتفوّه ببعض الكلمات الواضحة وأُفهمه أنّي أفضّل الذهاب قبل أن يتأخر الوقت فيتصل تشارلي ببيلي ويسأله عنّي.

قاد إدوارد سيارتي ببطء، ويده الأخرى لا تزال تحضنني بقوّة. طيلة الطريق، كنتُ أحاول التوقف عن البكاء والسيطرة على نفسي. أردتُ أن أستجمع ما بقي لديّ من قوّة تساعدني على الوقوف أمام تشارلي بضع لحظات وتلفيق عذرٍ أو أكذوبة لكي أستأذن منه وأصعد إلى غرفتي.

وجدت في نفسي من القوّة ما يكفي لإيقاف النشيج ولكنّ دموعي لم تتوقّف عن الانهمار.

وصلنا أمام البيت، فتمتمت لإدوارد : «انتظرني في غرفتي».

ضمّني إلى صدره بقوّة مدّة دقيقة ثمّ اختفى.

دخلتُ إلى البيت وتوجّهت بسرعة نحو الدرج.

«بيلاّ!» ناداني تشارلي من مكانه المعتاد في غرفة الجلوس.

أدرتُ وجهي نحوه ولم أتكلّم. جحظت عيناه وهو يحدّق بي وانتصب واقفاً.

«ماذا حدث؟ هل جايكوب. . .؟». سألني بإلحاح.

هززتُ رأسي بقوّة، وحاولتُ الكلام: «إنّه بخير، إنّه بخير». كان جايكوب بخير من الناحية الجسدية، وكان ذلك كلّ ما يهمّ تشارلي في ذلك الوقت.

«ماذا حدث لكِ؟». سألني بقلق وهو يمسك بكتفيّ.

كان مظهري، على ما يبدو، أسوأ ممّا كنتُ أتصوّره.

«لا شيء يا أبي، ولكنّي تكلّمتُ مع جايكوب عن بعض المسائل الصعبة. أنا بخير الآن».

هدأ الخوف ليحلّ مكانه عدم الرّضا: «وهل وجدتِ الوقتَ اليوم مناسباً لذلك؟».

«قد لا يكون الوقت مناسباً يا أبي، ولكنّي لم أعد قادرة على الاحتمال. بات عليّ أن أحسم قراري حالاً. . .، ولم يعد هناك مجال للمساومة».

هزّ رأسه ببطء، وقال: «وكيف تقبّل جايكوب ذلك؟».

لم أجب.

نظر إلى وجهي وهزّ برأسه. لقد قرأ عليه الإجابة بوضوح.

«أرجو ألاّ يتأخر شفاؤه بسببك».

«إنّه من الذين يتماثلون للشفاء بسرعة».

تنهّد تشارلي.

وأحسستُ بخطر فقدان السيطرة على نفسي.

أستأذنت منه وقلت: «سأصعد إلى غرفتي».

قال: «حسناً». وربّما لاحظ دموعي التي كانت تتأهب للانفجار مجدّداً. لا شيء يخيف تشارلي مثل الدموع.

صعدتُ إلى غرفتي بخطًى متعثّرة، متلمّسةً طريقي بصعوبة. وعندما دخلتُ إلى الغرفة، حاولت بأصابعي المرتجفة فكّ السوار عن معصمي.

«لا يا بيلاّ، لا تنزعيه فهو جزءٌ من هويّتك».

وأخذني بين ذراعيه، ووجدت دموعي طريقها إلى الخارج من جديد.

أبى ذلك اليوم الطويل جدّاً أن ينتهي، فبدا لي آخذاً بالامتداد إلى اللانهاية.

وبرغم صعوبة اللّيل الذي جاء بعده، فقد تسنّى لي أن أغفو من وقتٍ إلى آخر، وكان وجود إدوارد معي قد ساعدني إلى حدٍّ بعيد.

برغم كوني لم أخلد إلى السكون العميق طيلة اللّيل، لم يحاول تشارلي طرق باب غرفتي خوفاً من أواجهه بنوبةٍ عاطفيّة يصعب عليه تحمّلها. أتوقّع أنّه لم ينم خلال اللّيل أكثر ممّا نمت.

كانت قدرتي على استعراض الماضي عالية إلى حدٍّ لا يطاق. رأيتُ بوضوح جميع الأخطاء التي ارتكبتها وكلّ الأذى الذي تسبّبتُ به. رأيت الأمور الصغيرة والكبيرة. رأيت كلّ العذاب التي تسبّبتُ به لجايكوب، وكلّ جرحٍ ألحقته بإدوارد. كانت الأمور واضحة أمامي بطريقة لا أستطيع التغافل عنها ولا إنكارها.

ولاحظتُ أنّي كنتُ مخطئة بشأن قطعتَي المغنطيس. لم تكن القطعتان اللتان حاولت جاهدةً تحقيق انسجامهما تمثلان إدوارد وجايكوب، بل كانتا تمثلانني أنا. إنّهما بيلاّ - إدوارد، وبيلاّ - جايكوب. لا تستطيع القطعتان التواجد معاً، وكان يجب ألاّ أحاول جمعهما أبداً.

لقد تسبّبت بقدر كبير من الأذى.

في اللّيل أيضاً، أصبت بما يشبه نوبة من الهستيريا، أخافت إدوارد أكثر من الدموع، عندما تذكّرتُ الوعد الذي قطعته على نفسي في الصباح، بألاّ أدع إدوارد يراني أذرف دمعة واحدة من أجل جايكوب بلاك بعد الآن؛ ولكنّ تلك النوبة مرّت مثل غيرها، بعد أن أخذت مجراها.

لم يقل إدوارد شيئاً، بل أبقاني في السرير وهو يضمّني إلى صدره، غير مكترثٍ أن أوسّخ قميصه ببقع المياه المالحة.

لقد احتاج ذلك الجزء الأصغر المحطّم منّي إلى وقت أطول ممّا توقّعت لإفراغ حزنه. شعرتُ أخيراً بالتعب الشديد فنمتُ؛ ولكنّ نومي كان أشبه بحالة من الخدر ساعدتني على احتمال الألم، وعلى التعاطي معه بطريقة أفضل عند الصباح.

لم يحمل الصباح معه حلاً ينقذني، ولكني أحسست أني أكثر قدرة على التحمّل. كنتُ على يقين أنّ الجرح الجديد في قلبي سيؤلمني طيلة حياتي ولكني كنت آمل أن الزمن سيتكفّل في التخفيف من وجعي. وإن

ارتاح جايكوب وعاش سعيداً فلن يهمّني إن شفيتُ من ألمي أم لا.

عندما استيقظت، فتحتُ عينيّ اللتين كانتا قد جفّتا أخيراً، ونظرتُ إليه. كانت نظراته قلقة.

قلتُ: «ماذا؟» كان صوتي خشناً، فاحتجت إلى تنظيف حنجرتي.

ظلّ صامتاً كأنه يراقبني ليرى متى سأعود إلى البكاء.

قلتُ: «أنا بخير الآن».

تقلّصت عيناه وهو ينظر إليّ.

فقلتُ: «أعتذر. ما جرى لم يكن عادلاً بحقّك».

وضع يديه حول وجهي وقال: «هل أنتِ متأكّدة يا بيلاّ أنّكِ اتخذتِ القرار المناسب؟ لم يسبق لي أن رأيتك تتألمين إلى هذه الدرجة من قبل...».

وغصّ عند نهاية الجملة.

لكنّي عرفتُ ألماً أصعب.

وضعتُ يدي على فمه، وأجبتُ: «نعم».

قال وهو يقطّب جبينه: «كيف يكون هذا هو القرار المناسب إن كان يسبّب لك كلّ هذا الألم؟».

«أنا أعرف يا إدوارد من هو الذي لن أتمكّن العيش من دونه».

«ولكن...».

هززتُ رأسي، وقلتُ: «أنتَ لا تفهم قصدي. قد تتحلّى أنتَ بالشجاعة والقدرة على الحياة من دوني إن وجدت أنّ ذلك هو الحلّ الأفضل. أمّا أنا فلستُ قادرة على هذا المستوى من التضحية الشخصية مثلك. يجب أن أكون معك. وأنا لا أستطيع العيش من دونك».

لم يغادر الشكّ وجهه. كان من الأفضل لو لم يبقَ معي اللّيلة الفائتة. لكنّي كنت بحاجة ماسّة إلى وجوده...

«هل تعطيني ذلك الكتاب؟» قلتُ.

قطّب حاجبيه وقال: «هذا الكتاب مجدّداً؟».

وأعطاني إيّاه في الحال.

«كنتُ أريد أن أستعيد تلك الفقرة...، ولكنّي لا أتذكّر كلماتها بدقّة...» قلّبتُ بعض الصفحات، ووجدت تلك الفقرة التي كنت أبحث عنها بسهولة. كانت زاوية تلك الصفحة قد باتت مطويّة مثل أذن الكلب لكثرة ما فتحتها وقرأتها. قلتُ: «كانت كاثي ظالمة ولكنّها أحسنت القيام ببعض الأمور». ورحتُ أقرأ السطور بهدوء وكأنّي أردتُ قراءتها لنفسي: «إن اضمحلّ كلّ شيء آخر وبقي هو، فإنّي سأبقى في الحياة؛ وإن بقيَ كلّ شيء واختفى هو، فسيكون الكون بالنسبة لي مكاناً غريباً ومخيفاً». هززتُ رأسي وقلت: «أنا أفهم ما تعنيه كاثي بالتحديد، وأعلم من هو الذي لا أستطيع العيش من دونه».

أخذ إدوارد الكتاب ورماه، فحطّ على مكتبي محدثاً ضجّة خفيفة.

أشرقت ابتسامة صغيرة على وجهه برغم أمارات القلق التي لا تزال فوق جبينه. وقال: «هيثكليف أيضاً كانت له بعض التعابير المؤثرة». شدّني إليه وهمس في أذني ما قاله هيثكليف بدقّة، ومن دون الرجوع إلى الكتاب: «لا أستطيع العيش من دون حياتي! لا أستطيع العيش من دون روحي!».

«نعم»، قلتُ بهدوء. «هذا ما أريد قوله».

«بيلاّ، لا أحتمل أن أراك غير سعيدة. ربّما...».

«كلاّ يا إدوارد. لقد أسأت التصرّف في أمور عديدة، وسيكون عليّ تحمّل النتائج. لكنّي أعلم ماذا أريد، وماذا أحتاج...، وأعرف ماذا سأفعل الآن».

«وماذا سنفعل الآن؟».

ابتسمتُ قليلاً لهذا التصحيح الذي أجراه، وقلتُ: «سنذهب الآن لنرى آليس».

* * *

جلست آليس تنتظر وصولنا عند أسفل الدرج أمام مدخل البيت. وما إن وصلنا حتى بدت وكأنّها على وشك أن ترقص من الفرح. كانت تعلم الكثير من أخباري الأخيرة، فاندفعت مهلّلة:

«شكراً يا بيلاّ!».

قلت: «انتظري يا آليس. لا تبالغي، يجب أن تلتزمي ببعض الشروط».

«أعرف، أعرف، أعرف. تاريخ الثالث عشر من آب هو آخر مهلة، ولك حقّ الاعتراض على لائحة المدعوّين. وإن بالغتُ أو أسرفتُ في أيّ شيء فلن تتكلّمي معي بعد ذلك».

«حسناً، لقد عرفت الشروط جيّداً».

«لا تقلقي يا بيلاّ، سيكون كلّ شيء على أحسن صورة. هل تودّين رؤية فستانك؟».

تنفّست بعمقٍ، وقلتُ في نفسي: لتفعل ما يحلو لها وما يجعلها سعيدة.

وأجبت: «بالتأكيد!».

ابتسمت آليس بفخر.

وأضفت بنبرة عاديّة وهادئة: «متى اشتريتِ لي فستاناً؟».

ضغط إدوارد على يدي منبّهاً لكي لا أحرجها، فربّما تفضّل عدم البوح بالجواب...

مشت آليس أمامنا نحو الدرج المؤدّي إلى الطابق العلوي. وراحت تفسّر ولكن بطريقة ملتبسة لا يُفهم منها أيّ شيء: «هذه الأمور تحتاج

إلى وقت. ما أريد قوله. . . ، لم أكن متأكّدة أنّ الأمور قد تسير بهذا الشكل، ولكن كان هناك احتمال كبير. . .».

«متى اشتريتِ الفستان؟» سألتها مرّة أخرى.

عندئذٍ، أجابت بلهجة دفاعية: «تعلمين أنّ لائحة الانتظار لدى المصمّمة بيرّين بروير طويلة جدّاً. لا يمكن الحصول على الفساتين الرائعة بين ليلة وضحاها. لو لم أفكّر في وقتٍ مسبق حول الموضوع، لكنتِ سترتدين فستاناً جاهزاً وعاديّاً».

يبدو أنّي لن أحصل على إجابة واضحة عن سؤالي الأوّل، فطرحتُ سؤالاً آخر:

«من هو المصمّم إذاً؟».

«ليس مصمّماً مشهوراً، لذلك لا حاجة للغضب، ولكنّه مصمّم ذو مستقبل واعد ومتخصّص بالنوع الذي أردته».

«حسناً، لن أغضب».

«لستِ غاضبة!». قالت وهي ترمق وجهي الهادئ بنظرة مشكّكة. وعندما دخلنا إلى غرفتها، استدارت آليس إلى إدوارد وأمرته بالخروج.

قلتُ: «لماذا؟».

«بيلّا! أنتِ تعرفين أن الأصول تقضي بألاّ يشاهد العريس الفستان قبل يوم العرس».

أخذتُ نفساً عميقاً، وقلت: «لا يهمّني ذلك. وأنتِ تعلمين أنّه رآه في رأسك. ولكن إن كان هذا ما تريدينه. . .»،

مشت مع إدوارد إلى الباب، وهو لم يهتمّ حتى بالنظر إلى وجهها، ولكنّ عيناه كانتا مركّزتين عليّ حذراً وخوفاً من أن يتركني لوحدي.

أومأتُ إليه برأسي بنظرة هادئة لكي أطمئنه.

أغلقت آليس الباب في وجهه.

«حسناً! تعالي الآن».

أمسكت معصمي وشدّتني إلى خزانة ملابسها التي كانت أكبر من غرفتي. ثمّ مشينا إلى الزاوية الخلفية حيث عُلّق كيس كبير أبيض.

فتحت الكيس بحركة خفيفة وسريعة وأخرجت الفستان بعناية من داخله. عندئذٍ خطت خطوة واحدة إلى الوراء ممسكةً بالفستان كأنّها في عرضٍ مسرحي، وقالت قبل أن تلتقط نَفَسَها: «والآن، ما رأيك؟».

ألقيتُ نظرة تقييميّة أردتها أن تكون طويلة لكي أتلاعب بأعصابها قليلاً، وقلتُ مبتسمة لأريحها بعدما لاحظتُ أنّ القلق بدأ يساورها: «آه! ما هذا؟».

«ما رأيك؟». سألت بإصرار.

كانت قد عادت إلى مخيّلتي صورة العروسين الجالسين على الأرجوحة أمام باب الدار في تلك القصّة من الأدب الإنكليزي الكلاسيكي، فقلتُ: «إنّه عظيم بالطّبع، ويلبّي المواصفات المطلوبة بدقّة. كم أنتِ ماهرة!».

ضحكت وقالت: «أعرف ذلك».

فقلتُ: «يشبه موضة عام 1918، بحسب ما أعتقد».

أجابت: «تقريباً، ولكن بعض التفاصيل هي من تصميمي، مثل الطرحة والذيل...» وكانت تداعب الحرير الأبيض بأصابعها وهي تتكلّم. «وطراز الدانتيل يعود إلى حقبة قديمة، هل أعجبك؟».

قلتُ: «إنّه جميل ويناسب ذوق إدوارد تماماً».

«ولكن هل يناسبكِ أنتِ؟».

«نعم يا آليس. إنّه ما أريد. لا أشكّ في قدرتك على الاهتمام بهذه الأمور...، إن حافظتِ على الاعتدال».

أشرق وجهها بابتسامة عريضة.

وسألتها: «دعيني أرى فستانك».

بدت عليها الحيرة ولم تجب.

«ألم تطلبي من المصمّم فستاناً لك في الوقتِ نفسه؟ أنا لا أرضى أن ترتدي إشبينتي فستاناً جاهزاً عادياً». وأنهيت جملتي متظاهرةً بالتعالي والاشمئزاز.

فتحت ذراعيها وغمرتني قائلةً: «شكراً يا بيلاّ!».

«ألم تستطيعي رؤية فستانك بعد؟ يا لك من عالمة في الغيب. . .!» وضحكتُ وقبّلتها على شعرها.

ابتعدت ورقصت فرحاً، وقالت: «الآن إذهبي والعبي مع إدوارد. . .، عليّ الانصراف إلى العمل. أنا مشغولة جدّاً!».

وخرجت من الغرفة بسرعة وهي تنادي «إيزمي.. إيزمي.».

تبعتها إلى الخارج، ووجدت إدوارد منتظراً وهو يسند ظهره إلى الحائط.

وقال: «ما قمتِ به كان رائعاً جدّاً».

أجبتُ: «إنّها تبدو سعيدة».

لمس وجهي وهو يتمعّن في تعابيره، فلاحظت هالةً سوداء تظلّل عينيه وتنبّهت أنّه لم يذهب في رحلة صيدٍ منذ وقتٍ طويل.

ثمّ اقترح فجأةً: «لنخرج إلى مكانٍ ما، تعالي نذهب إلى المرج الواسع، إلى ساحتنا».

أعجبتني الفكرة. وقلت: «أظنّ أنّي لا أحتاج إلى الاختباء بعد الآن، أليس كذلك؟».

«كلاّ. فالخطر بات وراءنا».

وراح يركض هادئاً وشارداً يفكّر. استمتعت بالنسمات الدافئة وهي تداعب وجهي. كانت العاصفة قد انتهت كليّاً، وزيّنت الغيوم السماء مثل العادة.

بدا لي المرج مسترخياً في جوٍّ من السلام والفرح اليوم. لم يعكّر اخضرار عشبه سوى بعض أزهار الربيع الصفراء والبيضاء المنتشرة فوقه. استلقيت على ظهري غير آبهة برطوبة التراب. ونظرتُ إلى الأعلى لأتسلّى بما ترسمه الغيوم من صور وأشكال، لكنّي لم أرَ سوى غطاء رماديّ متجانس ورقيق يغطّي السماء.

استلقى إدوارد إلى جانبي وأمسك بيدي. وبعد أن استرخى بضع دقائق، سألني:

«لمَ اخترتِ تاريخ الثالث عشر من آب موعداً للعرس».

«لأنه يسبق عيد ميلادي بشهرٍ واحد. ولا أريد أن يتأخّر موعد زواجنا أكثر».

تنهّد وقال: «هل تعلمين أنّ إيزمي هي أكبر بثلاث سنوات من كارلايل؟».

أومأت برأسي.

فتابع: «لم يؤثر هذا الفارق في العمر على حياتهما بشيء».

أجبتُ بصوتٍ هادئ على عكس صوته المتوتّر: «مسألة العمر ليست الأهم بالنسبة إليّ الآن. أنا جاهزة يا إدوارد للقيام بهذه الخطوة. لقد اخترتُ حياتي، وأريد الآن أن أعيشها».

مدّ يده إلى شعري وأخذ يداعب خصلاته، وقال: «وماذا عن حقّك بالاعتراض على لائحة المدعوّين؟».

«لا يهمّني هذا الأمر كثيراً، ولكن...» وتردّدت في شرح هذا الأمر. ثمّ قرّرت أن أطرحه، فقلتُ: «لا أدري إن كانت آليس ستفكّر في دعوة بعض الرّجال الذئاب. لا أدري إن... كان جايكوب سيحبّ أن يأتي، أو أنّه سيشعر أنّه يجب أن يأتي. وهل من الصواب أن أدعوه، وهل سأتألّم إن لم أفعل. يجب ألاّ أحمّله صعوبة هذا الموقف».

بقي إدوارد صامتاً، وكنتُ أتأمّل رؤوس الأشجار التي تبدو كأنّها سوداء تحت السماء الرّمادية.

وفجأةً، أمسك بخصري وشدّني إلى صدره، وقال: «أخبريني لماذا تفعلين ذلك يا بيلاّ؟ لماذا قرّرت الآن تسليم زمام الأمور إلى آليس؟».

أخبرته بالحديث الذي جرى بيني وبين تشارلي مساء أمس قبل أن أذهب لزيارة جايكوب.

«لا يحقّ لنا أن نبعد تشارلي عن هذه المناسبة. وهذا يعني أيضاً وجود رينيه وفيليب. وبهذه الطريقة يتسنّى لآليس الاستمتاع بالتحضير للحفلة. لن أحرمَ تشارلي من فرصة وداعي، ولو أنّه سيعتبر قراري بالزواج مبكراً. ولن أحرمه من فرحته بأخذ ذراعي وتسليمي إلى عريسي برغم سخافة هذه العادة. وهكذا، على الأقلّ، سيطّلع والديّ وأصدقائي على الجزء الأفضل من الحياة التي اخترتها، الجزء الذي يحقّ لي أن أطلعهم عليه. سيعلمون أنّي اخترتك، وأنّنا سنكون سعيدين أينما كنّا. وهذا أفضل ما يمكنني تقديمه لهم».

نظر إدوارد إلى وجهي وراح يتفحّصه.

وقال: «انتهى الاتفاق بيننا».

«هل يعني ذلك أنّك تتراجع؟». سألته لاهثة.

«لن أتراجع يا بيلاّ. سألتزم بما وعدتك به، ولكنّي لن أفرض عليك أيّ شروط. تصرّفي كما ترتاحين من غير شروط ولا قيود».

«لماذا؟».

«بيلاّ، إنّي أرى حقيقة ما تقومين به. إنّك تحاولين إسعاد الآخرين. وأنا لا يهمّني ما يشعر به الآخرون، أريدك أن تكوني أنتِ سعيدة. لا تخافي من خيبة أمل آليس، واتركي لي أن أهتمّ أنا بأمرها. وأؤكّد لك أنّها لن تجعلك تشعرين بالذنب».

«ولكنّي...».

«كلاّ يا بيلاّ، ستجري الأمور على طريقتك، فقد تبيّن أنّ طريقتي غير صحيحة. كنتُ أظنّ أنّكِ أنتِ العنيدة، ولكن انظري ما فعلتُ أنا. لقد تمسّكت بحماقة بأمور حسبتها جيّدة بالنسبة إليكِ، فإذا بها تؤذيك. إنّ هذه الأمور تؤذيك بطريقة عميقة ومستمرّة. لقد خسرتُ ثقتي برأيي. يمكنك أن تعيشي سعيدة بالأسلوب الذي ترينه مناسباً، لأنّه تبيّن أنّ رأيي كان دائماً غير مصيب...» وتمدّد تحتي وبسط كتفيه على الأرض، وقال: «سنقوم بالأمر على طريقتك يا بيلاّ. اليوم، أو هذه اللّيلة، يجب أن ننتهي من الأمر في أقرب فرصة. سأتكلّم مع كارلايل. أعتقد أنّه لو يحقنك بكميّة كافية من المورفين لن يكون الأمر شديد الصعوبة. على كلّ حال، لا ضرر من التجربة». انتهى من الكلام وصرّ أسنانه.

قلتُ: «كلاّ يا إدوارد...».

ولكنّه وضع إصبعه على شفتيّ، وقال: «لا تخافي يا حبيبتي، لم أنسَ بقيّة مطالبك».

وأدخل أصابعه في شعري، وراحت شفتاه تتحرّكان بنعومة ولكن بتركيزٍ شديد فوق شفتيّ، ولم أكن قد استوعبتُ بعد معنى كلامه، ولا ما ينوي القيام به.

لم يكن أمامي الوقت لكي أفعل شيئاً، لأنّي لو انتظرتُ قليلاً، لنسيتُ السبب الذي يوجب عليّ إيقافه. ها إنّ أنفاسي بدأت تتقطّع، ويديّ تتمسّكان بذراعيه وتشدّاني إليه، وفمي ملتصقٌ بفمه مجيباً عن كلّ أسئلته المكتومة.

حاولتُ أن أركّز تفكيري، وأن أجد سبيلاً للكلام.

استدار بلطفٍ فوقي، فالتصق ظهري بالعشب.

شعرتُ بالثمالة من عطر أنفاسه وسمعتُ صوتاً صادراً عن الجزء الأضعف في شخصي يقول دعيه يفعل ما يشاء، ولمَ لا؟

كلاّ، كلاّ! تصدّيتُ لنفسي. أزحتُ رأسي، فانتقلت شفتاه إلى

عنقي، وأصبح بإمكاني أن أتنفّس.

«توقّف يا إدوارد. توقّف»، قلتُ بصوتٍ ضعيف كضعفِ إرادتي.

وهمس: «لماذا» وأنفاسُه تداعب الفجوة عند أسفل عنقي.

بذلتُ جهداً كبيراً لأتكلّم بحزم: «أنا لا أريد فعلَ ذلك الآن».

«لا تريدين؟» سألني بابتسامة. وأعاد شفتيه إلى شفتيّ ومنعني من الكلام. شعرت بالحرارة ترتفع في عروقي ويزداد اشتعالها في كلّ نقطةٍ تلامس جسده.

شددتُ عزمي على التركيز، ورحتُ أجتهد لأسحب أصابعي من داخل شعره، ولأنقل يديّ إلى صدره. وعندما نجحتُ في ذلك ضغطتُ على صدره لأبعده عنّي. كان من المستحيل أن أنجح في إبعاده عنّي، لولا تجاوبه الذي توقّعته.

تراجع إلى الوراء لينظر إليّ وكانت عيناه مثل كتلتَي نارٍ سوداء من غير لهب، تنظران إليّ بغضبٍ مكبوت.

«لماذا؟» سألني مجدّداً بصوتٍ منخفض وأجشّ. «أحبّك. أريدك. وأريدك الآن».

شعرتُ بتوتّرٍ في جسدي ولم أتكلّم. حاول اغتنام فرصة صمتي، فقلت محاولةً الإفلات من شفتيه: «انتظر، انتظر».

«لا تقولي لي ذلك».

«أرجوك»، قلتُ لاهثة.

غمغم، وابتعد عنّي من جديد وتمدّد على ظهره.

بقينا نحن الاثنين مستلقيين بضع دقائق من دون حركة.

«أخبريني ما سبب الرّفض يا بيلاّ، أرجو ألاّ أكون أنا شخصيّاً السبب».

إنّه السبب الذي يدور حوله كلّ شيءٍ في حياتي.

قلت: «هذا الأمر مهمّ جدّاً بالنسبة لي. سأقوم به بالطريقة الصحيحة».

«الطريقة الصحيحة بحسب مَن؟».

«بحسبي أنا».

استدار واستلقى على مرفقه ونظر إليّ غير مقتنعٍ بما قلت: «كيف ستقومين بهذا بطريقة صحيحة؟».

تنفّست بعمق، ثمّ أجبت: «سأقوم بجميع الأمور بطريقة مسؤولة، وفي الوقت الصحيح. لن أرحل عن تشارلي ورينيه قبل أقدّم لهما أفضل ما أستطيع، ولن أحرم آليس من المتعة ما دمنا سنقيم حفل زواج في جميع الأحوال. وسأرتبط بك بجميع الأساليب الإنسانيّة قبل أن أطلب منك أن تجعلني مثلك، غير قابلة للموت. سأسير بحسب الأصول يا إدوارد. روحك مهمّة جدّاً بالنسبة إليّ ولن أغامر بها. لن تستطيع إقناعي بالتراجع عن هذا القرار».

«أراهن أنّي أستطيع». قال متمتماً، وعيناه تلتهبان من جديد.

ومن غير اضطراب، قلتُ: «لكنّك لن تفعل ذلك خصوصاً بعد أن عرفتَ ما أريده حقّاً».

«أنتِ تحاربين بأسلوب غير عادل».

«لم أقل قطّ إنّي سأحارب بأسلوبٍ عادل». قلتُ ضاحكة.

فضحك بالمقابل، وقال بكآبة: «إن غيّرتِ رأيك...».

قلتُ: «ستكون أوّل من يعلم».

بدأت قطرات المطر بالسقوط فوق العشب بهدوء. نظرت إلى السماء بتعجّب.

مدّ يده ومسح بعض القطرات عن خدّي، وقال: «سأوصلك إلى البيت الآن».

«لا يهمّني المطر. ولكن حان الوقت لنقوم بأمر صعب، وربّما شديد الخطورة».

فتح عينيه متنبّهاً.

قلتُ: «من المفيد أنّك ضدّ الرصاص». ثمّ تنهّدت. «أين ذلك الخاتم؟ لقد حان الوقت لأخبرَ تشارلي».

ضحكَ وهو يتأمّل تعابير وجهي. واستعاد جملتي بموافقاً: «شديد الخطورة!».

وضحك مرّة ثانية، ومدّ يده إلى جيبه. وقال: «سنذهب إلى بيت تشارلي حالاً».

وللمرّة الثانية، قام بوضع الخاتم حول إصبعي.

حيث سيبقى كما أتصوّر إلى الأبد.

الخاتمة - خيار

جايكوب بلاك

«جايكوب، هل تظنّ أن الأمر سيطول؟» سألت لِيا شاكية.

صررتُ على أسناني. لأنّ لِيا مثل كلّ الذئاب تعرف كلّ شيء. تعرف لماذا جئتُ إلى هذا المكان، إلى طرف الأرض والسماء والبحر. لأكون بمفردي. إنّها تعرف أنّ هذا كلّ ما أريده. لأكون بمفردي فحسب.

لكنّها، وبرغم ذلك، تريد أن تفرض وجودها عليّ.

برغم غضبي العارم، فقد اجتاحني شعورٌ بالفخر خلال لحظات لأنّي بتّ أستطيع تمالك غضبي بسهولة الآن وبطريقة طبيعيّة. أجبتها بصوتٍ هادئ:

«اقفزي عن الصخرة يا لِيا». قلتُ وأنا أشير إلى الصخرة عند قدميّ.

تجاهلَتْ قولي، وتمدّدتْ على الأرض إلى جانبي. «أنتَ لا تعلم كم هذا الأمر صعبٌ عليّ».

«صعبٌ عليكِ؟» لم أصدّق ما سمعته أذنيّ. «لا شكّ أنّك المخلوقة الأشدّ أنانية في العالم. أتمنّى أن أحطّم هذا العالم الخيالي الذي تعيشين فيه. تظنين أنّ الشمس تدور حولك. لا يهمّني ما تشعرين به. أرجو أن تذهبي من هنا».

وتابعت كلامها وكأنّي لم أقل شيئاً: «أطلب منك أن تنظر إلى الأمر ولو لدقيقة من الزاوية التي أنظر منها».

إن قصدت تغيير مزاجي فقد نجحت لأنّي قهقهت ضاحكاً. ولكنّي تألّمت من قهقهاتي.

غضبت وقالت: «توقّف عن هذا الشخير وأصغِ إلى ما سأقول».

«إن تظاهرت بالإصغاء، هل ستذهبين؟» نطقتُ بهذه الكلمات ولمحتُ وجهها فرأيت ذلك العبوس الذي بات جزءاً من هذا الوجه. لا أدري إن بقي لديها تعابير أخرى غير ذلك.

تذكّرت تلك الأيام عندما كنتُ أجد أنّ لِيا فتاة جميلة. كان ذلك منذ زمن طويل. لا أحد يراها بهذا المنظار الآن ما عدا سام. ما زال سام عاجزاً عن العفو عن ذاته، وكأنّه السبب في تحوّلها إلى هذه المرأة الرديئة الطباع التي لا تطاق.

ازداد وجهها عبوساً وكأنها عرفت ما أفكّر به، وربّما عرفت.

«هذا يسبّب لي الغثيان يا جايكوب. هل تتخيّل كيف أشعر. إنّي حتّى لا أطيق صحبة بيلاّ سوان. وها أنتَ تجعلني أحزن على فراق تلك التي تحبّ مصّاص الدماء، كأنّي أعشقها أنا أيضاً. هل تدرك ما أقصد وتتفهّم ارتباكي. لقد رأيت في حلمي اللّيلة الماضية أنّي كنتُ أقبّلها! كيف يمكنني أن أتعايش مع هذا الأمر؟».

«ليست مشكلتي!».

«لم أعد أطيق سماع أفكارك. عليك أن تتخطّى هذا الأمر بسرعة! هي ستتزوّج ذلك المخلوق الغريب. وهو سيسعى إلى تحويلها لكي تصبح مثله. تغلّب على مشكلتك يا صاحبي».

«اخرسي!» قلتُ ساخطاً.

ليس من الحكمة أن أردّ على استفزازها. أعرف ذلك. عضضتُ على لساني وامتنعت عن الردّ. لكنّها ستندم إن لم ترحل في الحال.

«الأرجح أنّه سيقتلها. هكذا تقول معظم القصص. ربّما ستنتهي حكايتهما بمأتم وليس بحفل زواج، ها!».

في هذه المرّة كان عليّ بذل مجهودٍ كبير لأسيطر على نفسي. تحرّكت قليلاً لأغيّر مسار موجة الغضب الحارّ التي سرت في ظهري وشعرتُ بطعمها في فمي. رحتُ أصارع نفسي لكي أبقى على حالي وأمنع جسدي من الانتفاض.

عندما استعدت السيطرة على نفسي، حدّقتُ في وجهها. كانت تنظر إلى يديّ وتراقب وتيرة ارتجافهما التي كانت تخفّ تدريجيّاً، وهي تبتسم.

قالت: «كنتُ أمازحك».

«إن كان موضوع الانحراف الخيالي في التوجّه الجنسي هو الذي يضايقك... يا لِيا»، وأكملتُ بهدوء محاولاً التركيز على كلّ كلمة: «كيف تتصوّرين موقف كلّ واحدٍ منّا عندما يضطرّ إلى رؤية سام من خلال عينيك؟ ألا يكفي أن تتحمّل إميلي مشكلة ولعكِ أنتِ المرضي به، حتى تضطرّ إلى التعامل مع تلهّفنا نحن الشباب إليه أيضاً؟».

وبرغم انزعاجي الشديد منها، انتابني شعورٌ بالذنب عندما نظرتُ إليها ولاحظت نوبة الألم التي اجتاحت وجهها.

قامت بسرعة من مكانها، ووقفت لحظة لتبصق في وجهي، ثمّ انطلقت نحو الأشجار كالرمح المرتجف.

ضحكتُ باشمئزاز: «أخطأتِ الهدف».

لا بدّ أن يعاتبني سام بشدّة على ما قلتُه لها، ولكنّي قد أرتاح من مضايقاتها من الآن وصاعداً وهذا يستحقّ العناء. ولو سنحت لي الفرصة مجدّداً...، سأعاود الكرّة.

لأنّ كلماتها التصقت بدماغي ولا تزال تعذّبني. كان الألم حادّاً جدّاً إلى درجة أنّي شعرتُ بصعوبة في التنفّس.

لقد اختارت بيلاّ حبيباً آخر غيري، ولكن هذا الأمر ليس محور عذابي الحقيقي. يمكنني أن أعيش مع هذا العذاب إلى الأبد، إلى آخر يومٍ من حياتي الطويلة جدّاً والتافهة.

ما كان يعذّبني أنّها ستضحّي بكلّ شيء. . . ، سيتوقّف قلبها عن الخفقان، وسيتحوّل جلدها إلى جليد قاسٍ، وسيكون عقلها مثل عقول هذه الوحوش المفترسة الغريبة.

كنتُ أعتقد أنّ لا شيء في الدنيا أسوأ من هذا المصير.

ولكن، ماذا لو قتلها. . . .؟

ومن جديد شعرت بحاجة لأتصارع مع الغضب. ربّما لولا وجود لِيا، لكان من الأفضل أن أسمح للثورة التي في داخلي أن تغيّرني إلى مخلوقٍ آخر يقوى على تحمّل العذاب. إلى مخلوق يتمتّع بغرائز أقوى من عواطف الآدميين. إلى حيوان لا يشعر بالألم، أو أنّه يشعر به بطريقة مختلفة. ولكنّ لِيا تركض في الغابة الآن، ولا أريد أن أشاركها أفكارها. ها إنّها تحرمني من فرصة الهروب أيضاً. . كم أنّها تستحقّ الشتيمة حقّاً!

عادت يداي إلى الارتجاف على الرغم من إرادتي.

ما الذي سبّب ارتجافهما؟ أهو الغضب؟ أم العذاب؟ لم أعد متأكّداً أيّهما أصارع الآن.

كان عليّ أن أصدّق أن بيلاّ ستبقى على قيد الحياة. ولكنّ ذلك كان يتطلّب الثقة. تلك الثقة التي كنتُ أرفضها. . . ، الثقة في قدرة مصّاص الدماء على إبقائها حيّة.

ستتغيّر ولا أدري كيف سأتقبّل تغيّرها. ستكون جامدة كالصخر وباردة كالجليد، هل ستصبح بالنسبة لي كأنّها ميتة؟ إن وصلت رائحتها إلى أنفي وأثارت غريزتي لأقتل وأمزّق. . . ، كيف سيكون حالي؟ هل سأرغب في قتلها؟ وهل يعقل ألاّ أرغب في قتلِ مصّاص دماء؟

رحتُ أراقب الأمواج تتقلّب نحو الشاطئ لتختفي عن أنظاري تحت أقدام الصخرة وكنتُ أسمع صوت تلاشيها فوق الرّمال. بقيتُ أراقب ذلك إلى ما بعد انتشار الظلام بوقتٍ طويل.

شعرتُ بالجوع فكان لا بدّ أن أذهب إلى البيت. لكنّها لم تكن فكرة جيّدة.

مددتُ يدي على مضض لألتقط العكاز. ليتَ تشارلي لم يرَني في ذلك اليوم، وينشر خبر أنّي أصبتُ في «حادث درّاجة». . . ، كم أكره هذه العصيّ!

كان من الأسهل لو بقيت جائعاً ولم أذهب إلى البيت ويقع نظري على وجه بيلي. عرفتُ للتوّ أنّه يخبئ شيئاً عنّي. كان لا يحسن التمثيل مع أنّه يحاول، لأنّه يبالغ في التصرّف العادي.

وكان أيضاً يثرثر كثيراً، ويخبرني عن نهاره باستفاضة. إنّه لا يفعل ذلك إلاّ عندما يريد تحاشي الكلام عن أمرٍ آخر. تجاهلت تصرّفه، ورحتُ أبتلع الطعام بسرعة أكثر فأكثر. . .

«. . .مرّت سوزان من هنا اليوم». قال بصوته العالي الذي يصعب تجاهله كالعادة. وتابع: «إنّها حقّاً امرأة قويّة. لو كانت تتغيّر، كانت ستكون ذئبة قويّة جدّاً ومختلفة عن ابنتها التي لا أعلم كيف تستطيع التعامل معها في الحقيقة». وضحك.

انتظر إجابتي لكنّه بدا وكأنّه لم يرَ تعابير وجهي الخالية التي تزعجه في كثير من الأحيان لأنّها تشير إلى ضجري الشديد. ليته يتوقّف عن التحدّث عن ليا. كنتُ أحاول عدم التفكير بها.

لا تجد سوزان صعوبة كبيرة في التعاطي مع سيث. كان التعاطي معك أنتَ أيضاً أسهل من التعاطي مع أخواتك. إلى أن. . .حسناً، إلى أن بات عليك مسؤوليّات وهموم أكثر منهنّ.

أطلقتُ زفرةً طويلة وعميقة، ونظرتُ من النافذة.

وصمت بيلي فجأةً، ثم قال: «وصلتنا رسالة اليوم».

شعرتُ أنّ هذا هو الأمر الذي قصد إخفاءه في البداية.

«رسالة؟».

«بطاقة دعوة. . . إلى حفل زواج».

تقلّصت جميع عضلات جسدي، وشعرتُ بلهبٍ من نار في ظهري. أمسكتُ بطرف الطاولة لكي أمنع يديّ من الارتجاف.

وتابع بيلي وكأنّه لم يلاحظ شيئاً: «في الداخل رسالة لك لم أفتحها».

وسحب مغلّفاً سميكاً عاجيّ اللّون كان يضعه إلى جانبه في كرسيّه المتحرّك، ووضعه فوق الطاولة.

«ربّما لا ترغب في قراءتها. لن يهمّك حقّاً ما كتب في داخلها».

أراد بيلي أن يعالج الموقف بالتأثير النفسي المعاكس، ويا لها من طريقة غبيّة. انتزعتُ المغلّف عن الطاولة.

كان المغلّف مصنوعاً من الورق السميك الفاخر. والبطاقة التي في داخله صنعت أيضاً بأسلوبٍ متكلّف ورسمي جدّاً لا يشبه بيلاّ في شيء. ولم يكن هناك ما يشير قطعاً إلى ذوقها الشخصي في تلك الأوراق الشفافة المطبوعة بأوراق الورود. أراهن أنّها لم تحبّ شكل هذه البطاقة قطعاً. لم أقرأ ما كتب فيها، ولا تاريخ الزواج لأنّه لا يهمّني.

وكان في داخل المغلّف ورقة أخرى من النوع ذاته طويت وكُتِبَ عليها بخطّ اليد اسمي. لم أتعرّف إلى ذلك الخطّ لأنّه متكلّف كبقيّة البطاقة. ومرّ في ذهني لبرهة من الزمن أن يكون مصّاص الدماء قد أراد التبجّح الرّخيص.

فتحت الورقة.

جايكوب،

إنّي أخالف الأوامر في إرسال هذه البطاقة، لأنّ بيلاّ تخاف أن تؤذي مشاعرك، ولا تريد أن تفرض عليك شيئاً. لكنّي أعلم أنّه لو جرت الأمور في الاتجاه الآخر، كنت سأفضّل أن يكون لديّ الخيار.

أعدك يا جايكوب أنّي سأهتمّ بها. أشكرك، أشكرك من أجلها، ومن أجل كلّ شيء.

إدوارد

«ليس عندنا سوى هذه الطاولة يا جايك». قال بيلي وهو ينظر إلى يدي اليسرى.

كانت أصابع يدي تشدّ على الطاولة وكادت تحطّمها. أرخيت أصابعي بعناية، الواحد بعد الآخر، وعقدت يديّ إلى بعضهما حتّى لا أحطّم شيئاً.

دمدم بيلي: «ليس هذا أمراً مهمّاً في جميع الأحوال».

قمتُ عن الكرسي ونزعتُ قميصي في الحال، راجياً أن تكون لِيا قد عادت إلى البيت.

«لا تتأخّر كثيراً»، قال بيلي وأنا أدفع الباب أمامي.

بدأتُ بالعدو قبل أن أصل إلى الغابة. وكانت ثيابي تسقط ورائي كأنّها إشارات لتذكّرني بطريق البيت. . .، وكأنّي كنت أنوي العودة! باتت عمليّة التحوّل سهلة بالنسبة لي الآن، لم يعد مطلوباً منّي التفكير في الأمر، فجسدي يلبّي حاجته بشكلٍ تلقائي وقبل أن أطلب منه، يعطيني ما أريد.

لديّ أربع قوائم الآن وأكاد أطير عدواً.

تحوّلت الأشجار في الظلمة حولي إلى بحر مائج أسود. وراحت عضلاتي تتقلّص وتتراخى تلقائياً. يمكنني أن أركض هكذا لأيّام من غير تعب. ربّما لن أتوقّف هذه المرّة.

لكنّي لم أكن بمفردي.

«آسف جدّاً»، همس إيمبري في رأسي.

عرفتُ من خلال عينيه أنّه بعيد في المنطقة الشمالية. لكنّه استدار وراح يركض في اتجاهي. هدرتُ متذمّراً وركضت بسرعة أكبر.

«انتظرنا»، همس كويل معترضاً. كان في مكانٍ قريب تاركاً القرية للتوّ.

«اتركاني بمفردي»، شخرتُ.

كنتُ أرى قلقهما عليّ في داخل رأسي. حاولت طمسه تحت صوت الريح، وأصوات الغابة. هذا ما أكرهه أكثر من أيّ شيءٍ آخر...، أن أرى نفسي من خلال أفكارهما والحالة الآن أشدّ سوءاً لأنّهما يشعران بالشفقة عليّ. لقد رأيا نفوري من تدخّلهما، ولكنّهما ما زالا يركضان ورائي.

ورنّ صوتٌ آخر في رأسي. كان صوت سام، كان لطيفاً ولكنّه أصدر أمراً. فخفّف إيمبري وكويل من سرعتهما في الحال وتوقّفا عن العدو.

لو أستطيع أن أتوقّف عن سماع ما يفكّران به ورؤية ما يتصوّرانه! في رأسي ضجّة كبيرة وأفضل طريقة لكي أكون وحيداً هي أن أعود إلى حالتي الإنسانيّة، ولكنّي لا أقوى على احتمال العذاب.

«استعيدا حالتكما الإنسانية». أمرهما سام. «سأعيدك إلى البيت يا إيمبري».

توارى الأوّل عن رأسي ثمّ الثاني، ونعمتُ بالهدوء. لم يبق سوى سام.

تمكّنت من التعبير: «شكراً يا سام».

عد إلى البيت عندما تستطيع. وانتهت العبارة وتلاشى الصوت في السكون بعدما تغيّر سام أيضاً.

ها إنّي أسمع خشخشة أوراق الشجر تحت أقدامي، وهسهسة أجنحة بومةٍ فوقي. ومن جهة الغرب، من مكانٍ بعيد أسمع شكوى المحيط إلى رمال الشاطئ. أسمع هذا ولا أسمع سواه. لا أشعر بشيء سوى بالسرعة، وباشتداد عضلاتي وعصبي وعظامي وهي تعمل معاً في حركة متجانسة، بينما المسافات تختفي ورائي.

لو استمرّ السكون في رأسي، لن أعود. لن أكون الأوّل الذي فضّل هذا الشكل على الآخر. ربّما إن ركضت إلى البعيد البعيد، لن أسمع شيئاً في رأسي بعد ذلك...

واندفعت بسرعةٍ أكبر تاركاً جايكوب بلاك ورائي...

ستيفاني ماير

خسوف

- «تشويق وتشويق بوتيرة متصاعدة.
43 مليون نسخة بلغت مبيعات هذا الكتاب، وتُرجم إلى 40 لغة.»

- ينتهي القارئ من «قمر جديد» حابساً أنفاسه في انتظار الكتاب الثالث من هذه السلسلة.

سكول لايبراري جورنال

- يعيش قارئ هذا الكتاب في جوّ من التشويق المتصاعد...إنها حكاية عشّاق المستحيل وأحلامهم المعذّبة.

كيركس

فيما كانت موجة القتل الغامضة تجتاح سياتل، وفيكتوريا تواصل سعيها إلى الانتقام، تجد بيلّا نفسها محاطة بالمخاطر من جديد.

وفي خضمّ كلّ ذلك، كان على بيلّا الاختيار بين إدوارد حبيبها وجايكوب صديقها، بين الحياة والموت. ولكن أيّ الخيارين هو الموت، وأيّهما الحياة؟

في صمت تلك اللّحظة، وبسرعة الحدس، اتضحت أمامي الصورة على أكملها.

إنه أمر أراد إدوارد إخفاءه عني، فيما يصرّ جايكوب على ضرورة معرفتي به.

أمرٌ جعل عائلة كولن والذئاب يذهبون إلى الغابة معاً ويتعرّضون لاحتكاك خطير.. أمرٌ كنت أتوقّعه في جميع الأحوال.. أمرٌ عرفت أنه سيتكرّر، مع أنّي كنت أتمنى العكس.. هل سينتهي ذلك يوماً؟.

Jacket design by: Gail Doobinin – Jacket photo © Roger Hagadone – Jacket © Hachette Book Group





